يطبع لأول مرة محققاً

إتحاف السادة المتقين

للسيد الإمام

محمد بن محمد بن محمد المرتضى الحسيني الزبيدي

بشرح

إحياء علوم الدين

لحجة الإسلام الإمام

محمد بن محمد بن محمد الطوسي الغزالي

تحقيق

أشرف محمد أحمد

راجعه ودققه

عثمان أيوب البوريني

محمد سميح الشيخ حسين

2024

المجلد الثامن والعشرون وفيه كتب الإخلاص والنية والصدق والمراقبة والمحاسبة والتفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب النية والإخلاص والصدق

وفيه ثلاثة أبواب:

- الباب الأول: في النية
- الباب الثاني: في الإخلاص
- الباب الثالث: في الصدق وفضيلته وحقيقته

٣٧ - كتاب النية والإخلاص والصدق (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلَّم.

الله ناصر كل صابر.

الحمد لله الذي أنسَ بذكره المخلصون، ولهجَ بمحبَّته الصادقون، وفرح بحُسن بلائه الراضون. أحمدُه حمدًا يشرق إشراقَ النجوم، وأستغفرُه ممَّا تراكم علىٰ القلوب من الغموم، وأستهديه لِما يرضيه من اكتساب المعارف والفهوم. وأشهد أن لا إله إلا الله محسِّن الأعمال بالنيَّات، ومزيِّن الأحوال بأشعَّة التجلِّيات، وموِدع الخواطر من حكمه جواهر مضيئات. سبحانه من إله شرع لنا من الدين ما وصَّىٰ به نوحًا، واطَّلَع لنا من أفقه المحيط يوحا، وأفاض علينا من لذيذ شربه غَبُوقًا وصَبُوحًا. وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده الذي اصطفاه، ورسوله الذي اجتباه، وصفيَّه الذي اختاره وحباه، إمام المخلصين، وعصمة أهل اليقين، وتاج هامة المتقين، الذي هدىٰ به السبيل الأقوم، وبيَّن به الطريق الأعدل الأحكم، وشدَّ به عُرَىٰ الدين فاستوثق واستحكم، صلىٰ عليه وعلىٰ آله بحور المعارف وأصحابه كنوز اللطائف صلاةً تستنزل غيثَ الرحمة من سحابه، وتُحِلُّ صاحبَها من الرضوان أوسع رحابة، وسلَّم تسليمًا، وزاده شرفًا وتعظيمًا.

(١) انظر الكلام عن النية والإخلاص والصدق في: قوت القلوب ٣/ ١٣٤٢ - ١٣٧٢. الرسالة القشيرية ص ٣٦٠ - ٣٧٠، وشرحها إحكام الدلالة ٢/ ٦٢٦ - ٦٤٢.

وبعد، فهذا شرح كتاب «النية والإخلاص والصدق»، وهو السابع والثلاثون من كتب الإحياء للإمام الهمام، غوث الأئمَّة الأعلام، قطب العلم والحال والمقام، الملقَّب بين الأنام بحجة الإسلام، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أسكنه الله الفردوس الأعلىٰ، وروىٰ ثَراه من الكوثر الأحلىٰ. رفعتُ عن مخدَّرات عرائس أفكاره حُجُبَ الأستار، وأوضحتُ ما استكنَّ في ضمائر فوائده من الأسرار، حتىٰ ظهر للمريدين سبيله، وصفا للواردين سلسبيله، وراقَ للشاربين زُلالُه، وامتدَّت للائذين ظلالُه. فدونك شرحًا مفيدًا يسدي الخيرَ إليك، ويبيِّن كلَّ ما أشكل عليك، يفتح لك منه باب الفهم، ويخلِّصك من ورطة الوهم، ويرشدك إلىٰ الصواب، ويحصِّل لك جزيلَ الثواب. واللهَ تعالىٰ أسأل العونَ والإمداد، وإياه أرجو التوفيق والسداد، إنه الكافي الكفيل، وهو حسبي ونِعم الوكيل.

قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) إذ «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه بذكره فهو أبتر»، كما ورد بذلك الخبرُ (**نحمد الله حمد الشاكرين**) أشار بالجملة الفعلية إلىٰ تجدُّد الحمد منه للمنعم في كل آنٍ بتجدُّد أنواع نعمه المتواترة في كل شان. والجملة عبارة عن مركَّب من كلمتين أُسنِدت إحداهما إلىٰ الأخرىٰ، سواء أفاد أو لا[١]. وفيما نحن فيه أفادت صدورَ الحمد من الحامدين للمحمود المطلَق علىٰ كل حال. والكلام في حقيقة الحمد والشكر وما بينهما من النِّسَب والإضافات قد تقدم بيانها في صدر شرح كتاب العلم، فلا نعيده (**ونؤمن به إيمانَ الموقنين**) أي إيمانًا موصوفًا باليقين كإيمان مَن اتَّصف به علىٰ التعيين (**ونقرُّ بوحدانيَّته**) مصدر الواحد الذي لا يصح عليه التجزُّؤ والتكثُّر (**إقرارَ الصادقين**) الذي طابق قولُهم الضميرَ والمخبَرَ عنه معًا (**ونشهد أن لا إله إلا الله رب العالمين**) أي[٢] مالكهم وحافظهم ومربِّيهم إلىٰ أن ينتهوا إلىٰ مرتبة

---

(١) هذا التعريف للجملة ذكره الجرجاني في التعريفات ص ٨٢، وزاد: «فتكون الجملة أعم من الكلام مطلقا».

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ١/ ٢٨.

الكمال اللائق بهم. والعالَم كل ما سواه من الجواهر [والأعراض] فإنها لإمكانها وافتقارها إلىٰ مؤثِّر واجب لذاته تدل علىٰ وجوده **(وخالق السموات والأرضين)** أي وما بينهما، والاقتصار في الذكر عليهما اتِّباعٌ لِما في القرآن: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] لأنهما أعظم المحسوسات في المشاهد **(ومكلِّف الجن والإنس والملائكة المقرَّبين)** في بساط حضرته قربًا يليق بهم، كما قال تعالىٰ: ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [المطففين: ١٢] وذلك بحسب مقاماتهم ودرجاتهم، كما قال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] **(أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالىٰ:** ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾**)** [البينة: ٥] لا يشركون به، ولا يشاركون غيرَه في عبادته. والضمير في قوله: «وما أمروا» راجع إلىٰ الكفار من أهل الكتاب والمشركين عبدة الأصنام، أي وما أُمِروا في كتبهم بما فيها إلا الإخلاص في العبادة **(فما لله إلا الدين الخالص المتين)** يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] وإلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٥] أي المستقيمة المتينة **(فإنه أغنىٰ الأغنياء عن شركة المشاركين)** كما جاء ذلك في الحديث القدسي، فقد روىٰ ابن جرير(١) والبزار(٢) من حديث أبي هريرة: «قال الله عَزَّوَجَلَّ: مَن عمل لي عملاً أشرك معي فيه غيري فهو له كله، وأنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك» **(والصلاة)** مع السلام **(علىٰ نبيِّه)** سيدنا **(محمد سيد المرسَلين)** أي رئيسهم ومقدمهم **(وعلىٰ جميع)** إخوانه من **(النبيِّين)** والمرسَلين **(وعلىٰ آله وصحبه الطيِّبين)** في أنفسهم **(الطاهرين)** عن الرذائل والأدناس.

(أما بعد، فقد انكشف لأرباب القلوب) أي أهل الباطن **(ببصيرة الإيمان)** بما قرَّ فيها من نوره **(وأنوار القرآن)** أي بما تجلَّىٰ عليها منها **(أن لا وصول إلىٰ السعادة)** الأبدية التي لا شقاء بعدها **(إلا بالعلم)** الذي هو الأصل الأعظم في كل

---

(١) تهذيب الآثار - السفر الثاني من مسند عمر ص ٧٩٠ - ٧٩١.

(٢) مسند البزار ١٥/ ٧١. والحديث رواه مسلم في صحيحه ٢/ ١٣٦١.

مقام من مقامات الإيمان (**والعبادة**) التي يثمرها الحالُ المنتَج عن العلم (**فالناس كلهم هلكىٰ**) أي هالكون في بحر الضلالة والجهل (**إلا العالِمون**) فبعلمهم يخلِّصون أنفسهم من هلاك الجهل (**والعالِمون كلهم هلكىٰ**) أي هالكون في بحر الحيرة والدهش (**إلا العاملون**) بمقتضَىٰ علومهم (**والعاملون كلهم هلكىٰ**) في بحر العُجب والرياء (**إلا المخلصون**) لله في أعمالهم (**والمخلصون**) مع ذلك (**علىٰ خطر عظيم**) لا يدرون كيف يُختَم لهم، خائفون من خفيِّ مكر الله تعالىٰ. وهذا القول نُسِب إلىٰ سهل التستري رحمه الله تعالىٰ، قال الخطيب في كتاب اقتضاء العلم العمل[1]: أخبرنا الحسن بن محمد الخلاَّل، حدثنا محمد بن عبد الله الشيباني قال: سمعت عبد الكريم بن كامل يقول: سمعت سهل بن عبد الله التستري يقول: الناس كلهم سكارَىٰ إلا العلماء، والعلماء كلهم حيارَىٰ إلا مَن عمل بعلمه. قال: وأخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن فضالة الحافظ، أخبرنا أبو أحمد الغطريفي، حدثنا بكر بن أحمد بن سعدويه قال: قال سهل بن عبد الله رحمه الله: الدنيا جهل وموت إلا العلم، والعلم كله حُجة إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص، والإخلاص علىٰ خطر عظيم حتىٰ يُختَم به (**فالعمل بغير نية**) يصاحبه (**عَناءٌ**) أي تعب (**والنية بغير إخلاص رياءٌ، وهو للنفاق كفاء**) أي مكافئ له وقرين (**ومع العصيان سواء**) أي في مرتبة واحدة (**والإخلاص من غير صدق وتحقيق**) بأن يطابق القولُ الضميرَ والمخبَر عنه معًا (**هباء**) وهو ما يُرَىٰ في ضوء الشمس من الذَّرَّات (**وقد قال الله تعالىٰ في**) شأن (**كل عمل**) صادر من العامل و(**كان بإرادة غير الله مشوبًا مغمورًا**) أي مخلوطًا: (﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٣]) قال البيضاوي[2]: أي وعمدنا إلىٰ ما عملوا في كفرهم من المكارم كقِرَىٰ الضيف وصلة الرحم وإغاثة الملهوف فأحبطناه؛

---

(١) اقتضاء العلم العمل ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ١٢٢.

لفقدِ ما هو شرط اعتباره، وهو تشبيه حالهم وأعمالهم بحال قوم استعصوا علىٰ سلطانهم فقَدِمَ إلىٰ أشيائهم فمزَّقها وأبطلها ولم يُبْقِ لها أثرًا. والهباء: غبار يُرَىٰ في شعاع الشمس يطلع من الكُوَّة، من الهبوة [وهي الغبار] و«منثورًا» صفته، شبَّهَ عملهم المحبَط [بالهباء] في حقارته وعدم نفعه، ثم بالمنثور منه في انتشاره بحيث لا يمكنه نظمه أو تفرُّقه نحو أغراضهم التي كانوا يتوجَّهون به نحوها، أو مفعول ثالث من حيث إنه كالخبر بعد الخبر، كقوله: ﴿كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ۝٦٥﴾ [البقرة: ٦٥، الأعراف: ١٦٦] **(وليت شِعري كيف يصحِّح نيتَه مَن لا يعرف حقيقة النية، أو كيف يخلص)** أي يصير مخلصًا **(مَن صحَّح النيةَ إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص، أو كيف يطالب المخلص نفسَه بالصدق إذا لم يتحقَّق معناه، فالوظيفة الأولىٰ علىٰ كل عبد أراد طاعة الله تعالىٰ أن يتعلَّم النية أولاً لتحصل المعرفةُ، ثم يصحِّحها بالعمل بعد فهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذينِ هما وسيلتا العبد إلىٰ النجاة والخلاص، ونحن نذكر معاني النية والصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب، الباب الأول: في)** بيان **(حقيقة النية ومعناها. الباب الثاني: في)** بيان **(الإخلاص وحقائقه. الباب الثالث: في)** بيان **(الصدق وحقيقته.**

الباب الأول:

في النيـة

وفيه بيان فضيلة النية) من الكتاب والسنَّة (وبيان حقيقة النية، وبيان كون النية خيرًا من العمل، وبيان تفضيل[1] الأعمال المتعلقة بالنفس[2]، وبيان خروج النية عن الاختيار.

بيـان فضيـلة النيـــة

قال الله تعالىٰ) مخاطبًا لنبيِّه ﷺ ومعاتبًا له: (﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾) أي[3] في مَجامِع أوقاتهم، أو في طرفَي الليل والنهار (﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾) [الأنعام: ٥٢] أي رضاه وطاعته.

قال الطبراني[4]: حدثنا علي بن عبد العزيز، حدثنا أبو حذيفة، حدثنا سفيان الثوري، عن المقدام بن شريح، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلىٰ النبي ﷺ

(١) كذا في الجميع، وكأن الصواب: تفصيل بالصاد، كما سيأتي في كلام الغزالي.

(٢) في أ، وط المنهاج ٩/ ١١: بالنية. وهو الصواب لكلام الغزالي الآتي، وعدم كلام الزبيدي علىٰ هذا الخلف. والله أعلم.

(٣) السابق ٣/ ٢٧٩.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٢٤٥ من طريقه.

ندنو إليه، فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا؟ فكأنَّ النبي ﷺ همَّ بشيء، فنزلت ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

وقال صاحب الحلية[1]: أنا أبو أحمد محمد بن أحمد، حدثنا عبد الله بن شيرويه، حدثنا إسحاق بن راهويه، حدثنا عبيد الله بن موسىٰ، حدثنا إسرائيل، عن المقدام بن شريح الحارثي، عن أبيه، عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر، فقال المشركون: اطردْ هؤلاء عنك فإنهم وإنهم. قال: فكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان نسيت اسميهما. قال: فوقع في نفس النبي ﷺ من ذلك ما شاء الله فحدَّث به نفسه، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية.

(**والمراد بتلك الإرادة هي النية**) أي ينوون بدعائهم وجهَ الله تعالىٰ وحده.

(**وقال ﷺ: إنما الأعمال بالنيَّات، وإنما لكل امرئ ما نوىٰ، فمَن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه**) أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل الحَسَني قال: أخبرنا عبد الله بن سالم، أخبرنا محمد بن العلاء الحافظ، أخبرنا علي بن يحيىٰ، أخبرنا يوسف بن عبد الله الحَسَني، ثنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ، أخبرنا أحمد بن علي الحافظ، أخبرنا عبد الرحيم بن الحسين الحافظ، أخبرنا محمد بن محمد بن إبراهيم، أخبرنا عبد اللطيف بن عبد المنعم، أخبرنا عبد الوهاب بن علي وعبد الرحمن بن أحمد العُمَري والمبارك بن معطوش قالوا: أخبرنا هبة الله بن محمد، أخبرنا محمد بن محمد بن إبراهيم البزاز، أخبرنا محمد بن عبد الله الشافعي، أخبرنا عبد الله بن روح المدائني ومحمد ابن رمح البزاز قالا: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا يحيىٰ بن سعيد الأنصاري،

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٤٦. والحديث رواه مسلم في صحيحه ٢/ ١١٣٣ - ١١٣٤.

عن محمد بن إبراهيم التيمي أنه سمع علقمة بن وقاص الليثي يقول: سمعت عمر بن الخطاب علىٰ المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول ... فذكره. أخرجه[١] الأئمَّة الستة[٢]، فأخرجه مسلم عن محمد بن عبد الله بن نمير، وابن ماجه عن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن يزيد بن هارون. فوقع بدلاً لهما عاليًا بدرجتين، واتفق عليه الشيخان من رواية مالك وحماد بن زيد وابن عيينة وعبد الوهاب الثقفي، وأخرجه البخاري وأبو داود من رواية الثوري، ومسلم من طريق الليث وابن المبارك وأبي خالد الأحمر وحفص بن غياث، والترمذي من رواية عبد الوهاب الثقفي، والنسائي من طريق مالك وحماد بن زيد وابن المبارك وأبي خالد الأحمر، وابن ماجه أيضًا من رواية الليث، عشرتهم عن يحيىٰ ابن سعيد الأنصاري. أورده البخاري في سبعة مواضع من صحيحه: في بدء الوحي والإيمان والنكاح والهجرة وتركِ الحِيَل والعتق والنذور، ومسلم في الجهاد، وأبو داود في الطلاق [والترمذي في الجهاد] والنسائي في الإيمان، وابن ماجه في الزهد. وهذا الحديث من أفراد الصحيح، لم يصحَّ عن النبي ﷺ إلا من حديث عمر، ولا عن عمر إلا من رواية علقمة، ولا عن علقمة إلا من رواية محمد بن إبراهيم التيمي، ولا عن التيمي إلا من رواية يحيىٰ بن سعيد الأنصاري. قال أبو بكر البزَّار في مسنده[٣]: لا نعلم يُروَىٰ هذا الكلام إلا عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ بهذا الإسناد. وقال الخطابي[٤]: لا أعلم خلافًا بين أهل الحديث في أنه لم يصحَّ مسنَدًا عن النبي ﷺ إلا من رواية عمر. ا.هـ. هذا هو المشهور، وقد رُوي من طرق

---

(١) طرح التثريب للعراقي ٢/ ٣ - ٨.

(٢) صحيح البخاري ١/ ١٣، ٣٥، ٢/ ٢١٦، ٣/ ٦٧، ٣٥٦، ٤/ ٢٢٧، ٢٨٨. صحيح مسلم ٢/ ٩٢٠. سنن أبي داود ٣/ ٧٦. سنن الترمذي ٣/ ٢٨٢. سنن النسائي ص ٢٠، ٥٣٢، ٥٨٦. سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٦.

(٣) مسند البزار ١/ ٣٨٠ - ٣٨٢.

(٤) أعلام الحديث ١/ ١١٠.

أخرىٰ غير طريق عمر، وفي كلٍّ منها مقال، منها من طريق أبي سعيد الخدري، رواه الدارقطني وابن عساكر كلاهما في غرائب مالك والخطابي في معالم السنن من رواية عبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رَوَّاد عن مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد[١]. وهو غلط من ابن أبي رَوَّاد؛ قاله الدارقطني. ومنها من طريق أبي هريرة، رواه الرشيد العطَّار في بعض تخاريجه، وهو وهمٌ أيضًا. ومنها من طريق أنس، رواه ابن عساكر[٢] من رواية يحيىٰ بن سعيد عن محمد بن إبراهيم عن أنس، وقال: هذا حديث غريب جدًّا، والمحفوظ حديث عمر. ا.هـ. والمحفوظ من حديث أنس ما رواه البيهقي[٣] من رواية عبد الله بن المثنَّىٰ الأنصاري قال: حدثني بعض أهل بيتي عن أنس .. فذكر حديثًا فيه «إنه لا عمل لمَن لا نية له ...» الحديث. ومنها من طريق عليٍّ، رواه محمد بن ياسر الجياني في نسخة من طريق أهل البيت إسنادها ضعيف. وأما مَن تابع علقمةَ عليه فذكر أبو أحمد الحاكم أن موسىٰ بن عقبة رواه عن نافع وعلقمة. وأما مَن تابع يحيىٰ بن سعيد عليه فقد رواه الحاكم في تاريخ نيسابور من رواية عبد ربِّه بن سعيد عن محمد بن إبراهيم، أورده في ترجمة أحمد بن نصر بن زياد وقال: إنه غلط فيه، وإنما هو عن يحيىٰ بن سعيد، لا عبد ربِّه بن سعيد. وذكر الدارقطني[٤] أنه رواه حجاج بن أرطأة عن محمد بن إبراهيم، وأنه رواه سهل بن صقير عن الدراوردي، وابن عيينة وأنس بن عياض عن محمد ابن عمرو بن علقمة عن محمد بن إبراهيم. ووهمَ سهلٌ علىٰ هؤلاء الثلاثة [وإنما رواه هؤلاء الثلاثة] وغيرهم عن يحيىٰ بن سعيد. وقال النووي[٥]:

---

(١) ورواه من هذا الطريق أيضا: أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٤٢، والسلفي في الطيوريات ٣/ ٩٧٧، والقضاعي في مسند الشهاب ٢/ ١٩٦، والخليلي في الإرشاد ص ٢٣٣.

(٢) تاريخ دمشق ٧/ ٢١٩.

(٣) السنن الكبرىٰ ١/ ٦٧.

(٤) العلل ٢/ ١٩١ - ١٩٤.

(٥) شرح صحيح مسلم ١٣/ ٧٩ - ٨٢.

هو حديث مشهور بالنسبة إلىٰ آخره، غريب بالنسبة إلىٰ أوله. قال: وليس متواترًا؛ لفقد شرط التواتر في أوله، رواه عن يحيىٰ بن سعيد أكثرُ من مائتي إنسان أكثرهم أئمة. ثم إن هذا الحديث قاعدة من قواعد الإسلام، حتىٰ قيل فيه: إنه ثلث العلم، وقيل: ربعه، وقيل: خمسه. وكونه ثلث العلم رُوي عن الشافعي وأحمد، وكونه ربعه رُوي عن أبي داود، ورُوي عنه أيضًا كونه خمسه. قال ابن دقيق العيد[1]: لا بد من حذف المضاف، واختلف الفقهاء في تقديره، فالذين اشترطوا النيةَ قدَّروا: صحة الأعمال بالنيات، أو ما يقاربه، والذين لم يشترطوها قدَّروا: كمال الأعمال بالنيات، أو ما يقاربه. وقد رُجِّح الأول بأن الصحة أكثر لزومًا للحقيقة من الكمال، فالحمل عليها أَولىٰ. قال: وقد يقدِّرونه: إنما اعتبار الأعمال بالنيات. وقال قاضي القضاة الحنفية شمس الدين السروجي في شرح الهداية: إن التقدير: ثوابها لا صحتها؛ لأنه الذي يطَّرد، فإن كثيرًا من الأعمال يوجد ويعتبَر شرعًا بدونها، ولأن إضمار الثواب متفق علىٰ إرادته؛ لأنه يلزم من انتفاء الصحة انتفاءُ الثواب دون العكس، فكان ما ذهبنا إليه أقل إضمارًا فهو أَولىٰ، ولأن إضمار الجواز والصحة يؤدي إلىٰ نسخ الكتاب بخبر الواحد، وهو ممتنع، ولأن العامل في قوله «بالنية» مقدَّر بإجماع النحاة، ولا يجوز أن يتعلق بالأعمال؛ لأنها رفع بالابتداء، فيبقىٰ بلا خبر، فلا يجوز، فالمقدَّر إما: مجزئة أو صحيحة أو مثيبة، و«مثيبة» أَولىٰ بالتقدير لوجهين، أحدهما: أن عند عدم النية لا يبطُل أصلُ العمل، وعلىٰ إضمار الصحة والإجزاء يبطُل، فلا يبطُل بالشك. الثاني: أن قوله «ولكل امرئ ما نوىٰ» يدل علىٰ الثواب والأجر؛ لأن الذي له إنما هو الثواب، وأما العمل فعليه. انتهىٰ. وهذا قد رده الزين العراقي في شرح التقريب وقال: فيه نظرٌ من وجوه:

أحدها: أنه لا حاجة إلىٰ إضمار محذوف من الصحة أو الكمال أو الثواب؛ إذ الإضمار خلاف الأصل، وإنما المراد حقيقة العمل الشرعي، فلا يُحتاج حينئذٍ

(١) إحكام الأحكام ١/ ١٠ - ١١.

إلىٰ إضمار. وأيضًا، فلا بد من إضمار شيء يتعلق به الجارُّ والمجرور، فلا حاجة لإضمار مضاف؛ لأن تقليل الإضمار أولىٰ، فيكون التقدير: إنما الأعمال وجودُها بالنية، ويكون المراد الأعمال الشرعية.

والثاني: أن قوله «إن تقدير الثواب أقل إضمارًا لأنه يلزم من انتفاء الصحة انتفاءُ الثواب دون العكس» فلا نسلِّم أن فيه تقليل الإضمار؛ لأن المحذوف واحد، ولا يلزم من تقدير الصحة تقديرُ ما يترتَّب علىٰ نفيها من نفي الثواب ووجوب الإعادة وغير ذلك، فلا يُحتاج إلىٰ أن يقدَّر: إنما صحة الأعمال والثواب وسقوط القضاء مثلاً بالنية، بل المقدَّر واحد، وإن ترتَّب علىٰ ذلك الواحد شيءٌ آخَر فلا يلزم تقديرُه.

والثالث: أن قوله «إن تقدير الصحة يؤدِّي إلىٰ نسخ الكتاب بخبر الواحد» فإن أراد به أن الكتاب دالٌّ علىٰ صحة العمل بغير نية لكون النية لم تُذكَر في الكتاب فهذا ليس بنسخ. وأيضًا، فالثواب مذكور في الكتاب علىٰ العمل، ولم تُذكَر النية، علىٰ أن الكتاب ذُكرت فيه نية العمل في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فهذا القصد هو النية، ولو سُلِّم له أن فيه نسخ الكتاب بخبر الواحد فلا مانع من ذلك عند أكثر أهل الأصول.

والرابع: أن قوله «إن تقدير الصحة يُبطِل العملَ ولا يبطُل بالشك» ليس بجيد، بل إذا تيقَّنَّا شغل الذمةِ بوجوب العمل لم نسقطه بالشك، ولا تبرأ الذمةُ إلا بيقين، فحملُه علىٰ الصحة أَولىٰ؛ لتيقُّن البراءة به.

والخامس: أن قوله «إن الذي له إنما هو الثواب وأما العمل فعليه»، والأحسن في التقدير أن لا يقدَّر حذف مضاف، فإنه لا حاجة إليه، ولكن يقدَّر شيء يتعلق به الجارُّ والمجرور، فإنه لا بد من تقديره، كما تقدم، فتقديره: إنما الأعمال وجودُها بالنية، ونفيُ الحقيقة أَولىٰ، والمراد نفيُ العمل الشرعي، وإن وُجِدت صورة الفعل

في الظاهر فليس بشرعي عند عدم النية. والله أعلم.

(وقال ﷺ: **أكثر شهداء أمَّتي أصحاب الفُرش**) أي الذين يموتون على فُرشهم ولهم نية جميلة في طلب الشهادة (**ورُب قتيل بين الصفَّين الله أعلم بنيَّته**) قال العراقي[١]: رواه أحمد[٢] من حديث ابن مسعود، وفيه عبد الله بن لهيعة.

قلت: ورواه كذلك الحكيم في النوادر[٣]، ولفظهما: «إن أكثر شهداء أمَّتي لأصحابُ الفُرش ...» والباقي سواء.

(**وقال**) الله (**تعالىٰ**: ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ﴾ [النساء: ٣٥] **فجعل النية سبب التوفيق**) ولفظ القوت: فجعل سبب التوفيق إرادة الإصلاح، فذلك هو أول التوفيق من الموفِّق المصلح للعامل الصالح.

(وقال ﷺ: **إن الله تعالىٰ لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم، وإنما ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم**) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه من حديث أبي هريرة، ولفظهم: «ولكن إنما ينظر ...»، والباقي سواء. ورواه كذلك أبو بكر الشافعي في الغيلانيات، وابن عساكر من حديث أبي أمامة. ورواه هنَّاد في الزهد عن الحسن مرسلاً. ورواه الحكيم عن يحيىٰ بن أبي كثير مرسلاً بلفظ: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم ولا إلىٰ أموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم، فمَن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه». ورواه الطبراني من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ: «إن الله لا ينظر إلىٰ أجسامكم ولا إلىٰ أحسابكم ولا إلىٰ أموالكم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم [وأعمالكم] فمَن كان له قلب صالح تحنَّن الله عليه، وإنما أنتم بنو آدم، وأحبُّكم إليَّ أتقاكم». وقد تقدم[٤].

---

(١) المغني ٢/ ١١٦٧.

(٢) مسند أحمد ٦/ ٣١٤.

(٣) نوادر الأصول ص ١٢٨٥.

(٤) في كتاب ذم الجاه والرياء، وفي كتاب ذم الغرور.

(وإنما نظر إلىٰ القلوب لأنها مَظِنَّة النية.

وقال ﷺ: إن العبد لَيعملُ أعمالاً حسنة، فتصعد بها الملائكة في صحف مختَّمة، فتُلقَىٰ بين يدي الله تعالىٰ، فيقول) لهم: (ألقوا هذه الصحيفة، فإنه لم يُرِدْ بما فيها وجهي. ثم ينادي الملائكةَ: اكتبوا له كذا وكذا، اكتبوا له كذا وكذا. فيقولون: يا ربنا، إنه لم يعمل شيئًا من ذلك. فيقول الله تعالىٰ: إنه نواه) كذا في القوت. قال العراقي[1]: رواه الدارقطني من حديث أنس بإسناد حسن.

قلت: وهو في كتاب الإخلاص لابن أبي الدنيا[2] من طريق أبي عمران الجوني قال: بلغنا أن الملائكة تصفُّ بكتبها في السماء الدنيا في كل عشيَّة بعد العصر، فينادَىٰ الملَك [ألْقِ تلك الصحيفةَ. فيقولون: ربنا، قالوا خيرًا وحفظنا عليهم. فيقول: إنهم لم يريدوا به وجهي، وإني لا أقبل إلا ما أريدَ به وجهي. وينادَىٰ الملك الآخَر]: اكتب لفلان ابن فلان كذا وكذا. فيقول: يا رب، إنه لم يعمله. فيقول: إنه نواه، إنه نواه.

(وقال ﷺ: الناس أربعة: رجل آتاه الله عَزَّوَجَلَّ علمًا ومالاً، فهو يعمل بعلمه في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملتُ كما يعمل. فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤتِه علمًا، فهو يتخبَّط بجهله في ماله، فيقول رجل: لو آتاني الله مثل ما آتاه عملتُ كما يعمل. فهما في الوِزْر سواء) كذا في القوت. قال العراقي[3]: رواه ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنماري بسند جيد بلفظ: «مَثل هذه الأمَّة كمثل أربعة نفر ...» الحديث، وقد تقدم[4]. ورواه الترمذي بزيادة في

(١) المغني ٢/ ١١٦٧.

(٢) ومن طريقه رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٨/ ٢٦٨. ورواه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣١٣.

(٣) المغني ٢/ ١١٦٧ - ١١٦٨.

(٤) في كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

أوله، وفيه: «إنما الدنيا لأربعة نفر»، وقال: حسن صحيح.

قلت: لفظ ابن ماجه: «مَثَلُ هذه الأمَّة كمثل أربعة نفر: رجل آتاه الله مالاً [وعلمًا] فهو يعمل بعلمه في ماله ينفقه في حقِّه، ورجل آتاه الله علمًا ولم يؤتِه مالاً، وهو يقول: لو كان لي مثل مال هذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل. فهما في الأجر سواء. ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤتِه علمًا، فهو يتخبَّط في ماله ينفقه في غير حقِّه. ورجل لم يؤتِه الله علمًا ولا مالاً، وهو يقول: لو كان لي مال مثل هذا عملتُ فيه مثل الذي يعمل. فهما في الوِزر سواء». وهكذا رواه أيضًا أحمد وهنَّاد والطبراني والبيهقي.

(ألا ترىٰ كيف شركه بالنية في محاسن عمله ومساوئه) ولفظ القوت: ألا ترىٰ كيف شركه بحُسن النية في محاسن عمله، وشركه الآخرُ بسيِّئ النية في مساوئ عمله **(وكذلك في حديث أنس بن مالك)** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(لمَّا خرج رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال: إن بالمدينة أقوامًا ما قطعنا واديًا ولا وطئنا موطئًا يغيظ الكفارَ ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مَخمصةٌ إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: حبسهم العذرُ فشركونا بحسن النية)** كذا في القوت. قال العراقي[1]: رواه البخاري مختصرًا وأبو داود.

قلت: رواه البخاري[2] مختصرًا بلفظ: «إن أقوامًا بالمدينة خلفنا ما سلكنا شِعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذرُ». وأما لفظ أبي داود[3]: «إن بالمدينة أقوامًا ما سِرتم مسيرًا ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم فيه». قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة،

(١) المغني ٢/ ١١٦٨.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٣١٦، ٣/ ١٨٠.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢١٦.

حبسهم العذرُ». ورواه كذلك أحمد[1] وابن أبي شيبة[2] وعبد بن حميد[3] وابن ماجه[4] وأبو عوانة[5] وابن حبان[6]، كلهم من حديث أنس. ورواه أيضًا عبد بن حميد[7] ومسلم[8] وابن ماجه[9] من حديث جابر بلفظ: «إن بالمدينة رجالاً ما قطعتم واديًا ولا سلكتم طريقًا إلا شركوكم في الأجر، حبسهم العذر».

وقوله «فشركونا بحُسن النية» هكذا هو في القوت، وفي بعض نسخ الكتاب: فشركوا بحسن النية. وهذا يُشعِر بأنه ليس من بقية الحديث بل هو من عند المصنِّف.

(وفي حديث ابن مسعود) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(مَن هاجر ليبتغي شيئًا فهو له، فهاجر رجل فتزوج امرأة منا، فكان يسمَّىٰ: مهاجر أم قيس)** كذا في القوت. قال العراقي[10]: رواه الطبراني[11] بإسناد جيد.

قلت: وقال في شرح التقريب[12]: ما اشتهر بين الشرَّاح لهذا الحديث أن سببه قصة مهاجر أم قيس رواه الطبراني في المعجم الكبير بإسناد رجاله ثقات من رواية الأعمش عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: كان فينا رجل خطب امرأة يقال

(١) مسند أحمد ١٩/ ٦٧، ٢٠/ ٧٧، ٢٣٨، ٤٤٨.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٨٧.
(٣) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ٣٢٣.
(٤) سنن ابن ماجه ٤/ ٣١٤.
(٥) المستخرج علىٰ صحيح مسلم ٤/ ٤٩٢.
(٦) صحيح ابن حبان ١١/ ٣٣.
(٧) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٤٠، ١٥٣.
(٨) صحيح مسلم ٢/ ٩٢١.
(٩) سنن ابن ماجه ٤/ ٣١٥.
(١٠) المغني ٢/ ١١٦٨.
(١١) المعجم الكبير ٩/ ١٠٦.
(١٢) طرح التثريب ٢/ ٢٥ - ٢٦.

لها أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتىٰ يهاجر، فهاجر فتزوجها، فكنا نسمِّيه: مهاجر أم قيس. ثم قال: ولم يسمِّ أحد ممَّن صنَّف في الصحابة هذا الرجل الذي ذكروا أنه كان يسمَّىٰ مهاجر أم قيس فيما رأيته من التصانيف، وأما أم قيس المذكورة فقد ذكر أبو الخطَّاب ابن دِحية أن اسمها: قيلة، فالله أعلم.

قلت: وقال الحافظ في ترجمة أم قيس من الإصابة[١] ما لفظه: غير منسوبة، أخرج ابن منده وأبو نعيم[٢] من طريق إسماعيل بن عصام بن يزيد قال: وجدت في كتاب جدِّي يزيد الذي يقال له حبر: حدثنا سفيان، عن الأعمش، عن أبي وائل، عن ابن مسعود قال: كان فينا رجل خطب امرأة يقال لها أم قيس، فأبت أن تتزوجه حتىٰ يهاجر، فهاجر فتزوجها، فكنا نسمِّيه: مهاجر أم قيس. قال ابن مسعود: مَن هاجر لشيء فهو له. قال أبو نعيم: تابعه عبد الملك الذِّماري عن سفيان.

ثم ذكر أم قيس الهذلية وقال: قال أبو موسىٰ: أوردها جعفر ولم يخرج لها شيئًا. قال الحافظ: أخشىٰ أن تكون هي التي قبلها، فإن ابن مسعود يقول في مهاجر أم قيس: رجل منا. وابن مسعود هذلي، فالرجل هذلي، فكأنَّ أم قيس المخطوبة أيضًا هذلية.

(وكذلك جاء في الخبر: أن رجلاً قُتل في سبيل الله، وكان يُدعَىٰ: قتيل الحمار؛ لأنه قاتل رجلاً ليأخذ سلبه وحماره، فقُتل علىٰ ذلك فأضيفَ إلىٰ نيَّته) كذا في القوت. وقال العراقي[٣]: لم أجد له أصلاً في الموصولات، وإنما رواه أبو إسحاق الفزاري في السِّيَر من وجه مرسَل.

(وفي حديث عُبادة) بن الصامت رضي الله عنه **(عن النبي ﷺ قال: مَن غزا)** في سبيل الله **(وهو لا ينوي إلا عقالاً فله ما نوىٰ)** رواه أحمد والدارمي والنسائي

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ١٣/ ٢٧٠.

(٢) معرفة الصحابة ٦/ ٣٥٤٧.

(٣) المغني ٢/ ١١٦٨.

والروياني وابن حبان والطبراني والحاكم والبيهقي والضياء. وقد تقدم غير مرة[١].

(**وقال أبيٌّ**) بن كعب رضي الله عنه: (**استعنت رجلاً يغزو معي، فقال: لا حتىٰ تجعل لي جعلاً. فجعلت له، فذكرتُ ذلك للنبي ﷺ، فقال: ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلتَ له**) كذا في القوت. قال العراقي[٢]: رواه الطبراني في مسند الشاميين. ولأبي داود[٣] بإسناد جيد من حديث يعلىٰ بن أميَّة أنه استأجر أجيرًا للغزو، وسمَّىٰ له ثلاثة دنانير، فقال له النبي ﷺ: «ما أجد له في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنانيره التي سمَّىٰ».

قلت: وحديث يعلىٰ أخرجه كذلك الحاكم[٤].

ورواه الطبراني في الكبير[٥] من حديث عوف بن مالك.

(**ورُوي في الإسرائيليات: أن رجلاً مرَّ بكثبان من رمل في مجاعة**) أي زمن قحط أصاب الناسَ فيه الجوعُ (**فقال في نفسه: لو كان هذا الرمل طعامًا لقسمتُه بين الناس**) قال: (**فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ نبيِّهم**) في ذلك الزمان (**أنْ قل له: إن الله تعالىٰ قد قبل صدقتَك، وقد شكر حسن نيَّتك، وأعطاك ثواب ما لو كان طعامًا فتصدَّقتَ به**) نقله صاحب القوت. وهو في كتاب الإخلاص لابن أبي الدنيا من طريق إسماعيل بن أبي خالد قال: أصابت بني إسرائيل مجاعةٌ، فمر رجل علىٰ رمل فقال: وددت هذا الرمل يكون دقيقًا لي حتىٰ أطعمه بني إسرائيل. فأعطاه الله علىٰ نيَّته[٦].

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب ذم الجاه والرياء.

(٢) المغني ٢/ ١١٦٩.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢٢٦.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٣٥.

(٥) المعجم الكبير ١٨/ ٧٩.

(٦) ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٧٩.

(وقد ورد في أخبار كثيرة: مَن همَّ بحسنة ولم يعملها كُتبت له حسنة) رواه أحمد[١] من حديث أبي هريرة بزيادة: «فإن عملها كُتبت له بعشر أمثالها إلى سبعمائة وسبع أمثالها [فإن لم يعملها كُتبت له حسنة] ومَن همَّ بسيئة لم تُكتَب عليه، فإن لم يعملها كُتبت له حسنة، فإن عملها كُتبت عليه سيئة واحدة». وقال العراقي متفق عليه[٢]، وقد تقدم

(وفي حديث عبد الله بن عمرو) ابن العاص ﷺ: **(مَن كانت الدنيا نيَّته جعل الله فقره بين عينيه، وفارقها أرغب ما يكون فيها. ومَن تكن الآخرة نيَّته جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه ضيعته، وفارقها أزهد ما يكون فيها)** كذا في القوت. قال العراقي[٣]: رواه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد دون قوله «وفارقها أرغب ما يكون فيها»، ودون قوله «وفارقها أزهد ما يكون فيها»، وفيه زيادة، ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو.

قلت: حديث زيد بن ثابت هذا جاء بألفاظ مختلفة، منها عند ابن عساكر[٤] بلفظ: «مَن تكن الدنيا نيَّته جعل الله فقره بين عينيه، وشتَّت الله عليه ضيعتَه، ولا يأتيه منها إلا ما كُتب له. ومَن تكن الآخرة نيَّته يجعل الله غِناه في قلبه، ويكفُّ عليه ضيعتَه، وتأتيه الدنيا وهي راغمة». وعند الطيالسي[٥] وابن ماجه[٦] والطبراني[٧] بلفظ: «مَن كانت نيَّته الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا راغمة، ومَن كانت نيَّته الدنيا فرَّق الله عليه أمره، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأتِه

---

(١) مسند أحمد ١٢/ ١٢٣، ١٥/ ١٨٨.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٠، ٤/ ٤٠٣. صحيح مسلم ١/ ٧٠.

(٣) المغني ٢/ ١١٦٩.

(٤) تاريخ دمشق ٤٣/ ٥٤٥.

(٥) مسند الطيالسي ١/ ٥٠٤.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٥٥.

(٧) المعجم الكبير ٥/ ١٤٣، ١٥٤ - ١٥٥.

من الدنيا إلا ما كتب الله له».

وقد رُوي هذا أيضًا من حديث أنس بلفظ: «مَن كانت نيَّته طلب الدنيا شتَّت الله عليه أمره، وجعل الفقر بين عينيه، ولم يأتِه منها إلا ما كُتب له. ومَن كانت نيَّته طلب الآخرة جمع الله عليه شمله، وجعل غِناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة». هكذا رواه ابن أبي عاصم في الزهد[١]. وعند هنَّاد[٢] والترمذي[٣] بلفظ: «مَن كانت الآخرة همه جعل الله غِناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومَن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرَّق عليه شمله، ولم يأتِه من الدنيا إلا ما قُدِّر له». وهذا اللفظ قد رواه أيضًا الطبراني في الكبير[٤] من حديث ابن عباس. ولم أرَ ذلك من حديث عبد الله بن عمرو في شيء من الكتب، والذي يظهر لي أنه تصحَّف علىٰ النسَّاخين في كتاب القوت وتبعه المصنفُ، ويكون المراد عبد الله بن عمر، لا عبد الله بن عمرو، فقد روىٰ الحاكم[٥] من حديث ابن عمر ما يقرُب سياقُه ممَّا تقدم، وهو: «مَن جعل الهموم همًّا واحدًا كفاه الله ما أهمَّه من أمر الدنيا والآخرة، ومَن تشاعبت به الهمومُ لم يبالِ الله في أيِّ أودية الدنيا هلك». والله أعلم.

(وفي حديث أم سلمة) ﵂ **(أن النبي ﷺ ذكر جيشًا يُخسَف بهم بالبيداء)**: الصحراء بين مكة والمدينة **(فقلت: يا رسول الله، يكون فيهم المُكرَه والأجير. فقال: يُحشَرون علىٰ نيَّاتهم)** كذا في القوت. قال العراقي[٦]: رواه مسلم[٧] وأبو

---

(١) الزهد ص ٨٠.

(٢) الزهد ٢/ ٣٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٥٢.

(٤) المعجم الكبير ١١/ ٢٦٦.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٢١، ٤/ ٤٧٤.

(٦) المغني ٢/ ١١٦٩.

(٧) صحيح مسلم ٢/ ١٣١٧.

داود[١]، وقد تقدم.

قلت: ورواه ابن أبي شيبة[٢] والطبراني[٣] والحاكم[٤] بلفظ: «يبايَع لرجل من أمَّتي بين الركن والمقام ...» الحديث، وفيه: «فيأتيهم جيش من الشام، حتىٰ إذا كانوا بالبيداء خُسف بهم ...» الحديث.

(وقال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنما يقتتل المقتتلون علىٰ النيَّات) كذا في القوت. قال العراقي[٥]: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية [من حديث عمر] بإسناد ضعيف بلفظ «إنما يُبعَث». ورويناه في فوائد تمام[٦] بلفظ: «إنما يُبعَث المسلمون علىٰ النيات». ولابن ماجه[٧] من حديث أبي هريرة: «إنما يُبعَث الناس علىٰ نيَّاتهم». وفيه ليث بن أبي سليم، مختلَف فيه.

قلت: ورواه ابن عساكر[٨] أيضًا بلفظ: «إنما يُبعَث المقتتلون علىٰ النيات». ورواه أحمد[٩] من حديث أبي هريرة بلفظ: «يُبعَث الناس علىٰ نيَّاتهم». بدون «إنما».

(وقال ﷺ: إذا التقىٰ الصفَّان نزلت الملائكة تكتب الخلق علىٰ مراتبهم: فلان يقاتل للدنيا، فلان يقاتل حمية، فلان يقاتل عصبية. ألا فلا تقولوا: فلان قُتل في سبيل الله، فمَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) كذا في القوت. قال

---

(١) سنن أبي داود ٥/ ٣٢ - ٣٣.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٢٥٧ - ٢٥٨.

(٣) المعجم الكبير ٢٣/ ٢٩٦، ٣٢٢، ٣٩٠، ٤٠٩.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٥٩٣، ٥٩٥.

(٥) المغني ٢/ ١١٦٩ - ١١٧٠.

(٦) فوائد تمام ٥/ ١٧٢.

(٧) سنن ابن ماجه ٥/ ٦٢٨.

(٨) تاريخ دمشق ١٧/ ٣٨٥.

(٩) مسند أحمد ١٥/ ٤٤.

العراقي[١]: رواه ابن المبارك في الزهد[٢] موقوفًا علىٰ ابن مسعود، وآخر الحديث مرفوع، ففي الصحيحين[٣] من حديث أبي موسىٰ: «مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله».

قلت: وحديث أبي موسىٰ رواه كذلك أحمد[٤] والأربعة أصحاب السنن[٥].

وروىٰ الطبراني[٦] والحاكم[٧] من حديث فضالة بن عبيد: «مَن مات علىٰ مرتبة من هذه المراتب بُعث عليها يوم القيامة، رباط أو حج أو غير ذلك».

(وعن جابر) بن عبد الله الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **(عن رسول الله ﷺ أنه قال: يُبعَث كل عبد علىٰ ما مات عليه)** قال العراقي[٨]: رواه مسلم.

قلت: ورواه كذلك عبد بن حميد وابن ماجه وابن حبان والحاكم. ورواه أيضًا الطبراني والبغوي والحاكم في الكنىٰ من حديث زيد بن حارثة. ورواه الدارقطني في الأفراد من حديث ابن عمر. وعند ابن حبان في حديث جابر زيادة: «المؤمن علىٰ إيمانه، والمنافق علىٰ نفاقه»[٩].

(وفي حديث الأحنف) بن قيس التميمي، له رواية **(عن أبي بكرة)** نُفَيع بن

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٠.

(٢) الزهد والرقائق ص ٨٢، ولفظه: «إذا التقىٰ الزحفان نزلت الملائكة فكتبت الناس علىٰ منازلهم: فلان يقاتل للدنيا، وفلان يقاتل للملك، وفلان يقاتل للذكر، ونحو هذا، وفلان يقاتل يريد وجه الله، فمن قتل يريد وجه الله فذلك في الجنة».

(٣) صحيح البخاري ١/ ٦١، ٢/ ٣٠٩، ٣٩٥، ٤/ ٣٩٦. صحيح مسلم ٢/ ٩١٩.

(٤) مسند أحمد ٣٢/ ٢٤٣، ٣١٤، ٣٦٨، ٤٠٤، ٥١٧.

(٥) سنن أبي داود ٣/ ٢٢١. سنن الترمذي ٣/ ٢٨٢. سنن النسائي ص ٤٨٣. سنن ابن ماجه ٤/ ٣٢٨.

(٦) المعجم الكبير ١٨/ ٣٠٥.

(٧) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٧١.

(٨) المغني ٢/ ١١٧٠.

(٩) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب المحبة والأنس.

الحارث الثقفي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (**إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار. قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: لأنه أراد قتل صاحبه**) رواه الشيخان[١] وأبو داود[٢] والنسائي[٣] بلفظ: «إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار». قيل: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه». ورواه ابن ماجه[٤] والطبراني من حديث أبي موسىٰ. وفي لفظ لابن ماجه[٥] من حديث أبي بكرة: «إذا التقىٰ المسلمان حمل أحدُهما علىٰ أخيه السلاح فهما علىٰ حرف جهنم، فإذا قتل أحدهما صاحبه دخلاها جميعًا». وقد رواه كذلك أحمد[٦] وابن ماجه وابن أبي شيبة[٧] ومسلم.

اعلمْ أن البخاري روىٰ هذا الحديث في عدَّة مواضع من صحيحه، ففي الإيمان: حدثنا عبد الرحمن بن المبارك، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا أيوب ويونس، عن الحسن، عن الأحنف قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد؟ قلت: أنصر هذا الرجل. قال: ارجعْ، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقىٰ المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: «إنه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه». وأخرجه في الفتن عن عبد الله بن عبد الوهاب عن حماد بن سلمة عن رجل لم يسمِّه عن الحسن عن أبي بكرة. وقال أيضًا: حدثنا سليمان، حدثنا حماد بن زيد

---

(١) صحيح البخاري ١/ ٢٧، ٤/ ٢٦٧، ٣١٧. صحيح مسلم ٢/ ١٣٢٠.
(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٣.
(٣) سنن النسائي ص ٦٣٥.
(٤) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٥٣.
(٥) السابق ٥/ ٤٥٤.
(٦) مسند أحمد ٣٤/ ٦٧.
(٧) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٣٠٠.

عن أيوب ويونس، عن الحسن، عن الأحنف.

وأنكر(١) يحيىٰ بن معين(٢) والدارقطني سماعَ الحسن من أبي بكرة، وقال الدارقطني(٣): بينهما الأحنف. قال: وكذا رواه هشام [والمعلَّىٰ] بن زياد عن الحسن عن الأحنف. وذهب غيرُهما إلىٰ صحة سماعه من أبي بكرة، واستدلَّ بما أخرجه البخاري(٤) في الفتن في باب قول النبي ﷺ «إن ابني هذا سيد» من طريق سفيان عن إسرائيل، وفيه: قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة قال: بينما النبي ﷺ يخطب ... الحديث. قال البخاري(٥): قال علي بن المديني: إنما صح عندنا سماعُ الحسن من أبي بكرة بهذا الحديث. وقال أبو الوليد الباجي(٦): المراد بالحسن هنا هو ابن علي بن أبي طالب، لا البصري. قلت: وكلام أبي الوليد هذا مردود ساقط يأباه سياقُ الحديث، كما هو ظاهر عند مَن تأمَّله. قال الحافظ في الفتح(٧): وكان الأحنف أراد أن يخرج بقومه إلىٰ علي بن أبي طالب ليقاتل معه يوم الجمل، فنهاه أبو بكرة فرجع، وحمل أبو بكرة الحديثَ علىٰ عمومه في كل مسلمينِ التقيا بسيفيهما حسمًا للمادة، وإلا فالحق أنه محمول علىٰ ما إذا كان القتال بينهما بغير تأويل سائغ، وقد رجع الأحنف عن رأي أبي بكرة في ذلك وشهد مع عليٍّ باقي حروبه. ا.هـ. واختلف العلماء في القتال في الفتنة، فمنع بعضُهم القتالَ فيها وإن دخلوا عليه عملاً بظاهر هذا الحديث، وهو مذهب أبي بكرة وغيره من الصحابة.

---

(١) عمدة القاري للعيني ١/ ٣٣٣ - ٣٣٦. التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن ٣/ ٩ - ٢١. شرح صحيح مسلم للنووي ١٨/ ١٥ - ١٧.

(٢) تاريخ ابن معين برواية الدوري ٤/ ٣٢٢.

(٣) الإلزامات والتتبع ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ٣٢٢.

(٥) السابق ٢/ ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٦) التعديل والتجريح لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح ٢/ ٤٨٤ - ٤٨٧ (ط - دار اللواء بالرياض).

(٧) فتح الباري ١/ ١٠٧.

وقال عمران بن الحصين وابن عمر: لا يدخل فيها، فإن قصدوه دفع عن نفسه. وقال معظم الصحابة والتابعين وغيرهم: يجب نصرُ الحق وقتال الباغين، وهو الصحيح. قال العيني: وتُتأوَّل أحاديث المنع علىٰ مَن لا يظهر له الحق أو علىٰ عدم التأويل لواحد منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد. والحق الذي عليه أهل السنَّة الإمساك عمَّا شجرَ بين الصحابة، وحسن الظن بهم، والتأويل لهم، وأنهم مجتهدون [متأوِّلون] لم يقصدوا معصية الله ولا محض الدنيا، فمنهم المخطئ في اجتهاده والمصيب. وتوقَّف الطبريُّ وغيره في تعيين المحقِّ منهم، وصرَّح بالتعيين الجمهورُ وقالوا: إن عليًّا رضي الله عنه وأشياعه كانوا مصيبين. والله أعلم. وقوله «إنه كان حريصًا علىٰ قتل صاحبه»، قال بعض العلماء[1]: وفي هذا حجة للباقلاّني ومَن تبعه أن العزم علىٰ الذنب والعقد علىٰ عمله معصيةٌ، بخلاف الهمِّ المعفو عنه، وللمخالف أن يقول: هذا فعل أكثر من العزم وهو المواجهة والقتال. وقال النووي: الصحيح الذي عليه الجمهور أن مَن نوىٰ المعصية وأصرَّ عليها يكون آثمًا وإن لم يعملها ولا تكلم. وقال العيني: التحقيق[2] أن مَن عزم علىٰ معصية بقلبه ووطَّن نفسَه عليها أثمَ في اعتقاده وعزمه، ولهذا جاء بلفظ الحرص فيه، ويُحمَل ما وقع من نحو قوله ﷺ «إن الله تجاوز لأمتي عمَّا حدَّثت به أنفسها ما لم يتكلموا أو يعملوا به»، وفي الحديث الآخر: «إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه» علىٰ أن ذلك فيما لو لم يوطِّن نفسَه عليها وإنما مرَّ ذلك بفكره من غير استقرار، ويسمَّىٰ هذا همًّا، ويفرَّق بين الهم والعزم، وإن عزم تُكتَب سيئة واحدة، فإن عملها كُتبت معصية ثانية.

(وفي حديث أبي هريرة) رضي الله عنه: **(مَن تزوج امرأة علىٰ صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زانٍ، ومَن ادَّان دَينًا وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق)** كذا في القوت. قال

---

(١) هو القاضي عياض في إكمال المعلم ٨/ ٤٢١.

(٢) انظر: المعلم بفوائد مسلم للمازري ١/ ٣١١ - ٣١٢. إكمال المعلم لعياض ١/ ٤٢٥. شرح النووي علىٰ صحيح مسلم ٢/ ١٩٩.

العراقي[١]: رواه أحمد[٢] من حديث صهيب، ورواه ابن ماجه[٣] مقتصرًا علىٰ قصة الدَّين دون ذِكر الصداق، وفي سنده اضطراب.

قلت: حديث صهيب عند ابن عساكر[٤] بلفظ: «مَن تزوج امرأة ومن نيَّته أن يذهب بصداقها لقي اللهَ وهو زانٍ حتىٰ يتوب، ومَن ادَّان دَينًا وهو يريد أن لا يفي به لقي اللهَ سارقًا حتىٰ يتوب». رواه هكذا عن صيفي بن صهيب عن أبيه. ورواه ابن النجار والرافعي[٥] في تاريخيهما بلفظ: «مَن تزوج امرأة بصداق لا يريد أن يؤدِّيه جاء يوم القيامة زانيًا، ومَن تسلَّف مالاً يريد أن لا يؤدِّيه جاء يوم القيامة سارقًا». ورواه البيهقي في الشعب[٦] بلفظ: «مَن تزوج امرأة ثم مات وهو لا ينوي أن يعطيها مهرها مات وهو زانٍ، ومَن استقرض من رجل قرضًا ثم مات وهو لا ينوي أن يعطيه مات وهو سارق». وقد رُوي الحديث أيضًا من طريق ميمون بن جابان الكردي عن أبيه رفعه: «مَن تزوج امرأة وهو ينوي أن لا يعطيها الصداق لقي الله وهو زانٍ». رواه ابن منده[٧]. وأما قصة الدَّين فقد رُويت من حديث أبي أمامة وميمونة. أخرج الطبراني[٨] والحاكم من حديث أبي أمامة: «مَن ادَّان دَينًا وهو ينوي أن يؤدِّيه أدَّاه الله عنه يوم القيامة، ومَن استدان دَينًا وهو لا ينوي أن يؤدِّيه فمات قال الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة: ظننتَ أني لا آخُذ لعبدي بحقِّه؟! فيؤخَذ من حسناته فتُجعَل في حسنات

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٠.

(٢) مسند أحمد ٣١/ ٢٦٠، ولفظه: «أيما رجل أصدق امرأة صداقا والله يعلم أنه لا يريد أداءه إليها فغرها بالله واستحل فرجها بالباطل لقي الله يوم يلقاه وهو زانٍ، وأيما رجل ادان من رجل دينا والله يعلم أنه لا يريد أداءه إليه فغره بالله واستحل ماله بالباطل لقي الله عَزَّوَجَلَّ يوم يلقاه وهو سارق».

(٣) سنن ابن ماجه ٤/ ٧١، ولفظه: «أيما رجل تدين دينا وهو مجمع أن لا يوفيه إياه لقي الله سارقا».

(٤) تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٣٧.

(٥) التدوين في أخبار قزوين ٣/ ٥١، ٢١٧.

(٦) شعب الإيمان ٧/ ٣٨١.

(٧) كنز العمال ١٦/ ٣٢٣.

(٨) المعجم الكبير ٨/ ٢٩٠.

الآخر، فإن لم تكن له حسنات أُخذت من سيئات الآخَر فجُعلت عليه». وأخرج الطبراني[١] من حديث ميمونة: «مَن ادَّان دَينًا ينوي قضاءه أدَّاه الله عنه يوم القيامة». وفي لفظ له: «وهو يحدِّث نفسَه بقضائه أعانه الله عليه». وأخرجه ابن ماجه بلفظ: «مَن ادَّان دَينًا ينوي قضاءه كان معه عون من الله علىٰ ذلك»[٢].

(**وقال ﷺ: مَن تطيَّب لله تعالىٰ جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومَن تطيَّب لغير الله جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة**) نقله صاحب القوت وقال: رويناه في خبر مقطوع. قال العراقي[٣]: رواه أبو الوليد الصفَّار في كتاب الصلاة[٤] من حديث [إسحاق بن] عبد الله بن أبي طلحة مرسلاً.

قال صاحب القوت: وليس الطِّيب من البِر المأمور به، ولا من الإثم المنهيِّ عنه، وإنما لصاحبه منه نيته، فإن كانت نيَّته اتِّباع السنَّة وإظهار النعمة كان بذلك مطيعًا وكان له ثواب ما نواه، وإن تطيَّب لغير ذلك كان به عاصيًا لاتِّباعه هواه.

(**وأما الآثار:**

فقد قال عمر رضي الله عنه: **أفضل الأعمال أداء ما افترض الله تعالىٰ، والورع عمَّا حرَّم الله تعالىٰ، وصِدق النية فيما عند الله تعالىٰ**) نقله صاحب القوت.

(**وكتب سالم بن عبد الله**) بن[٥] عمر بن الخطاب، أبو عمر أو أبو عبد الله، أحد الفقهاء السبعة، وكان ثبتًا عابدًا فاضلاً، وكان يشبَّه بأبيه في الهَدْي والسمت،

---

(١) السابق ٢٣/ ٤٣٢، ٢٤/ ٢٨.

(٢) هذا لفظ البيهقي في السنن الكبرىٰ ٥/ ٥٨٠.

أما لفظ ابن ماجه في سننه ٤/ ٦٩ فهو: «ما من مسلم يدان دينا يعلم الله منه أنه يريد أداءه إلا أداه الله عنه في الدنيا».

(٣) المغني ٢/ ١١٧١.

(٤) وكذلك عبد الرزاق في مصنفه ٤/ ٣١٩.

(٥) تقريب التهذيب ص ٣٦٠.

وروىٰ له الجماعة، مات في آخر [سنة] ست بعد المائة علىٰ الصحيح (**إلىٰ عمر ابن عبد العزيز**) الأموي رحمه الله تعالىٰ، وكان قد كتب إليه يستنصحه، فكتب إليه: (**اعلمْ أن عون الله تعالىٰ للعبد علىٰ قدْر النية، فمَن تمَّت نيتُه تم عونُ الله له، وإن نقصت نقص بقدْره**) كذا في القوت.

وقال أبو نعيم في الحلية(١): حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحيىٰ الأزدي، حدثنا سعيد بن سليمان وقرأته عليه، حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن مجير، حدثنا موسىٰ بن عُقبة، عن سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن عبد العزيز كتب إليه: من عبيد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلىٰ سالم بن عبد الله، سلام عليك، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الله ابتلاني بما ابتلاني به من أمر هذه الأمة من غير مشاورة مني فيها ولا طلبة مني لها إلا قضاء الرحمن وقدره، فأسأل الذي ابتلاني من أمر هذه الأمة بما ابتلاني به أن يعينني علىٰ ما ولاَّني، وأن يرزقني منهم السمع والطاعة وحسن مؤازرة، وأن يرزقهم مني الرأفة والمعدلة، فإذا أتاك كتابي هذا فابعثْ إليَّ بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضاياه في أهل القِبلة وأهل العهد، فإني متَّبع أثر عمر وسيرته إن أعانني الله علىٰ ذلك، والسلام. فكتب إليه سالم بن عبد الله: بسم الله الرحمن الرحيم، من سالم بن عبد الله بن عمر إلىٰ عبد الله عمر أمير المؤمنين، سلام عليك، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو، أما بعد، فإن الله خلق الدنيا لِما أراد، وجعل لها مدة قصيرة وكأنَّ ما بين أولها وآخرها ساعة من نهار، ثم قضىٰ عليها وعلىٰ أهلها الفناءَ فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨] لا يقدر منها أهلُها علىٰ شيء حتىٰ تفارقهم ويفارقونها، أنزل بذلك كتابه وبعث به رسله وشرع فيه دينه، وإنك اليوم يا عمر قد وليت أمرًا عظيمًا ليس يليه عليك أحدٌ دون الله، قد أفضىٰ فيما بينك وبين الخلائق، فإن استطعتَ أن

(١) حلية الأولياء ٥/ ٢٨٤ - ٢٨٦.

تغنم نفسك وأهلك فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه كان قبلك رجال عملوا بما عملوا، وأماتوا ما أماتوا من الحق، وأحيوا ما أحيوا من الباطل، حتىٰ وُلِد فيه رجال ونشؤوا فيه وظنوا أنها السنَّة، ولم يسدُّوا علىٰ العِباد بابَ رخاء إلا فُتح عليهم باب بلاء، فإن استطعت أن تفتح عليهم أبواب الرخاء فإنك لا تفتح منها عليهم بابًا إلا سُدَّ به عنك باب بلاء، ولا يمنعك من نزع عامل أن تقول: لا أجد مَن يكفيني عملَه، فإنك إذا كنت تنزع لله وتعمل لله أتاح الله لك رجالاً وُكَّالاً بأعمال الله، وإنما العون من الله علىٰ قدر النية، فإذا تمَّت نيةُ العبد تم عونُ الله له، ومَن قصرت نيتُه قصرَ من الله العونُ له بقدْر ذلك، فإن استطعت أن تأتي اللهَ يوم القيامة ولا يتبعك أحدٌ بظلم فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله. ثم إنك كتبت إليَّ تسأل أن أبعث إليك بكتب عمر بن الخطاب وسيرته وقضائه في المسلمين وأهل العهد، فإن عمر رضي الله عنه عملَ في غير زمانك، وإني أرجو إن عملتَ بمثل ما عمل عمر أن تكون عند الله أفضل منزلةً من عمر، وقلْ كما قال العبد الصالح: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨] والسلام عليك.

قال: ورواه إسحاق بن سليمان عن حنظلة بن أبي سفيان قال: كتب عمر ابن عبد العزيز إلىٰ سالم بن عبد الله ... فذكره مطولاً[١]. ورواه جعفر بن برقان قال: كتب عمر إلىٰ سالم فذكره مختصرًا[٢]. ورواه معمر بن سليمان الرَّقِّي عن الفرات بن سليمان قال: كتب عمر إلىٰ سالم ... فذكره بطوله.

(**وقال بعض السلف**): رأيتُ الخير إنما يجمعه حسنُ النية، وكفاك به خيرًا وإن لم تنصبْ (**رُب عمل صغير تعظِّمة النيةُ، ورُب عمل كبير تصغِّره النيةُ**)[٣] نقله

---

(١) في الحلية: مختصرا.

(٢) في الحلية: فذكر نحوه.

(٣) عزاه الذهبي في تاريخ الإسلام ١٢/ ٢٣٧ وابن حمدون في تذكرته ١/ ١٩١ لعبد الله بن المبارك.

صاحب القوت، قال: وكتب بعض الأولياء إلىٰ أخيه: أخلِص النيةَ في أعمالك يكفيك القليلُ من العمل.

قلت: وسيأتي هذا من حديث معاذ.

(وقال) أبو سليمان (داود) بن نصير (الطائي) رحمه الله تعالىٰ: (**البَر همَّتُه التقوىٰ، ولو تعلَّقت جميعُ جوارحه بالدنيا لردَّته نيتُه يومًا إلىٰ نية صالحة، فكذلك الجاهل بعكس ذلك**) أي إن الجاهل بالله تعالىٰ وآياته همَّته الدنيا والهوىٰ، ولو تعلقت جوارحه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعًا إلىٰ إرادة الله تعالىٰ[1] وموافقة الهوىٰ؛ لأن سرها كان همَّة النفس لعاجل عَرَضِ الدنيا. كذا في القوت.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[2] من طريق محمد بن عبد الوهاب قال: قال داود الطائي: كل نفس تُرَدُّ إلىٰ همَّتها، فمهموم بخير ومهموم بشرٍّ.

(وقال) سفيان (الثوري) رحمه الله تعالىٰ: (**كانوا يتعلَّمون النية للعمل كما يتعلَّمون العمل**) كذا في النسخ، ولفظ القوت: كما يتعلَّمون العلم[3].

قال: وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيَّته بين يدي عمله.

(**وقال بعض العلماء: اطلب النيةَ للعمل قبل العمل، وما دمتَ تنوي الخيرَ فأنت بخير**) كذا في القوت.

(**وكان بعض المريدين يطوف علىٰ العلماء يقول: مَن يدلُّني علىٰ عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالىٰ، فإني لا أحب أن تأتي عليَّ ساعةٌ من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمَّال الله تعالىٰ. فقيل له: قد وجدتَ حاجتك، فاعمل الخير ما استطعت، فإذا**

---

(١) الصواب: إلىٰ إرادة الدنيا. كما في القوت.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٥٦.

(٣) ورواه الخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ص ١٢١ عن محمد بن سيرين بلفظ: كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم.

فترت أو تركتَه فهِمَّ بعمله، فإن الهامَّ بعمل الخير كعامله) نقله صاحب القوت[(١)].

قال: وقال زيد بن أسلم: خصلتان هما كمال أمرك: تصبح ولا تهتم لله بمعصية، وتمسي ولا تهتم لله بمعصية[(٢)].

(وكذلك قال بعض السلف) في معناه: **(إن نعمة الله تعالىٰ عليكم أكثر من أن تحصوها، وإن ذنوبكم أخفىٰ من أن تعلموها، ولكن اصبحوا توَّابين وأمسُوا توَّابين يغفر لكم ما بين ذلك)**[(٣)] نقله صاحب القوت.

(وقال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ**: طوبىٰ لعين نامت ولا تهمُّ بمعصية وانتبهت إلىٰ غير إثم)** [(٤)] نقله صاحب القوت.

(وقال أبو هريرة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **(يُبعثون يوم القيامة علىٰ قدْر نيَّاتهم)** وهذا قد رواه أحمد من حديثه مرفوعًا بلفظ «يُبعَث الناس»، وقد تقدم.

(وكان الفضيل بن عياض) رحمه الله تعالىٰ **(إذا قرأ)** قوله تعالىٰ: (﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد: ٣١] **يبكي ويردِّدها ويقول)**: يا رب **(إنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا)** رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(إنما خُلِّد أهل الجنة في الجنة**

---

(١) وأورده الثعلبي في الكشف والبيان ٢/ ٣٠١ عن زيد بن أسلم.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٩/ ٢٨٧.

(٣) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٩٣ وابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٢١ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٣/ ٦٥ والطبري في جامع البيان ١٣/ ٦٨٦ والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٢٩٠ وابن أبي الدنيا في كتاب التوبة ص ٧٣ عن طلق بن حبيب العنزي بلفظ: «إن حقوق الله أثقل من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن اصبحوا توابين وامسوا توابين».

(٤) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٤١٥ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٤٣٥ عن بشر بن صالح الرملي.

وأهل النار في النار بالنيات) نقله صاحب القوت. لأن[١] تخليد الله العبد في الجنة ليس بعمله وإنما هو بنيَّته؛ لأنه لو كان بعمله لكان خلوده فيها بقدر مدة عمله أو أضعافه، لكنه جازاه بنيته؛ لأنه كان ناويًا أن يطيع الله أبدًا لو بقي أبدًا، فلما اخترمته منيتُه جوزي بنيته. وكذا الكافر؛ لأنه لو جوزي بعمله لم يستحقَّ التخليد في النار إلا بقدر مدة كفره، لكنه نوىٰ الإقامة علىٰ كفره أبدًا لو بقي، فجوزي بنيته.

(وقال أبو هريرة: مكتوب في التوراة: ما أريدَ به وجهي فقليله كثير، وما أريدَ به غيري فكثيره قليل.

وقال) أبو[٢] عمرو **(بلال بن سعد)** بن تميم الأشعري، ثقة عابد فاضل، مات في خلافة هشام، روىٰ له البخاري في الأدب المفرد وأبو داود في القدر والنسائي **(إن العبد لَيقولُ قول مؤمن، فلا يدعه اللهُ عَزَّوَجَلَّ وقوله حتىٰ ينظر في عمله، فإذا عمل لم يدعه اللهُ حتىٰ ينظر في ورعه، فإن تورَّع لم يدعه حتىٰ ينظر ماذا نوىٰ، فإن صلحت نيتُه فبالحريِّ أن يصلُح ما دون ذلك)** رواه البيهقي في الشعب[٣].

(فإذًا عماد الأعمال النيات) والقطب الذي عليه المدار، والوسيلة بعد الإيمان إلىٰ السعادة العظمىٰ في الأولىٰ والعقبَىٰ **(فالعمل مفتقر إلىٰ النية ليصير بها خيرًا، والنية في نفسها خيرٌ وإن تعذَّر العملُ بعائق)** وليس للشرع عناية في طاعة

---

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٢٢٤ - ٢٢٥ (ط - المكتب الإسلامي). المجالسة وجواهر العلم للدينوري ٤/ ٢٠٣. عمدة القاري للعيني ١/ ٧١. الكواكب الدراري للكرماني ١/ ٢١. فيض القدير للمناوي ٦/ ٢٩١.

(٢) تقريب التهذيب ص ١٧٩.

(٣) شعب الإيمان ٩/ ١٨٣، ولفظه: «عباد الرحمن، إن العبد ليقول قول مؤمن، فلا يدعه الله وقوله حتىٰ ينظر في عمله، فإن كان قوله قول مؤمن وعمله عمل مؤمن لم يدعه الله حتىٰ ينظر في ورعه، فإن كان قوله قول مؤمن وعمله عمل مؤمن وورعه ورع مؤمن لم يدعه الله حتىٰ ينظر ما نوىٰ به، فإن صلحت النية فبالحري أن يصلح ما دونه، المؤمن يقول قولا يتبع قوله عمله، والمنافق يقول بما يعرف ويعمل بما ينكر». ورواه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢٣٠.

من الطاعات بعد الإيمان بالله أعظم من اعتنائه بالنية؛ إذ صحة العبادات أجمعها موقوفة علىٰ وجودهما، يعني الإيمان والنية، فهي تلي الإيمانَ في الرتبة والشرط في صحة الأعمال، فحينئذٍ يجب عليك فهمُ حقيقتها، وتخليصها ممَّا يشوبها من الحظوظ الدنيوية وجوبًا، وعن الأغراض والعوارض الأخروية استحبابًا، ثم تفصيل أعمالها وطريق اكتسابها. وقد شرع المصنف في بيان حقيقتها، وبيان ما يضاف إليها من الإرادة والعزم والقصد؛ لأنهن من روادفها، فقال:

بيـان حقيقـة النيــة

(اعلم أن النية) بالكسر[١] اسم من نواه ينويه: إذا قصده، والياء مشدَّدة، والتخفيف لغة حكاها الأزهري[٢] و[كأنَّه] حُذفت اللام وعُوِّض عنها الهاء علىٰ هذه اللغة، كما قيل في ثُبَة وظُبَة. وأنشد بعضهم:

* أصم القلب حوشيُّ النيات[٣] *

وفي المحكم[٤]: النية مثقَّلة، والتخفيف عن اللحياني وحده، وهو علىٰ الحذف. وإذا عرفتَ هذا، فاعلمْ أن النية **(والإرادة والقصد عبارات متواردة علىٰ معنىٰ واحد، وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها أمران: علم وعمل، العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه، والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه، وذلك لأن كل عمل - أعني كل حركة وسكون - اختياريٌّ)** أي صادر باختيار العبد **(فإنه لا يتم إلا بثلاثة أمور: علم وإرادة وقدرة؛ لأنه لا يريد الإنسان ما لا يعلمه، فلا بد وأن يعلم، ولا يعمل ما لم يُرِدْ، فلا بد من إرادة)** تسبق العملَ **(ومعنىٰ الإرادة: انبعاث القلب إلىٰ ما يراه موافقًا للغرض إما في الحال أو في المآل، فقد خُلِق الإنسان بحيث يوافقه بعضُ الأمور ويلائم غرضَه، ويخالفه بعضُ الأمور)** هذا من لطف الله تعالىٰ وكمال

---

(١) المصباح المنير ص ٦٣١ - ٦٣٢.

(٢) تهذيب اللغة ١٥/ ٥٥٦.

(٣) عجز بيت، صدره:

ولا كفل الفر سة ث .. غمر

وهو للطرماح في ديوانه ص ٥٧، وفيه: حشوي الطيات.

(٤) المحكم لابن سيده ١٢/ ١٩٢. وعبارته: «نوىٰ الشيء نيَّة، ونيَة بالتخفيف عن اللحياني وحده، وهو نادر، إلا أن يكون علىٰ الحذف».

حكمته (فاحتاج إلىٰ جلب الملائم الموافق) لطبعه، النافع له في العاجل والآجل (لنفسه و) إلىٰ (دفع الضارِّ) له فيهما (المنافي) لطبعه (عن نفسه، فافتقر بالضرورة إلىٰ معرفة وإدراك للشيء المضرِّ والنافع) وهو العلم المعرِّف له ذلك (حتىٰ يجلب هذا ويهرب من هذا، فإنَّ مَن لا يبصر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناوله، ومَن لا يبصر النار لا يمكنه الهرب منها، فخلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابًا وهي الحواس الظاهرة والباطنة، وليس ذلك من غرضنا. ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميلٌ إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه؛ إذ المريض يرىٰ الغذاء ويعلم أنه موافق) له (ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والميل) إليه (ولفقد الداعية المحرِّكة إليه، فخلق الله تعالىٰ) بلطفه وحكمته (له الميلَ والرغبة والإرادة، وأعني به) أي بمجموع الميل والإرادة والرغبة (نزوعًا في نفسه إليه، وتوجُّهًا في قلبه إليه) فوجود الميل إلىٰ الموافق الملائم والنفرة عن المؤلم المُنافِر بعد العلم ضروريان لا كسب للعبد فيهما، فلا ثواب ولا عقاب عليهما حتىٰ ينصرف عن القلب ما يعارضهما ويضادُّهما من علوم وإرادات لطلب أغراض أُخَر؛ لأن المعارضة والمضادة تمنع من جزم النية. وإليه أشار المصنِّف بقوله: (ثم ذلك لا يكفيه، فكم من مُشاهِد طعامًا راغب فيه مريد تناوُله عاجز عنه لكونه زَمِنًا) لا يقدر علىٰ التحرك (فخُلِقت له القدرة والأعضاء المتحركة حتىٰ يتم به التناول، والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة، والقدرة تنتظر الداعيةَ الباعثة، والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد، وهو أن يقوَىٰ في نفسه كونُ الشيء موافقًا له، فإذا جزمت المعرفةُ بأن الشيء موافق ولا بد أن يُفعَل وسَلِمتْ عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الميلُ، فإذا انبعثت الإرادة انتهضت القدرةُ لتحريك الأعضاء، فالقدرة خادمة للإرادة، والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة) فحينئذٍ يكون هذا كسبًا للقلب وعملاً من أعماله يقع عليه الجزاء والثواب (فالنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة وانبعاث النفس بحكم الرغبة والميل إلىٰ ما هو موافق للغرض إما في الحال وإما في المآل، فالمحرِّك

الأول هو الغرض المطلوب وهو الباعث، والغرض الباعث هو المقصد المنويّ، والانبعاث هو القصد والنية، وانتهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل) وبه تبيَّن أن النية والقصد والإرادة ألفاظ متواردة علىٰ معنىٰ واحد، وإن حُقِّقت فلا بد من تفرقة قريبة، فالنية عبارة عن تمييز الأغراض بعضها عن بعض. والقصد هو جمعُ الهمَّة نحو الغرض المطلوب، والعزم يقوِّي القصدَ وينشِّطه، والإرادة تصرف الموانعَ المثبِّطة لانتهاض القدرة وتتوجَّه نحوها. هذه حقيقة النية **(إلا أن انتهاض القدرة للعمل قد يكون بباعث واحد، وقد يكون بباعثين اجتمعا في فعل واحد، وإذا كان بباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان مليًّا بإنهاض القدرة، وقد يكون كل واحد قاصرًا عنه إلا بالاجتماع، وقد يكون أحدهما كافيًا لولا الآخَر لكن الآخَر انتهض عاضدًا له ومعاونًا)** كل ذلك بحسب الأغراض المطلوبة **(فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام، فلنذكر لكل واحد مثالاً)** من المحسوس **(واسمًا:**

أما الأول فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرَّد، كما إذا هجم علىٰ الإنسان سبعٌ) أو جلس في مَجرىٰ سيل **(فكلَّما رآه)** أي واحدًا منهما مقبلاً عليه **(قام)** هاربًا **(من موضعه)** خوفًا ممَّا دهاه **(فلا مزعج له إلا غرض الهرب من السبع)** أو السيل **(فإنه رأىٰ السبع وعرفه ضارًّا)** وكذا السيل **(فانبعثت نفسُه إلىٰ الهرب ورغبت فيه، فانتهضت القدرةُ عاملةً بمقتضَىٰ الانبعاث، فيقال: نيته الفرار من السبع)** أو السيل **(لا نية له في القيام لغيره، وهذه النية)** في الهرب **(تسمَّىٰ: خالصة، ويسمَّىٰ العمل بموجبها إخلاصًا بالإضافة إلىٰ الغرض الباعث، ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته)** فأما إذا اقترن بالنية باعثٌ آخر يجري مَجرىٰ المرافقة أو المعاونة أو المشاركة فلا يسمَّىٰ إخلاصًا.

(وأما الثاني فهو أن يجتمع باعثان، كل واحد مستقلٌّ بالإنهاض) للقدرة **(لو انفرد. ومثاله من المحسوس: أن يتعاون رجلان علىٰ حمل شيء بمقدار من القوة**

كافية في الحمل لو انفردت. ومثاله في غرضنا: أن يسأله قريبه الفقير حاجة) من حوائجه (فيقضيها لفقره وقرابته، وعلمَ أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة، وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر، وعلمَ ذلك من نفسه بأن يحضره قريب غنيٌّ فيرغب في قضاء حاجته، وفقير أجنبي فيرغب أيضًا فيه. وكذلك مَن أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة) وهو تاسع ذي الحجة (فصام، وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حميةً) لأنه له غرض فيها، أي لو استغنىٰ عن الصوم كان يحتمي (ولولا الحمية) أي لو استغنىٰ عنها (لكان) يصوم و(يتركه) أي الأكل (لأجل أنه يوم عرفة، وقد اجتمعا جميعًا، فأقدم علىٰ الفعل، وكان الباعث الثاني رفيق الأول) لأنه لم يؤثر في الصوم حقه ولكنه رافقَه مرافقةً (فلنسمِّ هذا مرافَقة للبواعث[1]) وهي تشوب العملَ، والرجاء من رحمة الشرع أن يُثاب عليه، ولكن لا يقع موقع الرضا.

(والثالث: أن لا يستقلَّ كل واحد لو انفرد، ولكن قَوِيَ مجموعُهما علىٰ إنهاض القدرة. ومثاله في المحسوس: أن يتعاون ضعيفان علىٰ حمل ما لا ينفرد أحدهما به. ومثاله من غرضنا: أن يقصده قريبه الغني فيطلب درهمًا فلا يعطيه، ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهمًا فلا يعطيه، ثم يقصده الفقير القريب فيعطيه، فيكون انبعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر، وكذلك الرجل يتصدَّق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الثناء، ويكون بحيث لو كان منفردًا لكان لا يبعثه مجردُ قصدِ الثواب علىٰ العطاء، ولو كان الطالب فاسقًا لا ثواب في التصدُّق عليه[2] لكان لا يبعثه مجردُ الرياء علىٰ العطاء، ولمَّا اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريكَ القلب، ولنسمِّ هذا الجنس مشاركة) وهذا لا شك في بطلانه وإحباط ثوابه، فلا له ولا عليه، إلا إن كان باعث الرياء أقوىٰ فإنه يأثم بمقدار قوَّته وزيادته، أو كان

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ٢٣: البواعث.

(٢) جوز النووي التصدق علىٰ الفساق، وأثبت للمتصدق عليهم ثوابًا في الجملة. انظر: المجموع ٦/ ٢٤٠ (ط دار الفكر).

باعث الثواب أقوىٰ فإنه يُثاب بقدر قوَّته وزيادته. وهذا تحقيق قوله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

(والرابع: أن يكون أحد الباعثين مستقلاً لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل، ولكن لمَّا انضاف إليه لم ينفكَّ عن تأثير بالإعانة والتسهيل، ومثاله من المحسوس: أن يعاون الضعيفُ الرجل القويَّ علىٰ الحمل، ولو انفرد القويُّ لاستقلَّ، ولو انفرد الضعيف لم يستقلَّ، فإنَّ ذلك بالجملة يسهِّل العملَ ويؤثِّر في تخفيفه. ومثاله في غرضنا: أن يكون للإنسان وِردٌ في الصلوات وعادة في الصدقات، فاتفق أن حضر في وقتها جماعةٌ من الناس، فصار الفعل أخفَّ عليه بسبب مشاهدتهم، وعلمَ من نفسه أنه لو كان منفردًا خاليًا لم يفتر عن عمله، وعلمَ أن عمله لو لم يكن طاعةً لم يكن مجرد الرياء يحمله عليه، فهو شوبٌ تطرَّق إلىٰ النية، ولنسمِّ هذا الجنس: المعاونة) وهذه حالة مخوفة؛ لأنها تدل علىٰ إجلال غير الله تعالىٰ والتماس الثناء منهم **(فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقًا أو شريكًا أو مُعينًا. وسنذكر حكمها)** أي حكم هؤلاء الثلاثة وهي المرافقة والمشاركة والمعاونة **(في باب الإخلاص. والغرض الآن بيان أقسام النيات، فإنَّ العمل تابع للباعث عليه فيُكتسَب الحكم منه، ولذلك قيل)** في الخبر: **(إنما الأعمال بالنيات؛ لأنها)** أي الأعمال **(تابعة لا حكم لها في نفسها، وإنما الحكم للمتبوع)** الذي هو النية.

قلت: في سياق كلٍّ من الطريقين زيادات كما نذكرها. وأما هذا الذي أورده المصنف فرواه العسكري في الأمثال والقضاعي في مسند الشهاب[١] والبيهقي في الشعب[٢] وابن عساكر في أماليه من طريق ثابت البناني عن أنس مرفوعًا، إلا أنهم قالوا: أبلغ، بدل: خير. وقال البيهقي: إسناده ضعيف. وقال ابن عساكر: غريب

(١) مسند الشهاب ١/ ١١٩.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ١٧٦.

من هذا الوجه. وقال ابن دِحية: إنه لا يصح. وجزم الزركشي[(١)] بأنه ضعيف، وتبعه السيوطي في الدرر[(٢)]، وكأنَّه لأجل أبي عبد الرحمن السلمي، فقد تكلم فيه جماعة بأنه وضَّاع، ومن ثَم حكم ابن الجوزي بوضعه[(٣)]، ولم يُصِبْ، فله طرق بمجموعها يتقوَّىٰ الحديث. وقد رواه أيضًا الحكيم[(٤)] والعسكري عن ثابت البناني بلاغًا. وأما لفظ حديث سهل بن سعد: «نية المؤمن خير من عمله، وعملُ المنافق خير من نيته، وكلٌّ يعمل علىٰ نيته، فإذا عملَ المؤمن عملاً ثار في قلبه نورٌ». أخرجه الطبراني في الكبير[(٥)] والخطيب في التاريخ[(٦)] والضياء في المختارة. قال الهيثمي[(٧)]: رجاله موثَّقون، إلا حاتم بن عبَّاد بن دينار، لم أرَ مَن ذكر له ترجمة. انتهىٰ. فحينئذٍ إطلاق العراقي القول بالضعف فيه محل نظر. ولفظ حديث النواس: «نية المؤمن خير من عمله، ونية الفاجر شرٌّ من عمله». هكذا هو لفظ العسكري في الأمثال، وقد أخرج الطبراني مثله[(٨)]، وقد حكم العراقيُّ بضعفه أيضًا. وقد رُوي أيضًا من حديث أبي موسىٰ الأشعري: «نية المؤمن خير من عمله، وإن الله عَزَّوَجَلَّ لَيعطي العبد علىٰ نيته ما لا يعطيه علىٰ عمله، وذلك أن النية لا رياء فيها، والعمل يخالطه الرياء». أخرجه الديلمي في مسند الفردوس[(٩)] بسند ضعيف.

---

(١) التذكرة في الأحاديث المشتهرة ص ٦٥.

(٢) الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ص ١٩٧.

(٣) لم أقف علىٰ الحديث في كتاب الموضوعات ولا في كتاب العلل المتناهية لابن الجوزي.

(٤) نوادر الأصول ص ٨٨٠.

(٥) المعجم الكبير ٦/ ١٨٦.

(٦) تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٨.

(٧) مجمع الزوائد ١/ ٢٢٨.

(٨) وكذلك القضاعي في مسند الشهاب ١/ ١٩٩.

(٩) الفردوس بمأثور الخطاب ٤/ ٢٨٦.

بيان سر قوله ﷺ: نية المؤمن خير من عمله

قال العراقي(١): رواه الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النوَّاس ابن سمعان، وكلاهما ضعيف.

هذا ما يتعلَّق بتخريج الحديث، ولنرجع إلىٰ معناه، قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: (**اعلمْ أنه قد يُظَن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر**) لأنها من عمل القلب (**لا يطَّلع عليه إلا الله تعالىٰ، والعمل ظاهر**) لأنه من الجوارح يُطَّلَع عليه (**ولعمل السر فضلٌ**) علىٰ عمل العلانية، وهذا الذي قرَّره المصنف يخرَّج منه وجهان في الترجيح، وتقرير ذلك: أن النية سر، وأعمال السر تُضاعَف، فهذا وجه، والثاني: أن النية غيب لا يطَّلع عليه غير الله تعالىٰ، والظواهر مشتركة (**وهذا صحيح**) في نفسه، وقد قرَّره غالب شرَّاح الحديث واعتمدوه، وإليه يشير ما في حديث أبي موسىٰ عند الديلمي الذي تقدم قريبًا وهو: «إن النية لا رياء فيها، والعمل يخالطه الرياء». أي لكونها عمل السر، وهو سبب المضاعفة، فيكون سبب الترجيح (**ولكن ليس هو المراد**) من الحديث (**لأنه لو نوىٰ أن يذكر الله بقلبه أو يتفكَّر في مصالح المسلمين فيقتضي عمومُ الحديث أن تكون نية التفكُّر خيرًا من التفكُّر**) أو نية الذِّكر خيرًا من الذكر، وهذا لا يعوَّل عليه (**وقد يُظَن أن سبب الترجيح أن النية**) متصلة (**تدوم إلىٰ آخر العمل، والأعمال**) منقطعة (**لا تدوم**) فبالنية خُلِّد أهل التوحيد في الجنة وخُلِّد أهل الشرك في النار؛ لدوام نيَّاتهم علىٰ التوحيد ودوام نيات الآخرين علىٰ الشرك مدة الدهر (**وهو**) أيضًا صحيح، وإليه يشير كلام الحسن البصري المتقدم، واعتمده بعض شرَّاح الحديث وقرَّره وبسط فيه، لكنه (**ضعيف؛ لأن ذلك يرجع معناه إلىٰ أن العمل الكثير خير من القليل، بل ليس كذلك، فإن نية أعمال الصلاة قد**

(١) المغني ٢/ ١١٧١.

لا تدوم إلا في لحظات معدودة، والأعمال تدوم، والعموم) في الحديث **(يقتضي أن تكون نيته خيرًا من عمله)** مع أنها انقطعت والعمل دامَ **(وقد يقال: إن معناه أن النية بمجرَّدها خير من العمل بمجرده دون النية)** وتقرير هذا القول علىٰ وجهين، الأول: أن يقال: النية من شرط العمل، حتىٰ لا يصح عملٌ إلا بها، وهي تصح بمجرَّدها. هكذا قرَّره صاحب القوت. الثاني: أن يقال: إن النية خير من العمل بلا نية؛ إذ لو كان المراد خيرًا من العمل مع نية لزم كونُ الشيء خيرًا من نفسه مع غيره، أو المراد أن الجزء الذي هو النية خير من الجزء الذي هو العمل. هكذا قرَّره الكرماني[1] شارح البخاري **(وهو كذلك)** أي صحيح في نفسه **(ولكنه بعيد أن يكون هو المراد)** من الحديث **(إذ العمل بلا نية أو علىٰ الغفلة لا خير فيه أصلاً، والنية بمجردها خيرٌ، وظاهر الترجيح للمشتركين في أصل الخير)** وهنا لا اشتراك. فهذه ثلاثة أوجه، وهي ترجع إلىٰ أربعة، وفيه أقوال أُخَر يأتي ذِكرُها في آخر البحث **(بل المعنيُّ به)** في الحديث **(أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل كانت النية من جملة الخيرات، وكان العمل من جملة الخيرات، ولكن النية من جملة الطاعة خير من العمل، أي لكل واحد منهما أثرٌ في المقصود، وأثر النية أكثر من أثر العمل، فمعناه: نية المؤمن من جملة طاعته خير من عمله الذي هو من جملة طاعته، والغرض)** من بيان الحديث **(أن للعبد اختيارًا في النية وفي العمل، فهما عملان، والنية من الجملة خيرهما. فهذا معناه)** وقد قرَّره صاحب القوت فقال: وفيه وجه آخر: يكون الكلام علىٰ التقديم والتأخير، أي نية المؤمن هي من عمله خيرٌ، كأنَّه قال: هي بعض أعماله الخير. فهذا كقوله: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦] معناه: نأتِ منها بخير. وكما قال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧] معناه: يسألونك عنها كأنَّك حفيٌّ بهم، فأخَّر قولَه «عنها» ومعناه التقديم، فيكون علىٰ هذا التأويل أن النية من أعمال القلوب، وأنها من عمل العبد خير كثير. ا.هـ.

---

(١) الكواكب الدراري ١/ ٢١.

وهو صحيح، ولكنه عند التأمل يرجع إلىٰ الوجه الأول الذي قرَّرناه، ومع ذلك فلا يخلو من تكلُّف من جهة التقديم والتأخير، ولعل المصنِّف غيَّر في التعبير لأجل ذلك (**وأما سبب كونها خيرًا ومترجِّحة علىٰ العمل فلا يفهمه إلا مَن فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلىٰ المقصد وقاس بعضَ الآثار بالبعض حتىٰ يظهر له بعد ذلك الأرجحُ بالإضافة إلىٰ المقصود، فمَن قال: الخبز خير من الفاكهة، فإنما يعني به أنه خير بالإضافة إلىٰ مقصود القوت والاغتذاء، ولا يفهم ذلك إلا مَن فهم أن للغذاء مقصدًا وهو الصحة والبقاء، وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها، وفهم أثر كل واحد وقاس بعضَها بالبعض، فالطاعات غذاء للقلوب**) كما أن الأطعمة غذاء للجوارح (**والمقصود شفاؤها وبقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعُّمها بلقاء الله تعالىٰ، فالمقصد لذة السعادة بلقاء الله فقط**) وهذه هي سعادة الآخرة (**ولن يتنعَّم بلقاء الله إلا مَن مات محبًّا لله تعالىٰ، عارفًا بالله تعالىٰ، ولن يحبَّه إلا مَن عرفه**) المعرفة الخاصة (**ولن يأنس به إلا مَن طال ذِكرُه له**) في سائر أحواله (**فالأنس يحصل بدوام الذكر، والمعرفة تحصل بدوام الفكر**) بمراقبة القلب (**والمحبة تتبع المعرفةَ بالضرورة**) لأنها ثمرتها (**ولن يتفرَّغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا، ولن يتفرَّغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتىٰ يصير مائلاً إلىٰ الخير مريدًا له، نافرًا عن الشر مبغضًا له، وإنما يميل إلىٰ الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوطة بها، كما يميل العاقل إلىٰ الفصد والحجامة لعلمه بأن سلامته فيها، وإذا حصل أصل الميل بالمعرفة فإنما يقوىٰ بالعمل بمقتضَىٰ الميل والمواظبة عليه، فإن المواظبة علىٰ مقتضَىٰ صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مَجرىٰ الغذاء والقوت لتلك الصفة حتىٰ تترشَّح الصفةُ وتقوَىٰ بسببها، فالمائل إلىٰ طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفًا، فإن اتَّبع مقتضَىٰ الميل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة بذلك تأكَّد ميلُه ورسخ**) أي ثبت (**وتعسَّر عليه النزوع**) عنه (**وإن خالف مقتضَىٰ ميله ضعف ميلُه وانكسر، وربما زال وانمحق، بل الذي ينظر**

إلىٰ وجه حسن مثلاً فيميل إليه طبعُه ميلاً ضعيفًا لو تبعه وعملَ بمقتضاه فداوم علىٰ النظر والمجالسة والمخالطة والمجاورة تأكَّد ميلُه حتىٰ يخرج أمرُه عن اختياره فلا يقدر علىٰ النزوع عنه، ولو فطم نفسه ابتداءً وخالف مقتضَىٰ ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الميل، ويكون) ذلك (زَبْرًا) أي منعًا بشدة (ودفعًا في وجهه حتىٰ يضعف وينكسر بسببه وينقمع وينمحي، وهكذا جميع الصفات، والخيرات والطاعات كلها هي التي تُراد بها الآخرة، والشرور كلها هي التي تُراد بها الدنيا للدنيا لا للآخرة، وميل النفس إلىٰ الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرِّغها للذكر والفكر، ولن يتأكَّد ذلك إلا بالمواظبة علىٰ أعمال الطاعات وتركِ المعاصي بالجوارح؛ لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة، حتىٰ إنه يتأثَّر كل واحد منهما بالآخر، فترىٰ العضو إذا أصابته جراحةٌ تألَّم بها القلبُ، وترىٰ القلب إذا تألَّم بعلمه بموت عزيز من أعزَّته أو بهجوم أمر مخوف تأثَّرت به الأعضاء وارتعدت الفرائص وتغيَّر اللون، إلا أن القلب هو الأصل المتبوع، وكأنَّه الأمير والراعي) أي بمنزلتهما (والجوارح) كلها (كالخدم والرعايا والأتباع) أي بمنزلتها (فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه، فالقلب هو المقصود) الأعظم (والأعضاء آلات موصلة إلىٰ المقصود، ولذلك قال النبي ﷺ: إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلُح لها سائرُ الجسد) متفق[(١)] عليه من حديث النعمان بن بشير، وقد تقدم[(٢)].

(وقال ﷺ: اللهم أصلِح الراعي والرعية) قال العراقي[(٣)]: لم أجده، وقد تقدم[(٤)] (وأراد بالراعي القلب) وبالرعية الجوارح، وكأنَّه قال: اللهم أصلِح الظاهرَ والباطن. وقال صاحب القوت: وقد ضرب النبي ﷺ مَثل القلب بالملِك، والجوارح جنوده، قال: «وإذا صلُح القلبُ صلُح الجسد، وإذا فسد فسد الجسدُ».

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ١١٧١.

(٢) في كتاب الحلال والحرام.

(٣) المغني ٢/ ١١٧١.

(٤) في الباب الثالث من كتاب الصلاة.

معناه: إذا صلحت للعبد نيتُه دامت للعبد استقامتُه، وإذا خلُص وصفا من شوب الكَدَر والهوىٰ خلصت الأعمال من الرياء، وصفتْ من الشهوات والأهواء. وإذا فسدت نيتُه بحب الدنيا فسدت أعمال الجوارح بحب المدح والرياء.

وقال أيضًا: أول سلطان العدو على القلب عند فساد النية، فإذا تغيَّرت من العبد طمعَ فيه فيتسلَّط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعفُ النية، فإذا ضعفت النيةُ قويت النفس فتمكَّن الهوىٰ، وإذا قويت النيةُ صح العزمُ وضعُفت صفاتُ النفس، ولأنْ ينتقل العبد من معصية إلىٰ معصية [دونها] فيكون تاركًا للأَولىٰ بنية الترك لأجل الله تعالىٰ كان أنفع له، وأحمد عاقبةً، وأصلح لقلبه، وأقرب إلىٰ توبته من افتعال الطاعات مشوبة بالهوىٰ وفساد النيات؛ لأنه حينئذٍ يكون متقلِّبًا في المعاصي بفساد نيته، وخالط عملاً سيئًا بسيئ مثله، ودرأ بالسيئة السيئةَ قبلها، وهذا بخلاف وصفِ الله تعالىٰ من قوله: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [الرعد: ٢٢، القصص: ٥٤] ومخالف لأمر رسول الله ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تمحُها».

(**وقال الله تعالىٰ: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ﴾** [الحج: ٣٧] **وهو صفة القلب، فمن هذا الوجه يجب لا محالة أن تكون أعمال القلب علىٰ الجملة أفضل من حركات الجوارح، ثم يجب أن تكون النية من جملتها**) أي أعمال القلب (**أفضل؛ لأنها عبارة عن ميل القلب إلىٰ الخير وإرادته له، وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعوِّد القلب إرادة الخير ويؤكِّد فيه الميل إليه؛ ليفرغ من شهوات الدنيا**) ووساوس النفس (**ويكبُّ علىٰ الذكر والفكر، فبالضرورة يكون خيرًا بالإضافة إلىٰ الغرض؛ لأنه متمكِّن من نفس المقصود، وهذا كما أن المعدة**) التي هي حوض البدن (**إذا تألَّمت فقد تُداوَىٰ بأن يوضَع الطلاء علىٰ الصدر، وتُداوَىٰ بالشرب والدواء الواصل إلىٰ المعدة، فالشرب خير من طلاء الصدر؛ لأن طلاء الصدر أيضًا إنما أُريدَ به أن يسري منه الأثر إلىٰ المعدة، فما يلاقي عينَ**

المعدة فهو خير وأنفع) لقرب التأثير **(فهكذا ينبغي أن تفهم تأثير الطاعات كلها؛ إذ المطلوب منها تغيير القلوب وتبديل صفاتها فقط دون الجوارح، فلا تظنن أن في وضع الجبهة علىٰ الأرض غرضًا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض، بل من حيث إنه بحكم العادة يؤكِّد صفةَ التواضع في القلب، فإنَّ مَن يجد في نفسه تواضعًا فإذا استكان بأعضائه وصوَّرها بصورة التواضع تأكَّد تواضعُه، ومَن وجد في قلبه رقةً علىٰ يتيم فإذا مسح رأسه وقبَّله تأكَّدت الرقةُ في قلبه)** وقد ورد في مسح رأس اليتيم عدة أخبار، منها عن أبي أمامة رفعه: «مَن مسح رأس يتيم لا يمسحه إلا لله فإنَّ له بكل شعرة مرَّت عليها يدُه حسنة ...» الحديث[١]، رواه ابن المبارك وأحمد والطبراني والحاكم وصاحب الحلية **(ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدًا أصلاً؛ لأن مَن يمسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظانٌّ أنه يمسح ثوبًا لم ينتشر من أعضائه أثرٌ إلىٰ قلبه لتأكيد الرقة، وكذلك مَن يسجد غافلاً وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعِها علىٰ الأرض أثرٌ إلىٰ قلبه يتأكَّد به التواضعُ، فكان وجود ذلك كعدمه، وما ساوىٰ وجودُه عدمَه بالإضافة إلىٰ الغرض المطلوب منه يسمَّىٰ باطلاً، فيقال: العبادة بغير نية باطلة، وهذا معناه)** ومفهوم هذا تقدير صحة الأعمال بالنيات في حديث «إنما الأعمال بالنيات»، وقد تقدم الكلام عليه قريبًا، وفيه اشتراط النية لصحة العبادة، قال العراقي في شرح التقريب[٢]: وقد اتفق العلماء علىٰ ذلك في العبادة المقصودة لعينها التي ليست وسيلة إلىٰ غيرها، وحكىٰ أبو الوليد ابن رشد المالكي في كتابه بداية المجتهد[٣] اتفاقَ العلماء علىٰ اشتراط النية في العبادات، وحكىٰ الاختلاف في الوضوء؛ لاختلافهم في أنه مقصد أو وسيلة. وحكىٰ ابن التين[٤] أنهم لا يختلفون في أن العبادة المحضة مفتقرة إلىٰ

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب آداب الصحبة.

(٢) طرح التثريب ٢/ ١١.

(٣) بداية المجتهد ١/ ٣٤ - ٣٥ (ط - مكتبة ابن تيمية).

(٤) ما عزاه العراقي هنا لابن التين هو تتمة كلام ابن رشد.

النية، والعبادة المفهومة المعنىٰ غير مفتقرة إلىٰ النية[1] **(هذا إذا فعل عن غفلة، فإن قصد به رياءً أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كعدمه، بل زاده شرًّا، فإنه لم يؤكِّد الصفةَ المطلوب تأكيدها حتىٰ أكَّد الصفةَ المطلوب قمعها وهي صفة الرياء التي هي من الميل إلىٰ الدنيا. فهذا وجه كون النية خيرًا من العمل)** وقد ذُكرت في سبب الترجيح وجوه أُخَر غير ما ذكره المصنف، فمنها: أن الله عَزَّوَجَلَّ يهب النية للعبد خالصةً لا يشوبها شيءٌ إذا وهبها، ولا تدخل عليها الآفات، فهذا عطاء مهنَّأ، وسائر الأعمال مدخولة. نقله صاحب القوت. ومنها: أن المراد إخلاصه في العمل خير من العمل. نقله صاحب القوت عن عبد الرحيم بن يحيىٰ الأسود. قال: فالإخلاص بغير عمل خير من عمل غير مخلص، والنية عنده هي نفس الإخلاص، وعند غيره هي الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية. وسيأتي الكلام علىٰ الإخلاص والصدق. ومنها: أن النية فعلُ القلب، وفعلُ الأشرف أشرف. ومنها: أن القصد من الطاعة تنوير القلب، وتنويره بها أكثر؛ لأنها صفته. ومنها: أن النية عبودية القلب، والعمل عبودية الجوارح، وعملُ القلب أبلغ وأنفع، وهو أمير الجوارح. وهذه الوجوه الثلاثة الأخيرة مفهومة من سياق المصنِّف عند التأمُّل. ومنها: ما قاله البيضاوي[2] في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُضَـٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]: بفضله علىٰ حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه، ومن أجله تفاوتت الأعمال في مقادير الثواب. ا. هـ. فالمعنىٰ أن جنس النية راجح علىٰ جنس العمل، بدلالة أن كلاًّ من الجنسين إذا انفرد عن الآخر يثاب علىٰ الأول دون الثاني، وهذا لا يتمشَّىٰ في حق الكافر، ولذا قال: «نية المؤمن خير من عمله». ومنها: أن العمل يدخل تحت الحصر، والنية لا؛ إذ المتحقق في إيمانه عقد نيتَه علىٰ أن يطيع الله ما أحياه، ولو أماته ثم أحياه وثم وثم .. وهذا اعتقاد منبرم مستدام، فيترتَّب له من الجزاء

---

(١) انظر: بدائع الصنائع للكساني ١/ ١٠٩ (ط التوفيقية)، الودائع لمنصوص الشرائع لابن سريج ص ١٣١ (ط علم لإحياء التراث القاهرة)

(٢) أنوار التنزيل ١/ ١٥٧.

علىٰ نيته ما كان يترتَّب له علىٰ عمله. ومنها: أن المؤمن كلَّما عمل خيرًا نوىٰ أن يعمل ما هو خير منه، فليس لنيته في الخير منتهىٰ، والفاجر كلما عمل شرًّا نوىٰ أن يعمل ما هو شرٌّ منه، فليس لنيته في الشر منتهىٰ[1]. ومنها: أن المؤمن ينوي أن يصوم النهار ويقوم الليل ويُخرِج من ماله، فلا تتابعه نفسُه علىٰ ذلك، فنيته أبلغ من عمله. وهذا نُقل عن ثابت البناني أحد رُواة هذا الحديث، كما في القوت. ومنها: أن النية هي التي تقلب العمل الصالح فاسدًا والفاسد صالحًا، فكانت أبلغ وأنفع. فهذه عشرة أوجه غير التي ذكرها المصنف، يكون الجميع خمسة عشر وجهًا **(وبهذا أيضًا يُعرَف معنىٰ قوله ﷺ: مَن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة)** تقدم، وتمامه: «فإن عملها كُتبت له عشر حسنات» **(لأن هم القلبِ هو ميله إلىٰ الخير وانصرافه عن الهوىٰ و)** عن **(حب الدنيا، وهي غاية الحسنات، وإنما الإتمام بالعمل يزيدها تأكيدًا، فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم، بل ميل القلب عن حب الدنيا وبذلها إيثارًا لوجه الله تعالىٰ، وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمَّة وإن عاقَ عن العمل عائقٌ فـ** ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾) [الحج: ٣٧] كما في الكتاب العزيز **(والتقوىٰ ههنا، أعني القلب)** وهذا قد رواه أبو يعلىٰ من حديث أبي هريرة بلفظ «التقوىٰ ههنا» قاله ثلاثًا، وأشار إلىٰ القلب[2] **(ولذلك قال ﷺ: إن أقوامًا بالمدينة قد شركونا في جهادنا. كما تقدم ذكره)** قريبًا **(لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالىٰ كقلوب الخارجين في الجهاد، وإنما فارقوهم بالأبدان لعوائق تخصُّ الأسبابَ الخارجة عن القلب، وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات)** وفي هذا السياق ردٌّ علىٰ مَن زعم أن حديث «مَن همَّ بحسنة» مضادٌّ لحديث «نية المؤمن خير من عمله» لدلالته علىٰ ترجيح العمل **(وبهذه المعاني**

---

(١) هذه الوجوه ذكرها المناوي في فيض القدير ٦/ ٢٩١ - ٢٩٢.

(٢) الحديث في صحيح مسلم، وتقدم بتمامه في كتاب آداب الصحبة.

تفهم جميع الأحاديث التي أوردناها في فضيلة النية، فاعرضْها عليها لتنكشف لك أسراراها، فلا نطوِّل بالإعادة) قال الكمال محمد بن إسحاق الصوفي في مقاصد المنجيات: سألت الإمام عز الدين ابن عبد السلام عن ترجيح النية علىٰ العمل، فأجاب بأن الوسيلة ليست أفضل من مقصودها[1]. ا.هـ. قال: وهذا بحسب نظر الناظر، فمَن نظر إلىٰ أن النية وسيلة محثَّة علىٰ العمل قال: العمل أفضل من النية؛ لأنه مقصودها، كمَن نوىٰ أن يتصدَّق بمال ثم تصدَّق به كان فضل العمل بقدْر ما أدخل من السرور علىٰ قلوب الفقراء والصالحين لسدِّ خلَّتهم. ومَن نظر إلىٰ أن أعمال الجوارح المنوطة بالنية هي وسائل لتقوية النية قال: النية أفضل؛ إذ الأعمال بهذا الاعتبار وسيلة إلىٰ تقوية النية، وكأنَّها وسيلة أولاً مقصودة آخرًا، وهذا معنىٰ ما ذكره الإمام الغزالي، وهو نظرٌ صحيح لمَن تأمَّله. والله أعلم.

---

(١) في كتاب القواعد الصغرىٰ المسمىٰ الفوائد في اختصار المقاصد للعز ابن عبد السلام ص ٤٣ (ط - دار الفكر) ما نصه: «للمصالح والمفاسد أسباب ووسائل، وللوسائل أحكام المقاصد من الندب والإيجاب والتحريم والكراهة والإباحة، ورُب وسيلة أفضل من مقصودها كالمعارف والأحوال وبعض الطاعات فإنها أفضل من ثوابها».

بيان تفضيل[1] الأعمال المتعلقة بالنية

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن الأعمال وإن انقسمت أقسامًا كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفكر وذِكر وغير ذلك ممَّا لا يُتصوَّر إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام: طاعات ومعاصٍ ومباحات) كأنَّه يشير إلىٰ بيان الأعمال التي ذُكرت في حديث «إنما الأعمال بالنيات»، وقد قالوا: إن[2] المراد بها أعمال الجوارح حتىٰ يدخل في ذلك الأقوالُ فإنها عمل اللسان وهو من الجوارح، قال ابن دقيق العيد[3]: ورأيت بعض المتأخرين من أهل الخلاف خصَّه بما لا يكون قولاً وأخرج الأقوال من ذلك. قال: وهذا عندي بعيد، ولا تردُّد عندي في أن الحديث يتناول الأقوال أيضًا.

(القسم الأول: المعاصي، وهي لا تتغيَّر عن موضعها بالنية) ولا تصح فيها النيةُ (فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات، فيظن أن المعصية تنقلب طاعةً بالنية، كالذي يغتاب إنسانًا مراعاةً لقلب غيره) بنية الإرضاء (أو يطعم فقيرًا من مال غيره) بنية الصدقة (أو يبني مدرسة أو مسجدًا أو رباطًا بمال حرام وقصدُه الخير) وهو بقاء أجرها بعد موته، وكذا إذا غصب أرضًا بنية أن يبنيها مسجدًا (فهذا كله جهلٌ، والنية لا تؤثِّر في إخراجه عن كونه ظلمًا وعدوانًا ومعصية، بل قصدُه الخير بالشر علىٰ خلاف مقتضَىٰ الشرع شرٌّ آخر) فمن ذلك الإصرار علىٰ تلك المعصية والفرح بها واستخفافها، كما ذكرناه في كتاب التوبة (فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهلَه فهو عاصٍ بجهله؛ إذ طلبُ

---

(١) الصواب: تفصيل، كما تقدم.

(٢) طرح التثريب ٢/ ٦ - ٧.

(٣) إحكام الأحكام ١/ ١٠.

العلم فريضة علىٰ كل مسلم) رواه ابن ماجه من حديث أنس، وقد تقدم الكلام عليه في كتاب العلم **(والخيرات إنما يُعرَف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيرًا؟ هيهات! بل المروِّج)** أي المزيِّن **(لذلك علىٰ القلب خفيُّ الشهوة وباطن الهوىٰ، فإن القلب إذا كان مائلاً إلىٰ طلب الجاه واستمالة قلوب الناس وسائر حظوظ النفوس توسَّل الشيطان به إلىٰ التلبيس علىٰ الجاهل، ولذلك قال)** أبو محمد **(سهل)** التستري **(رحمه الله تعالىٰ: ما عُصي الله تعالىٰ بمعصية أعظم من الجهل. قيل: يا أبا محمد، هل تعرف شيئًا أشد من الجهل؟ قال: نعم)** قيل: ما هو؟ قال: **(الجهل بالجهل)** قال صاحب القوت: يعني أن يكون العبد جاهلاً وهو لا يعلم [أنه جاهل] أو يحسب بجهله أنه عالِم فيسكت عن جهله ويرضىٰ به [فلا يتعلَّم] فيضيِّع فرض الفرائض وأصل الفرائض كلها وهو طلبُ العلم، ولعله أن يفتي بالجهل أو يتكلم بالشبهات وهو يظن أنها علمٌ، وهذا أعظم من سكوته. وإليه أشار المصنف بقوله: **(وهو كما قال؛ لأن الجهل بالجهل يسدُّ بالكلية باب التعلُّم، فمَن يظن بنفسه أنه عالِم فكيف يتعلَّم)** وقد رُوي عن الخليل بن أحمد قال: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالِم فجالِسوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري [فذلك غافل فنبِّهوه] ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك ضالٌّ فأرشِدوه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فامقتوه[1] **(وكذلك أفضل ما أطيعَ الله به العلم، ورأس العلمِ العلمُ بالعلم، كما أن رأس الجهلِ الجهلُ بالجهل، فإنَّ مَن لا يعلم النافع من العلم والضارَّ اشتغل بما أكبَّ الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلىٰ الدنيا، وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالَم)** ولفظ القوت: وكذلك أيضًا ما أطيعَ الله تعالىٰ بمثل العلم، ومَن العلم أن يعلم أيَّ شيء هو [العلم] وذلك أيضًا واجب من حيث كان

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٩٨، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٨٢٠، والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٨٢.

العلم واجبًا ليكون علىٰ بصيرة من تعلُّم العلم؛ لأنه قد دخل مذهب المتكلمين وأقوال الغالطين من الصوفية والقُصَّاص في شبهات العلم، فصار زخرفًا من القول غرورًا، يشبه العلمَ وليس بعلم؛ لالتباس المعنىٰ بعضه ببعض، ولإشكال دقائق العلوم وغرائبها، وخفاء السنَّة من طريق علماء السلف، فاختلط لذلك القُصَّاص والمتكلمون بالعلماء، فصارت معرفة العلم أيُّ شيء هو والعلم بالعالِم مَن هو علمًا آخر، وصار العالِم بالعلم ما هو دون الزخرف من القول كأنَّه عالم، فكان أيضًا العلم بالعلم بمنزلة فضل العلم، ووجب وجوبَه، كما كان الجهل بالجهل أعظم [من الجهل] وقد كان سهل رحمه الله تعالىٰ يقول: قسوة القلب بالجهل أشد من قسوته بالمعاصي؛ لأن الجهل ظلمة لا ينفع البصرُ فيه شيئًا، ونور العلم يهتدي به القاصد وإن لم يمشِ (**والمقصود أنَّ مَن قصد الخير بمعصية عن جهل فهو غير معذور**) ولفظ القوت: وإن كان قد خفيَ عليه الهوىٰ أو دقَّ عليه لطيفُ حب الدنيا لجهله بالعلم فهو مأثوم فيه؛ لتقصيره في طلب العلم الذي يعرف به الإخلاص وسكوته علىٰ الجهل الذي يدخل منه الانتفاصُ، ولا عذر له في ذلك (**إلا إذا كان قريب العهد بالإسلام ولم يجد بعدُ مهلة للتعلُّم، وقد قال الله سبحانه:** ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] **وقال النبي ﷺ: لا يُعذَر الجاهل علىٰ الجهل، ولا يحلُّ للجاهل أن يسكت علىٰ جهله، ولا للعالِم أن يسكت علىٰ علمه**) كذا في القوت. قال العراقي(١): رواه الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في «رياضة المتعلِّمين» من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله «لا يُعذَر الجاهل علىٰ الجهل». وقال: لا ينبغي، بدل: لا يحلُّ.

قلت: لفظ الطبراني في الأوسط: «لا ينبغي للعالِم أن يسكت علىٰ علمه، ولا ينبغي للجاهل أن يسكت علىٰ جهله، قال الله تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٤٣﴾». وقد تقدم في كتاب العلم.

---

(١) المغني ٢/ ١١٧١.

(ويقرُب من تقرُّب السلاطين ببناء المساجد والمدارس) والرباطات (بالمال الحرام تقرُّبُ العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور، القاصرين هِمَمهم علىٰ مُماراة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس) إليهم (وجمعِ حُطام الدنيا وأخذِ أموال السلاطين واليتامىٰ والمساكين، فإنَّ هؤلاء إذا تعلَّموا كانوا قُطَّاع طريق الله، وانتهض كل واحد منهم في بلدته نائبًا عن الدجَّال) قائمًا مقامه (يتكالب علىٰ الدنيا، ويتَّبع الهوىٰ، ويتباعد عن التقوىٰ، ويستجرئ الناس بسبب مشاهدته علىٰ مناهي الله تعالىٰ. ثم قد ينتشر ذلك العلم إلىٰ مثله وأمثاله ويتَّخذونه أيضًا آلة ووسيلة في الشر واتِّباع الهوىٰ، ويتسلسل ذلك، ووبال جميعه يرجع إلىٰ المعلِّم الذي علَّمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مَطعمه وملبسه ومسكنه، فيموت هذا العالِم وتبقىٰ آثار شرِّه منتشرة في العالَم ألف سنة مثلاً وألفي سنة، وطوبىٰ لمَن إذا مات ماتت معه ذنوبه) ومن هذا القبيل من يحدِّث الناسَ بحديث لا يبلغ عقولهم بنية نشرِ العلم (ثم العجب من جهله حيث يقول: إنما الأعمال بالنيات، وقد قصدتُ بذلك نشر علم الدين، فإن استعمله هو في الفساد فالمعصية منه لا مني، وما قصدت به إلا أن يستعين به علىٰ الخير. وإنما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلوِّ العلم يحسِّن ذلك في قلبه) ويزيِّنه في عينه (والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبِّس عليه، وليت شِعري ما جوابه عمَّن وهب سيفًا من قاطع طريق) للمسلمين (وأعدَّ له خيلاً وأسبابًا يستعين بها علىٰ مقصوده ويقول: إنما أردتُ البذل والسخاء والتخلُّق بأخلاق جميلة[1]، وقصدتُ به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله) تعالىٰ (فإن إعداد الخيل والرباط والقوة للغزاة من أفضل القربات) كما وردت به الأخبارُ (فإن هو صرفه إلىٰ قطع الطريق فهو العاصي، وقد أجمع الفقهاء علىٰ أن ذلك حرام) كما حكاه ابن المنذر وغيره، وصرَّح به النوويُّ تبعًا للرافعي (مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلىٰ الله تعالىٰ، حتىٰ قال

(١) في أ، وط المنهاج: بأخلاق الله. وفي ب: بالأخلاق الجميلة.

رسول الله ﷺ: إن لله تعالىٰ ثلاثمائة خُلُق، مَن تقرَّب إليه بواحد منها دخل الجنة، وأحبُّها إليه السخاء) تقدم في كتاب المحبة والشوق نحوه دون قوله «وأحبُّها إليه السخاء» (فليت شِعري لِم حُرِمَ هذا السخاء، ولِمَ وجب عليه أن ينظر إلىٰ قرينة الحال من هذا الظالم، فإذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح علىٰ الشر فينبغي أن يسعىٰ في سلب سلاحه لا في أن يمدَّه بغيره) هذا في السلاح الظاهر (والعلم) أيضًا بمنزلة (سلاح) في أنه (يقاتل به الشيطان و) سائر (أعداء الله، و) هو (قد يعاون به أعداء الله وهو الهوىٰ، فمَن لا يزال مؤثِرًا لدنياه علىٰ دينه ولهواه علىٰ آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكَّن به من الوصول إلىٰ شهواته، بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله تعالىٰ يتفقَّدون أحوال مَن يتردَّد إليهم) لأجل الاستفادة (فلو رأوا منه تقصيرًا في نفل من النوافل) فضلاً عن الفرائض (أنكروه وتركوا إكرامه) وأعرضوا عنه بوجوههم (وإذا رأوا منه فجورًا أو استحلال حرام هجروه ونفوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلاً عن تعليمه؛ لعلمهم بأن مَن تعلَّم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلىٰ غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر، وقد تعوَّذ جميع السلف بالله من الفاجر العالِم بالسنَّة، ولم يتعوَّذوا من الفاجر الجاهل) وقد رُوي ذلك عن عمر وغيره. قال أحمد بن عبد الله العجلي[١]: قال عمر رضي الله عنه للأحنف بن قيس مع قومه من بنىٰ تميم لمَّا دخل عليه وكلَّمه: ويحك يا أحنف! لمَّا رأيتك ازدريتك، فلما نطقتَ قلتُ لعله منافق صنع اللسان، فلما اختبرتك حمدتُك، ولذلك حبستك. وكان حبسه سنة.

وروىٰ مالك بن مغول عن أبي حصين عن زياد بن حدير قال: قال عمر: يهدم الإسلام ثلاث: زلَّة عالِم، وجدال منافق بالقرآن وأئمة مضلُّون[٢].

وفي جزء أبي الجهم[٣]: حدثنا سوار، حدثنا مجالد، عن أبي الوداك، عن

(١) معرفة الثقات ١/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) رواه الفريابي في صفة النفاق ص ٤٣ من هذا الطريق. ورواه أيضا ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٠٨، وعنده: الزمان، بدل: الإسلام. وضيعة، بدل: زلة.

(٣) جزء أبي الجهم العلاء بن موسىٰ الباهلي ص ٥٤ - ٥٥ (ط - مكتبة الرشد).

أبي سعيد، عن ابن عباس قال: خطبنا عمر فقال: إن أخوف ما أخاف عليكم تغيُّر الزمان، وزيغة عالِم، وجدال منافق بالقرآن، وأئمَّة مضلُّون يضلُّون الناس بغير علم».

قلت: وقد رُوي بعض ذلك مرفوعًا من حديث عمر وغيره، روىٰ أحمد[١] وابن أبي الدنيا في ذم الغيبة[٢] وابن عدي[٣] ونصر المقدسي في الحُجة[٤] والبيهقي[٥] والضياء[٦] من حديث عمر: «إن أخوف ما أخاف علىٰ أمَّتي كل منافق عليم اللسان». ورواه الطبراني[٧] والبيهقي[٨] من حديث عمران بن الحصين بلفظ: عليكم بعدي، بدل قوله: علىٰ أمَّتي. وروىٰ أبو نصر السجزي في الإبانة[٩] من حديث ابن عمر: «إن أخوف ما أخاف علىٰ أمَّتي ثلاثة: زلَّة عالِم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم، فاتَّهِموها علىٰ أنفسكم». ورواه الطبراني[١٠] نحوه من حديث معاذ.

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢٨٩، ٣٩٩.

(٢) ذم الغيبة والنميمة ص ٢٥.

(٣) الكامل في الضعفاء ٣/ ٩٧٠.

(٤) مختصر الحجة علىٰ تارك المحجة ص ٥٧٠ - ٥٧١.

(٥) شعب الإيمان ٣/ ٢٧٣.

(٦) الأحاديث المختارة ١/ ٣٤٣ - ٣٤٤.

(٧) المعجم الكبير ١٨/ ٢٣٧.

(٨) شعب الإيمان ٣/ ٢٧٢.

(٩) وكذلك البيهقي في شعب الإيمان ١٢/ ٥٢٤، وابن الأعرابي في الزهد وصفة الزاهدين ص ٨٥، وقوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٥٣٤، والهروي في ذم الكلام ١/ ٣٧٨.

(١٠) المعجم الكبير ٢٠/ ١٣٩، وفيه: «ودنيا تفتح عليكم». ورواه في المعجم الأوسط ٨/ ٣٠٧ مطولا بلفظ: «إياكم وثلاثة: زلة عالم، وجدال منافق بالقرآن، ودنيا تقطع أعناقكم. فأما زلة عالم فإن اهتدىٰ فلا تقلدوه دينكم، وإن زل فلا تقطعوا عنه آمالكم. وأما جدال منافق بالقرآن فإن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فخذوه، وما أنكرتم فردوه إلىٰ عالمه. وأما دنيا تقطع أعناقكم فمن جعل الله في قلبه غنىٰ فهو الغني».

(حُكي عن بعض أصحاب) الإمام (أحمد بن حنبل رحمه الله تعالىٰ أنه كان يتردَّد إليه سنين) للاستفادة، وكان يُقبِل إليه بوجهه ويكرمه ويفيده (ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلِّمه، فلم يزل يسأله عن تغيُّره عليه وهو لا يذكره، حتىٰ قال: بلغني أنك طيَّنت حائط دارك من جانب الشارع، فقد أخذتَ قدْر سُمْك الطين وهو أُنملة من شارع المسلمين، فلا تصلُح لنقل[1] العلم) نقله صاحب القوت.

(فهكذا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم، وهذا وأمثاله ممَّا يلتبس علىٰ الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيالسة والأكمام الواسعة وأصحاب الألسنة الطويلة والفضل الكثير، أعني الفضل من العلوم التي لا تشتمل علىٰ التحذير من الدنيا والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها، بل هي العلوم التي تتعلَّق بالخلق) في فصل خصوماتهم ونظم معايشهم (ويُتوصَّل بها إلىٰ جمع الحُطام واستتباع الناس والتقدُّم علىٰ الأقران) بالرياسة والافتخار.

(فإذًا قوله ﷺ: الأعمال بالنيات) هكذا رواه ابن حبان في الأنواع والتقاسيم بدون «إنما» (يختصُّ من الأقسام الثلاثة بالطاعات والمباحات) فقط (دون المعاصي؛ إذ الطاعة تنقلب معصيةً بالقصد، والمباح ينقلب معصية وطاعةً بالقصد) والنية (فأما المعصية فلا تنقلب طاعةً بالقصد أصلاً. نعم، للنية دخلٌ فيها وهو أنه إذا انضاف إليها قصود خبيثة تضاعَفَ وِزرُها وعظُم وبالُها) من الإصرار والفرح والاستخفاف (كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة) فلا نعيده.

(القسم الثاني: الطاعات، وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحَّتها) علىٰ اختلاف فيه تقدمت الإشارة إليه (وفي تضاعُف فضلها. أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالىٰ لا غير، فإن نوىٰ الرياء صارت معصيةً) فأصل صحَّتها بتخليصها من الشوائب، وكذا تمييز رُتَب العبادات بعضها عن بعض كتمييز الفرض عن

---

(١) في أ، وط المنهاج ٩/ ٣٥: لتعلم.

النفل، والنفل عن العبادة. وهذا مستوعَب فيما تقدَّم في الربع الأول (**وأما تضاعُفُ الفضل**) فعلىٰ ضربين، أحدهما ما أشار إليه المصنف بقوله: (**فبكثرة النيَّات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثوابٌ؛ إذ كل واحدة منها حسنة، ثم تُضاعَف كل حسنة عشر أمثالها، كما ورد به الخبر**) رواه هنَّاد من حديث أنس، وقد تقدم (**ومثاله: القعود في المسجد، فإنه طاعة**) من الطاعات (**ويمكن أن ينوي فيه نيَّات كثيرة حتىٰ يصير من فضائل أعمال المتقين**) وأفضال شأن الدين (**ويبلغ به درجات**) المحسنين (**المقرَّبين:**

أولها: أن يعتقد أنه بيت الله، وأن داخله زائر الله، فيقصد به زيارةَ مولاه) لينال بذلك كرامةَ الزائرين (**رجاءً لِما وعده به رسولُ الله ﷺ، حيث قال: مَن قعد في المسجد فقد زار الله تعالىٰ، وحقٌّ علىٰ المَزُور إكرام زائره**) رواه[١] ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان، وللبيهقي في الشعب نحوه من رواية جماعة من الصحابة لم يُسمَّوا بإسناد صحيح، وقد تقدما في كتاب الصلاة.

(**وثانيها: أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة، فيكون في جملة انتظاره**) كأنَّه (**في الصلاة**) فقد روىٰ ابن جرير من حديث أبي هريرة: «مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة، والملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمْه ما لم يُحدِث»[٢]. وروىٰ مالك في الموطأ[٣] وابن حبان[٤] والطبراني[٥] والحاكم[٦]

---

(١) المغني للعراقي ٢/ ١١٧٢.

(٢) حديث أبي هريرة رواه البخاري ١/ ٧٨، ١٦٠، ١٧٠، ٢١٦، ٢١٩، ٢/ ٩٤، ٤٢٨ ومسلم ١/ ٢٩٨ مطولا ومختصرا.

(٣) الموطأ ١/ ١٠٩.

(٤) صحيح ابن حبان ٧/ ٨.

(٥) المعجم الكبير ١٤/ ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٦) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٤٠٥.

والبيهقي[١] والضياء[٢] من حديث عبد الله بن سلام وأبي هريرة: «مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة حتىٰ يصلي». وروىٰ عبد بن حميد[٣] وابن جرير والطبراني[٤] من حديث سهل بن سعد: «مَن جلس في المسجد ينتظر الصلاة فهو في صلاة». وروىٰ عبد بن حميد[٥] من حديث جابر: «المرء في صلاة ما انتظرها» (**وهو معنىٰ قوله تعالىٰ:** ﴿وَرَابِطُواْ﴾) [آل عمران: ٢٠٠] روىٰ[٦] ابن جرير[٧] وابن المنذر[٨] والحاكم[٩] وصحَّحه من طريق داود بن صالح قال: قال أبو سلمة: تدري في أيِّ شيء نزلت هذه الآية: ﴿ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾؟ قلت: لا. قال: سمعت أبا هريرة يقول: لم يكن في زمان النبي ﷺ غزوٌ [يرابَط فيه، ولكن انتظار الصلاة بعد الصلاة. وأخرج ابن مردويه من وجه آخر عن أبي سلمة قال: أقبل عليَّ أبو هريرة يومًا فقال: أتدري يا ابن أخي فيما أُنزلت هذه الآية؟ قلت: لا. قال: أما إنه لم يكن في زمان النبي ﷺ غزوٌ] يرابطون فيه، ولكنها نزلت في قوم يعمُرون المساجد، يصلون الصلاة في مواقيتها ثم يذكرون الله فيها، فعليهم أُنزلت ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾ أي علىٰ الصلوات الخمس ﴿وَصَابِرُواْ﴾ أنفسكم وهواكم ﴿وَرَابِطُواْ﴾ في مساجدكم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فيما عليكم ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾. وروىٰ ابن جرير[١٠] من حديث جابر وعليٍّ: «ألا أدلُّكم علىٰ ما يمحو الله

---

(١) السنن الكبرىٰ ٣/ ٣٥٦.

(٢) الأحاديث المختارة ٩/ ٤٢٤ - ٤٣٠.

(٣) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ٣٧٢.

(٤) المعجم الكبير ٦/ ٢٠٣.

(٥) المنتخب من مسند عبد بن حميد ٢/ ١٠٠.

(٦) الدر المنثور ٤/ ١٩٥ - ١٩٧.

(٧) جامع البيان ٦/ ٣٣٥.

(٨) تفسير ابن المنذر ص ٥٤٤.

(٩) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٣٥٩.

(١٠) جامع البيان ٦/ ٣٣٥.

به الخطايا ويكفِّر به الذنوب»؟ قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: «إسباغ الوضوء عند المكاره، وكثرة الخُطا إلىٰ المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط». ورواه ابن مردويه من حديث أبي أيوب، وفيه: «فذلكم هو الرباط في المساجد». ورواه ابن جرير[1] وابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة، وفيه: «فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط»[2]. وروىٰ ابن أبي حاتم عن أبي غسان قال: إنما نزلت هذه الآية في لزوم المساجد.

(وثالثها: **الترهُّب بكفِّ السمع والبصر**) عن المنهيَّات (**والأعضاء عن الحركات والتردُّدات، فإن الاعتكاف كفٌّ**) أي منعٌ، فمَن دخل المسجد ونوىٰ الاعتكاف فقد كفَّ نفسه عن المنهيَّات، فيكون ذلك من الفائزين (**وهو في معنىٰ الصوم**) الذي هو منعُ النفس عن الشهوات (**وهو نوع ترهُّب، ولذلك قال رسول الله ﷺ: رهبانيَّة أمتي القعود في المساجد**) كذا في القوت. وقال العراقي[3]: لم أجد له أصلاً.

(ورابعها: **عكوف الهمِّ علىٰ الله**) بأن لا يخطر بقلبه غير الله (**ولزوم السر**) وهو باطن القلب (**للفكر في**) أمور (**الآخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلىٰ المسجد**) فيكون بذلك من الأقربين.

(وخامسها: **التجرُّد لذكر الله**) تعالىٰ إن أمكنه (**أو لاستماع ذِكره وللتذكُّر به**) فيكون بذلك من المرحومين المجاهدين (**كما رُوي في الخبر: مَن غدا إلىٰ المسجد ليذكر الله تعالىٰ أو يذكِّر به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالىٰ**) كذا في القوت. قال العراقي[4]: هو معروف من قول كعب الأحبار، رويناه في جزء ابن طوق والطبراني

---

(١) السابق ٠/ ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢) حديث أبي هريرة رواه مسلم في صحيحه ١/ ١٣٢.

(٣) المغني ٢/ ١١٧٢. والمشهور في الحديث: «رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله».

(٤) المغني ٢/ ١١٧٢.

في الكبير[١] من حديث أبي أمامة: «مَن غدا إلىٰ المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلِّمه كان له كأجر حج تام». وإسناده جيد. وفي الصحيحين[٢] من حديث أبي هريرة: «مَن غدا إلىٰ المسجد أو راح أعدَّ الله له في الجنه نُزُلاً كلما غدا أو راح».

قلت: لفظ حديث أبي أمامة عند الطبراني: «مَن غدا إلىٰ المسجد لا يريد إلا أن يتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه كان له كأجر معتمر تام العمرة، ومَن راح إلىٰ المسجد لا يريد إلا ليتعلَّم خيرًا أو يعلِّمه فله أجر حاج تام الحجة». وقد رواه كذلك الحاكم[٣] وصاحب الحلية[٤] وابن عساكر[٥] والضياء.

وربما يشهد لِما أورده المصنف ما رواه أبو الشيخ[٦] من حديث الزبير: «مَن جلس من حين يصلي المغرب يذكر الله حتىٰ يصلي العشاء كان مجلسه ذلك مثل روحة في سبيل الله، ومَن جلس من حين يصلي الغَداة يذكر الله حتىٰ تطلع الشمس كانت مثل غدوة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ».

قال صاحب القوت: ومثل ذلك إذا جلس ليعلِّم علمًا أو يتعلَّمه كان أيضًا كالمجاهد في سبيل الله.

(وسادسها: أن يقصد إفادة علم بأمر بمعروف ونهي عن منكر؛ إذ المسجد لا يخلو عمَّن يسيء في صلاته) بإخلال شيء من أركانها وواجباتها وسننها وآدابها **(أو يتعاطىٰ ما لا يحل له، فيأمره بالمعروف)** وينهاه عن المنكر **(ويرشده إلىٰ الدين، فيكون شريكًا معه في خيره الذي يعلم منه فتتضاعف خيراتُه)** فيكون بذلك من خير

---

(١) المعجم الكبير ٨/ ١١١ - ١١٢.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٢٢٠. صحيح مسلم ١/ ٣٠١.

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥٨.

(٤) حلية الأولياء ٦/ ٩٧.

(٥) تاريخ دمشق ١٦/ ٤٥٦.

(٦) وكذلك ابن شاهين في الترغيب في فضائل الأعمال ص ٣٢، والدارقطني في المؤتلف والمختلف ١/ ٤٥٢. وأوله: قال رسول الله ﷺ: «غزوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها». فقال له رجل: يا نبي الله، فمن لم يستطع غزوا. قال: من جلس ... فذكره.

أَمَة. وقد وردت في الأمر بالمعروف وإرشاد الضالِّ والهداية أخبار كثيرة مرَّ ذِكرُها في مواضعها.

(وسابعها: أن يستفيد أخًا في الله) عَزَّوَجَلَّ **(فإنَّ ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة)** وقد تقدم ما يتعلق بذلك في كتاب الصحبة والأخوة **(والمسجد معشش أهل الدين المحبِّين لله وفي الله)** أي مَظَنَّة وجودهم فيه، فإنه محل أهل الله الصالحين وعشهم، فيكون ممَّن تحقُّ له صحبةُ الله، ويكون في ظلِّه يوم لا ظل إلا ظله.

(وثامنها: أن يترك الذنوب حياءً من الله تعالىٰ وخشيةً) أي خوفًا **(من أن يتعاطَىٰ في بيت)** من بيوت **(الله ما يقتضي هتك الحرمة)** وذلك من تقوىٰ القلوب، وقد يكون تركُ الذنوب لا من باب الحياء بل من باب الخشية من عذاب الله تعالىٰ لو تعاطَىٰ شيئًا من المخالفات في المساجد **(وقد قال الحسن بن علي** ﷺ: **مَن أدمن الاختلاف إلىٰ المسجد رزقه الله إحدىٰ سبع خصال: أخًا مستفادًا في الله، أو رحمة مستنزَلة، أو علمًا مستظرَفًا، أو كلمة تدلُّه علىٰ هدًى أو تصرفه عن ردًى، أو يترك الذنوب خشيةً أو حياءً)** منه. نقله صاحب القوت. قلت: وهذا قد رُوي مرفوعًا من حديثه، رواه الطبراني في الكبير[1] وابن عساكر[2] من طريق سعد بن طريف عن عمير بن المأمون عن الحسن بن علي. وعمير لا شيء، وسعد متروك[3].

(فهذا طريق تكثير النيَّات، وقِسْ به سائرَ الطاعات والمباحات؛ إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيَّات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جدِّه في طلب الخير وتشمُّره له وتفكُّره فيه، فبهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات)[4]

(١) المعجم الكبير ٣/ ٩١.

(٢) تاريخ دمشق ١٤/ ٩٢.

(٣) قاله السيوطي في الجامع الكبير ٨/ ٤٨٣.

(٤) وقد أفرد ابن الحاج العبدري المالكي في هذا المعنىٰ كتابًا سماه المدخل إلىٰ تنمية الأعمال بتحسين النيات.

وهي طريقة العلماء الذين تفرَّدوا لذكر الله، لا يعرفها غيرهم، قد وضع الذكر عنهم أوزارَهم فوردوا القيامةَ خِفافًا. الضرب الثاني في مضاعفة الفضل لم يُشِرْ إليه المصنف، وهو لا بد من ذِكره، وذلك أنه قد تقدم أن الجزاء في الآخرة علىٰ قدْر النيات، وتقدم أن النية تتَّبع المعرفة، والمعرفة تتَّبع الغرض المطلوب، وتمهَّد في الشريعة أن الجزاء الواقع في الآخرة موازن لأعمال العباد ومناسب له، كما ورد أن الصائمين يدخلون الجنة من باب الريَّان، وأن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، وأن المتكبِّرين علىٰ صُورَ الذَّرِّ، وأمثال هذا لا تنحصر، فإذا تحقَّقت أن العبد إذا لم يقصد بعلمه إلا امتثال أمر الله حياءً منه وتعظيمًا لجلاله وكبريائه وكماله في ذاته وصفاته وجميع أفعاله وأنه المستحقُّ لذلك بصفات الألوهية علىٰ عباده كان ذلك من أفضل النيات وأشرف القربات، وأثابه الله ما يناسب حُسن معرفته وقصده من النظر إلىٰ وجهه جلَّ سبحانه، ومَن ضعفت بصيرتُه عن ذروة الكمال حتىٰ لم يعرف من شهادة الآخرة إلا اللذات الحسِّية دلَّ علىٰ أنه لم يعرف من نعيم الجنان إلا أقل المراتب وأخفض المنازل، فإذا قصد بطاعته ذلك صحَّت نيته ونقصت عن درجات الكمال مع صحَّتها في نفسها، فإن الإنسان يطلق عليه الصحة والحياة وهو فاقد لجميع المحاسن المكمِّلة لصورة الرجال.

(**القسم الثالث: المباحات، وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نيةً أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات**) كما رُوي عن بشر الحافي رحمه الله تعالىٰ أنه رُؤي ماشيًا في طريق الحج، فسُئل عن ذلك، فقال: أريح الجمل وأسرُّ الجمَّال.

قال العراقي في شرح التقريب(1): كما اشترطوا النيةَ في العبادة اشترطوا في تعاطي ما هو مباح في نفس الأمر أن لا تكون معه نية تقتضي تحريمَه، كمَن جامع امرأته أو أمته ظانًّا أنها أجنبية، أو شرب شرابًا مباحًا وهو ظانٌّ أنه خمر، أو أقدم

---

(١) طرح التثريب ٢/١٨ - ١٩.

علىٰ استعمال مِلكه وهو ظانٌّ أنه لأجنبي، ونحو ذلك، فإنه يحرُم عليه تعاطي ذلك اعتبارًا بنيته، وإن كان مباحًا له في نفس الأمر، غير أن ذلك لا يوجب حدًّا ولا ضمانًا؛ لعدم التعدِّي في نفس الأمر، بل زاد بعضُهم علىٰ هذا بأنه لو تعاطىٰ شرب الماء وهو يعلم أنه ماء ولكن علىٰ صورة استعمال الحرام، كشربه في آنية الخمر في صورة مجلس الشراب صار حرامًا لشبهه بالشربة، وإن كانت النية لا يُتصوَّر وقوعها علىٰ الحرام مع العلم بحلِّه، ونحوه لو جامع أهله وهو في ذهنه مجامعة مَن تحرُم عليه وصوَّر في ذهنه أنه يجامع تلك الصورة المحرَّمة فإنه يحرُم عليه ذلك، وكل ذلك لشبهه بصورة الحرام.

(**فما أعظم خسران مَن يغفل عنها ويتعاطاها تعاطي البهائم المهمَلة عن سهو وغفلة**) وما أعظم حسرته (**ولا ينبغي أن يستحقر العبد شيئًا من الخطوات والخطرات واللحظات، فكل ذلك يُسئل عنه يوم القيامة أنه لِمَ فعله؟ وما الذي قصد به؟ هذا في مباح محض لا تشوبه كراهةٌ، ولذلك قال ﷺ: حلالها حساب، وحرامها عقاب**[1]) قد تقدم للعراقي أنه لم يجده، يعني مطلقًا مرفوعًا، وقد رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه عن علي موقوفًا بلفظ: وحرامها النار. وسنده منقطع. وقد رُوي من حديث ابن عباس عند الديلمي بلفظ: «يا ابن آدم [ما تصنع] بالدنيا؟ حلالها حساب، وحرامها عقاب». ومن حديث أنس عند الحاكم فى اثناء حديث أف للدنيا وما فيها من البليات حلالها حساب وحرامها عقاب»[2].

(**وفي حديث معاذ بن جبل**) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (**أن النبي ﷺ قال: إن العبد لَيُسئلُ يوم القيامة عن كل شيء حتىٰ عن كحل عينيه، وعن فتات الطينة بأصبعيه، وعن لمسه**

(١) في أ، وب، وط المنهاج: عذاب.

(٢) تقدم حديث علي وابن عباس في كتاب ذم الدنيا. أما حديث أنس فأخرجه السلمي في طبقات الصوفية ص ٦٤ بلفظ: «من أخذ من الدنيا من الحلال حاسبه الله به، ومن أخذ من الدنيا من الحرام عذبه الله به، أف للدنيا ...» الخ. وأورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٥٨٥.

ثوب أخيه) نقله صاحب القوت. وقال العراقي[١]: لم أجد له إسنادًا.

قلت: بل رواه أبو نعيم في الحلية[٢] بلفظ: «يا معاذ، إن المؤمن لدىٰ الحق أسير ...» وساق الحديث بتمامه، وفيه: «يا معاذ، إن المؤمن لَيُسئلُ يوم القيامة عن جميع سعيه حتىٰ عن كحل عينيه ...» الحديث.

(وفي خبر آخر: مَن تطيَّب لله تعالىٰ جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك، ومَن تطيَّب لغير الله تعالىٰ جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة) تقدم قريبًا أنه من مرسَل [إسحاق بن] عبد الله بن أبي طلحة، رواه أبو الوليد الصفَّار في كتاب الصلاة.

(فاستعمال الطِّيب مباح، ولكن لا بد فيه من نية.

فإن قلتَ: فما الذي يمكن أن يُنوَىٰ بالطيب وهو حظٌّ من حظوظ النفس؟ وكيف يتطيَّب لله؟ فاعلمْ أنَّ مَن يتطيَّب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يُتصوَّر أن يقصد التنعُّم بلذَّات الدنيا، أو يقصد به إظهار التفاخر بكثرة المال ليحسده أقرانه) ولِداتُه، فإنه لا يتنبه الإنسان لشراء الطيب إلا من فاضل المال بعد التفرُّغ من الحوائج الضرورية، ويدل ذلك علىٰ الكثرة **(أو يقصد به رياء الخلق ليقوم له الجاهُ في قلوبهم)** فيملكها بذلك **(ويُذكَر بطيب الرائحة، أو ليتودَّد به إلىٰ قلوب النساء الأجنبيات إذا كان مستحلاً للنظر إليهن، ولأمور أُخَر لا تُحصَىٰ، وكل هذا يجعل التطيُّب معصية، فبذلك يكون أنتن من الجيفة في القيامة)** لأن روائح المعاصي هكذا توجد هناك **(إلا القصد الأول وهو التلذُّذ والتنعُّم فإنَّ ذلك ليس بمعصية، إلا أنه يُسئل عنه، ومَن نوقِش الحساب عُذِّب)** رواه الشيخان من حديث عائشة، وعند الطبراني

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٣.

(٢) حلية الأولياء ١٠/ ٣١. ورواه في موضع آخر ١/ ٢٦ بلفظ: «إن المؤمن لدىٰ الحق أسير، يعلم أن عليه رقيبا علىٰ سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه حتىٰ اللمحة ببصره وفتات الطين بأصبعه وكحل عينيه وجميع سعيه». وقد رواه أيضا الطبراني في مسند الشاميين ٤/ ٣٥٥.

من حديث ابن الزبير: «مَن نوقِش المحاسبة هلك»[١] (ومَن أتىٰ شيئًا من مباح الدنيا لم يعذَّب عليه في الآخرة، ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدْره، وناهيك خسرانًا بأن يستعجل ما يفنَىٰ ويخسر زيادة نعيم لا يفنىٰ[٢]) فهذه النيات السيئة في استعمال الطيب (وأما النيات الحسنة فإنه ينوي به اتِّباع سنَّة رسول الله ﷺ) إذ قد عُرف من طريقته كثرة استعمال الطيب في كل وقت خصوصًا (يوم الجمعة) فإنه يوم القربة إلىٰ الله تعالىٰ (وينوي بذلك أيضًا تعظيمَ المسجد واحترام بيت الله) إذ المساجد بيوت الله تعالىٰ (فلا يرىٰ أن يدخله زائر الله) تعالىٰ (إلا) وهو (طيب الرائحة. وأن يقصد به ترويح جيرانه) في الصف (ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحه) الطيبة (وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التي تؤدِّي إلىٰ إيذاء مخالطيه) ممَّا يتحصَّل من الأعراق ولا سيَّما زمن الصيف (وأن يقصد حسم باب الغِيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله بسببه، فمَن تعرَّض للغيبة وهو قادر علىٰ الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية، كما قيل:

إذا ترحَّلتَ عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون همُ[٣]

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖۗ﴾ [الأنعام: ١٠٨] أشار به إلىٰ أن التسبُّب إلىٰ الشر شرٌّ) ومن الغريب أن الحافظ العراقي[٤] صحَّف قول المصنف «وأما النيات الحسنة» بقوله «وأما الثياب الحسنة»، وأورد حديث أبي هريرة «مَن اغتسل يوم الجمعة ومسَّ من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه ...» الحديث. وحديث عبد الله بن سلام: «ما علىٰ أحدكم لو اشترىٰ ثوبين ليوم الجمعة ...» الحديث. وحديث عمر في الحُلَّة السيراء

---

(١) تقدم ذلك في كتاب تهذيب النفس.

(٢) انظر: الموافقات للشاطبي عند كلامه عن المباح ١/ ١٧١ وما بعدها.

(٣) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه ص ٣٣٣.

(٤) المغني ٢/ ١١٧٣.

وقوله: لو اشتريتَ هذه فلبستَها يوم الجمعة. وهو صحيح، لكنه غير مراد في سياق المصنِّف، فتأمَّلْ ذلك، وسبحان مَن لا يسهو **(وأن يقصد به معالجة دماغه)** أي تقوية جوهره **(ليزيد به فطنتُه وذكاؤه، ويسهُل عليه)** بذلك **(دركُ مهمَّات دينه بالفكر)** الصحيح **(فقد)** اتفق الأطباء أن الروائح الطيبة تقوِّي الدماغ وتصحِّحه، ومن هنا **(قال الشافعي رحمه الله تعالىٰ: مَن طاب ريحُه زاد عقلُه)**[1] نقله البيهقي وغيره في مناقبه **(فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالبة علىٰ قلبه، وإذا لم يغلب علىٰ قلبه إلا نعيم الدنيا لم تحضره هذه النياتُ، وإن ذُكرت له لم ينبعث لها قلبُه، فلا يكون معه منها إلا حديث النفس)** فقط **(وليس هذا من النية في شيء، والمباحات كثيرة، ولا يمكن إحصاء النيات فيها، فقِسْ بهذا الواحد)** الذي ذكرناه سائرَ **(ما عداه)** ممَّا لم نذكر، فإنه لا ينحصر، فكُلْ لتتقوَّىٰ علىٰ عبادة الله، ونَمْ لتتقوَّىٰ علىٰ قيام الليل، وتنزَّهْ لتستعين علىٰ العبادة بكنه الهمة، فإن القلوب إذا أُكرِهت عميتْ، فاقتصِدْ في دخولك في عبادة الله، فإن المنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقىٰ **(ولهذا قال بعض العارفين من السلف**[2]**: إني لأستحبُّ أن يكون لي في كل شيء نية حتىٰ في أكلي وشربي ونومي ودخولي إلىٰ الخلاء)** نقله صاحب القوت هكذا، وفي موضع [آخر]: إني لأستعدُّ النيةَ في كل شيء قبل الدخول فيه حتىٰ في أكلي ونومي ودخولي الخلاء. والنية في هذا التقوِّي علىٰ الطاعة والاستعانة به علىٰ الخدمة؛ لأن النفس مطيَّتك إن قطعتَ بها قطعتْ بك، ونية المتطهِّر من التحلِّي لأجل الدين **(وكل ذلك ممَّا يمكن أن يُقصَد به التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ؛ لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمَّات**

---

(١) تقدم في الباب الثاني من كتاب العلم، وفي باب الجمعة من كتاب الصلاة.

(٢) هو زبيد بن الحارث اليامي، كما رواه عنه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٩٤، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٦١، والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٩١، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٧١٤، والخطيب في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٤٩٣. وليس في هذه المصادر ذكر دخول الخلاء.

البدن فهو مُعين علىٰ الدين، فمَن قصدُه من الأكل التقوِّي علىٰ العبادة) ومن النوم التقوِّي علىٰ قيام الليل **(ومن الوقاع تحصين دينه)** بتحصين فرجه (و) من الانبساط **(تطييب قلب أهله)** وإدخال السرور علىٰ قلوبهم، وغضِّ بصرك وبصر أهلك عن غيرك **(والتوصُّل به)** أي بالوقاع **(إلىٰ)** تحصيل **(ولد صالح يعبد الله تعالىٰ بعده)** ويدعو له **(فتكثُر به أمَّةُ محمد ﷺ)** فتكثُر بهم الخيرات **(كان مطيعًا بأكله ونكاحه)** وكذا بنومه وتنزُّهه وانبساطه (و) إنما خصَّ بهما لأن **(أغلب حظوظ النفس الأكل والنكاح، وقصدُ الخير بهما غير ممتنع لمَن غلب علىٰ قلبه همُّ الآخرة)** وكذا إن أمر بمعروف بنية امتثال أمر الله تعالىٰ، لا لعداوة ولا لغضب وحقد. هذا كله في الفعل (و) أما في الترك فإنه **(كذلك ينبغي أن يحسن نيتَه مهما ضاع له مال)** في بر أو بحر **(ويقول: هو في سبيل الله)** ويترك الطلب ولا يتعلق بأسبابه، وكذا إذا سكت عن منكر فليكن لعجز أو انتظار فرصة، لا لغشٍّ وعدم نصيحة. وإن ترك تجارة أو كسبًا فللتوكل علىٰ الله ولفراغ القلب لذكر الله، لا للترفُّع وخوف سقوط المنزلة عند الناس وكذا عند ..... من الفتوح وكذا ..... فليترك الحزن عليه ويراعي بقلبه الرضا بقضاء الله تعالىٰ **(وإذا)** خاصمه مخاصمٌ أو **(بلغه اغتياب غيره له فليطيِّب قلبَه)** وليصبر لوجه الله أو لِما أعدَّه الله له **(بأنه)** أي المغتاب **(سيحمل سيئاته)** علىٰ ظهره **(وستُنقَل إلىٰ ديوانه حسناته، ولينوِ ذلك بسكوته عن الجواب)** فإن عجز عن الصبر لوجه الله فالأفضل الدعاء له والترحُّم عليه حتىٰ لا يعرِّضه لسخط الله وعقابه بسببه، فلعلَّ الله أن يعفو عن عباده **(ففي الخبر: إن العبد لَيحاسَبُ فتبطُل أعمالُه لدخول الآفة فيها حتىٰ يستوجب النارَ، ثم يُنشَر له من الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنةَ، فيتعجَّب ويقول: يا رب، هذه أعمال ما عملتُها قط. فيقال: هذه أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلموك)** ولفظ القوت: ومَن أوذي أو اغتيبَ فليحتسب عِرضه عند الله تعالىٰ، فلعل ذلك يكون سيدًا من عمله وسببًا لنجاته، فقد رُوي في الخبر: «إن العبد لَيحاسَبُ علىٰ أعماله كلها، فتبطُل بدخول الآفات فيها حتىٰ يستوجب النارَ، ثم تُنشَر له أعمال من الحسنات لم يكن عملها [فيستوجب

بها الجنةَ، فيَعجب من ذلك فيقول: يا رب، هذه أعمال ما عملتُها] فيقال: هي أعمال الذين اغتابوك وآذوك [وظلموك] جُعلت حسناتهم لك».

قال العراقي[1]: رواه الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شَبَث بن سعد البلوي مختصرًا: «إن العبد ليلقَىٰ كتابَه يوم القيامة منتشرًا، فينظر فيه، فيرىٰ حسنات لم يعملها، فيقول: هذا لي ولم أعملها. فيقال: بما اغتابك الناس وأنت لا تشعر»[2]. وفيه ابن لهيعة.

قلت: رواه[3] أبو نعيم في كتاب المعرفة[4] وكذلك رواه ابن منده من طريق أحمد بن سيَّار. وراويه شبيب بن سعد بن مالك البلوي، قال ابن يونس[5]: له صحبة، وشهد فتح مصر، وله ذِكرٌ في كتاب الفتوح، وقال يحيىٰ بن عثمان بن صالح عن ابن عفير: شهد بيعة الرضوان وفتح مصر، ولا تُحفَظ له رواية. كذا قال، وليس كذلك، بل له رواية محفوظة كما ذكرنا. واختُلف في ضبطه، فقيل هكذا كما أوردناه بالشين والموحدة كأمير، وضبطه الآمدي هكذا إلا أنه قال: وآخره مثلثة، وقيل: هو بكسر أوله وسكون التحتية ثم مثنَّاة فوقية[6]. والله أعلم.

وقد رُوي من حديث أبي أمامة نحو من ذلك، ولفظه: «إن العبد ليُعطَىٰ كتابه يوم القيامة منشورًا، فيرىٰ فيه حسنات لم يعملها، فيقول: رب لم أعمل هذه الحسنات. فيقول: إنها كُتبت باغتياب الناس إيَّاك. وإن العبد لَيُعطَىٰ كتابه يوم القيامة منشورًا، فيقول: رب، ألم أعمل حسنة يوم كذا وكذا؟ فيقال له: مُحيت

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٣ - ١١٧٤.

(٢) الحديث في الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي ١/ ١٩٧ عن أبي أمامة الباهلي.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ٤٥.

(٤) معرفة الصحابة ٣/ ١٤٩٣، ولم يسقه بتمامه.

(٥) تاريخ مصر ص ٢٢٩.

(٦) عبارة ابن حجر في الإصابة: «وشبث ضبطه ابن ماكولا بفتح أوله وثانيه وآخره مثلثة، وقيل: هو بكسر أوله وسكون التحتانية ثم مثلثة». يعني: شيث. انظر: الإكمال لابن ماكولا ٥/ ٩٢.

عنك باغتيابك الناس». رواه الخرائطي في مساوئ الأخلاق[١]، وفيه الحسن بن دينار عن خصيب بن جحدر. فالحسن، قال النسائي[٢]: متروك. والخصيب كذَّبه شعبة والقَطَّان[٣].

وروىٰ الحكيم[٤] من حديث ابن عمر: «يُجاء بالعبد يوم القيامة، فتوضع حسناته في كفَّة وسيئاته في كفة، فترجح السيئات، فتجيء بطاقة فتقع في كفة الحسنات فترجح بها، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة؟ فما من عمل عملتُه في ليلي أو نهاري إلا وقد استقبلت به. قال: هذا ما قيل فيك وأنت منه بريء. فينجو بذلك».

(وفي الخبر: إن العبد ليوافي القيامةَ بحسنات أمثال الجبال لو خلصتْ له لدخل الجنة، فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا، فيُقتَصُّ لهذا من حسناته ولهذا من حسناته حتىٰ لا تبقىٰ له حسنة، فتقول الملائكة: قد فنيتْ حسناته وبقي طالبون. فيقول الله تعالىٰ: ألقوا عليه من سيئاتهم، ثم صُكُّوا له صكًّا إلىٰ النار) كذا في القوت. وروىٰ سمويه في فوائده وأبو نعيم في الحلية والخطيب في المتفق والمفترق من حديث سالم مولىٰ أبي حذيفة نحوه بلفظ: «ليجاءنَّ يوم القيامة بقوم معهم من الحسنات أمثال جبال تِهامة، حتىٰ إذا جيء بهم جعل الله أعمالهم هباءً ثم قذفهم في النار ...» الحديث. وقد تقدم في كتاب العُجب والرياء[٥]. وله أيضًا شاهد

(١) مساوئ الأخلاق ص ١٠٠.

(٢) الضعفاء والمتروكون ص ٨٨.

(٣) الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٣/ ٣٩٧. الكامل لابن عدي ٣/ ٩٣٩.

(٤) نوادر الأصول ص ١٤٤.

(٥) بل في كتاب ذم الدنيا. وقد روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢٠٢ عن ابن مسعود قال: «يؤخذ بيد العبد أو الأمة فينصب علىٰ رؤوس الأولين والآخرين، ثم ينادي منادٍ: هذا فلان ابن فلان، فمن كان له حق فليأتِ إلىٰ حقه. فتفرح المرأة أن يدور لها الحق علىٰ ابنها أو أخيها أو أبيها أو زوجها. ثم قرأ ابن مسعود: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝﴾ فيقول الرب تعالىٰ للعبد: ائت هؤلاء حقوقهم. فيقول: يا رب، فنيت الدنيا، فمن أين أوتيهم؟ فيقول للملائكة: خذوا من =

من حديث أبي أمامة الذي ذُكر قبل هذا.

وروىٰ صاحب القوت أيضًا: «إن العبد لَيرىٰ من أعماله الحسنات ما يرجو به المنازلَ في الجنة، فتُلقَىٰ عليه سيئات لم يعملها فتترجَّح بحسناته كلِّها فيستوجب النارَ، فيقول: يا رب، هذه سيئات ما عملتُها هلكتُ بها. فيقال: هذه ذنوب القوم الذين اغتبتَهم وآذيتهم وظلمتَهم، أُلقيتْ عليك وتخلَّصوا منها».

(**وبالجملة، فإياك ثم إياك**) يا أخي (**أن تستحقر شيئًا من حركاتك**) وسكناتك (**فلا تحترز من غرورها وشرورها، ولا تعدُّ جوابَها يوم السؤال والحساب، فإن الله مطَّلع عليك وشهيد و﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾**) [ق: ١٨] فلا تُقدِم ولا تحجم إلا بنية.

(**وقال بعض السلف: كتبت كتابًا وأردت أن أترِّبه من حائط جار لي، فتحرَّجت**) من ذلك (**ثم قلت: تراب وما تراب**)؟ كأنَّه استحقر شأنَه (**فأتربته، فهتف بي هاتف: سيعلم مَن استخفَّ بتراب ما يلقىٰ غدًا من سوء الحساب**)[1] نقله صاحب القوت.

(**وصلىٰ رجل مع**) سفيان (**الثوري**)[2] رحمه الله تعالىٰ صلاة [العيد] وكان

= أعماله الصالحة فأعطوا كل إنسان بقدر طلبته، فإن كان وليا لله فضلت من حسناته مثقال حبة من خردل من خير ضاعفها حتىٰ يدخله بها الجنة. ثم قرأ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ وإن كان عبدا شقيا قالت الملائكة: يا رب، فنيت حسناته، وبقي طالبون، فيقول للملائكة: خذوا من أعمالهم السيئة فأضيفوها إلىٰ سيئاته، وصكوا له صكا إلىٰ النار». ورواه أيضا ابن أبي الدنيا في الأهوال ص ٢٥٧، والطبري في جامع البيان ٧/ ٣٣.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٢٧ عن علي بن معبد قال: كتبت كتابا، فأخذت طينا من حائط، فوقع في نفسي منه شيء، فقلت: تراب وما تراب؟ فرأيت فيما يرىٰ النائم كأني يقال لي: سيعلم الذي يقول: وما تراب؟

(٢) الظاهر أن هذه القصة لسفيان بن عيينة وليس سفيان الثوري؛ لأن فيها أن الرجل قال له: يا أبا محمد، وهي كنية ابن عيينة، أما الثوري فيكنىٰ أبا عبد الله.

قد خرج معه بغَلَس (فرآه) حين أصبح (مقلوب الثوب) أي لبس إزاره مقلوبًا (فعرَّفه) أي قال له: يا أبا محمد، قد لبستَ ثوبك مقلوبًا فأصلِحْه (فمدَّ) سفيان (يده ليصلحه) ويسوِّيه (ثم قبضها) أي يده (فلم يسوِّه) أي لم يصلحه وأبقاه علىٰ ما هو عليه (فسأله عن ذلك) وقال: ما منعك أن تسوِّيه عليك؟ (فقال: إني لبستُه لله تعالىٰ، ولا أريد أن أسوِّيه لغير الله) ﷻ. نقله صاحب القوت.

(وقد قال الحسن) البصري فيما رواه ابن المبارك عنه: (إن الرجل لَيتعلقُ بالرجل يوم القيامة فيقول: بيني وبينك الله. فيقول: واللهِ ما أعرفك. فيقول: بلىٰ، أنت أخذتَ لبنة من حائطي. و) إن الرجل لَيتعلقُ بالرجل فيقول: أنت (أخذت خيطًا من ثوبي) ولفظ القوت: فيقول: هذا أخذ من ثوبي زُبَيرة.

(فهذا وأمثاله من الأخبار) والآثار (قطع قلوب الخائفين) وشرَّد عنهم الراحةَ (فإن كنت من أولي العزم) البالغ (والنُّهىٰ ولم تكن من المغترِّين فانظر لنفسك الآن) وأنت في الدنيا (ودقِّق الحسابَ علىٰ نفسك قبل أن يدقَّق عليك، وراقِبْ أحوالك) مراقبةَ مَن يتحقَّق باطِّلاع مولاه عليها (ولا تسكن ولا تتحرك ما لم تتأمَّل أولاً أنك لِمَ تتحرك) أي لأيِّ شيء حركتك هذه (وماذا تقصد) بهذه الحركة (وما الذي تنال به من الدنيا، وما الذي يفوتك به من الآخرة، وبماذا ترجح الدنيا علىٰ الآخرة، فإذا علمتَ أنه لا باعث إلا الدين فأمضِ عزمك) وقصدك (وما خطر ببالك، وإلا فأمسِكْ. ثم راقِبْ أيضًا قلبك في إمساكك وامتناعك، فإنَّ ترك الفعل فعلٌ، ولا بد له من نية صحيحة، فلا ينبغي أن يكون لداعي هوًىٰ خفيٍّ) في النفس (لا يطَّلع عليه) وفي القوت: ولا ينبغي للعبد أن يدخل في كل شيء حتىٰ يعلم علمه، فيكون داخلاً في كل عمل بعلم مثله؛ لأن لله في كل شيء حكمًا، فما علمَ من ذلك حمد اللهَ عليه وعملَه، وما جهلَ سأل عنه مَن هو أعلم به، وما أشكل عليه أمسك عنه حتىٰ يتبيَّن له وجهه فيُقدِم عليه أو يتركه، وليكن ما تحرك فيه أو سكن عنه أو توقَّف عن الإقدام عليه ابتغاءَ مرضاة الله وتقرُّبًا إليه لأجله، فهذا أعلىٰ النيات (ولا

تغرَّنَّك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات، وافطنْ للأغوار والأسرار تخرج من حيِّز أهل الاغترار، فقد رُوي) في بعض الأخبار (أن زكريا عليه السلام كان يعمل في حائط بالطين، وكان أجيرًا لقوم، فقدَّموا إليه) أي أصحاب الحائط (رغيفه) أي غداءه (إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده) وقد اشتهر أنه عليه السلام كان نجارًا، فلعلَّه أيضًا كان بَنَّاء (فدخل عليه قوم) فسلَّموا عليه (فلم يدعُهم إلىٰ الطعام) الذي بين يديه (حتىٰ فرغ) من الأكل (فتعجَّبوا منه) حيث لم يدعُهم إلىٰ الطعام (لِما علموا من سخائه وزهده، وظنوا أن الخير في طلب المساعدة في الطعام) ففهم عنهم ما قام بذهنهم، فاعتذر لهم (فقال: إني أعمل لقوم بالأجرة، وقدَّموا إليَّ الرغيف لأتقوَّىٰ به علىٰ عملهم، فلو) دعوتكم إليه و(أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني و) كنت قد (ضعفتُ عن عملهم) ولفظ القوت: ورُوي عن زكريا عليه السلام أن قومًا دخلوا عليه، وكان يعمل في حائط لقوم بالطين، وكان صانعًا يأكل من كدِّ يديه، فقُدِّم إليه عندهم رغيفاه، وجعل يأكل، ولم يدعُهم حتىٰ فرغ، فسألوه عن ذلك؛ لعلمهم بزهده وكرمه، فقال: إني أعمل لقوم بأجرة، وقرَّبوا إليَّ هذين الرغيفين لأتقوَّىٰ بهما علىٰ عملهم، فلو أكلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعفتُ عن عملهم.

(فالبصير هكذا ينظر إلىٰ البواطن بنور الله) عز وجل (فإنَّ ضعفه عن العمل نقصٌ في فرض، وترك الدعوةِ إلىٰ الطعام نقصٌ في فضل، ولا حكم للفضائل مع الفرائض) ولفظ القوت: فهذا ممَّن ترك نفلاً لفرض وإن كانت له نية في الترك كما تكون له في الفعل.

(وقال بعضهم: دخلت علىٰ سفيان) ظاهر إطلاقه أن المراد به الثوري، وليس كذلك، ففي القوت: دخلت علىٰ سفيان أبي عاصم. وهو[1] سفيان بن عبد الرحمن بن عاصم بن سفيان بن عبد الله الثقفي المكي، روىٰ له النسائي وابن ماجه (وهو يأكل، فما كلَّمني حتىٰ لعق أصابعه) أي فرغ من الأكل (ثم قال:

(١) تقريب التهذيب ص ٣٩٤، وفيه: ابن عبد الرحمن أو ابن عبد الله.

لو لا أني أخذته بدَين لأحببتُ أن تأكل منه) نقله صاحب القوت. وهذا أيضًا يعرِّفك النظرَ إلىٰ البواطن دون الظواهر.

(وقال سفيان) الثوري رحمه الله تعالىٰ: **(مَن دعا رجلاً إلىٰ طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه)** ولفظ القوت: وليس له نية أن يأكل منه. والمعنىٰ: ليس له رغبة في إجابته **(فإن أجابه وأكل فعليه وزران، وإن لم يأكل)** ولفظ القوت: وإن لم يجبْه **(فعليه وِزر واحد.**

وأراد بأحد الوزرين: النفاق، وبالثاني: تعريضه أخاه لِما يكره لو علمه) ولفظ المقاصد: وبالثاني أنه أطعم أخاه ما لو علمه لم يأكله. ولفظ القوت: فصيَّر عليه وزرين مع أكل طعامه بغير نية؛ لتعرُّضه للمقت، وحملِه أخاه علىٰ ما يكره؛ إذ لو علمَ لَما أجابه.

(فهكذا ينبغي أن يتفقَّد العبد نيتَه في سائر الأعمال) والأحوال **(فلا يُقدِم ولا يحجم)** عن الإقدام **(إلا بنية)** إن كان مريدًا لسعادة الآخرة **(فإن لم تحضرة النيةُ توقَّف، فإن النية لا تدخل تحت الاختيار)** والله الموفِّق.

بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ (أن الجاهل) قد (يسمع ما ذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكثيرها مع) سماع (قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات) فيحدِّث نفسَه بذلك (فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله) مثلاً: (نويت أن أدرِّس لله أو أتَّجر لله أو آكل لله. ويظن أن ذلك نية) وكذا في كل حركة وسكون من حركاته وسكناته (وهيهات! فذلك حديث نفس أو حديث لسان أو) حديث (فكرٍ أو انتقال من خاطر إلىٰ خاطر) لا ثواب فيه (والنية بمعزل عن جميع ذلك، وإنما) حقيقة (النية: انبعاث النفس وتوجُّهها وميلها إلىٰ ما ظهر لها أنَّ فيه غرضها) أي انصراف الداعية إلىٰ الغرض المطلوب (إما عاجلاً أو آجلاً) وذلك لا يكون إلا بحسب الهمَّة وقوة الإيمان وغلبة حب الله تعالىٰ والآخرة (والميل إذا لم يكن؛ لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة، بل ذلك كقول الشبعان: نويت أن أشتهي الطعام وأميل إليه. أو قول الفارغ) البال عن العشق: (نويت أن أعشق فلانًا وأحبه وأعظِّمه بقلبي. فذلك مُحال، بل لا طريق إلىٰ اكتساب صرفِ القلب إلىٰ الشيء وميله إليه وتوجُّهه نحوه إلا باكتساب أسبابه، وذلك مما قد يقدر عليه، وقد لا يقدر عليه، وإنما تنبعث النفس إلىٰ الفعل إجابةً للغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال، فلا يتوجَّه نحوه قصدُه، وذلك ممَّا لا يقدر علىٰ اعتقاده في كل حين، وإذا اعتقد فإنما يتوجَّه القلب إذا كان فارغًا غير مصروف عنه بغرض شاغل أقوىٰ منه، وذلك لا يمكن في كل وقت، والدواعي والصوارف لها أسباب كثيرة بها تجتمع) فمَن تكسَّب النيةَ ولم يتكسَّبها بأسبابها فقد فوَّت حظه من الله تعالىٰ (ويختلف ذلك بالأشخاص وبالأحوال وبالأعمال، فإذا غلبت شهوةُ النكاح مثلاً) وأقلقه الشَّبَقُ (ولم يعتقد

غرضًا صحيحًا في الولد دينًا ولا دنيا لا يمكنه أن يواقع) أي يجامع (علىٰ نية الولد) أي لا يُتصوَّر فيه وجود هذه النية أصلاً (بل لا يمكن إلا علىٰ نية قضاء الشهوة) فقط (إذ النية هي إجابة الباعث، ولا باعث إلا الشهوة، فكيف ينوي الولدَ؟ وإذا لم يغلب علىٰ قلبه أن إقامة سنَّة النكاح اتِّباعًا لرسول الله ﷺ) حيث كان محبوبًا إليه (يعظُم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتِّباع السنَّة، إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه، وهو حديث محض ليس بنية) لفقدان حقيقتها (نعم، طريق اكتساب هذه النية مثلاً أن يقوِّيَ أولاً إيمانه بالشرع) أي بالله واليوم الآخر وما أعدَّه الله فيه من المثوبات والعقوبات المرتَّبة علىٰ الطاعة والمعصية (ويقوِّيَ إيمانه بعِظَم ثواب مَن سعىٰ في تكثير) سواد (أمَّة محمد ﷺ) وانصرفت الدواعي المضادَّة لذلك (ويدفع عن نفسه جميعَ المنفِّرات عن الولد) وخطرات النكاح (من ثقل المؤنة وطول التعب وغيره) ويتذكَّر الفضائل الواردة في فضل النكاح لأجل الولد وفضل توليته وتعليمه الخير (فإذا فعل ذلك ربما انبعثت من قلبه رغبةٌ إلىٰ تحصيل الولد للثواب، فتحركه تلك الرغبةُ، وتتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد، فإذا انتهضت القدرةُ المحرِّكة للسان بقبول العقد طاعةً لهذا الباعث الغالب علىٰ القلب كان ناويًا، فإن لم يكن كذلك فما يقدِّره في نفسه ويردِّده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان) وكذا كل غرض شرعيٍّ ورد الشرع بفضله وله صوارف من جهة النفس والهوىٰ كمَن دخل في صوم نفل ثم أمره أبواه أو أحد من إخوانه بالإفطار فأراد أن يفطر لإدخال السرور علىٰ قلب الوالدين، فما دامت شهوة الطعام تزاحمه لا تصح نيتُه، فإن أفطر لاعتقاده أنه عامل لله فعلامة صحَّتها تصغير اللقمة، وقصر اليد، وعدم الشَّره في الباطن، والقيام قبل الشبع. وما من حالة من الحالات إلا وتتقدَّمها أسباب يكتسب بها وتتأخَّر عنها علامات يعرف بها صحَّتها، فليطلب علم كل حال من موضعه. وقد ذكرنا ما يحسم خواطر النفس والهوىٰ في كتاب الصبر والخوف والرجاء، فاجمعْ بين ما ذكرناه وبين ذكر الفضيلة المرغوب فيها، فعند ذلك تحصل النية بهذا الطريق، فافهمْ ذلك إن كنت من أهله، وإلا فدَعْ عنك الدعوىٰ لمقامات الرجال، والزم

الذلِّ والتواضع لهم والمحبة عسىٰ ببركتهم تُحشَر معهم (**ولذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النيةُ، وكانوا**) يتعلَّلون و(**يقولون: ليس تحضرنا فيه نيةٌ**) وهم معذورون إذا لم يقدروا علىٰ كسبها (**حتىٰ**) رُوي (**أن ابن سيرين**) وهو[١] محمد بن سيرين الأنصاري، أبو بكر ابن أبي عمرة البصري، وأبوه سيرين مولىٰ أنس بن مالك، إمام ثقة مأمون، وإخوته تابعيون ثقات، وُلد لسنتين من خلافة عثمان (**لم يصلِّ علىٰ جنازة الحسن البصري وقال: ليس تحضرني نيةٌ**) ولفظ القوت: مات الحسن فلم يحضر ابن سيرين جنازته، فسُئل عن ذلك، فقال: لم تكن لي نية. ا.هـ. قال حماد بن زيد: مات الحسن في أول يوم من رجب سنة عشر ومائة، ومات ابن سيرين لتسع مضين من شوَّال في السنة المذكورة[٢]. وقال ابن حبان[٣]: مات ابن سيرين بعد الحسن بمائة يوم وهو ابن سبع وسبعين سنة.

(**ونادىٰ بعضهم امرأته وكان**) فوق سطح (**يسرِّح شعره أنْ هاتي المِدْرَىٰ**) ليفرق به شعرَه (**فقالت: وأجيء بالمرآة؟ فسكت ساعة ثم قال: نعم. فقيل له في ذلك**) أي قال له مَن سمعه: لأيِّ شيء سكتَّ وتوقَّفتَ عن المرآة؟ (**فقال: كان لي في**) قولي هاتي (**المدرىٰ نية، و**) لمَّا قالت: وأجيء بالمرآة لم تحضرني في المرآة نيةٌ (**فتوقَّفتُ حتىٰ هيَّأها الله تعالىٰ**) فقلت: نعم، جيئي بها. نقله صاحب القوت.

(**ومات**) أبو[٤] إسماعيل (**حماد بن أبي سليمان**) الأشعري مولاهم، واسم أبي سليمان: مسلم (**وكان أحد علماء أهل الكوفة**) فقيه، صدوق، روىٰ له البخاري في الأدب المفرد ومسلم والأربعة، مات سنة عشرين [ومائة] أو قبلها (**فقيل للثوري**) سفيان (**ألا تشهد جنازته؟ فقال: لو كانت لي نية لفعلتُ**) نقله صاحب القوت.

---

(١) تهذيب الكمال ٢٥/ ٣٤٤ - ٣٥٤.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٣/ ٢٩٣.

(٣) الثقات ٥/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٤) تقريب التهذيب ص ٢٦٩.

(وكان أحدهم إذا سُئل عملاً من أعمال البِر يقول: إن رزقني الله تعالىٰ نيةً فعلتُ) ولفظ القوت: وكان العلماء إذا سُئلوا عن عمل شيء أو سعي فيه يقولون: إن رزقنا الله نيةً فعلنا ذلك.

(وكان طاووس) بن كيسان اليماني رحمه الله تعالىٰ **(لا يحدِّث إلا بنية، وكان يُسئَل أن يحدِّث فلا يحدِّث، ولا يُسئَل فيبتدئ، فقيل له في ذلك، قال: أفتحبُّون أن أحدِّث بغير نية؟ إذا حضرتني نيةٌ فعلتُ.**

وحُكي أن) أبا[1] سليمان **(داود بن المحبَّر)** بن قَحْذَم الثقفي البكراوي البصري، نزيل بغداد، متروك، قال ابن حبان: كان يضع الحديث علىٰ الثقات. مات سنة ست ومائتين. روىٰ له أبو داود في كتاب القدَر وابن ماجه. وقد تقدَّم له ذِكرٌ وترجمة في آخر كتاب العلم **(لمَّا صنَّف كتاب العقل)** وهو كتاب صغير الحجم يذكر فيه فضائل العقل وما ورد فيها من الأخبار والآثار، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الكتاب أيضًا في أواخر كتاب العلم، وقال الحافظ في التهذيب: إن أكثره موضوعات **(جاءه)** الإمام **(أحمد بن حنبل)** رحمه الله تعالىٰ **(فطلبه منه، فنظر فيه أحمد صُفحًا)** بالضم، أي تصفَّحه كلَّه **(فردَّه)** إليه **(فقال)** ابن المحبر: **(ما لك؟ قال: فيه أسانيد ضعاف. فقال له داود: أنا لم أخرِّجه علىٰ الأسانيد، فانظر فيه بعين الخُبر)** بالضم، أي الاختبار **(إنما نظرتُ فيه بعين العمل فانتفعت. قال أحمد: فرُدَّه عليَّ حتىٰ أنظر فيه بالعين التي نظرتَ)** بها، فردَّه عليه **(فأخذه، ومكث عنده)** زمانًا **(طويلاً)** حتىٰ اقتضاه إيَّاه ابن المحبر، فردَّه عليه **(ثم قال: جزاك الله خيرًا، فقد انتفعتُ به**[2]**)** منفعة بيِّنة. نقله صاحب القوت. فدلَّ ذلك علىٰ أن النيات قد

---

(١) تقريب التهذيب ص ٣٠٨. تهذيب الكمال ٨/ ٤٤٣ - ٤٤٨. المجروحون من المحدثين لابن حبان ١/ ٣٥٦.

(٢) كان أحمد عندما يسأل عن داود؛ يضحك ويقول: شبه لاشيء، كان لا يدري أي شيء الحديث. وانظر: الجرح والتعديل ٣/ ٤٢٤، تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٦.

تختلف لاختلاف المقاصد، فيصير ما كان بعدًا قربًا بحسن النية، وما كان حسنًا سيئًا لسوء النية به.

(وقيل لطاووس) اليماني رحمه الله تعالىٰ: **(ادْعُ لنا. فقال: حتىٰ أجد له نية)** رواه ابن المبارك في الزهد[١] من طريق داود بن شابور قال: قلنا لطاووس: ادْعُ بدعوات. فقال: لا أجد لذلك حسبة. أي نية. وروىٰ ابن أبي شيبة[٢] من هذا الطريق قال: قال رجل لطاووس: ادْعُ الله لنا. قال: ما أجد لقلبي حسبة فأدعو لك. أي نية.

(وقال بعضهم: أنا في طلب نية لعيادة رجل منذ شهر، فما صحَّت لي بعدُ) وهذا لصعوبة اكتساب النية، ولهذا قال يوسف بن أسباط: تخليص النية من فسادها أشد علىٰ العاملين من طول الاجتهاد[٣].

(وقال) ابن أبي الدنيا في كتاب الصمت[٤]: حدثنا أبو كُرَيب، حدثنا خالد بن حيَّان، حدثنا **(عيسىٰ بن كثير)** الأسدي الرَّقي قال: **(مشيتُ مع ميمون بن مِهران)** الجَزَري، كاتب عمر بن عبد العزيز، إمام جليل ثقة، روىٰ له الجماعة إلا البخاري ففي الأدب المفرد. حتىٰ أتىٰ بابَ داره ومعه ابنه عمرو **(فلمَّا انتهىٰ إلىٰ باب داره انصرفت، فقال)** له **(ابنه)** لمَّا رأىٰ انصرافي. وابنه هذا هو[٥] عمرو ابن ميمون بن مهران الجَزَري، أبو عبد الله وأبو عبد الرحمن، سبط سعيد بن جُبَير، ثقة فاضل، روىٰ له الجماعة، مات سنة سبع وأربعين [ومائة]. يا أبتِ **(ألا تعرض عليه العَشاءَ؟ قال: ليس)** ذلك **(من نيَّتي.**

وهذا لأن النية تتبع النظرَ، فإذا تغيَّر النظرُ تغيَّرت النية، وكانوا لا يرون أن

---

(١) الزهد والرقائق ص ٦٣.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٦١٧، وفيه: خشية، بدل: حسبة. وكذا هو في حلية الأولياء ٤/ ٤.

(٣) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٥/ ١٢٨، ٨/ ١١٤.

(٤) الصمت وآداب اللسان ص ٢٤٧.

(٥) تقريب التهذيب ص ٧٤٦.

يعملوا عملاً إلا بنية) لأنهم كانوا يستحبُّون أن تكون لهم في كل شيء نية، حتىٰ قال الفضيل بن عياض: لا نتحدَّث إلا بنية **(لعلمهم بأن النية روح العمل)** فلا يصح بقاؤه بدونها **(وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلُّف، وهو سبب مقتٍ)** أي بُعدٍ عن الله تعالىٰ **(لا سبب قربٍ، وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بقلبه: نويتُ)** ولا قوله كذلك بلسانه **(بل هو انبعاث القلب)** للغرض المطلوب **(يجري مَجرىٰ الفتوح من الله)** تعالىٰ **(فقد تتيسَّر في بعض الأوقات، وقد تتعذَّر في بعضها)** إذ ليست داخلة تحت الاختيار **(نعم، مَن كان الغالب علىٰ قلبه أمر الدين)** والنظر إلىٰ الآخرة **(تيسَّر عليه في أكثر الأحوال)** والأوقات **(إحضارُ النية للخيرات، فإنَّ قلبه مائل بالجملة إلىٰ أصل الخير، فينبعث)** لذلك **(إلىٰ التفاصيل غالبًا، ومَن مال قلبُه إلىٰ الدنيا وغلبت عليه)** وقصر نظرَه عليها **(لم يتيسَّر له ذلك، بل لا يتيسَّر له في الفرائض إلا بجهد جهيد)** لاشتغال باطنه بأمور الدنيا **(وغايته أن يتذكَّر النار ويحذِّر نفسَه عقابَها، أو)** يتذكَّر **(نعيم الجنة ويرغِّب نفسَه فيها، فربما تنبعث له داعيةٌ ضعيفة)** لا مسكة لها **(فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيته)** وبقدْر خوفه وتحذيره **(وأما الطاعة علىٰ نية إجلال الله تعالىٰ لاستحقاقه الطاعة والعبودية)** وإعطاء مقام الربوبيَّة ما يستحقُّه **(فلا تتيسَّر للراغب في الدنيا)** لأنه عنها بمعزل **(وهذه أعزُّ النيات وأعلاها، ويعزُّ علىٰ بسيط الأرض مَن يفهمها فضلاً عمَّن يتعاطاها)** يعني الطاعة لامتثال أمر الله حياءً منه وتعظيمًا لجلاله وكبريائه وكماله في ذاته وصفاته وجميع أفعاله وأنه المستحقُّ لذلك بصفات ألوهيَّته علىٰ عِباده **(ونيات الناس في الطاعات أقسام؛ إذ منهم مَن يكون عملُه إجابةً لباعث الخوف، فإنه يتَّقي النارَ)** لا غير **(ومنهم مَن يعمل إجابةً لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة)** لا غير **(وهذا وإن كان نازلاً بالإضافة إلىٰ قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة النيات الصحيحة؛ لأنه ميلٌ إلىٰ الموعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا، وأغلب البواعث)** علىٰ الإنسان **(باعث الفرج والبطن)** للنكاح والأكل

(وموضع قضاء وطرهما في الجنة) لأنها دار الجزاء (فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه[١]) فهو (كالأجير السوء) الذي إن أُعطي عملَ وإن لم يُعطَ لم يعمل (ودرجته درجة البُلْه، وإنه لَينالُها بعمله؛ إذ) قد ورد في الخبر: (أكثر أهل الجنة البُلْه) كما تقدَّم (وأما عبادة ذوي الألباب) يشير إلىٰ جملة ذُكرت في آخر الخبر وهي قوله «وعِلِّيُّون لذوي الألباب»، وتقدم أنها مدرَجة من كلام بعض رُواته وليست من أصل الحديث (فإنها لا تجاوز ذِكرَ الله تعالىٰ والفكر فيه حبًّا لجماله وجلاله) وإعظامًا لربوبيَّته (وسائر الأعمال تكون مؤكِّدات وروادف) أي توابع (وهؤلاء أرفع درجةً من الالتفات إلىٰ المنكوح والمطعوم في الجنة، فإنهم لم يقصدوها) ولم يعيروا طرفهم إليها (بل هم الذين) قال الله تعالىٰ في حقِّهم: (﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ﴾ في طرفَي النهار (﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾) [الأنعام: ٥٢، الكهف: ٢٨] أي يقصدون وجهه (فقط) لا غير، وليس لهم التفات إلا إليه (وثواب الناس بقدْر نيَّاتهم) فمَن كانت نيته أشرف أثابه الله ما يناسب حسن معرفته وقصده (فلا جَرَم يتنعَّمون بالنظر إلىٰ وجهه الكريم، ويسخرون ممَّن يلتفت إلىٰ وجه الحور العين كما يسخر المتنعِّم بالنظر إلىٰ الحور العين ممَّن يتنعَّم بالنظر إلىٰ وجه الصور المصنوعة من الطين، بل أشد) وأعظم (فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرًا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور المصنوعة من الطين) إذ لا مناسبة بين المقامين (بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية) التي جُبلت علىٰ شهواتها كالبهائم (لقضاء الوطر من مخالطة الحِسان) بالضم والتقبيل والوقاع (وإعراضها عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظامَ الخنفساء) وهي دويبة منتنة تعبث بالأقذار، وأشد حرصها برجليها (لصاحبتها وإلفها لها) وأنسها بها (وإعراضها عن النظر إلىٰ جمال وجوه النساء) الحسان (فعمَىٰ أكثر القلوب عن إبصار جمال الله وجلاله يضاهي عمىٰ الخنفساء عن إدراك جمال النساء، فإنها لا

(١) انظر لزامًا: الموافقات للشاطبي ٢/ ٣٥٥- ٣٦٠.

تشعر به أصلاً، ولا تلتفت إليه) أبدًا، والجنسية علَّة الضم **(ولو كان لها عقل وذكرنَ لها لاستحسنت عقلَ مَن يلتفت إليهنَّ)** وقد صدق الله تعالىٰ في قوله: (﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [هود: ١١٨] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [المؤمنون: ٥٣، الروم: ٣٢] ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾) [هود: ١١٩] وقال صاحب القوت: وليكن ما تحركك فيه أو سكن عنه أو توقَّف عن الإقدام عليه ابتغاء مرضاة الله تقرُّبًا إليه لأجل الله تعالىٰ، فهذا أعلىٰ النيات، وهو غاية الإخلاص، ومَن أراد بأعماله ما عند الله تعالىٰ من ثواب الآخرة من حظوظ نفسه ومعاني شهواته ولذَّته من النعيم في الجنان واتخاذ الحور الحِسان ممَّا وصفه الله تعالىٰ وندب إليه لم يقدح ذلك في إخلاصه، ولم يغيِّر صحةَ نيته من قِبَل أن الله تعالىٰ مدحه ورغَّب فيه ووصفه، وكان ذلك مزيد مثله، إلا أن هذا نقصٌ في مقام المحبِّين عندهم، وعيب كعيب مَن عملَ لعاجل حظِّه من دنياه، وهو شرك في إخلاص الموحِّدين الذين اختصُّوا بالعبودية فعُتقوا من أسر الهوىٰ بالحرية فلم يسترقَّهم سوىٰ الوحدانية لمَّا شهدوا من خالص الربوبية، وإخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة، إلا أن مَن رُزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة ضرورةً بلا تنقية ولا تصفية ولا عمل ولا مجاهدة، فكانوا مخلصين، وهذا مقام المحبِّين، وإنما أُتعِب المريدون بالتنقية والتصفية للمعاملة لِما بقي [عليهم] من الشرك الخفيِّ والشهوة الخفية كما أُتعِب خُدَّام الدنيا بالجمع لها لِما استرقَّهم من الهوىٰ، فأما الأحرار فهم من مَذَمَّة الخلق بُرآء، وهذا يُذهِب الإخلاصَ، ويُفسِد النيةَ، ويُدخِل الانتقاص. انتهىٰ.

(وحُكي أن) أبا حامد **(أحمد بن خضرويه)** البلخي رحمه الله تعالىٰ، من كبار مشايخ خراسان، صحب أبا تراب النخشبي، قدم نيسابور، وزار أبا حفص، وخرج إلىٰ بِسطام في زيارة أبي يزيد البسطامي، وكان كبيرًا في الفتوَّة، وكان أبو يزيد يقول: أستاذنا أحمد. مات سنة أربعين ومائتين عن خمس وتسعين سنة. ترجمه القشيريُّ في الرسالة(١) **(رأىٰ ربَّه في المنام، فقال له)**: يا أحمد **(كل الناس يطلبون**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٧١ - ٧٢.

مني إلا أبا يزيد) يعني البسطامي **(فإنه يطلبني)** نقله القشيري.

(و) يُحكَىٰ أنه **(رأىٰ أبو يزيد)** البسطامي رحمه الله تعالىٰ **(ربَّه في المنام، فقال: يا رب، كيف الطريق إليك)**؟ أي دُلَّني علىٰ طريق الوصول إليك، كما قال القائل مشيرًا إلىٰ هذا المقام:

يا مَن هواه أعزَّه وأذلَّني ... كيف الطريق إلىٰ وصالك دُلَّني[1]

(فقال: اتركْ نفسك وتعالَ إليَّ.

ورُؤي) أبو بكر **(الشبلي)** قُدِّس سره **(بعد موته في المنام، فقيل له: ما فعل الله بك؟ فقال: لم يطالبني علىٰ الدعاوىٰ بالبرهان، إلا علىٰ قول واحد، قلت يومًا)** من الأيام: **(أيُّ خسارة أعظم من خسران الجنة)**؟ أي لا أعظم من خسارة مَن غفل عنها بعد أن أمكنه تحصيلها **(فقال)** تعالىٰ: بل **(أيُّ خسران أعظم من خسران لقائي)**[2]؟ وذلك لأن لقاء الله تعالىٰ والنظر إلىٰ وجهه أعظم من نعيم الجنة.

(والغرض أن هذه النيات متفاوتة الدرجات) منها أعلىٰ، ومنها دون، وبينهما أوساط **(ومَن غلب علىٰ قلبه واحدةٌ منها ربما لا يتيسَّر له العدول إلىٰ غيرها)** لاستغراقه بها **(ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالاً وأفعالاً يستنكرها الظاهريُّون من الفقهاء)** أي الذين يتكلَّمون في ظاهرة الفقه **(فإنَّا نقول: مَن حضرت له نيةٌ في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أَولىٰ)** وأفضل حينئذٍ (و) قد **(انتقلت الفضيلة إليه)** أي انتقل المعنىٰ فصار المباح هو الفضيلة **(وصارت الفضيلة في حقِّه نقيصةً)** أي صارت الفضيلة هي النقيصة لعدم النية فيها **(لأن الأعمال بالنيات، وذلك**

---

(١) البيت لسعيد بن أحمد بن سعيد البوسعيدي، أحد سلاطين عمان. وهو من قصيدة أوردها نور الدين السالمي في كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان ٢/ ١٦٦ (ط - مطبعة الشباب بالقاهرة).

(٢) هذه المنامات الثلاث عن ابن خضرويه وأبي يزيد والشبلي ذكرها القشيري في الرسالة ص ٦٠٨، ٦١٠.

مثل العفو، فإنه أفضل من الانتصار في الظلم) أي أن يكون رجل قد ظُلم فله أن ينتصر، وإن عفا كان أفضل (وربما تحضره نيةٌ في الانتصار) لعجزه عن كسب النية باستحضار فضيلة العفو وما ورد فيها من المثوبات والقربات (دون العفو فيكون ذلك أفضل) لوجود النية فيه (ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليريح نفسه ويتقوّىٰ) بها (علىٰ العبادات في المستقبل) لوقت آخر (وليس تنبعث نيَّته في الحالين للصوم والصلاة، فالأكل والنوم) صار (هو الأفضل له، بل لو ملَّ العبادةَ لمواظبته عليها وسكن نشاطُه وضعفت رغبتُه وعلم أنه لو ترفَّهَ ساعةً بلهو وحديث عاد نشاطُه) وقوَّته إلىٰ أوله (فاللهو) حينئذٍ (أفضل له من الصلاة، قال أبو الدرداء) رضي الله عنه: (إني لأستجمُّ نفسي) أي أطلب جَمامَها، أي راحتها (بشيء من اللهو؛ ليكون ذلك عونًا لي علىٰ الحق)[١] نقله صاحب القوت، إلا أنه قال: ببعض اللهو.

(وقال عليٌّ رضي الله عنه: روِّحوا القلوبَ، فإنها إذا أُكرِهت عميتْ) نقله الشريف في نهج البلاغة. وروىٰ الديلمي في مسند الفردوس[٢] من حديث أنس: «روِّحوا القلوبَ ساعة وساعة». ويشهد له ما في صحيح مسلم: «يا حنظلة، ساعةً وساعة».

(وهذه دقائق لا يعرفها إلا سماسرة العلماء) ونُقَّادهم وهم العلماء بباطن العلم وغوامض التصريف (دون الحَشَوية منهم) الذين يتعلَّقون بالقشور دون اللُّباب (بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرورَ باللحم مع حرارته، ويستبعده القاصر في الطب) ويقول: كيف يداوَىٰ بما يضرُّه؟! (وإنما يبتغي به أن يعيد أولاً قوَّته) إن كان هناك ضعفُ مزاج (ليحتمل المعالجة بالضد) ولو عالجه بما يدفع حرارتَه ولا قوة عنده لاحتمال ذلك العلاج لأضرَّه (والحاذق في لعب الشطرنج مثلاً قد ينزل) في لعبه (عن الرُّخ والفرس مجانًا) أي بلا عوض مثلهما، والرُّخ والفرس من أقوىٰ ما يقاتل به اللاعب؛ لكثرة أعمالهما في الرقعة، وإنما يفعل ذلك مع كمال احتياجه

---

(١) تقدم هذا الأثر وأثر علي بعده في كتاب آداب النكاح.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٢٥٣.

إليهما (**ليتوصل بذلك إلىٰ الغلبة**) علىٰ نديده (**والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتعجَّب منه**) وسببه عدم نفوذ بصيرته، وقد يتفق أنه ينزل عن الفيل في مقابلة البيدق لأمرٍ ما، ومَن لا خبرة له ينكر ذلك (**وكذلك الخبير بالقتال**) أي بأموره (**قد يفرُّ بين يدي قرينه ويولِّيه دُبُرَه حيلةً منه**) لا جبنًا (**ليستجرَّه إلىٰ مضيق فيكرَّ عليه فيقهره**) وتارةً إلىٰ متسع ليملك غرضه في حربه فيغلب عليه، فإنَّ الحرب خدعة، كما ورد (**فكذلك سلوك طريق الله تعالىٰ**) فإنك إذا نظرتَ بعين التأمُّل فإنه (**كله قتال مع الشيطان**) ومحاربة معه (**ومعالجة للقلب**) بالتصفية والتهذيب عن الرذائل (**والبصير الموفَّق يقف فيها**) في أثناء سلوكه (**علىٰ لطائف من الحِيَل**) ودقائق (**يستبعدها الضعفاء**) ويستنكرونها (**فلا ينبغي للمريد أن يضمر إنكارًا علىٰ ما يراه من شيخه**) يفعله مع نفسه أو مع مريده في حركاته وسكناته وإلا فلا يفلح أبدًا (**ولا للمتعلِّم أن يعترض علىٰ أستاذه**) ولو بقوله: لِمَ كان كذا؟ وإلا فلا يفلح أبدًا (**بل ينبغي أن يقف عند حدِّ بصيرته**) ولا يخطر بباله شيء من الإنكار (**وما لا يفهمه من أحوالهما**) أي الشيخ والمعلِّم (**يسلِّمه لهما إلىٰ أن تنكشف له أسرار ذلك**) ولو بعد حين (**بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما**) كما أفصح عنه القشيري في آخر الرسالة في آداب المريدين (**ومن الله حسنُ التوفيق**).

ولنذكر ما يتعلق بالنية من كتاب القوت ممَّا لم يذكره المصنف ليكون تكميلاً للباب، ثم نتبعه بما في شرح التقريب للحافظ العراقي و«إدراك الأمنية في النية» للشهاب القرافي و«منتهَىٰ الآمال» للحافظ السيوطي، رحمهم الله تعالىٰ.

قال صاحب القوت: روينا في الخبر من طريق آل البيت: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا قولاً ولا عملاً إلا بنية». فينبغي أن يكون للعبد في كل شيء نية حتىٰ في مَطعمه ومشربه وملبسه ونومه ونكاحه فإنَّ ذلك كلَّه من أعماله التي يُسئل عنها، فإن كانت لله وفي الله كانت في ميزان حسناته، وإن كانت في سبيل الهوىٰ ولغير المولىٰ كانت في ميزان سيئاته؛ إذ لكل عبد ما نوىٰ، وإن كان ذلك غفلة وسهوًا من

غير نية ولا عقد طوية ولا حسبة لم يكن له في ذلك شيء، ولم يجد عمله في الآخرة شيئًا، وكان فيه لا له ولا عليه، وكان ذلك في الدنيا علىٰ مثال الأنعام التي تتصرَّف عن غير عقول ولا تكليف ولكن بإلهام وتوقيف، وأخاف أن يدخل في وصف مَن قال الله تعالىٰ فيه: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨] قيل: مجازفةً قُدمًا قدمًا من غير تمييز، وقيل: أي غفلةً وسهوًا. وقيل: تفريطًا وتضييعًا. وقيل: مقدَّمًا إلىٰ الهلاك. فالنية الصالحة هي أول العمل [الصالح] وأول العطاء من الله تعالىٰ، وهي مكان الجزاء. وقال بعض السلف: رأيت الخير إنما يجمعه حسنُ النية، وكفاك به خيرًا وإن لم تَنصَب، رُب عمل صغير تعظِّمه النيةُ، ورُب عمل كبير تصغِّره النيةُ. وقال داود الطائي: البَر همَّته التقوىٰ، ولو تعلَّقت جميعُ جوارحه بالدنيا الردية لردَّته نيتُه يومًا إلىٰ نية صالحة. فكذلك الجاهل بالله وأيامه همُّه الدنيا والهوىٰ، ولو تعلَّقت جوارحُه بكل أعمال الصالحات لكان مرجوعًا إلىٰ إرادة الدنيا وموافقة الهوىٰ؛ لأن سرها كان همَّة النفس لعاجل عَرَض الدنيا. وقال محمد بن الحسين: ينبغي للرجل أن تكون نيته بين يدي عمله. وقال بعض العلماء: اطلب النية للعمل قبل العمل، وما دمتَ تنوي الخير فأنت بخير. وقال بعض التابعين[(١)]: قلوب الأبرار تغلي بالبِر، وقلوب الفجَّار تغلي بالفجور، والله مطَّلع علىٰ نيَّاتهم فيثيبهم علىٰ قدْر ذلك، فانظر ما همُّك وما نيتك. وقد روينا عن الله تعالىٰ في بعض الكتب قال: ليس كل كلام الحكيم أتقبَّل، ولكني أنظر إلىٰ همِّه وهواه، فمَن كان همُّه وهواه لي جعلتُ صمته ذِكرًا، ونظره عبرًا[(٢)]. وسُئل

---

(١) هو مالك بن دينار، وقد رواه عنه أحمد في الزهد ص ٢٦٢ بلفظ: «إن صدور المؤمنين تغلي بأعمال البر، وإن صدور الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله تعالىٰ يرىٰ همومكم، فانظروا ما همومكم رحمكم الله». ورواه أيضا: البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٤١٤، وابن أبي الدنيا في الهم والحزن ص ٧٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٧٠، ٦/ ٢٨٨، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٥١ والسمرقندي في تنبيه الغافلين ص ٣٧٦ عن يزيد ابن ميسرة. وعند ابن المبارك: «جعلت صمته وقارا وحمدا لي وإن لم يتكلم». وعند السمرقندي:=

سفيان الثوري: هل يؤاخَذ العبد بالنية؟ قال: نعم، إذا كانت عزمًا أُخِذ بها[1]. فأول سلطان العدو علىٰ القلب عند فساد النية، فإذا تغيَّرت من العبد طمع فيه فيتسلَّط عليه، وأول ارتداد العبد عن الاستقامة ضعفُ النية، فإذا ضعفت النية قويت النفسُ فتمكَّن الهوىٰ، وإذا قويت النية صحَّ العزمُ وضعفت صفات النفس، وفي الأثر: مَن عمل عملاً لا يريد به وجه الله لم يزل في مقت من الله حتىٰ يفرغ، ولو لم يكن في تجديد النية الحسنة إلا أن صاحبها لا يزال عاملاً من عمَّال الله بقلبه وهمِّه وأن لم يساعده القدَرُ علىٰ الأفعال بجوارحه فيكون أبدًا مأجورًا، ولو لم يكن في نية الشر إلا أن صاحبها في بطالة وخسارة وإن لم يساعده المقدور علىٰ الأفعال السيئة بجوارحه فيكون أبدًا خاسرًا مأزورًا، نعوذ بالله من ذلك. ولقد كان السلف لشدة تفقُّدهم وحُسن رعايتهم صادقين في ترك كثير من أعمال البِر لضعف النية، ويعملون في أحكام الأصل، وقال ابن عيينة: إنما حُرموا الوصول لتضييع الأصول[2]. والنية أصل الأصول؛ لأنها فرضُ الفرائض.

فصل: وقد تلتبس النية بالأمنية فتخفَىٰ، والهمة بالوسوسة فتشتبه، والنية ما كان يُراد به وجه الله ويُطلَب به ما عنده، والأمنية ما تعلَّق بالخلق وطُلِب منه عاجل الحظ من المُلك الفاني. وقد تلتبس الإرادة بالمحبة، والحاجة بالشهوة، فالإرادة أن يريد وقوع الأمر، وقد لا يحب كونَه، أو يريد أيضًا وجود ضده، والمحبة ما

= «جعلت صمته تفكرا وكلامه ذكرا وإن لم يتكلم». ورواه الدارمي في سننه ١/ ١٦٨ عن عباد بن عباد الخواص الشامي. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٢١٣ عن خالد بن معدان. ورواه الدارمي في سننه ١/ ٩١ - ٩٢ وابن وهب في جامعه ص ٤٤٠ مرفوعا عن المهاجر بن حبيب.

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٣٧٩ عن عبد الله بن المبارك قال: قلت لسفيان: أيؤاخذ العبد بالهمة؟ قال: إذا كانت عزما أخذ بها.

(٢) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣١٦ وابن الجوزي في المنتظم ١٢/ ١٨٦ والماليني في الأربعين في شيوخ الصوفية ص ١٠٥ عن محمد بن أبي الورد قال: «آفة الخلق في حرفين: اشتغال بنافلة وتضييع فريضة، وعمل جوارح بلا مواطأة القلب، وإنما منعوا الوصول بتضييع الأصول».

قهر العقلَ وغلب الوجدَ وحلَّ في مَجامع القلب وكُرِه وجود غيره ولم يُرَدْ فقده، والحاجة ما اضطررت إليه ولم يكن منه بدٌّ ولا يُستغنَىٰ عنه بغيرة، والشهوة مزيد لذَّة واستدعاء فضل فاقة واجتلاب تقدُّم عادة. وقد يختلط الذكر بالقلب بالفكر في معاني القرب، فالذكر ما أظهر المنسيَّ وكشف الغيَّ وأذكَرَ الشيءَ، والفكر ما صوَّرَ الأمر وأظهر الخبرَ. وقد يلتبس الرجاء بالمحبة، والهوىٰ بالنية، فالرجاء ما طمعتَ فيه بسبب ما أو لسبب ما، والمحبة ما تطعَّمت ذوقَه ووجدته بغير سبب يستخرجه. وقد يلتبس ذلُّ القلب بضعفه وموته للطمع في الخلق بذلِّ النفس لمشاهدة عز الحق سبحانه. وقد يتداخل ذلُّ الطمع لدناءة الهمَّة والنفس بذلِّ العقل للاعتراف بالحق وخضوع العلم له. وقد يلتبس ذلُّ النفس لغلبة الهوىٰ وقهره للعقل بذلِّ القلب لسرعة الانقياد للعالِم المحقِّ. وقد تختلط عزة القلب بمقلِّبه بدوام النظر إليه، وعزة العقل بعلمه الذي كثُر عنده. وقد تلتبس عزةُ النفس بوصفها المتسلِّط بعزَّة الإيمان المعزَّز بغيبة اليقين. فهذه فروق ظاهرة للعارفين، وخروق متَّسعة توهن الغافلين. وقد تلتبس العبادة بالعادة، مثل أن تكون للعبد نية في علم أو عمل أو صدقة أو نفقة الشهر أو السنة، ثم تعزُب نيتُه فيبقىٰ علىٰ عادته يربُّ حاله الذي قد عُرِف به، لا يحب أن يخرج من عُرْف الناس له، فيتعمَّل لاستقامة الحال علىٰ التكلُّف بتلك الأعمال، فتذهب النيةُ وتبقىٰ العادة، فيخرج به من إرادة الآخرة والسعي لها ويدخل في إرادة الدنيا بالشهوات علىٰ جريان العادة بها. وقد تلتبس طرقات الدنيا من طلب الرياسة لوجود الهوىٰ بطرقات الآخرة في معنىٰ العلوم والأعمال، فما طُلب من علوم السلف وأريدَ به تأديب النفس ويُعلم به الزهد في الدنيا فهذه طرقات الآخرة، وما كان علىٰ ضدِّه فهو طرقات الدنيا؛ إذ هو ضدها. وقد يلتبس إظهار الأعمال وكشفُ ما كُتِم من الأحوال لأجل التأديب به والاتِّباع عليه أو لإظهار قدرة الله عَزَّوَجَلَّ وآياته لمزيد السامع من المعرفة به بفعل مثل ذلك للتزيُّن والفخر أو للمدح به وطلبِ الذكر. وسُئل أبو سليمان الداراني عن الرجل

يخبر بالشيء عن نفسه، فقال: إذا كان إمامًا يُقتدَىٰ به فنعم. وقال مرةً هو أو غيره: يختلف ذلك علىٰ قدر الإرادة به، إن أراد التأديب للنفس حسُنَ ذلك. فهذا يلتبس بمداخلة النفس أو بفَنائها بقيُّوميَّة شاهِد اليقين للرب عَزَّوَجَلَّ.

فصل: تركُ العمل عملٌ كثير، يحتاج التارك للنهي أو المكروه فرضًا أو ورعًا إلىٰ نية حسنة أن يتركه لله عَزَّوَجَلَّ طلبًا منه أو رغبةً فيما عنده، لا لوجود الخلق ولا ليرُبَّ به حالَه أو يقيم به عند العبيد جاهَه؛ لأنَّ ترك المعصية من أفضل الأعمال، فيحتاج إلىٰ أحسن النيات؛ إذ عليها من الله تعالىٰ أجزل المثوبات لبلوىٰ النفس فيها واضطراب الوصف إليها. قال بعضهم: مَن أحبَّ أن يعرف ورعه غير الله فليس من الله في شيء. وروينا في خبر أن أعجميًّا مر بنفر قعود يتكلمون بكلام فيه استهزاء [ولهو] وهو يظن أنهم يدعون الله عَزَّوَجَلَّ، فقال مثلما يقولون بحسن النية. قال: فغفر الله تعالىٰ له بحسن نيته. وقال الحسن: من علامة المسلم أن لا يبدره لسانُه، ولا يسبقه بصرُه، ولا تقصُر به نيتُه[1]. يعني لا تضعف ولا تقعد به عن المسارعة إلىٰ القربات، هي أبدًا في قوة وزيادة، وإن قصرت أعماله فيها وعجزت قوَّىٰ جوارحَه. وقال: المؤمن تبلغ نيتُه وتضعف قوَّته، والمنافق تضعف نيته وتبلغ قوته. وقال ابن عجلان: العمل لا يصلُح إلا بثلاث: التقوىٰ لله عَزَّوَجَلَّ، والنية الحسنة، والإصابة. وقال أبو عبيدة ابن عُقبة: مَن سرَّه أن يكمُل عملُه فليحسِّن نيتَه، فإن الله تعالىٰ يأجر العبد إذا حسنت نيتُه حتىٰ باللقمة[2]. وقال بعضهم[3]: القصد إلىٰ الله بالقلوب أبلغ من حركات الأعمال بالصلاة والصيام ونحوه. وقال الأنطاكي: إذا صارت المعاملة إلىٰ القلب استراحت الجوارح[4]. ورُوي عن عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَن كان ظاهره أرجح من باطنه خفَّ ميزانُه، ومَن كان باطنه أرجح من ظاهره ثقُل ميزانُه يوم

(١) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين ص ٣٤ وفي كتاب إصلاح المال ص ١٠٠ ضمن أثر طويل.

(٢) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٢٣ دون قوله (حتىٰ باللقمة).

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣١١ من طريق أبي عبد الله النباجي عن أبي خزيمة.

(٤) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٨١.

القيامة[١]. ورُوي عن الحسن في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ [العنكبوت: ٢٧] قال: نيته الصادقة اكتسب بها الأجرَ في الآخرة[٢]. ا.هـ. سياق القوت.

فصل: قال السيوطي في منتهىٰ الآمال[٣]: ورد في مطلق النية أحاديث كثيرة جدًّا تزيد علىٰ عدد التواتر، فروىٰ البيهقي في السنن[٤] من حديث أنس: «لا عمل لمَن لا نية له». وروىٰ الشيخان[٥] من حديث ابن عباس وأحمد[٦] من حديث رافع ابن خديج وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري والطبراني[٧] من حديث غزية بن الحارث: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية». وروىٰ الستة[٨] من حديث سعد بن أبي وقاص: «إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجهَ الله تعالىٰ إلا أُجِرتَ فيها». وروىٰ ابن ماجه[٩] من حديث معاوية: «إنما الأعمال كالوعاء، إذا طاب أسفله طاب أعلاه». وروىٰ الأربعة[١٠] من حديث عقبة بن عامر: «إن الله يُدخِل بالسهم الواحد ثلاثةً الجنة ...» فذكره، وفيه: «وصانعه يحتسب في صنعته الأجر». وروىٰ

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الإخلاص ص ٥٢.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٩/ ٣٠٥٣. وأورده الماوردي في النكت والعيون ٤/ ٢٨١.

(٣) منتهىٰ الآمال في شرح حديث إنما الأعمال ص ٣٦ - ١٥٦ (ط - دار ابن حزم).

(٤) السنن الكبرىٰ ١/ ٦٧.

(٥) صحيح البخاري ٢/ ١٣، ٣٠٢، ٣١٣، ٣٨١، ٤١٧. صحيح مسلم ١/ ٦١٥.

(٦) مسند أحمد ١٧/ ٢٥٨، ٣٥/ ٤٩٥.

(٧) المعجم الكبير ١٨/ ٢٦٢ - ٢٦٣. ورواه في موضع آخر ٣/ ٣٠٩ وسماه: الحارث بن غزية.

(٨) صحيح البخاري ١/ ٣٥، ٣٩٩، ٣/ ٧٨، ١٧٥، ٤/ ١٦٧، ٢٣٧. صحيح مسلم ٢/ ٧٦٧ - ٧٦٨. سنن أبي داود ٣/ ٣٩٢. سنن الترمذي ٣/ ٦١٧. السنن الكبرىٰ للنسائي ٨/ ٢٧١، ٢٧٩. وهذا المتن ليس عند ابن ماجه.

(٩) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٠، وتمامه: «وإذا فسد أسفله فسد أعلاه».

(١٠) سنن أبي داود ٣/ ٢١٩. سنن الترمذي ٣/ ٢٧٤. سنن النسائي ص ٤٨٥. سنن ابن ماجه ٤/ ٣٤٥. وتمام الحديث: «إن الله يدخل ثلاثة نفر الجنة بالسهم الواحد: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله».

النسائي[1] من حديث أبي ذر وأبي الدرداء: «مَن أتىٰ فراشَه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عينه حتىٰ يصبح كُتِب له ما نوىٰ».

فصل: قال الشهاب القرافي في كتاب الأمنية في إدراك النية[2]: إنما قال ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» ولم يقل: الأفعال بالنيات؛ لأن «عمل» معناه: فعل فعلاً له شرف وظهور وفعل لمطلق الأثر، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: ١] ولم يقل: كيف عملَ؛ لأنه أثرٌ فيه عقاب واهتضام، لا شرف ولا تعظيم. وقال تعالىٰ: ﴿مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١] وأكثر ما ورد في القرآن من ذِكر الجزاء[3] بلفظ العمل لا بلفظ الفعل، نحو: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٠٥﴾ [الأعراف: ٤٣] ﴿نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝٥٨﴾ [العنكبوت: ٥٨] ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [النحل: ٩٧] قال: وإذا تقرَّر ذلك حسُنَ حتمًا أن يقال: الأعمال بالنيات، دون: الأفعال بالنيات؛ لأن التقدير في خبر المبتدأ المحذوف: الأعمال معتبَرة بالنيات. وإنما يُراد اعتبارها إذا كانت تصلُح لله تعالىٰ، ولا يصلُح له إلا ما كان شريفًا في نفسه، فإذا أضيفت إليه النية صار يترتَّب عليه الثواب عند الله تعالىٰ. قال: ويسمَّىٰ الجُرْم عملاً وإن كان منهيًّا عنه مبعِدًا عن الله تعالىٰ؛ لأنه عظيم في طوره خيرًا أو شرًّا. قال: ولذلك منع بعض العلماء من من تناول الحديث الوضوء، حيث استدلَّ به علىٰ وجوب النية في الوضوء فقال: لا نسلِّم أن الوضوء من الأعمال، بل هو من الأفعال، والحديث إنما ورد في الأعمال، وتقريره: أن الطهارة شرط ووسيلة، لا مقصد في نفسه، فلم تصل شرفَ رتبة المقاصد، فليس فيه من الظهور والشرف ما في الصلاة ونحوها، فلا نسلِّم اندراجه. وهو منعٌ مشهور من قِبَل الحنفية.

---

(١) سنن النسائي ص ٢٩٠. وتمامه: «وكان نومه صدقة من الله عليه».

(٢) الأمنية في إدراك النية ص ١١١ - ٢٢٥ (ط - مكتبة الحرمين بالرياض).

(٣) في الأمنية: من ذكر أفعال الخير.

فصل في حدِّ النية: قال الجوهري[(١)]: النية: العزم. وقال الخطابي[(٢)]: هي قصدُك الشيء بقلبك وتحرِّي الطلب منك له، وقيل: هي عزيمة القلب. وقال التيمي: هي وجهة القلب. وقال البيضاوي[(٣)]: هي عبارة عن انبعاث القلب نحو ما يراه موافقًا لغرض من جلب نفع أو دفع ضرٍّ حالاً أو مآلاً، والشرع خصَّصها بالإرادة المتوجِّهة نحو الفعل ابتغاءً لوجه الله تعالىٰ وامتثالاً لحكمه. وقال النووي[(٤)]: النية: القصد، وهو عزيمة القلب. وتعقَّبه الكرماني[(٥)] بأن المتكلِّمين قالوا: القصد إلىٰ الفعل هو ما نجده في أنفسنا حال الإيجاد، والعزم قد يتقدَّم عليه ويقبل الشدة والضعف، بخلاف القصد، ففرَّقوا بينهما من وجهين، فلا يصح تفسيره به، وكلام الخطَّابي أيضًا مشعر بالمغايرة بينهما.

وقال العراقي في شرح التقريب[(٦)]: اختُلِف في حقيقة النية، فقيل: هي الطلب. وقيل: الجد في الطلب. ومنه قول ابن مسعود: مَن ينوِ الدنيا تعجزه[(٧)]. أي من يجدُّ في طلبها. وقيل: القصد للشيء بالقلب. وقيل: عزيمة القلب.

وقال الزركشي في قواعده[(٨)]: حقيقة النية ربطُ القصد بمقصود معيَّن، والمشهور أنها مطلق القصد إلىٰ الفعل، وقال الماوردي: هي قصدُ الشيء مقترنًا بفعله، فإن قصده وتراخَىٰ عنه فهو عزمٌ.

---

(١) الصحاح ٦/ ٢٥١٦، وعبارته: «نويت نية ونواة، أي عزمت. وانتويت مثله».

(٢) أعلام الحديث ص ١١٢.

(٣) تحفة الأبرار ١/ ١٩ - ٢٠.

(٤) المجموع شرح المهذب ١/ ٣٠٩. بستان العارفين ص ١٧.

(٥) الكواكب الدراري ١/ ١٨.

(٦) طرح التثريب ٢/ ٧.

(٧) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٧٧ وأبو داود في الزهد ص ١٦١ والبيهقي في المدخل إلىٰ السنن الكبرىٰ ٢/ ٢٥٧ ضمن أثر طويل.

(٨) المنثور في القواعد الفقهية ٣/ ٢٨٤.

فصل: قال القرافي في كتاب الأمنية: إن جنس النية هو الإرادة، وهي الصفة المخصِّصة لأحد طرفَي الممكن بما هو جائز عليه من وجود أو عدم، أو هيئة دون هيئة، أو حالة دون حالة، أو زمان دون زمان، وجميع ما يمكن أن يتَّصف الممكن به بدلاً من خلافه أو ضده أو نقيضه أو مثله. غير أنها في الشاهد لا يجب لها حصول مرادها، وفي حق الله تعالىٰ يجب لها ذلك؛ لأنها في الشاهد عرض مخلوق مصرَّف بالقدرة الإلهية والمشيئة الربَّانية هي ومرادها، وفي حق الله تعالىٰ معنىً ليس بعَرَض، واجبة الوجود، متعلقة بذاتها، أزلية، واجبة النفوذ فيما تعلَّقت به. ثم الإرادة متنوِّعة إلىٰ العزم والهمِّ والنية والشهوة والقصد والاختيار والقضاء والقدره والعناية والمشيئة. فهي عشرة ألفاظ: فالعزم هو: الإرادة الكائنة علىٰ وفق الداعية، والداعية: ميل يحصل في النفس لِما شعرت به من اشتمال المراد علىٰ مصلحة خالصة أو راجحة [أو دَرْء مَفسدة خالصة أو راجحة] والميل جائز علىٰ الخلق، ممتنع علىٰ الله تعالىٰ، فلا جَرَم لا يقال في حق الله تعالىٰ: عزم، بمعنىٰ أراد الإرادة الخاصة المصمَّمة، بل عزائم الله تعالىٰ طلبُه الراجع إلىٰ كلامه النفسي. فظهر الفرق بين العزم والإرادة. وأما الهم في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] وفي قوله ﷺ: «مَن همَّ بحسنة»، فالظاهر أنه مرادف للعزم وأن معناهما واحد، ويستحيل علىٰ الله تعالىٰ كما يستحيل العزم. وأما النية فهي إرادة تتعلق بإمالة الفعل إلىٰ بعض ما يقبله، لا بنفس الفعل من حيث هو فعلٌ، ففرقٌ بين قصدِنا لفعل الصلاة وبين قصدنا لكون ذلك الفعل قربة أو فرضًا أو نفلاً أو أداء أو قضاء أو غير ذلك ممَّا هو جائز علىٰ الفعل، فالإرادة المتعلقة بأصل الكسب والإيجاد هي المسمَّاة بالإرادة، ومن جهة أن هذه الإرادة مميلة للفعل إلىٰ بعض جهاته الجائزة عليه تسمَّىٰ من هذا الوجه نية، فصارت الإرادة إذا أضيفَ إليها هذا الاعتبار نيةً، وهذا الاعتبار هو تمييز الفعل عن بعض رُتَبه [وتمييز الفعل عن بعض رُتَبه] جائز علىٰ الله تعالىٰ، فإنه سبحانه قد يريد بالفعل الواحد نفع قوم وضر قوم وهداية [قوم وضلال] قوم .. إلىٰ غير ذلك ممَّا هو جائز علىٰ فعله.

غير أن أسماء الله توقيفية، فلا يسمَّىٰ الله تعالىٰ ناويًا، ويسمَّىٰ مريدًا. هذا إن اقتصر علىٰ هذا الاعتبار العام وهو مطلق إمالة الفعل إلىٰ بعض جهاته [والصحيح أنه لا يقتصر عليه وأن يؤخَذ معنىٰ أخص منه وهو إمالة الفعل إلىٰ جهة] حكم شرعي، فينوي إيقاعَ الفعل علىٰ الوجه الذي أمر الله تعالىٰ به أو نهىٰ عنه أو أباحه. ومنهم مَن يقول: بل أخص من هذا وهو أن يميل الفعل إلىٰ جهة التقرُّب والعبادة. وعلىٰ التقديرين، فيستحيل علىٰ الله تعالىٰ معناها، بخلاف المعنىٰ العام. وتفارق النيةُ الإرادةَ من وجه آخر وهو أن النية لا تتعلق إلا بفعل الناوي، والإرادة تتعلق بفعل الغير، كما نريد معونة الله تعالىٰ وإحسانه، وليست فعلنا. وأما الشهوة فهي إرادة متعلِّقة براحات البشر كالمَلاذِّ ودفعِ الآلام، فتستحيل علىٰ الله تعالىٰ. وأما القصد فهو الإرادة الكائنة بين جهتين، كمَن قصد الحج من مصر ومن غيرها، وهو بهذا المعنىٰ مستحيل علىٰ الله تعالىٰ. وأما الاختيار فهو الإرادة الكائنة بين شيئين فصاعدًا، ومنه: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي أرادهم دون غيرهم، مضافًا إلىٰ اعتقاد رجحان المختار، وهو جائز علىٰ الله تعالىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: ٣٢] وأما القضاء فهو الإرادة المقرونة بالحكم الخبري، فقضاء الله تعالىٰ لزيد بالسعادة إرادته سعادته مع إخباره بكلامه النفسي عن سعادته، ومنه قضاء الحاكم إذا أخبر عن حكم الله تعالىٰ في تلك الواقعة إخبارًا إنشائيًّا ولذلك تعذَّر نقضُه، بخلاف الفتيا. وأما العناية فهي الإرادة المتعلِّقة بالشيء علىٰ نوع من الحصر والتخصيص، ولذلك قال العرب:

* إياك أعني واسمعىٰ يا جاره *

أي أخصُّك دون غيرك، ولم يقل: إياك أريد. ويقولون: ما يعني بكلامه؟ أي ما يخصُّه به من المعاني التي يحتملها دون غيره. وبهذا التفسير هو جائز علىٰ الله تعالىٰ، غير أن أسماءه توقيفية، فلا يقال: الله عانٍ، وإن قيل: مريد. وأما المشيئة فالظاهر أنها مرادفة للإرادة، وقالت الحنفية: هي مباينة، وجعلوها مشتقَّة من الشيء، والشيء

اسم الموجود، حتىٰ قالوا: إذا قال الحالف: إن شئت دخول الدار فعبدي حر، فأراد دخول الدار لا يعتق عبده حتىٰ يدخل، ولا تكفي الإرادة، وأطلنا في كشف كتب اللغة ولم نجد للمشيئة معنىٰ إلا الإرادة. فهذه التفاسير والتغايرات بين هذه المعاني العشرة يساعد عليها الاستعمالُ والأصول الموجبة لعدم الترادُف، فتلخَّص أن النية غير التسعة الباقية؛ لِما ذُكر من خصوصيَّتها وخصوصيَّات كل واحد من التسعة المفقودة في النية، فيجزم الناظر بالفرق حينئذٍ، ولا يضرُّ كونُ الاستعمال قد يُتوسَّع فيه فيُستعمَل «أراد» ومراده: نوىٰ أو عزم أو قصد أو عنىٰ، فإنها متقاربة المعاني حتىٰ يكاد يُجزَم فيها بالترادُف [غير أن ابن معطي من المغاربة والقاضي شمس الدين الحوفي وجماعة من علماء العراق تعرَّضوا للفرق، وهو أَولىٰ من الترادُف] تكثيرًا لفوائد اللغة. قال: وبهذا تظهر الحكمة في قوله ﷺ: الأعمال بالنيات، ولم يقل: بالإرادات والعنايات أو غير ذلك، فإنه ﷺ لم يُرِدْ إلا الإرادة الخاصة المميلة للفعل إلىٰ جهة الأحكام الشرعية، كما تقدم في تفسير النية.

فصل: سُئل الإمام الغزالي رحمه الله تعالىٰ عن قول الفقهاء بوجوب مقارنة النية للتكبير، وكيف يكلَّف المرء بذلك؟ ومعلوم أن الفرضية والظهرية والأدائية ونية التقرُّب بها إلىٰ الله تعالىٰ واجبة، فكيف يخطر بباله هذه الأمور حالَ افتتاح الصلاة؟ وأنَّىٰ يُتصوَّر ذلك؟ فأجاب: أمر النية سهل في العبادات، وهو مثل النية في العادات، وإنما يتعسَّر بسبب الجهل بحقيقة النية، أو بسبب الوسوسة التي هي نوع اضطراب وفساد في الفكر، فلا بد من معرفة حقيقة النية، وإنما يلتئم أمرُ النية بقصد وعلم، والقصد فنَّان، وللعلم المفتقر إليه متعلَّقان. أما الفن الأول من القصد فهو القصد إلىٰ الفعل، وذلك ما يصير به الفعل اختياريًّا، كالهويِّ إلىٰ السجود مثلاً، فإنه تارةً يكون بقصد، وتارة يسقط الإنسان علىٰ وجهه بصرعة أو صدمة، فهذا القصد يضادُّه الاضطرار. والفن الثاني كالعلَّة لهذا القصد وهو الانبعاث لإجابة الداعي، وقد يسمَّىٰ باعثًا، فإنك إذا قمت عند اجتياز إنسان بك فلك قصدُ القيام

بكل حال، فإن القيام لا يقع اضطرارًا، ولكن قد يكون غرضك في القيام احترام ذلك الإنسان، وقد يكون غرضك أن تلبس ثوبًا وتسرج دابة وتخرج إلىٰ السوق أو غرض آخر من الأغراض، فإن كان [الغرض وهو] المحرِّك الباعث علىٰ اختيار القيام احترام ذلك الإنسان يقال: نويت تعظيمه. وإن كان غرضك الخروج إلىٰ السوق يقال: نويت الخروج. وكيفما نويتَ فالقيام لا يخلو عن إرادة قصدٍ متعلِّق بمعنىٰ القيام، ولكن القصد إلىٰ القيام لا ينبعث من النفس إلا إذا كان في القيام غرضٌ، فذلك الغرض هو المنويُّ، والنية إذا أُطلِقت في غالب الأمر أُريدَ بها انبعاث القصد متوجِّهًا إلىٰ ذلك الغرض [فالغرض] علَّة تحريك قصدِ القيام، وقصدُ القيام إجابة لتحريك ذلك الغرض وانبعاث إليه، وقصدُ الفعل لا ينفكُّ عن التكبير؛ إذ اللسان لا يجري عليه كلام منظوم اضطرارًا، والتكبير قد ينفكُّ عن النية. فبهذا تعلم أن النية عبارة عن إجابة الباعث المحرِّك. فهذا تحقيق نوعَي القصد. وأما العلم فلا بد منه؛ إذ لا قصد إلا إلىٰ معلوم، والقصد الأول يستدعي علمًا، فإنَّ مَن لا يعلم القيام ولا التكبير لا يمكنه أن يقصده، والقصد الثاني أيضًا يستدعي العلمَ، فإن الغرض إنما يكون باعثًا في حق مَن علم الغرَض، فمَن لا يعلم معنىٰ الاحترام والتعظيم لا يمكنه أن يقوم لغيره علىٰ نية الاحترام والتعظيم. فلنرجع إلىٰ القصد الثاني الذي هو النية، وهي خطرة واحدة ليس فيها تعدُّدٌ حتىٰ يعسُر جمعُها. نعم، يمكن استدامتها [وتجب من أول التكبير إلىٰ آخره، وإنما تنقطع استدامتُها] بضدِّها وهو قصدُ شيء آخر، كما لو ابتدأ القيام للاحترام ثم ندم عليه، أو قبل إتمام القيام عرض له قصدُ الخروج إلىٰ السوق فاستتمَّ القيام علىٰ ذلك القصد أو بضد شرطها وهو الغفلة عن العلم بالاحترام، فإن العلم بالمقصود شرطٌ لبقاء القصد، ولا عسر في استدامة هذا القصد من أول التكبير إلىٰ آخره، فإن التكبير لفظ مختصر يتم في لحظة، ويبعُد طرآنُ ضده في دوامه بحيث يُحَس بانقطاعه قبل تمام التكبير، وإذا لم يُحَس بانقطاعه فلا يضرُّ من الوسوسة ما يطرأ منها. وأما العلم فله متعلقان، أحدهما: نفس الفعل، وهو شرط القصد الأول، فإنه لا يقوم لتعظيم زيد

مَن لا يعلم القيام، فلا بد وأن يعلم ما به التعظيم، والتعظيم بقيام مع الإقبال علىٰ ذلك الشخص مقرون بدخوله، فإنه لو قام مستدبرًا إياه أو بعد انصرافه لم يكن تعظيمًا، فهذا علمٌ بما به التعظيم. والعلم الثاني وهو شرط القصد الآخر هو العلم بالمعظَّم، ووجه وجوب تعظيمه كالعلم بزيد الداخل وكونه شريفًا فاضلاً مستحقًّا للتعظيم، فهذه العلوم والقُصود إذا فُصِّلت باللسان ونظمِ العبارات طالت وكان من ضرورتها الترتيب والتعاقُب حتىٰ يكون البعض منها بعد البعض، سواء كان اللفظ باللسان أو بحديث النفس، ولا يكون حديث اللسان والنفس إلا بلغة عربية أو أعجمية، وليس في النية والعلم لغة ولا حرف ولا ترتيب، بل يجتمع منها في اللحظة الواحدة علومٌ كثيرة، والذهن لا يشعر بترتيب الألفاظ المعبِّرة عنها، ولكن تكون تلك القُصود حاضرة وتلك العلوم حاصلة في [نفسه في] لحظة واحدة وهي مدة الانتصاب، وهو مقترن به ولو لم يخطر تفصيل ذلك بحديث النفس [بباله البتَّة] ولم يقلْ بقلبه ولا بلسانه: نويت أن أنتصب قائمًا قيامًا مع الإقبال بالوجه والاقتران بالدخول تعظيمًا لزيد الشريف الفاضل، ولو قال ذلك بلسانه أو قلبه دلَّ علىٰ خبل في عقله وجهل منه [بمعنىٰ النية] فكذلك الصلاة فعلٌ مخصوص كالقيام، والنية باعث مخصوص وهو المنويُّ وهو إيجاب الله تعالىٰ واستيجابه(١)، ويستدعي ذلك علومًا وقُصودًا، ويحضر جميع ذلك مقرونًا بهمزة التكبير من غير عسر، وإنما العسر إحضار الألفاظ المردَّدة علىٰ اللسان أو القلب دفعةً واحدة، فأما حضور القصد في لحظة واحدة فلا يخفَىٰ؛ لأن القصد لحظة. وأما هذه العلوم فهوَّن اجتماعَها ثلاثةُ أمور:

أحدها: أن حضور الأخص كافٍ عن حضور الأعم، فإن المأمور به فعلٌ، لا كل فعل بل فعلٌ هو عبادة، ولا كل عبادة بل عبادة هي صلاة [ولا كل صلاة بل صلاة] هي ظهرٌ، فإذا حضر في القلب الظهرُ أغنىٰ عن إحضار الصلاة والعبادة

(١) في منتهىٰ الآمال: «وهو المنوي وهو الجاري استعمالا واستجابة».

والفعل بالبال، فإن العلم بالأعم يتضمَّن [العلمَ بالأخصِّ، لا علىٰ معنىٰ أن العلم بالأعمِّ] حاضر في الذهن مفصَّلاً.

الثاني: أن هذه العلوم إن منعت الوسوسةُ عن إحضارها معًا وطلبت النفسُ تفصيلها بالنطق حتىٰ اضطرَّ إلىٰ التعاقُب ولم يكن تعاقُبًا محسوسًا فهذا معفوٌّ عنه.

الثالث: أن التعاقُب وإن كان محسوسًا فإنَّا نجعل جميع المدة من همزة التكبير إلىٰ الراء في حكم اللحظة الواحدة، فإنها مدة قريبة.

فصل: قال ابن المنيِّر: المشهور عند النُّظَّار حملُ الحديث علىٰ العبادات، واتسع البخاري في الاستنباط فحمله عليها وعلىٰ المعاملات، وتبع مالكًا [في القول] بسدِّ الذرائع واعتبار المقاصد، فلو فسد اللفظُ وصح القصدُ لغىٰ اللفظُ وأُعمِلَ القصد تصحيحًا وإبطالاً. قال: والاستدلال بهذا الحديث علىٰ سدِّ الذرائع وإبطال الحِيَل من أقوىٰ الأدلة، ووجه التعميم أن المحذوف المقدَّر: الاعتبار، فمعنىٰ الاعتبار في العبادات إجزاؤها وبيان مراتبها، وفي المعاملات والأيمان الردُّ إلىٰ القصد.

فصل: قال السيوطي: قال العلماء: النية[1] تؤثِّر في الفعل فيصير بها تارةً حرامًا وتارةً حلالاً، وصورته واحدة، كالذبح مثلاً فإنه يحل الحيوان إذا ذُبح لأجل الله[2]، ويحرُم إذا ذُبح لغير الله، والصورة واحدة. وكذلك القرض في الذمة وبيع النقد بمثله إلىٰ أجل صورتهما واحدة، والأول قربة صحيحة، والثاني معصية باطلة.

وقال ابن القيم في كتاب الروح[3]: الشيء الواحد تكون صورته واحدة وهو ينقسم إلىٰ محمود ومذموم، فمن ذلك: التوكل، والعجز، والرجاء، والتمني،

---

(١) فتح الباري لابن حجر ١٢/ ٣٤٤.

(٢) في الفتح ومنتهىٰ الآمال: لأجل الأكل.

(٣) الروح ص ٦٥٠ (ط - دار عالم الفوائد).

والحب لله، والحب مع الله، والنصح، والتأنيب، والهدية، والرشوة، والإخبار بالحال، والشكوىٰ. فإن الأول من كل ما ذُكر محمود، وقرينه مذموم، والصورة واحدة، ولا فارق بينهما إلا في القصد.

فصل: قال الزركشي في القواعد[1]: النية تنقسم إلىٰ نية التقرُّب ونية التمييز، فالأولىٰ تكون في العبادات، والثانية تكون في المحتمل للشيء وغيره، وذلك كأداء الديون إذا أقبضه من جنس حقِّه فإنه يحتمل التمليكُ هبة وقرضًا ووديعة وإباحة، فلا بد من نية تميِّز إقباضَه عن سائر أنواع الإقباض، ولا تُشترَط نية التقرُّب. قال: ولا خلاف في أن النية في الصلاة والصوم للتقرُّب، واختُلِف في الوضوء وفي الزكاة هل هي فيهما للتقرُّب أو للتمييز بين الفرض والنفل.

فصل: قال السيوطي: استثنىٰ الغزالي في المستصفَىٰ[2] والإمام في المحصول[3] مما تجب فيه النية: النية، فإنها لو افتقرت إلىٰ نية أخرىٰ لزم التسلسلُ. وقال الكرماني[4]: إنها خارجة من الحديث بقرينة العقل دفعًا للتسلسل. وقد ذكر

---

(١) المنثور في القواعد الفقهية ٣/ ٢٨٥ - ٢٨٧.

(٢) المستصفىٰ من علم الأصول ١/ ٢٨٥ - ٢٨٧، ونصه: «لا يدخل تحت التكليف إلا الأفعال الاختيارية، وللداخل تحت التكليف شروط ... منها أن يكون بحيث تصح إرادة إيقاعه طاعة، وهو أكثر العبادات، ويستثنىٰ من هذا شيئان، أحدهما: الواجب الأول، وهو النظر المعرف للوجوب فإنه لا يمكن قصد إيقاعه طاعة وهو لا يعرف وجوبه إلا بعد الإتيان به. والثاني: أصل إرادة الطاعة والإخلاص، فإنه لو افتقرت إلىٰ إرادة لافتقرت الإرادة إلىٰ إرادة ولتسلسل».

(٣) المحصول في أصول الفقه للفخر الرازي ٢/ ٢٦٦ (ط - مؤسسة الرسالة)، ونصه: «يجب أن يقصد إيقاع المأمور به علىٰ سبيل الطاعة، والمعتمد فيه قوله ﷺ: إنما الأعمال بالنيات. قالوا: ويستثنىٰ منه شيئان، أحدهما: الواجب الأول وهو النظر المعرف للوجوب، فإنه لا يمكن قصد إيقاعه طاعة مع أن فاعله لا يعرف وجوبه عليه إلا بعد إتيانه به. الثاني: إرادة الطاعة، فإنها لو افتقرت إلىٰ إرادة أخرىٰ لزم التسلسل».

(٤) الكواكب الدراري ١/ ١٩.

الزركشي[١] أن في ذلك نزاعًا. وكأنه يشير إلىٰ قول القرافي: إن النية منصرفة إلىٰ الله تعالىٰ بصورتها، فلم تفتقر إلىٰ نية أخرىٰ. قال: ولا حاجة إلىٰ التعليل بأنها لو افتقرت إلىٰ نية لزم التسلسلُ، ولذلك يُثاب الإنسان علىٰ نية مفردة ولا يُثاب علىٰ الفعل مفردًا؛ لانصرافها بصورتها إلىٰ الله تعالىٰ، والفعل متردِّد بين ما هو لله وبين ما هو لغيره.

قال السيوطي: واستُثني[٢] من الحديث أيضًا معرفة الله تعالىٰ، حتىٰ قال بعضهم: إن دخوله في الحديث مُحال؛ لأن النية قصدُ المنويِّ، وإنما يقصد المرء ما يعرف، فيلزم أن يكون عارفًا قبل المعرفة. وتعقَّبه البلقيني بما حاصله: إن كان المراد بالمعرفة مطلق الشعور فمسلَّم، وإن كان المراد النظر في الدليل فلا؛ لأن كل ذي عقل يشعر مثلاً بأنَّ له مَن يدبِّره، فإذا أخذ في النظر في الدليل عليه ليتحقَّقه لم تكن النية حينئذٍ محالاً. انتهىٰ. وقال العز ابن عبد السلام: لا مَدخل للنية في قراءة القرآن والأذكار وصدقة التطوع ودفن الميت ونحوها ممَّا لا يقع إلا علىٰ وجه العادة[٣]. وأما قوله ﷺ «إنما الأعمال بالنيات» فالمراد به الأعمال التي تقع تارةً طاعةً وغير طاعة أخرىٰ، بدليل ذِكر الهجرة في سياق الحديث، وأما هذه القربات ونحوها ممَّا شُرع لمصلحة عاجلة قصدًا أو كان بصورة عبادة فعدم وجوب النية فيها لعدم إرادتها أو لخروجها عن الإرادة حسًّا كصورة العمل إن قيل بعموم الأعمال للطاعة والقربة.

فصل: قال السيوطي: استُدِلَّ بمفهوم الحديث علىٰ أن ما ليس بعمل لا تُشترَط فيه النية، وذلك التروك كترك الزنا وشرب الخمر، ومنه إزالة النجاسة في

---

(١) المنثور في القواعد الفقهية ٣/ ٢٨٩.

(٢) فتح الباري لابن حجر ١/ ٢٠.

(٣) إلىٰ هنا انتهىٰ كلام العز ابن عبد السلام، وما بعده نقله السيوطي عن صاحب الإقليد.

الأصح؛ قاله النووي[١]. ونازعه الكرمانيُّ[٢] بأن الترك أيضًا فعلٌ وهو كفُّ النفس، وبأن التروك إذا أُريدَ بها تحصيل الثواب بامتثال أمر الشارع فلا بد فيها من القصد. قال الحافظ في الفتح[٣]: وتُعُقِّب بأن قوله «الترك فعلٌ» مختلَف فيه، ومن حق المستدِلِّ علىٰ المانع أن يأتي بما هو متفق عليه. قال السيوطي: الشرط أن يكون متفقًا عليه بين المانع والمستدِلِّ فقط، لا بين غيرهم أيضًا، والنووي موافق علىٰ أن الترك فعلُ الكف. ثم قال الحافظ: أما استدلاله الثاني فلا يطابق المورَد؛ لأن المبحوث فيه هل تلزم النيةُ في التروك بحيث يقع العقاب بتركها؟ والذي أورده هل يحصل الثواب بدونها؟ والتفاوت بين المقامين ظاهرٌ، والتحقيق أن الترك المجرَّد لا ثواب فيه، وإنما يحصل الثواب بالكف الذي هو فعلُ النفس، فمَن لم تخطر المعصية بباله أصلاً ليس كمَن خطرت فكفَّ نفسَه عنها خوفًا من الله تعالىٰ، فرجع الحال إلىٰ أن الذي يحتاج إلىٰ النية هو العمل بجميع وجوهه، لا الترك المجرَّد.

فصل: قال الخلخالي في شرح المصابيح: حرف التعريف في «الأعمال» لا يسوغ حملُه علىٰ تعريف الماهية؛ لعدم افتقار مطلق الأعمال إلىٰ النية من حيث هو المطلق، بل المفتقِر إليها هو أفرادها، فيتعيَّن أن يكون للعموم، وخُصَّ البعض بالإجماع أو للعهد وهو الأعمال التي عُهِدت من الشرع وهي العبادات؛ لأن غيرها لا يفتقر إلىٰ النية.

---

(١) قال الشيرازي في المهذب: «طهارة النجس لا تفتقر إلىٰ النية؛ لأنها من باب التروك، كترك الزنا والخمر واللواط والغصب والسرقة». قال النووي في شرحه: «معناه أن المأمور به في إزالة النجاسة ترك ما طرأ عليه مما لم يكن، وليس المطلوب تحصيل شيء بخلاف الوضوء وشبهه، فإن المأمور به إيجاد فعل لم يكن، فصارت إزالة النجاسة كترك الزنا واللواط ورد المغصوب فإنها لا تفتقر إلىٰ نية. أما الحكم الذي ذكره وهو أن إزالة النجاسة لا تفتقر إلىٰ نية فهو المذهب الصحيح المشهور الذي قطع به الجمهور، ونقل صاحب الحاوي والبغوي في شرح السنة إجماع المسلمين عليه». المجموع شرح المهذب ١/ ٣٠٩ - ٣١١. وانظر شرحه علىٰ صحيح مسلم ١٣/ ٨٠.

(٢) الكواكب الدراري ١/ ٢٢.

(٣) فتح الباري ١/ ٢١.

فصل: ذكر[1] ابن المنيِّر ضابطًا لِما تُشترَط فيه النية وما لا تُشترَط فقال: كل عمل لا تظهر له فائدةٌ عاجلة بل المقصود به طلبُ الثواب فالنية مشترَطة فيه، وكل عمل ظهرت فائدته ناجزةً وتقاضته الطبيعةُ قبل الشريعة لملاءمة بينهما فلا تُشترَط النية فيه إلا لمَن قصد بعمله معنىً آخر يترتَّب عليه الثواب. قال: وإنما اختلف العلماء في بعض الصور من جهة تحقيق مَناط التفرقة. قال: وأما ما كان من المعاني المحضة كالخوف والرجاء فهذا لا يقال باشتراط النية فيه؛ لأنه لا يمكن أن يقع إلا منويًّا، ومتىٰ فُرِضت النية مفقودةً فيه استحالت حقيقتُه، فالنية فيه شرط عقليٌّ، وأما الأقوال فتحتاج إلىٰ النية في ثلاثة مواطن، أحدها: التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ فرارًا من الرياء، والثاني: التمييز بين الألفاظ المحتملة لغير المقصود، والثالث: قصدُ الإنشاء؛ ليخرج سبقُ اللسان.

فصل: قال الشهاب القرافي: النية قسمان: فعلية موجودة، وحُكمية معدومة. فإذا نوىٰ المكلَّف أول العبادة فهذه نية فعلية، ثم إذا ذهل عن النية حكم صاحبُ الشرع بأنه ناوٍ ومتقرِّب، فهذه هي النية الحُكمية، أي حكم [صاحب] الشرع [لصاحبها] ببقاء حكمها؛ لأنها موجودة، وكذلك الإخلاص والإيمان [والكفر] والنفاق والرياء وجميع أحوال القلب إذا شرع فيها واتَّصف القلب بها كانت فعلية، وإذا ذهل عنها حكم صاحبُ الشرع ببقاء أحكامها لمَن كان اتَّصف بها قبل ذلك، حتىٰ لو مات الإنسان مغمورًا بالمرض حكم صاحبُ الشرع له بالإسلام المتقدِّم، بل بالولاية والصِّدِّيقية وجميع المعارف المتقدمة وإن لم يتلفَّظ بالشهادة عند الموت، وعكسه يحكم له بالكفر والنفاق وجميع مساوئ الأخلاق وإن كان لا يستحضر منها شيئًا عند الموت ولا يتَّصف بها، بل يوم القيامة الأمر كذلك، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [طه: ٤٧] مع أنه لا يكون [أحد] يوم القيامة مجرمًا ولا كافرًا ولا عاصيًا؛ لظهور الحقائق عند الموت، وصار الأمر ضروريًّا،

(١) السابق ١/ ١٦٤.

فمعناه: محكومًا له بالإجرام كما يُحكَم لغيره بالإيمان. واكتفىٰ صاحب الشرع بالإيمان [والإخلاص] والنية الحُكمية للمشقَّة في استمرارها بالفعل.

فصل: وقال أيضًا: نية الحسنة يُثاب عليها حسنة واحدة، وفعلُ الحسنة يُثاب عليها عشرًا؛ لأن الأفعال هي المقاصد، والنيات وسائل، والوسائل أخفض رتبةً من المقاصد.

وقال الكرماني[1]: [فإن قلت]: مَن جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة، ومَن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، فيلزم أنَّ مَن جاء بنية الحسنة فله عشر أمثالها، فلا يبقىٰ فرقٌ بين الحسنة ونية الحسنة. قال السيوطي: لا نسلِّم[2] أن مَن جاء بنية الحسنة فقد جاء بالحسنة، بل يُثاب علىٰ نية الحسنة، فظهر الفرق. ا.هـ.

قلت: قال بعض الأفاضل: وكنت بحثت مع السراج البُلقيني بالخشابية بجامع عمرو هل تضعَّف هذه الحسنة أيضًا، وقلت: ينبغي أن تضعَّف؛ لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾ الآية [النساء: ٤٠] فقال: نعم، وتضعَّف من جنس ما هم فيه. ا.هـ. وهو كلام حسن.

فصل: نقل الكرماني[3] في توجيه الخبر المتقدم «نية المؤمن خير من عمله» ستة أوجه تقدَّم ذِكرُها، ثم قال: أو أن المراد نية المؤمن خير من عمل الكافر؛ لِما قيل: ورد ذلك حين نوىٰ مسلمٌ بناء قنطرة فسبق كافرٌ إليها. ا.هـ. قال السيوطي: وهي سبعة احتمالات في تأويل الخبر المذكور، وكلها حسنة، إلا الأخير فإنه باطل لا أصل له. وقال البيهقي في الشعب[4]: أخبرنا أبو عبد الرحمن السلمي

---

(١) الكواكب الدراري ١/ ٢٢.

(٢) قوله: لا نسلم ... الخ، ليس من كلام السيوطي، بل من تتمة كلام الكرماني يجيب به عن الاستشكال المذكور. وفي منتهىٰ الآمال: لا يلزم، بدل: لا نسلم. وعبارة (فإن قلت) سقطت من قلم الشارح، فاستدركتها من منتهىٰ الآمال والكواكب الدراري ليستقيم الكلام.

(٣) الكواكب الدراري ١/ ٢١.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ١٧٦ - ١٧٧.

قال: سُئل الأستاذ أبو سهل الصعلوكي عن معنىٰ هذا الخبر، فقال: لأن النية تخلِّص الأعمال، والأعمال بمقابلة الرياء والعُجب. وأخرج بسنده عن أحمد ابن يحيىٰ ثعلب قال: سمعت ابن الأعرابي يقول: نية المؤمن خير من عمله؛ لأن النية لا يدخلها الفسادُ، والعمل يدخله الفسادُ. قال البيهقي: وإنما أراد بالفساد الرياءَ، فيرجع ذلك إلىٰ ما قال الأستاذ أبو سهل. قال: وقد قالوا: النية دون العمل تكون طاعة، قال النبي ﷺ: «مَن همَّ بحسنة فلم يعملها كُتبت له حسنة»، والعمل دون النية لا يكون طاعة. ا.هـ.

قلت: ووجدت في هامش «منتهىٰ الآمال» عند ذِكر الكرماني الوجه الأخير الذي أبطله السيوطي ما نصه: سُئل الشيخ عز الدين ابن عبد السلام عن هذا الحديث، فأجاب عنه بجوابين، أحدهما: أن هذا ورد علىٰ سبب وهو أن النبي ﷺ وعد بثواب علىٰ حفر بئر، فنوىٰ عثمان رضي الله عنه أن يحفرها، فسبق إليها كافرٌ فحفرها، فقال النبي ﷺ: «نية المؤمن - يعني عثمان - خير من عمله» يعني الكافرَ. ونظر فيه بعضهم بأن أفعل التفضيل يقتضي المشاركة، وعمل الكافر لا خير فيه البتَّة. وأجاب بأن تسميته خيرًا باعتباره في نفسه وإن لم يُثَب عليه، بدليل أنه لو أسلم أثيبَ عليه من غير تضعيف، كما ورد في مسند البزَّار أنه إذا أسلم يُثاب علىٰ كل طاعة حسنة واحدة من غير تضعيف[١]، لكن في الصحيح أنه ﷺ قال لشخص أسلم: «أسلمتَ علىٰ ما أسلفتَ من خير»[٢]. ا.هـ. والجواب الثاني: أن النية المجرَّدة من

(١) لعله يشير إلىٰ الحديث الذي رواه البزار في مسنده ٤/ ٢٨٤ عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «ما أحسن من محسن مسلم ولا كافر إلا أثيب». قلنا: يا رسول الله، هذه إثابة المؤمن قد عرفناها، فما إثابة الكافر؟ قال: «إذا تصدق بصدقة أو وصل رحما أو عمل حسنة أثابه الله، وإثابته المال والولد في الدنيا، وعذابا دون العذاب». يعني في الآخرة، وقرأ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

(٢) رواه البخاري ١/ ٤٤٤ ومسلم ١/ ٦٧ عن حكيم بن حزام قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ: «أسلمت علىٰ ما سلف من خير».

المؤمن خير من عمله المجرَّد عن النية[١]. وهذا قد تقدَّم بيانه آنفًا.

فصل في ألفاظ وردت عن السلف طِبق ما ذكره المصنِّف: أخرج الدارمي[٢] عن ابن عباس قال: إنما يُحفَظ حديث الرجل علىٰ قدْر نيَّته. وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب النية والإخلاص والدينوري في المجالسة[٣] عن عثمان بن واقد قال: قيل لنافع ابن جبير بن مطعم: ألا تشهد الجنازة؟ قال: كما أنت حتىٰ أنوي. ففكَّر هنيهة ثم قال: امض. وأخرجا أيضًا عن عبد الرحمن بن زبيد قال: كان أبي يقول: يا بني، انوِ في كل شيء تريده الخيرَ حتىٰ خروجك إلىٰ الكناسة في حاجة. وأخرج البيهقي في الشعب[٤] عن يونس بن عبد الأعلىٰ قال: قال لي الشافعي: يا أبا موسىٰ، لو جهدتَ كلَّ الجهد علىٰ أن ترضي الناس كلَّهم فلا سبيل له، فإذا كان كذلك فأخلِصْ عملك ونيتك لله. وأخرج البيهقي أيضًا من طريق سفيان عن زبيد قال: يسرُّني أن يكون لي في كل شيء نية حتىٰ في الأكل والنوم. وأخرج عن سفيان في قوله تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قال: ما أريدَ به وجهه. وأخرج عن الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود: ٧٥] قال: كان إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوىٰ نوىٰ لله. وأخرج عن عوف قال: سمعت محمد بن سيرين يقول: ما أراد رجل من الخير شيئًا إلا سار في قلبه سورتان، فإذا كانت الأولىٰ لله فلا تهيدنك الآخرة. وأخرج عن الحسن قال: ما من أحد عمل عملاً إلا سار في قلبه سورتان، فإذا كانت الأولىٰ لله فلا تهيدنه الآخرة.. هذا ما يتعلق بالنية، وستأتي بقية الكلام علىٰ بعض أحكامها في الباب الآتي. والله الموفِّق.

---

(١) انظر: كشف الأسرار عما خفي عن الأفكار ص ٢٥٤ - ٢٥٦ لابن العماد الأقفهسي (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) سنن الدارمي ١/ ١١٧.

(٣) المجالسة وجواهر العلم ٨/ ٢٦٦.

(٤) شعب الإيمان ٩/ ١٨٦، ١٩٠، ١٩١، ٢٠١.

الباب الثاني:

في الإخــلاص

ويضاف إليه السر والغربة والتلبيس والهمَّة؛ لأنهن من فضائله (و) فيه بيان **(فضيلته وحقيقته ودرجاته)**

فضيلة الإخلاص

اعلمْ أن الإخلاص هو العروة الوثقىٰ والذروة العليا المأمور به علىٰ ألسنة الأنبياء عليهم السلام (**قال الله تعالىٰ**: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾) [البينة: ٥] وهو الوسيلة لصحة الإيمان والأعمال جميعًا، والسر المستودَع في قلوب الأولياء والمقرَّبين الذين عزل الربُّ عن قلوبهم سلطنةَ الشيطان ونزغاته بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥] أضاف عبوديتهم إلىٰ نفسه إضافة تخصيص وتكريم، وجعلهم أتقياء أخفياء تحت ستره، ليس لهم أكفاء ولا نُظَراء، يورون عن أحوالهم بأعمال معارة سترًا لحالهم، قد علقت قلوبُهم بالملكوت، وارتفعت هِمَمهم لمولاهم، ففنيت صفاتهم في صفاته؛ لقيامه عليهم وإحاطته بهم، فهم موجودون معدومون عند نفوسهم بحقائق إيمانهم وتوحيدهم وإخلاصهم، موجودون في نظر غيرهم؛ لأنهم يرونهم قائمين قاعدين معطين مانعين، فهم غرباء من الأمثال والأكفاء لهذا السر الموقور في بطونهم، متلبِّسين بثياب ظاهرة عارية عليهم تستر بواطنهم وأسرارهم تعبد الله، همَّتهم

نافذة لخلوِّها عن الأغراض والأعواض ومشاهدة الأغيار، فإن قاموا فلله وبالله، وإن قعدوا فلله وبالله.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾) [الزمر: ٣] أي[١] الصافي الذي زال عنه شوبُه الذي كان فيه.

(**وقال تعالىٰ**) في وصف أولئك المخلصين: (﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾) [النساء: ١٤٦] فالتوبة أول مقام من مقامات اليقين، والإخلاص خاتمتها.

(**وقال تعالىٰ**: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] **نزلت فيمَن يعمل لله ويحب أن يُحمَد عليه**) أخرج[٢] عبد الرزاق[٣] وابن أبي الدنيا في الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم[٤] عن طاووس قال: قال رجل: يا نبي الله، إني أقف [المواقف] أبتغي وجه الله وأحب أن يُرَىٰ موطني. فلم يردَّ عليه شيئًا حتىٰ نزلت هذه الآية. ورواه الحاكم[٥] وصحَّحه والبيهقي[٦] موصولاً عن طاووس عن ابن عباس. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: كان من المسلمين مَن يقاتل وهو يحب أن يُرَىٰ مكانه، فأُنزِلت هذه الآية. وأخرج هنَّاد في الزهد[٧] عن مجاهد قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدَّق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خيرًا. فنزلت. وأخرج ابن أبي حاتم عن كثير بن زياد عن الحسن قال: نزلت فيمَن عمل

(١) المفردات للراغب ص ١٥٤.
(٢) الدر المنثور ٩/ ٦٩٦ - ٦٩٨.
(٣) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٠٤.
(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٧٥.
(٥) السابق ٢/ ١٣٤.
(٦) شعب الإيمان ٩/ ١٧١.
(٧) الزهد ٢/ ٤٣٥.

عملاً يريد به اللهَ والناسَ، فذلك يردُّه الله عليه.

(وقال النبي ﷺ: **ثلاثٌ لا يُغَلُّ**) أي لا يحقد (**عليهن قلب رجل مسلم: إخلاص العمل لله**) وتمامه: «والنصيحة لولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين، فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم». هذا لفظ الترمذي، ولفظ ابن ماجه: «والنصح لأئمَّة المسلمين ولزوم جماعتهم». قال العراقي[١]: رواه الترمذي[٢] من حديث ابن مسعود، وابن ماجه[٣] من حديث زيد بن ثابت، والطبراني[٤] من حديث النعمان بن بشير.

قلت: ورواه أيضًا الطيالسي[٥] من حديث زيد بن ثابت، وابن ماجه[٦] أيضًا من حديث جُبَير بن مُطعِم بلفظ: «ومناصحة أئمَّة المسلمين ولزوم جماعة المسلمين، فإن الدعاء يحيط من ورائهم». وقال القشيري في الرسالة: أخبرنا علي بن أحمد الأهوازي، أخبرنا أحمد بن عبيد البصري، حدثنا جعفر بن محمد الفريابي، حدثنا أبو طالب، حدثني هانئ بن عبد الرحمن بن أبي عبلة العقيلي، عن إبراهيم بن أبي عبلة، حدثني عقبة بن وساج، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يُغلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة وُلاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين».

(**وعن**) أبي[٧] زُرارة (**مصعب بن سعد**) المدني، ثقة، روىٰ له الجماعة، مات

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٥.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٥.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ٢١٩.

(٤) المعجم الكبير ٢١/ ٩١.

(٥) مسند الطيالسي ١/ ٥٠٤.

(٦) سنن ابن ماجه ٤/ ٥٠٢.

(٧) تقريب التهذيب ص ٩٤٦.

سنة ثلاث ومائة **(عن أبيه)** سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أحد العشرة **(أنه ظن أنَّ له فضلاً علىٰ مَن هو دونه**[١] **من أصحاب رسول الله ﷺ، فقال النبي ﷺ: إنما نصر الله عز وجل هذه الأمَّة بضعفائها ودعوتهم وإخلاصهم وصلاتهم)** قال العراقي[٢]: رواه النسائي[٣]، وهو عند البخاري[٤] بلفظ: «هل تُنصَرون وتُرزَقون إلا بضعفائكم».

قلت: وبخط الكمال الدميري: كذا رواه البخاري مرسلاً، فإن مصعب بن سعد تابعي، ورواه الحافظ أبو بكر البرقاني في صحيحه متصلاً عن مصعب عن أبيه عن أبي الدرداء رفعه: «ابغوني الضعفاء، فإنما تُنصَرون وتُرزَقون بضعفائكم». ورواه أبو داود بإسناد جيد. ا.هـ.

قلت: وهو في الحلية[٥] لأبي نعيم من طريق عاصم بن علي، عن محمد بن طلحة ابن مصرف، عن أبيه، عن مصعب بن سعد قال: رأىٰ سعد أنَّ له فضلاً علىٰ مَن دونه، فقال النبي ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعفائها بدعواتهم وصلواتهم وإخلاصهم». قال: رواه يحيىٰ بن أبي زائدة عن محمد بن طلحة مثله، ورواه عن طلحة: ليث بن أبي سليم، وزهير، ومسعر، والحسن بن عمارة، ومعاوية بن سلمة النصري. ا.هـ. ورواه النسائي عن مصعب بن سعد عن أبيه بلفظ: «إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعيفها بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم». ورواه أبو نعيم في المعرفة[٦] من حديث أبي عبيدة بلفظ: «إنما تُنصَرون بضعفائكم». ورواه أيضًا من حديث سعد بن أبي وقَّاص بلفظ: «إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعفائها بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم». قال حين ظن سعد أنَّ له فضلاً علىٰ مَن دونه. وأما حديث

---

(١) في الجميع: عن مصعب بن سعد عن أبيه قال: ظن أبي أن له فضلًا علىٰ من دونه...إلخ.

(٢) المغني ٢/ ١١٧٥.

(٣) سنن النسائي ص ٤٩٢.

(٤) صحيح البخاري ٢/ ٣٣١.

(٥) حلية الأولياء ٥/ ٢٦.

(٦) معرفة الصحابة ١/ ١٥٤.

أبي الدرداء فلفظه: «ابغوني ضعفاءكم، فإنكم تُرزَقون وتُنصَرون بضعفائكم». هكذا رواه أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذي[٣] - وقال: حسن صحيح - والنسائي[٤] والحاكم[٥] وابن حبان[٦] والطبراني والبيهقي[٧]. ولفظ البخاري: «ابغوني الضعفاء، فإنما تُنصَرون ...» الخ، وكذا هو في رواية لأبي داود والحاكم.

(**وعن الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ (**قال: قال رسول الله ﷺ: يقول الله تعالىٰ: الإخلاص سرٌّ من سرِّي، استودعتُه قلبَ مَن أحببتُه من عبادي**) قال العراقي[٨]: رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلاً، يقول كل واحد من رُواته: سألت فلانًا عن الإخلاص فقال. وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالىٰ. وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كِلاهما متروك، وهما من الزهَّاد. ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف.

قلت: ورويناه في جزء من المسلسلات للحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي قال: سألت شيخنا أبا العباس أحمد بن يوسف بن البود عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا المظفَّر يوسف بن محمد السُّرَّمري عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الثناء محمود بن علي الدقوقيَّ وأخاه أبا بكر محمدًا عن الإخلاص ما هو، قالا: سألنا الإمام أبا الخير عبد الصمد بن أحمد المقري عن الإخلاص ما

---

(١) مسند أحمد ٣٦/ ٦٠.

(٢) سنن أبي داود ٣/ ٢٥٤.

(٣) سنن الترمذي ٣/ ٣٢٠.

(٤) سنن النسائي ص ٤٩٢.

(٥) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٢٨، ١٧٣.

(٦) صحيح ابن حبان ١١/ ٨٥.

(٧) السنن الكبرىٰ ٣/ ٤٨٠، ٦/ ٥٣٨.

(٨) المغني ٢/ ١١٧٥ - ١١٧٦.

هو. ح. قال: وأنبأنا جماعة منهم أبو العباس أحمد بن الصلاح علي بن محمد ابن قاضي الحصن، أخبرنا أبو نصر محمد بن علي الدقوقي كتابةً من بغداد قال: سألت أبا أحمد عبد الصمد بن أحمد بن أبي الجيش المقرئ عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا محمد يوسف بن عبد الرحمن البكري عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبي أبا الفرج عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الفضل محمد بن ناصر عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الغنائم محمد ابن علي النَّرْسي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت الشريف أبا عبد الله العلوي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الفضل محمد بن جعفر الخزاعي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا نصر محمد أبن حمد بن الحسين الخراساني عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الحسن علي بن سعيد عن الإخلاص ما هو، قال: سألت علي بن إبراهيم الفسطاطي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت محمد بن جعفر عن الإخلاص ما هو. ح. وقال أبو الفرج: وسألت أبا الحسن علي بن يحيىٰ عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا بكر محمد بن عبد الباقي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا عبد الله محمد بن عبد الله الإسفراييني عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا الحسن علي بن محمد الجَمَّال الصوفي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت محمد بن جعفر الخَصَّاف عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أحمد بن بشَّار عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أحمد بن غسَّان عن الإخلاص ما هو، قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو - قال: كذا وقع في روايتنا من طريق أبي المظفَّر السرمري منقطعًا، وفي روايتنا عن ابن قاضي الحصن وغيره: قال أحمد بن غسَّان: سألت أحمد بن عطاء الهَرَوي، وقال هناد في روايته: سألت الهجيمي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت عبد الواحد ابن زيد عن الإخلاص ما هو، قال: سألت الحسن عن الإخلاص ما هو، قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو، قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو، قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو، قال:

سألت رب العزَّة تبارك وتعالىٰ عن الإخلاص ما هو، فقال: «الإخلاص سرٌّ من سرِّي، استودعتُه قلبَ مَن أحببتُه من عبادي». وقد رواه مسلسلاً الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، عن أبي عبد الرحمن محمد بن الحسين الصوفي - هو السلمي - عن علي بن سعيد وأحمد بن محمد بن زكريا، عن علي بن إبراهيم الشقيقي، عن محمد بن جعفر الخَصَّاف، عن أحمد بن بشَّار، عن أبي يعقوب الشريطي، عن أحمد بن غسَّان، عن أحمد بن عطاء الهجيمي، عن عبد الواحد بن زيد به. تابعه الأستاذ أبو القاسم القشيري عن أبي عبد الرحمن السلمي كذلك. وأحمد ابن عطاء كان متروكًا، فيما ذكره الدارقطني[1]. ا.هـ. سياق الحافظ الدمشقي.

قلت: لفظ القشيري في الرسالة: وقد ورد خبر مسندٌ أن النبي ﷺ أخبر عن جبريل عن الله عَزَّوَجَلَّ أنه قال: «الإخلاص سرٌّ من سري، استودعتُه قلبَ مَن أحببته من عبادي». قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي وسألته عن الإخلاص، فقال: سمعت علي بن سعيد وأحمد بن زكريا وسألتهما عن الإخلاص، فقالا: سمعنا علي إبن إبراهيم الشقيقي وسألناه عن الإخلاص قال: سمعت محمد ابن جعفر الخَصَّاف وسألته عن الإخلاص، فقال: سألت أحمد بن بشَّار عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أبا يعقوب الشريطي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت [أحمد بن غسَّان عن الإخلاص ما هو، قال: سألت عبد الواحد بن زيد عن الإخلاص ما هو، قال: سألت] الحسن عن الإخلاص ماهو، قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو، قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو ... فذكره.

قلت: وقرأت في مسلسلات الحافظ أبي مسعود سليمان بن إبراهيم بن محمد ابن سليمان الأصبهاني رحمه الله تعالىٰ التي خرَّجها باسم نظام المُلك - وهي عندي بخطِّه - ما لفظه: النوع السابع والمائة: سألت أبا الوفاء مهدي بن

---

(١) ذكره في كتاب الضعفاء والمتروكين ص ٦٦.

أحمد ابن محمد بن طراز الواعظ عن الإخلاص، قال: سألت محمد بن الحسين الصوفي - قلت: هو أبو عبد الرحمن السلمي شيخ القشيري - عن الإخلاص، قال: سألت علي بن سعيد وأحمد بن زكريا عن الإخلاص، قالا: سمعنا علي ابن إبراهيم الشقيقي وسألناه عن الإخلاص، قال: سألت أحمد بن دينار عن الإخلاص، قال: سألت أبا يعقوب البويطي عن الإخلاص، قال: سألت أحمد ابن غسَّان عن الإخلاص، قال: سألت أحمد بن عطاء الهجيمي عن الإخلاص ما هو، قال: سألت أحمد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد عن الإخلاص ما هو، قال: سألت الحسن البصري عن الإخلاص ما هو، قال: سألت حذيفة عن الإخلاص ما هو، قال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو، قال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو، قال: سألت رب العزة عن الإخلاص، قال: «هو سرٌّ من سري، استودعتُه قلبَ مَن أحببتُه من عبادي». هكذا هو في سياق الحافظ أبي مسعود، وهي النسخة التي بخطه: أحمد بن دينار، بدل: أحمد بن بشَّار. والبويطي، بدل: الشريطي. وأحمد بن محمد بن عبد الواحد بن يزيد، والصواب: عبد الواحد بن زيد، كما في سياق غيره من المتقنين.

وبما تقدَّم تعلم أن عزو المصنف ذلك إلىٰ الحسن علىٰ أنه مرسل غير سديد، وكذا قول العراقي «إنه رواه القشيري من حديث عليٍّ» فيه نظرٌ.

ويشبه ما تقدَّم في الإخلاص ما رواه الحافظ أبو مسعود أيضًا في مسلسلاته فقال: سألت محمد بن الحسين الصوفي - يعني أبا عبد الرحمن السلمي - عن علم الباطن، قال: حدثنا أحمد بن يعقوب بن نصر وسألته عن علم الباطن، قال: سألت أحمد ابن غسَّان عن علم الباطن، قال: [سألت عبد الواحد بن زيد عن علم الباطن، قال]: سألت الحسن عن علم الباطن، فقال: سألت حذيفة بن اليمان عن علم الباطن، قال: سألت رسول الله ﷺ عن علم الباطن، قال: «سألت جبريل عليه السلام عن علم الباطن، قال: سألت الله تبارك وتعالىٰ عن علم الباطن، فقال: يا جبريل،

هو سرٌّ بيني وبين أوليائي وأصفيائي، أودعتُه في قلوبهم، لا يطَّلع عليه ملَكٌ مقرَّب ولا نبي مرسَل»[١].

(وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: لا تهتمُّوا لقلة العمل واهتمُّوا للقبول، فإن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل) رضي الله عنه: **(أخلِص العملَ يجزئك منه القليلُ)** قال العراقي[٢]: رواه الديلمي في مسند الفردوس[٣] من حديث معاذ، وإسناده منقطع.

قلت: رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم[٤] وأبو نعيم في الحلية[٥] من حديث معاذ قال: لمَّا بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن قلت: أوصِني. فقال: «أخلِصْ دينَك يكفك القليلُ من العمل». وقال الحاكم: صحيح. وتعقَّبه الذهبي.

(وقال ﷺ: ما من عبد يخلص لله العملَ أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) قال العراقي[٦]: رواه ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات [عن أبي موسى] وقد تقدم.

قلت: تقدم الكلام عليه في كتاب ذم الجاه والرياء[٧]، وأنه رُوي من حديث أبي أيوب بلفظ: «مَن أخلص لله أربعين يومًا ...» الحديث، رواه صاحب الحلية من طريق مكحول عنه، وسنده ضعيف. ورواه أحمد في الزهد من مرسل مكحول،

---

(١) أورده الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٣١٢. ونقل ابن عراق في تنزيه الشريعة ١/ ٢٨١ عن ابن حجر العسقلاني قوله في زهر الفردوس: هذا موضوع، والحسن ما لقي حذيفة أصلا.

(٢) المغني ٢/ ١١٧٦.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٤٣٥.

(٤) المستدرك على الصحيحين ٤/ ٤٤٧.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٢٤٤.

(٦) المغني ٢/ ١١٧٦.

(٧) بل في كتاب الحلال والحرام.

وكذا رواه القشيري في الرسالة بلفظ: «ما أخلص عبدٌ قط أربعين يومًا ...» الحديث. وله شاهد من حديث ابن عباس، رواه القضاعي في المسند، وفي آخره زيادة، وقد تقدم.

وأما قول علي رضي الله عنه، فلفظ القوت: كونوا بقبول العمل أشد اهتمامًا منكم بالعمل، فإنه لا يقلُّ عملٌ مع تقوىٰ، وكيف يقلُّ عملٌ يُتقبَّل[1].

(وقال ﷺ: **أول مَن يُسئل يوم القيامة ثلاثة: رجل آتاه الله العلم، فيقول الله تعالىٰ) له: (ما صنعتَ فيما علمتَ؟ فيقول: يا رب، كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله تعالىٰ: كذبتَ، وتقول الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان عالِم، ألا فقد قيل ذلك. ورجل آتاه الله مالاً، فيقول الله تعالىٰ: لقد أنعمت عليك، فماذا صنعتَ؟ فيقول: يا رب، كنت أتصدَّق به آناء الليل وأطراف النهار. فيقول الله: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان جواد، ألا فقد قيل ذلك. ورجل قُتل في سبيل الله، فيقول الله تعالىٰ: ماذا صنعتَ؟ فيقول: يا رب، أمرتَ بالجهاد، فقاتلتُ حتىٰ قُتلتُ. فيقول الله: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان شجاع، ألا فقد قيل ذلك**) رواه أحمد[2] ومسلم[3] والنسائي[4] من حديث أبي هريرة بلفظ: «إن أول الناس يُقضَىٰ يوم القيامة عليه رجل استُشهد، فأُتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتىٰ استُشهدت. قال: كذبتَ، ولكنك قاتلتَ ليقال: جريء، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب علىٰ وجهه ثم أُلقي في النار. ورجل تعلَّم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلَّمت العلم وعلَّمتُه وقرأتُ فيك القرآن.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧٥، ١٠/ ٣٨٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٥١١.

(٢) مسند أحمد ١٤/ ٢٩.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٩١٩.

(٤) السنن الكبرىٰ ٤/ ٢٨٥، ٧/ ٢٨٤ - ٢٨٥، ١٠/ ٢٨٤.

قال: كذبتَ، ولكنك تعلَّمت العلم ليقال عالِم، وقرأتَ القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب علىٰ وجهه حتىٰ أُلقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كلِّه، فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحب أن يُنفَق فيها إلا أنفقتُ فيها لك. قال: كذبتَ، ولكنك فعلت ذلك ليقال جواد، فقد قيل. ثم أمر به فسُحِب علىٰ وجهه ثم أُلقي في النار». أخبرناه عمر بن أحمد بن عقيل قال: أخبرنا عبد الله بن سالم، أخبرنا محمد بن العلاء الحافظ، أخبرنا علي بن يحيىٰ، أخبرنا يوسف بن عبد الله، أخبرنا محمد بن عبد الرحمن الحافظ، أخبرنا أبو الفضل أحمد بن عليٍّ الحافظ، أخبرنا أبو الخير أحمد بن خليل العلائي، أخبرنا والدي [أخبرنا] محمد بن مشرق، أخبرنا علي ابن المنير، عن الفضل بن سهل، عن أحمد بن علي الحافظ[1]: أخبرنا علي بن أحمد المقرئ، حدثنا محمد بن العباس بن الفضل، حدثنا محمد بن المثنَّىٰ، حدثنا جعفر بن عون وعبد الوهاب - يعني ابن عطاء - قالا: أخبرنا عبد الملك ابن جُرَيج، أخبرني يونس بن يوسف، عن سليمان بن يسار قال: تفرَّق الناس عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فقال له ناتل أخو أهل الشام: يا أبا هريرة، حدِّثنا حديثًا سمعتَه من رسول الله ﷺ. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول الناس يُقضَىٰ فيه يوم القيامة رجل ...» فذكره. وقد رواه الترمذي[2] أطول من هذا من رواية شُفَيٍّ الأصبحي عن أبي هريرة، وتقدم في ذم الجاه والرياء (**قال أبو هريرة**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (**ثم خط رسولُ الله ﷺ علىٰ فخذي وقال: يا أبا هريرة، أولئك أول خلق تسعَّر نار جهنم بهم يوم القيامة. فدخل راوي هذا الحديث**) هو ناتل بن قيس الجذامي أو شُفَيٌّ الأصبحي (**علىٰ معاوية**) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو إذ ذاك أمير الشام (**وروىٰ له**) ما سمعه من أبي هريرة (**فبكىٰ**) معاوية (**حتىٰ كادت نفسه تزهق، ثم قال: صدق الله إذ قال:** ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ **الآية** [هود: ١٥].

---

(١) هو الخطيب البغدادي في كتابه اقتضاء العلم العمل ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ١٨٩ - ١٩١.

وفي الإسرائيليات: أن عابدًا كان يعبد الله دهرًا طويلاً، فجاءه قوم فقالوا: إن ههنا قومًا يعبدون شجرة من دون الله تعالىٰ. فغضب لذلك، فأخذ فأسه علىٰ عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها، فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال) له: (أين تريد رحمك الله؟ قال) العابد: (أريد أن أقطع هذه الشجرة) التي تُعبَد من دون الله (قال) إبليس: (وما أنت وذاك؟ تركتَ عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرَّغتَ لغير ذلك. فقال) العابد: (إن هذا من) جملة (عبادتي. قال) إبليس: (فإني لا أتركك أن تقطعها. فقاتله) أي صارعه (فأخذه العابد فطرحه علىٰ الأرض وقعد علىٰ صدره، فقال له إبليس: أطلِقْني) وقمْ عني (حتىٰ أكلِّمك. فقام عنه، فقال له إبليس: يا هذا، إن الله قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك) أنبي أنت؟ قال: لا. قال: (وما تعبدها أنت، ولا عليك من غيرك) ممَّن كان يعبدها، فلو اشتغلتَ بعبادتك (و) تركتَها، فإن (لله أنبياء في أقاليم الأرض، ولو شاء لبعثهم إلىٰ أهلها وأمرهم بقطعها. فقال العابد: لا بد لي من قطعها. فنابذَه) إبليسُ (للقتال، فغلبه العابد) فأخذه (وصرعه) علىٰ الأرض (وقعد علىٰ صدره، فعجز إبليس) عن مقاومته ورأىٰ أن لا طاقة له به ولا سلطان له عليه (فقال له): يا هذا (هل لك في أمر فصلٍ بيني وبينك وهو خير لك وأنفع) من هذا الأمر الذي جئتَ تطلبه؟ (قال: وما هو؟ قال: أطلِقْني) وقمْ عني (حتىٰ أقول لك. فأطلقه) وقام عنه (فقال إبليس: أنت رجل فقير لا شيء لك، إنما أنت كَلٌّ علىٰ الناس يعولونك، ولعلك تحب أن تتفضَّل علىٰ إخوانك وتواسي جيرانك وتتسع) في حالك. وفي بعض النسخ: وتشبع، بدل: وتتسع، وهو تصحيف (وتستغني عن الناس. قال) العابد: (نعم. قال: فارجعْ عن هذا الأمر) الذي جئتَ فيه (ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين، فإذا أصبحتَ أخذتَهما) وصنعتَ بهما ما شئتَ (فأنفقت علىٰ نفسك وعيالك وتصدَّقت علىٰ إخوانك، فيكون ذلك) أفضل و(أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يُغرَس مكانها، ولا يضرُّهم قطعُها شيئًا، ولا ينفع إخوانَك المؤمنين قطعُك إياها) وفي بعض النسخ: لها (فتفكَّر العابد فيما قال) له (وقال: صدق الشيخ، لست بنبيٍّ

فيلزمني قطعُ هذه الشجرة، ولا أمرني الله تعالىٰ أن أقطعها فأكون عاصيًا بتركها) وإنما هو شيء تفضَّلتُ به، وماذا يضرُّ الموحِّدين من بقائها (وما ذكره لي أكثر منفعةً) لعموم الناس. قال: (فعاهده علىٰ الوفاء بذلك وحلف له، فرجع العابد إلىٰ متعبَّده فبات) ليلتَه (فلمَّا أصبح رأىٰ دينارين عند رأسه فأخذهما، وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده) أي اليوم الرابع (فلم يرَ شيئًا، فغضب وأخذ فأسه علىٰ عاتقه) وخرج يؤمُّ الشجرةَ ليقطعها وقال: إن فاتني أمرُ الدنيا لأدركنَّ أمرَ الآخرة. قال: (فاستقبله إبليس في صورة شيخ، فقال له: إلىٰ أين) تريد؟ (قال: أقطع تلك الشجرة. فقال: كذبتَ، واللهِ ما أنت بقادر علىٰ ذلك، ولا سبيل لك إليها. قال: فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة، فقال: هيهات)! قال: (فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه، وقعد إبليس علىٰ صدره وقال: لتنتهينَّ عن هذا الأمر أو لأذبحنَّك. فنظر العابد فإذا لا طاقة له به. قال) العابد: (يا هذا، قد غلبتني، فخَلِّ عني وأخبِرْني) عنك (كيف) وقد (غلبتك أولاً) فصرعتك (وغلبتني الآن) فصرعتني، فكيف ذلك؟ (فقال) له إبليس: (لأنك غضبت أول مرة لله) تعالىٰ (وكانت نيَّتك الآخرة، فسخَّرني الله) تعالىٰ (لك) فغلبتني (وهذه المرَّة غضبتَ) أي جئتَ مغاضبًا (لنفسك وللدنيا) أي كانت نيتك الدنيا فسلَّطني الله تعالىٰ عليك (فصرعتك)[1] هكذا نقله صاحب القوت.

قال: وهكذا حدَّثونا في قصة تطول أن ملكة من بني إسرائيل راودت عابدًا عن نفسه، فقال: اجعلوا لي ماء في الخلاء أتنظَّف. قال: ثم صعد أعلىٰ موضع في القصر فرمىٰ بنفسه، فأوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ ملَك الهواء: الزمْ عبدي. قال: فلزمه حتىٰ وضعه علىٰ الأرض علىٰ قدميه رويدًا، فقيل لإبليس: ألا أغويته؟ فقال: ليس لي سلطان علىٰ مَن خالف هواه وبذل نفسه لله تعالىٰ.

---

(١) هذه القصة رواها قوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ١٢٧ وابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٢ مختصرة عن الحسن البصري.

(وهذه الحكاية تصديق قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾) [الحجر: ٤٠، ص: ٨٣] أي فإنه لا سبيل له عليهم (إذ لا يتخلَّص العبد من الشيطان إلا بالإخلاص) إذ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥] (ولذلك كان معروف الكرخي رحمه الله يضرب نفسه ويقول: يا نفس أخلِصي) العملَ لله تعالىٰ (تتخلَّصي) من كيد الشيطان.

(وقال يعقوب المكفوف: المخلص مَن يكتم حسناته كما يكتم سيئاته)[١] وهو يرجع إلىٰ قول مَن قال[٢]: إن الإخلاص هو التوقِّي عن ملاحظة الأشخاص.

(وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (طوبَىٰ لمَن صحَّت له خطوةٌ واحدة لا يريد بها إلا الله تعالىٰ) نقله صاحب القوت.

(وكتب عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلىٰ أبي موسىٰ) عبد الله بن قيس (الأشعري) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان قد ولَّاه البصرةَ: (مَن خلصت نيتُه كفاه الله ما بينه وبين الناس) وتمامه: ومَن تزيَّن للناس بغير ما يعلم الله من قلبه شانَه اللهُ، فما ظنُّك بثواب الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته. أخرجه هكذا أبو نعيم في الحلية[٣] من طريق هناد بن السري[٤]، حدثنا محمد بن فضيل، عن السري بن إسماعيل، عن عامر الشعبي قال: كتب عمر إلىٰ أبي موسىٰ ... فذكره.

(وكتب بعض الأولياء إلىٰ أخ له: أخلِص النيةَ في أعمالك يكفِك القليلُ من العمل) كذا في القوت. وقد رُوي نحو ذلك مرفوعًا من حديث معاذ، وقد تقدم قريبًا.

---

(١) ذكره الثعلبي في الكشف والبيان ٢/ ٧. وعزاه الصفاقسي في غيث النفع ص ٦٥٧ (ط - دار الكتب العلمية) لإبراهيم التيمي. وعزاه السمرقندي في تنبيه الغافلين ص ١٢ لبعض الحكماء.

(٢) هو أبو علي الدقاق، كما نقله القشيري في رسالته.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٥٠.

(٤) الزهد ٢/ ٤٣٦.

(وقال) أبو[1] بكر (أيوب) بن أبي تميمة (السَّخْتِياني) بفتح المهملة بعدها معجمة ساكنة ثم مثناة مكسورة ثم تحتية، البصري الثقة، روىٰ له الجماعة، مات سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة عن خمس وستين سنة (**تخليص النيات علىٰ العمَّال أشد عليهم من جميع الأعمال**) كذا في القوت، ورُوي نحوه من قول يوسف ن أسباط: تخلص النية من فسادها أشد علىٰ العاملين من طول الاجتهاد.

(**وكان مطرف**) بن عبد الله بن الشِّخِّير رحمه الله تعالىٰ، تابعيٌّ ثقة (**يقول: مَن صفا**) نفسه عن الشوائب (**صُفي له، ومَن خلط**) في أعماله (**خُلط عليه**)[2] كذا في القوت.

(**ورُؤي بعضهم في المنام**) بعد وفاته (**فقيل له: كيف وجدتَ أعمالك؟ فقال: كل شيء عملتُه لله وجدتُه حتىٰ حبة رمان لقطتها من طريق، وحتىٰ هِرَّة ماتت لنا رأيتها**) أي الهرة وكذا حبة الرمان (**في كفَّة الحسنات**) قال: (**وكان في قلنسوتي خيط من حرير، فرأيته في كفة السيئات**) قال: (**وكان قد نفق**) أي مات (**حمار لي قيمته مائة دينار، فما رأيت له ثوابًا، فقلت: موت سِنَّور في كفة الحسنات، وموت حمار**) قيمته مائة دينار (**ليس فيها**) ولا أرىٰ له ثوابًا (**فقيل لي: إنه قد وُجِّهَ حيث بعثتَه، فإنه لمَّا قيل لك: قد مات**) الحمار (**قلتَ: في لعنة الله، فبطلَ أجرُك فيه، ولو قلتَ: في سبيل الله، لوجدتَه في حسناتك**) نقله صاحب القوت قال: (**وفي رواية**) أخرىٰ (**قال: وكنت قد تصدَّقتُ**) يومًا (**بصدقة بين الناس فأعجبني نظرُهم إليَّ، فوجدتُ ذلك لا عليَّ ولا لي. قال سفيان**) الثوري[3] (**لمَّا سمع هذا**) ورُوي له (**ما أحسن حاله إذ**

---

(١) تقريب التهذيب ص ١٥٨.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣٩٥، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٦٤. وروىٰ أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٨١ مثله عن مالك بن دينار.

(٣) بل هو سفيان بن عيينة، فقد روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات ص ٥٢ من طريق إبراهيم بن الأشعث قال: قال سفيان بن عيينة: سمعت صالح بن حي يقول: قال جار لي: إن رجلا عرج بروحه، فعُرض عليه عمله، قال: فلم أر استغفرت من ذنب إلا غُفر، ولم أر ذنبا لم أستغفر منه =

لم يكن عليه، فقد أُحسِن إليه) ولفظ القوت: ما أحسن حاله حيث وجدها لا له ولا عليه، قد أُحسِن إليه.

(وقال يحيىٰ بن معاذ) الرازي رحمه الله تعالىٰ (الإخلاص يميِّز العملَ من العيوب كتمييز اللبن من الفَرْث والدم) نقله صاحب القوت.

(وقيل: كان رجل يخرج في زي النساء) أي علىٰ هيئتهنَّ في اللبس (ويحضر كلَّ موضع تجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم) أي في فرح أو مصيبة (فاتفق) في بعض المرَّات (أن حضر يومًا موضعًا فيه مَجمع للنساء، فسُرقت درَّة، فصاحوا: أن أغلِقوا الباب حتىٰ نفتِّش) مَن حضر من النساء في ذلك الموضع (فكانوا يفتِّشون واحدة واحدة، حتىٰ بلغت النوبةُ إلىٰ الرجل وإلىٰ امرأة معه، فدعا الله تعالىٰ بالإخلاص) أي بخالص النية من القلب وعقد في نفسه (وقال: إن نجوتُ من هذه الفضيحة لا أعود إلىٰ مثل هذا) أبدًا (فوُجدت الدرَّة مع تلك المرأة، فصاحوا: أن أطلِقوا الحرَّة فقد وجدنا الدرَّة)[1] فهذه الحكاية دلَّت علىٰ أن الإخلاص في النية هو المنجي من الفضائح الدنيوية والأخروية.

(وقال بعض الصوفية: كنت قائمًا مع أبي عبيد) محمد بن حسان (البُسْري) نسبة إلىٰ بُسْر بالضم وسكون المهملة: قرية من قرىٰ حوران بالشام[2]، حكىٰ عنه

= إلا وجدته كما هو، حتىٰ حبة رمان كنت التقطتها يوما فكتب لي بها حسنة، وقمت ليلة أصلي فرفعت صوتي فسمع جار لي فقام فصلىٰ فكتب لي بها حسنة، وأعطيت يوما مسكينا درهما عند قوم لم أعطه إلا من أجلهم، فوجدته لا لي ولا عليَّ. قال ابن عيينة: رأيت ابن أخي فقلت: ما صنعت؟ قال: كل ذنب استغفرت منه غفر لي.

(١) أوردها الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٧٩، ١٨٠.

(٢) زاد ياقوت في معجم البلدان ١/ ٤٢٠: «بموضع يقال له: اللجا، وهو صعب المسلك، إلىٰ جنب زرة التي تسميها العامة: زرع، ويقال إن بهذه القرية قبر اليسع النبي عليه السلام».

ابنه بُخَيت؛ قاله الحافظ في التبصير[١]. وقال القشيري في الرسالة[٢]: هو من قدماء المشايخ، صحب أبا تراب النخشبي (وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرَّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارَّه بشيء) في أذنه (فقال أبو عبيد: لا. فمرَّ كالسحاب يمسح الأرض حتىٰ غاب عن عيني) قال: (فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا) قال: (قلت: فهلاَّ فعلتَ؟ قال: ليست لي في الحج نية، وقد نويت أن أتمّم هذه الأرض العشيةَ، فأخاف إن حججتُ معه لأجله تعرَّضت لمقت الله تعالىٰ؛ لأني أُدخِل في عمل الله تعالىٰ شيئًا غيره، فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة) هكذا نقله صاحب القوت. وقال القشيري في الرسالة: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أحمد بن محمد يقول: سمعت محمد بن معمر يقول: سمعت أبا زُرعة يقول: كان أبو عبيد البُسْري يومًا علىٰ جرجر يدرس قمحًا له، وبينه وبين الحج ثلاثة أيام إذ أتاه رجلان فقالا: يا أبا عبيد، تنشط للحج. فقال: لا. ثم التفت إليَّ وقال: شيخك علىٰ هذا أقدر منهما. يعني نفسه[٣].

(ويُروَىٰ عن بعضهم قال: غزوت في البحر، فعرض بعضُنا مِخلاة) أي للبيع، والمِخلاة: ما يوضع فيه العلف للدوابِّ (فقلت: أشتريها فأنتفع بها في غزوي، فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها) منه (فرأيت تلك الليلة في النوم كأنَّ شخصين قد نزلا من السماء، فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغُزاة. فأملىٰ عليه: اكتب: خرج فلان متنزِّهًا، وفلان مرائيًا، وفلان تاجرًا، وفلان في سبيل الله. ثم نظر إليَّ وقال: اكتب: فلان خرج تاجرًا. فقلت: اللهَ اللهَ في أمري) واللهِ (ما خرجت أتجر، وما معي تجارة أتجر فيها، ما خرجت إلا للغزو. فقال) لي: (يا شيخ، قد

---

(١) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه ص ١٥٣.

(٢) الرسالة القشيرية ص ٩٠.

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٢/ ٢٨٧ - ٢٨٨.

اشتريتَ أمس مِخلاة تريد أن تربح فيها. فبكيت وقلت: لا تكتبوني تاجرًا. فنظر إلىٰ صاحبه وقال: ما ترىٰ؟ فقال: اكتب: خرج فلان غازيًا، إلا أنه اشترىٰ في طريقه مخلاة ليربح فيها، حتىٰ يحكم الله عَزَّوَجَلَّ فيه ما يرىٰ) نقله صاحب القوت. فهذه الحكاية تعرِّفك أن الإشراك في النية يزيل عن مقام الإخلاص، فإذًا إخلاص النية بخروج أضدادها من القلب والقصد والهمَّة لتنفرد النيةُ بقصدها، ويخلُص العملُ بانفراد النية لوجه الواحد الفرد المقصود بها.

(وقال سري) بن المغلس (السقطي رحمه الله تعالىٰ: لأنْ تصلي ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تكتب سبعين حديثًا أو) قال: (سبعمائة) حديث (بعلوٍّ) نقله صاحب القوت. وقد روىٰ أبو الشيخ وابن عساكر[1] من حديث جابر: «مَن صلىٰ ركعتين في خلاء لا يراه إلا الله عَزَّوَجَلَّ والملائكة كانت له براءة من النار». ورواه الضياء بلفظ «كُتِبت له». وروىٰ أبو الشيخ[2] من حديث ابن عمر: «مَن صلىٰ ركعتين في السر رُفع عنه اسم النفاق».

(وقال بعضهم: في إخلاص ساعة نجاةُ الأبد، ولكن الإخلاص عزيز) أي لصعوبته.

(ويقال: العلم بذر، والعمل زرع، وماؤه الإخلاص) فكما أن الزرع لا ينمو إلا بالماء، كذلك العمل لا ينمو إلا بالإخلاص.

(وقال بعضهم[3]: إذا أبغض الله عبدًا أعطاه ثلاثًا ومنعه ثلاثًا: أعطاه صحبة الصالحين ومنعه القبولَ منهم، وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الإخلاص فيها، وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها[4]) فالقبول والإخلاص والصدق من جملة

---

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ١٩٧.

(٢) وكذلك أبو نعيم في صفة النفاق ونعت المنافقين ص ١٧٩.

(٣) هو أبو عبد الله النهرواني، كما رواه عنه السلمي في حقائق التفسير ٢/ ٣٩٨.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٨٤.

أمارات الحب.

(وقال) أبو يعقوب (السوسي) رحمه الله تعالىٰ: (مراد الله من عمل الخلائق الإخلاصُ فقط[1]) أن لا يشركوا فيه غيرَه.

(وقال الجنيد) قُدِّس سره: (إن لله عبادًا عقلوا) فيما أُعطوا (فلما عقلوا عملوا) بما علموا (فلما عملوا أخلصوا) لوجهه (فاستدعاهم الإخلاص إلىٰ أبواب البِر أجمع[2]) نقله صاحب القوت.

(وقال محمد بن سعيد) بن إبراهيم (المروزي) رحمه الله تعالىٰ: (الأمر كله يرجع إلىٰ أصلين: فعلٌ منه بك، وفعلٌ منك له، فترضىٰ ما فعل) بك (وتخلص فيما تعمل) له (فإذا أنت قد سعدت بهذين) الأصلين (وفزت في الدارين[3]) فإنَّ المَدار كلّه علىٰ الرضا والإخلاص، وهو عين التوحيد.

(١) السابق.

(٢) السابق.

(٣) السابق.

بيان حقيقة الإخلاص

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ أن الإخلاص شرط في سائر العبادات، وهو معنىٰ قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ [البينة: ٥] وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقد قدَّمنا غير ما مرة أن رؤية المنَّة لله تعالىٰ واجبة للنعمة، وليس لها حقيقة إلا التبرِّي من الحول والقوة، والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ بالفقر والفاقة وطلبِ الاستعانة، وهو معنىٰ ما أمرنا به بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۞﴾ [الفاتحة: ٥] ولا نعمة لله علىٰ عبده أفضل من الإيمان به والعمل لأجله. فهذا وجه وجوب الإخلاص في سائر العبادات. وأما وجه استحبابها في سائر التقلُّبات فإن العبد البارَّ لا يتحرك إلا لسيده؛ لأن القوة التي يتحرك بها مكتسَبة من تغذية نعمة سيده؛ لأن حقيقة العبد أن لا يملك من نفسه ولا لنفسه شيئًا؛ إذ هو خالقه ورازقه، وعليه تولِّيه إن أحسن لحكمة الكرم، وله أن يعاقبه إن أساء، فما أوضح هذا وما أعزه في القلوب علمًا وحالاً وعملاً، ولأجل عزَّته أوجب الله تعالىٰ تكريرَه علىٰ ألسنتنا وقلوبنا في اليوم والليلة سبع عشرة مرة؛ لتخلُص له أعمالُنا، ونعتمد عليه في جميع أحوالنا. فإذا كان الإخلاص هو الإيمان والطاعات وبه تمامُهما ونماؤهما وجب شرحُ حقيقته وتفصيل درجاته؛ ليظهر بذلك الواجبُ من المستحَبِّ، فاعلمْ **(أن كل شيء يُتصوَّر أن يشوبه)** أي يخلطه **(غيرُه فإذا صفا عن شوبه)** أي خلطِه **(وخلصَ عنه سُمِّي خالصًا)** لخلوصه عن الشوب **(وسُمِّي الفعل المصفَّىٰ المخلَص إخلاصًا، قال الله تعالىٰ:** ﴿مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ۞﴾ [النحل: ٦٦] **فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوبٌ من الدم والفَرْث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به)** وعبارة القوت: وحقيقة الإخلاص سلامته من وصفين: الرياء والهوىٰ؛ ليكون خالصًا، كما وصف الله تعالىٰ الخالص من اللبن فكان بذلك تمام النعمة علينا فقال: ﴿مِنۢ

بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ فلو وُجِد فيه أحد الوصفين من فرث أو دم لم يكن خالصًا، ولم تتمَّ به النعمةُ علينا، ولم تقبله نفوسُنا، فكذلك معاملتنا لله تعالىٰ إذا شابها رياءٌ بخلق أو هوًىٰ من شهوة نفس لم تكن خالصة، ولم يتمَّ بها الصدقُ والأدب في المعاملة، ولم يقبلها الله تعالىٰ منا (**والإخلاص**) وهو تجرُّدُ الباعث الواحد (**يضادُّه الإشراكُ**) وهو أن يشترك باعثان (**فمَن ليس مخلصًا فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضادُّه التشريكُ في الإلهيَّة، والشرك منه خفيٌّ ومنه جليٌّ، وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده**) أي الإشراك (**يتواردان علىٰ القلب، فمحلُّه القلب**) بالاتفاق منهم. ولو قال «فهو محلُّهما» كان أحسن (**وإنما يكون ذلك في القُصود والنيات، وقد ذكرنا حقيقة النية وأنها ترجع إلىٰ إجابة البواعث، فمهما كان الباعث واحدًا علىٰ التجرُّد سُمِّي الفعل الصادر عنه إخلاصًا بالإضافة إلىٰ المنويِّ، فمَن تصدَّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص**) بهذا الاعتبار (**ومَن كان غرضه محض التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ فهو مخلص**) أيضًا بهذا الاعتبار، فإطلاق لفظ الإخلاص علىٰ كلٍّ منهما جائز (**ولكن العادة جارية بتخصيص اسم «الإخلاص» بتجريد قصدِ التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ عن جميع الشوائب**) وهو أحد الجانبين (**كما أن «الإلحاد»**) لغةً (**عبارة عن الميل**) المطلق سواء كان عن باطل أو إلىٰ باطل (**ولكن خصَّصته العادةُ بالميل عن الحق**) إلىٰ الباطل وهو أحد الجانبين (**ومَن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرَّض للهلاك، ولسنا نتكلم فيه**) الآن (**إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربع المهلكات**) فلا نعيده (**وأقل أموره ما ورد في الخبر من أن المرائي**) بأعماله (**يُدعَىٰ يوم القيامة بأربعة أسامٍ: يا مرائي، يا مخادع، يا مشرك، يا كافر**) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب النية والإخلاص، وقد تقدم (**وإنما نتكلم الآن فيمَن انبعث لقصد التقرُّب**) إلىٰ الله تعالىٰ (**ولكن امتزج بهذا الباعث باعثٌ آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس**) جميعًا، لكن من الحظوظ ما ينقض أصلَه، ومنها ما يُنقِص كمالَه، أما الرياء فهو أن يطلب الرجل بعمله حمد الناس وطلب نفعهم ودفع ذمِّهم، فإن العمل إذا تجرَّد لهذا الباعث

أحبط العملَ، وأفسد الصلاة، وأوجب المقت والنكال والعذاب الأليم، وذلك علىٰ قدْر المراءَىٰ به والمراءَىٰ لأجله، أما المراءَىٰ به فهي الطاعات، وذلك إما بأصولها أو بأوصافها، وكلٌّ منهما علىٰ ثلاث درجات تقدَّم تفصيلُها في كتاب ذم الرياء. وأما ما يراءىٰ لأجله فله أيضًا ثلاث درجات، وقد ذُكرت في الكتاب المذكور، وكذا درجات الرياء الخفيّ. وأما الشوائب التي هي حظوظ النفس فلها أمثلة، وقد أشار المصنِّف إلىٰ ذلك بقوله: (**ومثال ذلك أن يصوم**) العبد (**لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرُّب. أو يعتق عبدًا**) من عبيده (**ليتخلَّص من مؤنته وسوء خُلقه**) وشرِّه (**أو يحج ليصح مزاجُه بحركة السفر، أو يتخلَّص من شرٍّ يعرض له في بلده**) فيخرج هاربًا (**أو ليهرب من عدوٍّ له في منزله**) لا يطيق دفعه (**أو يتبرَّم بأهله وولده**) أي يتضجَّر بهم (**أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح أيامًا**) من ذلك الشغل (**أو يغزو**) العدوَّ (**ليمارس الحرب ويتعلَّم أسبابها، ويقدر به علىٰ تهيئة العساكر وجرِّها**) أو يقدِّم أحدَ الجهادينِ علىٰ غيره لغنيمة فيه (**أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به ليراقب أهله أو رَحْله**) عن اللصوص (**أو يتعلَّم العلم ليسهُل عليه**) بذلك (**طلبُ ما يكفيه من المال، أو ليكون عزيزًا بين العشيرة**) بذلك (**أو ليكون عقاره وماله محروسًا بعزِّ العلم عن الأطماع**) فلا تمتدُّ إليه (**أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلَّص من كرب الصمت، وينفرج بلذَّة الحديث**) وحلاوة التقرير (**أو تكفَّل بخدمة العلماء أو الصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس**) فيروه بعين التوقير والتبجيل (**أو لينال به رفقًا في الدنيا**) أي في معيشته (**أو كتب مصحفًا**) أو كتابًا من كتب العلم (**ليجود بالمواظبة علىٰ الكتابة خطُّه**) أو دارَسَ قرآنًا مع جماعة في منزل مَن يستدعيه ليمارس حفظَه ويثبُت في ذهنه (**أو حجَّ ماشيًا ليخفِّف علىٰ نفسه الكراءَ**) ويتوفَّر ماله (**أو توضأ ليتنظَّف**) بالماء (**أو يتبرَّد**) به (**أو اغتسل لتطيب رائحتُه. أو روىٰ الحديث**) إملاءً (**ليُعرَف بعلوِّ الإسناد**) وكثرة المسموعات (**أو اعتكف في المسجد ليخفَّ عليه كِراءُ المسكن. أو صام ليخفِّف عن نفسه التردُّدَ في طبخ الطعام، أو ليتفرَّغ لأشغاله فلا يشغله الأكلُ عنها**) أو لتتوفَّر

الأوقات حتىٰ يصرفها في أشغاله (أو تصدَّق علىٰ السائل ليقطع إبرامَه) وإلحاحَه (في السؤال عن نفسه. أو يعود مريضًا ليُعاد إذا مرض. أو يشيِّع جنازة لتُشيَّع جنائز أهله. أو يفعل شيئًا من ذلك ليُعرَف بالخير ويُذكَر به ويُنظَر إليه بعين الصلاح والوقار. فمهما كان باعثه هو التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ ولكن انضافت إليه خطرةٌ من هذه الخطرات حتىٰ صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عملُه عن حدِّ الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصًا لوجه الله تعالىٰ، وتطرَّق إليه الشركُ) والإخلاص عبارة عمَّا خلُصَ من الرياء وهذه الحظوظ جميعًا (وقد قال) الله (تعالىٰ) فيما رُوي عنه: (أنا أغنىٰ الشركاء عن الشركة) رواه ابن جرير والبزار من حديث أبي هريرة، وأوله: «مَن عمل عملاً أشرك فيه غيري فهو له كله». وقد تقدم (وبالجملة، كل حظٍّ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب قلَّ أم كثُر إذا تطرَّق إلىٰ العمل تكدَّر به صفوُه، وزال به إخلاصُه، والإنسان مرتبط في حظوظه، منغمس في شهواته، قلَّما ينفكُّ فعلٌ من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس، فلذلك قيل: مَن سَلِمَ له من عمره لحظةٌ واحدة خالصة لوجه الله تعالىٰ نجا، وذلك لعزَّة الإخلاص وعُسرِ تنقية القلب عن هذه الشوائب) لأن حقيقته ما لا يكون للنفس فيه حظٌّ بحال، وهذا عزيز (بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القُرب من الله تعالىٰ) ولم يَشُبْه شيءٌ من هذه الحظوظ (وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا تخفَىٰ شدةُ الأمر علىٰ صاحبها فيها) وقد تقدَّم بيانه في ذم الرياء (وإنما نظرُنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرُّب) إلىٰ الله تعالىٰ (وانضافت إليه هذه الأمور. ثم) إن قلتَ: إن (هذه الشوائب) من الرياء والحظوظ تحبط مطلقًا، فأقول: إذا اقترن بباعث الإخلاص باعثٌ آخر فلا يخلو (إما أن تكون في رتبة الموافقة، أو في رتبة المشاركة، أو في رتبة المعاونة، كما سبق في) بيان (النية) أما المشاركة فالآيات والأخبار دالَّة علىٰ أنها محبطة، وقد اختلف العلماء في رتبة المعاونة، والذي مال إليه المصنِّف أنها تُنقِص من أصل الثواب بقدْر ما خفَّفت من العمل، وردَّ علىٰ رأي الإحباط من

العلماء، كما سيأتي تفصيله قريبًا. وأما الموافقة فلا يجب التخلُّص منها؛ لِما في ذلك من الحرج علىٰ العامة، ولكنها مُنقِصة لكمال الإخلاص (**وبالجملة، فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني، أو أقوىٰ منه، أو أضعف. ولكل واحد حكمٌ آخر، كما سنذكره**) قريبًا (**وإنما الإخلاص**) في الحقيقة (**تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلها وكثيرها حتىٰ يتجرَّد فيه قصدُ التقرُّب، فلا يكون فيه باعث سواه**) وهذا هو إخلاص العوامِّ. قال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا عثمان المغربي يقول: الإخلاص ما لا يكون للنفس فيه حظٌّ بحال، وهذا إخلاص العوامِّ، وإخلاص الخواصِّ ما يجري عليهم لا بهم، فتبدو منهم الطاعات، وهم عنها بمعزل، ولا تقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد. انتهىٰ. وكأنَّه يشير إلىٰ كمال الإخلاص، ولا يقدر عليه إلا بعد استغراق الحب قلبَه، فرجع جميع المباحات عنده كالأدوية لا يتناول منها إلا لضرورة، ولأجل كمال الإخلاص بأصله شقَّ علىٰ الناس علمُه وعمله، فصار حديث الإخلاص عند المتفقِّهة كالمستغرَب، وهو شرط في صحة أعمالهم. وقد تقدم ذِكرُ الشوائب المنقضة لأصل الإخلاص، فلنذكر الشوائب المنقصة لكماله، والكمال هو أن لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلىٰ الله تعالىٰ عبادةً أو عادةً، وأن يكون وجود الناس عنده كعدمهم؛ لأن وجودهم مجازي لا حقيقة؛ إذ لا قوام لهم بنفوسهم، إنما الموجود الثابت الحقيقي هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيُّوم الذي قامت ذاتُه بذاته، وكل شيء سواه قائم به ومستند إلىٰ قدرته، فإن عجز عن هذا المقام فليكن وجودهم عنده كوجود البهائم، بمعنىٰ أنها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا، ولا عطاء ولا منعًا، ولا مدحًا ولا ذمًّا، فمتىٰ ما فرَّق في مشاهدة الخَلق بين أن يشهده رئيس أو بهيمة في عبادة من عباداته فلا يخلو إخلاصه عن نقصان بحسب قوة النظر في وجهة قلبه عن الله تعالىٰ أو ضعفها، ولهذا كان المخلصون علىٰ خطر عظيم، وكانت أعمالهم أعمال المقرَّبين، فمَن رُزِق هذه الحالة فنقصانها بالنظر إليها والاعتماد عليها. هذا ما يتعلَّق بكمال

الإخلاص. وبالجملة، فالباعث[1] علىٰ الفعل إما أن يكون روحانيًّا فقط وهو الإخلاص، أو شيطانيًّا فقط وهو الرياء، أو مركَّبًا منهما وهو ثلاثة أقسام؛ لأنه لا يخلو إما أن يكونا سواء، أو الروحاني أقوىٰ، أو الشيطاني أقوىٰ، فإذا كان الباعث روحانيًّا فقط **(وهذا لا يُتصوَّر إلا من محب لله مستهتر بالله مستغرق الهمِّ بالآخرة بحيث لم يبقَ لحب الدنيا في قلبه قرارٌ، حتىٰ لا يحب الأكل والشرب أيضًا، بل تكون رغبته فيه كرغبته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجبلَّة)** ولا بدَّ منه **(فلا يشتهي الطعام لأنه طعام، بل لأنه يقوِّيه علىٰ عبادة الله، ويتمنىٰ أنه لو كُفي شر الجوع حتىٰ لا يحتاج إلىٰ الأكل، فلا يبقىٰ في قلبه حظٌّ من الفضول الزائدة علىٰ الضرورة، ويكون قدْر الضرورة مطلوبًا عنده؛ لأنه ضرورة دينه، فلا يكون له همٌّ إلا الله تعالىٰ، فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضىٰ حاجته كان خالص العمل صحيح النية في جميع حركاته وسكناته، فلو نام مثلاً حتىٰ يريح نفسَه ليتقوَّىٰ علىٰ العبادة بعده كان نومه عبادة، وكان له درجة المخلصين فيه)** وإذا كان الباعث شيطانيًّا فقط ولا يتصور هذا إلا من محب للنفس والدنيا، مستغرق الهم بهما، بحيث لم يبقَ لحب الله في قلبه مَقَرٌّ فتكتسب [جميع] أفعاله تلك الصفة، فلا يَسلم له شيء من عبادته. وإليه أشار المصنف بقوله: **(ومَن ليس كذلك فباب الإخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا علىٰ الندور)** أي القلة **(وكما أنَّ مَن غلب عليه حبُّ الله وحب الآخرة فاكتسبت حركاته الاعتيادية صفة همِّه وصارت إخلاصًا، فالذي يغلُب علىٰ نفسه الدنيا والعلوُّ والرياسة)** وسائر الحظوظ **(وبالجملة غير الله فقد اكتسبت جميع حركاته تلك الصفة فلا تَسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرًا)** وإذا استوىٰ الباعثان يتعارضان ويتناقضان، فيصير العمل لا له ولا عليه، وأما مَن غلب أحد الطرفين فيه فينحطُّ منه ما يساوي الآخَر، وتبقىٰ الزيادة موجبة أثرها اللائق بها. وسيأتي تحقيق ذلك في أواخر فصول الباب **(فإذًا علاج الإخلاص**

---

(١) عجائب القرآن للفخر الرازي ص ٤٦ – ٤٨ (ط – دار الكتب العلمية).

كسرُ حظوظ النفس) ودفعُها (وقطعُ الطمع عن الدنيا والتجرُّد للآخرة بحيث يغلُب ذلك على القلب) فلا يهمُّه إلا هو (فإذ ذاك يتيسَّر) له (الإخلاص) أي كماله (وكم من أعمال يتعب الإنسان فيها) طول عمره (ويظن) في نفسه (أنها خالصة لوجه الله تعالى ويكون فيها مغرورًا؛ لأنه لا يرى وجه الآفة فيها) فعليه أن يمتحن نفسه بالامتحانات (كما حُكي عن بعضهم أنه قال: قضيتُ صلاة ثلاثين سنة) كنت (صلَّيتُها في المسجد في الصف الأول لأني تأخَّرت يومًا لعذر فصلَّيت في الصف الثاني، فاعترتني خجلةٌ من الناس إذ رأوني في الصف الثاني، فعرفت أن نظر الناس إليَّ في الصف الأول كان مسرَّتي وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر) وهذا لا يحبط ثوابَ نفس الصلاة وإنما يُنقِص ثوابَ المسارعة إلى الصف الأول، فعملَ على خلاف ما تتقاضاه النفس لئلاَّ يرجع ذلك قويًّا، فيُستحَب للمخلص أن يتفقَّد أحواله ليقف بذلك على أغوار مكائد النفس والشيطان (وهذا دقيق غامض قلَّما تَسلم الأعمال من أمثاله، وقلَّ مَن يتنبَّه له إلا مَن وفَّقه الله تعالى) وهم قليلون (والغافلون عنه يرون حسناتهم كلَّها في الآخرة سيئات) ويندمون حيث لا ينفعهم الندمُ (وهم المرادون بقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧﴾) [الزمر: ٤٧] قيل: عملوا أعمالًا لجهلهم ظنوا أنها حسنات فوجدوها سيئات. وبقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٤٨﴾ [الزمر: ٤٨] وبقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٣ - ١٠٤] وأشد الخَلق تعرُّضًا لهذه الفتنة العلماء) والوُعَّاظ (فإن الباعث للأكثرين على نشر العلم لذة الاستيلاء) أي الغلبة (والفرح بالاستتباع، والاستبشار بالحمد والثناء، والشيطان يلبِّس عليهم ذلك ويقول: غرضكم) أيها العلماء (نشرُ دين الله) تعالى (والنضال) أي المدافعة (عن الشرع الذي شرعه رسول الله ﷺ) فإنما يتصوَّرون ذلك من نفوسهم، وهذا الذي أملى عليهم يقوِّي صفات أفعالهم ويظنون أنهم على غاية الكمال (وترى الواعظ يمنُّ على الله تعالى بنصيحته الخلق ووعظه للسلاطين، ويفرح بقبول

الناس قوله وإقبالهم عليه، وهو يدَّعي أنه يفرح بما يسَّر له من نصرة الدين) وهذا أيضًا مغرور، قد لبَّس عليه الشيطان، وبمعزل عن الإخلاص (و) امتحان ذلك أنه **(لو ظهر من أقرانه مَن هو)** أكثر منه علمًا وأذلق منه لسانًا وأفصح منه بيانًا و**(أحسن منه وعظًا وانصرف الناس عنه)** أي عن مجلس علمه أو وعظه **(وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمَّه)** فبهذا يظهر الغرور والتلبيس في علمهما **(ولو كان باعثه الدين)** وفرحَ بذلك لمساعدته له على إنقاذ عباد الله من أيدي الشياطين **(لشكر الله تعالىٰ)** علىٰ النعمة التي أداها، وهي رتبة الصدِّيقين، فإن العلم بالتعلُّم كمالٌ في العلم **(إذ كفاه الله تعالىٰ هذا المهمَّ بغيره)** ووجد مساعدًا له علىٰ مهمِّه، وإن ضربته عقربُ الحسد حتىٰ اشتهىٰ بذلك زوالَ النعمة عنه وظهور عثرات ليسقط بذلك وقعُ كلامه في قلوب الناس، فلا يشك أنه راكع ساجد للناس، وعيشه وحياته بهم لا بالله تعالىٰ **(ثم الشيطان مع ذلك لا يخلِّيه ويقول)** له: **(إنما غمُّك لانقطاع الثواب عنك، لا لانصراف وجوه الناس عنك إلىٰ غيرك؛ إذ لو اتَّعظوا بقولك لكنت أنت المُثاب، واغتمامك لفوات الثواب محمود. ولا يدري المسكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر للأفضل)** والأعلم والأفصح **(أجزل ثوابًا وأعْوَد عليه في الآخرة من انفراده)** في الأمر الذي فيه **(وليت شِعري لو اغتمَّ عمر ﵁ لتصدِّي أبي بكر ﵁ للإمامة)** والخلافة دون الناس **(أكان غمُّه محمودًا أو مذمومًا؟ ولا يستريب ذو دين أنْ لو كان ذلك)** وفُرِض **(لكان مذمومًا؛ إذ انقياده للحق وتسليمه الأمر إلىٰ مَن هو أصلح منه أعْوَد عليه في الدين من تكفُّله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل، بل فرح عمر ﵁ باستقلال مَن هو أَولىٰ منه بالأمر)** كما دلَّ علىٰ ذلك الآثار الواردة في قصة البيعة **(فما بال العلماء)** وهم في منصب الإمامة **(لا يفرحون بمثل ذلك)** وهم أحق بهذا الفرح من غيرهم؛ إذ كان سببًا لمعرفتهم بغرور نفوسهم حتىٰ يرجعوا إلىٰ الله تعالىٰ ويجتهدوا في الإخلاص له؛ إذ معرفة الإنسان بعيوب نفسه من جملة السعادات **(وقد ينخدع بعض أهل العلم بغرور الشيطان فيحدِّث نفسَه بأنه لو ظهر مَن هو أَولىٰ منه بالأمر لفرح به، وإخباره بذلك عن نفسه قبل التجربة**

والامتحان محض الجهل والغرور، فإن النفس سهلة القياد في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر، ثم إذا دهاه الأمرُ تغيَّر ورجع ولم يفِ بالوعد، وذلك لا يعرفه إلا مَن عرف مكائد الشيطان والنفس وطال اشتغالُه بامتحانها، فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع) ولذا كانوا على خطر عظيم **(إلا الشاذ النادر الفرد الفذ، وهو المستثنىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾** [الحجر: ٤٠، ص: ٨٣] **فليكن العبد شديد التفقُّد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر)** ولمَّا كان الإخلاص نعمة من النعم وفعلاً من أفعاله والعبد آلة ومحل لِما يَرِدُ عليه من مولاه لا من نفسه كثرت أقاويلهم في حدِّه وحقيقته، فوجب بيانُ ذلك.

بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص

وسبب اختلافهم - كما تقدَّم - إما بالنظر إلىٰ اختلاف مقاماتهم وأحوالهم، وإما بالنظر إلىٰ اختلاف أقوال السائلين، وإما بالنظر إلىٰ تنوُّع درجات الإخلاص. قال القشيري: الإخلاص: إفراد الحق في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرُّبَ إلىٰ الله تعالىٰ دون شيء آخر من تصنُّع لمخلوق، أو اكتساب مَحمدة عند الناس، أو محبة مدحٍ من الخَلق، أو معنىً من المعاني سوىٰ التقرُّب به إلىٰ الله تعالىٰ. ويصح أن يقال: الإخلاص: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. ويصح أن يقال: الإخلاص: التوقِّي عن ملاحظة الأشخاص.

و(**قال**) أبو يعقوب (**السوسي**) رحمه الله تعالىٰ: (**الإخلاص فقدُ رؤية الإخلاص، فإنَّ مَن شاهد في إخلاصه الإخلاصَ فقد احتاج إخلاصه إلىٰ الإخلاص**[1]).

وما ذكره إشارة إلىٰ تصفية العمل عن العُجب بالفعل، فإن الالتفات إلىٰ الإخلاص والنظر إليه) والسكون به (**عُجْبٌ**) وسمَّاه بعضُهم رياءً، كما سيأتي بيانه (**وهو من جملة الآفات**) المتطرِّقة إليه (**والخالص ما صفا عن جميع الآفات، فهذا تعرُّضٌ لآفة واحدة**) أي فلا تكون حقيقته جامعة لأفراده.

(وقال) أبو محمد (**سهل**) التستري رحمه الله تعالىٰ: (**الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالىٰ خاصةً**[2]) أي لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلىٰ الله تعالىٰ عبادة أو عادة (**وهذه كلمة جامعة محيطة بالغرض**) قال صاحب القوت:

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٧٩.

(٢) السابق.

وليكن ما تحرَّك فيه أو سكن عنه أو توقَّف عن الإقدام عليه ابتغاءَ مرضاة الله تعالىٰ تقرُّبًا إليه لأجل الله تعالىٰ، فهذا أعلىٰ النيات، وهو غاية الإخلاص.

وقال أيضًا: إخلاص العبودية للربوبية أشد من إخلاص المعاملة، إلا أن مَن رُزق المقام منها دخل بحقيقة إخلاص المعاملة ضرورةً بلا تنقية ولا تصفية ولا عمل ولا مجاهدة، فكانوا مخلصين، وهذا مقام المحبِّين.

(وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ: **(الإخلاص صِدق النية مع الله تعالىٰ**[1]**)** أي في حركاته وسكناته، فإن الحركة والسكون اللذينِ هما أصلا الأفعال هما من أعماله التي يُسئل عنها، فيحتاج إلىٰ صدق النية [والإخلاص] فيهما، فليجعل جميع ذلك لله تعالىٰ وفيه بعقد واحد علىٰ مراتب من المقامات عنده، إما حبًّا لله وإجلالاً له وإما خوفًا منه أو رجاء له أو لأجل ما أمره به فينوي أداء الفرائض، أو لِما ندبه فينوي المسارعة إلىٰ الخير، أو فيما أبيحَ له فتكون نيَّته في ذلك صلاح قلبه وإسكان نفسه واستقامة حاله. قال صاحب القوت: والنية عند قوم الإخلاص بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجملة أنها صحة العقد وحسن القصد، وهي عند الجماعة من أعمال القلوب، مقدَّمة في الأعمال، وأول كل عمل، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرًا كَثِيرًا ۝٤١﴾ [الأحزاب: ٤١] قيل في التفسير: خالصًا، فسمَّىٰ الخالص كثيرًا وهو ما خلُصت فيه النية لوجه الله تعالىٰ، ووصف ذِكر المنافقين بالقلة فقال: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢] يعني غير خالص. ا.هـ.

ويقرُب من قول إبراهيم قولُ ذي النون رحمهما الله تعالىٰ حين سُئل عن الإخلاص فقال: الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالإخلاص فيه والمداومة عليه. نقله القشيري. فبين الصدق والإخلاص تلازُمٌ، فمَن أخلص في مقام وصدق في سلوكه وصبر عليه حتىٰ أحكمه نقله الله

---

(١) السابق.

إلىٰ ما فوقه. وسُئل الجنيد عن الصدق والإخلاص، فقال: بينهما فرقٌ، الصدق أصل، والإخلاص فرع، والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا لله بعد الدخول في الأعمال، والأعمال لا تكون مقبولة إلا بهما[1]. وقال القشيري: سمعت أبا علي الدَّقَّاق يقول: الإخلاص: التوقِّي عن ملاحظة الخلق، والصدق التنقِّي عن مطالعة النفس، فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له. ا.هـ. وما ذكره هو أدنىٰ مراتب الإخلاص والصدق، فإن أعلاها أن لا يسكن العبد إلىٰ عمله وحسنه وإن كان صحيحًا، ويراه فضلاً من ربِّه.

(**وقيل لسهل**) التستري رحمه الله تعالىٰ: (**أي شيء أشد علىٰ النفس؟ فقال: الإخلاص؛ لأنه ليس لها**) أي للنفس (**فيه**) أي في الإخلاص (**نصيب**[2]) نقله القشيري. وذلك لأن الغالب علىٰ عملها أن يكون لغرض ديني أو دنيوي، وما ذكره مختصٌّ بحال المريد السالك، فأما مَن كملت معرفتُه بمولاه واضمحلَّت لديه الأغراض، فهو إنما يلتذُّ بالقرب.

(**وقال**) أبو[3] محمد (**رُوَيم**) بن أحمد البغدادي، المتوفي سنه ٣٠٣، كان جامعًا بين التصوف والفقه، وكان يفتي علىٰ مذهب داود (**الإخلاص في العمل**

---

(١) رواه السلمي في حقائق التفسير ٢/ ٤١٠ - ٤١١ فقال: «سمعت أبا الفضل نصر بن محمد يقول: أخبرني جعفر بن محمد قال: سألت الجنيد عن الصدق والإخلاص أهما واحد أو بينهما فرق؟ قال: فرق وحال. قلت: ما الفرق وما الحال؟ قال: الصدق أصل وهو الأول، والإخلاص فرع وهو تابع، والصدق أصل كل شيء، والإخلاص لا يكون إلا بعد الدخول في الأمان. ثم قال: ههنا حال إخلاص ومخالصة في الإخلاص وخالصه كأسه في المخالصة. قيل له: فالصدق ما هو؟ قال: هو أن تجري مع موافقة الله في كل موطن، فالصدق غير مفارق للعبد، والإخلاص إنما يكون في فعل، وذلك قوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ إنما هو الفعل».

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٨٠.

(٣) الرسالة القشيرية ص ٨٥.

هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضًا في الدارين[1] ولا حظًّا من الملَكين. هكذا بهذه الزيادة نقله القشيري. والمراد بالدارين دارَي الآخرة والدنيا، والملَكين ملَك اليمين وملَك الشِّمال، أي بأن يكون عملُه لله لا يريد به سواه لا من دنياه ولا من أُخراه (**وهذا**) الذي ذكره (**إشارة إلىٰ أن حظوظ النفس آفة**) أي دخول حظٍّ في العمل آفة تعرِّضه إما (**آجلاً**) في دار الآخرة (**أو عاجلاً**) في دار الدنيا (**والعابد لأجل تنعُّم النفس بالشهوات في الجنة**) من أكل وشرب ونكاح وغير ذلك (**معلول**) في عمله (**بل الحقيقة أن لا يُراد بالعمل إلا وجه الله تعالىٰ**) فقط، ولا يمرُّ بباله شيء من الحظوظ (**وهو إشارة إلىٰ إخلاص الصدِّيقين، وهو الإخلاص المطلق**) والإخلاص الكامل، ويعبَّر عنه أيضًا بإخلاص الإخلاص (**فأما مَن يعمل لرجاء**) دخول (**الجنة وخوف**) اقتحام (**النار فهو مخلص**) مقيَّد، أي (**بالإضافة إلىٰ الحظوظ العاجلة**) في الدنيا (**وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج**) في الآخرة (**وإنما المطلوب الحق لذوي الألباب هو وجه الله تعالىٰ فقط**) وإليه الإشارة في الخبر: «وعِلِّيُّون لذوي الألباب» (**وقول القائل**) في اعتراضه علىٰ مَن قال: إن الإخلاص هو البراءة من الحظوظ في الحركة والسكون، كيف يكون هذا مع أنه (**لا يتحرك الإنسان إلا لحظٍّ**) وكذا لا يسكن إلا لحظٍّ (**والبراءة من الحظوظ**) كلها في سائر الأفعال (**صفة الإلهية، ومَن ادَّعىٰ ذلك فهو كافر**) لأنه قد أشرك بالله في صفة من صفاته المختصَّة به (**وقد قضىٰ القاضي أبو بكر**) محمد[2] بن الطيِّب (**الباقِلاَّني**) البصري، المتكلِّم علىٰ مذهب الأشعري، وسمع الحديث من القطيعي، توفي سنة ٤٠٣ (**بتكفير مَن يدَّعي البراءةَ**) لنفسه (**من الحظوظ**) كلِّها (**وقال: هذا من صفات الإلهية**[3]) فلا يتَّصف بها أحد (**وما ذكره حقٌّ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءةَ ممَّا**

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٨٠.

(٢) لباب الأنساب لابن الأثير ١/ ١١٢.

(٣) في التمهيد للباقلاني ص٣١ عند ذكره لمثل هذا قال: وجب القضاء علىٰ تسفيهه. أما تكفيره فالشيخ الإمام الحجة أعلم بمواضع أقوال الباقلاني، ونحن إنما نظن ظنًا. والله أعلم.

يسمِّيه الناس حظوظًا وهو الشهوات الموصوفة في الجنة فقط، فأما التلذُّذ بمجرد المعرفة) الخاصة (والمناجاة) والأنس (والنظر إلىٰ وجه الله تعالىٰ، فهذا حظ هؤلاء) الطائفة (وهذا لا يعدُّه الناس حظًّا، بل يتعجَّبون منه، وهؤلاء لو عُوِّضوا عمَّا هم فيه من لذة الطاعة والمناجاة وملازمة الشهود للحضرة الإلهية سرًّا وجهرًا جميع نعيم الجنة لاستحقروه) بجنب ما هم فيه (ولم يلتفتوا إليه، فحركتهم لحظٌ، وطاعتهم لحظٌ، ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره) وقد يقال: إن الذي ذكره رويم حدٌّ للعمل الخالص لا للإخلاص.

(وقال أبو عثمان) سعيد بن إسماعيل الحيري النيسابوري، المتوفى سنة ٢٩٨: (الإخلاص نسيان رؤية الخلق) أي في العمل (بدوام النظر إلىٰ) فضل (الخالق فقط) عليك[١]. نقله القشيري. وهذا إخلاص [العارفين] فإنهم يخلصون عملهم حتىٰ من رؤيتهم له استحسانًا (وهذا إشارة إلىٰ آفة الرياء فقط) كما أن قول السوسي إشارة إلىٰ آفة العُجب (ولذلك قال بعضهم: الإخلاص في العمل أن لا يطَّلع عليه شيطان فيفسده، ولا ملَكٌ فيكتبه[٢]) وهذا قول الجنيد، ولفظه عند القشيري: قال الجنيد: الإخلاص سرٌّ بين الله وبين العبد، لا يعلمه ملَكٌ فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوىً فيميله[٣]. ا.هـ. أي لا يؤثِّر فيه أحدٌ من هؤلاء؛ لِما في قلب المتَّصف به من إفراد ربِّه بالعمل بسرِّه، وهذه الحالة إنما يخصُّ الله بها خواصَّه من أوليائه، ولذلك قالوا: مَن لم يكن بينه وبين الله سرٌّ فهو مصرٌّ. ويؤيِّده ما تقدم من خبر حذيفة: «الإخلاص سرٌّ من سري، استودعتُه قلبَ مَن أحببته من عبادي». ويقرُب منه قولُ ذي النون: الإخلاص ما حفظ من العدو أن يفسده. وأيضًا قول

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٨٧.

(٢) هذا والذي قبله من قول أبي عثمان أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٨٠.

(٣) ونقل السلمي في حقائق التفسير ١/ ٢٩٩ والكلاباذي في التعرف ص ١١٧ عن أبي يعقوب السوسي قوله: الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا النفس فتعجب به.

مَن سُئل عن الإخلاص فقال: أن لا يشهد علىٰ عملك غير الله **(فإنه إشارة إلىٰ مجرد الإخفاء)** ويقال أيضًا: إن هذا حدٌّ لخالص العمل لا للإخلاص **(وقد قيل: الإخلاص ما استتر عن الخلائق وصفا عن العلائق. وهذا)** الحد **(أجمعُ للمقاصد)** فإن الشطر الأول يشير إلىٰ الإخفاء، والثاني إلىٰ قطع الحظوظ، فالأول فيه السلامة من الرياء، والثاني فيه السلامة من الهوىٰ، وحقيقة الإخلاص السلامة منهما.

(وقال) الحارث بن أسد **(المحاسبي)** رحمه الله تعالىٰ: **(الإخلاص هو إخراج الخَلق عن معاملة الرب.**

وهذا إشارة إلىٰ مجرَّد نفي الرياء) ويقرُب منه قول مَن قال: هو تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين. وقول مَن قال: هو التوقِّي عن ملاحظة الأشخاص. وقول مَن قال: هو التوقِّي عن ملاحظة الخلق. وقد تقدم ذِكرُ الأقوال الثلاثة.

(وكذلك قول) إبراهيم بن أحمد **(الخوَّاص)** رحمه الله تعالىٰ: **(مَن شرب من كأس الرياسة فقد خرج عن إخلاص العبودية)** أي فإن العبودية تقتضي الذلَّ، وإخلاصها عبارة عن كمالها، فمَن كمُل في عبوديَّته كان بمعزل عن الرياسة.

(وقال الحواريُّون لعيسىٰ عليه السلام: ما الخالص من الأعمال) ولفظ القوت: قالوا له: يا روح الله، ما الإخلاص لله عز وجل؟ **(فقال: الذي يعمل)** العمل **(لله تعالىٰ لا يحب أن يحمده عليه أحد)** من الناس. وتمامه عند صاحب القوت: قالوا: فمَن الناصح لله عز وجل؟ قال: الذي يبدأ بحق الله عز وجل قبل حق الناس، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة بدأ بأمر الله تعالىٰ قبل أمر الدنيا[1]. انتهىٰ. ويُروَىٰ في الخبر: «لكل حقٍّ حقيقةٌ، وما بلغ عبدٌ حقيقةَ الإخلاص حتىٰ لا يحب أن يُحمَد علىٰ شيء من عمل الله عز وجل» **(وهذا أيضًا تعرُّضٌ لترك الرياء، وإنما خصَّه بالذكر)**

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٦٢ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٩ وأحمد في الزهد ص ٤٩ وابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية ص ٣٤ عن أبي ثمامة العابدي الحناط.

دون غيره من الآفات (**لأنه أقوىٰ الأسباب المشوِّشة للإخلاص**) ففي الخبر: «أخوف ما أخاف علىٰ أمَّتي الرياء والشهوة الخفية». قيل: حب الدنيا، وقيل: العمل لأجل أن يؤجَر العبد ويُحمَد.

(**وقال الجنيد**) قُدِّس سره: (**الإخلاص تصفية العمل عن الكدورات**) ولا يتم ذلك إلا إذا ملكَ شيئين ليس أحدهما عنده أَولىٰ به من الآخَر: صحة القصد لوجه الله، ثم إخراج الآفات أو الحذر عليه من دخولها عليه إلىٰ فراغه منه، فبذلك يتم إخلاصُه، ويصفو من كدورات الهوىٰ، ويخلُص من الشهوة الخفية، فيكون خالصًا من الرياء بالإخلاص، صافيًا من الشهوة بتفقُّد دخول الآفة.

(**وقال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**تركُ العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما**) نقله القشيري سماعًا عن محمد بن الحسين قال: سمعت علي بن بندار الصوفي يقول: سمعت عبد الله بن محمود يقول: سمعت محمد بن عبد ربه يقول: سمعت الفضيل يقول فذكره[١]. ومعنىٰ قوله: تركُ العمل ... الخ، أي من حيث يتوهَّم منهم أنهم ينسبونه بالعمل إلىٰ الرياء، فيكره هذه النسبةَ، ويحب دوام نظرهم له بالإخلاص، فيكون مرائيًا بتركه محبةً لدوام نسبته إلىٰ الإخلاص، لا للرياء. وقوله: والعمل ... الخ، أي لكونه أشرك في عمله غيرَه. وهذا يرجع إلىٰ قول مَن قال: الإخلاص تصفية العمل من الرياء والهوىٰ.

وقال صاحب القوت: ولا [ينبغي أن] يترك العبد العملَ الصالح خشية دخول الآفة عليه، ولا يدعه إن كان داخلاً فيه لِما يعتريه، فإن ذلك بُغية عدوِّه منه، لكن يكون علىٰ نيته الأولىٰ من صحة القصد، فإن دخلت عليه وضع عليها دواءها فعملَ في نفيها وإزالتها، وثبت علىٰ حسن نيته وصالح معاملته، ولا يدع عملاً لأجل

---

(١) ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٨٥ بهذا السند.

الخلق حياءً منهم أو كراهة اعتقادهم فضله، فإن العمل لأجل الناس شرك، وتركُه لأجلهم رياء، وتركُ العمل خشيةَ دخول الآفة فيه جهلٌ، وتركُه عند دخول العلَّة عليه ضعفٌ ووهن، ومَن دخل في العمل لله تعالىٰ وخرج منه لله تعالىٰ لم يضرَّه ما كان بين ذلك بعد أن ينفيه ولا يساكنه، وقد يضرُّه ما يكون بعد ذلك منه إن كان سرًّا فأظهره بعد زمان فصار علانيةً فنُقل من ديوان السر إلىٰ ديوان العلانية، ومثل أن يتظاهر به ويفتخر ويُدِلَّ به ويتكبَّر فيحبط ذلك عمله؛ لأنه قد أفسده، والله لا يُصلِح عمل المفسدين. ومَن دخل في العمل لله تعالىٰ ودخلت عليه في وسط العمل علةٌ فخرج من العمل بها بطل عملُه. ومَن دخل في العمل بآفة وخرج منه بصحة سلمَ له عملُه وجُبِر بآخره أوله. وأفضل الأعمال ما دخل في أوله لله تعالىٰ وخرج منه بالله تعالىٰ ولم تطرقه فيما بينهما آفةٌ، فيكون الله تعالىٰ هو الأول والآخر معه وعنده، ثم لا يُظهِره بعد ذلك ولا يتظاهر به. انتهىٰ.

وقال صاحب المقاصد: الفائدة الثانية: أن لا يترك العمل خوفًا من غرة الإخلاص، فإنَّ ترك العمل من جهة الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، بل يعمل ويجتهد في الإخلاص، فإنَّ ترك الأعمال لا يقدر عليها إلا بالتدريج شيئًا فشيئًا، ففي الخبر: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يقولوا: لا إله إلا الله»، فهذا يدل علىٰ الدخول في الدين قهرًا لا بالاختيار، ولكن ذلك تدريج إلىٰ مجالسة المؤمنين ومشاهدة أحوالهم وإلىٰ استماع ما أنزل الله عليهم؛ ليكون موصلاً للإيمان إلىٰ قلوبهم، فيدخلون في الدين باختيارهم ثم يتدرَّجون قليلاً قليلاً إلىٰ أن يبلغوا منازل المقرَّبين، وإلىٰ هذا الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ﴾ [التوبة: ٦٠].

(**وقيل: الإخلاص: دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلِّها. وهذا هو البيان الكامل**) فإنَّ دوام المراقبة يستدعي الاستغراقَ في العبودية، والمستغرق فيها لا يلتفت في سائر أحواله إلا إلىٰ الله تعالىٰ، ونسيان الحظوظ يستدعي عدمَ الرؤية في إخلاصه، فصار بذلك جامعًا لمعاني الإخلاص كلها.

(والأقاويل في هذا كثيرة) فمن ذلك قولهم: الإخلاص استواء المدح والذم من العامَّة، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة. وهذا نقله القشيري عن ذي النون[١]، وهي من علامات الإخلاص. وقيل: نقصان كل مخلص في إخلاصه رؤية إخلاصه، فإذا أراد الله أن يخلُص إخلاصُه أسقط عن إخلاصه رؤيته لإخلاصه، فيكون مخلَصًا لا مخلِصًا. نقله القشيري عن أبي بكر الدَّقَّاق. وهو بعينه قول أبي يعقوب السوسي الذي ذكره المصنِّف. وقال أبو عليٍّ الروذباري: قال لي رُوَيم: قال أبو سعيد الخَرَّاز: رياء العارفين أفضل من إخلاص المريدين[٢]. وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص أن تستوي أفعال العبد في الظاهر والباطن. وقيل: الإخلاص ما أريدَ به الحق وقُصِد به الصدق. وقيل: الإخلاص: الإغماض عن رؤية الأعمال. وقال السري: مَن تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله[٣]. وقال يوسف بن الحسين: أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاص[٤].

(ولا فائدة في تكثير النقل بعد انكشاف الحقيقة، وإنما البيان الشافي بيان سيد الأولين والآخِرين ﷺ؛ إذ سُئل عن الإخلاص، فقال: أن تقول ربي الله ثم تستقيم كما أُمِرتَ[٥]) قال العراقي[٦]: لم أرَه بهذا اللفظ، وللترمذي[٧] وصحَّحه وابن ماجه[٨] من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي: قلت: يا رسول الله، حدِّثْني

---

(١) ورواه عنه أيضا أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٦١.

(٢) تقدم هذا القول في كتاب المحبة والشوق.

(٣) رواه السلفي في الطيوريات ٣/ ٨٨٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٠/ ١٨١، والسلمي في طبقات الصوفية ص ٥٧.

(٤) تمامه في الرسالة: «وكم أجتهد في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت فيه على لون آخر».

(٥) كذا أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٨٣، والغزالي عنه ينقل.

(٦) المغني ٢/ ١١٧٦ - ١١٧٧.

(٧) سنن الترمذي ٤/ ٢١٠.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٤٥٨.

بأمر أعتصم به. قال: «قلْ ربي الله ثم استقِمْ». وهو عند مسلم[١] بلفظ: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قل آمنت بالله، ثم استقِمْ».

قلت: ذكر الحافظ في ترجمة سفيان هذا في الإصابة[٢] الحديث المذكور باللفظ الأول وقال: أخرج حديثه مسلم والترمذي والنسائي[٣]. أي فذكر النسائي بدل ابن ماجه. والله أعلم.

ووجدت في القوت ما يشبه هذا السياقَ، قال: فأحسن تفسير للنية ما فسَّره به رسول الله ﷺ لمَّا سُئل عن الإحسان فقال: «تعبد الله كأنَّك تراه». فهذه شهادة العارفين ومعرفة الموقنين، فهم مخلصو المخلصين. انتهىٰ.

(**أي لا تعبد هواك ونفسَك، ولا تعبد إلا ربك، وتستقيم في عبادته كما أُمِرتَ، وهذا**) لا يطيقه إلا الأكابر؛ إذ هو (**إشارة إلىٰ قطع ما سوىٰ الله عن مَجرىٰ النظر، وهو الإخلاص حقًّا**) وذكروا في الاستقامة أنها: الخروج عن المعهودات، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدي الله علىٰ حقيقة الصدق[٤]. والله الموفِّق.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٣٩.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ٤/ ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٥٦ بلفظ مسلم.

(٤) رواه السلمي في حقائق التفسير ٢/ ٢٢٥ عن شيخه أبي العباس البزاز قال: قال بعض أصحابنا: حقيقة الاستقامة لا يطيقها إلا الأنبياء وأكابر الأولياء؛ لأنها الخروج عن المعهودات ... الخ.

بيان درجات الشوائب والآفات المكدِّرة للإخلاص

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن الآفات المشوِّشة للإخلاص) المكدِّرة لصفوه (بعضها جليٌّ) أي ظاهر (وبعضها خفيٌّ) يُدرَك بالتأمُّل (وبعضها ضعيف مع الجلاء، وبعضها قويٌّ مع الخفاء، ولا يُفهَم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال، وأظهرُ مشوِّشات الإخلاص) وأقواها (الرياء) ولذا جعل أكثرُهم تركه إخلاصًا، كما تقدم في أقوالهم (فلنذكر منه مثالاً فنقول: الشيطان يُدخِل الآفةَ علىٰ المصلِّي مهما كان مخلصًا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخلٌ، فيقول له: حسِّنْ صلاتَك حتىٰ ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار) أي التعظيم (والصلاح، ولا يزدريك) أي لا يحتقرك (ولا يغتابك. فتخشع جوارحه، وتسكن أطرافه، وتحسُن صلاتُه. وهذا هو الرياء الظاهر، ولا يخفَىٰ ذلك علىٰ المبتدئين من المريدين) فلا حاجة في التطويل فيه.

(الدرجة الثانية: يكون المريد قد فهم هذه الآفةَ، وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها، ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان، فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدًىٰ بك ومنظور إليك، وما تفعله يؤثِّر عنك، ويتأسَّىٰ بك غيرُك) أي يُنقَل عنك ويُقتدَىٰ بك فيه (فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنتَ، وعليك الوِزر إن أسأتَ، فأحسِنْ عملَك بين يديه فعسىٰ يقتدي بك في الخشوع وتحسين العبادة. وهذا أغمضُ من الأول) أي أدقُّ في المَدرك (وقد ينخدع به مَن لا ينخدع بالأول، وهو أيضًا عين الرياء ومبطل للإخلاص، فإنه إن كان يرىٰ الخشوع وحسن العبادة خيرًا لا يرضىٰ لغيره تركه فلِمَ لا يرتضي لنفسه ذلك في الخلوة؟ ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه، فهذا محض التلبيس) والغرور (بل المقتدَىٰ به هو الذي استقام في نفسه) في أعماله وأحواله (واستنار قلبُه، فانتشر نوره

إلىٰ غيره، فيكون له ثواب عليه، فأما هذا فمحض النفاق والتلبيس، فمَن اقتدىٰ به أُثيبَ عليه) لا محالة (وأما هو فيطالَب بتلبيسه، ويعاقَب علىٰ إظهاره من نفسه ما ليس متَّصفًا به.

الدرجة الثالثة، وهي أدقُّ ممَّا قبلها: أن يجرِّب العبد نفسَه في ذلك، ويتنبَّه لكيد الشيطان) وخداعه (ويعلم أن مخادعته بين الخلوة) عن الناس (والمشاهدة للغير) منهم (محض الرياء) أي خالصه (ويعلم) أيضًا (أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ) من الناس (ويستحي من نفسه ومن ربِّه أن يتخشَّع لمشاهدة خلقه تخشُّعًا زائدًا علىٰ عادته) المستمرة (فيُقبِل علىٰ نفسه في الخلوة، ويحسِّن صلاتَه علىٰ الوجه الذي يرتضيه في الملأ، ويصلي في الملأ أيضًا كذلك، فهذا أيضًا من الرياء الغامض) الخفيُّ مَدركه (لأنه حسَّن صلاتَه في الخلوة لتحسُن) صلاتُه (في الملأ، فلا يكون قد فرَّق بينهما، فالتفاته في الخلوة والملأ إلىٰ الخلق) وهذا بمعزل عن الإخلاص الكامل (بل الإخلاص) الكامل أن لا يلتفت إليهم مطلقًا، ويكون وجودهم كعدمهم؛ إذ لا قوام لهم بنفوسهم، ويتحقَّق أن الموجود الثابت الحقيقي هو الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم الذي قامت ذاتُه بذاته، وكل شيء سواه قائم به ومستند إلىٰ قدرته، فإن عجز عن هذا [المقام] الرفيع الذروة فالواجب في حقِّه (أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخَلق علىٰ وتيرة واحدة) أي لا فرق بينهما (فكأنَّ نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهُر الناس، ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرائين، ويظن أن ذلك يزول بأن تستوي صلاته في الخلاء والملأ، وهيهات! بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلىٰ الخلق، كما لا يلتفت إلىٰ الجمادات في الخلاء والملأ جميعًا، وهذا من شخص مشغول الهم بالخلق في الخلاء والملأ جميعًا، وهذا من المكائد الخفية للشيطان) ولأجل هذا كان المخلصون علىٰ خطر عظيم.

(الدرجة الرابعة، وهي أدقُّ وأخفَىٰ: أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته،

فيعجز الشيطان عن أن يقول له: اخشعْ لأجلهم، فإنه قد عرف أنه يفطن لذلك، فيقول له الشيطان: تفكَّرْ في عظمة الله وجلاله ومَن أنت واقف بين يديه، واستحِ من أن ينظر الله إلىٰ قلبك وهو غافل عنه. فيحضر بذلك قلبه) وتنتفي عنه الخطرات (وتخشع جوارحه، ويظن أن ذلك عين الإخلاص) إذ هو عبارة عن مراقبة القلب ونسيان الحظوظ، وقد حصل كلٌّ منهما (وهذا عين المكر والخداع، فإن خشوعه لو كان لنظره إلىٰ جلاله) وعظمته (لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة) ومراقبة القلب في وقت دون وقت لا تجدي نفعًا لولا أن تدوم في الأحوال كلها (ولكان لا يختصُّ حضورها بحالة حضور غيره، وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر ممَّا يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ، ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر، كما لا يكون حضور البهيمة سببًا) لذلك (فما دام يفرِّق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعدُ خارجٌ عن صفو الإخلاص) وكماله (مدنَّس الباطن بالشرك الخفيِّ من الرياء) بحسب قوة انصراف وجهة قلبه عن الله تعالىٰ وضعفِها (وهذا الشرك أخفَىٰ في قلب ابن آدم من دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء علىٰ الصخرة الصَّمَّاء، كما ورد به الخبر) من حديث أبي بكر وعائشة وابن عباس وأبي هريرة بألفاظ مختلفة مع زيادات، وقد تقدم في كتاب العلم وكتاب ذم الجاه والرياء (ولا يَسلم من الشيطان إلا مَن دقَّ نظرُه) وعظمت معرفتُه بمكائده (وسعدَ بعصمة الله تعالىٰ وتوفيقه وهدايته، وإلا فالشيطان ملازم للمشمِّرين لعبادة الله، لا يغفل عنهم لحظة حتىٰ يحملهم علىٰ الرياء في كل حركة من الحركات، حتىٰ في كحل العين وقصِّ الشارب وطِيب يوم الجمعة ولبس الثياب) الحسنة (فإنَّ هذه سنن في أوقات مخصوصة) وقد تقدَّم ذِكر كل واحدة منها في مواضعها (وللنفس فيها حظ خفيٌّ؛ لارتباط نظرِ الخلق بها، ولاستئناس الطبع بها، فيدعو الشيطان إلىٰ فعل ذلك ويقول: هذه سنَّة لا ينبغي أن تتركها، ويكون انبعاث القلب باطنًا لها لأجل تلك الشهوة الخفية) الكامنة في النفس (أو مشوبة بها

شوبًا يُخرِج عن حدِّ الإخلاص) الكامل **(بسببه، وما لا يَسلم من هذه الآفات كلِّها فليس بخالص)** حقيقةً **(بل مَن يعتكف في مسجد)** من المساجد **(معمور)** بالناس **(نظيف حَسن العمارة يأنس إليه الطبعُ فالشيطان يرغِّبه فيه ويُكثِر عليه من فضائل الاعتكاف، وقد يكون المحرِّك الخفيِّ في سرِّه هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه، ويتبيَّن ذلك في ميله إلىٰ أحد المسجدين أو أحد الموضعين إذا كان أحسن من الآخَر)** وأخفَىٰ من ذلك أن يميل إلىٰ مسجد خربٍ بعيد عن الناس فيلقي في نفسه أنه أجمعُ لقلبك في العبادة، وفي باطنه الانفراد عن الناس، وهو سبب الظهور، فيكون عينَ ما هرب منه **(وكل ذلك امتزاج بشوائب الطبع وكدورات النفس ومبطل حقيقة الإخلاص، لعَمْري الغش الذي يُمزَج بخالص الذهب له درجات متفاوتة، فمنها ما يغلب، ومنها ما يقلُّ لكن يسهل دركُه، ومنها ما يدقُّ بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير، وغشُّ القلب ودغل الشيطان)** أي مكره **(وخبث النفس أغمضُ من ذلك وأدقُّ كثيرًا، ولهذا قيل: ركعتان من عالِم أفضل من عبادة سنة من جاهل)** وقد رُوي في المرفوع نحوه: روىٰ ابن النجار عن موسىٰ بن جعفر عن أبيه عن جدِّه: «ركعتان من عالِم أفضل من سبعين ركعة من غير عالِم». وروىٰ الشيرازي في الألقاب من طريق مالك بن دينار عن الحسن عن أنس عن عليٍّ رفعه: «ركعتان من عالِم بالله خير من ألف ركعة من متجاهل بالله». وروىٰ أبو نعيم من حديث أنس: «ركعتان من رجل ورِع أفضل من ألف ركعة من مخلِّط»[١] **(وأريدَ به العالِم البصير بدقائق آفات الأعمال حتىٰ يخلص عنها، فإن الجاهل نظرُه إلىٰ ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السواديِّ)** الجلف **(إلىٰ حمرة الدينار المموَّه)** أي المسقَىٰ بماء الذهب **(و)** حُسن **(استدارته وهو)** مع ذلك **(مغشوش زائف في نفسه)** غير رابح **(وقيراط من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دينار يرتضيه الغِرُّ)** بالكسر، أي الجاهل **(الغبي. فهكذا يتفاوت أهل العبادات[٢]**،

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب الزهد والفقر.

(٢) في الجميع: أمر العبادات.

بل أشد وأعظم، ومداخل الآفات المتطرِّقة إلىٰ فنون الأعمال لا يمكن حصرُها وإحصاؤها، فليُنتفَع[١] **بما ذكرناه مثالاً، والفطِن يغنيه القليلُ عن الكثير)** فتسري معرفتُه إليه لفطانته ويقيسه علىٰ القليل (والبليد) الجِبلَّة والطبع **(لا يغنيه التطويلُ أيضًا، فلا فائدة في التفصيل)** في حقِّه. والله الموفِّق.

---

(١) في أ، وط المنهاج ٩/ ٨٢: فلنقنع.

بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به

(اعلمْ) هداكَ الله تعالىٰ (أن العمل إذا لم يكن خالصًا لوجه الله تعالىٰ بل امتزج به شوبٌ من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضي ثوابًا، أم يقتضي عقابًا، أم لا يقتضي شيئًا أصلاً، فلا يكون له ولا عليه، وأما الذي لم يُرَدْ به إلا الرياء فهو عليه قطعًا، وهو سبب المقت والعقاب) كما دلَّت بذلك الأخبار التي تقدَّم ذِكرُها في كتاب العلم. ومنها حديث أبي هريرة الذي أوله: «أول الناس يُقضَىٰ فيه يوم القيامة ثلاثة»، وقد تقدَّم قريبًا. ومنها حديث ابن عمر: «مَن تعلَّم علمًا لغير الله أو أراد به غيرَ الله فليتبوَّأ مقعدَه من النار». رواه الترمذي[١] والنسائي[٢]. ومنها حديث أبي هريرة: «مَن تعلَّم علمًا يبتغي به غير وجه الله لا يتعلَّمه إلا ليصيب به غرضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة». يعني ريحها. رواه أبو دواد[٣] والحاكم[٤] وصحَّحه. ومنها حديث كعب بن مالك: «مَن طلب العلم ليجاري به العلماءَ أو ليماري به السفهاءَ أو يصرف به وجوهَ الناس إليه أدخله الله النار». رواه الترمذي[٥] وقال: غريب. ومنها حديث أبي هريرة: «إن في جهنم واديًا يقال له جُبُّ الحَزْن تتعوَّذ منه جهنم كل يوم أربعمائة مرة، يسكنه القُرَّاء المراءون بأعمالهم». رواه الترمذي[٦] وقال: غريب. فهذه الأخبار إنما تدل كلُّها علىٰ حبوط العمل وبطلانه لتمحُّضه للرياء، وهذا لا خلاف فيه بين العلماء، وأن

(١) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٣.

(٢) السنن الكبرىٰ ٥/ ٣٩٢.

(٣) سنن أبي داود ٤/ ٢٤٥.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ١٥٠.

(٥) سنن الترمذي ٤/ ٣٩٢.

(٦) السابق ٤/ ١٩١.

كل ما كان بهذه المَثابة فهو علىٰ المرء لا له، ولا ينجو منه كفافًا، بل هو علىٰ خطر العقاب، إلا أن يتوب من ذلك توبةً يقبلها الله منه ويعفو عنه بكرمه كرمًا وفضلاً **(وأما الخالص لوجه الله تعالىٰ فهو سبب الثواب)** كما دلَّت بذلك أيضًا الأخبار التي تقدَّم ذِكرُها، وهذا أيضًا لا خلاف فيه بين العلماء **(وإنما النظر في)** العمل **(المشوب)** وهو أن يكون الباعث علىٰ طلب عمل من أعمال الطاعات مجموع القصدين: قصد وجه الله تعالىٰ والقصد الدنيوي، وقد اختلف الأئمَّة فيه، فمنهم مَن قال: لا يقتضي هذا العملُ ثوابًا ولا عقابًا، ومنهم مَن قال: يُثاب علىٰ ما فيه من الإخلاص **(وظاهر الأخبار يدل علىٰ أنه لا ثواب له)** أو أنه مقتضٍ للعقاب، وأن ما وقع فيه من الرياء أحبط العملَ بالكلِّية. وهذا القول اختاره الحارث المحاسبي وكثيرٌ من الأئمَّة، قالوا: إن العمل لا يترتَّب عليه الثوابُ حتىٰ يكون جميعُه خالصًا وحده من غير شوب غرض دنيوي، وأنه متىٰ خالطه قصدٌ غير التقرُّب إلىٰ الله أبطله، وكان حكمه حكم ما لو تمحَّض ذلك القصد الدنيويُّ، وهذا هو الذي اختاره الشيخ عز الدين ابن عبد السلام[(١)] رحمه الله تعالىٰ، قال الصلاح العلائي: وهو الذي تقتضيه الأحاديثُ الصحيحة **(وليس تخلو الأخبار عن تعارُض فيه)** قال العراقي[(٢)]: روىٰ أبو داود من حديث أبي هريرة: أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يبتغي الجهادَ في سبيل الله، وهو يبتغي عَرَضًا من عَرَض الدنيا. فقال رسول الله ﷺ: «لا أجر له ...» الحديث. وللنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر، ما له؟ فقال: «لا شيء له»، فأعادها ثلاث مرات

(١) حيث قال في قواعد الأحكام الكبرىٰ ١/ ٢٠٦: «الرياء: إظهار عمل العبادة لينال مظهرها غرضا دنيويا إما لجلب نفع دنيوي أو لدفع ضرر دنيوي أو تعظيم أو إجلال، فمن اقترن بعبادته شيء من ذلك أبطلها؛ لأنه جعل عبادة الله وطاعته وسيلة إلىٰ نيل أغراض خسيسة دنية، فاستبدل الذي هو أدنىٰ بالذي هو خير، فهذا هو الرياء الخالص، وأما رياء الشرك فهو أن يفعل العبادة لأجل الله ولأجل ما ذكر من أغراض المرائين، وهو محبط للعمل أيضا».

(٢) المغني ٢/ ١١٧٧.

يقول له: «لا شيء له». ثم قال: «إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا وابتُغي به وجهه». وللترمذي[١] - وقال: غريب - وابن حبان[٢] من حديث أبي هريرة: الرجل يعمل العمل فيُسِرُّه، فإذا اطُّلِع عليه أعجبه. قال: «له أجران: أجر السر وأجر العلانية». وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

قلت: حديث أبي هريرة رواه أبو داود[٣] فقال: حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، عن ابن المبارك، عن ابن أبي ذئب، عن القاسم، عن بكير بن عبد الله بن الأشج، عن ابن مِكْرَز - رجل من أهل الشام - عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رجلاً قال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضًا من عَرَض الدنيا. فقال النبي ﷺ: «لا أجر له». فأعظمَ الناسُ ذلك وقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ، فلعلَّك لم تُفهِمه. فقال: يا رسول الله، رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عَرَضًا من أعراض الدنيا. فقال: «لا أجر له». فقالوا للرجل: عُدْ لرسول الله ﷺ، فقال له الثالثة، فقال: «لا أجر له». وإسناده حسن. وأخرجه الحاكم[٤] وصحَّحه.

وأما حديث أبي أمامة فقال النسائي[٥]: حدثني عيسىٰ بن هلال الحِمصي، حدثنا محمد بن حِمْيَر، حدثنا معاوية بن سلاَّم، عن عكرمة بن عمَّار، عن شداد أبي عمار، عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذِّكر ما له؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا شيء له». فأعادها ثلاث مرات ويقول رسول الله ﷺ: «لا شيء له». ثم قال: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتُغي به وجهه». وإسناده صحيح، وقد أخرجه الحاكم وصحَّحه أيضًا.

---

(١) سنن الترمذي ٤/ ١٩٢.

(٢) صحيح ابن حبان ٢/ ٩٩.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢٢٠.

(٤) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ١٠٥، ٤٣٨.

(٥) سنن النسائي ص ٤٨٤.

فهذان الخبران يبيِّنان صحةَ ما ذهب إليه المحاسبي واختاره ابن عبد السلام، وهما صريحان في المدَّعَىٰ، وأما ما يعارض ذلك فحديث أبي هريرة الذي تقدَّم في ذم الجاه والرياء وأشار إليه العراقي، وكذا حديث عُبادة بن الصامت: «مَن غزا في سبيل الله ولم ينوِ إلا عقالاً فله ما نواه». رواه النسائي[1]. قال العراقي في شرح التقريب[2]: فإتيانه بصيغة الحصر يقتضي أنه إذا نوىٰ مع القتال شيئًا آخر كان له ما نواه، وقال السمعاني في أماليه: قوله ﷺ «وإنما لكل امرئ ما نوىٰ» فيه دلالة علىٰ أن الأعمال الخارجة عن العبادة قد تفيد الثوابَ إذا نوىٰ بها فاعلُها القربةَ كالأكل والشرب إذا نوىٰ بهما القوةَ علىٰ العبادة والطاعة، والنوم إذا قصد به ترويحَ البدن للعبادة، والوطء إذا أراد به التعفُّف عن الفاحشة. ا.هـ.

واختار المصنف رحمه الله تعالىٰ التفصيلَ في ذلك، وقد أشار إليه بقوله: **(والذي ينقدح لنا فيه، والعلم عند الله)** تعالىٰ **(أن يُنظَر إلىٰ قدْر قوة البواعث، فإن كان الباعث الديني مساويًا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا، وصار العمل لا له ولا عليه. وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوىٰ فهو ليس بنافع، وهو مع ذلك مضرٌّ ومقتضٍ للعقاب)** أي إذا تساوىٰ القصدان وكانا علىٰ السواء يكون باطلاً، كما إذا كان الإخلاص منغمرًا بالنسبة إلىٰ الآخر **(نعم، العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرَّد للرياء ولم تمتزج به شائبةُ التقرُّب. وإن كان قصدُ التقرُّب أغلب بالإضافة إلىٰ الباعث الآخر فله ثواب بقدْر ما فضلَ من قوة الباعث الديني، وهذا لقوله تعالىٰ:** ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] **ولقوله تعالىٰ:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ [النساء: ٤٠] **فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير، بل إن كان غالبًا علىٰ قصد الرياء حبط منه القدرُ الذي يساويه وبقيت زيادةٌ، وإن كان مغلوبًا سقط**

(١) السابق ص ٤٨٤.
(٢) طرح التثريب ٢/ ٩ - ١٠.

بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد) وحاصله أن الباعث القوي على هذا العمل إن كان إرادة وجه الله وحصل ذلك في ضمنه فإنه يُثاب عليه، ولا نظر إلى ما عرض فيه من الحظ الدنيوي، وإن كان الشق الآخر هو الباعث القوي بحيث لو فات لم يعمله فإنه يكون باطلاً، ولا اعتبار بما عرض فيه من الإخلاص المنغمر بالقصد الدنيوي، وهذا التفصيل الذي ذكره هو أيضًا اختيار الإمام أبي العباس القرطبي(١)، وحكاه عن الجمهور **(وكشفُ الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأكُّد صفاتها(٢)، فداعية الرياء من المهلكات، وإنما غذاء هذا المهلك وقوته العمل على وفقه، وداعية الخير من المنجيات، وإنما قوتها بالعمل على وفقها، فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادَّتان، فإذا عملَ على وفق مقتضَى الرياء فقد قوَّى تلك**

---

(١) المفهم ٣/ ٧٤٢ - ٧٤٣، ونصه: «قوله ﷺ: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. يفهم منه اشتراط الإخلاص في الجهاد، وكذلك هو شرط في جميع العبادات، والمخلص في عباداته هو الذي يخلصها من شوائب الشرك والرياء، وذلك لا يتأتى له إلا بأن يكون الباعث له على عملها قصد التقرب إلى الله تعالى وابتغاء ما عنده، فأما إذا كان الباعث عليها غير ذلك من أعراض الدنيا فلا تكون عبادة، بل تكون مصيبة موبقة لصاحبها، فإما كفر وهو الشرك الأكبر، وإما رياء وهو الشرك الأصغر، ومصير صاحبه إلى النار. هذا إذا كان الباعث على تلك العبادة الغرض الدنيوي وحده بحيث لو فقد ذلك الغرض لترك العمل، فأما لو انبعث لتلك العبادة بمجموع الباعثين - باعث الدنيا وباعث الدين - فإن كان باعث الدنيا أقوى أو مساويا ألحق القسم الأول في الحكم بإبطال ذلك العمل عند أئمة هذا الشأن، وعليه يدل قوله ﷺ حكاية عن الله تعالى: من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشريكه. فأما لو كان باعث الدين أقوى فقد حكم المحاسبي بإبطال ذلك العمل متمسكا بالحديث المتقدم وبما في معناه، وخالفه في ذلك الجمهور وقالوا بصحة ذلك العمل، وهو المفهوم في فروع مالك. ويستدل على هذا بقوله ﷺ: إن من خير معاش الناس رجلا ممسكا بعنان فرسه في سبيل الله. فجعل الجهاد مما يصح أن يتخذ للمعاش، ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودا، لكن لما كان باعث الدين على الجهاد هو الأقوى والأغلب كان ذلك الغرض ملغى، فيكون معفوا عنه، كما إذا توضأ قاصدا رفع الحدث والتبرد، فأما لو تفرد باعث الدين بالعمل ثم عرض باعث الدنيا في أثناء ذلك العمل فأولى بالصحة».

(٢) في الجميع: بتأكيد.

الصفةَ، وإذا كان ذلك العمل علىٰ وفق مقتضَىٰ التقرُّب فقد قوَّىٰ أيضًا تلك الصفةَ، وأحدهما مهلك، والآخر منجٍ، فإن كانت تقوية هذا بقدْر تقوية الآخر فقد تقاوما، فكان كالمستضرِّ بالحرارة إذا تناول ما يضرُّ) المزاجَ (ثم تناول من المبرَّدات ما يقاوم قدْر قوته فيكون بعد تناولهما كأنَّه لم يتناولهما) فهذا معنىٰ تقاوُمِهما (وإن كان أحدهما غالبًا لم يخْلُ الغالبُ عن أثر) لا محالة (فكما لا يضيع مِثقال ذرَّة من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفكُّ عن أثر في الجسد بحكم سنَّة الله تعالىٰ فكذلك لا يضيع مثقال ذرَّة من الخير والشر ولا ينفكُّ عن تأثير في إنارة القلب أو تسويده، وفي تقريبه من الله أو إبعاده، فإذا جاء بما يقرِّبه شبرًا مع ما يبعده شبرًا فقد عاد إلىٰ ما كان فلم يكن له ولا عليه، فإن كان الفعل ممَّا يقرِّبه شبرين والآخر يبعده شبرًا واحدًا فضلَ له لا محالة شبرٌ، وقد قال النبي ﷺ: أتبع السيئة الحسنة تمحُها) تقدَّم في رياضة النفس وفي التوبة (فإن كان الرياء المحض يمحوه الإخلاصُ المحض عقيبه فإذا اجتمعا جميعًا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة، ويشهد لهذا) التفصيل (إجماعُ الأمَّة علىٰ أن مَن خرج حاجًّا ومعه تجارة صح حجُّه وأثيبَ عليه، وقد امتزج به حظٌّ من حظوظ النفس) وقال تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٨] وأنها نزلت لمَّا تحرَّجوا من التجارة في الحج (نعم، يمكن أن يقال: إنما يُثاب علىٰ أعمال الحج عند انتهائه إلىٰ مكة، وتجارته غير موقوفة عليه، فهو خالص، وإنما المشترَك طول المسافة، ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة. ولكن الصواب أن يقال: مهما كان الحج هو المحرِّك الأصلي وكان غرض التجارة كالمُعين والسفر التابع فلا ينفكُّ نفسُ السفر عن ثواب) قال الصلاح العلائي في مقدمة الأربعين[1]: وقد يقال: إن الآية محمولة علىٰ ما إذا عرضت التجارةُ في موسم الحج من غير قصد لها، بدليل الأحاديث السابقة، ولو

---

(١) لعله «الأمالي الأربعين في أعمال المتقين» أو الأربعين الكبرىٰ، ولم أقف عليه، وللحافظ العلائي أربعينيات أخرىٰ غير هذا، والله أعلم.

كان إنشاء السفر للحج والتجارة جميعًا فنقول: إنه لا يُثاب علىٰ ذلك السفر، كما دلَّت عليه الأحاديثُ، وأما أفعال الحج من الإحرام وما بعده فإذا وقعت خالصةً أثيبَ عليها، ولا تنافيها التجارةُ، فيكون هو الذي دلَّت عليه الآية، قالوا: ويشهد لهذا التفصيل أيضًا قولُه ﷺ: «إنَّ من خير معاش الناس الجهاد»، فجعل الجهاد ممَّا يصح أن يُتخَذ للمعاش، ومن ضرورة ذلك أن يكون مقصودًا. قال الصلاح: لم أرَه هكذا مسنَدًا، وبتقدير صحته فإنما سمَّاه معاشًا لِما يعرض فيه غالبًا من المغانم، ولا يلزم من ذلك أن يكون مقصودًا (**وما عندي أن الغزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقةً بين غزو الكفار في جهة تكثر فيها الغنائمُ وبين جهة لا غنيمة فيها، ويبعُد أن يقال: إدراك هذه التفرقة يحبط بالكلِّية ثوابَ جهادهم، بل العدل أن يقال: إذا كان الباعث الأصلي والمزعج القوي هو إعلاء كلمة الله تعالىٰ وإنما الرغبة في الغنيمة علىٰ سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب. نعم، لا يساوي ثوابُه ثوابَ مَن لا يلتفت قلبه إلىٰ الغنيمة أصلاً، فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة**.

فإن قلت: فالآيات والأخبار تدل علىٰ أن شوب الرياء محبط للثواب، وفي معناه شوب طلبِ الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ) وتقدَّم في جملة أفرادها تقديم أحد الجهادين علىٰ غيره طلبًا للغنيمة (**فقد روىٰ طاووس**) ابن كيسان اليماني (**وعدة من التابعين**) كمجاهد وسعيد بن جبير والحسن (**أن رجلاً سأل النبيَّ ﷺ عمَّن يصطنع المعروف - أو قال: يتصدَّق - فيحب أن يُحمَد ويؤجَر، فلم يدرِ ما يقول له حتىٰ نزلت ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾** [الكهف: ١١٠] **وقد قصد الأجرَ والحمد جميعًا**) رواه عبد الرزاق وابن أبي الدنيا في الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم نحوه عن طاووس بلفظ: قال رجل: يا نبي الله، إني أقف [المواقف] أبتغي وجهَ الله وأحب أن يُرَىٰ موطني. فلم يردَّ عليه شيئًا حتىٰ نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الآية. هكذا رووه مرسلاً من رواية طاووس وقد تقدَّم في ذم الجاه والرياء، ورواه الحاكم أيضًا وصحَّحه

والبيهقي موصولاً عن طاووس عن ابن عباس. وروىٰ ابن المنذر من طريق ابن جريج عن مجاهد قال: قال رجل: يا رسول الله، أعتق وأتصدَّق وأحب أن يُرَىٰ. فنزلت. ورواه هنَّاد في الزهد بلفظ: جاء رجل إلىٰ النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أتصدَّق بالصدقة وألتمس بها ما عند الله وأحب أن يقال لي خيرًا. فنزلت[١].

(وروىٰ معاذ) بن جبل رضي الله عنه (عن النبي ﷺ أنه قال: أدنىٰ الرياء شركٌ) رواه الطبراني والحاكم، وقد تقدم في ذم الجاه والرياء.

(وقال أبو هريرة) رضي الله عنه: (قال النبي ﷺ: يقال لمَن أشرك في عمله: خذْ أجرَك ممَّن عملتَ له[٢]) قال العراقي[٣]: تقدم في ذم الجاه والرياء من حديث محمود ابن لبيد بنحوه[٤].

قلت: وروىٰ ابن سعد[٥] وأحمد[٦] والترمذي[٧] وابن ماجه[٨] والبيهقي[٩] من حديث أبي سعد بن أبي فَضالة الأنصاري، وكان من الصحابة: «إذا جمع الله الأوَّلين والآخِرين ليوم لا ريب فيه نادىٰ منادٍ: من كان أشرك في عملٍ عملَه لله أحدًا فليطلب ثوابَه من عند غير الله، فإن الله أغنىٰ الشركاء عن الشرك».

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها في كتاب ذم الجاه والرياء، وفي بيان فضيلة الإخلاص.

(٢) كذا هو في الرعاية للحارث المحاسبي ص٢٣٨ (ط العلمية)، وعنه ينقل الغزالي.

(٣) المغني ٢/ ١١٧٨.

(٤) وقد روىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٠٣ عن الفضيل بن عياض قوله: «ليتني أموت وأنا مخلط، أخاف أن أموت وأنا مرائي، يدعىٰ بي يوم القيامة علىٰ رؤوس الخلائق: يا فضيل، خذ أجرك ممن عملت له».

(٥) الطبقات الكبرىٰ ٥/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٦) مسند أحمد ٢٥/ ١٦١، ٢٩/ ٤١٨.

(٧) سنن الترمذي ٥/ ٢٢٠.

(٨) سنن ابن ماجه ٥/ ٦١٣.

(٩) شعب الإيمان ٩/ ١٤٥.

(ورُوي عن عُبادة) بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: **(إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا أغنىٰ الأغنياء عن الشركة، مَن عمل لي عملاً فأشرك معي غيري ودعتُ نصيبي لشريكي**[١]**)** قال العراقي[٢]: رواه مالك في الموطأ بلفظ «فهو له كله»[٣].

قلت: ورُوي نحوه من حديث الضحَّاك بن قيس: «إن الله تعالىٰ يقول: أنا خير شريك، فمَن أشرك معي شيئًا فهو لشريكي». رواه الدارقطني[٤] وابن عساكر[٥] والضياء[٦]. ورواه الخطيب في المتفق والمفترق[٧] بزيادة: «يا أيها الناس، أخلِصوا أعمالكم لله، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلُصَ له». ويُروَىٰ من حديث شدَّاد بن أوس بلفظ: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: أنا خير قسيم لمَن أشرك بي، مَن أشرك بي شيئًا فإنَّ عمله قليله وكثيره لشريكي الذي أشرك بي، أنا عنه غنيٌّ». رواه الطيالسي[٨] وأحمد[٩] وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية[١٠]، وإسناده ضعيف. ورواه مسلم[١١] وابن خزيمة[١٢] من حديث أبي هريرة بلفظ: «أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، فمَن عمل عملاً فأشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك».

---

(١) الرعاية للحارث المحاسبي ص٢٣٨ (ط العلمية).

(٢) المغني ٢/ ١١٧٧.

(٣) كما في رواية ابن عفير، وأخرجه الجوهري في مسند الموطأ ص٤٨٩، ٤٩٠ من طريق ابن وهب عن مالك به. وانظر: أحاديث الموطأ للدارقطني ص٢٦.

(٤) سنن الدارقطني ١/ ٧٧.

(٥) تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٨١.

(٦) الأحاديث المختارة ٨/ ٩٠.

(٧) المتفق والمفترق ٢/ ١٢٢٨.

(٨) مسند الطيالسي ٢/ ٤٤٤.

(٩) مسند أحمد ٢٨/ ٣٦٤.

(١٠) حلية الأولياء ١/ ٢٦٩.

(١١) صحيح مسلم ٢/ ١٣٦١.

(١٢) صحيح ابن خزيمة ١/ ٦٨.

(وروى أبو موسى) الأشعري رضي الله عنه (أن أعرابيًا أتى رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حميةً، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليُرَى مكانه في سبيل الله) فأيُّهم في سبيل الله؟ (فقال ﷺ: مَن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) رواه أحمد والستة، وقد تقدم.

(وقال عمر رضي الله عنه: تقولون: فلان شهيد، ولعله أن يكون قد ملأ دفَّتي راحلته ورِقًا)[1] أي من الغنيمة.

(وقال ابن مسعود رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: مَن هاجر يبتغي شيئًا من الدنيا فهو له) رواه سعيد بن منصور قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، عن عبد الله قال: مَن هاجر يبتغي شيئًا فإنما له ذلك، هاجر رجلٌ ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس، فكان يقال له: مهاجر أم قيس. وقد تقدَّم.

وهذه الأخبار والآثار التي ساقها المصنف تصلُح أن تكون حُجة لِما ذهب إليه المحاسبي واختاره العز ابن عبد السلام، وقد أشار المصنف إلى الجواب عنها بقوله: (فنقول: هذه الأحاديث لا تناقضُ ما ذكرناه) أولاً (بل المراد بها مَن لم يُرِدْ بذلك إلا الدنيا، كقوله: مَن هاجر يبتغي شيئًا من الدنيا. أو[2] كان ذلك) أي قصدُ الرياء (هو الأغلب على همِّه، وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان، لا لأنَّ طلب الدنيا حرام، ولكنَّ طلبها بأعمال الدين حرام؛ لِما فيه من الرياء وتغيير العبادة عن موضعها. وأما لفظ «الشركة» حيث ورد فمطلق للتساوي) أي يساوي كلٌّ منهما الآخَرَ من غير زيادة من أحد الجانبين (وقد بيَّنَّا أنه إذا تساوى القصدانِ تقاوما ولم يكن له ولا عليه، فلا ينبغي أن يُرجَى عليه ثواب. ثم إن الإنسان عند الشركة أبدًا في خطر، فإنه لا يدري أيّ الأمرين أغلب على قصده، فربما يكون عليه وبالاً، ولذلك

---

(١) تقدم في كتاب ذم الجاه والرياء.

(٢) في الجميع: وكان ذلك ...إلخ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠] أي لا يُرجَىٰ اللقاء مع الشركة التي أحسن أحوالها التساقُط. ويجوز أن يقال أيضًا: منصب الشهادة) عزيز (لا يُنال إلا بالإخلاص في الغزو، وبعيد أن يقال: مَن كانت داعيته الدينية بحيث تزعجه إلىٰ مجرَّد الغزو وإن لم تكن غنيمةٌ وقدرَ علىٰ غزو طائفتين من الكفار إحداهما غنيَّة) أصحاب أموال ومواشٍ وأثاث (والأخرىٰ فقيرة) لا شيء لهم (فمالَ إلىٰ جهة الأغنياء لإعلاء كلمة الله وللغنيمة أنه لا ثواب له علىٰ غزوه البتَّة) وأنه قد حبط عملُه بالمرَّة (ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك، فإنَّ هذا حرجٌ في الدين، ومَدخل لليأس علىٰ المسلمين؛ لأن أمثال هذه الشوائب التابعة قد لا ينفكُّ الإنسان عنها إلا علىٰ الندور) والقلة (فيكون تأثير هذا في نقصان الثواب، فأما أن يكون في إحباطه فلا) هذا آخر ما يتعلق بالتفصيل الذي ذهب إليه، وهو أمرٌ بين أمرين، فإن المحاسبي ومَن تبعه اختاروا الأشدَّ والأشقَّ، ومن قال إنه يُثاب مطلقًا ولا تأثير فيه للرياء فقد اختار الأخفَّ (نعم، الإنسان فيه علىٰ خطر عظيم؛ لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوىٰ هو قصدُ التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ، ويكون الأغلب علىٰ سرِّه الحظ النفسي، وذلك ممَّا يخفَىٰ غاية الخفاء، فلا يحصل الأجر إلا بالإخلاص، والإخلاص قلَّما يستيقنه العبدُ من نفسه وإن بالغ في الاحتياط، فلذلك ينبغي أن يكون أبدًا بعد كمال الاجتهاد) في كل عمل من أعماله (متردِّدًا بين الرد والقبول، خائفًا) وجِلاً (أن تكون في عبادته آفة) ما شعر بها (يكون وبالُها أكثر من ثوابها) ويعتقد بذلك أنه متقرِّب وهو متباعد، فعسىٰ أن يكون خوفه وإشفاقه كفَّارة للآفة الداخلة عليه، ويرجو من فضل الله وسعة جوده أن لا يؤاخذه بما خرج عن علمه بعد جدِّه واجتهاده (وهكذا كان الخائفون من ذوي البصائر، وهكذا ينبغي أن يكون كل ذي بصيرة) كمَن أدرج في رَحْله ماءً ثم صلىٰ بعد جهده وإمعانه في الطلب ثم بان له بعد ذلك أنه كان في رحله ماء، فقد قطع الفقهاء بأن لا قضاء عليه في هذه الصورة، وهذا القياس لا يصح إلا في رتبة المعاونة والموافقة، وأما رتبة المشاركة فلا يصح؛ لأن الماء له بدلٌ، والإخلاص لا بدل له، بل يجب

في رتبة المشاركة في الرياء المجرَّد عن الإخلاص التوبة وقضاء ما يجب قضاؤه من صلاة وزكاة وصوم، ولذلك لا يفارقك الخوف والرجاء لجبران الآفات المُنقِصة لكمال الإخلاص إلىٰ أن ينتهي إلىٰ حالة لا يصح فيها الخوف والرجاء، فحينئذٍ يا سعادة المقرَّبين (**ولذلك قال سفيان**) الثوري رحمه الله تعالىٰ: (**لا أعتدُّ بما ظهر من عملي**) نقله صاحب القوت.

(**وقال عبد العزيز بن أبي رَوَّاد**) روىٰ له البخاري تعليقًا والأربعة، مات سنة تسع وخمسين ومائة (**جاورت هذا البيتَ ستين سنة، وحججت ستين حَجة، فما دخلت في شيء من أعمال الله إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيبَ الشيطان أوفىٰ من نصيب الله، ليته لا لي ولا عليَّ**)[1] نقله صاحب القوت.

(**ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء**) أي خشية دخولهما فيه (**فإنَّ ذلك منتهَىٰ بغية**) عدوِّه (**الشيطان منه؛ إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، ومهما ترك العمل فقد ضيَّع العملَ والإخلاص جميعًا**) وتركُ العمل في هذه الصورة جهلٌ، كما أنَّ ترك العمل عند دخول العلة عليه وهنٌ (**وقد حُكي أن بعض الفقراء كان يخدم أبا سعيد**) أحمد بن عيسىٰ (**الخَرَّاز**) رحمه الله تعالىٰ (**ويخفُّ**) بين يديه (**في أعماله**) وحوائجه، ويخدم أصحابه ويسارع في قضاء حوائجهم (**فتكلم أبو سعيد يومًا في الإخلاص، يريد إخلاص الحركات، فأخذ الفقير يتفقَّد قلبَه عند كل حركة ويطالبه بالإخلاص، فتعذَّر عليه قضاء الحوائج**)

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٩٢٩. وروىٰ السمعاني في معجم شيوخه ٢/ ٦٦٥ من طريق أبي بكر محمد بن عبد الله الرازي قال: سمعت أبا الطيب التاهرتي بمكة في وقت وفاته قال: جاورت هذا البيت ثمانين سنة، وحججت ثمانين حجة، واعتمرت عشرين ألف عمرة، وختمت القرآن في الطواف كل يوم ختمة، ومذ ستين سنة لم أطعم نفسي إلا في وقت إحلال الميتة، ومع هذا كله لم أدخل في عمل من أعمال البر ثم فرغت وخرجت منه فحاسبت نفسي إلا وجدت نصيب الشيطان منه أوفر من نصيب الله تعالىٰ. ثم رفع رأسه إلىٰ السماء وبكىٰ وقال: يا رب، رأسا برأس من هذا كله، لا لي ولا عليَّ.

ممَّا كان يعمله لأبي سعيد وأصحابه من الخفَّة والمسارعة وتركه (**واستضرَّ الشيخ بذلك، فسأله عن أمره**) وقال له: يا بني، قد كنت تسعىٰ في حوائج إخوانك ثم قطعتَ ذلك، فما السبب؟ (**فأخبره**) الفقير (**بمطالبته نفسه بحقيقة الإخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فيتركها**) أي خشية أن تكون أعماله مدخولة (**فقال**) له (**أبو سعيد: لا تفعل، إن الإخلاص لا يقطع المعاملة**) ولا ينبغي للعاقل أن يترك العمل لأجل الإخلاص فيفوته الإخلاص والعمل (**فواظب علىٰ العمل، واجتهد في تحصيل الإخلاص، فما قلتُ لك: اترك العمل، وإنما قلت لك: أخلِص العمل**) فإنَّ طلبك للإخلاص قد قطعك عن عمل البِر، وقد أضرَّ ذلك بنا، فارجعْ إلىٰ ما كنت فيه وأخلِص فيه لله تعالىٰ. نقله صاحب القوت.

(**وقد قال الفضيل**) بن عياض رحمه الله تعالىٰ: (**تركُ العمل بسبب الخلق رياءٌ، وفعلُه لأجل الخَلق شركٌ**) نقله القشيري، وقد تقدَّم قريبًا بسنده.

ولنختم هذا البابَ بذكر ما يتعلق بالإخلاص، قال القشيري في الرسالة: قال سهل: لا يعرف الرياء إلا مخلص(١).

وقال حذيفة المرعشي: الإخلاص أن تستوي أفعالُ العبد في الظاهر والباطن.

وقال السري: مَن تزيَّن للناس بما ليس فيه سقط من عين الله.

وقال بعضهم: دخلت علىٰ سهل بن عبد الله يوم جمعة قبل الصلاة بيتًا، فرأيت في البيت حيَّة، فجعلت أقدِّم رجلاً وأؤخِّر أخرىٰ، فقال: ادخلْ، لا يبلغ أحدٌ حقيقةَ الإيمان وعلىٰ وجه الأرض شيء يخافه. ثم قال: هل لك في صلاة الجمعة؟

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٨٨، وزاد: «ولا يعرف النفاق إلا مؤمن، ولا يعرف الجهل إلا عالم، ولا يعرف المعصية إلا مطيع». وروىٰ مثله في مناقب الشافعي ٢/ ١٧٣ عن الإمام الشافعي بدون هذه الزيادة.

فقلت: بيننا وبين المسجد مسيرة يوم وليلة. فأخذ بيدي، فما كان إلا قليل حتىٰ رأيت المسجد، فدخلنا وصلَّينا الجمعة، ثم خرجنا، فوقف ينظر إلىٰ الناس وهم يخرجون، فقال: أهل لا إله إلا الله كثير، والمخلصون منهم قليل.

وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إذا أخلص العبد انقطعت عنه كثرةُ الوسواس والرياء[1]. ا.هـ.

وقال صاحب القوت: سُمِّيت سورة «قل هو الله أحد» سورة الإخلاص لأنها خالصة في ذكر صفات الله تعالىٰ وحده، لا يختلط بذكر جنة ولا نار، ولا وعد ولا وعيد، ولا أمر ولا نهي، وكذلك قيل: سورة التوحيد؛ إذ لا شريك فيها من سواه. قال: ومَن ألهمه الله إخلاصَ النية وزاده معرفةَ الإخلاص أخرجه ذلك إلىٰ الهرب من الناس لتخلُص له معاملتُه؛ لأنه ينظر بعين اليقين، وإذًا ليس ينفعه شيء إلا شيء بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، لا شريك فيه لسواه، وهذا المعنىٰ هو الذي أخرج طائفةً من الأبدال إلىٰ الكهوف تخلِّيًا من أبناء الدنيا لخلاص أعمالهم من النظر إليهم، فهم وإن فارقوا فضائل الأعمال من صلاة الجماعة وغيرها فقد تقرَّر عندهم أن اجتناب معصية واحدة عندهم أفضل من ذلك[2]، والجاهل بالله تعالىٰ يعمل في طلب الفضائل، ولا يبالي بيسير الذنوب، وفيها بُعدٌ عن الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ذلك طريق المقرَّبين. وقال بعضهم: إنما أبعد القلبَ من الله تعالىٰ مظاهرة أعمال الجوارح بغير مواطأة من القلب بصحة القصد. يعني بذلك نقص الإخلاص بها لأجل الله تعالىٰ. قال: وأصح الأعمال وأخلصُها ما كان الله تعالىٰ هو الأول في أولها، ومع العامل في أوسطها، والعبد عنده فيها، والله هو الآخِر عند آخرها، ثم لا يظهرها بعد ذلك، ولا يتظاهر بها، ولا يطالع عوضًا عنها من الكبير الأكبر، بل ينساها ويشتغل

---

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ١٤٠.

(٢) في القوت: «فقد تقرر عندهم أن اجتناب معصية واحدة خير من عمل سبعين طاعة، فلذلك فارقوا فضول النوافل خشية دخول معصية واحدة عليهم».

بذكر مولاه عنها. قال: ومن المناقض المشبهة للفضائل الملتبسة على الأفاضل لشهرة فضلها وروغة العموم للدخول فيها[١] والصبر عليها، وهي منكشفة للعلماء بالله عز وجل: ما رُوي أن رجلين تواخيا في الله عز وجل بعد رفعِ عيسى عليه السلام إلى السماء، فترهَّب أحدُهما واسمه سرجس، ولزم أخوه الآخرُ الجماعةَ والمساجد ومخالطة الناس، وكان أعلم منه بالله عز وجل، وكان يلقَى أخاه سرجسَ فيقول: يا أخي، إن هذا الأمر الذي دخلتَ فيه بدعة، وإنَّ عليك فيه رعاية لا تقوم بحقِّها، وإنه ليس لله فيها رضا، فلو دخلتَ معي في الجماعة والألفة كان ذلك لله عز وجل رضا وأصبتَ السنَّة. وكان المترهِّب يعرض عنه ولا يعبأ برأيه ويقول له: إنك قد ركنتَ إلى الدنيا وأنست بالخلق. فلمَّا أعياه قال له: فاجعلْ فطرك عندي الليلة حتى يتبيَّن لك. ففعل، فقدَّم إليه فرخين شواهما وقال له: تعالَ حتى نجعل هذين الفرخين قاضيين بيننا، فأيُّنا كان على الحق ظهر أمرُه. قال: وكيف يقضيان بيننا؟ قال: حتى يدعو اللهَ كلُّ واحد منا، فمَن كانت سيرته وهَدْيه أحب إلى الله تعالى يبعث بدعائه هذين الفرخين حتى يطيرا حيَّينِ. قال: نعم، فادْعُ. فدعا الراهب فقال: اللهم إن كان هذا الأمر الذي دخلتُ فيه أريد به رضاك أقرب إلى الحق ممَّا يدعوني إليه أخي هذا فابعثْ هذين الفرخين لي. قال: فلم يُجَبْ. فقال الآخر: اللهم إن كان هذا الأمر الذي تمسَّكتُ به وخالفت فيه هذا وأصحابه أقرب إلى الحق وأرضاه عندك ممَّا يدعوني إليه أخي هذا من الاعتزال والفُرقة للجماعة فابعثْ لي هذين الفرخين. قال: فصارا حيَّينِ وطارا بإذن الله تعالى، فعلمَ الآخرُ أنَّ ذلك ليس فيه لله رضا، فرجع إلى الجماعة والمساجد.

قال: ومن التباس الفضائل العالية تركُ العبد حاله في مقامه طلبًا للفضيلة ليزداد بها قربةً إلى الله، فينقلب عليه فيهلك ما أدخل [العدوُّ] على برصيصا العابد في تعليم الاسم الأعظم، وقصته مشهورة.

---

(١) في القوت ص ١٣٦٥ (ط التراث): وروعة الهموم للدخول فيها.

فالعالِم عند العلماء مَن علمَ خير الخيرين فسبق إليه قبل فوته، وعلم شرَّ الخيرين فأعرض عنه لئلاً يشغله عن الأَخْيَر منهما، وعلم أيضًا خير الشرَّين ففعله إذا اضطرَّ إليه وابتُلي به، وعلم شر الشرين فأمعن في الهرب منه، وهذا من دقائق العلوم.

وقال منصور: المداومة علىٰ العمل حتىٰ يخلص أشد من العمل[1]. وقال عبد العزيز بن أبي رَوَّاد: أدركتهم يجتهدون في العمل الصالح، فإذا بلغوه وقع عليهم الهمُّ أيُتقبَّل منهم أم لا[2]. وقال مالك بن دينار: الخوف علىٰ العمل أن لا يُتقبَّل أشد من العمل[3]. وقال النباجي: للعمل أربع خصال لا يتمُّ إلا بهنَّ: معرفة الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة الحق، والإخلاص به، والعمل علىٰ السنَّة، فأيُّ عمل كان قبل هذه الأربع لم ينفع. وقال عبد الرحمن بن مربح: مَن قام إلىٰ شيء من الخير لا يريد به إلا الله عَزَّوَجَلَّ ثم عرض له مَن يريد أن يرائيه بذلك أعطاه الله عَزَّوَجَلَّ بالأصل ووضع عنه الفرع، ومَن قام إلىٰ شيء من الخير لا يريد به إلا المراءاة ثم ذكر وبدا له فجعل آخر ذلك لله عَزَّوَجَلَّ أعطاه الله بالفرع ووضع عنه الأصل، كأنَّه حُسب له ذلك توبة، والتوبة مكفِّرة لِما سلف.

قال: وقد تلتبس الفضائل بالمناقض لدقَّة معانيها وخفيِّ علومها، كصلاة العبد النفل وهو يحسب أنه الأوجب، ومن ذلك أن رجلاً كان يصلي، فدعاه رسول الله ﷺ فلم يجبه، فظنَّ أن وقوفه بين يدي الله تعالىٰ بالغيب أفضل له، فلمَّا سلَّم جاءه، فقال له النبي ﷺ: «ما منعك أن تجيبني حين دعوتك»؟ فقال:

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٢١ عن عبد الله بن مطرف بلفظ: «تخليص العمل حتىٰ يخلص أشد من العمل، والاتقاء علىٰ العمل بعدما يخلص أشد من العمل».

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ١٠٨ بلفظ: «أدركتهم يجتهدون في الأعمال، فإذا بلغوها ألقي عليهم الهم والحزن لا يدرون قبلت منهم أو ردت عليهم».

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٣٧٧.

كنت أصلي. فقال: «ألم تسمع الله يقول: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [الأنفال: ٢٤] فكانت إجابته النبيَّ ﷺ أفضل له؛ لأن صلاته نافلة له، وإجابته للرسول فرض عليه. وقال بعضهم: مَن كان طلبُ الفضائل أهم إليه من أداء الفرائض فهو مخدوع، ومَن شُغل بغيره عن نفسه فقد مُكِر به. فأفضل شيء للعبد معرفته لنفسه، ثم وقوفه علىٰ حدِّه، ثم إحكامه لحاله التي أقيمَ فيها، ثم قيامه بعلمه الذي فُتح له، فيبتدئ بالعمل بما افتُرِض عليه بعد اجتنابه ما نُهي عنه مَبلغ علمه ووسع وَجْده، ولا يشتغل بطلب فضل حتىٰ يُحكِم عمل فرضٍ؛ لأن الفضل ربحٌ لا يصح إلا بعد رأس المال، ولكل فضل آفةٌ قاطعة، فمَن سَلِمَ منها حاز فضلَه، ولكل أمر نفيس مؤنةٌ ثقيلة، فمَن تحمَّلها أدرك نفيسَها، ومَن تعذَّرت عليه فهيهات هيهات أن يصل إلىٰ أفضل كرامة، ومَن لم يصبر علىٰ تحمُّل غرامة لم يدرك علوَّ مقامه. وقد يلتبس التكلُّف بالإخلاص، وإظهار العلم بظهور التزيُّن به. قال الثوري: زيِّنْ نفسَك بالعلم، ولا تتزيَّن به. أي أدِّبْها لله تعالىٰ لتكون زينًا في أوليائه، ولا تتزيَّن به عند الناس ليمدحوك عليه. وقد يلتبس الاختيار بالاختبار، فالاختبار ما كان عن حاجة وتطرَّقتَ به إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، والاختيار ما زاد في الشهوة وكان سلَّمًا لك إلىٰ الخَلق، كالتباس سترِ العورة من الثياب بالفاخر منها للنعمة والتكثُّر من الأسباب، وقد يتطوَّع العبد بعمل يضيع به فرضًا، وإحكام الفرض لحوز السلامة هو الفضل، وقد رُوي: «إذا دُعي أحدكم إلىٰ طعام فإن كان مفطرًا فليجِبْ، وإن كان صائمًا فليقل: إني صائم». فأمره بإظهار عمله، وهو يعلم أن الإخفاء أفضل، ولكن إظهار عملِه من حيث لا يؤثِّر في قلب أخيه وجدًا أفضل من إخفائه لنفسه، مع تأثير ذلك في قلب أخيه؛ لتفضيل العمَّال علىٰ الأعمال؛ إذ الأعمال موقوفة علىٰ العامل، فإنما يُعطَىٰ الثواب علىٰ قدْر العامل لا علىٰ قدر العمل؛ لتضعيف الجزاء لمَن يشاء علىٰ غيره في العمل الواحد، فدل أن المؤمن أفضل من العمل، فقيل له: ارفع التأثير والكراهة عن قلب أخيك بإظهار عملك، فهو خير لك من إخفاء العمل، مع وجدِ أخيك عليك؛ لأن أخاك إذا دعاك إلىٰ

طعام صنعه لك فلم تجبْه ولم تعتذر إليه عذرًا بيِّنًا يقبله منك ويعرفه شقَّ ذلك عليه إن كان صادقًا في دعائك. انتهىٰ سياق القوت.

قال السيوطي: قال القرطبي[١] في قوله ﷺ «وإنما لامرئ ما نوىٰ» بعد قوله «إنما الأعمال بالنيات» تحقيق لاشتراط النية والإخلاص في الأعمال.

قال العراقي[٢]: فجعله للتأكيد، ولا شك أن التأسيس أَولىٰ منه.

وقال الشيخ العز ابن عبد السلام: وإنما يحصل لكل امرئ ثوابُ العمل الذي نواه. قال: وبهذا التقرير تكون الجملة الأولىٰ لبيان [ما نوىٰ من الأعمال الدنيوية، والثانية لبيان] ما يترتَّب عليها من الثواب في الدار الآخرة.

وقال الطيبي[٣]: فُهم من الأولىٰ أن الأعمال لا تكون محسوبة ومسقطة للقضاء إلا إذا كانت مقرونة بالنيات، ومن الثانية أن النيات إنما تكون مقبولة إذا كانت مقرونة بالإخلاص، فالأول قصرُ المسند إليه [علىٰ المسند] والثاني عكسه.

وقال العماد الإسنوي في كتابه «حياة القلوب»[٤]: الفرق بين النية والإخلاص هو أن النية تتعلَّق بفعل العبادة، وأما إخلاص النية في العبادة فيتعلَّق بإضافة العبادة إلىٰ الله تعالىٰ، ويكفيه في إخلاص العبادة أن يتقدَّم منه أنه مهما فعل من العبادة إنما يفعله لله خالصًا، فيجزئه هذا الإخلاص الحُكميُّ من أول العمل إلىٰ آخره، والأَولىٰ أن يأتي في أول كل فعل بنية الإخلاص فيه كما يأتي بذلك في نية العبادة مثل الصلاة وتشييع الجنازة، والإخلاص الحُكمي والحقيقي مشروط فيه عدم طروء ما يناقضه كما في نية العبادة.

---

(١) المفهم ٣/ ٧٤٤.

(٢) طرح التثريب ٢/ ١٠.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن ٢/ ٤١٨.

(٤) حياة القلوب في كيفية الوصول إلىٰ المحبوب ٢/ ٦٥ [بهامش قوت القلوب / ط - المطبعة الميمنية].

وأخرج ابن أبي الدنيا في الإخلاص والدينوري في المجالسة[1] عن عمر رضي الله عنه قال: من خلصت نيتُه ولو علىٰ نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس.

وأخرج البيهقي في الشعب[2] عن يونس بن عبد الأعلىٰ قال: قال لي الشافعي: يا أبا موسىٰ، لو جهدتَ كلَّ الجهد علىٰ أن ترضي الناسَ كلَّهم فلا سبيل إليه، فإذا كان كذلك فأخلِص عملك ونيَّتك لله تعالىٰ.

وأخرج[3] عن سهل بن عبد الله قال: اطلبوا من السر النيةَ بالإخلاص، ومن العلانية الفعلَ بالاقتداء، وغير ذلك مغاليط.

وقال ابن عطاء الله في كتابه الحِكَم[4]: لا ترحل من كون إلىٰ كون فتكون كحمار الرحىٰ يسير، والذي ارتحل إليه هو الذي ارتحل منه، ولكن ارحلْ من الأكوان إلىٰ المكوِّن ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ [النجم: ٤٢] وانظر إلىٰ قوله ﷺ: «فمَن كانت هجرته إلىٰ الله ورسوله فهجرته إلىٰ الله ورسوله، ومَن كانت هجرته إلىٰ دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»، فافهمْ قولَه ﷺ «إلىٰ ما هاجر إليه»، وتأمَّل هذا الأمر إن كنتَ ذا فهم تفهم، والسلام.

قال شارحه ابن عبَّاد: العمل علىٰ طلب الدرجات ونيل الرتب العلية والمقامات نقصان في الحال وشوبٌ في إخلاص الأعمال، وهو معنىٰ الرحيل من كون إلىٰ كون، وسبب ذلك بقاء اعتبار النفس في أن تحصل لها رتبة وأن تنال بسعيها موهبةً، وهذه كلها من الأكوان، والأكوان [كلها] متساوية في كونها أغيارًا، وإن كان بعضها أنوارًا، وتمثيله بحمار الرحىٰ مبالغة في تقبيح حال العاملين علىٰ رؤية الأغيار، وتلطُّف في دعائهم إلىٰ حسن الأدب بين يدي الواحد القهَّار حتىٰ

---

(١) المجالسة وجواهر العلم ٨/ ٢٦٨.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٢٠١.

(٣) السابق ٩/ ١٨٢.

(٤) الحكم العطائية بشرح ابن عباد الرندي ص ٥٣، ١٨٩ - ١٩١.

يتحقَّقوا بمعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ فيكون انتهاء سيرهم إليه وعكوف قلوبهم عليه، وتكون أعمالهم إذ ذاك وفاءً بمقتضَىٰ العبودية، وقيامًا بحقوق الربوبية [فقط] من غير التفات إلىٰ النفس علىٰ أيِّ حالة تكون، فهذا هو تحقيق الإخلاص الكائن علىٰ مشاهدة التوحيد الخاص. قال: وفي هذا الحديث النبوي تنبيهٌ علىٰ المعنىٰ الذي ذكره، وموضع الاعتبار والتأمُّل هو - والله أعلم - قوله في القسم الثاني من الحديث «فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه»، أي ولا نصيب له من الوصول والقرب الذي حظي به مَن هاجر إلىٰ الله تعالىٰ ورسوله، وهذا من باب حصر المبتدأ في الخبر، كما تقول: زيد صديقي، أي لا صديق له غيري. وكأنَّه ﷺ نبَّه بالقسم الثاني بالدنيا التي يريد أن يصيبها والمرأة التي يريد أن يتزوجها علىٰ حظوظ النفس والوقوف معها والعمل عليها كائنة ما كانت وإن كان ظاهره طلب الحظ العاجل، فقوله «فهجرته إلىٰ ما هاجر إليه» هو البقاء مع الأكوان والتنقُّل فيها، وهو الذي نُهي عنه، وهو مشار به غير مصرَّح، فليكن المريد عالي الهمَّة والنيات حتىٰ لا يكون التفاته إلىٰ غير ولا كون البتَّة[1]. والله أعلم.

---

(١) انظر: الدرر الجوهرية في شرح الحكم العطائية للمناوي ص ٢٣٢- ٢٣٥ (ط الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة).

الباب الثالث:

في الصدق وفضيلته وحقيقته

ويضاف إليه الانفصال والاتصال والتحقيق والتفريد؛ لأنهن من علاماته.

فضيلـــة الصـدق

من الآيات والأخبار؛ فمن ذلك (**قال الله تعالىٰ:** ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِ ﴾) [الأحزاب: ٢٣] فأثنىٰ عليهم بالصدق ووصفهم به، ولولا أنه من فضائل الأعمال ما وصفهم بذلك. وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩] وقال أحمد بن خضرويه: من أراد أن يكون الله معه فليلزم الصدقَ، فإنَّ الله تعالىٰ قال: إن الله مع الصادقين.

(**وقال النبي ﷺ: إن الصدق يهدي إلىٰ البر**) أي[١] يوصل صاحبه إليه. والبِر بالكسر اسم يجمع الخير كلَّه، وقيل: هو التوسُّع في الخير، وقيل: اكتساب الحسنات واجتناب السيئات (و) إن (**البر يهدي إلىٰ الجنة**) يعني أن الصدق الذي هو بِر يدعو إلىٰ ما يكون برًّا مثله، وذلك يدعو إلىٰ دخول الجنة، فهو سبب لدخولها، ومِصداقه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ﴿١٣﴾﴾ [الانفطار: ١٣، المطففين: ٢٢] (**وإن الرجل**) ذِكرُ الرجل وصفٌ طرديٌّ، والمراد الإنسان المؤمن (**لَيصدقُ**) أي يلازم الصدقَ (**حتىٰ يُكتَب عند الله صِدِّيقًا**) أي يتكرَّر منه الصدق ويداوم عليه قولاً وفعلاً واعتقادًا حتىٰ

---

(١) فيض القدير ٢/ ٣٦١.

يستحق اسمَ المبالغة فيه ويشتهر بذلك عند الملأ الأعلىٰ، فالمراد بالكتابة الكتابة في اللوح أو في صحف الملائكة **(وإن الكذب)** الذي هو مقابل الصدق **(يهدي)** أي يوصل **(إلىٰ الفجور)** الذي هو شق ستر الديانة والميل إلىٰ الفساد والانبعاث في المعاصي، وهو اسم جامع لكل شرٍّ **(وإن الفجور يهدي إلىٰ النار)** أي [يوصل] إلىٰ ما يكون سببًا لدخولها، وذلك داعٍ لدخولها **(وإن الرجل لَيكذبُ)** أي يُكثِر الكذبَ **(حتىٰ يُكتَب عند الله كذَّابًا)** أي يُحكَم له بذلك ويستحق الوصفَ، بمنزلة الصِّدِّيقين وثوابهم في الأول، والكذَّابين وعقابهم في الثاني، فالمراد إظهاره لخلقه بالكتابة فيما ذُكِر ليشتهر في الملأ الأعلىٰ ويُلقَىٰ في قلوب أهل الأرض ويوضَع علىٰ ألسنتهم، كما يوضَع القبول والبغضاء في الأرض؛ ذكره العلائي وغيره، وتبعهم الحافظ في الفتح[١]. وقال بعضهم: المضارعان وهما «يصدُق» و«يكذب» للاستمرار، ومن ثَم كان الكذب أشد الأشياء ضررًا، والصدق أشدهما نفعًا، ولهذا علت رتبتُه علىٰ رتبة الإيمان؛ لأنه إيمان وزيادة. وقال النووي[٢]: فيه حثٌّ علىٰ تحرِّي الصدق والاعتناء به، وتحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه أكثرَ منه وعُرف به. وقال الراغب[٣]: الصدق أحد أركان بقاء العالَم، حتىٰ لو تُوهِّم مرتفعًا لَما صح نظامه وبقاؤه، وهو أصل المحمودات وركن النبوَّات ونتيجة التقوىٰ، ولولاه لبطلت أحكام الشرائع، والاتِّصاف بالكذب انسلاخ من الإنسانية؛ لخصوصية الإنسان بالنطق، ومَن عُرِف بالكذب لم يُعتمَد نطقه، وإذا لم يُعتمَد لم ينفع، وإذا لم ينفع صار هو والبهيمة سواء، بل يكون شرًّا من البهيمة، فإنها وإن لم يُنتفَع بلسانها لا تضرُّ، والكاذب يضر ولا ينفع. ا.هـ.

والحديث قد تقدَّم أنه اتفق عليه الشيخان[٤] من حديث عبد الله بن

(١) فتح الباري ١٠/ ٥٢٤ - ٥٢٥.

(٢) شرح صحيح مسلم ١٦/ ٢٤١ - ٢٤٣.

(٣) الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة ص ١٩٣.

(٤) صحيح البخاري ٤/ ١٠٩. صحيح مسلم ٢/ ١٢٠٨.

مسعود، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك[١] فوهمَ. وقال ابن أبي الدنيا في الصمت[٢]: حدثنا أبو خيثمة، حدثنا جرير، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الرجل لَيصدقُ حتىٰ يُكتَب عند الله صِدِّيقًا». وقد رُوي ذلك من حديثه بلفظ آخر: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال الرجل يصدُق ويتحرَّىٰ الصدقَ حتىٰ يُكتَب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّىٰ الكذبَ حتىٰ يُكتَب عند الله كذَّابًا». رواه كذلك أحمد[٣] والبخاري في الأدب المفرد[٤] ومسلم والترمذي[٥] وابن حبان[٦]. وقال أبو داود الطيالسي في مسنده[٧]: حدثنا شعبة، عن منصور، عن أبي وائل، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ قال: «لا يزال العبد يصدُق ويتحرَّىٰ الصدق حتىٰ يُكتَب عند الله صدِّيقًا، ولا يزال يكذب ويتحرَّىٰ الكذبَ حتىٰ يُكتَب عند الله كذابًا». ورواه القشيري في الرسالة من طريقه. وقد رُوي نحو ذلك من قول ابن مسعود، قال ابن أبي الدنيا[٨]: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، أخبرني عمرو بن مُرَّة، سمعت مُرَّة الهَمْداني قال:

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ١/ ٢٠٥ بلفظ: «إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له، إن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الكذب يهدي إلىٰ الفجور، وإن الفجور يهدي إلىٰ النار، إنه يقال للصادق: صدق وبر، ويقال للكاذب: كذب وفجر، وإن الرجل ليصدق حتىٰ يكتب عند الله صديقا، أو يكذب حتىٰ يكتب عند الله كذابا».

(٢) الصمت وآداب اللسان ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

(٣) مسند أحمد ٦/ ١٤٧، ٢٧٣، ٧/ ١٢١، ١٧١، ١٨٢، ٢٢٧، ٢٤٦.

(٤) الأدب المفرد ص ١٢٢.

(٥) سنن الترمذي ٣/ ٥١٦.

(٦) صحيح ابن حبان ١/ ٥٠٧ - ٥٠٩.

(٧) مسند الطيالسي ١/ ٢٠٠.

(٨) الصمت وآداب اللسان ص ٢٢٦.

كان عبد الله يقول: عليكم بالصدق، فإنه يهدي إلىٰ الجنة، وما يزال العبد يصدُق حتىٰ يُكتَب عند الله صِدِّيقًا ويثبُت البِرُّ في قلبه فلا يكون للفجور موضع إبرة يستقرُّ فيه.

وفي الباب عن أبي بكر الصدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفعه: «عليكم بالصدق، فإنه مع البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذبَ، فإنه مع الفجور، وهما في النار، وسلوا الله اليقين والمعافاة ...» الحديث. هكذا رواه الطيالسي[١] وأحمد[٢] والحميدي[٣] والبخاري في الأدب المفرد[٤] والنسائي[٥] وابن ماجه[٦] وأبو يعلىٰ[٧] والشاشي والدارقطني في الأفراد وابن حبان[٨] والحاكم والبيهقي[٩] والضياء[١٠]. وقال ابن أبي الدنيا[١١]: حدثنا علي بن الجعد، أخبرنا شعبة، عن يزيد بن خُمَير، سمعت سليم بن عامر يحدِّث عن أوسط بن إسماعيل أنه سمع أبا بكر يخطب بعد ما قُبِض رسول الله ﷺ بسنة فقال: قام رسول الله ﷺ عام أول مقامي هذا. ثم بكىٰ أبو بكر، ثم قال: «عليكم بالصدق، فإنه مع البر، وهما في الجنة، وإياكم والكذب، فإنه مع الفجور، وهما في النار». هكذا رواه مختصرًا، وقد رواه الطبراني[١٢] مثله من حديث معاوية.

(١) مسند الطيالسي ١/ ٨.

(٢) مسند أحمد ١/ ١٨٤، ١٩٨، ٢١٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٨.

(٣) مسند الحميدي ١/ ١٥١.

(٤) الأدب المفرد ص ٢١٧.

(٥) السنن الكبرىٰ ٩/ ٣٢٦.

(٦) سنن ابن ماجه ٥/ ٣٦٨.

(٧) مسند أبي يعلىٰ ١/ ٢٠، ١١٢، ١١٣.

(٨) صحيح ابن حبان ٣/ ٢٣٣، ١٣/ ٤٣.

(٩) شعب الإيمان ٦/ ٤٣٨.

(١٠) الأحاديث المختارة ١/ ١٥٦ - ١٥٨.

(١١) الصمت وآداب اللسان ص ٢٢٥.

(١٢) المعجم الكبير ١٩/ ٣٨١.

ورواه الخطيب[١] وابن النجار من حديث أبي بكر بلفظ: «فإنه باب من أبواب الجنة ... وباب من أبواب النار ...» والباقي سواء.

(**ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدِّيق مشتقٌّ منه**) قال القشيري: الصادق: الاسم اللازم من الصدق، و«الصِّدِّيق» المبالغة منه، وهو الكثير الصدق الذي الصدق غالبه، كالسِّكِّير والخِمِّير وبابه. ا.هـ. أي إن «الصادق» مشتقٌّ من الصدق، فهو اسم لمَن قام به الصدقُ و«الصِّدِّيق» اسم دالٌّ علىٰ المبالغة، مشتقٌّ من الصدق أيضًا، وباب «فِعِّيل» للمبالغة.

(و) من فضائل الصدق أن (**الله تعالىٰ**) سمَّىٰ نفسَه به بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦] و(**وصف به الأنبياء**) عليهم السلام (**في معرض المدح والثناء فقال:** ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٤١﴾ [مريم: ٤١] **وقال:** ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ٥٤﴾ [مريم: ٥٤] **وقال تعالىٰ:** ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ٥٦﴾) [مريم: ٥٦] وأوجب علىٰ عباده التخلُّقَ بأوصافه وأخلاق أنبيائه بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩﴾ [التوبة: ١١٩] فلمَّا امتثلوا قولَه وأجابوه جعلهم مع درجة الأنبياء بقوله تعالىٰ: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩] فبالصدق يتحقَّق جميع المقامات والأحوال؛ لأنها زينتها وكمالها، حتىٰ إن الإخلاص مع شرفه وعلوِّ قدْره يفتقر إلىٰ الصدق، والصدق لا يفتقر إلىٰ شيء؛ لأنه وجودٌ في نفسه، كما سيأتي بيانه.

(**وقال ابن عباس**) ﷺ: (**أربع مَن كنَّ فيه فقد ربح: الصدق، والحياء، وحُسن الخُلق، والشكر**)[٢] وقد رُوي نحوه مرفوعًا من حديثه بلفظ: «أربع إذا كنَّ فيك فما عليك ما فاتك من الدنيا: صِدق الحديث، وحفظ الأمانة، وحُسن الخُلق،

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٦٥.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٥.

وعفَّة مَطعم». رواه كذلك ابن عدي وابن عساكر. ورواه أحمد والحكيم والطبراني والحاكم والبيهقي من حديث ابن عمر. ويُروَىٰ ذلك أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «[حفظ] أمانة، وصِدق حديث، وحُسن خليقة، وعفَّة في طعمة». رواه كذلك أحمد والطبراني والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي، وفي سنده ابن لهيعة، وباقي رجال أحمد رجال الصحيح[١].

(**وقال بشر بن الحارث**) الحافي رحمه الله تعالىٰ: (**مَن عامل اللهَ بالصدق استوحش من الناس**)[٢] ليخلص له في معاملته؛ لأنه ينظر بعين اليقين، وهذا المعنىٰ هو الذي أخرج طائفة من الصادقين إلىٰ الكهوف والمغاور تخلّيًا عن أبناء الدنيا لصِدق معاملتهم مع الله.

(**وقال أبو عبد الله الرملي**) منسوب إلىٰ الرملة: من كور فلسطين (**رأيت منصورًا الدينوري في المنام، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمِّل**) أي ما لم أكن أرجوه (**فقلت له: أحسن ما توجَّه العبد به إلىٰ الله تعالىٰ ماذا؟ قال: الصدق، وأقبح ما توجَّه به الكذب**)[٣].

وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: (**اجعل الصدق مطيَّتك**) أي لأنه يهدي إلىٰ اللقاء (**والوقت**[٤] **سيفك**) تقطع به ما يعوقك عن الوصول (**والله تعالىٰ غاية طلبتك**) أي فلا تلاحظ في سائر الأحوال إلا وجه الله تعالىٰ.

(**وقال رجل لحكيم: ما رأيتُ صادقًا. فقال له: لو كنتَ صادقًا**) أي لو

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب آفات اللسان.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٤٧. ورواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٢٩٩ عن مظفر القرميسيني بلفظ: من عامل الله بالصدق استوحش من صحبة المخلوقين.

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٥.

(٤) في الجميع: الحق. وهو موافق لما في تهذيب الأسرار الذي ينقل عنه الغزالي.

تحققْتَ بهذا الوصف **(لعرفتَ الصادقين)**[(١)].

(وعن) أبي[(٢)] بكر **(محمد بن علي)** بن جعفر **(الكتَّاني)** الصوفي المكِّي، حكىٰ عن أبي سعيد الخرَّاز، وتوفي سنة ٣٢٢ **(قال: وجدنا دينَ الله تعالىٰ مبنيًّا علىٰ ثلاثة أركان: علىٰ الحق والصدق والعدل، فالحق علىٰ الجوارح)** بأن يكون استعمالها في الطاعة علىٰ صريح الحق ممَّا يطابق السنَّةَ **(والعدل علىٰ القلوب)** بأن تستوي في المعرفة علىٰ سبيل الاعتدال **(والصدق علىٰ العقول)**[(٣)] بأن تصدُق في المَلاحِظ فلا تخالف السريرةُ العلانيةَ.

(وقال النُّوري) هو أبو الحسين البغدادي، وهو بضم النون، منسوب إلىٰ نور الوعظ، وتقدَّم ذِكره مرارًا. وفي بعض النسخ: الثوري، بالمثلثة، فيكون المراد به سفيان[(٤)] **(في قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾** [الزمر: ٦٠] **قال: هم الذين ادَّعوا محبةَ الله ولم يكونوا [فيها]**[(٥)] **صادقين)**[(٦)] في دعواهم.

(وأوحىٰ الله إلىٰ داود ﷺ: يا داود، مَن صدقني في سريرته) أي عاملني في باطنه معاملة صدقٍ **(صدقتُه عند المخلوقين في علانيته)**[(٧)] نقله القشيري. وله شاهد في الخبر: «مَن أسرَّ سريرةً ألبسه الله رِداءها». والغالب علىٰ مَن يعمر باطنه بالصدق والإخلاص أن تجري حركاته وسكناته علىٰ حسب ما في قلبه، فيظهر الصدق في أقواله وأحواله وأفعاله.

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٥.
(٢) لباب الأنساب لابن الأثير ٣/ ٨٤.
(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٦.
(٤) بل النوري، كما في تهذيب الأسرار.
(٥) سقط من الزبيدي، وهو ثابت في الجميع.
(٦) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٦.
(٧) السابق.

(و) يُحكَىٰ أنه (صاح رجل في مجلس) أبي بكر (الشبلي) رحمه الله تعالىٰ لحالٍ غلب عليه فلم يطقْه فصرخ (ورمىٰ نفسه في دِجلة) حيث كان في محل مشرف عليه (فقال الشبلي) رحمه الله تعالىٰ: (إن كان صادقًا فالله تعالىٰ ينجيه) من الغرق (كما نجَّىٰ موسىٰ ﷺ) حين شُقَّ البحر هو ومَن معه ولم يبتلُّوا معجزةً له (وإن كان كاذبًا) في وجده (فالله تعالىٰ يغرقه كما أغرق فرعون)[١] وهذا هو الصدق في الأحوال.

(وقال بعضهم: أجمع الفقهاء) يعني أهل الفقه الظاهر (والعلماء) يعني أهل المعرفة بالله (علىٰ ثلاث خصال أنها إذا صحَّت) أي تمَّت مجموعةً في إنسان (ففيها النجاة) من الهلاك (ولا يتم بعضُها إلا ببعض: الإسلام) أي الانقياد لأوامر الله تعالىٰ (الخالص عن) شوب (البدعة والهوىٰ) في الاعتقاد (والصدق لله تعالىٰ في الأعمال) أي الدخول فيها بحُسن الإخلاص والاستمرار علىٰ ذلك (وطِيب المَطعم) بأن يكون حلالاً ومن وجه لا شبهة فيه.

(وقال وهب بن منبه) اليماني رحمه الله تعالىٰ: (وجدتُ علىٰ حاشية التوراة) أي غلافها (اثنين وعشرين حرفًا) أي كلمةً (كان صُلَحاء بني إسرائيل يجتمعون فيقرؤنها ويتدارسونها) وهي هذه: (لا كنز أنفع من العلم) فإن العلم يزكو بالإنفاق، والكنوز إلىٰ نفاد (ولا مال أربح من الحلم، ولا حسب أوضع من الغضب، ولا قرين أزين من العمل[٢]، ولا رفيق أشين من الجهل، ولا شرف أعز من التقوىٰ، ولا كرم أوفر من ترك الهوىٰ، ولا عمل أفضل من الفكر، ولا حسنة أعلىٰ من الصبر، ولا سيئة أخزىٰ من الكبر، ولا دواء ألين من الرفق، ولا داء أوجع من الخُرق) بالضم، وهو قلة العقل (ولا رسول أعدل من الحق، ولا دليل أنصح من الصدق، ولا فقر

---

(١) السابق، وعزاه الخركوشي لأبي القاسم الخُتلي الفقيه، وترجمة الختلي في سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٤٢.

(٢) في ط المنهاج ٩/ ٩٥: العقل. وهو موافق لما في الخركوشي ص١٨٩.

أذل من الطمع، ولا غِنىٰ[1] **أشقىٰ من الجمع)** أي من جمع المال **(ولا حياة أطيب من الصحة، ولا معيشة أهنأ من العفَّة، ولا عبادة أحسن من الخشوع، ولا زهد خير من القنوع، ولا حارس أحفظ من الصمت)** أي قلة الكلام **(ولا غائب أقرب من الموت)**[2] والمقصود من هذا السياق هو قوله «لا دليل أنصح من الصدق»، فإن الصدق يُتوصل به إلىٰ سائر الخيرات، وهو مفتاح باب الحسنات، وبه تكمُل سائر المقامات، فهو نِعم الدليل الناصح، وقد روىٰ ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين[3] من مرسل يحيىٰ بن أبي كثير: «الكرم التقوىٰ، والشرف التواضع، واليقين الغِنىٰ».

(وقال محمد بن سعيد المروزي) رحمه الله تعالىٰ: **(إذا طلبتَ اللهَ بالصدق أفادك الله مرآة بيدك حتىٰ تبصر)** بها **(كلَّ شيء من عجائب الدنيا والآخرة)**[4] وهو إشارة إلىٰ أن الصدق مع الله في المعاملة يورث تنويرَ القلب عن الكدورات، فتتجلَّىٰ فيه الأشياء بحقائقها وهو لا يلتفت إليها، ومِصداقه قول الله تعالىٰ: ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩] أي نورًا تفرِّقون به بين الحق والباطل. ولفظ القشيري: أعطاك مرآة تبصر فيها. ولم يعزه لمحمد بن سعيد.

(وقال أبو بكر الوَرَّاق) رحمه الله تعالىٰ، له ذِكرٌ في الرسالة في باب الحياء: **(احفظ الصدقَ فيما بينك وبين الله تعالىٰ، والرفق فيما بينك وبين الخَلق)**[5] فكلاهما أصلان أصيلان في الوصول إلىٰ الله تعالىٰ.

---

(١) في الخركوشي: عناء. وكأنه الصواب.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٤/ ٢٤٢. ورواه ابن جميع الصيداوي في معجم شيوخه ص ٣٨٥ عن أبي سعيد الأذني بنحوه. ورواه الواقدي في فتوح الشام ١/ ٢٦٥ (ط - دار الكتب العلمية) عن معاذ بن جبل، قاله لأحد بطارقة الروم واسمه يوقنا، وأن يوقنا لما سمعه تهلل وجهه وقال: هكذا قرأته في كتب أخي يوحنا، وهو مذكور في الإنجيل والتوراة.

(٣) اليقين ص ٢٨.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٩.

(٥) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٩٠.

(وقيل لذي النون) المصري رحمه الله تعالىٰ: **(هل للعبد إلىٰ صلاح أموره سبيل؟ فقال)** منشدًا:

(قـد بقينـا مذبذبيـن حيـارىٰ نطلـب الصـدقَ مـا إليـه سـبيلُ

فدعـاوىٰ الهـوىٰ تخـفُّ علينـا وخـلاف الهـوىٰ علينـا ثقيـلُ)[1]

يشير إلىٰ أنه لا سبيل للعبد إلىٰ صلاح أموره إلا بالصدق مع الله تعالىٰ، ولا يتم ذلك إلا بمخالفة النفس والهوىٰ، ومخالفة الهوىٰ ثقيلة علىٰ النفس، فلا يحصل الصدق مع وجود الهوىٰ.

(وقيل لسهل) التستري رحمه الله تعالىٰ: **(ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه)**؟ أي السلوك في طريق الله **(فقال: الصدق والسخاء والشجاعة)** أي فهذه الثلاثة أصول الطريق، وبينها تلازُم في الغالب **(فقيل: زِدنا. فقال: التقىٰ والحياء وطيب الغذاء)**[2] والمراد به العفَّة في الطعم، وقد تقدَّم في حديث ابن عباس قريبًا.

(وعن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ سُئل عن الكمال) ما هو **(فقال: قول الحق، والعمل بالصدق)**[3] قال العراقي[4]: لم أجده بهذا اللفظ.

(وعن الجنيد) قُدِّس سره **(في قوله تعالىٰ: ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ﴾**

---

(١) السابق، وأورد ابن العديم في بغية الطلب ٢/ ٨٥٢ وابن كثير في البداية والنهاية ١٤/ ٣٥٩ أبياتا لأحمد بن عاصم الأنطاكي، وهي:

داعيـات الهـوىٰ تخـف علينـا وخـلاف الهـوىٰ علينـا ثقيـل

لا نـرىٰ خائفـا فيلزمنـا الخـو ف ولا صادقـا بمـا قـد يقـول

فُقِـد الصـدق في الأماكـن حتـىٰ وصفـه اليـوم مـا عليـه دليـل

فبقينـا مردديـن حيـارىٰ نطلـب الصـدق مـا إليـه سـبيل

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٩٢.

(٣) السابق.

(٤) المغني ٢/ ١١٧٩.

[الأحزاب: ٨] **قال: يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربِّهم، وهذا أمر علىٰ خطر)**[١] قال القشيري في الرسالة: الصدق عماد الأمر، وبه تمامه، وفيه نظامه، وهو تالي درجة النبوة، سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الفرغاني يقول: سمعت الجنيد يقول: الصادق يتقلَّب في اليوم أربعين مرةً، والمرائي يثبت علىٰ حالة واحدة أربعين سنة.

قلت: معناه: الصادق يدور مع الدليل حيث دار، ويتقلَّب في أحواله ومعاملاته علىٰ ما يقتضيه الدليلُ ممَّا هو الأفضل في حقِّه، والمرائي يستحسن حالَه ويظنها موصلة لمقصوده من رفعته عند الخلق، فهو يعمل في الحقيقة في إبعاده عن الله تعالىٰ.

ثم قال: وقال أبو سليمان الداراني: لو أراد الصادق أن يصف ما في قلبه ما نطق به لسانه[٢]. أي لعجزه عن نطقه به لعسر العبارة، والصدق في المعاملة يورث القلوب مواهب تعجز عنها العبارات.

ثم قال: سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سمعت جعفر بن نصير يقول: سمعت الجريري يقول: سمعت سهل بن عبد الله يقول: لا يشم رائحة الصدق عبدٌ داهن نفسَه أو غيرَه[٣].

وسمعته يقول: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت جعفر الخوَّاص يقول: سمعت إبراهيم الخوَّاص يقول: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤدِّيه أو فضل يعمل فيه.

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٩٢.

(٢) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٧٦، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٢٦٦. وفي الحلية: الواصف، بدل: الصادق.

(٣) هكذا رواه السلمي في آداب الصحبة ص ٧٤. ورواه البيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٥١٣ من طريقه، لكنه زاد في أوله: «من نظر في مطعمه دخل عليه الزهد من غير دعوىٰ، ولا يشم ...» الخ. ورواه السلمي في كتاب الفتوة ص ٣٥ عن أبي عبد الله القرشي.

وقيل: ثلاثة لا يخطئن الصادقَ: الحلاوة والهيبة والملاحة.

وقال ذو النون: الصدق سيف الله، ما وُضع علىٰ شيء إلا قطعه[١].

وقال سهل: أول خيانة الصدِّيقين حديثهم مع أنفسهم.

وقال يوسف بن أسباط: لأنْ أبيت ليلةً أعامل الله بالصدق أحب إليَّ من أن أضرب بسيفي في سبيل الله.

وقال بعضهم: مَن لم يؤدِّ الفرض الدائم لا يُقبَل منه الفرض المؤقَّت. قيل: ما الفرض الدائم؟ قال: الصدق.

وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرُّك فإنه ينفعك، ودعِ الكذب حيث ترىٰ أنه ينفعك فإنه يضرُّك.

وقيل: كل شيء شيء، ومصادقة الكذاب لا شيء. انتهىٰ سياق الرسالة.

وفي كتاب الصمت لابن أبي الدنيا: حدثنا أحمد بن منيع، حدثنا مروان بن معاوية، عن مجمع بن يحيىٰ، عن منصور بن المعتمر قال: قال رسول الله ﷺ: «تحرَّوا الصدق وإن رأيتم أن فيه الهَلَكة، فإن فيه النجاة».

وأخرج فيه من طريق مكحول عن أبي هريرة رفعه: «لا يؤمن العبد الإيمانَ كلَّه حتىٰ يؤثِر الصدقَ، وحتىٰ يترك الكذب في المُزاحة والمِراء وإن كان صادقًا».

وقال: حدثنا الهيثم بن خارجة، حدثنا الهيثم بن عمران، سمعت إسماعيل ابن عبيد الله المخزومي قال: أمرني عبد الملك بن مروان أن أعلِّم بنيه الصدقَ كما أعلِّمهم القرآن.

وأخرج من طريق محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن جدِّه قال: زينُ الحديثِ الصدقُ.

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٩٥، والسلمي في طبقات الصوفية ص ٣٢.

ومن طريق عمارة بن أبي حفصة سمع أبا مِجْلَز يقول: قال رجل لقومه: عليكم بالصدق، فإنه نجاة.

وقال يحيىٰ بن سعيد الآموي: أنشدني ابن خَرَّبوذ للفضل بن عباس اللَّهَبي:

إنَّا أناس من سجيَّتنا   صِدقُ الحديث ورأيُنا حتمُ
لبسوا الحياءَ فإن نظرتَ حسبتهم   سقموا ولم يمسَّهم سقمُ
شر الإخاء إخاءُ مزدرد   مزج الإخاء إخاؤه وهمُ
زعم ابن عمي أن حلمي ضرَّني   ما ضرَّ قبلي أهلَه الحلمُ(١)

وأخرج من طريق عديٍّ بن ثابت قال: قال عمر رضي الله عنه: أحبُّكم إلينا إذا اختبرناكم أصدقكم حديثًا وأعظمُكم أمانةً.

ومن طريق الشعبي أنه كان يتمثَّل ويقول:

أنت الفتىٰ كل الفتىٰ   إن كنتَ تصدُق ما تقولْ
لا خير في كذب الجوا   د وحبَّذا صدقُ البخيلْ(٢)

ومن طريق جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: الصدق والكذب يعتركان في القلب حتىٰ يُخرِج أحدُهما صاحبَه.

---

(١) الأبيات - عدا البيت الثالث - في ديوان الفضل بن عباس ص ٣٧ (ط - دار المواهب ببيروت) مع اختلاف في الترتيب.

(٢) البيتان لزياد الأعجم يخاطب بهما يزيد بن المهلب، وهما في ديوانه ص ٩٣ (ط - دار المسيرة). ورواية صدر البيت الأول في العقد الفريد ١/ ٢٠٨ وعيون الأخبار ٣/ ١٦٥ وبهجة المجالس ص ٤٩٦:

لله درك من فتىٰ

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ **(أن لفظ الصدق)** قد تسمَّىٰ به اللهُ تبارك وتعالىٰ بقوله: ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝١٤٦﴾ [الأنعام: ١٤٦] وهو وصفٌ ذاتيٌّ له تعالىٰ راجع إلىٰ معنىٰ كلامه، فالصدق ما تضمَّنه كلامُه من شهادته لنفسه بالوحدانية وبجميع ما أثنىٰ به علىٰ نفسه، وبأن لا فاعل حقيقةً إلا هو، فأما حقيقته في العباد فهو استواء السريرة والعلانية، والظاهر والباطن، وهو **(يُستعمَل في ستة معانٍ: صدق في القول، وصدق في النية والإرادة، وصدق في العزم، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها. فمَن اتَّصف بالصدق في جميع ذلك)** من أقواله وأفعاله وأحواله **(فهو صدِّيق؛ لأنه مبالغة من الصدق)** كما هو مقتضَىٰ باب «فِعِّيل» **(ثم هو**[١] **أيضًا علىٰ درجات)** ومراتب **(ومَن كان له حظٌّ [من الصدق]**[٢] **في شيء من الجملة)** المذكورة من الأقوال والأفعال والأحوال **(فهو صادق بالإضافة إلىٰ ما فيه صدقُه)** والغالب إطلاقه علىٰ المتَّصف به في الأقوال، كما يلوِّح إليه كلامُ القشيري، وهذا هو الأصل[٣]، ومقابله **(الصدق الأول: صدق اللسان)** وصدق القول **(وذلك لا يكون)** بالقصد[٤] الأول منه **(إلا في الأخبار)** دون غيرها من أصناف الكلام **(أو فيما يتضمَّن الإخبارَ وينبِّه عليه)** أي بالعَرَض لا بالقصد الأول، فقد يدخل في أنواع الكلام من الاستفهام والأمر والدعاء، وذلك أن قول القائل: أزيدٌ في الدار؟ في ضمنه إخبارٌ بكونه جاهلاً بحال زيد. وكذلك

---

(١) في الجميع: هم.

(٢) سقط من ط الزبيدي.

(٣) انظر: الرسالة ص ٤٧٦ (ط الأزهر)، وفي المفردات للراغب ص ٤٧٨: الصدق والكذب أصلهما في القول.

(٤) المفردات للراغب ص ٢٧٧.

إذا قال: واسِني، في ضمنه أنه محتاج إلىٰ المواساة. وإذا قال: لا تؤذني، في ضمنه أنه يؤذيه (**والخبر إما أن يتعلَّق بالماضي أو بالمستقبل، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخُلف فيه. وحقٌّ علىٰ كل عبد أن يحفظ ألفاظه، فلا يتكلم إلا بالصدق، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرُها**) وهو واجب لغيره لا لذاته؛ لأن المقصود منه الدلالة علىٰ الحق حيث كان، ولذلك استثنىٰ الشرع منه المعاريضَ والإصلاح بين العِباد ورضا قلوب الزوجات وإرهاب الأعداء في الجهاد، والمعاريض من ذلك مباحة، والإصلاح وما يضاهيه مستحبٌّ، وإنكار الودائع ممَّن يغصبها واجب (**فمَن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء علىٰ خلاف ما هي عليه فهو صادق**) وهذا الوصف لازم له (**ولكن لهذا الصدق كمالان، أحدهما: الاحتراز عن**) صريح اللفظ وعن (**المعاريض**) إن وجد إلىٰ ذلك سبيلاً (**فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب**) رُوي ذلك عن عمران بن الحصين ﷺ مرفوعًا وموقوفًا، والموقوف أصح، رواه البخاري في الأدب المفرد[1] من طريق قتادة عن مطرف بن عبد الله قال: صحبتُ عمران بن حصين من الكوفة إلىٰ البصرة، فما أتىٰ عليه يومٌ إلا أنشد فيه شعرًا، وقال: في معاريض الكلام مندوحة عن الكذب. ورواه ابن جرير الطبري في التهذيب[2] والبيهقي في الشعب[3] والطبراني في الكبير[4]، ورجاله ثقات. ورواه ابن السني[5] من طريق شعبة عن قتادة به مرفوعًا، وكذا قال البيهقي: رواه [داود بن] الزبرقان عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة لكن عن زُرارة بن أوفىٰ عن عمران مرفوعًا. قال: والموقوف هو الصحيح. ورواه أبو بكر بن كامل في فوائده وأبو نعيم والديلمي[6] من طريقه من حديث علي رضي الله عنه: «إن في المعاريض

---

(١) الأدب المفرد ص ٢٥٤، ٢٦١.

(٢) تهذيب الآثار - السفر الثاني من مسند عمر ص ٦٣٨.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ٤٤٦.

(٤) المعجم الكبير ١٨/ ١٠٧.

(٥) عمل اليوم والليلة ص ٢٠١.

(٦) وكذلك ابن عدي في الكامل ١/ ٤٩.

ما يكفي الرجلَ العاقل عن الكذب». ويُروَىٰ نحو ذلك من قول عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أما إن في المعاريض ما يكفي المسلمَ عن الكذب. رواه البخاري في الأدب المفرد[١] والبيهقي في الشعب[٢]، وهو عند العسكري في الأمثال بلفظ: إن في المعاريض لَمندوحةٌ للرجل المسلم الحر عن الكذب. وأشار إلىٰ أن حكمه الرفع، وقال: المعاريض: ما حوتْ بعضَ الكذب[٣]، والمندوحة: السعة **(وذلك لأنها)** أي المعاريض **(تقوم مقام الكذب؛ إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء علىٰ خلاف ما هو عليه في نفسه)** ولفظ المصنف في الجواهر والدرر[٤]: فإنه وإن كان صادقًا في نفسه فيُفْهِم خلافَ الحق، والمحذور من الكذب تفهيم خلاف الحق؛ إذ يُكسِب القلبَ صورةً معوجة كاذبة، وإذا مال وجه القلب من الصحة إلىٰ الاعوجاج لم يتجلَّ الحقُّ له علىٰ الصحة حتىٰ لا تصدُق رؤياه أيضًا، والمعاريض لا توقِع في هذا المحذور؛ لأنه صدقٌ في نفسه، ولكن توقع في المحذور الثاني وهو تجهيل الغير، فلا ينبغي أن يفعل ذلك **(إلا أن ذلك ممَّا تمسُّ الحاجة إليه وتقتضيه المصلحةُ في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومَن يجري مَجراهم، وفي الحذر من الظَّلَمة، وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطِّلاعهم علىٰ أسرار المُلك)** ففي كل ذلك مصالح قد يضطر إليها الإنسان **(فمَن اضطرَّ إلىٰ شيء من ذلك فصدقُه فيه أن يكون نطقُه فيه لله فيما يأمره الحق به ويقتضيه الدينُ، فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهمًا غيرَ ما هو عليه؛ لأن الصدق ما أريدَ لذاته، بل للدلالة علىٰ الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلىٰ صورته، بل إلىٰ معناه. نعم، في مثل هذا الموضع ينبغي أن يعدل إلىٰ المعاريض ما وجد إليه سبيلاً. كان رسول الله ﷺ إذا توجَّه إلىٰ سفر**

---

(١) الأدب المفرد ص ٢٦١.

(٢) شعب الإيمان ٦/ ٤٤٥، وكذا في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٣٣٥.

(٣) في المقاصد الحسنة ص ١١٦: ما حادت به عن الكذب.

(٤) بل في كتاب الأربعين في أصول الدين ص ٢٣٢.

ورَّىٰ بغيره) قال العراقي[(١)]: متفق عليه[(٢)] من حديث كعب بن مالك بلفظ: كان إذا أراد سفرًا. قلت: ورواه أبو داود[(٣)] بلفظ: كان إذا أراد غزوة ورَّىٰ بغيرها **(وذلك لكيلا ينتهي الخبر إلىٰ الأعداء فيُقصَد، وليس هذا من الكذب في شيء)** لِما فيه من المصلحة الراجحة وهو التمكين من الأعداء والهجوم عليهم علىٰ حين غِرة منهم.

(وقال رسول الله ﷺ: ليس بكذَّاب مَن أصلح بين اثنين فقال خيرًا أو أنمىٰ خيرًا) متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عُقبة بن أبي معيط، وقد تقدَّم في آفات اللسان[(٤)] **(ورخَّص في النطق علىٰ وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: مَن أصلح بين اثنين، ومَن كان له زوجتان، ومَن كان في مصالح الحرب)** وقد رُوي ذلك في المرفوع من حديث أم كلثوم بنت عُقبة: «لا يصلُح الكذب إلا في إحدىٰ ثلاث: الرجل يُصلِح بين الرجلين، وفي الحرب، والرجل يحدِّث امرأتَه». رواه ابن جرير في التهذيب. ومن حديث أبي الطُّفَيل: «لا يصلُح الكذب إلا في إحدىٰ ثلاث: رجل كذب امرأتَه ليستصلح خُلُقَها، ورجل كذب ليُصلِح بين امرأين مسلمينِ، ورجل كذب في خديعة حرب، فإن الحرب خدعة». رواه ابن جرير[(٥)] أيضًا. ومن حديث أسماء بنت يزيد: «لا يصلُح الكذب إلا في ثلاث: يحدِّث الرجل امرأتَه ليرضيها، والكذب في الحرب، والكذب ليُصلِح بين الناس». رواه الترمذي[(٦)] وحسَّنه. وقد رُوي بهذا اللفظ من حديث عائشة، رواه ابن جرير[(٧)] وابن النجار. ومن حديث أبي

---

(١) المغني ٢/ ١١٧٩.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٣٤٥، ٣٤٦، ٣/ ١٧٧. صحيح مسلم ٢/ ١٢٧٤. وفي جميع الروايات: لم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورىٰ بغيرها. وهو جزء من حديث كعب ابن مالك الطويل في تخلفه عن غزوة تبوك وتوبته.

(٣) سنن أبي داود ٣/ ٢٧١.

(٤) وقبله في آداب الصحبة.

(٥) تهذيب الآثار - مسند علي ص ١٢٤.

(٦) سنن الترمذي ٣/ ٤٩٤.

(٧) تهذيب الآثار - مسند علي ص ١٢٣.

أيوب: «لا يحلُّ الكذب إلا في ثلاث: الرجل يكذب امرأتَه يرضيها بذلك، والرجل يمشي بين رجلين يُصلِح بينهما، والحرب خدعة». رواه أبو عوانة[١]. ومن حديث النوَّاس بن سمعان: «كل الكذب يُكتَب علىٰ ابن آدم إلا في ثلاث: الرجل يكذب بين الرجلين ليُصلِح بينهما، والرجل يكذب امرأتَه ليرضيها بذلك، والكذب في الحرب، والحرب خدعة». رواه ابن النجار[٢]. ويُروَىٰ من حديث ثوبان نحوه: «الكذب مكتوب إلا ما نُفع به مسلم أو دُفع به عنه». رواه البزار[٣] وصحَّحه. وهو عند الروياني[٤] بلفظ: «الكذب كله إثم إلا ما نُفع به مسلم أو دُفع به عن دِين» (**والصدق ههنا يتحوَّل إلىٰ النية، فلا يراعَىٰ فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصدُه وصدقت نيتُه وتجرَّدت للخير إرادتُه صار صادقًا وصدِّيقًا كيفما كان لفظه، ثم التعريض فيه أَولىٰ**) من التصريح (**وطريقه ما حُكي عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظَّلَمة وهو في داره**) وأراد التخلُّص منه (**فقال لزوجته: خُطِّي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع علىٰ الدائرة وقولي: ليس هو ههنا**) كما تقدم في آفات اللسان (**فاحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه، فكان قوله صدقًا، وأفهم الظالمَ أنه ليس في الدار**) فهذا من جملة المعاريض التي يتخلَّص بها من الكذب (**فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن المعاريض أيضًا إلا عند الضرورة**) وقد روي القشيري عن ابن سيرين: الكلام أوسع من أن يكذب ظريف[٥].

---

(١) المستخرج علىٰ صحيح مسلم ٤/ ٢١٢.

(٢) رواه ابن قانع في معجم الصحابة ٣/ ١٦٣، وابن الأعرابي في معجمه ص ٧٩٤، والخرائطي في مساوئ الأخلاق ص ٧٨ - ٧٩، ٩٠، وابن السني في عمل اليوم والليلة ص ٣٧٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٤٤٨.

(٣) مسند البزار ١٠/ ٩٩.

(٤) مسند الروياني ١/ ٤١١.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٦٤، والبيهقي في شعب الإيمان ٦/ ٥١٦، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٥٦، وابن عدي في الكامل ١/ ٤٩.

ويلحق[١] به كلُّ كلام خرج علىٰ وجه المثل للاعتبار دون الإخبار فليس بكذب علىٰ الحقيقة، ولهذا لا يتحاشَىٰ المتجوِّزون من التحدُّث به، كقولهم في الحثِّ علىٰ مداراة العدو والتلطُّف في خدمة الملوك أن سبعًا وذئبًا وثعلبًا اجتمعوا [فقالوا: نشترك فيما نصيد. فصادوا عيرًا وظبيًا وأرنبًا] فقال السبع للذئب: اقسمْ. فقال: هو مقسوم، العير لك، والظبي لي، والأرنب للثعلب. فوثب السبع فأدماه، ثم قال للثعلب: اقسمْ. فقال: هو مقسوم، العير لغدائك، والظبي لقائلتك، والأرنب لعشائك. فقال السبع: مَن علَّمك هذه القسمةَ المليحة؟ فقال: علَّمني السربال الأرجواني الذي علىٰ الذئب. وعلىٰ المَثل حُمل قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾ الآية [ص: ٢٣] وقوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ الآية [البقرة: ٢٦١] فقالوا: يصح هذا لمَّا كان مثلاً وإن لم تجرِ العادةُ بوجود حبة هكذا. قال الراغب في الذريعة: ذهب كثير من المتكلِّمين إلىٰ أن الصدق يحسُن لعينه والكذب يقبح لعينه. وقال كثير من الحكماء والمتصوفة: إن الكذب يقبح لِما يتعلَّق به من المَضارِّ الحاصلة منه، والصدق يحسُن لِما يتعلَّق به من المنافع الحاصلة منه، وذلك أن الأقوال من جملة الأفعال، وشيء من الأفعال لا يحسُن ولا يقبح لذاته، بل إنما يحسُن ما يحسن لِما يتعلَّق به من النفع، ويقبح ما يقبح لِما يتعلَّق به من الضرر الموفي علىٰ ما فيه من النفع، ألا ترىٰ أن أعظم ما يجري في العالَم القتل والغصب، وقد يقع كل واحد منهما علىٰ وجه يحسُن وعلىٰ وجه يقبُح، فكذا المقال من الصدق والكذب، ولذلك قال ﷺ: «لا يصلُح الكذب إلا في ثلاث ...» الحديث. وقد رُوي: «إذا أتاكم عني حديث يدل علىٰ هدىً أو يردُّ عن رَدًىٰ فاقبلوه، قلتُه أو لم أقلْه، وإن أتاكم عني حديث يدل علىٰ رَدًىٰ أو يردُّ عن هدىً فلا تقبلوه، فإني لا أقول إلا حقًّا». قالوا: والكذب يكون قبيحًا بثلاث شرائط: أن يكون الخبر بخلاف المخبَر عنه، وأن يكون المخبِر قد اختلقه قبل الإخبار به، وأن يقصد إيراد ما في نفسه

(١) الذريعة للراغب ص ١٩٤ – ١٩٥.

لا لاندفاع ضرر أعظم من ضرر ذلك الكذب مع شرط أن لا يمكن الوصول إلىٰ ذلك النفع بغيره، ومع أنه إذا ظهر كان للكاذب عذرٌ واضح عاجلاً وآجلاً. قالوا: ولا يلزم علىٰ هذا أن يقال: جوِّزوا الكذبَ فيما يُرجَىٰ منه نفع دنيوي، فالمنفعة الدنيوية ولو كانت مُلك الدنيا بحذافيرها لا توفي علىٰ ضرر أدنىٰ كذب، وإنما هذا الذي قلناه يُتصوَّر في نفع أخرويٍّ يكون الإنسان فيه عاجلاً وآجلاً معذورًا، كمَن سألك عن مسلم استتر في دارك وهو يريد قتله فيقول: هل فلان في دارك؟ فتقول: لا. فهذا يجوز، فإنَّ نفع هذا الكذب موفٍ علىٰ ضرره، وهو فيه معذور، ولا خلاف أن المعاريض حيث يضطر [الإنسان] إليها تجوز، ولذلك قيل: إن في المعاريض لَمندوحةً عن الكذب. ولم يزل الأنبياء والأولياء يفزعون إليها، كقول النبي ﷺ لمَن سأله: من أين أنت؟ فقال: «من الماء». وقول إبراهيم عَلَيْكَلِم: إني سقيم، وقوله: هذه أختي، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. وأما الصدق فإنه يحسُن حيث يتعلق به نفعٌ ولا يلحق ضرر بأحد، فمعلوم قبحُ مَن يقعد ويقول: السماء فوقي والأرض تحتي، من غير أن يريد أن يجعل ذلك مقدمة دليل أو إفادة معنىٰ يعلِّقه به، وكذا تقبح النميمةُ والغِيبة والسعاية وإن كانت صدقًا، ولذلك قيل: كفىٰ بالسعاية ذمًّا أنه يقبح فيها الصدقُ. وأقبح الكذب مع قبحه كله أو جُلِّه ما لا يتعلق به رجاء نفع عاجل أو آجل ويجلب إلىٰ المقول له ضررًا، كرجل يأتيك من بلد بعيد فيقول بأن ملك ذلك البلد يرغب فيك ويتشوَّق إليك ويسألك أن تأتيه ليفيدك مالاً وجاهًا، فإذا وردتَ عليه لم تجد ذلك صدقًا، بل وجدتَ ذلك الملك حنِقًا عليك.

(**والكمال الثاني: أن يراعي معنىٰ الصدق في**) مدلولات (**ألفاظه التي يناجي بها ربَّه، كقوله: وجَّهتُ وجهي للذي فطر السموات والأرضَ حنيفًا. فإن قلبه إن كان منصرفًا عن الله تعالىٰ مشغولاً بأماني الدنيا وشهواته فهو كاذب**) في قوله، فإن الوجه هنا عبارة عن وجه القلب، لا وجه البدن (**وكقوله: إياك نعبد وإياك نستعين**) فإن كان رقيقًا لبعض الشهوات كان كاذبًا في دعوىٰ العبودية، وإن كان معتمدًا

علىٰ سبب من الأسباب كان كاذبًا في دعوىٰ الاستعانة، وكذلك في قوله: الله أكبر والحمد لله، وشبه هذا كثير، فلو وقَّر أو عظَّم عبدًا من عباد الله علىٰ غير امتثال أمر الله أو رأىٰ النعمة من غيره كان كاذبًا في تكبيره وحمدلته. وكذلك في قوله: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، وهو مُلابِس للأسباب التي هي قوة الشيطان وسبب لوسوسته، فإن الاستعاذة لا تعيذه ما لم ينتقل عن ملابسة تلك الأسباب، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ﴾ الآية [الأعراف: ٢٠١] فإنَّ هذه الألفاظ تُراد في الشرع لمدلولاتها لا لنفسها (**وكقوله: أنا عبد الله، فإنه إذا لم يتَّصف بحقيقة العبودية**) التي[1] هي [للعامَّة] غاية الذل لله تعالىٰ، وهي للخاصة الذين صحَّحوا النسبة إلىٰ الله تعالىٰ بصدق القصد إليه في سلوك طريقه (**وكان له مَطلب سوىٰ الله لم يكن كلامه صدقًا**) في نفسه (**ولو طولِب يوم القيامة بالصدق في قوله «أنا عبد الله» لعجز عن تحقيقه، فإنه إن كان عبدًا لنفسه**) بأن يكون متهالكًا في تحصيل شهواتها (**أو عبدًا للدنيا**) بأن يكون معتكفًا علىٰ خدمتها ومراعاتها (**أو عبدًا لشهواته**) بأن يكون متراميًا في تحصيلها لنفسه (**لم يكن صادقًا في قوله**) وعليه يصح أن يقال: ليس كل إنسان عبدًا لله تعالىٰ. وعبد[2] الله عندهم: العبد الذي تجلَّىٰ له الحقُّ بجميع أسمائه، فلا يكون في عباده أرفع مقامًا ولا أعلىٰ شأنًا منه؛ لتحقُّقه باسمه الأعظم واتِّصافه بجميع صفاته، ولهذا خُصَّ نبيُّنا ﷺ بهذا الاسم في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] فلم يكن هذا الاسم بالحقيقة إلا له، وللأقطاب من ورثته بتبعيَّته وإن أُطلِق علىٰ غيره مجازًا؛ لاتِّصاف كل اسم من أسمائه بجميعها بحكم الواحدية وأَحَديَّة جميع الأسماء (**وكل ما تقيَّد العبد به فهو عبدٌ له**) منسوب إليه (**كما قال عيسىٰ** عليه السلام) في بعض محاوراته: (**يا عبيد الدنيا**) سمَّاهم كذلك لاعتكافهم علىٰ خدمتها ومراعاتها.

---

(١) معجم اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص ١٢٥.

(٢) السابق ص ١٢٦.

(وقال نبيُّنا ﷺ: تعسَ عبدُ الدينار وتعس عبدُ الدرهم وعبد الحُلَّة وعبد الخَميصة) رواه البخاري[١] وابن ماجه[٢] والبيهقي في الشعب[٣] من حديث أبي هريرة بزيادة: «إن أُعطي رضي، وإن لم يُعْطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيكَ فلا انتقش ...» الحديث. قال البخاري: حدثنا عمرو بن مرزوق، حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار، عن أبيه، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رفعه: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة ...» الحديث. ورواه البيهقي من طريق يوسف بن يعقوب عن عمرو بن مرزوق. ورواه العسكري في الأمثال بلفظ: لعن، بدل: تعس. وذكر المصنف هناك[٤]: «تعس عبد الزوجة»، وهذا لا أصل له **(سمَّىٰ كلَّ مَن تقيَّد قلبه بشيء عبدًا له)** باعتبار ذلِّه له وانصرافه إليه **(وإنما العبد الحق لله عَزَّوَجَلَّ مَن أُعتق أولاً عن غير الله تعالىٰ فصار حرًّا مطلقًا)** من الوثاق **(فإذا تقدمت هذه الحريةُ صار القلب فارغًا فحلَّت فيه العبودية لله)** وإليه أشار القائل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوىٰ ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكَّنا[٥]

(فتشغله بالله وبمحبَّته، وتقيِّد باطنَه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالىٰ، ثم قد تجاوز هذا إلىٰ مقام آخر أسنىٰ منه يسمَّىٰ: الحرية) وهي[٦] عندهم عبارة عن الانطلاق عن رقِّ الأغيار، وهي علىٰ مراتب: حرية العامة عن رق الشهوات، وحرية الخاصة عن رق المرادات؛ لفناء إرادتهم في إرادة الحق، وحرية خاصة الخاصة عن رق الرسوم والآثار؛ لانمحاقهم في تجلِّي نور الأنوار. وقد أشار

---

(١) صحيح البخاري ٢/ ٣٢٨، ٤/ ١٧٩.

(٢) سنن ابن ماجه ٥/ ٥٧٤.

(٣) شعب الإيمان ٦/ ١٤٢، ١٣/ ٢٨.

(٤) يعني في كتاب آداب النكاح.

(٥) تقدم هذا البيت في كتاب آداب النكاح.

(٦) معجم اصطلاحات الصوفية ص ٨٢. التعريفات للجرجاني ص ٩٠ - ٩١.

إليه المصنف بقوله: (**وهو أن يُعتَق أيضًا عن إرادته لله من حيث هو هو، بل يَقنع بما يريد الله له من تقريب أو إبعاد، فتفنى إرادته في إرادة الله تعالىٰ**) وهي حرية الخاصة (**فهذا عبدٌ عُتق عن غير الله**) أي انطلق عن رقِّ الغير (**فصار حرًّا**) وهي حرية العامة (**ثم عاد وعُتق عن نفسه فصار حرًّا**) وهي حرية الخاصة، ثم عاد وعُتق عن رسومه وآثاره فصار حرًّا (**وصار مفقودًا لنفسه، موجودًا لسيده ومولاه**) وانمحقت رسومه في تجلِّي نور الأنوار، وهي حرية خاصة الخاصة، فهو (**إن حرَّكه**) مولاه (**تحرك، وإن سكَّنه سكن، وإن ابتلاه رضي لم يبقَ فيه متسَع لطلب والتماس واعتراض**) قيل للشبلي: ألا تعلم أنه رحمن؟ فقال: بلىٰ، ولكن منذ عرفت رحمته ما سألته أن يرحمني (**بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الغاسل**) يصرِّفه كيف يشاء (**وهذا منتهىٰ الصدق في العبودية لله تعالىٰ**) قال القشيري في الرسالة(١): اعلمْ أن حقيقة الحرية في كمال العبودية، فإذا صدقت لله عبوديتُه خلصت عن رق الأغيار حريتُه، فأما مَن توهَّم أن العبد يسلَّم له أن يخلع وقتًا عذار العبودية ويحيد بلحظه عن حدِّ الأمر والنهي وهو مميِّز في دار التكليف فذلك انسلاخ من الدين، والذي أشار إليه القوم من الحرية هو أن لا يكون العبد بقلبه تحت رق شيء من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخرة، فيكون فردًا لفرد، لم يسترقَّه عاجلُ دنيا ولا حاصل هوىً ولا آجل منىً ولا سؤال ولا قصد ولا أرب ولا حظ، ومقام الحرية عزيز (**فالعبد الحق هو الذي وجوده لمولاه لا لنفسه، وهذه درجة الصدِّيقين، وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبعدها تتحقَّق العبودية لله تعالىٰ، وما قبل هذا فلا يستحق صاحبه أن يسمَّىٰ صادقًا ولا صدِّيقًا**) قال الحسين بن منصور، فيما نقله القشيري: إذا استوفىٰ العبدُ مقامات العبودية كلها يصير حرًّا من تعب العبودية، فيترسَّم بالعبودية بلا عناء ولا كلفة، وذلك مقام الأنبياء والصدِّيقين. يعني يصير محمولاً لا تلحقه بقلبه مشقةٌ، وإن كان متحلِّيًا بها شرعًا (**فهذا هو معنىٰ الصدق في القول.**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٧٨ - ٣٨٠.

الصدق الثاني: في النية والإرادة، ويرجع ذلك إلىٰ الإخلاص، وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالىٰ، فإن مازجَه شوبٌ من حظوظ النفس بطل صدقُ النية، وصاحبه يجوز أن يسمَّىٰ صادقًا) يقال: هذا صادق الحلاوة، وهذا صادق الحموضة، أي محضها، فيرجع هذا إلىٰ نفس الإخلاص **(كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث)** أبي هريرة في **(الثلاثة حين يُسئل العالِم: ما عملتَ فيما علمتَ؟ فقال: فعلتُ كذا وكذا. فقال الله تعالىٰ: كذبتَ، بل أردتَ أن يقال: فلان عالِم)** فقد قيل ذلك **(فإنه لم يكذِّبه ولم يقل له: لم تعمل، ولكنه كذَّبه في إرادته ونيته، وقد قال بعضهم: الصدق صحة التوحيد في القصد)** نقله القشيري عن الواسطي، إلا أنه قال: مع القصد.

قال صاحب القوت: النية عند عبد الرحيم بن يحيىٰ الأسود هي نفس الإخلاص، وعند غيره هي الصدق في الحال باستواء السريرة والعلانية. وقد قال الجنيد في الفرق بين الإخلاص والصدق معنًىٰ لطيفًا لم يفسِّره، ويحتاج إلىٰ تفسير، حدثنا بعض الأشياخ عنه قال: شهد جماعة علىٰ رجل بشهادة فلم تضرَّه، وكانوا مخلصين، ولو كانوا صادقين لعوقِب. يعنىٰ أنَّ صِدقهم أن لا يعملوا عمله أو مثل عمله الذي شهدوا به عليه، فهذا صدقُ الحال، وهو حقيقة النية وإخلاصها عند المحقِّقين.

وقال في موضع آخر: والنية عند قوم الإخلاص بعينه، وعند آخرين الصدق، وعند الجماعة أنها صحة العقد وحُسن القصد.

(وكذلك قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: ١] **وقد قالوا: إنك لرسول الله. وهذا صدقٌ، ولكن كذَّبهم الله لا من حيث نطقِ اللسان، بل من حيث ضمير القلب)** أي فلم يَقنع منهم إلا بصدق نيَّاتهم **(وكان التكذيب يتطرَّق إلىٰ الخبر، وهذا القول يتضمَّن إخبارًا بقرينة الحال؛ إذ صاحبه يُظهِر من نفسه أنه يعتقد ما يقول، فكذب في دلالته بقرينة الحال علىٰ ما في قلبه، فإنه**

كذب في ذلك، ولم يكذب فيما يلفظ به. فيرجع أحد معاني الصدق إلىٰ خلوص النية وهو الإخلاص، فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصًا) وليس كل مخلص صادقًا.

وقال الراغب في الذريعة[1]: حدُّ الصدق [التام] هو مطابقة القول للضمير والمخبَر عنه، ومتىٰ انخرم شرطٌ من ذلك لم يكن صدقًا تامًّا، بل إما أن لا يوصَف بالصدق والكذب، أو يوصف تارةً بالصدق وتارةً بالكذب علىٰ نظرين مختلفين، كقول الكافر إذا قال من غير اعتقاد: محمد رسول الله ﷺ. فإنَّ هذا يصح أن يقال فيه: [إنه صدقٌ لكون المخبَر عنه كذلك، ويصح أن يقال فيه: إنه] كذبٌ لمخالفة قوله ضميره، ولهذا كذَّبهم الله تعالىٰ حيث قال: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ وكذلك إذا قال مَن لم يعلم كون زيد في الدار: إنه في الدار، يصح أن يقال: صدق، وأن يقال: كذب، باعتبار نظرين مختلفين، ولهذا قال ﷺ: «مَن قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ». وفي خبر [آخر]: «فقد كذب علىٰ الله». والمتوسِّم لا قصد له، فإذا قال: زيد في الدار، لا يقال إنه صدق ولا إنه كذب.

(الصدق الثالث: صدق العزم) أي الصدق في العزم علىٰ الخير **(فإن الإنسان قد يُقدِم علىٰ العزم علىٰ العمل فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالاً تصدَّقتُ بجميعه)** علىٰ الفقراء والمساكين **(أو بشطره)** أو: إن رزقني الله علمًا لأعلِّمن الناس ولأعملنَّ به **(أو: إن لقيت عدوًّا في سبيل الله قاتلتُ ولم أبالِ وإن قُتلتُ. أو: إن أعطاني الله تعالىٰ ولاية عدلتُ فيهم ولم أعصِ الله تعالىٰ بظلم ولا ميل إلىٰ خلق. فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي عزيمة جازمة صادقة)** والصدق فيها أن لا يكون في العزم تردُّدٌ **(وقد يكون في عزمه نوعُ ميل وتردُّد وضعفٍ يضادُّ الصدقَ في العزيمة)** ويناقضه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [التوبة:

---

(١) الذريعة ص ١٩٣.

٤٥] (فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة، كما يقال: لفلان شهوة صادقة، ويقال: لهذا المريض شهوة كاذبة، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي، أو كانت ضعيفة، فقد يطلق الصدق ويُراد به هذا المعنىٰ، والصادق والصدِّيق هو الذي تصادَف عزيمته في الخيرات كلِّها قوية تامة، ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردُّد، بل تسخو نفسه أبدًا بالعزم المصمَّم الجازم علىٰ الخيرات، وهو كما قال عمر رضي الله عنه) في يوم سقيفة بني ساعدة لمَّا أشيرَ إليه بالخلافة: (لأنْ أُقدَّم فتُضرَب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمَّر علىٰ قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه) فهذا هو الصدق في العزم (فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم) القوي (والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمَّر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه، وأكَّد ذلك بما ذكره من القتل.

ومراتب الصدِّيقين في العزائم تختلف، فقد يصادف العزمَ ولا ينتهي به إلىٰ أن يرضىٰ بالقتل فيه، ولكن إذا خُلِّي ورأيه لم يُقدِم، ولو ذُكر له حديث القتل لم يُنقَض عزمه[1]، بل في الصادقين والمؤمنين مَن لو خُيِّر بين أن يُقتَل هو أو أبو بكر) رضي الله عنه (كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصدِّيق) رضي الله عنه، فدرجات عزمِ الصدِّيقين تتفاوت في القوة، وأقصاها أن ينتهي إلىٰ الرضا بضرب الرقبة دون تحقيقه.

(الصدق الرابع: في الوفاء بالعزم) عند القدرة علىٰ المعزوم عليه (فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال) أي أولاً، ولكن عند الوفاء ربما تتوانَىٰ عن كمال التحقيق (إذ لا مشقَّة في الوعد والعزم، والمؤنة فيه خفيفة) هيِّنة، وإنما الشدة في التحقيق (فإذا حُقِّقت الحقائق وحصل التمكُّن وهاجت الشهوات انحلَّت العزيمة، وغلبت الشهواتُ، ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضادُّ الصدقَ فيه) وذلك أن الولاية الصغرىٰ عدم الخواطر المذمومة عند وجود الأسباب المهيِّجة لها، فإذا حققنا انقسم الناس في ذلك أربعة أقسام، القسم الأول: إذا صحَّت الأسباب

---

(١) ولكنه يحتاج إلىٰ صدق آخر، وهو صدق الوفاء بالعزم، وهو الذي سيردفه الغزالي بعد. وفي ب: لم ينهض عزمه. وفي أ، وط المنهاج ٩/ ١٠٣: لانتقض عزمه.

المناسبة لتحلُّل العزم، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] فقد ينحلُّ العزم ولا يقدر علىٰ الوفاء بما عزم عليه. القسم الثاني: يتزلزل عزمُهم وتتردَّد هِمَمُهم، ثم يمدُّهم الله تعالىٰ بمعونته فيقوَىٰ عزمُهم، قال الله تعالىٰ: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ⑪﴾ القسم الثالث: يثبُت عزمُهم علىٰ حالتهم الأولىٰ من غير زيادة ولا نقصان (**ولذلك قال الله تعالىٰ**: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣] القسم الرابع: يقوَىٰ عزمُهم ويزداد بمشاهدة تلك الأسباب والأهوال، وهذا هو الصدِّيقية العظمىٰ في الولاية الكبرىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ㉒﴾ [الأحزاب: ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾ [آل عمران: ١٧٣] وهذا هو الصدق في التوكل وأعلىٰ درجاته؛ لأنه انصراف القلب إلىٰ الله تعالىٰ بالأسباب الموجِبة للانصراف عنه.

وهذه الأقسام تجري في كل معزوم عليه من الواجب والمستحَب من ذلك بحسب المعزوم عليه، فلو عزم علىٰ أن لا ينظر إلىٰ محرَّم أبدًا فلو فاجأته بعد تحقُّق عزمه امرأةٌ جميلة شريفة المقدار وجب عليه الوفاء بعزمه، وكانت الأربعة جارية في حقِّه بحسب قوة إيمانه وضعفِه. ولو عزم صوفيٌّ علىٰ أن لا ينظر إلىٰ زينة الدنيا ولا يستحسن منها شيئًا فلو فاجأه ملك من الملوك في زينته وحفدته وانفهقت له أمثلة الجنة مثالاً حتىٰ يرىٰ ما أعدَّه الله لعباده منها استُحِبَّ له الوفاء بعزمه إن كان عارفًا بالله، وكانت الأقسام الأربعة جارية في حقِّه بحسب طهارة قلبه وغزارة علمه (**فقد رُوي عن أنس**) ابن مالك بن النضر بن ضمضم الأنصاري رضي الله عنه (**أن عمَّه أنس بن النضر**) بن ضمضم الأنصاري الخزرجي رضي الله عنه (**لم يشهد بدرًا مع رسول الله ﷺ، فشقَّ ذلك علىٰ قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبتُ عنه، أما واللهِ لئن**

أراني الله مشهدًا مع رسول الله ﷺ ليَرينَّ اللهُ ما أصنع. قال: فشهد أُحدًا في العام القابل، فاستقبله سعد بن معاذ) بن النعمان الأنصاري سيد الأوس، وهو الذي اهتزَّ لموته العرشُ **(فقال: يا أبا عمرو)** وهي كنية أنس بن النضر، كما هو مقتضىٰ سياق المصنف، والصحيح أنها كنية سعد بن معاذ **(إلىٰ أين؟ فقال: واهًا لريح الجنة، إني أجد ريحها دون أُحد. فقاتل حتىٰ قُتل، فوُجِد علىٰ جسده بضع وثمانون من بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته)** الرُّبَيِّع **(بنت النضر)** عمَّة أنس بن مالك: **(ما عرفتُ أخي إلا بثيابه**[1]**)** كذا في النسخ، وهو تصحيف، والصحيح: ببنانه، أي أصبعه **(فنزلت هذه الآية: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾)** [الأحزاب: ٢٣] قال العراقي[2]: رواه الترمذي[3] وقال: حسن صحيح، والنسائي في الكبرىٰ[4]، وهو عند البخاري[5] مختصرًا أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر.

قلت: رواه البخاري من طريق حميد عن أنس ومن طريق ثُمامة عن أنس أن عمَّه أنس بن النضر غاب عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلتَ فيه المشركين، واللهِ لئن أشهدني اللهُ قتالَ المشركين ليَرينَّ اللهُ ما أصنع. فلمَّا كان يوم أُحد انكشف المسلمون، فقال: اللهم إني أعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء، يعني المشركين. ثم تقدَّم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: أي سعد، هذه الجنة ورب أنس، إني أجد ريحها دون أُحد. قال سعد: فما استطعتُ ما صنع يومئذٍ، فقُتل يومئذٍ ... فذكر الحديث. وقد أخرجه ابن منده من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. وذكر الحافظ في ترجمة الربيِّع

---

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ١٠٤: ببنانه.

(٢) المغني ٢/ ١١٨٠.

(٣) سنن الترمذي ٥/ ٢٥٩ - ٢٦٠.

(٤) السنن الكبرىٰ ٧/ ٣٦٥، ١٠/ ٢١٨.

(٥) صحيح البخاري ٢/ ٣٠٧، ٣/ ١٠٣، ٢٧٧.

من الإصابة[١] ما لفظه: ولأنس عنها رواية في صحيح مسلم[٢] في قصة قتل أخيها أنس بن النضر لمَّا استشهد بأُحد، قال أنس: فقالت أخته الربيِّع عمَّتي بنت النضر: ما عرفت أخي إلا ببنانه. قال: وهذا صريح في روايته عن عمَّته، وهو عند البخاري من وجه آخر عن أنس بلفظ: ما عرفته إلا أخته. وقال الحارث بن أبي أسامة في مسنده ومن طريقه أخرجه أبو نعيم في الحلية[٣]: حدثنا عبد الله بن بكر السهمي، حدثنا حميد، عن أنس بن مالك قال: غاب أنس بن النضر عم أنس بن مالك عن قتال بدر، فلمَّا قدم قال: غبتُ عن أول قتال قاتله رسولُ الله ﷺ المشركين، لئن أشهدني الله قتالاً ليَرينَّ اللهُ ما أصنع. فلما يوم كان أُحد انكشف الناس، قال: اللهم إني أبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء، يعني المشركين، وأعتذر إليك ممَّا صنع هؤلاء. يعني المسلمين، ثم مشىٰ بسيفه، فلقيه سعدُ بن معاذ، فقال: أي سعد، والذي نفسي بيده إني لأجدُ ريح الجنة دون أُحد، واهًا لريح الجنة. قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع. قال أنس: وُجِد بين القتلىٰ به بضع وثمانون جراحة من ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، قد مثَّلوا به. قال: فما عرفناه حتىٰ عرفته أخته ببنانه. قال أنس: فكنا نقول لما نزلت هذه الآية ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أنها فيه وفي أصحابه.

(ووقف رسول الله ﷺ علىٰ) أبي عبد الله (**مصعب بن عمير**) بن هاشم بن عبد مناف العبدري (**وقد سقط علىٰ وجهه يوم أحد شهيدًا، وكان صاحب لواء رسول الله ﷺ**) يومئذ (**فقال ﷺ**: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾، قال العراقي[٤]: رواه أبو نعيم في الحلية[٥] من رواية عبيد

(١) الإصابة ١٢/ ٢٥٢ - ٢٥٣.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ٩١٨.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٢١.

(٤) المغني ٢/ ١١٨٠.

(٥) حلية الأولياء ١/ ١٠٧ - ١٠٨.

ابن عمير مرسلاً.

قلت: قال أبو نعيم: حدثنا إبراهيم بن عبد الله وأحمد بن محمد بن الحسن قالا: حدثنا محمد بن إسحاق السَّرَّاج، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا حاتم بن إسماعيل، عن عبد الأعلىٰ بن عبد الله بن أبي فروة، عن قَطَن بن وهب، عن عبيد بن عمير قال: لما فرغ رسول الله ﷺ يوم أحد مرَّ علىٰ مصعب بن عمير مقتولاً علىٰ طريقه، فقرأ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

قال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا عمر بن حفص السدوسي، حدثنا أبو بلال الأشعري، حدثنا يحيىٰ بن العلاء، عن عبد الأعلىٰ بن عبد الله بن أبي فروة، عن قَطَن بن وهب، عن عبيد بن عمير قال: مرَّ رسول الله ﷺ علىٰ مصعب بن عمير حين رجع من أُحد، فوقف عليه وعلىٰ أصحابه، فقال: «أشهد أنكم أحياء عند الله، فزوروهم وسلِّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلِّم عليهم أحد إلا ردُّوا عليه إلىٰ يوم القيامة».

وعبيد[١] بن عمير بن قتادة الليثي، أبو عاصم المكِّي، وُلِد علىٰ عهد النبي ﷺ؛ قاله مسلم، وعدَّه غيرُه من كبار التابعين، وكان قاصَّ أهلِ مكة، مجمع علىٰ ثقته، روىٰ له الجماعة.

(**وقال فضالة بن عبيد**) بن[٢] نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي رضي الله عنه، أول ما شهد [شهد] أحدًا، ونزل دمشق وولي قضاءها، مات سنة ثمان وخمسين، وقيل: قبلها (**سمعت عمر بن الخطاب** رضي الله عنه **يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: الشهداء أربعة: رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدوَّ فصدق اللهَ حتىٰ قُتل، فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا**) قال الراوي: (**ورفع رأسه حتىٰ**

(١) تقريب التهذيب ص ٦٥١.

(٢) السابق ص ٧٨١.

وقعت قلنسوته. قال الراوي) لهذا الحديث: **(فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ. ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدوَّ فكأنَّما يضرب وجهه بشوك الطَّلْح)**: شجر كثير الشوك **(أتاه سهم عائر فقتله)** لا يُعرَف راميه **(فهو في الدرجة الثانية، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحًا وآخر سيئًا لقي العدوَّ فصدق الله حتىٰ قُتل، فذلك في الدرجة الثالثة. ورجل أسرف علىٰ نفسه لقي العدوَّ فصدق اللهَ حتىٰ قُتل، فذاك في الدرجة الرابعة)** قال الحافظ في الفتح[1]: هذا الحديث ونحوه يفيد أن الشهداء ليسوا في مرتبة واحدة، ويدل عليه أيضًا ما رواه الحسن بن علي الحُلواني في كتاب المعرفة بإسناد حسن من حديث عليٍّ كرَّم الله وجهه: «كل موتة يموت بها المسلم فهو شهيد». غير أن الشهادة تتفاضل.

قال العراقي: رواه الترمذي[2] وقال: حسن.

قلت: رواه الطيالسي[3] وأحمد[4] وأبو يعلىٰ[5] وأبو الشيخ والبيهقي[6] والديلمي، ولفظ الجميع: «ورجل مؤمن جيد الإيمان إذا لقي العدوَّ فكأنَّما ضُرِب جلده بشوك طَلْح من الجبن أتاه سهم غَرْب فقتله ...»، والباقي سواء، ولم يقولوا: ورفع رأسه ... إلىٰ آخر الجملة.

(وقال مجاهد) رحمه الله تعالىٰ: **(رجلان خرجا علىٰ ملأ من الناس قعود فقالا: إن رزقنا الله مالاً لنصَّدَّقنَّ به. فبخلوا به، فنزلت)** هذه الآية: **(﴿وَمِنْهُم مَّنْ**

---

(١) فتح الباري ٦/ ٥٢.

(٢) سنن الترمذي ٣/ ٢٧٩.

(٣) مسند الطيالسي ١/ ٥١.

(٤) مسند أحمد ١/ ٢٩١، ٢٩٣.

(٥) مسند أبي يعلىٰ ١/ ٢١٧.

(٦) شعب الإيمان ٦/ ١٢٢.

عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾)[1] [التوبة: ٧٥] قال ابن أبي الدنيا في الصمت[2]: حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا عباس بن الوليد، حدثنا يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة في قوله ﷿: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية، قال: ذُكِر لنا أن رجلاً من الأنصار أتىٰ علىٰ مجلس للأنصار فقال: لئن آتاه الله مالاً ليؤتينَّ كلَّ ذي حق حقَّه، فآتاه الله مالاً، فصنع فيه ما تسمعون: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

(وقال بعضهم[3]: إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به، فقال) تعالىٰ: (﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾) روىٰ الباوَرْدي وابن السكن وابن شاهين وغيرهم من طريق مُعان بن رفاعة عن علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال: يا رسول الله، ادْعُ الله أن يرزقني مالاً ... فذكر الحديث بطوله في دعاء النبي ﷺ له، وكثرة ماله، ومنعه الصدقة، ونزول قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ الآية، وفيه أن النبي ﷺ مات ولم يقبض منه الصدقة ولا أبو بكر ولا عمر، ومات في خلافة عثمان. كما مر ذلك بطوله في كتاب ذم الدنيا[4]، ورواه البيهقي في الشعب[5] من هذا الطريق كذلك وقال في آخره: وإنما لم يأخذ النبي ﷺ زكاة ماله ولا مَن بعده لأنه كان قد نافقَ، والكتاب الذي نزل في شأنه ناطقٌ بذلك،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الصمت وآداب اللسان ص ٢٥١، والطبري في جامع البيان ١١/ ٥٨٢، وابن بشكوال في الغوامض والمبهمات ص ٧٤٤.

(٢) الصمت وآداب اللسان ص ٢٥١.

(٣) هو سعيد بن ثابت، كما رواه عنه الطبري في جامع البيان ١١/ ٥٨٧.

(٤) بل في كتاب ذم البخل وحب المال.

(٥) شعب الإيمان ٦/ ١٩٩ – ٢٠٠.

حيث قال: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ الآية [التوبة: ٧٧] وعلموا بهذا بقاءه على نفاقه حتى يموت، وأن إتيانه بصدقة ماله مخافةَ أن تؤخَذ منه قهرًا. قال: وفي إسناد هذا الحديث نظرٌ، وهو مشهور فيما بين أهل التفسير. ا.هـ.

والمسمَّىٰ بهذا الاسم رجلان، أحدهما: ثعلبة بن حاطب بن عمرو بن عبيد الأوسي الأنصاري، ذكره موسىٰ بن عُقبة وابن إسحاق في البدريين، وكذا ذكره ابن الكلبي، وزاد أنه قُتل بأُحد. والثاني: ثعلبة بن حاطب - أو ابن أبي حاطب - الأنصاري، ذكره ابن إسحاق فيمَن بنىٰ مسجد الضِّرار. قال الحافظ في الإصابة: وفي كون صاحب القصة - إن صح الخبر، ولا أظنه يصح - هو البدري المذكور نظرٌ، وقد تأكَّدت المغايرةُ بينهما بقول ابن الكلبي: إن البدري استشهد بأُحد. قال: ويقوِّي ذلك أن رجلاً يقال له ثعلبة بن أبي حاطب من الأنصار أتىٰ مجلسًا فأشهدَهم فقال: لئن آتاني الله مالاً ... الآية، فذكر القصة بطولها فقال: إنه ثعلبة بن أبي حاطب، والبدري اتفقوا علىٰ أنه ثعلبة بن حاطب، وقد ثبت أنه ﷺ قال: «لا يدخل النار أحدٌ شهد بدرًا والحُدَيبية». وحكىٰ عن ربِّه أنه قال لأهل بدر: «اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم». فمَن يكون بهذه المثابة كيف يعقبه الله نفاقًا في قلبه وينزل فيه ما نزل؟! فالظاهر أنه غيره. والله أعلم.

(**فجعل العزم عهدًا**) إذ كانوا عزموا في أنفسهم ولم يتكلَّموه، فقال: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ (**وجعل الخُلف فيه كذبا**) بقوله: ﴿وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ۝٧٧﴾ (**والوفاء به صدقًا، وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث**) وأرفع منه مقامًا (**فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسع**) أي تتوانَىٰ (**عند الوفاء لشدته عليها، ولهيجان الشهوات عند التمكُّن وحصول الأسباب، ولذلك استثنىٰ عمر** رضي الله عنه **فقال: لأن أقدَّم فتُضرَب عنقي أحب إليَّ من أن أتأمَّر علىٰ قوم**) أي أصير أميرًا عليهم (**فيهم أبو بكر**) رضي الله عنه (**اللهم إلا أن تسوِّل لي نفسي عند القتل شيئًا لا أجده الآن**)[1] أي

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ٤/ ٢٥٨ عن ابن عباس.

تزيِّن (لأني لا آمَنُ أن يثقُل عليها ذلك فتتغيَّر عن عزمها) وذلك لأن النفوس البشرية مجبولة علىٰ الانقلاب عن حالة إلىٰ حالة (أشار بذلك إلىٰ شدة الوفاء بالعزم.

وقال أبو سعيد) أحمد بن عيسىٰ (الخرَّاز) رحمه الله تعالىٰ: (رأيت في المنام كأنَّ ملَكينِ نزلا من السماء فقالا لي: ما الصدق؟ قلت: الوفاء بالعهد. فقالا: صدقتَ. وعرجا إلىٰ السماء[1].

الصدق الخامس: في الأعمال، وهو أن) لا يكذب أعماله وأحواله، وذلك بأن (يجتهد حتىٰ لا تدل أعماله الظاهرة علىٰ أمر في باطنه لا يتَّصف هو به) أي لا يدل علىٰ شيء من الظاهر إلا والباطن متَّصف به (لا بأن يترك الأعمال) رأسًا (وذلك بأن يستجرَّ الباطنَ إلىٰ تصديق الظاهر. وهذا يخالف ما ذكرناه من ترك الرياء؛ لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك لأجل الخَلق، ورُب واقف علىٰ هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة، فمَن ينظر إليه يراه قائمًا بين يدي الله تعالىٰ، وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته، فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابًا هو فيه كاذب، وهو مطالَب بالصدق في الأعمال، وكذلك قد يمشي الرجل علىٰ هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفًا بذلك الوقار، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن متلفِّتًا إلىٰ الخَلق ولا مرائيًا إياهم) أي إن التفت قلبه إلىٰ أن يخيِّل إلىٰ الناس أنه ذو وقار في ظنه فذلك الرياء، وإن لم يلتفت إلىٰ الخلق قلبُه ولكنه غافل فذلك ليس برياء ولكن يفوت به صدقُه، كما يشير إليه المصنِّف بعدُ (ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرًا من ظاهره) وهذا أرفع مقامًا من الأول (ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويشَ الظاهر ولبس ثياب الأشرار) قباء وقلنسوة واستعمال آلات السلاح وركوب الخيل مع هيئاتهم (كيلا يُظَن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبًا في دلالة الظاهر علىٰ الباطن) وهذا هو مَشرب

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٨٧.

الطائفة العليَّة النقشبندية قدَّس الله أسرارهم (**فإذًا مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصدٍ سُمِّيت رياءً ويفوت بها الإخلاص، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق**) وإن لم يُسَمَّ رياء (**ولذلك قال رسول الله ﷺ: اللهم اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعلْ علانيتي صالحة**) رواه الترمذي[1] وضعَّفه من حديث عمر بلفظ: «قل: اللهم اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعل علانيتي صالحة، اللهم إني أسألك من صالح ما تؤتي الناس من المال والأهل والولد غير الضال ولا المضِل».

وقال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أبو شعيب الحَرَّاني، حدثنا عبيد الله بن محمد العيشي، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا عبد الرحمن بن إسحاق، حدثني رجل من قريش، عن ابن عكيم قال: قال عمر: قال لي رسول الله ﷺ: «قل: اللهم اجعل سريرتي خيرًا من علانيتي، واجعل علانيتي حسنة».

(**وقال زبيد بن الحارث**) رحمه الله تعالىٰ: (**إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النَّصَف**) أي العدل (**وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور**[3]).

وأنشدوا) في ذلك:

(**إذا السر والإعلان في المؤمن استوىٰ ... فقد عزَّ في الدارين واستوجب الثنا**
فإن خالف الإعلانُ سرًّا فما له ... علىٰ سعيه فضلٌ سوىٰ الكدِّ والعَنا

---

(١) سنن الترمذي ٥/ ٥٤١ - ٥٤٢.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٥٣.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢٢٨، وابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية ص ٥٣. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٣٠ عن سفيان الثوري قال: كان يقال: من كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل، ومن كانت سريرته شرا من علانيته فذلك الجور.

كما خالص الدينار في السوق نافقٌ ومغشوشه المردود لا يقتضي المُنا[١]

وقال عطية بن عبد الغافر) كذا في النسخ، والصواب: عقبة[٢] بن عبد الغافر، وهو أبو نهار الأزدي العَوذي البصري، روىٰ له البخاري ومسلم والنسائي، مات سنة ثلاث وثمانين قبل المائة **(إذا وافقت سريرةُ المؤمن علانيتَه باهَىٰ الله به الملائكةَ، يقول: هذا عبدي حقًّا**[٣].

وقال معاوية بن قُرَّة) بن[٤] إياس بن هلال المُزَني، أبو إياس البصري، ثقة، مات سنة ثلاث عشرة ومائة وهو ابن ست وسبعين سنة، روىٰ له الجماعة **(مَن يدلُّني علىٰ بَكَّاء بالليل بَسَّام بالنهار)**[٥] رواه المزي في تهذيب الكمال[٦].

وأنشد صاحب القاموس في البصائر[٧] لبعض الشعراء:

خُلِقتُ بغير ذنب من تراب فأرجعُ بالذنوب إلىٰ التراب

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

(٢) تقريب التهذيب ص ٦٨٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢١٢ بلفظ: «إذا عمل العبد في السر عملا حسنا ثم عمل في العلانية مثله قال الله عز وجل: هذا عبدي حقا». ورواه أحمد في الزهد ص ٢٥٢ وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٦١ بزيادة في أوله: «دعوة في السر أفضل من سبعين في العلانية، وإذا عمل ...» الخ. ورواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٠٥ وهناد في الزهد ١/ ٣٠٠ وأحمد في الزهد ص ١٩٤ عن مطرف بن عبد الله بلفظ: «إن العبد إذا استوت سريرته وعلانيته قال الله عز وجل: هذا عبدي حقا». وقد رواه الخطيب في المتفق والمفترق ص ١٢٥٩ - ١٢٦٠ والديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ١٢٩ بنحوه مرفوعا من حديث ابن عباس.

(٤) تقريب التهذيب ص ٩٥٦.

(٥) رواه أحمد في الزهد ص ٢٣٤، ٢٦٦، والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٢٢٧، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٩٩.

(٦) تهذيب الكمال ٢٨/ ٢١٣.

(٧) بصائر ذوي التمييز ٢/ ٢٩٧، وليس فيه البيت الثالث. ولم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

أنـا وجميـع مَـن فـوق الـتراب ... فـداءُ تـراب نعـل أبـي تـراب

هـو البَـكَّاء في المحـراب ليـلاً ... هـو البَسَّـام في يـوم الضِّـراب

(وقال عبد الواحد بن زيد) البصري العابد رحمه الله تعالىٰ: **(كان الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ **(إذا أمر بشيء كان من أعملِ الناس به، وإذا نهىٰ عن شيء من أتركِ الناس له، ولم أرَ أحدًا قط أشبه سريرة بعلانية منه)**[1] نقله صاحب القوت.

(وكان أبو عبد الرحمن) محمد بن الحسين **(الزاهد)** رحمه الله تعالىٰ **(يقول: إلهي، عاملتُ الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة. ويبكي)** يشير إلىٰ عدم استواء السريرة بالعلانية.

(وقال أبو يعقوب) إسحاق[2] بن محمد **(النهرجوري)** صحب الجنيدَ وغيرَه، ومات بمكة مجاورًا سنة ٣٣٠، وأخذ أيضًا عن أبي يعقوب السوسي، وعنه أبو عبد الله عثمان المكي[3] **(الصدق: موافقة الحق في السر والعلانية**[4]**.**

فإذًا مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق) وهذا هو الفرق بين الإخلاص والصدق؛ لأن حقيقة الإخلاص إرادة الله بالطاعات، فقد يكون الرجل

---

(١) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٤٧ ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٥١ ووكيع في أخبار القضاة ص ٢٣٩ عن خالد بن صفوان قال: لقيت مسلمة بن عبد الملك بالحيرة بعد هلاك ابن المهلب فقال: يا خالد، أخبرني عن حسن أهل البصرة. قلت: أصلح الله الأمير، أخبرك عنه بعلم، أنا جاره إلىٰ جنبه وجليسه في مجلسه وأعلم من قبلي به، أشبه الناس سريرة بعلانية، وأشبه قولا بفعل، إن قعد علىٰ أمر قام به، وإن قام علىٰ أمر قعد عليه، وإن أمر بأمر كان أعمل الناس به، وإن نهىٰ عن شيء كان أترك الناس له، رأيته مستغنيا عن الناس، ورأيت الناس محتاجين إليه. قال: حسبك يا خالد، كيف يضل قوم هذا فيهم؟

(٢) الرسالة القشيرية ص ١١٠.

(٣) في الرسالة: «صحب أبا عمرو المكي وأبا يعقوب السوسي والجنيد وغيرهم».

(٤) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٢٨٦، وزاد: «وحقيقة الصدق القول بالحق في مواطن التهلكة».

يريد بالصلاة وجهَ الله تعالىٰ ولكنه غافل عن حضور القلب فيها، فالصدق هنا هو حضوره مع الله تعالىٰ مع إرادته وجه الله، وهذا هو معنىٰ الانفصال والاتصال اللذينِ ذكرهما أبو إسماعيل الهَرَوي رحمه الله تعالىٰ[1]؛ لأنه انفصل عن غير الله، واتَّصل بالحضور بالله، لكن الانفصال يُشعِر أن يكون حضوره واستفراغه ضروريًّا لا ينفصل عنه بكسب حتىٰ ينفصل عنه بنفسه، وإياك أن تفهم من الاتصال والانفصال ما يُفهَم من انفصال أجسام ذوي الأحياز واتصالها، فإنَّ ذلك مُحال في حق خالق السموات والأرض.

(**الصدق السادس، وهو أعلىٰ الدرجات وأعزُّها**) وهو (**الصدق في مقامات الدين، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والحب والتوكل وسائر هذه الأمور، فإنَّ هذه الأمور لها مبادٍ ينطلق الاسم بظهورها، ثم لها غايات وحقائق**) وكل واحد علىٰ انحطاطه وارتفاعه يُراد لغيره؛ إذ الأحوال والمقامات لا نهاية لها (**والصادق المحقَّق مَن نال حقيقتَها، وإذا غلب الشيءَ وتمَّت حقيقتُه سُمِّي صاحبه صادقًا فيه**) وهذا (**كما يقال: فلان صدق القتال، ويقال: هذا هو الخوف الصادق، وهذه هي الشهوة الصادقة**) فالصدق في كل واحد أن يقوَىٰ إلىٰ أن يؤدي إلىٰ مقصوده، ومن ذلك المقصودِ إلىٰ مقصود أعلىٰ منه فصاعدًا، كما تصدُق المعرفةُ حتىٰ تؤدي إلىٰ المحبة، وتصدق المحبة حتىٰ تؤدي إلىٰ الرضا والأنس والطمأنينة والشوق، وذلك ما لا يتناهَىٰ، وهذا هو التحقيق في تمييز المقامات وتخليص بعضها من بعض، فإذا حقَّقتَ أحوالك وخلَّصتَها من الأغيار والشوائب ارتقيتَ من تحقيقك إلىٰ تحقيقك، وكنت بلا أنت، والتفريد: وقوفك مع الله بلا علم ولا حال لشغلك بانفراده بما هو عليه من الكمال والجلال وشمول القدرة والسلطان، فالصادق في جملة ذلك هو الصادق مطلقًا، والكاذب في جملته هو الكاذب مطلقًا، المخلَّد في النار أبدًا، والصادق في البعض دون البعض علىٰ

---

(١) انظر: منازل السائرين ص ١٢٢- ١٢٤.

خطر، وهو في مشيئة الله تعالىٰ (و) لذلك (قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝١٥﴾ [الحجرات: ١٥] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ إلىٰ قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾) [البقرة: ١٧٧] وهو صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة، وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان.

(وسُئل أبو ذر) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (عن الإيمان، فقرأ هذه الآية، فقيل له: سألناك عن الإيمان. فقال: سألت رسول الله ﷺ عن الإيمان) كما سألتموني عنه (فقرأ هذه الآية) قال العراقي[١]: رواه محمد بن نصر المروزي في تعظيم قدر الصلاة[٢] بأسانيد منقطعة.

فهذه درجات الصدق، فمَن تحقَّق في جميعها فهو صِدِّيق، ومَن لم يُصِبْ إلا بعضها فرتبته بقدْر صدقه.

وقال[٣] صاحب منازل السائرين[٤]: الصدق اسم لحقيقة الشيء [بعينه] حصولاً ووجودًا. ا.هـ. والصدق هو حصول الشيء وتمامه وكمال قوَّته واجتماع أجزائه، كما يقال: عزيمة صادقة، إذا كانت قوية تامة، وكذلك محبة صادقة وإرادة صادقة، وكذلك حلاوة صادقة، إذا كانت قوية تامة، ثابتة الحقيقة، لم ينقُص منها شيءٌ. ومن هذا أيضًا: صدقُ الخبر؛ لأنه وجود المخبَر به بتمام حقيقته في ذهن السامع، وهو علىٰ ثلاث درجات:

الأولىٰ: صدقُ القصد، وبه يصح الدخول في هذا الشأن، ويُتلافَىٰ كل تفريط،

---

(١) المغني ٢/ ١١٨١.

(٢) تعظيم قدر الصلاة ص ٤١٦ - ٤١٧.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٢٦٧ - ٢٧١. بصائر ذوي التمييز ٣/ ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٤) منازل السائرين ص ٥٥ - ٥٧.

ويُتدارَك كل فائت، ويعمر كل خراب. وعلامة هذا الصادق أن لا يحتمل داعيةً تدعو إلىٰ نقض عهد، ولا يصبر علىٰ صحبة ضد، ولا يقعد عن الجد بحال.

والدرجة الثانية: أن لا يتمنىٰ الحياة إلا للحق، ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان، ولا يلتفت إلىٰ ترفيه الرُّخَص، أي لا يحب أن يعيش إلا في طلب رضا محبوبه ويقوم بعبوديَّته، ويستكثر من الأسباب التي تقرِّبه منه، ولا يلتفت إلىٰ الرفاهية التي في الرُّخَص، بل يأخذ بها اتِّباعًا وموافقة، وشهودًا لنعمة الله علىٰ عبده، وتعبُّدًا باسمه اللطيف المحسن الرفيق، وأنه رفيق يحب الرفق.

الدرجة الثالثة: الصدق في معرفة الصدق. يعني أن الصدق المحقَّق إنما يحصل لمَن صدقَ في معرفة الصدق، أي لا يحصل حال للصادق إلا بعد معرفة الصدق، ولا يستقيم الصدق في علم أهل الخصوص إلا علىٰ حرف واحد وهو أن يتفق رضا الحق بعمل العبد وحاله ووقته وإيقانه وقصدِه، وذلك أن العبد إذا صدق اللهَ رضي الله بفعله وبعمله وحاله ويقينه وقصده، لا أن رضا الله نفس الصدق، وإنما يُعلَم الصدق بموافقة رضاه سبحانه، ولكن من أين يعلم [العبد] رضاه؟ فمن ههنا كان الصادق مضطرًّا أشد ضرورة إلىٰ متابعة الأمر والتسليم للرسول ﷺ في ظاهره وباطنه والتعبُّد به في كل حركة وسكون، مع إخلاص القصد لله، فإنَّ الله سبحانه لا يرضيه من عبده إلا ذلك. انتهىٰ.

(ولنضرب للخوف مثلاً: فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخِر إلا وهو خائف من الله خوفًا ينطلق عليه الاسم، ولكنه خوف غير صادق، أي غير بالغ درجة **الحقيقة، أما تراه إذا خاف سلطانًا أو قاطع طريق في سفره)** من إنسان أو سبع **(كيف يصفرُّ لونه)** ويتغيَّر حاله **(وترتعد فرائصه، ويتنغَّص عليه عيشه، ويتعذَّر عليه أكلُه ونومه، وينقسم عليه فكرُه)** وبالُه **(حتىٰ لا ينتفع به أهله وولدُه، وقد ينزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة، وبالراحة التعب والمشقة والتعرُّض للأخطار)** والمهالك **(كل ذلك خوفًا من درك المحذور. ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه**

شيء من ذلك عند جريان معصية عليه، ولذلك قال ﷺ: لم أرَ مثل النار نام هاربها، ولا مثل الجنة نام طالبها) تقدَّم **(فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدًّا، ولا غاية لهذه المقامات حتىٰ ينال تمامَها، ولكن لكل عبد منه حظ بحسب حاله، إما ضعيف وإما قويٌّ، فإذا قويَ سُمِّي صادقًا فيه، فمعرفة الله وتعظيمه والخوف منه لا نهاية لها، ولذلك قال النبي ﷺ لجبريل عليه السلام: أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك. فقال)** جبريل: **(لا تطيق ذلك. قال)** ﷺ: **(بلىٰ)** أطيق ذلك **(أرني)** قال: **(فواعدَه البقيعَ في ليلة مقمرة فأتاه، فنظر النبي ﷺ فإذا هو به قد سد الأفق - يعني جوانب السماء - فوقع النبي ﷺ مغشيًّا عليه، فأفاق وقد عاد جبريل)** عليه السلام **(لصورته الأولىٰ، فقال النبي ﷺ: ما ظننت أن أحدًا من خلق الله هكذا. قال: وكيف لو رأيت إسرافيل، إن العرش لعلىٰ كاهله، وإن رجليه قد مرقتا تخومَ الأرضين السفلىٰ، وإنه لَيتصاغرُ من عظمة الله حتىٰ يصير كالوَصَع)** بفتح الصاد المهملة **(يعني كالعصفور الصغير)** قال العراقي[1]: تقدم في الخوف والرجاء أخصر من هذا[2]، والذي ثبت في الصحيح أنه رأىٰ جبريل في صورته مرتين.

---

(١) المغني ٢/ ١١٨١.

(٢) أما السياق الذي أورده الغزالي فقد رواه الثعلبي في الكشف والبيان ١٠/ ١٤٢ ومن طريقه البغوي في معالم التنزيل ٨/ ٣٥٠ عن ابن عباس بلفظ: «قال رسول الله ﷺ لجبريل: إني أحب أن أراك في صورتك التي تكون فيها في السماء. قال: لن تقوىٰ علىٰ ذلك. قال: بلىٰ. قال: فأين تشاء أن أتخيل لك؟ قال: بالأبطح. قال: لا يسعني. قال: فههنا. قال: لا يسعني. قال: فبعرفات. قال: ذلك بالحري أن يسعني. فواعده، فخرج النبي ﷺ في الوقت فإذا هو بجبريل قد أقبل من جبال عرفات بخشخشة وكلكلة، قد ملأ ما بين المشرق والمغرب، ورأسه في السماء، ورجلاه في الأرض، فلما رآه النبي ﷺ كبَّر وخر مغشيا عليه، فتحول جبريل في صورته فضمه إلىٰ صدره وقال: يا محمد، لا تخف، فكيف لك لو رأيت إسرافيل ورأسه من تحت العرش ورجلاه في تخوم الأرض السابعة، وإن العرش لعلىٰ كاهله، وإنه ليتضاءل أحيانا من مخافة الله عز وجل حتىٰ يصير مثل الصعو - يعني العصفور - حتىٰ ما يحمل عرش ربك إلا عظمته». ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٠١ بنحوه عن ابن شهاب الزهري مرسلا.

قلت: وروىٰ أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ في العظمة عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ لم يرَ جبريل في صورته إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورتَه فسدَّ الأفق، وأما الثانية فكان معه حين صعد به.

وروىٰ أحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ في العظمة وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معًا في الدلائل عن ابن مسعود قال: رأىٰ رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سدَّ الأفق.

وروىٰ الشيخان والترمذيٰ وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال: رأىٰ النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح[1].

(فانظر ما الذي يغشاه من العظمة والهيبة حتىٰ يرجع إلىٰ ذلك الحدِّ، وسائر الملائكة ليسوا كذلك؛ لتفاوتهم في المعرفة. فهذا هو الصدق في التعظيم) وهو كماله وثباته.

(وقال جابر) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(قال رسول الله ﷺ: مررت ليلةَ أُسري بي وجبريل بالملأ الأعلىٰ كالحِلْس البالي)** بكسر الحاء المهملة وسكون اللام وإهمال السين **(من خشية الله تعالىٰ. يعني الكساء الذي يُلقَىٰ علىٰ ظهر البعير)** تحت[2] قَتْبه، شبَّهه به لرؤيته له لاصقًا بما لطأ به من هيبة الله وشده فَرَقِه منه، وتلك الخشية التي تلبَّس بها هي التي رقَّته في مدارج التبجيل والتعظيم، وعلىٰ قدْر خوف العبد من الرب يكون قربُه.

قال العراقي[3]: رواه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة[4] والبيهقي

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب عجائب القلب، وفي كتاب الخوف والرجاء.

(٢) فيض القدير ٥/ ٥٢٠.

(٣) المغني ٢/ ١١٨١.

(٤) تعظيم قدر الصلاة ص ٨٦٩ - ٨٧٠.

في الدلائل[١] من حديث أنس، وفيه الحارث بن عبيد الإيادي، ضعَّفه الجمهور، قال البيهقي: ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير ابن عُطارد، وهذا مرسل.

قلت: حديث جابر رواه الطبراني في الأوسط[٢]، وعنده في بعض طرقه زيادة: «فعرفتُ فضل علمه بالله».

وبخط الحافظ ابن حجر: رواه[٣] البزار وابن خزيمة في التوحيد.

(وكذلك الصحابة) رضوان الله عليهم **(كانوا خائفين)** من الله تعالىٰ **(وما كانوا بلغوا خوفَ رسول الله ﷺ، ولذلك قال ابن عمر ﷺ: لن تبلغ حقيقةَ الإيمان حتىٰ تنظر الناس كلهم حمقىٰ في دين الله)** رواه أبو نعيم في الحلية[٤] قال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا محمد بن أبي سهل، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن ابن عمر قال: لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتىٰ يعدَّ الناسَ حمقىٰ في دينه.

(وقال مطرف) ابن عبد الله بن الشِّخِّير التابعي البصري رحمه الله تعالىٰ: **(ما من الناس أحد إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربِّه، إلا أن بعض الحمقىٰ أهون من**

---

(١) دلائل النبوة ٢/ ٣٦٩. ولفظ الحديث: «بينما أنا ذات يوم قاعد إذ أتاني جبريل فوكز بين كتفي، فقمت فإذا أنا بشجرة فيها مثل وكري الطير، فقعد في واحدة، وأقعدني في الأخرىٰ، فسمت فارتفعت حتىٰ سدت الخافقين، ولو شئت لمسست السماء وأنا أنظر أقلب بصري إلىٰ السماء، فالتفت إليَّ جبريل كأنه حلس لاطئ، فعرفت فضل علمه بالله تعالىٰ علىٰ علمي، ففُتح لنا أبواب السماء، فرأيت النور الأعظم، ولط دوني بحجاب ورفرفه من ياقوت، فأوحىٰ إلي ما شاء أن يوحي».

(٢) المعجم الأوسط ٥/ ٦٤. والزيادة المذكورة ليست في حديث جابر، وإنما في حديث أنس عنده ٦/ ٢١١.

(٣) يعني حديث أنس. مسند البزار ١٤/ ٩. التوحيد لابن خزيمة ص ٥٢٠.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٣٠٦.

بعض) رواه أبو نعيم في الحلية[١] قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن بن الفضل، حدثنا سليمان بن الحسن، حدثنا عبد الواحد بن غياث، حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن مطرف قال: لو حلفت لرجوت أن أبرَّ أنه ليس أحد من الناس إلا وهو أحمق فيما بينه وبين ربّه عَزَّ وَجَلَّ.

(**وقال النبي ﷺ: لا يبلغ عبدٌ حقيقةَ الإيمان حتىٰ ينظر إلىٰ الناس كالأباعر في جنب الله، ثم يرجع إلىٰ نفسه فيجدها أحقر حقير**) قال العراقي[٢]: لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع.

قلت: وفي كلام أبي الدرداء ما يشبهه، فإنه قال: إنك لا تفقه كلَّ الفقه حتىٰ تمقت الناسَ في جنب الله، ثم ترجع إلىٰ نفسك فتكون لها أشد مقتًا منك للناس. رواه أحمد في الزهد[٣].

(**فالصادق إذًا في جميع هذه المقامات عزيز، ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدقٌ في بعض الأمور دون بعض**) وهو علىٰ خطر وفي مشيئة الله تعالىٰ (**فإن كان صادقًا في الجميع فهو الصدِّيق حقًّا**) كما ينبئ عنه لفظُه (**قال سعد بن معاذ**) بن النعمان الأوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (**ثلاثة أنا فيهنَّ قويٌّ وفيما سواهنَّ ضعيف**) الأول: (**ما صلَّيت صلاةً منذ أسلمت**) وهو قديم الإسلام (**فحدَّثتُ نفسي حتىٰ أفرغ منها، و**) الثاني: (**ما شيَّعت جنازة فحدَّثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتىٰ يُفرَغ من دفنها، و**) الثالث: (**ما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمتُ أنه حق. فقال**) سعيد (**ابن المسيب**) راويه: (**ما ظننت أن هذه الخصال تجتمع**) بكمالها (**إلا في النبي ﷺ**)[٤].

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ٢٠١. وفيه: مقصر، بدل: أحمق. ورواه بلفظ قريب من لفظ المصنف: ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤١٣، وأحمد في الزهد ص ١٩٤، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ١٨٨.

(٢) المغني ٢/ ١١٨٢.

(٣) الزهد ص ١١٠.

(٤) تقدم هذا الأثر في كتاب ذم الجاه والرياء دون كلام ابن المسيب.

وروىٰ يحيىٰ بن عَبَّاد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عن عائشة قالت: كان في بني الأشهل ثلاثة لم يكن أحد أفضل منهم: سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير، وعَبَّاد بن بشر(١).

(فهذا صدقٌ في هذه الأمور، وكم قوم من جلَّة الصحابة قد أدَّوا الصلاة واتبعوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغَ.

فهذه هي درجات الصدق ومعانيه، والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تتعرَّض إلا لآحاد هذه المعاني) الستة **(نعم، قد قال أبو بكر)** محمد(٢) بن عمر **(الورَّاق)** الترمذي ثم البلخي، صحب ابنَ خضرويه، وصنَّف في الرياضات والمعاملات. له ذِكرٌ في الرسالة في آخر باب الحياء **(الصدق ثلاثة: صدق التوحيد، وصدق الطاعة، وصدق المعرفة، فصدق التوحيد لعامة المؤمنين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾** [الحديد: ١٩] **وصدق الطاعة لأهل العلم والورع، وصدق المعرفة لأهل الولاية)** الكبرىٰ **(الذين هم أوتاد الأرض.**

وكل هذا يدور علىٰ ما ذكرناه في الصدق السادس، ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق، وهو أيضًا غير محيط بجميع الأقسام.

وقال جعفر الصادق) رحمه الله تعالىٰ: **(الصدق هو المجاهدة، وأن لا تختار علىٰ الله غيرَه كما لم يختَرْ عليك غيرَك فقال تعالىٰ: ﴿هُوَ اجْتَبَىٰكُمْ﴾)** [الحج: ٧٨] وقال غيره: الصدق: القول بالحق في مواطن الهلكة. وقيل: هو موافقة السر

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٢٧٧، والطبراني في المعجم الأوسط ١/ ٢٧٥.
ورواه أبو يعلىٰ الموصلي في مسنده ٧/ ٣٥١ بلفظ: «ثلاثة من الأنصار كلهم من بني عبد الأشهل لم يكن أحد يعتد عليهم فضلا بعد رسول الله ﷺ: سعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعباد بن بشر».

(٢) الرسالة القشيرية ص ٩٢.

النطق. وقال القَنَّاد[١]: الصدق منعُ الحرام من الشدق. وقال أبو سعيد القرشي: الصادق الذي يتهيَّأ له أن يموت ولا يستحي من سرِّه لو كُشف، قال الله تعالىٰ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [البقرة: ٩٤، الجمعة: ٦] وقال عبد الواحد بن زيد: الصدق: الوفاء لله بالعمل. وقال جعفر الخَوَّاص: سمعت الجنيد يقول: حقيقة الصدق أن تصدُق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب. وسُئل فتح الموصلي عن الصدق، فأدخل يده في كير الحدَّاد فأخرج الحديدة المُحماة ووضعها علىٰ كفِّه وقال: هذا هو الصدق. وقال أبو علي الدقَّاق: الصدق أن تكون [مع الناس] كما ترىٰ من نفسك، أو أن تُرَىٰ من نفسك كما تكون. وهذه الأقوال كلها نقلها القشيري في الرسالة.

(**وقيل: أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ موسىٰ عليه السلام: إني إذا أحببت عبدًا ابتليتُه ببلايا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه، فإن وجدتُه صابرًا اتخذتُه وليًّا وحبيبًا، وإن وجدتُه جزوعًا يشكوني إلىٰ خلقي خذلته ولا أبالي.**

فإذًا من علامات الصدق: كتمان المصائب والطاعات جميعًا، وكراهة اطِّلاع الخَلق عليها) قال القشيري في الرسالة: سُئل الحارث المحاسبي عن علامات الصدق، فقال: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدْر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه، ولا يحب اطِّلاع الناس علىٰ مثاقيل الذر من حُسن عمله، ولا يكره أن يطَّلع الناس علىٰ السيئ من عمله، فإنَّ كراهته لذلك دليل علىٰ أنه يحب الزيادة عندهم، وليس هذا من أخلاق الصدِّيقين. ا.هـ.

قال صاحب القاموس: هذا[٢] إذا لم يكن له مراد بذلك سوىٰ عمارة حاله عندهم وسكناه في قلوبهم تعظيمًا له، وأما لو كان مراده بذلك تنفيذًا لأمر الله ونشرًا لدينه ودعوة إلىٰ الله فهذا الصادق حقًّا، والله يعلم سرائر القلوب ومقاصدها. ا.هـ.

---

(١) نسبة إلىٰ بيع القند، وهو عسل قصب السكر. وانظر: تاج العروس ٩/ ٧٣.

(٢) بصائر ذوي التمييز ٣/ ٣٩٦ - ٤٠٨. مدارج السالكين ٢/ ٢٥٧ - ٢٧٧.

وقال القشيري: ثلاث لا يخطئن الصادقَ: الحلاوة، والهيبة، والملاحة.

ولنختم هذا الباب بما يتعلَّق بالصدق، ثم نتبعه بحكايات الصادقين، قال صاحب القاموس في البصائر: الصدِّيق: الكثير الصدق، وقيل: مَن لم يصدر منه الكذبُ أصلاً، وقيل: مَن لا يتأتَّىٰ منه الكذبُ لتعوُّده الصدق، وقيل: مَن صدق بقوله واعتقاده وحقَّق صِدقه بفعله(١). والصدِّيقون قوم دون الأنبياء في الفضيلة، ولكن درجتهم ثاني درجة النبوَّة. وفي الجملة، منزلة الصدق من أعظم منازل القوم الذي نشأ منه جميع منازل السالكين، وهو الطريق الأقوم الذي مَن لم يَسِرْ عليه فهو من المنقطعين الهالكين، وبه تميَّز أهل النفاق من أهل الإيمان، وسكان الجنان من أهل النيران، وهو سيف الله في أرضه الذي ما وُضع علىٰ شيء إلا قطعه، ولا واجهَ باطلاً إلا أزاله وصرعه، فهو روح الأعمال، والحامل علىٰ اقتحام الأهوال، والباب الذي دخل منه الواصلون إلىٰ حضرة ذي الجلال. وقد قسَّم الله سبحانه الناس إلىٰ صادق ومنافق فقال: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤] والإيمان أساسه الصدق، والنفاق أساسه الكذب، فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما يحارب الآخر. وأخبر سبحانه أنه في القيامة لا ينفع العبدَ وينجيه من عذابه إلا صدقُه فقال تعالىٰ: ﴿هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩] وقال: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر: ٣٣ - ٣٥] فالذي جاء بالصدق هو من شأنه الصدق في قوله وعمله وحاله، فالصدق في الأقوال: استواء اللسان علىٰ الأقوال كاستواء السنبلة علىٰ ساقها، والصدق في الأعمال: استواء الأفعال علىٰ الأمر والمتابعة كاستواء الرأس علىٰ

---

(١) ذكر ذلك الراغب في المفردات ص ٢٧٧.

الجسد، والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة. فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق، وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به تكون صِدِّيقيَّته، ولذلك كان لأبي بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ذروة الصدِّيقية حتىٰ سُمِّي الصدِّيق علىٰ الإطلاق، وهو أبلغ من الصدوق، والصدوق أبلغ من الصادق، فأعلىٰ مراتب الصدق مرتبة الصدِّيقية، وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسِل، وقد أمر سبحانه رسول الله ﷺ أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه علىٰ الصدق فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الإسراء: ٨٠] وأخبر عن خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سأله أن يجعل له لسان صدق في الآخرين، وبشَّر عِبادَه أن لهم قدم صدق عند ربِّهم، وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق، ومخرج الصدق، ولسان الصدق، ومقعد الصدق، وقدم الصدق. وحقيقة الصدق في هذه الأشياء هو الحق الثابت المتصل بالله، الموصل إلىٰ الله وهو ما كان به وله من الأعمال والأقوال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة، فمدخل الصدق ومخرج الصدق أن يكون دخوله وخروجه حقًّا ثابتًا لله تعالىٰ وفي مرضاته، متصلاً بالظَّفر ببُغيته وحصول المطلوب، ضد مدخل الكذب ومخرجه الذي لا غاية له يوصل إليها، ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر، ومخرج الصدق كمخرجه ﷺ هو وأصحابه في ذلك الغزو، وكذلك مدخله المدينة كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله، فاتصل به التأييد والظَّفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة، بخلاف مدخل الكذب الذي رامَ أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله ولا لله، بل مُحادَّةً لله ورسوله، فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار. وكذلك مدخل مَن دخل من اليهود والمحاربين لرسول الله ﷺ حصن بني قريظة، فإنه لمَّا كان مدخل كذب أصابهم منه ما أصابهم، وكل مدخل ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن

علىٰ الله فهو مدخل صدق ومخرج صدق، ولذلك فُسِّر مدخل الصدق ومخرجه بخروجه ﷺ من مكة ودخوله المدينة، ولا ريب أن هذا علىٰ سبيل التمثيل، فإنَّ هذا المدخل والمخرج من أجلِّ مداخله ومخارجه ﷺ، وإلا فمداخله ومخارجه كلها مداخل صدق ومخارج صدق؛ إذ هي بالله ولله وبأمره ولابتغاء مرضاته، وما خرج أحد من بيته أو دخل سوقًا أو مدخلاً آخر إلا بصدق أو كذب، فمدخل كل أحد ومخرجه لا يعدو الصدقَ والكذب. والله المستعان. وأما لسان الصدق فهو الثناء الحسن من سائر الأمم بالصدق، ولما كان اللسان هو محلُّه عبَّر عنه به، فإن اللسان يُراد به ثلاث معانٍ: هذا، واللغة، والجارحة نفسها. وأما قدم الصدق ففُسِّر بالجنة، وفُسِّر بمحمد ﷺ، وفُسِّر بالأعمال الصالحة. وحقيقة القدم ما قدَّموه ويقدمون عليه يوم القيامة، وهم قدَّموا الأعمال والإيمان بمحمد ﷺ ويقدمون علىٰ الجنة، ومَن فسَّره بالأعمال وبالنبي ﷺ فلأنهم قدَّموها وقدَّموا الإيمان به بين أيديهم. وأما مقعد صدق فهو الجنة عند ربِّهم. ووصفُ ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره، وأنه حق، ودوامه ونفعه وكمال عائدته، فإنه متصل بالحق سبحانه، كائن به وله، فهو صدق غير كذب، وحق غير باطل، ودائم غير زائل، ونافع غير ضارٍّ، وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل. ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه، ومن علامات الكذب: حصول الريبة، كما في الترمذي مرفوعًا: «الصدق طمأنينة، والكذب ريبة». وفي الصحيحين: «إن الصدق يهدي إلىٰ البر، وإن البر يهدي إلىٰ الجنة، وإن الرجل لَيصدقُ حتىٰ يُكتَب عند الله صدِّيقًا ...» الحديث. فجعل الصدق مفتاح الصدِّيقية ومبدأها، وهي غايته، فلا ينال درجتَها كاذبٌ البتَّة لا في قوله ولا في عمله ولا في حاله، ولا سيَّما كاذب علىٰ الله في أسمائه وصفاته بنفي ما أثبته لنفسه أو بإثبات ما نفاه عن نفسه، فليس في هؤلاء صدِّيق أبدًا، وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه بتحليل ما حرَّمه، وتحريم ما أحلَّه، وإسقاط ما أوجبه، وإيجاب ما أسقطه، وكراهة ما أحبه، واستحباب ما لم يحبَّه. كل ذلك منافٍ للصدِّيقية، وكذلك الكذب معه في الأعمال بالتحلِّي بحلية الصالحين الصادقين

المخلصين الزاهدين المتوكلين وليس منهم، وكانت الصدِّيقية كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة في كل الأمور، حتىٰ إنَّ صِدق المتبايعينِ يُحِل البركةَ في بيعهما، وكذبهما يمحق بركةَ بيعهما، كما في الصحيحين: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا، فإن صدقا وبيَّنا بورِكَ لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما مُحقت بركة بيعهما». ا.هـ.

وأما حكايات الصادقين، فقال القشيري في الرسالة: سمعت الأستاذ أبا علي الدقَّاق يقول: كان أبو علي الثقفي يتكلم يومًا، فقال له عبد الله بن منازل: يا أبا علي، استعِدَّ للموت فلا بد منه. فقال أبو علي: وأنت يا عبد الله استعِدَّ للموت فإنه لا بد منه. فتوسَّد عبد الله ذراعَه ووضع رأسه وقال: قد متُّ. فانقطع أبو علي؛ لأنه لم يمكنه أن يقابله بما فعل؛ لأنه كان لأبي علي علاقات، وكان عبد الله مجرَّدًا لا شغل له. ا.هـ.

وهذا يدل علىٰ أن السالك لا يكون صادقًا إلا بقطع الأسباب المشغلة عنه، وما لم يتجرَّد لم يصدُق في حاله.

ثم قال القشيري: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: كان أبو العباس الدينوري يتكلم، فصاحت عجوز في المجلس صيحةً، فقال لها أبو العباس: مُوتي. فقامت وخطت خطوات، ثم التفتت إليه وقالت: قد متُّ. ووقعت ميتة.

قلت: وكأنَّه كان يتكلم في مقام المحبة، فلمَّا غلب عليها الوجدُ وصاحت ظن أنها غير صادقة، فدعت الله بأن لا يفضحها، فأجيبَ لها، وعلم من حالها أنها كانت مغلوبة، وهذا من علامات الصدق.

ثم قال: وقيل: نظر عبد الواحد بن زيد إلىٰ غلام من أصحابه وقد نحلَ بدنُه فقال: يا غلام، تديم الصوم؟ فقال: لا، ولا أديم الإفطار. فقال: تديم القيام بالليل؟ فقال: لا، ولا أديم النوم. فقال: فما الذي أنحلَك؟ فقال: هوىٰ دائم وكتمان دائم عليه. فقال عبد الواحد: اسكت، ما أجرأك! فقام الغلام وخطا خطوتين فقال:

إلهي، إن كنتُ صادقًا فخذني. فخرَّ ميتًا.

قلت: وإنما أمره عبد الواحد بالسكوت لأنه ظن أنه يدَّعي مقام الحب وأنه كاذب في دعواه، وكان الغلام صادقًا، فاستجاب دعاءه، ومن هنا قال بعضهم(١): إذا لقيتَ فقيرًا فالقَه بالرفق ولا تلقَه بالعلم، فإنك إذا لقيتَه بالعلم ذاب كما يذوب الثلج.

ثم قال: وحُكي عن أبي عمرو الزجاجي أنه قال: ماتت أمي، فورثت منها دارًا، فبعتها بخمسين دينارًا، وخرجت إلىٰ الحج، فلما بلغت بابل استقبلني واحد من القناقنة وقال: أيش معك؟ فقلت في نفسي: الصدق خير، ثم قلت: خمسون دينارًا. فقال: ناوِلْنيها، فناولتُه الصرَّة، فعدَّها فإذا هي خمسون [دينارًا] فقال لي: خذها، فلقد أخذني صدقُك. ثم نزل عن الدابَّة فقال: اركبْها. فقلت: لا أريد. فقال: لا بد. وألحَّ عليَّ، فركبتُها، فقال: وأنا علىٰ أثرك. فلمَّا كان العام المستقبل لحق بي ولازمني حتىٰ مات.

قلت: آبَل(٢) بالمد: اسم موضع. والقناقنة جمع قِنْقِن وهو الدليل الهادي والبصير بالماء في حفر القني(٣). والذي وقع للرجل هو من بركات الصدق وآثاره في الدنيا قبل الأخرىٰ.

ثم قال: وقيل: دخل إبراهيم بن دوحة مع إبراهيم بن ستنبة البادية، فقال إبراهيم بن ستنبة: اطرحْ ما معك من العلائق. قال: فطرحت كل شيء إلا دينارًا،

---

(١) هو أبو القاسم الجنيد، وقد تقدم قوله هذا في كتاب الزهد والفقر بلفظ: «إذا لقيتَ الفقير فالْقَه بالرفق، ولا تلقَه بالعلم، فإن الرفق يؤنسه، والعلم يوحشه. فقيل: وهل يكون فقير يوحشه العلم؟ فقال: نعم، إذا كان الفقير صادقًا في فقره فطرحتَ عليه علمك ذاب كما يذوب الرصاص في النار».

(٢) كذا قال الشارح، والمذكور في القصة: بابل، وهي إحدىٰ محافظات العراق. أما آبل فهو اسم لعدة مواضع في بلاد الشام، كما ذكره ياقوت في معجم البلدان ١/ ٥٠.

(٣) انظر: تاج العروس ٣٦/ ٢٤.

فقال: يا إبراهيم، لا تشغل سرِّي، اطرحْ ما معك من العلائق. قال: فطرحت الدينار. قال: يا إبراهيم، اطرحْ ما معك من العلائق. فتذكَّرتُ أن معي شسوعًا للنعل، فطرحتُها، فما احتجت في الطريق إلىٰ شِسْع إلا وجدتُه بين يدي، فقال ابن ستنبة: هكذا مَن عامل اللهَ بالصدق[1].

قلت: وطرحُه للدينار ليس من باب إتلاف المال وإضاعته لغير سبب موجِب، بل هو من باب تأديب النفس وزجرها لتنقطع عنها العلائق، وهذا غرض دينيٌّ لا يخفَىٰ.

وقال ابن أبي الدنيا في الصمت[2]: حدثنا عمر بن بكير النحوي، أخبرنا أبو عبد الرحمن الطائي، أخبرنا أبو بُرْدة بن عبد الله بن أبي بُردة قال: كان يقال: إن رِبعي بن حِراش لم يكذب كذبًا قط، فأقبل ابناه من خراسان قد تأجَّلا، فجاء العريف إلىٰ الحجاج فقال: أيها الأمير، إن الناس يزعمون أن ربعي بن حراش لم يكذب قط، وقد قدم ابناه من خراسان، وهما عاصيان، فقال الحجاج: عليَّ به. فلما جاء قال: أيها الشيخ، قال: ما تشاء؟ قال: ما فعل ابناك؟ قال: المستعان الله، خلَّفتهما في البيت. قال: لا جَرَم واللهِ لا أسوؤك فيهما، هما لك.

ويُروَىٰ أن رجلاً مر بلقمان والناسُ عنده، فقال: ألستَ عبد بني فلان؟ قال: بلىٰ. قال: الذي كنت ترعىٰ عند جبل كذا وكذا. قال: بلىٰ. قال: فما الذي بلغ بك ما أرىٰ؟ قال: صدقُ الحديث، وطول السكوت عمَّا لا يعنيني. رواه ابن أبي الدنيا في الصمت[3] من طريق عمرو بن قيس الملائي.

خاتمة: من شرط الصدِّيقية أن لا يعوِّد لسانَه اللعن، قال ابن أبي الدنيا[4]:

---

(١) رواه ابن الجوزي بنحوه في تلبيس إبليس ص ٣٠١ عن إسماعيل بن نجيد النيسابوري.

(٢) الصمت وآداب اللسان ص ٢٢٩.

(٣) السابق ص ٩٦، ٢٩٤.

(٤) السابق ص ٢٩٧.

حدثنا بشَّار بن موسىٰ، أخبرنا يزيد بن المِقدام بن شُرَيح، عن أبيه، عن جدِّه، عن عائشة ﵂ قالت: سمع النبي ﷺ أبا بكر الصدِّيق لعن بعضَ رقيقه، فقال له النبي ﷺ: «يا أبا بكر، الصدِّيقون لَعَّانين»؟! قال: فأعتق أبو بكر يومئذٍ بعضَ رقيقه وجاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: واللهِ لا أعود.

وبشَّار بن موسىٰ هو الخَفَّاف، عِجلي بصري، نزل بغداد، قال ابن عدي[1]: أرجو أنه لا بأس به. وقد تقدَّمت الإشارة إليه في آفات اللسان.

اللهم اجعلنا من المخلصين الصادقين ... آمين.

وبه تم كتاب النية والإخلاص والصدق. والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

قال مؤلفه: وكان الفراغ منه في ضحوة نهار الاثنين لتسع بقين من محرم الحرام افتتاح سنة ١٢٠١، خُتمتْ بحمد الله وعونه. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الكامل في الضعفاء ٢/ ٤٥٧.

فهرس كتاب النية والإخلاص والصدق

٣٧ - كتاب النية والإخلاص والصدق

كتاب المراقبة والمحاسبة

- المقام الأول من المرابطة: المشارطة
- المرابطة الثانية: المراقبة
- بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
- المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل
- بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل
- المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس علىٰ تقصيرها
- المرابطة الخامسة: المجاهدة
- المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها

٣٨ - كتاب المراقبة والمحاسبة (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

الحمد لله المطَّلع علىٰ أسرار الغيوب، الرقيب علىٰ بواطن القلوب، الكاشف دهماء الكروب، الذي عظُمَ حلمُه فعفا، وعدل في كل نفس ما قضىٰ، وعلمَ ما يمضي وما مضىٰ، أحمده علىٰ نعمة الكرام وآلائه العظام ومواهبه الجِسام. وأشهد أن لا إله إلا الله مبتدع الخلائق ومُنشئهم بلا اقتداء وتعليم ولا احتذاء لمثال صانع حكيم ولا إصابة خطأ ولا حضرة(٢) ملأ. وأشهد أن سيدنا ومولانا محمد عبده المصطفىٰ ورسوله المجتبَىٰ، وأمينه علىٰ وحي السماء، أرسله بظهور الفلج وانفتاح المُهَج، فبلَّغ الرسالةَ صادعًا بها، وحمل علىٰ المَحَجَّة دالاًّ عليها، وأقام أعلام الاهتداء ومنار الضياء، وجعل أمراس(٣) الإسلام متينة، وعُرَىٰ الإيمان به وثيقة، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله مصابيح الدُّجَىٰ وأصحابه مفاتيح الهدىٰ وسلَّم

(١) انظر الكلام عن المحاسبة والمراقبة في: قوت القلوب ١/ ٢٢٥ - ٢٣٩، ٢٥٨ - ٢٧٢، ٢٨٧ - ٣١١.

(٢) كذا في المطبوعة، وعند ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: حضره. بالهاء من الحضور. وانظر شرحها، وشرح قوله «ولا إصابة خطأ» في شرح نهج البلاغة ٧/ ٧٨ (ط دار الكتاب العربي، بغداد).

(٣) المَرْسَة: الحبْل، يقال مَرَسَة ومَرَس، وفي الجمع أمراس. انظر: شرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري ص ٧٩. (ط المعارف بالقاهرة).

تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فهذا شرح كتاب «المراقبة والمحاسبة»، وهو الثامن والثلاثون من كتب الإحياء لإمام الأنام مصباح الظلام حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، أفاض الله علىٰ روحه الزكية فيوضات رحمته وبرَّه المتوالي، بنيتُ علىٰ قواعد إيوانه صرح الصفا، وكشفت عن مخدَّرات معانيه أكنَّة الجفا[1]، بتحرير عبارات رائقة وتحبير إشارات فائقة يشتاق لها كل عارف بصير، وينتفع بها كل سالك منير، فالمراقبون يقتبسون من أنواره، والمحاسبون يلتمسون من أسراره، والمحبُّون يتنسَّمون من فوائح أزهاره، والعاملون يشامون أرياح نضاره، والزاهدون يشمُّون أريج نفحاته، والمتوكلون يرتشفون بسلاف رشحاته، والعارفون يدنون حول حِماه، والمحقِّقون عاكفون علىٰ ما شرعت فيه، والقلوب واجفة، والخواطر بالمصائب كاسفة، والأفكار بالأراجيف راجفة، والهموم من سائر الأطراف متكاثفة، والله أسأل خفيَّ الألطاف، والإعانة علىٰ ما أرجو والنجاة ممَّا أخاف، إنه سميع قريب، ولدعاء المناجين مجيب.

قال المصنِّف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم**) المستعان به علىٰ كل أمر عظيم (**الحمد لله القائم علىٰ كل نفس**) أي[2] الرقيب عليها (**بما كسبت**) من خير أو شرٍّ، لا يخفىٰ عليه شيءٌ من أعمالهم، ولا يفوت عنده شيء من جزائهم. أشار به إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] وقيامه تعالىٰ بذاته مطلقًا، وقيام كل شيء به (**الرقيب**) أي العليم والحفيظ (**علىٰ كل جارحة بما اجترحت**) وذلك بمراعاتها علىٰ اللزوم والدوام[3] (**المطَّلع علىٰ ضمائر القلوب إذا هجست**) أي وقعت وخطرت (**الحسيب**) أي المحاسب (**علىٰ**

---

(١) لعلها: الخفا. والله أعلم.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ١٨٩.

(٣) انظر: الأمد الأقصىٰ، لأبي بكر بن العربي ٢/ ٤٧.

خواطر عباده إذا اختلجت) أي تحركت وانبعثت **(الذي لا يعزُب)** أي لا يغيب **(عن علمه)** المحيط الشامل لسائر معلوماته **(مِثقال ذرَّة في السموات والأرض تحركت أو سكنت)** أي لا يشذُّ عن علمه شيءٌ قليلاً كان أو كثيرًا، متحركًا كان أو ساكنًا **(المحاسِب علىٰ النَّقير)** وأصله النكتة في ظهر النواة **(والقِطْمير)** وهو شِبه الخيط في بطن النواة **(والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيتْ)** ودقَّ ظهورُها في الأعيُن **(المتفضِّل بقبول طاعات العباد وإن صغرت، المتطوِّل بالعفو عن معاصيهم وإن كثرت)** فالقبول والعفو إنما هما من تفضُّلاته، وإذا كان القبول حاصلاً والعفو شاملاً فلماذا الحساب؟ فقال: **(وإنما يحاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت)** من أعمالها بين يديه تعالىٰ **(وتنظر فيما قدَّمت)** من[1] عمل أو صدقة **(وأخَّرت)** من سيئة أو تركة. ويجوز أن يُراد بالتأخير التضييع. يشير بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ [التكوير: ١٤] وهو جواب «إذا»، والمذكور في سياقها ثنتا عشرة خصلة، ست منها في مبادئ قيام الساعة قبل فناء الدنيا، وست بعده؛ لأن المراد زمان متسع شامل لها ولمجازاة النفوس علىٰ أعمالها، و«نفس» في معنىٰ العموم، كقولهم: تمرة خير من جرادة[2]. وإلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ [الانفطار: ٥] وهو أيضًا جواب «إذا».

أخرج[3] عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق زيد بن أسلم عن أبيه قال: لمَّا نزلت «إذا الشمس كورت» قال عمر لما بلغ ﴿عَلِمَتۡ

---

(١) السابق ٥/ ٢٩٠، ٢٩٢.

(٢) قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قال له كعب الأحبار: إن قوما استفتوني في محرم قتل جرادة فأفتيتهم أن فيها درهما. فقال عمر: إنكم يا أهل حمص كثيرة دراهمكم، تمرة خير من جرادة.
وقد رواه مطولا ومختصرا: مالك في الموطأ ١/ ٤١٦، والطحاوي في أحكام القرآن ٢/ ٢٧٤، وعبد الرزاق في مصنفه ٤/ ٤١٠، وابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٦٠٠، والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٥/ ٢٩٧.

(٣) الدر المنثور ١٥/ ٢٦٨، ٢٨١، ٢٨٢.

نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ قال: لهذا أُجريَ الحديث. وأخرج ابن المبارك في الزهد[١] وعبد بن حميد وابن أبي حاتم عن ابن مسعود في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: [ما قدَّمت من خير وما أخَّرت] من سنَّة صالحة يُعمَل بها بعده، فإنَّ له مثل أجر مَن عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا، أو سنَّة سيئة يُعمَل بها بعده، فإنَّ عليه مثل وزر مَن عمل بها ولا ينقص من أوزارهم [شيئًا]. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال: ما قدَّمت من عمل خير أو شر، وما أخَّرت من سنَّة يُعمَل بها من بعده. وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر[٢] عن عكرمة في قوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾﴾ قال: ما أدَّت إلىٰ الله ممَّا أمرها الله به وما ضيَّعت. وأخرج عبد بن حميد[٣] عن قتادة قال: ما قدَّمت من خير، وما أخَّرت من حق الله عليها لم تعمل به. وعن سعيد بن جبير قال: ما قدَّمت من خير، وما أخَّرت ما حدَّث به نفسه ولم يعمل به. وعن مجاهد: ما قدَّمت من خير، وما أخَّرت ما أُمرت أن تعمل فتركتْ. وعن عطاء قال: ما قدَّمت بين يديها، وما أخَّرت وراءها من سنَّة يُعمَل بها من بعده.

(فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيتْ في صعيد القيامة) وهي الأرض المستوية التي يُحشَر الناس عليها **(وهلكت، وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضل الله بقبول بضاعتها المزجاة)** وهي الخسيسة التي يدفعها كلُّ معروض عليه فلا تَنفُق[٤] **(لخابت وخسرت)** وخسارتها: عدم رواجها **(فسبحان مَن عمَّت نعمتُه كافةَ العِباد وشملت)** أي جميعهم عامَّهم وخاصَّهم. و«كافَّة» مصدر علىٰ فاعله، كالعافية والعاقبة، لا يُثنَّىٰ ولا يُجمَع[٥] **(واستغرقت**

---

(١) الزهد والرقائق ص ٤٠٦.

(٢) وكذلك أبو داود في الزهد ص ٣٧٠، وسعيد بن منصور في تفسيره ٨/ ٢٧٣.

(٣) وكذلك الطبري في جامع البيان ٢٤/ ١٧٦ - ١٧٧. وفي رواية أخرىٰ له ولعبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٣٥٤: «ما قدمت من طاعة الله، وما أخرت من حق الله».

(٤) ذكره الزمخشري في أساس البلاغة ١/ ٤١٠.

(٥) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه ٢/ ٤٤٦.

رحمتُه الخلائقَ في الدنيا والآخرة وغمرت) وهي الرحمة العامة التي تتناول المستحقَّ وغير المستحق والضرورات والحاجات والمزايا الخارجة عنها[١] **(فبنفحات فضله)** جمع نفحة وهي العطية **(اتَّسعت القلوب للإيمان وانشرحت)** فقبلتْه واستقرَّ فيها **(وبيُمْن توفيقه)** أي هدايته لِما يوافقه **(تقيَّدت الجوارح بالعبادات وتأدَّبت)** فاستحلتها واستخفت **(وبحُسن هدايته انجلت عن القلوب ظلماتُ الجهل وانقشعت)** أي انزاحت فاهتدت بمعرفته الخاصة واطمأنَّت **(وبتأييده ونصرته انقطعت)** عنه **(مكائد الشيطان)** ومصائده وفخوخه التي على قلوب المؤمنين **(واندفعت، وبلطف عنايته)** السابقة بعباده **(ترجَّح كفَّة الحسنات إذا ثقلت، وبتيسيره تيسَّرت من الطاعات ما تيسَّرت، فمنه)** تعالىٰ وحده **(العطاء والجزاء)** أي فهو المعطي والمُجازِي **(والإبعاد والإدناء)** أي وهو المُبعِد والمُدْنِي **(والإسعاد والإشقاء)** أي وهو المُسعِد والمُشقِي، لا إله إلا الله، جلَّ جلالُه **(والصلاة علىٰ)** سيدنا **(محمد سيد الأنبياء)** أي رئيسهم ومقدَّمهم **(وعلىٰ آله سادة الأصفياء، وعلىٰ أصحابه قادة الأتقياء)** وسلَّم عليه تسليمًا كثيرًا.

(أما بعد، فقد قال الله تعالىٰ) في كتابه العزيز: (﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾) أي[٢] العدل توزَن بها صحائف الأعمال، وقيل: وضعُ الميزان تمثيل لإرصاد الحساب السويِّ والجزاء علىٰ حسب الأعمال بالعدل، وإفراد «القسط» لأنه مصدر وُصف به للمبالغة (﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾) أي لجزاء يوم القيامة أو لأجله أو فيه، كقولك: جئتُ لخمس خلونَ من الشهر (﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا﴾) من حقها (﴿وَإِن كَانَ﴾) العمل (﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا﴾) أي أحضرناها، والضمير للمِثقال، وتأنيثه لإضافته إلىٰ الحبة (﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾) [الأنبياء: ٤٧] أي لا مزيد علىٰ علمنا وعدلنا.

---

(١) ذكره الغزالي في المقصد الأسنىٰ ص ٦٥.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ٥٣.

أخرج[1] ابن عبد البر في كتاب جامع العلم[2] من طريق حماد بن زيد، عن أبي حنيفة، عن حماد، عن إبراهيم في قوله تعالىٰ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ قال: يُجاء بعمل الرجل فيوضَع في كفَّة ميزانه [فتخفُّ، فيُجاء بشيء أمثال الغمام - أو قال: مثل السحاب - فيوضَع في كفَّة ميزانه] فيرجح، فيقال له: أتدري ما هذا؟ فيقول: لا. فيقال له: هذا فضل العلم الذي كنت تعلِّمه الناسَ. أو نحو هذا. وحدَّث به عبد الله بن أحمد في كتاب العلل[3] عن أبيه: حدثنا عبد القدوس بن بكر بن خُنَيس، حدثنا الحجاج، عن حماد قال: إن العالِم لَيغشاه يوم القيامة مثل الغمام فيوضَع في ميزانه، فيقول: ما هذا؟ فيقال: العلم الذي علَّمتَه الناسَ. وقال أيضًا: حدثني أبي، حدثنا عبد القدوس، عن رجل قد سمَّاه - يعني أبا حنيفة - عن حماد مثله. وخرَّجه ابن مردويه في كتاب «فضل العلم» من طريق مسلم بن إبراهيم، حدثنا حماد بن زيد، عن أبي حنيفة، عن حماد. قال الحافظ ابن ناصر الدين في منهاج السلامة: ونصبُ ميزان الحق يوم القيامة بين الخَلق لفوائد عظيمة وحِكَم بهيَّة اقتضتها الحكمة الإلهية، مع علم الله العليم الخبير بمقادير الأعمال الصغير والكبير، لا يغيب عن نظره غائب، ولا يفوته هارب، ولا يؤوده حفظُ ما خلق وهو [رب العرش العظيم، ولا يعزُب عن علمه مِثقالُ ذرَّة في الأرض ولا في السماء وهو] السميع العليم، وإنما الحكمة في وزن أعمال العِباد أنَّ ذلك لامتحان الخَلق بالإيمان بذلك في الدنيا، وهو أحد الأقوال في معنىٰ ذلك. وقيل: لإظهار [علامة] السعادة والشقاوة يوم القيامة. وقيل: ليعرف العِباد ما لهم من خير وشرٍّ. وقيل: لإقامة الحجج عليهم. وقيل: للإعلام بأن الله عزَّ وجلَّ عادل لا يظلم من خلقه

---

(١) منهاج السلامة في ميزان القيامة لابن ناصر الدين الدمشقي ص ١٠٥ - ١٠٦، ١١٩ - ١٢٠ (ط- دار ابن حزم).

(٢) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٢١٠.

(٣) العلل ومعرفة الرجال ٢/ ١٣٢، ٣/ ٢٦٩.

أحدًا [متفضِّل] يربي الحسنات لصاحبها ويضاعفها[1].

(وقال تعالىٰ: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾) أي[2] صحائف الأعمال في الإيمان والشمائل أو في الميزان، وقيل: هو كناية عن وضع الحساب (﴿فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ﴾): خائفين (﴿مِمَّا فِيهِ﴾) من الذنوب (﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا﴾) ينادون هلكتَهم التي هلكوها من بين الهلكات (﴿مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ﴾) تعجُّبًا من شأنه (﴿لَا يُغَادِرُ﴾) لا يترك هنة ﴿صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾: عدَّدَها وأحاط بها (﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرًا﴾): مكتوبًا في الصحف (﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾) [الكهف: ٩٤] فيكتب عليه ما لم يفعل أو يزيد في عقابه الملائم لعمله.

(وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾) في صعيد أفيح (﴿فَيُنَبِّئُهُم﴾) أي يخبرهم جميعًا (﴿بِمَا عَمِلُوٓاْ﴾) من خير وشر (﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ﴾) عدَّده وأحاط به (﴿وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾) [المجادلة: ٦] أي شاهد لا يغيب [عنه شيء].

(وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ ﴿أَشْتَاتًا﴾ من[3] قبورهم إلىٰ الموقف (﴿أَشْتَاتًا﴾) متفرِّقين بحسب مراتبهم (﴿لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾﴾) أي جزاء أعمالهم (﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾) [الزلزلة: ٦ - ٨] والذرَّة: النملة الصغيرة، أو الهباء.

(وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾) أي تُعطَىٰ علىٰ سبيل الوفاء جميع ما كسبت من خير وشرٍّ (﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾) [البقرة: ٢٨١، آل عمران: ١٦١] وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

(وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾) بين يديه (و)

---

(١) هذه الأقوال ذكرها ابن الجوزي في زاد المسير ص ٤٨٥.

(٢) أنوار التنزيل ٣/ ٢٨٣ - ٢٨٤.

(٣) السابق ٥/ ٣٣٠.

تجد أيضًا (﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾) أي غاية، يقال: بلغ أمدَه: أي غايته (﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾) [البقرة: ٢٣٥] إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالَّة علىٰ سعة علمه وإحاطته بسائر أفعال العِباد.

(فعرف أرباب البصائر) الصادقة **(من جملة العِباد أن الله تعالىٰ لهم بالمرصاد)** كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [الفجر: ١٤] **(وأنهم سيناقَشون في الحساب)** أي يدقَّق عليهم فيه **(ويطالَبون بمثاقيل الذَّر من الخطرات واللحظات)** في الحركات والسكنات **(وتحقَّقوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصِدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس)** الهابطة والصاعدة **(والحركات ومحاسبتها في الخطرات واللحظات، فمَن حاسب نفسه قبل أن يحاسَب خفَّ في القيامة حسابُه، وحضر عند السؤال)** في القبر **(جوابُه، وحسُنَ منقلبُه ومآبُه)** أي مرجعه **(ومَن لم يحاسب نفسه)** في دنياه **(دامت حسراته، وطالت في عرصات القيامة وقفاته، وقادته)** أي جرَّته **(إلىٰ الخزي)** أي الفضيحة **(والمقت)** أي الغضب[1] **(سيئاتُه. فلمَّا انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله)** والمصابرة عليها **(وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟﴾)** علىٰ[2] مَشاقِّ الطاعات وما يصيبكم من الشدائد (﴿وَصَابِرُوا۟﴾) أي غالِبوا أعداءَ الله بالصبر علىٰ شدائد الحرب وأعدىٰ عدوِّكم بالصبر علىٰ مخالفة الهوىٰ. وتخصيصه بعد الأمر بالصبر مطلقًا لشدته (﴿وَرَابِطُوا۟﴾) أنفسَكم علىٰ الطاعة ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ [آل عمران: ٢٠٠] بنيل المقامات الثلاثة المرتَّبة التي هي: الصبر علىٰ مضض الطاعات، ومصابرة النفس في رفض العادات، ومرابطة السر علىٰ جناب الحق سبحانه لترصد الواردات المعبَّر عنها بالشريعة والطريقة والحقيقة **(فرابَطوا**

(١) كذا، وفي تاج العروس للمصنف ٥/ ٩٥ قال: وفي المحكم: المقت: أشد الإبغاض.

(٢) السابق ٢/ ٥٦ - ٥٧.

أنفسَهم أولًا بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة، ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة، ثم بالمعاتبة. فكانت لهم في المرابطة ست مقامات، ولا بد من شرحها) مقامًا مقامًا (وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها، وأصل ذلك المحاسبة، ولكن كل حساب فبعد مشارطة ومراقبة، ويتبعه عند الخسران المعاتبة والمعاقبة، فلنذكر شرح هذه المقامات، وبالله التوفيق).

المقام الأول من المرابطة: المشارطة

وهي في الأصل: إجراء الشرط بين متعاملين.

(اعلمْ) نوَّر اللهُ قلبَك (أن مطلب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع) والنقود (عند المحاسبة) مع بعضهم (سلامة الربح) الحاصل من التصرُّف (وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلِّم إليه المال حتىٰ يتجر ثم يحاسبه، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وإنما مطلبه) الأعلىٰ (وربحه) الأوفر (تزكية النفس) أي تطهيرها من المَذامِّ والخبائث (لأن بذلك فلاحها، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾) أنماها[1] بالعلم والعمل (﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾) [الشمس: ٩ - ١٠] نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق (وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة) علىٰ وفق المعارف الإلهية (والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة؛ إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكِّيها) وينمِّيها (كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتجر في ماله) فيما ينمي المالَ (وكما أن الشريك يصير خصمًا منازعًا يجاذبه في الربح فيحتاج إلىٰ أن يشارطه أولاً، ويراقبه ثانيًا، ويحاسبه ثالثًا، ويعاتبه أو يعاقبه رابعًا، فكذلك العقل يحتاج إلىٰ مشارطة النفس أولاً فيوظِّف عليها الوظائفَ، ويشرط عليها الشروطَ، ويرشدها إلىٰ طرق الفلاح، ويجزم عليها الأمرَ بسلوك تلك الطرق، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظةً) واحدة (فإنه لو أهملها لم يرَ منها إلا الخيانة) الظاهرة (وتضييع رأس المال، كالعبد الخائن إذا خلا له الجوُّ) وزالت عنه الموانع (وانفرد بالمال) فإنه تشتد خيانته ويبدِّد المال حيث لا ينفع، فإنه إما لبطنه أو لفرجه (ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها، فإنَّ

---

(١) السابق ٥/ ٣١٥ - ٣١٦.

هذه تجارة ربحُها الفردوس الأعلىٰ وبلوغ سدرة المنتهَىٰ مع الأنبياء والشهداء) وناهيك به ربحًا (فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيرًا من تدقيقه في أرباح الدنيا) ومناقشته فيها (مع أنها محتقرة بالإضافة إلىٰ نعيم العقبىٰ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلىٰ التصرُّم والانقضاء) والهلاك والفناء (ولا خير في خير لا يدوم، بل شر لا يدوم خير من خير لا يدوم؛ لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح بانقطاعه دائمًا، وقد انقضىٰ الشر والخير الذي لا يدوم، ويبقىٰ الأسف علىٰ انقطاعه دائمًا، وقد انقضىٰ الخير) وهذا بالإضافة إلىٰ العواقب (ولذلك قيل) قائله المتنبي:

(أشدُّ الغم عندي في سرور تيقَّن عنه صاحبُه انتقالا)[1]

وقد مرَّ إنشاده للمصنف في مواضع من كتابه هذا (فحتمٌ علىٰ كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها) أي في سائر أحوالها، فالمحاسبة هي ميزان الأعمال والأحوال؛ لتتميَّز بها مصالح الأعمال من مفاسدها، وحقائق الأحوال من دعاويها. والمحاسبة للأعمال والأحوال كالبراهين لصحة العلوم، فمَن لا برهان معه خالط علمَه الوهمُ والخيال، ومَن لا محاسبة له شابَ عملَه الغرورُ والخداع، وهذه المحاسبة واجبة بالإجماع، هكذا هو منقول عن الحارث المحاسبي، وسياق المصنف يشير إليه، والكتاب والسنَّة والأثر يدل علىٰ ذلك (فإنَّ كل نفَس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن يُشترَىٰ بها كنز من الكنوز لا يتناهَىٰ نعيمُه أبد الآباد) إلىٰ آخر الدهر (فانقضاء هذه الأنفاس ضائعةً أو مصروفة إلىٰ ما يجلب الهلاكَ خسرانٌ عظيم هائل لا تسمح به نفسُ عاقل) فانظر إلىٰ حال مَن لم يملك من الدنيا إلا درهمًا واحدًا وهو رأس ماله وخرج يتجر فيه لعائلته ليسعدوا بربحه، وإذا هو برجلين مثله، لكل واحد منهما درهم مثله، فاختلفت آراؤهم في التجارة، فوجد أحدهم جوهرة بدرهمه، وأشار إلىٰ صاحبيه أن يفعلا

---

(١) البيت في ديوانه ص ١٤٠.

كفعله فلم يفعلا فسعدَ هو وأهله بالجوهرة، وأما أحد الرجلين فقال: هذا رأس مال قليل فلا يكفيني ولا يكفي أهلي، فأنا أرمي به من يدي وأتّكل علىٰ الله تعالىٰ في أن يكفيني وأهلي بلا تجارة. وأما الرجل الآخر فوجد حية عظيمة ينادَىٰ عليها بدرهم، والمنادي يقول: احذروها، فإنها حية ليِّن مسُّها، قاتلٌ سمُّها. فغلبت عليه شقوتُه واشترىٰ الحية بدرهمه، وحملها إلىٰ أهله، فقتلته وقتلت عياله. فانظر إلىٰ هذا المثال، فإنه يعرِّفك قيمةَ عمرك، فإن الدرهم هو النفَس الواحد؛ إذ لا يملك كل واحد من الأحياء غير النفس الراهن، وما هو في ثاني حال مشكوك فيه، وقد انقسم الناس في أنفاسهم هذا الانقسام، فمنهم مَن عرف قدْر نفَسه فاشترىٰ جوهرة أضاءت عليه في مَحْياه ومماته وهو صرفُه في ذِكر الله تعالىٰ والفكر في معرفته، والثاني جهلَ سنَّة ربِّه في قوله: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾ [النجم: ٣٩] فصرفه في مباح يتحسَّر علىٰ فواته إذا عاين ربح الرابحين، وهو يعلم أنه لم يكن معهم إلا مثل رأس ماله. وأما الثالث فازداد جهلاً ثانيًا وهو الجهل بالبضائع، فاشترىٰ بضاعة شقيتْ بها نفسَه وهو صرفُ نفسِه في معصية الله تعالىٰ، فنعوذ بالله من الجهل (**فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرِّغ قلبَه ساعةً لمشارطة النفس، كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلىٰ الشريك العامل**) في تجارته (**يفرِّغ المجلسَ لمشارطته، فيقول للنفس**) في مشارطتها: ويحكِ يا نفس! (**ما لي بضاعة**) أعتمد عليها (**إلا**) هذا (**العمر، ومهما فني فقد فني رأسُ المال ووقع اليأس عن التجارة وطلبِ الربح، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي**) أي أخَّره (**وأنعم عليَّ به، ولو توفَّاني**) كما توفَّىٰ غيري من أقراني ولِداتي (**لكنت أتمنَّىٰ**) علىٰ الله (**أن يرجعني إلىٰ الدنيا يومًا واحدًا حتىٰ أعمل فيه صالحًا**) كما أخبر الله تعالىٰ بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] (**فاحسبي**) يا نفس (**أنكِ قد تُوفِّيتِ ثم قد رُددتِ**) إلىٰ الدنيا ثانيًا (**فإياكِ ثم إياك أن تضيعي هذا اليومَ، فإنَّ كل نفَس من الأنفاس جوهرة**) يتيمة (**لا قيمة لها. واعلمي يا نفس أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة**) من ساعات الزمان (**وقد ورد في الخبر أنه: يُنشَر**

للعبد بكل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة، فتُفتَح له منها خزانة، فيراها مملوءة نورًا من حسناته التي عملها في تلك الساعة، فيناله من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبَّار ما لو وُزِّع) أي فُرِّق وقُسِّم (علىٰ أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الإحساس بألم النار. وتُفتَح له خزانة أخرىٰ سوداء مظلمة يفوح نتنُها ويغشاه ظلامُها، وهي الساعة التي عصىٰ الله فيها، فيناله من الهول والفزع ما لو قُسِّم علىٰ أهل الجنة لتنغَّص عليهم نعيمُها. وتُفتَح له خزانة أخرىٰ فارغة ليس له فيها ما يسرُّه ولا ما يسوؤه، وهي الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيتحسَّر علىٰ خلوِّها، ويناله من غبن ذلك ما ينال القادرَ علىٰ الربح الكثير والمُلك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتىٰ فاته، وناهيك به حسرةً وغبنًا، وهكذا تُعرَض عليه خزائن أوقاته طول عمره)[١]، قال العراقي[٢]: الحديث بطوله لم أجد له أصلاً (فيقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتكِ، ولا تدعيها فارغةً عن كنوزك التي هي أسباب مُلكك، ولا تميلي إلىٰ الكسل والدَّعة والاستراحة فيفوتكِ من درجات عِلِّيِّين ما يدركه غيرُكِ، وتبقىٰ عندكِ حسرةٌ لا تفارقكِ، وإن دخلتِ الجنة فألم الغبن وحسرته لا يُطاق وإن كان دون ألم النار، وقد قال بعضهم: هَبْ أن المسيء قد عُفي عنه، أليس قد فاته ثوابُ المحسنين[٣]؟ أشار به إلىٰ الغبن والحسرة. وقال الله

---

(١) هو في القوت بنحوه ١/ ١٨٧، وصدره بقوله: ويقال.

(٢) المغني ٢/ ١١٨٥.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التوبة ص ٧٦ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦/ ٣٩٢ - ٣٩٣ من طريق أحمد ابن أبي الحواري قال: حدثني إبراهيم بن الحسين قال: دخل عليَّ رجل وأنا بالفراديس في بيت، فقال لي: عد أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب المحسنين؟ قال: فحدثت به دينارا فبكىٰ وقال: علىٰ مثل هذا فليبكَ. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٨٤ عن العتابي قال: مررت بدير، فإذا راهب ينادي، فرفعت رأسي إليه، فقال لي: ويحك! هب أن المسيء قد عفي عنه، أليس قد فاته ثواب الصالحين. وعزاه أبو حيان التوحيدي في البصائر والذخائر ٤/ ٢٣٩ لأحمد بن حنبل.

تعالىٰ: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾) لأجل[١] ما فيه من الحساب والجزاء، والجمع جمعُ الملائكة والثَّقَلين (﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾) [التغابن: ٩] يغبن فيه بعضُهم بعضًا؛ لنزول السعداء منازلَ الأشقياء لو كانوا أشقياء، وبالعكس، مستعار من تغابُن التجار، واللام فيه للدلالة علىٰ أن التغابن الحقيقي هو التغابن في أمور الآخرة؛ لعِظَمها ودوامها (**فهذه وصيَّته لنفسه في أوقاته، ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرِّجل، وتسليمها إليها، فإنها**) أي تلك الأعضاء بمنزلة (**رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة، وبها تتم أعمالُ هذه التجارة وإن لجهنَّم سبعة أبواب**) يدخلون منها[٢] لكثرتهم، أو طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم في المتابعة، وهي: جهنم، ثم لَظَىٰ، ثم الحُطَمة، ثم السعير، ثم سَقَر، ثم الجحيم، ثم الهاوية. ولعل تخصيص العدد لانحصار مَجامِع المهلكات في الركون إلىٰ المحسوسات ومتابعة القوة الشهوية والغضبية، أو لأن أهلها سبع فِرَق، كما قال تعالىٰ: (﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾) [الحجر: ٤٣ - ٤٤] أفرز له، فأعلاها لموحِّدي العُصاة، والثاني لليهود، والثالث للنصارىٰ، والرابع للصابئين، والخامس للمجوس، والسادس للمشركين، والسابع للمنافقين (**وإنما تتعيَّن تلك الأبواب لمَن عصىٰ الله تعالىٰ بهذه الأعضاء**) وهذا وجه آخر لتخصيص العدد (**فيوصيها بحفظها عن معاصيها. أما العين فيحفظها عن النظر إلىٰ وجه مَن ليس له بمَحرم**) ولا إلىٰ عضو آخر غير الوجه (**أو إلىٰ عورة مسلم، أو النظر إلىٰ مسلم بعين الاحتقار، بل**) يحفظها (**عن كل فضول مستغنًىٰ عنه، فإن الله يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام**)[٣] روىٰ عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد[٤] عن أبي موسىٰ

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢١٨.

(٢) السابق ٣/ ٢١٢.

(٣) انظر: رسالة المسترشدين للحارث المحاسبي ص١٧٩.

(٤) الزهد ص ١٤٤.

الأنصاري عن عباية بن كليب قال: قال رجل لداود الطائي: لو أمرتَ بما في سقف البيت من نسج العنكبوت فينظَّف. فقال له: أما علمتَ أنه يُكرَه فضول النظر (ثم إذا صرفها عن هذا لم تَقنع به حتىٰ يشغلها بما فيه تجارتها[١] وربحها وهو ما خُلِقت له) أي لأجله (من النظر إلىٰ عجائب صنعِ الله) في المُلك (بعين الاعتبار، والنظر إلىٰ أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنَّة رسوله) ﷺ (ومطالعة كتب الحكمة) الإلهية، وهي كتب الرقائق (للاتِّعاظ والاستفادة) لا للتفرُّج (وهكذا ينبغي أن يفصِّل الأمر عليها في عضو عضو لا سيَّما اللسان والبطن، أما اللسان فلأنه منطلق بالطبع، ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغِيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومَذَمَّة الخَلق، و) مَذَمَّة (الأطعمة، واللعن، والدعاء علىٰ الأعداء[٢]، والمماراة في الكلام، وغير ذلك ممَّا ذكرناه في كتاب آفات اللسان) مفصَّلاً (فهو بصدد ذلك كله، مع أنه خُلِق للذِّكر والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلىٰ طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته، فليشترط علىٰ نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر، فنطقُ المؤمن ذِكرٌ، ونظرُه عبرة، وصمته فكرة، و) قال الله تعالىٰ: (﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾) [ق: ١٨] يُكتَب عليه ما لفظَ به (وأما البطن فيكلِّفه ترك الشَّره) أي الحرص (وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، ويقتصر علىٰ قدْر الضرورة) ممَّا يقيم به صُلبَه في الطاعات (ويشترط علىٰ نفسه أنها إن خالفت شيئًا من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن؛ ليفوتها أكثر ممَّا نالته بشهواتها. وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول، ولا تخفَىٰ معاصي الأعضاء وطاعتها، ثم يستأنف وصيَّتها في وظائف الطاعات التي تتكرَّر عليه في اليوم والليلة، ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر علىٰ الاستكثار منها، ويرتِّب لها تفصيلها

(١) في أ، وط المنهاج ٩/ ١٢٦: نجاتها.

(٢) قد تقدم القول في ذلك وتعليقنا عليه.

وكيفيَّتها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وهذه شروط يفتقر إليها في كل يوم، ولكن إذا تعوَّد الإنسان شَرْطَ ذلك علىٰ نفسه أيامًا وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنىٰ عن المشارطة فيها، وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلىٰ تجديد المشارطة فيما بقي، ولكن لا يخلو كل يوم عن مهمٍّ جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد، ولله عليه في ذلك حقٌّ، ويكثُر هذا علىٰ مَن يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس؛ إذ قلَّما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلىٰ أن يقضي حق الله فيها، فعليه أن يشترط علىٰ نفسه الاستقامةَ فيها، والانقيادَ للحق في مجاريها، ويحذِّرها مغبَّة الإهمال) أي عاقبته (ويعظها كما يوعَظ العبد الآبق المتمرِّد) علىٰ سيده (فإن النفس بالطبع متمرِّدة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية) والذل والقهر (ولكن الوعظ والتأديب يؤثِّر فيها) قال الله تعالىٰ: (﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾) [الذاريات: ٥٥] بتنبيههم لقبول ذلك (فهذا وما يجري مَجراه هو أول مقام المرابطة مع النفس وهي محاسبته قبل العمل) أي قبل الشروع فيه (والمحاسبة تارةً تكون بعد العمل) وهذا هو الأكثر (وتارةً) تكون (قبله) وهي (للتحذير) عن الوقوع فيما يفسد العملَ (قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وهذا للمستقبل، وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فإنه يسمَّىٰ محاسبة، فالنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟﴾ [النساء: ٩٤] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] ذكر ذلك) كلَّه (تحذيرًا وتنبيهًا للاحتراز منه في المستقبل.

وروىٰ عُبادة بن الصامت) رضي الله عنه (أنه ﷺ قال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه: إذا أردتَ أمرًا فتدبَّرْ عاقبتَه، فإن كان رشدًا فامْضِه، وإن كان غيًّا فانتهِ عنه) رواه ابن المبارك في الزهد عن أبي جعفر عبد الله بن المسور الهاشمي مرسلاً بلفظ: فإن

كان خيرًا، بدل: رشدًا. وإن كان شرًّا، بدل: غيًّا. وابن المسور تكلَّموا فيه، وقد تقدم الكلام علىٰ هذا الحديث(١).

(وقال بعض الحكماء: **إذا أردتَ أن يكون العقل غالبًا علىٰ الهوىٰ فلا تعمل بقضاء الشهوة حتىٰ تنظر العاقبةَ، فإنَّ مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفَّة الشهوة.**

وقال لقمان) رحمه الله تعالىٰ: (**إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمنَ الندامةَ**.

وروىٰ شدَّاد بن أوس) رضي الله عنه (عنه ﷺ أنه قال: **الكيِّس مَن دانَ نفسَه وعمل لِما بعد الموت، والأحمق مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله**) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وغيرهم، وقد تقدَّم (**دانَ نفسَه: أي حاسبها**) وقيل(٢): استعبدها وقهرها، يعني جعل نفسه مطيعة منقادة لأوامر ربِّها، أي الكيِّس مَن أبصر العاقبة وحاسب نفسه، والأحمق مَن عمي عنها وحجبته الشهوات والغفلات (**ويوم الدين: يوم الحساب**) وقيل: يوم الجزاء (**وقوله**) تعالىٰ: (﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٣] **أي لَمحاسَبون**) وقيل: لَمجزيُّون. فالدين يطلق علىٰ معانٍ كثيرة، منها الحساب.

(**وقال عمر** رضي الله عنه: **حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنوها قبل أن توزَنوا، وتهيَّأوا للعرض الأكبر**) رواه أبو نعيم في الحلية(٣) قال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن، حدثنا بشر بن موسىٰ، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا جعفر بن برقان، عن ثابت بن الحجاج قال: قال عمر: زِنوا أنفسكم قبل أن توزَنوا، وحاسِبوها قبل أن تحاسَبوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، وتزيَّنوا للعرض الأكبر ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨].

---

(١) في كتاب ذم الغضب والحقد والحسد.

(٢) فيض القدير ٥/ ٦٧.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٥٢.

ورواه أيضا ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٢.

(وكتب) رضي الله عنه **(إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري)** رضي الله عنه وهو أمير البصرة: **(حاسِبْ نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة)**[1] رواه إسماعيل بن أبي خالد عن سعيد ابن أبي بُردة.

(وقال) رضي الله عنه **(لكعب)** الأحبار يومًا **(كيف تجد ما في كتاب الله؟ قال: ويلٌ لدَيَّان الأرض من دَيَّان السماء. فعلاه بالدرَّة وقال: إلا مَن حاسب نفسه. فقال كعب: يا أمير المؤمنين، إنها)** أي هذه الكلمة **(إلىٰ جنبها في التوراة ما بينهنَّ حرف: إلا مَن حاسب نفسه)**[2].

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١٣/ ١٦٦ وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٥٩ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٢١، ٣٥٧ عن جعفر بن برقان قال: بلغني أن عمر بن الخطاب كتب إلىٰ بعض عماله، فكان في آخر كتابه: أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلىٰ الرضا والغبطة، ومن ألهته حياته وشغله هواه عاد مرجعه إلىٰ الندامة والحسرة، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما ينتهىٰ عنه وتكون عند التذكرة والموعظة من أولي النهىٰ.

(٢) روىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٣٨٩ عن سعيد بن أبي هلال أن كعبا مر بعمر وهو يضرب رجلا بالدرة، فقال كعب: علىٰ رسلك يا عمر، فوالذي نفسي بيده إنه لمكتوب في التوراة: ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء، ويل لحاكم الأرض من حاكم السماء. فقال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: والذي نفسي بيده إنها لفي كتاب الله المنزل ما بينهما حرف: إلا من حاسب نفسه. وروىٰ البيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٤٩٣ عن مالك بن أنس أن كعب الأحبار كلم عمر بن الخطاب فقال: ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء. فقال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: ما بينهما آية في كتاب الله عز وجل. وروىٰ عثمان بن سعيد الدارمي في الرد علىٰ الجهمية ص ٤٩ - ٥٠ (ط - الدار السلفية) والخرائطي في فضيلة الشكر لله ص ٥٦ (ط - دار الفكر) عن سالم بن عبد الله بن عمر أن كعب الأحبار قال لعمر: إنا لنجد: ويل لسلطان الأرض من سلطان السماء. قال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: إلا من حاسب نفسه. فكبر عمر وخر ساجدا. وروىٰ ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٣٣٥ عن عبد الله بن عمر أن كعبا قال وهو عند عمر: ويل لملك الأرض من ملك السماء. فقال عمر: إلا من حاسب نفسه. فقال كعب: إنك مصراع الفتنة. وروىٰ البيهقي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٢٠٠ وأحمد في الزهد ص ١٠٣ أن عمر رضي الله عنه قال: ويل لديان من في الأرض من ديان من في السماء يوم يلقونه، إلا من أم العدل وقضىٰ بالحق ولم يقضِ علىٰ هوىٰ ولا علىٰ قرابة ولا علىٰ رغب ولا علىٰ رهب وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه.

والدَّيَّان: الحاكم، والقاضي، والمحاسب، والمُجازي[1].

(وهذا كله إشارة إلىٰ المحاسبة للمستقبل؛ إذ قال) ﷺ في الحديث السابق: الكيِّس (مَن دانَ نفسَه يعمل[2] لِما بعد الموت) أي مَن حاسب نفسه وقهرها اشتغل بعمل ينفعه بعد موته (ومعناه: وزن الأمورَ أولاً وقدَّرها ونظر فيها وتدبَّرها ثم أقدم عليها فباشرها.

(١) ذكر الفيروزآبادي في القاموس المحيط من معاني الديان: القهار، والقاضي، والحاكم، والسائس، والمجازي الذي لا يضيع عملا بل يجزي بالخير والشر. انظر: تاج العروس ٣٥/ ٥٧.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ١٣٠: فعمل.

المرابطة الثانية: المراقبة (١)

وفيها مقام الحياء، ولواحقه: الرعاية، والحرمة، والأدب.

اعلمْ أنه (**إذا أوصىٰ الإنسان نفسَه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقىٰ**) بعد ذلك (**إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة**) أي الحافظة (**فإنها إن تُرِكت طغت وفسدت. ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها**.

أما الفضيلة، فقد سأل جبريل عليه السلام) النبيَّ ﷺ (**عن الإحسان، فقال**) ﷺ: (**أن تعبد الله كأنَّك تراه**) ولمَّا كانت «المراقبة» و«الإحسان» لفظين متداخلين علىٰ معنىٰ واحد استدلَّ بما ورد في الإحسان علىٰ فضيلتها. قال القشيري في الرسالة: أخبرنا أبو نعيم عبد الملك بن الحسن بن محمد بن إسحاق، حدثنا أبو عوانة يعقوب بن إسحاق، حدثنا يوسف بن سعيد بن مسلم، حدثنا خالد بن يزيد، حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلىٰ النبي ﷺ في صورة رجل فقال: يا محمد، ما الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدَر خيره وشره». قال: صدقتَ. قال: فتعجَّبنا من تصديقه للنبي ﷺ، قال: فأخبِرْني ما الإسلام؟ فقال: «أن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت». قال: صدقتَ، فأخبِرْني ما الإحسان؟ قال: «الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». قال: صدقتَ ... الحديث. هذا الذي قاله ﷺ «فإن لم تكن تراه فإنه يراك» إشارة إلىٰ حال المراقبة؛ لأن المراقبة علمُ العبد باطِّلاع الرب سبحانه عليه، واستدامته

---

(١) انظر الكلام عن المراقبة في: الرسالة القشيرية ص ٣٣٢ - ٣٣٥، وشرحها إحكام الدلالة ٢/ ٥٨١ - ٥٨٨.

لهذا العلم مراقبةٌ لربِّه، وهذا أصل كل خير، ولا يكاد يصل إلىٰ هذه المرتبة إلا بعد فراغه من المحاسبة، فإذا حاسب نفسه علىٰ ما سلف وأصلح حاله في الوقت ولازمَ طريقَ الحق وأحسنَ بينه وبين الله مراعاةَ القلب وحفظ مع الله الأنفاسَ راقب الله في عموم أحواله، فيعلم أنه سبحانه عليه رقيب، ومن قلبه قريب، يعلم أحواله، ويرىٰ أفعاله، ويسمع قوله. ومَن تغافل عن هذه الجملة فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة. ا.هـ.

قال العراقي[١]: الحديث متفق عليه[٢] من حديث أبي هريرة، ورواه مسلم[٣] من حديث عمر. انتهىٰ.

قلت: قال البخاري في الصحيح: حدثنا مسدَّد، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، حدثنا أبو حيَّان التيمي، عن أبي زُرعة، عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يومًا بارزًا للناس، فأتاه رجل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث». قال: ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئًا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان ...» وذكر تتمَّة الحديث. وقد رواه مسلم أيضًا من طرق.

وأما حديث عمر، فقال أبو عبد الرحمن المقري: حدثنا عبد الله بن يزيد، حدثنا كهمس بن الحسن، عن عبد الله بن بُرَيدة، عن يحيىٰ بن يعمر، عن عبد الله بن عمر قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرَىٰ عليه أثر السفر، ولا نعرفه، حتىٰ جلس إلىٰ رسول الله ﷺ، فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفَّيه علىٰ فخذيه، ثم قال: يا محمد، أخبِرْني عن الإسلام. قال:

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٥.

(٢) صحيح البخاري ١/ ٣٣، ٣/ ٢٧٥. صحيح مسلم ١/ ٢٤.

(٣) صحيح مسلم ١/ ٢٣.

«الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً». قال: صدقتَ. قال عمر رضي الله عنه: فعجبنا له، يسأله ويصدِّقه. فقال: يا محمد، أخبِرْني عن الإيمان. فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخِر والقدَر كله خيره وشره». قال: صدقتَ ... وذكر باقي الحديث بتمامه، أخرجه مسلم بطوله عن زهير بن حرب عن وكيع وعن عبيد الله بن معاذ عن أبيه، كِلاهما عن كهمس بن الحسن به. ورواه سليمان التيمي عن يحيىٰ بن يعمر بزيادة فيه، قال أبو بكر محمد ابن خزيمة في الصحيح[١]: حدثنا يوسف بن واضح، حدثنا المعتمر بن سليمان، عن أبيه، عن يحيىٰ بن يعمر، عن ابن عمر قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ في أناس إذ جاء رجل ليس عليه سحناء سفر وليس من أهل البلد يتخطَّىٰ حتىٰ درك فجلس بين يدي رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، ما الإسلام؟ قال: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحج البيت، وتعتمر، وتغتسل من الجنابة، وأن تتم الوضوء، وتصوم رمضان». قال: فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم؟ قال: «نعم». قال: صدقتَ ... ثم ذكر الحديث بطوله. وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه[٢] عن ابن خزيمة. ورواه مسلم عن حجاج بن الشاعر عن يونس بن محمد عن المعتمر بن سليمان به، لكنه لم يذكر متنه، بل أحاله بنحو ما قبله.

ورواه أيضًا ابن عباس عن النبي ﷺ، رواه ابن السَّمَّاك في جزئه[٣] من طريق سيَّار أبي الحكم عن شهر بن حوشب عنه قال: بينا رسول الله ﷺ قاعد في الناس إذ جاء رجل يتخطَّىٰ الناس حتىٰ وضع يديه علىٰ ركبتَي النبي ﷺ فقال: ما

---

(١) صحيح ابن خزيمة ١/ ٣ - ٤.

(٢) صحيح ابن حبان ١/ ٣٩٧ - ٣٩٩.

(٣) وكذلك الحارث بن أبي أسامة في مسنده، كما في بغية الباحث ص ١٥٥.

الإسلام؟... فساقه، وفي آخره: فانطلق الرجل حتىٰ توارَىٰ، فقال رسول الله ﷺ: «عليَّ بالرجل». قال: فطُلِب فلم يوجد، فقال ﷺ: «هذا جبريل أتاكم يعلِّمكم دينكم، ما أتاني في صورة قط إلا عرفتُه فيها غير مرَّتي هذه». وشهر بن حوشب مختلَف فيه، والراجح قبوله.

وقد استوفيتُ هذا الحديث في كتابي عقود الجواهر المنيفة[1]، وذكرت اختلاف ألفاظه، فراجعْه.

(**وقال ﷺ: اعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**) رواه أبو نعيم في الحلية من حديث زيد بن أرقم بزيادة: «واحسبْ نفسك مع الموتىٰ، واتقِ دعوة المظلوم فإنها مستجابة». وروىٰ الطبراني والبيهقي من حديث معاذ بن جبل: «اعبد الله ولا تشرك به شيئًا، واعملْ لله كأنَّك تراه، واعدُدْ نفسك في الموتىٰ ...» الحديث. وأما لفظ «الإحسان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» فقد رواه أيضًا أحمد وابن ماجه من حديث أبي هريرة. ورواه النسائي عنه وعن أبي ذر معًا. ورواه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عمر. ويُروَىٰ: «الإحسان أن تعمل لله كأنَّك تراه، فإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإذا فعلتَ ذلك فقد أحسنتَ». رواه أحمد والبزار من حديث ابن عباس. ورواه ابن حبان من حديث ابن عمر. ورواه أحمد أيضًا من حديث أبي عامر أو أبي مالك. ورواه البزار أيضًا من حديث أنس. وابن عساكر من حديث عبد الرحمن بن غُنْم[2].

(**وقد**[3] **قال تعالىٰ:** ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾) [الرعد: ٣٣] أي رقيب، والخبر محذوف تقديره: كمَن ليس كذلك (**وقال تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤﴾) [العلق: ١٤] أي يطَّلع علىٰ أحوال عبده من هداه وضلاله (**وقال تعالىٰ:**

---

(١) عقود الجواهر المنيفة ١/ ١٨ - ٢٣.

(٢) تقدمت هذه الأحاديث في كتاب آفات اللسان، وفي كتاب ذم الغرور.

(٣) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ١٨٩، ٤/ ٨٣، ٥/ ٣٢٦.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ۝١﴾) [النساء: ١] أي مراقبًا لأعمالكم (**وقال تعالىٰ**) في وصف المؤمنين: (﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾) لِما يؤتَمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق والخلق (﴿رَٰعُونَ ۝٨﴾) [المؤمنون: ٨] قائمون بحفظها وإصلاحها. وقال تعالىٰ: (﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾) [المعارج: ٣٣] أي محافظون.

(**وقال**) عبد الله (**ابن المبارك**) رحمه الله تعالىٰ (**لرجل: راقِب اللهَ تعالىٰ. فسأله عن تفسيره**) أي ما معنىٰ هذا القول؟ (**فقال: كنْ أبدًا كأنَّك ترىٰ الله عَزَّوَجَلَّ**)[١] أي فإذا تحقَّقتَ ذلك فقد راقبتَه.

(**وقال عبد الواحد بن زيد**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**إذا كان سيدي رقيبًا عليَّ فلا أبالي بغيره**)[٢] يشير إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبًا ۝١﴾ [النساء: ١].

(**وقال أبو عثمان**) سعيد بن سلام (**المغربي**) رحمه الله تعالىٰ: (**أفضل ما يُلزِم الإنسانُ**) به (**نفسَه في هذه الطريقة**) العليَّة (**المحاسبة والمراقبة وسياسة عمله بالعلم**)[٣] بأن يزن ما هو فيه بالعلم الشرعي. هذا القول نقله القشيري سماعًا عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: سمعت أبا عثمان المغربي يقول ... فذكره.

(**وقال ابن عطاء**) هو[٤] أبو عبد الله أحمد بن عطاء الروذباري، شيخ الشام في وقته، مات بصور سنة ٣٦٩. ولفظ القشيري: وسُئل ابن عطاء: ما (**أفضل الطاعات**)؟ فقال: (**مراقبة الحق**) تعالىٰ (**علىٰ دوام الأوقات**)[٥] كما أشار إليه في

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٣، وذكره الحارث المحاسبي في كتاب آداب النفوس ص ٤٢ (ط - مؤسسة الكتب الثقافية) بلفظ: «جاء رجل إلىٰ عبد الله بن المبارك فقال له: أوصني. فقال: راقب الله. فقال الرجل: وما مراقبة الله؟ فقال: أن تستحي من الله».

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٣.

(٣) السابق.

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٢٦.

(٥) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٣.

الخبر السابق في الإحسان، فأفضل العبادات رؤية المعبود في وقت العبادة، فإنه أبعد عن الزلل.

(**وقال**) أبو[١] محمد أحمد بن محمد بن الحسين (**الجُرَيري**) بضم الجيم، من أكابر أصحاب الجنيد، وأُقعِد بعده مكانه، مات سنة ٣١١ (**أمرُنا هذا مبنيٌّ على أصلين**) وفي نسخ الرسالة: فصلين، أحدهما: (**أن تُلزِم نفسَك المراقبةَ لله عَزَّوَجَلَّ**) في حركاتك وسكناتك (**و**) الثاني: أن (**يكون العلم على ظاهرك قائمًا**)[٢] بأن تكون حركاتك وسكناتك موزونة بالشرع. نقله القشيري سماعًا من محمد بن الحسين قال: سمعت أبا الحسين الفارسي يقول: سمعت الجُرَيري يقول ... فذكره.

(**وقال أبو عثمان**) الحيري النيسابوري (**قال لي أبو حفص**) عمر بن مَسلمة الحدَّاد شيخ الجنيد: (**إذا جلستَ للناس**) أي لوعظهم (**فكنْ واعظًا لنفسك وقلبك**) لينتفعوا بوعظك، فإنه إذا صلحت نيّتُك في وعظ نفسك خرج الكلام من قلبك، وله وقعٌ في قلب السامع[٣] (**ولا يغرَّنَّك اجتماعُهم عليك**) أي حولك (**فإنهم يراقبون ظاهرَك، والله رقيب على باطنك**)[٤] نقله القشيري سماعًا عن محمد بن الحسين قال: سمعت عبد الله الرازي يقول: سمعت أبا عثمان يقول: قال لي أبو حفص ... فذكره، إلا أنه قال: والله رقيب على باطنك. وفي نسخة: والله يراقب باطنَك.

(**وحُكي أنه كان لبعض المشايخ من هذه الطائفة تلميذ شاب، وكان**) يخصُّه و(**يكرمه ويقدِّمه**) على جماعته ويُقبِل عليه أكثر ممَّا يُقبِل على غيره (**فقال له بعض أصحابه: كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ**)؟ فما السبب فيه؟ فقال: أبيِّن لكم ذلك (**فدعا بعدَّة طيور، وناول كلَّ واحد منهم طائرًا**) الأَوْلى: طيرًا (**وسكينًا،**

---

(١) السابق ص ٩٦.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٠٣، وفيه: فصلين.

(٣) انظر: شرح الرسالة لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ٢/ ٥٨٧.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٣.

وقال: ليذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد. ودفع إليٰ) هذا (**الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم، فرجع كل واحد بطائره مذبوحًا**) لأنه لم يرَ بمكان الذبح أحدًا من بني آدم (**ورجع الشاب والطائر حي في يده، فقال**) له: (**ما لك لم تذبح كما ذبح أصحابك؟ فقال**): أمرتني أن أذبحه حيث لا يراه أحد، وأنا (**لم أجد موضعًا لا يراني فيه أحد؛ إذ الله مطَّلع عليَّ في كل مكان. فاستحسنوا منه هذه المراقبة**) وقال الشيخ: لهذا أخصُّه بإقبالي عليه (**وقالوا**) له: (**حُقَّ لك أن تُكرَم**)[1] ويقبل عليك. حكاه القشيري في الرسالة بمعناه. وفيه دلالة علىٰ أن المراقبة لله تعالىٰ أفضل المقامات وإن ارتفعت مقامات العابدين وقويَ اجتهادُهم، فإنهم مشغولون بصلاح قلوبهم وأحوالهم، والمراقب لله قد غلب علىٰ قلبِه نظرُه إليه في سائر تصرُّفاته، وكان الشيخ يعرف فضيلة هذا الشاب ورفعة مقامه عن بقية تلامذته، فكان يقرِّبه لذلك ويخصُّه بأسراره دونهم، فلمَّا بلغه تغيُّرهم لذلك عرَّفهم بما ذُكِر رفعة مقامه عليهم. ثم علمُه بعدم إمكان ما أمره به شيخُه يحتمل أن يكون خطرَ له وقتَ الأمر به لكنه اتَّبع أمر شيخه لإقامة الحُجة علىٰ بقية التلامذة، وأن يكون إنما خطر له ذلك بعد مضيِّه وتفتيشه.

(**وحُكي أن زليخا**) امرأة العزيز (**لما خلتْ بيوسف** عليه السلام **قامت فغطَّت وجه صنم لها**) كانت تعبده (**فقال**) لها (**يوسف: ما لك؟ أتستحيين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبَّار**)[2] رواه أبو الشيخ وأبو نعيم في الحلية[3] عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين قال: لما دخل يوسف عليه السلام عليها البيت وفي البيت صنم من ذهب، قالت: كما أنت حتىٰ أغطي الصنم، فأنا أستحي منه. فقال يوسف: هذه تستحي من الصنم، فأنا أحق أن أستحي من الله. فكفَّ عنها وتركها.

---

(١) السابق ص ١٠٣، ١٠٤.

(٢) السابق ص ١٠٤.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١٩٨.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية(١) عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] قال: طمعت فيه وطمع [فيها] وكان فيه من الطمع أنه همَّ أن يحلَّ التكة، فقامت إلىٰ صنم مكلَّل بالدُّر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه، فقال: أيُّ شيء تصنعين؟ فقالت: أستحي من إلهي أن يراني علىٰ هذه السوأة. فقال يوسف: تستحينَ من صنم لا يأكل ولا يشرب، وأنا لا أستحي من إلهي الذي هو قائم علىٰ كل نفس بما كسبت. ثم قال: واللهِ لا تنالينها مني أبدًا، فهو البرهان الذي رأىٰ.

(وحُكي عن بعض الأحداث أنه راود جاريةً عن نفسها، فقالت له: ألا تستحي؟ فقال: ممَّن أستحي وما يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكِبها)(٢) أي رب الكواكب. رواه البيهقي في الشعب عن الأصمعي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: خرجت ليلةً فإذا أنا بجارية تستقي ماء، فراودتها عن نفسها، فقالت: ويلك! إن لم يكن لك زاجر من دين أما لك زاجر من كرم؟ فقلت لها: ما لك؟ لا يرانا إلا الكواكب. قالت: ويلك! وأين مكوكبها(٣)؟

(وقال رجل للجنيد) رحمه الله تعالىٰ: **(بمَ أستعين علىٰ غضِّ البصر؟ فقال: بعلمك أنَّ نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلىٰ المنظور إليه)**(٤).

---

(١) السابق ٣/ ١٨١. وعبارة (طمعت فيه وطمع فيها وكان فيه من الطمع) ساقطة من مطبوع الحلية.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٦٥ - ٢٦٦ من طريقين: الأول: طريق الأصمعي، قال: كنت أطوف بالبيت، فرأيت أعرابيا يطوف، فقلت له: فبينك وبين من تهوىٰ شيء؟ قال: لا، إلا ليلة فإني رمت منها شيئا، فقالت: أما تستحي؟ قلت: وممن أستحي ولا يرانا إلا الكواكب؟ قالت: فأين مكوكبها؟ الثاني: طريق أبي عبد الرحمن العتبي، قال: لقي رجل أعرابية، فأرادها علىٰ نفسها، فأبت وقالت: ثكلتك أمك، أما لك زاجر من كرم؟ أما لك ناهٍ من دين؟ قال: قلت: واللهِ إنه لا يرانا إلا الكواكب. قالت: ها بأبي أنت، وأين مكوكبها؟

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٥.

(وقال الجنيد) أيضًا: **(إنما يتحقَّق بالمراقبة مَن يخاف علىٰ فوت حظِّه من الله عَزَّوَجَلَّ)**(١) ولفظ الرسالة: مَن تحقَّق في المراقبة خاف علىٰ فوت حظه من ربِّه لا غير. ا.هـ. وذلك لأن المراقبة علىٰ درجات، فقد يراقب العبد أحكامَ ربِّه ليَسلم من العقاب، وقد يراقبها لزيادة الثواب، وقد يراقبها ليرتفع عنه الحجاب، وقد يراقبها ليكون من الأحباب، فإذا وصل إلىٰ هذا الحال الشريف راقب ربَّه، وأدام نظرَه لِما يتفضَّل به عليه ليَسلم من الغفلات التي يفوت بسببها حظُّه من مولاه، فمراقبته له بهذا التقدير خوفًا من فوات حظِّه منه من أفضل المراقبات.

(وقال مالك بن دينار) أبو يحيىٰ البصري رحمه الله تعالىٰ: **(جنات عدن من جنات الفردوس، وفيها حور خُلِقن من ورد الجنة. قيل له: ومَن يسكنها؟ قال: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همُّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني)** فتركوها **(والذين انثنت أصلابُهم من خشيتي، وعزَّتي وجلالي إني لأهمُّ بعذاب أهل الأرض، فإذا نظرتُ إلىٰ أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفتُ عنهم العذاب)**(٢) روىٰ البيهقي(٣) من حديث أنس: «يقول الله تعالىٰ: إني لأهِمُّ بأهل الأرض عذابًا، فإذا نظرتُ إلىٰ عُمَّار بيوتي والمتحابِّين فيَّ وإلىٰ المستغفرين بالأسحار صرفتُ عنهم».

(وسُئل) أبو عبد الله الحارث بن أسد **(المحاسبي)** البصري رحمه الله تعالىٰ **(عن المراقبة فقال: أولها علم القلب بقرب الرب تعالىٰ)**(٤) أي فإذا تم له ذلك خلُصَ سرُّه لله تعالىٰ.

---

(١) السابق.

(٢) السابق، ورواه ابن أبي حاتم في تفسيره ٤/ ١١٧٠، ٨/ ٢٧٨٢، وابن الجوزي في ذم الهوىٰ ص ٢٤٤، وابن أبي الدنيا في صفة الجنة ص ٢٢٦ حتىٰ قوله (من خشيتي).

(٣) شعب الإيمان ٤/ ٣٧٩، ١١/ ٣٤٥.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٥.

(وقال) أبو[1] محمد عبد الله بن محمد **(المرتعش)** النيسابوري، من أصحاب الجنيد، مات ببغداد سنة ٣٢٨ **(المراقبة: مراعاة السر بملاحظة الغيب)** فيما يَرِدُ عليك منه **(مع كل لحظة ولفظة)**[2] حكاه القشيري عن محمد بن الحسين سماعًا قال: سمعت أبا القاسم البغدادي يقول: سمعت المرتعش يقول ... فذكره.

(ويُروَىٰ) في بعض الأخبار **(أن الله تعالىٰ قال لملائكته: أنتم موكَّلون بالظاهر، وأنا الرقيب علىٰ الباطن)**[3] أي العليم بسرِّه من غير غفلة. ومن ذلك قول أبي حفص لأبي عثمان: فإنهم يراقبون ظاهرك، والله رقيب علىٰ باطنك. وتقدَّم قريبًا.

(وقال) أبو[4] عبد الله **(محمد بن علي)** بن الحسن بن بشر الحكيم **(الترمذي)** رحمه الله تعالىٰ، من كبار الشيوخ، وله تصانيف في علوم القوم، صحب أبا تراب النخشبي وأحمد بن خضرويه وابن الجلاء وغيرهم، وهو صاحب «نوادر الأصول» **(اجعلْ مراقبتك لمَن لا تغيب عن نظره إليك، واجعل شكرك لمَن لا تنقطع نعمُه عنك، واجعل طاعتك لمَن لا تستغني عنه، واجعل خضوعك لمَن لا**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٠٦.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٦.

(٣) السابق، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٥٨ وأبو الشيخ في العظمة ٣/ ١٠٠٠ وابن أبي الدنيا في الإخلاص والنية ص ٤٦ مرسلا من حديث ضمرة بن حبيب بلفظ: «إن الملائكة يرفعون أعمال العبد من عباد الله يستكثرونه ويزكونه حتىٰ يبلغوا به إلىٰ حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم: إنكم حفظة علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه، إن عبدي هذا لم يخلص لي ولم يخلص عمله، فاجعلوه في سجين. ويصعدون بعمل العبد يستقلونه ويحقرونه حتىٰ ينتهوا به إلىٰ حيث شاء الله من سلطانه، فيوحي الله إليهم: إنكم حفظة علىٰ عمل عبدي، وأنا رقيب علىٰ ما في نفسه، إن عبدي هذا أخلص عمله فضاعفوه له واكتبوه في عليين». ورواه ابن الجوزي في الموضوعات ٣/ ١٥٥ - ١٥٨ ضمن حديث طويل عن معاذ بن جبل.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٩٢.

تخرج عن مُلكه وسلطانه)[١] هكذا ذكره في النوادر.

(وقال) أبو محمد (سهل) التستري رحمه الله تعالىٰ: (لم يتزيَّن القلب بشيء أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان)[٢] وهذا لأنه أصل كل خير، فإذا استدام ذلك صارت مراقبةً.

(وسُئل بعضهم عن قوله تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨﴾ [البينة: ٨] فقال: معناه: ذلك) أي الرضوان (لمَن راقب ربَّه عَزَّوَجَلَّ) في أحواله (وحاسب نفسه، وتزوَّد لمعاده)[٣] ففسَّر الخشية بالمراقبة والمحاسبة، ولذلك جاء في الخبر: «كفىٰ بالخشية علمًا».

(وسُئل ذو النون) المصري رحمه الله تعالىٰ: (بمَ ينال العبد الجنةَ؟ فقال: بخمس) خصال: (استقامة) في الطاعات (ليس فيها روغان، واجتهاد) في المعاملة السرِّية (ليس معه سهو) ولا غفلة (ومراقبة الله في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهُّب له) بالأعمال الصالحة، فكان قد (ومحاسبة نفسك) فيما عملته من خير أو شر (قبل أن تحاسَب)[٤].

(وقد قيل) في معنىٰ ذلك:

(إذا ما خلوتَ الدهرَ يومًا فلا تقلْ … خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعةً … ولا أنَّ ما تخفيه عنه يغيبُ

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٠٦، ورواه السلمي في طبقات الصوفية ص ١٧٧ وأبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٢٣٥ دون الجملة الثالثة. ورواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ٢/ ٢٨٣ تاما عن أبي بكر الوراق.
(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص ١٠٦.
(٣) السابق ص١٠٦، ١٠٧، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٩٧ عن سهل بن عبد الله التستري، دون ذكر الآية.
(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٠٧.

ألـم تـرَ أن اليـوم أسـرعُ ذاهـبٍ وأن غـدًا للناظريـن قريـبُ)

وكان الإمام الشافعي ينشد هذه الأبيات كثيرًا[١]، فقيل: إنها له، وقيل: لغيره.

(وقال حميد) بن[٢] أبي حميد تيرويه **(الطويل)** أبو عبيدة البصري التابعي، اختُلف في اسم أبيه علىٰ عشرة أقوال أشهرها ما ذكرتُ، ثقة، روىٰ له الجماعة. وفي التهذيب: قال البخاري: قال الأصمعي: رأيت حميدًا، ولم يكن طويلاً، وقال غيره: إنما كان طوله في يديه[٣]. مات سنة ثلاث وأربعين ومائة وهو قائم يصلي وله خمس وسبعون سنة **(لسليمان بن علي)** بن[٤] عبد الله بن عباس، أحد الأشراف، وعم الخليفتين السفاح والمنصور، روىٰ له النسائي وابن ماجه، مات سنة اثنتين وأربعين ومائة وله تسع وخمسون سنة **(عِظْني[٥]. فقال: لئن كنتَ إذا عصيتَ الله خاليًا)** عن الناس **(ظننت أنه يراك لقد اجترأت علىٰ أمر عظيم)** فإنك بارزتَه بالمعصية مع علمك باطِّلاعه عليك **(ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كفرتَ)** إذ

---

(١) البيت الأول والثاني فقط في ديوانه ص ٤٧ (ط - دار الكتاب العربي)، والأبيات الثلاثة ليست في بقية الطبعات. وهي في كتاب أخلاق الوزيرين لأبي حيان التوحيدي ص ٣٧٤ - ٣٧٥ (ط - دار صادر) منسوبة لنصيح بن منظور الفقعسي، نقلا عن ابن الأعرابي. وفي روضة العقلاء لابن حبان ص ٢٦ - ٢٧ دون نسبة. والبيت الأول والثاني في ديوان أبي نواس ٢/ ١٧٥، وقال محققه: إنهما زيادة في الديوان الذي جمعه الصولي. وهما أيضا في ديوان أبي العتاهية ص ٣٤. ونسبهما الزمخشري في ربيع الأبرار ٢/ ٢٥٠ لعمرو بن الحسن الإباضي. وهما في كتاب شعر الخوارج ص ٢٣٤.

(٢) تهذيب الكمال ٧/ ٣٥٥ - ٣٦٥.

(٣) في التاريخ الكبير للبخاري ٢/ ٣٤٨: «قال الأصمعي: رأيت حميدا، ولم يكن بطويل، ولكن كان طويل اليدين». وقيل: إنما كان له جار قصير اسمه حميد أيضا، فقيل له حميد الطويل للتمييز بينهما.

(٤) تقريب التهذيب ص ٤١١.

(٥) في التفسير الكبير للفخر الرازي ٢/ ٢٢٩ ومحاضرات الأدباء للراغب ٢/ ٤٠٢ أن سليمان بن علي هو الذي قال لحميد: عظني. وفي سراج الملوك للطرطوشي ص ١٦ أن سليمان بن عبد الملك هو القائل لحميد: عظني.

قد أنكرتَ إحاطةَ علمِه.

(وقال سفيان الثوري) رحمه الله تعالىٰ: **(عليك بالمراقبة ممَّن لا تخفَىٰ عليه خافيةٌ، وعليك بالرجاء ممَّن يملك الوفاءَ، وعليك بالحذر)** أي الخوف **(ممَّن يملك العقوبة)** أخرجه أبو نعيم في الحلية.

(وقال فرقد) بن[1] يعقوب **(السَّبَخي)** بفتح المهملة والموحدة وبخاء معجمة، أبو يعقوب البصري، صدوق، عابد، ليِّن الحديث، روىٰ له الترمذي وابن ماجه، مات سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة **(إن المنافق ينظر، فإذا لم يرَ أحدًا دخل مدخل السوء، وإنما يراقب الناس، ولا يراقب الله تعالىٰ.**

وقال) أبو[2] عبد الرحمن **(عبد الله بن دينار)** العَدَوي، مولىٰ ابن عمر، مات سنة سبع وعشرين ومائة، روىٰ له الجماعة **(خرجت مع عمر بن الخطاب** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **إلىٰ مكة، فعرَّسنا في بعض الطريق، فانحدر عليه راعٍ من الجبل)** معه غنمه **(فقال له: يا راعي، بِعني شاة من هذه)** الثُّلَّة. يحتمل أنه ظَنّ مِلكه لبعض **(الغنم)** أو أنه لمَّا رأىٰ حسن رعايته لها في الظاهر فأراد أن يختبر باطنه هل ذلك عن دين أو عادة **(فقال: إني مملوك)** وهذه الغنم ليست مِلكًا لي، إنما أنا أرعاها **(فقال: قل لسيدك)** إذا سألك عنها **(أكلها الذئب)** وهذا يؤكد الاحتمالَ الثاني أنه اختبار **(قال: فأين الله)**؟ فإنه يعلم ذلك، ويؤاخذني به **(قال)** الراوي: **(فبكىٰ عمر** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**)** من سماع هذا الكلام **(ثم غدا إلىٰ المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال: أعتقتك في الدنيا هذه الكلمةُ، وأرجو أن تعتقك في الآخرة)** والذي في الرسالة للقشيري: وقيل: كان ابن عمر في سفر، فرأىٰ غلامًا يرعىٰ غنمًا، فقال: تبيع من هذه الغنم واحدةً؟ فقال: إنها ليست لي. فقال: قل لصاحبها: إن الذئب أخذ منها واحدة. فقال العبد: فأين الله؟ فكان ابن عمر يقول بعد ذلك إلىٰ مدة: قال ذلك العبد: فأين الله؟

---

(١) تقريب التهذيب ص ٧٨٠.

(٢) السابق ص ٥٠٤.

قال الشارح: لأنه لمَّا علم بذلك دينَه ومراقبته لله أعجبه حالُه وصار عبرةً له يتذكَّر به زمانًا. قال: ورُوي أنه سأل عن رب الغنم، فاشتراه والغنمَ وأعتقه ووهبها له.

قلت: والنفس تميل إلىٰ أن هذه القصة وقعت لابن عمر، وشاهده رواية ابن دينار عنه، وهو مولاه وملازمه في أسفاره، وقد رُويت أيضًا عن نافع، وفيها التصريح بأن الواقعة لابن عمر. قال ابن شاذان: أخبرنا أبو بكر محمد بن جعفر الأرموي، أخبرنا أحمد بن عبيد بن ناصح النحوي، حدثنا محمد بن يزيد، حدثنا عبد العزيز قال: قال نافع: خرجت مع ابن عمر في بعض نواحي المدينة، ومعه أصحاب له، فوضعوا سفرة لهم، فمرَّ بهم راعٍ، فقال له عبد الله: هلمَّ يا راعي فأصِبْ من هذه السفرة. فقال: إني صائم، فقال له عبد الله: في مثل هذا اليوم الشديد حره وأنت في هذه الشِّعاب في آثار هذه الغنم وبين هذه الجبال وترعىٰ هذه الغنم وأنت صائم؟! فقال الراعي: أبادر لأيامي الخالية. فعجب ابنُ عمر وقال: هل لك أن تبيعنا شاة من غنمك نجتزرها ونطعمك من لحمها ما تفطر عليه ونعطيك ثمنها؟ قال: إنها ليست لي، إنها لمولاي. قال: فما عسيت أن يقول لك مولاك إن قلتَ أكلها الذئب؟ فمضىٰ الراعي وهو رافع إصبعه إلىٰ السماء وهو يقول: فأين الله؟ [فلم يزل ابن عمر يقول: قال الراعي: فأين الله] فما عدا أنْ قدم المدينةَ فبعث إلىٰ سيده فاشترىٰ منه الراعي والغنم، فأعتقَ الراعي ووهب له الغنمَ[1].

وممَّا ذكر القشيري في هذا الباب من الرسالة: سمعت أبا عبد الرحمن السلمي يقول: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت الجريري يقول: مَن لم يحكم بينه وبين الله تعالىٰ التقوىٰ والمراقبة لم يصل إلىٰ الكشف والمشاهدة[2].

---

(١) رواه ابن الجوزي في التبصرة ٢/ ٢٦٦ بنفس الإسناد والمتن. ورواه أيضا مطولا ومختصرا: الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ٢٦٣، وأبو داود في الزهد ص ٢٦٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٧/ ٢٢٣، ١١/ ١٠٣، وابن أبي الدنيا في قصر الأمل ص ١٢٧.

(٢) رواه البيهقي في الزهد الكبير ص ٣٣٦.

سمعت أبا علي الدقَّاق يقول: كان لبعض الأمراء وزيرٌ، فكان بين يديه يومًا، فالتفت إلىٰ بعض الغلمان الذين كانوا وقوفًا لا لريبة ولكن لحركة أو صوت أحسَّ منهم، فاتفق أن ذلك الأمير نظر إلىٰ هذا الوزير في تلك الحالة، فخاف الوزير أن يتوهَّم الأمير أنه نظر إليهم لريبة، فجعل ينظر إليه كذلك، فبعد ذلك اليوم كان هذا الوزير يدخل علىٰ الأمير أبدًا وهو ينظر إلىٰ جانبه، حتىٰ توهَّم الأمير أن ذلك خُلُقه وحول فيه. فهذه مراقبة مخلوق لمخلوق، فكيف مراقبة العبد لسيده؟!

سمعت بعض الفقراء يقول: كان أمير له غلام يُقبِل عليه أكثر من إقباله علىٰ غيره من غلمانه، ولم يكن أكثرهم قيمة ولا أحسنهم صورةً، فقالوا له في ذلك، فأراد الأمير أن يبيِّن لهم فضل الغلام في الخدمة علىٰ غيره، فيومًا من الأيام كان راكبًا ومعه الحَشَم، وبالبعد منهم جبل عليه ثلج، فنظر الأمير إلىٰ ذلك الثلج وأطرق [رأسه] فركض الغلام فرسه، ولم يعلم القوم لماذا ركض، فلم يلبث إلا يسيرًا حتىٰ جاء ومعه شيء من الثلج، فقال له الأمير: ما أدراك أني أردتُ الثلج؟ فقال الغلام: لأنك نظرتَ إليه، ونظرُ السلطان إلىٰ شيء لا يكون عن غير قصد [صحيح] فقال الأمير: إنما أخصُّه بإكرامي وإقبالي عليه لأن لكل أحد شغلاً، وشغلُه مراعاة لحظاتي ومراقبة أحوالي.

وقال بعضهم: مَن راقب الله في خواطره عصمه الله في جوارحه.

وسُئل أبو الحسين ابن هند: متىٰ يهشُّ الراعي غنمَه بعصا الرعاية عن مراتع الهَلَكة؟ فقال: إذا علم أنَّ عليه رقيبًا[1].

وقال ذو النون: علامة المراقبة: إيثار ما آثر الله، وتعظيم ما عظَّم الله، وتصغير

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٦٦ عن أبي عبد الله بن خفيف قال: لما قدم أبو العباس بن سريج قاضيا علىٰ فارس دخلنا عليه، فسأله أبو عبد الله النجراني قال: متىٰ يهش الراعي غنمه بعصا الرعاية عن مراتع الهلكة؟ فقال: إذا علم أن عليه رقيبا.

ما صغَّر الله[1].

وقال النصرآباذي: الرجاء يجرُّك إلىٰ الطاعات، والخوف يبعدك عن المعاصي، والمراقبة تؤدِّيك إلىٰ طرق الحقائق.

سمعت محمد بن الحسين يقول: سمعت أبا العباس البغدادي يقول: سألت جعفر بن نصير عن المراقبة، فقال: مراعاة السر لملاحظة الغيب في كل خطرة[2].

وقال إبراهيم الخَوَّاص: المراعاة تورث المراقبةَ، والمراقبة تورث خلوصَ السر والعلانية لله.

سمعته يقول: سمعت محمد بن عبد الله يقول: سمعت أبا جعفر الصيدلاني يقول: سمعت أبا سعيد الخَرَّاز يقول: قال لي بعض مشايخي: عليك بمراعاة سرِّك والمراقبة. قال: بينما أنا أسير يومًا في البادية إذا أنا بخشخشة خلفي، فهالني ذلك، وأردت أن التفت فلم ألتفت، فرأيت شيئًا واقفًا علىٰ كتفي، فانصرف وأنا مراعٍ لسرِّي، ثم التفتُّ فإذا أنا بسبع عظيم[3].

وقال الواسطي: أفضل الطاعات حفظُ الأوقات وهو أن لا يطالع العبد غيرَ حدِّه، ولا يراقب غيرَ ربِّه، ولا يقارن غيرَ وقته[4]. والله أعلم.

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٣/ ١٨٣ بلفظ: ثلاثة من أعمال المراقبة ... فذكرها. ورواه أيضا ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤١٤، ٤٢٥.

(٢) في الرسالة: «مراعاة السر لملاحظة نظر الحق مع كل خطرة».

(٣) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥/ ١٣٤.

(٤) رواه السلمي في كتاب الفتوة ص ٧٣ عن الجنيد بلفظ: أرفع الأعمال حفظ آداب الأوقات، وهو أن لا يطالع ... الخ. وأورده الكلاباذي في التعرف ص ١٠٥ عن الجنيد أيضا بلفظ: التصوف حفظ الأوقات، وهو أن لا يطالع ... الخ. وعند السلمي والكلاباذي: ولا يوافق، بدل: ولا يراقب.

بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن) المراقبة مفاعلة، فلا بد من التراقب من الجانبين، فعلىٰ هذا لا بد للمراقب أن يكون مراقبًا لاطِّلاعه علىٰ اطِّلاع الحق سبحانه علىٰ حاله، ويداوم علىٰ ذلك، أو يكون مراقبًا لاطِّلاعه علىٰ موجِده بلا تصوُّر ولا تشتُّت خاطر[1]، وهي أفضل من الحياء؛ لأن الحياء يتولَّد عن معرفة عيوب النفس، والمراقبة لا تفتقر إلىٰ ذلك. وعلىٰ هذا (**حقيقة المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهمِّ إليه، فمَن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره**) حتىٰ[2] لا يغفل عنه، ويلاحظه ملاحظة تامة لازمة دائمة لزومًا لو عرفه الممنوع عنه لَما أقدم عليه (**يقال: إنه يراقب فلانًا ويراعي جانبه**) فكأنَّه يرجع إلىٰ العلم والحفظ (**ويعني بهذه المراقبة: حالة للقلب يثمرها نوعٌ من المعرفة، وتثمر تلك الحالةُ أعمالاً في الجوارح وفي القلب، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب**) في كل خطرة (**واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إيَّاه، وانصرافه إليه**) وإليه يشير كلام جعفر بن نصير في المراقبة الذي تقدَّم قريبًا؛ إذ قال: هي مراعاة السر لملاحظة الغيب في كل خطرة، وكلام الخوَّاص: المراعاة تورث المراقبةَ. وكأنَّ هذا أول درجات المراقبة.

ثم إن المراقبة كغيرها من المقامات تنتظم من علم وحال وعمل، وقد أشار المصنِّف إلىٰ العلم بقوله: (**وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالةَ فهو العلم**) بصفات الألوهيَّة المحدقة بالوجود كله بكل جزء منه علىٰ انفراده كعلمه وبصره وسمعه والإيمان بها و(**بأن الله مطَّلع علىٰ الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب علىٰ أعمال العِباد، قائم علىٰ كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقِّه مكشوف، كما أن**

---

(١) قاله عبيد الله أحرار النقشبندي، كما في مفتاح المعية ص ٨٦ - ٨٧.

(٢) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١٢٨.

ظاهر البشرة للخَلق مكشوف، بل أشد من ذلك) وأقوىٰ، وإليه يشير كلام أبي الحسين ابن هند الذي تقدم. والإيمان بهذه الصفات واجب، وهو من الإيمان بالله **(فهذه المعرفة إذا)** تقوَّت **(صارت يقينًا، أعني أنها خلتْ عن)** أن يمازجها **(الشكُّ)** والريب **(ثم استولت بعد ذلك علىٰ القلب)** الصنوبري **(وقهرته)** أي ملكتْه ملكًا تامًّا لم تبقَ فيه منازعة لخاطر، وحصول هذا المعنىٰ بعد اليقين شرطٌ **(فرُب علمٍ لا شك فيه لا يغلب علىٰ القلب)** ولا يستوليه **(كالعلم بالموت)** فإنه يقينيٌّ، إلا أنه لا يقهر بعضَ القلوب **(فإذا استولت علىٰ القلب استجرَّت القلبَ إلىٰ مراعاة جانب الرقيب، وصرفت همَّه إليه)** بالكلِّية، وتحقَّق بمقام الإحسان المشار إليه في الخبر **(والموقنون بهذه المعرفة هم المقرَّبون)** في الحضرة الإلهية **(وهم ينقسمون إلىٰ الصدِّيقين وإلىٰ أصحاب اليمين، فمراقبتهم)** أي المقرَّبين **(علىٰ درجتين، الدرجة الأولىٰ: مراقبة المقرَّبين من الصدِّيقين، وهي)** لها بداية ونهاية، فثمرة بدايتها رعاية الخواطر، وكشفُ ما التبس منها، والأدب مع الله بحرمة مراقبة الله، ونهاية هذه الدرجة **(مراقبة التعظيم والإجلال)** والهيبة **(وهو أن يصير القلب مستغرقًا بملاحظة ذلك الجلال، ومنكسرًا تحت الهيبة)** بدخول الأعضاء بعضها في بعض **(فلا يبقىٰ فيه متسَع للالتفات إلىٰ الغير أصلاً)** وهذه الحالة مرادة لذاتها؛ لأنها حالة لا تسع العملَ، فإن الخواطر والجوارح بنية تابعة للروح المأخوذة بالمشاهدة والأحوال لها، والأدب عند سكون هذه الحالة رؤيةُ العالَم علىٰ أتمِّ أنواع الإتقان والإعلام، والرضا بمجاري الأقدار، وسلبُ الاختيار لما عاين من جلال الله، ورؤية الشريعة بعين الوقار وكمال النظام؛ لأنه رأىٰ ثمرتها وبركتها، وقيل: السكون: أن لا يكون للعقل فراغ لشيء من هذه الآداب، وأقل إدراك العقل في هذا أن يرىٰ الحق حقًّا والباطل باطلاً بعلم ضروريٍّ لا يفتقر فيه إلىٰ إقامة برهان **(وهذه مراقبة لا نطوِّل النظرَ في تفصيل أعمالها، فإنها مقصورة علىٰ القلب)** فمن جملتها المراقبة المنسوبة إلىٰ الطائفة النقشبندية قدَّس الله أسرارهم، قالوا: هي[1] ملاحظة المعنىٰ المقدَّس

---

(١) مفتاح المعية ص ٨٣ - ٨٩.

[المفهوم] من الجلالة وفهمُه وحفظُه في الخيال، ثم التوجُّه به إلىٰ القلب بجميع القوىٰ والمدارك، والمداومة عليه حتىٰ تذهب الكلفة من البين ويصير مَلَكة، فإن عسر ذلك فليتخيَّله بصورة نور بسيط محيط بجميع الموجودات العلمية والعينية، وليجعله في مقابلة البصيرة، ثم يتوجَّه به إلىٰ القلب بالوجه المذكور إلىٰ أن تقوَىٰ البصيرةُ وتذهب الصورة، ويترتَّب عليه ظهور المعنىٰ المقصود، قالوا: وهي أعلىٰ من طريق النفي والإثبات، وأقرب للجذبة الإلهية من غيرها، كما سيأتي بيانه **(أما الجوارح فإنها تتعطَّل عن التلفُّت إلىٰ المباحات فضلاً عن المحظورات، فإذا تحرَّكت بالطاعات كانت كالمستعملة بها، فلا تحتاج إلىٰ تدبير وتثبيت في حفظها علىٰ سَنَن السداد، بل يسدِّد الرعيةَ مَن ملك كُلِّية الراعي، والقلب هو الراعي)** كما ورد في تأويل الخبر: «اللهم أصلِح الراعي والرعية»، أي القلب والجوارح، كما تقدم **(فإذا صار مستغرقًا بالمعبود صارت الجوارح مستعمَلة، جارية علىٰ السداد والاستقامة من غير تكلُّف، وهذا هو الذي صار همُّه همًّا واحدًا فكفاه الله سائرَ الهموم)** كما روىٰ ابن ماجه[١] من حديث ابن مسعود: «مَن جعل الهموم همًّا واحدًا همَّ المعادِ كفاه الله سائرَ همومه ...» الحديث، وتقدم. وروىٰ هنَّاد في الزهد[٢] عن سليمان بن حبيب المحاربي مرسلاً: «مَن كان همُّه همًّا واحدًا كفاه الله همَّه ...» الحديث **(ومَن نال هذه الدرجةَ فقد يغفل عن الخَلق)** رأسًا **(حتىٰ لا يبصر مَن يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صَمَم به، وقد يمر علىٰ ابنه مثلاً فلا يكلِّمه)** ولا يحس به **(حتىٰ كان بعضهم يجري عليه ذلك)** فيعاتبه بعضُهم **(فقال لمَن عاتبه: إذا مررتَ بي فحرِّكْني)**[٣] حتىٰ أحس بك. ومنهم مَن كان إذا دخل عليه أصحابه يسألهم عن أسمائهم كلَّما دخلوا عليه، قال القشيري[٤]: سمعت أبا نصر المؤذِّن بنيسابور قال: كنت مختصًّا بمجلس الأستاذ

(١) سنن ابن ماجه ١/ ٢٣٧، ٥/ ٥٥٥.

(٢) الزهد ٢/ ٣٥٥.

(٣) انظر: الوصايا للحارث المحاسبي ص٣١٤.

(٤) الرسالة القشيرية ص ١٥١.

أبي علي الدقَّاق أقرأ فيه القرآن، فاتفق خروجه إلىٰ الحج، وخرجت معه، فلما كنا بالبيضاء[١] طلب قمقمة، فأحضرتها إليه، فقال: جزاك الله خيرًا. ثم نظر إليَّ طويلاً كأنَّه لم يرني قط وقال: رأيتك مرةً، من أنت؟ فقلت: المستغاث بالله، صحبتك مدةً، وخرجت من مسكني ومالي [بسببك] نسيتني الساعة تقول: رأيتك مرةً.

(**ولا تستبعد هذا، فإنك تجد نظير هذا في القلوب المعظِّمة لملوك الأرض، حتىٰ إنَّ خدم الملك قد لا يحسُّون بما يجري عليهم في مجالس الملوك؛ لشدة استغراقهم بهم**) وانصراف هِمَمِهم إليهم (**بل قد يشتغل القلب بمهمٍّ حقير من مهمَّات الدنيا فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي**) ولم يزل في ذلك الفكر (**فربما يجاوز**[٢] **الموضعَ الذي قصده، وينسىٰ الشغل الذي نهض له**) فيتعجَّب من حاله ويرجع.

(**وقد قيل لعبد الواحد بن زيد**) البصري العابد رحمه الله تعالىٰ: (**هل تعرف في زمانك هذا رجلاً قد اشتغل بحاله عن الخَلق؟ فقال: ما أعرف**) بهذا الوصف (**إلا رجلاً سيدخل عليكم الساعةَ. فما كان إلا سريعًا حتىٰ دخل عتبة**) بن أبان ابن تغلب[٣] (**الغلام**) رحمه الله تعالىٰ (**فقال له عبد الواحد بن زيد: من أين جئتَ يا عتبة؟ فقال: من موضع كذا. وكان طريقه علىٰ السوق، فقال: مَن لقيتَ في الطريق؟ فقال: ما رأيت أحدًا**)[٤] رواه أبو نعيم في الحلية[٥] قال: حدثنا عبد الله ابن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين، حدثنا أحمد بن إبراهيم [حدثني إبراهيم] ابن عبد الرحمن، حدثني مُضَر قال: قال رجل لعبد الواحد بن زيد: يا أبا عبيدة، تعلم

---

(١) في الرسالة: بالبادية.

(٢) في أ، وط المنهاج ٩/ ١٤٠: يخطئ.

(٣) الصواب: عتبة بن أبان بن صمعة، وترجمته في سير أعلام النبلاء ٧/ ٦٢.

(٤) الوصايا للحارث المحاسبي ص ٣١٤.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ٢٣٣ - ٢٣٤.

أحدًا يمشي في الطريق مشتغلاً بنفسه لا يعرف أحدًا يقول من كثرة أشغاله؟ قال: ما أعرف أحدًا إلا رجلاً واحدًا الساعةَ يدخل عليكم. فبينما هو كذلك إذ دخل عليه عتبة. قال: وطريقه على السوق. قال: فقال له: يا عتبة، مَن رأيتَ ومَن تلقَّاك في الطريق؟ قال: ما رأيت أحدًا.

(ويُروَىٰ عن يحيىٰ بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة، فدفعها، فسقطت علىٰ وجهها، فقيل له: لِمَ فعلتَ هذا؟ فقال: ما ظننتها إلا جدارًا)[1] وهذا لشدة استغراقه بالله لم يميِّز بين المرأة والجدار، لا لكونه حصورًا.

(وحُكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يترامون) بالسهام ويتسابقون فيها **(وواحد جالس بعيدًا منهم، فتقدَّمت إليه، فأردت أن أكلِّمه، فقال: ذِكرُ الله أشهىٰ. فقلت: أنت وحدك)** هنا **(فقال: معي ربِّي ومَلَكاي. فقلت: مَن سبق من هؤلاء؟ فقال: مَن غفر الله له. فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء، وقام ومشىٰ، وقال: أكثرُ خلقِك)** لاهٍ **(شاغل عنك)**[2].

فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالىٰ، لا يتكلم إلا منه، ولا يسمع إلا فيه، فهذا لا يحتاج إلىٰ مراقبة لسانه وجوارحه، فإنها لا تتحرك إلا بما هو فيه.

ودخل) أبو بكر **(الشِّبْلي)** قُدِّس سره **(علىٰ أبي الحسين)** أحمد بن محمد **(النوري)** الواعظ رحمه الله تعالىٰ **(وهو معتكف، فوجده ساكنًا، حَسن الاجتماع، لا يتحرك من ظاهره شيءٌ)** وهذه هي هيئة المراقب **(فقال له)** الشبلي: **(من أين أخذتَ هذه المراقبة والسكون؟ فقال: من سِنَّور)** وهي الهِرَّة **(كانت لنا، كانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الحجر)** وراقبت عليه **(لا تتحرك لها شعرةٌ)** فهذه الحكاية هي كيفية الاستعداد بأن يعلم القرب بقرب الرب، ويجلس مطرقًا ساكن

---

(١) الوصايا للحارث المحاسبي ص ٣١٤، ٣١٥.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص١٠٤.

الظاهر والباطن مع الرياضات والتهذيب تولَّد منه تعظيمٌ وإجلال، وكلَّما زادت المعرفة زاد الإجلال والتعظيم.

(**وقال أبو**[1] **عبد الله**) محمد (**ابن خفيف**) الشيرازي، شيخ الشيوخ، وواحد وقته، صحب رويمًا والجريري وابن عطاء وغيرهم، مات سنة ٣٧١ (**خرجت من مصر أريد الرملة**): قاعدة فلسطين (**للقاء أبي**[2] **علي**) أحمد بن محمد (**الروذباري**) رحمه الله تعالىٰ [بغدادي] أقام بمصر، ومات بها سنة ٣٢٢، صحب الجنيد والنوري وابن الجلاء وغيرهم، وكان من أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة (**فقال لي عيسىٰ بن يونس المصري المعروف بالزاهد: إن في صور**): ثغر من ثغور الشام (**شابًّا وكهلاً قد اجتمعا علىٰ حال المراقبة، فلو نظرتَ إليهما نظرةً لعلك تستفيد منهما**) فسافرت في البحر (**فدخلت صور وأنا جائع عطشان، وفي وسطي خرقة، وليس علىٰ كتفي شيء، فدخلت المسجد، فإذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة، فسلَّمت عليهما، فما أجاباني**) فقلت: لعلَّهما لم يسمعاني (**فسلَّمت ثانيةً وثالثة، فلم أسمع الجواب، فقلت: نشدتكما بالله إلا رددتما عليَّ السلامَ. فرفع الشاب رأسه من مرقعته فنظر إليَّ وقال: يا ابن خفيف، الدنيا قليل**) أي في نفسها بالإضافة إلىٰ الآخرة (**وما بقي من القليل إلا القليل، فخذْ من القليل الكثيرَ. يا ابن خفيف، ما أقل شغلك حتىٰ تتفرَّغ إلىٰ لقائنا. قال: فأخذ بكلِّيتي**) أي مَجامِعي (**ثم طأطأ رأسه في المكان**) أي عاد للمراقبة من حينه (**فبقيتُ عندهما حتىٰ صلَّينا الظهر والعصر، فذهب جوعي وعطشي وعنائي، فلَّما كان وقت العصر قلت: عِظْني. فرفع رأسه إليَّ وقال: يا ابن خفيف، نحن أصحاب المصائب، ليس لنا لسان العظة. فبقيت عندهما ثلاثة أيام لا آكل ولا أشرب ولا أنام، ولا رأيتهما أكلا شيئًا ولا شربا، فلما كان في اليوم الثالث قلت في سرِّي: أحلِّفهما أن يعظاني لعلي أنتفع بعِظتهما،**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٢٠.

(٢) السابق ص ١٠٧.

فرفع الشاب رأسه إليَّ وقال لي: يا ابن خفيف، عليك بصحبة مَن تذكِّرك اللهَ رؤيتُه، وتقع هيبته علىٰ قلبك، يعظك بلسان فعله، ولا يعظك بلسان قوله، والسلام، قمْ عنا) وفيه كرامة لهما، حيث إنهما عرفاه ونادياه باسمه إعلامًا من الله لهما. وفيه أن المشغول بالله أهمُّ ما يكون إليه شغلُ حاله، واستغراقه يمنعه من الالتفات إلىٰ الوعظ والنصيحة، وإنما يُستدَلُّ بحاله ويُتَّعَظ به.

(فهذه درجة المراقبين الذين غلب علىٰ قلوبهم الإجلالُ والتعظيم) والهيبة (فلم يبقَ فيهم متسَع لغير ذلك.

الدرجة الثانية: مراقبة الورعين من أصحاب اليمين، وهم قوم غلب يقينُ اطِّلاع الله علىٰ ظاهرهم وباطنهم علىٰ قلوبهم، ولكن لم تدهشهم ملاحظةُ الجلال) بالكلِّية (بل بقيت قلوبهم علىٰ حدِّ الاعتدال، متسعة للتلفُّت إلىٰ الأحوال والأعمال، إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تخلو عن المراقبة. نعم، غلب عليهم الحياءُ من الله تعالىٰ فلا يُقدِمون) علىٰ عمل (ولا يحجمون إلا بعد التثبُّت فيه، ويمتنعون عن كل ما يُفتضَحون به في القيامة، فإنهم يرون الله في الدنيا مطَّلعًا عليهم فلا يحتاجون إلىٰ انتظار القيامة) ليسمعوا نداء الباري: لمَن المُلك اليوم؟ لله الواحد القهَّار. بل هذا النداء لا يفارق سمعَهم أبدًا (وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات، فإنك في خلوتك قد تتعاطَىٰ أعمالاً، فيحضرك صبيٌّ أو امرأة، فتعلم أنه مطَّلع عليك، فتستحي منه فتحسن جلوسَك، وتراعي أحوالك، لا عن إجلال وتعظيم، بل عن حياء، فإنَّ مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك، فإنها تهيج الحياءَ منك، وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيمُ حتىٰ تترك ما أنت فيه شغلاً به، لا حياءً منه. فهكذا تختلف مراتب العِباد في مراقبة الله تعالىٰ، ومَن كان في هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته، وبالجملة جميع اختياراته، وله فيها نظران: نظر قبل العمل) أي قبل الشروع فيه (ونظر في العمل).

(أما قبل العمل:

فلينظر أنَّ ما ظهر له وتحرك بفعله خاطرُه: أهو لله خاصةً، أو هو في هوىٰ النفس ومتابعة الشيطان؟! فيتوقَّف فيه ويتثبَّت حتىٰ ينكشف له ذلك بنور الحق) ويعلم الواجب من الأوجب، والفاضلَ من الأفضل، والمقدَّم من المؤخَّر، وما يفوت ممَّا لا يفوت (فإن كان لله تعالىٰ أمضاه، وإن كان لغير الله استحيا من الله وانكفَّ عنه) فقد قيل: العمل علىٰ الحياء أفضل من العمل علىٰ الرجاء والخوف (ثم لامَ نفسَه علىٰ رغبته فيه وهمِّه به وميله إليه، وعرَّفها سوءَ فعلِها وسعيَها في فضيحتها، وأنها عدوَّة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمته. وهذا التوقُّف) والتثبُّت (في بداية الأمور إلىٰ حدِّ البيان) والانكشاف (واجب محتوم ولا محيص لأحد عنه، ففي الخبر أنه: يُنشَر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول لِمَ) بكسر اللام ونصب الميم، وأصله: لِما، وهو للاستفهام (والثاني كيف، والثالث لمَن) قال العراقي[1]: لم أقف له علىٰ أصل[2].

قلت: لكن تقدم حديث «الدواوين يوم القيامة ثلاثة» من حديث عائشة، رواه أحمد والحاكم[3].

(ومعنىٰ لِمَ: أي لِمَ فعلتَ هذا؟ أكان عليك أن تفعله لمولاك أو مِلْتَ إليه بشهوتك وهواك؟ فإن سَلِمَ منه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه سُئل عن الديوان الثاني فقيل له: كيف فعلتَ هذا؟ فإنَّ لله في كل عمل شرطًا وحكمًا لا يدرك قدْره ووقته وصفته إلا بعلم، فيقال له: كيف فعلتَ؟ أبعلم محفوظ أم بجهل وظنٍّ؟ فإن سَلِمَ من هذا نُشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص، فيقال له: لمَن عملتَ؟

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٥.

(٢) قال في قوت القلوب ١/ ١٤٥، ١٤٦: وبلغني أن ما من فعلة وإن صغرت إلا وينشر لها ثلاثة دواوين: الديوان الأول لِمَ، والثاني كيف، والثالث لمن.

(٣) لا علاقة لهذا بما نحن فيه.

ألوجه الله خالصًا وفاءً بقولك «لا إله إلا الله» فيكون أجرك على الله أو لمُراءاة خلقٍ مثلك فخذْ أجرك منه؟ أم عملتَه لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبَك من الدنيا؟ أم عملت بسهو وغفلة فقد سقط أجرُك وحبط عملُك وخاب سعيُك؟ وإن عملتَ لغيري فقد استوجبتَ مقتي وعقابي؛ إذ كنت عبدًا لي، تأكل رزقي وتترفَّه بنعمتي ثم تعمل لغيري، أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمۡثَالُكُمۡۖ﴾ [الأعراف: ١٩٤] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقًا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧] ويحك! أما سمعتني أقول: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: ٣] فإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات) إن خلُص من الأول لا يخلُص من الثاني والثالث، وإن خلُص من الأول والثاني لا يخلص من الثالث، فإن الإخلاص عزيز (طالب نفسَه قبل أن تطالَب، وأعدَّ للسؤال جوابًا، وليكن الجواب صوابًا، فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التثبُّت) والتوقُّف (ولا يحرك جفنًا ولا أُنملة إلا بعد التأمُّل، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ) بن جبل رضي الله عنه: يا معاذ (إن الرجل ليُسئل عن كحل عينيه، وعن فتات الطين بأصبعيه، وعن لمسه ثوب أخيه) تقدم أن العراقي قال: لم أجد له أصلًا. مع أنه رواه أبو نعيم في الحلية في حديث طويل أوله: «يا معاذ، إن المؤمن لدى الحق أسير، يعلم أن عليه رقيبًا على سمعه وبصره ولسانه ويده ورجله وبطنه وفرجه ...» الحديث، وفيه: «يا معاذ، إن المؤمن لَيُسئل يوم القيامة عن جميع سعيه، حتى عن كحل عينيه. يا معاذ، إني أحب لك ما أحب لنفسي ...»[(١)] الحديث.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالى: (كان أحدهم إذا أراد أن يتصدَّق بصدقة نظر وتثبَّت، فإن كان لله أمضاه)[(٢)] نقله صاحب القوت.

---

(١) وأخرجه ابن أبي حاتم في التفسير ١٠/ ٣٤٢٧ من طريق آخر، وقال ابن كثير في تفسيره ٨/ ٣٩٧ (ط دار طيبة): «غريب جدًا، وفي صحة إسناده نظر». وإسناد الحلية فيه مجاهيل. والله أعلم.

(٢) رواه الطبري في جامع البيان ٤/ ٦٧٠ وابن زنجويه في الأموال ص ١٢٢١ في تفسير قوله =

(وقال الحسن) أيضًا: **(رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإن كان لغيره تأخر)**[١] نقله صاحب القوت.

(وقال في حديث سعد) بن أبي وقَّاص **(حين أوصاه سلمان)** ﷺ: **(اتقِ الله عند همِّك إذا هممتَ)** قال العراقي[٢]: رواه أحمد والحاكم وصحَّحه، وهذا القدْر منه موقوف، وأوله حديث مرفوع، كما تقدم[٣].

(وقال محمد بن علي) يحتمل أن يكون هو ابن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويحتمل أن يكون هو أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم السابق ذِكره قريبًا: **(إن المؤمن وقَّاف متأنٍّ، يقف عند همِّه، ليس كحاطب ليل)** وهو الذي يحتطب في ظلمة الليل فلا يميِّز بين ما يسرُّه مما يضرُّه.

(فهذا هو النظر الأول في هذه المراقبة، ولا يخلِّص من هذا إلا العلم المتين والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكائد الشيطان، فمتىٰ لم يعرف نفسه وربَّه وعدوَّه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميِّز بينه وبين ما يحبه الله ويرضاه في نيَّته وهَمَّته وفكرته وسكونه وحركته فلا يَسلم في هذه المراقبة) فوصفُ[٤] المراقبة للعبد إنما يُحمَد إذا كانت مراقبته لربِّه وقلبه، وذلك بأن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء، ويعلم أن نفسه عدوَّة له، والشيطان عدو له، وأنهما ينتهزان منه الفرصة حتىٰ يحملانه علىٰ الغفلة والمخالفة، فيأخذ منهما حذره ويلاحظ مكامنهما وتلبيسهما ومواضع انبعاثهما حتىٰ يسدَّ عليهما المنافذَ

= تعالىٰ: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ بلفظ: «كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان لله مضىٰ، وإن خالطه شك أمسك».

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب عجائب القلب بلفظ: «إنما هما همَّان يجولان في القلب: هم من الله تعالىٰ، وهم من العدو، فرحم الله عبدا وقف عند همه، فما كان من الله أمضاه، وما كان من عدوه جاهده».

(٢) المغني ٢/ ١١٨٦.

(٣) في كتاب الصبر والشكر بلفظ: «اذكر ربك عند همك إذا هممت».

(٤) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ١٢٨.

والمجاري، فهذه مراقبته، وهذا - كما ذُكر - يستدعي علمًا متينًا (**بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالىٰ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا. ولا تظنن أن الجاهل بما يقدر علىٰ التعلُّم فيه يُعذَر، هيهات! بل طلبُ العلم فريضة علىٰ كل مسلم**) كما في الخبر، وتقدم في كتاب العلم (**ولهذا كانت ركعتان من عالِم أفضل من ألف ركعة من غير عالِم**) كما ورد في الخبر، وتقدم قريبًا (**لأنه يعلم آفات النفوس ومكائد الشيطان ومواضع الغرور فيتَّقي ذلك، والجاهل لا يعرفه**) ومَن لا يعرفه (**فكيف يحترز منه؟ فلا يزال الجاهل في تعب، والشيطان منه في فرح وشماتة، فنعوذ بالله من الجهل والغفلة، فهو رأس كل شقاوة، وأساس كل خسران، فحكمُ الله علىٰ كل عبد أن يراقب نفسه عند همِّه بالفعل**) أي قبل الشروع فيه (و) عند (**سعيه بالجارحة، فيتوقَّف عن الهمِّ وعن السعي حتىٰ ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالىٰ فيمضيه، أو هو لهوىٰ النفس فيتَّقيه، ويزجر القلبَ عن الفكر فيه وعن الهمِّ به، فإن الخطرة الأولىٰ في الباطل إذا لم تُدفَع أورثت الرغبةَ**) فيها (**والرغبة تورث الهمَّ**) بها (**والهم يورث جزم القصد**) بها (**والقصد يورث**) حدوثَ (**الفعل**) في الحال (**والفعل يورث البوارَ**) أي الهلاك (**والمقتَ**) والبعد عن الله تعالىٰ (**فينبغي أن تُحسَم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر**) الذي خطر أولاً (**فإن جميع ما وراءه يتبعه، ومهما أشكل علىٰ العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فيتفكَّر في ذلك بنور العلم، ويستعيذ بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوىٰ**) وخداعه وتلبيسه، فإن انكشف له ذلك فهو المراد (**فإن عجز عن الاجتهاد والفكر**) بطريق العلم (**بنفسه**) إما لقصوره في درجة العلم أو لمانع آخر (**فيستضيء بنور علماء الدين**) بالسؤال عنهم والتأدُّب بآدابهم (**وليفرَّ من العلماء المضلِّين المقبلين علىٰ الدنيا**) بعلومهم ومعارفهم (**فرارَه من الشيطان، بل أشد، فقد**) ذكر المحاسبي في بعض كتبه أنه (**أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ داود** عليه السلام): يا داود (**لا تسلْ عني عالمًا أسكره حبُّ الدنيا**) أي غلب علىٰ قلبه واستولىٰ عليه حتىٰ صار شبيه السكران المغلوب

(فيقطعك عن محبتي، أولئك قُطَّاع الطريق علىٰ عبادي[١]**)**.

فالقلوب **المظلمة بحب الدنيا وشدة الشَّرَه والتكالُب عليها محجوبة عن نور الله تعالىٰ)** لا تستقرُّ فيها المعرفةُ أبدًا **(فإن مُستضاء أنوار القلوب حضرةُ الربوبية، فكيف يستضيء بها مَن استدبرها وأقبل علىٰ عدوِّها وعشق بغيضَها ومقيتَها وهي شهوات الدنيا)** والمقبل علىٰ حضرة الربوبية لا يلتفت إلىٰ الشهوات، ولا تخطر له علىٰ بال، والمقبل علىٰ الشهوات لا يشم رائحة الحضرة ولا يكون له نصيب منها **(فلتكن همَّة المريد أولاً في إحكام العلم)** ومراعاته، وليجعله بمنزلة إدامه ليقاتل به عدوَّه **(أو في طلب عالِم)** بصير متين العلم **(معرض عن الدنيا)** وشهواتها بأن لا يكون متلفِّتًا إليها **(أو ضعيف الرغبة فيها إن لم يجد مَن هو عديم الرغبة فيها)** فإنَّ وجدان ذلك في غالب الأزمنة عزيز **(وقد قال رسول الله ﷺ: إن الله يحب البصر الناقد)** بالقاف، أو هو بالفاء والذال **(عند ورود الشُّبهات، والعقل الكامل عند هجوم الشهوات)** قال العراقي[٢]: رواه أبو نعيم في الحلية[٣] من حديث عمران بن حصين، وفيه حفص بن عمر العَدَني[٤]، ضعَّفه الجمهورُ.

قلت: ورواه كذلك البيهقي في الزهد[٥] وأبو مطيع في أماليه والحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم الأصبهاني في كتاب الأربعين بلفظ: «عند مجيء الشُّبهات» و«عند نزول الشهوات»، وبزيادة: «ويحب السماحة ولو علىٰ تمرات، ويحب الشجاعة ولو علىٰ قتل حية».

(جمع بين الأمرين، وهما متلازمان حقًّا، فمَن ليس له عقل وازع عن

---

(١) هذا جزء من أثر طويل تقدم في كتاب المحبة والشوق بلفظ: «لا تجعل بينىٰ وبينك عالما يحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق علىٰ عبادي المريدين».

(٢) المغني ٢/ ١١٨٦.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ١٩٩ بالشطر الثاني فقط.

(٤) كذا هنا وفي المغني، والصواب: عمر بن حفص العبدي.

(٥) الزهد الكبير ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

الشهوات فليس له بصر ناقد في الشُّبهات، ولذلك قال ﷺ: مَن قارف ذنبًا فارقه عقلٌ لا يعود إليه أبدًا) قال العراقي[١]: لم أجده، وتقدم[٢].

(فما قدْر العقل الضعيف الذي سعدَ الآدميُّ به حتىٰ يعمد إلىٰ محوه ومحقه بمقارفة الذنوب) ومباشرتها (ومعرفة آفات الأعمال) ودقائقها (قد اندرست في هذه الأعصار، فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلومَ) وتركوها (واشتغلوا بالتوسُّط بين الخلق في الخصومات الثائرة في[٣] اتِّباع الشهوات وقالوا: هذا هو الفقه) المشار إليه (وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين) ولُباب العلوم كلها (من جملة العلوم، وتجرَّدوا لفقه الدنيا الذي ما قُصد به إلا دفع الشواغل عن القلوب لتتفرَّغ لفقه الدين، فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه، وفي الخبر: أنتم اليوم في زمان خيركم فيه المسارع، وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه المتثبِّت) قال العراقي[٤]: لم أجده.

(ولهذا توقَّفت طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام) أي عسكر معاوية (لما أشكل عليهم الأمرُ، كسعد بن أبي وقاص) أحد العشرة (وعبد الله بن عمر) بن الخطاب (وأسامة) بن زيد حِب رسول الله ﷺ (ومحمد بن مَسلمة) الأنصاري (وغيرهم) رضوان الله عليهم. أما سعد فقد ثبت أنه اعتزل الفتن بعد موت عثمان، ونزل قصره بالعقيق، وقال: لا أحد يدخل عليَّ بخبر. حتىٰ مات. وقد روىٰ أبو نعيم في الحلية[٥] من طريق أيوب السختياني قال: اجتمع سعد وابن مسعود وابن عمر وعمَّار بن ياسر، فذكروا الفتنة، فقال سعد: أما أنا فأجلس في بيتي ولا أدخل فيها.

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٦.

(٢) في كتاب عجائب القلب، وفي كتاب التوبة.

(٣) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ١٤٩: مِن.

(٤) المغني ٢/ ١١٨٦.

(٥) حلية الأولياء ١/ ٩٤.

ومن طريق عمر بن سعد عن أبيه أنه قال له: يا بني، أفي الفتنة تأمرني أن أكون رأسًا؟ لا واللهِ حتىٰ أُعطَىٰ سيف إن ضربتُ به مؤمنًا نبا عنه، وإن ضربت به كافرًا قتله.

ومن طريق ابن سيرين قال: قيل لسعد: ألا تقاتل؟ فإنك من أهل الشورىٰ، وأنت أحق بهذا الأمر من غيرك. فقال: لا أقاتل حتىٰ تأتوني بسيف له عينان ولسان وشفتان يعرف المؤمن من الكافر، فقد جاهدت وأنا أعرف الجهاد.

وأما ابن عمر فإنه كذلك اعتزل في الفتن بعد موت عثمان، فقد روىٰ أبو نعيم[1] أيضًا من طريق نافع قال: قيل لابن عمر زمن ابن الزبير والخوارج والخشبية[2]: أتصلي مع هؤلاء وهؤلاء وبعضهم يقتل بعضًا؟ فقال: مَن قال حي علىٰ الصلاة أجبتُه، ومَن قال حي علىٰ قتل أخيك المسلم وأخذِ ماله قلت لا.

ومن طريق عبد الله بن عبيد بن عمير عن ابن عمر قال: إنما هؤلاء فتيان قريش يقتتلون علىٰ هذا السلطان وعلىٰ هذه الدنيا، ما أبالي أن لا يكون لي ما يقتل بعضهم بعضًا عليه بنعليَّ هاتين الجرداوين.

وأما أسامة، فقال الحافظ في الإصابة[3]: اعتزل الفتن بعد قتل عثمان إلىٰ أن مات في آخر ولاية معاوية، وكان قد سكن المِزَّة من [عمل] دمشق، ثم رجع فسكن وادي القرىٰ، ثم رجع إلىٰ المدينة فمات بها بالجُرْف سنة أربع وخمسين.

---

(١) السابق ١/ ٣٠٩ - ٣١٠.

(٢) في تاج العروس ٢/ ٣٥٩: «الخشبية: قوم من الجهمية، يقولون: إن الله لا يتكلم، وإن القرآن مخلوق. وقال ابن الأثير: هم أصحاب المختار الثقفي، ويقال: هم ضرب من الشيعة، قيل: سموا بذلك بأنهم حفظوا خشبة زيد بن علي حين صلب. وقال الذهبي: قاتلوا مرة بالخشب، فعُرفوا بذلك».

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ١/ ٤٥.

وأما محمد[١] بن مَسلمة، ففي الاستيعاب لابن عبد البر[٢] أنه: كان ممَّن اعتزل الفتنة، فلم يشهد الجمل ولا صِفِّين. وقال حذيفة في حقه: إني لأعرف رجلاً لا تضرُّه الفتنةُ. فذكره، وصرَّح بسماع ذلك من النبي ﷺ[٣]. أخرجه البغوي وغيره. وأخرج ابن شاهين من طريق هشام عن الحسن أن محمد بن مسلمة قال: أعطاني رسول الله ﷺ سيفًا فقال: «قاتِل به المشركين ما قوتِلوا، فإذا رأيتَ أمَّتي يضرب بعضهم بعضًا فأتِ به أُحدًا فاضربه حتىٰ ينكسر، ثم اجلس في بيتك حتىٰ تأتيك يدٌ خاطئة أو منية قاضية». ففعل[٤]. قال الحافظ: رجال هذا السند ثقات، إلا أن الحسن لم يسمع من محمد بن مسلمة.

(فمَن لم يتوقَّف عند الاشتباه كان متَّبِعًا لهواه معجَبًا برأيه، وكان ممَّن وصفه رسولُ الله ﷺ إذ قال: فإذا رأيتَ شُحًّا مطاعًا وهوًىٰ متبَعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك) تقدم في ذم العُجب.

(وكل مَن خاض في شُبهة بغير تحقيق فقد خالف قولَه تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] **وقوله ﷺ: إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث)** رواه أحمد والشيخان وأبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة بزيادة: «ولا

---

(١) السابق ٩/ ١٣١ - ١٣٣.

(٢) الاستيعاب ٢/ ٢١٦.

(٣) روىٰ أبو داود في سننه ٥/ ٢١٢ من طريق محمد بن سيرين قال: قال حذيفة: ما أحد من الناس تدركه الفتنة إلا أنا أخافها عليه إلا محمد بن مسلمة، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تضرك الفتنة». ثم روىٰ من طريق ثعلبة بن ضبيعة قال: دخلنا علىٰ حذيفة فقال: إني لأعرف رجلا لا تضره الفتن شيئا. فخرجنا فإذا فسطاط مضروب، فدخلنا فإذا فيه محمد بن مسلمة، فسألناه عن ذلك، فقال: ما أريد أن يشتمل عليَّ شيء من أمصاركم حتىٰ تنجلي عما انجلت. ورواه أيضا الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٣/ ٥٣٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده ٢٩/ ٤٩٦، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٣/ ٢٤١، ونعيم بن حماد في الفتن ص ١٥٦، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٤١٠.

تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا ...» الحديث، وقد تقدَّم[١].

(وأراد به ظنًّا بغير دليل، كما يستفتي بعضُ العوامِّ قلبَه فيما أشكل عليه ويتبع ظنَّه. ولصعوبة هذا الأمر وعِظَمِه كان دعاء) أبي بكر **(الصدِّيق** رَضِيَ اللهُ عَنْهُ**: اللهم أرِني الحقَّ حقًّا وارزقني اتِّباعَه، وأرِني الباطلَ باطلاً وارزقني اجتنابَه، ولا تجعله متشابهًا عليَّ فأتَّبعُ الهوىٰ.**

وقال عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ**: الأمور ثلاثة: أمر استبان رشدُه فاتبِعْه، وأمر استبان غيُّه فاجتنِبْه، وأمر أشكل عليك فكِلْه إلىٰ عالِمه)** قال العراقي[٢]: رواه الطبراني[٣] من حديث ابن عباس بسند ضعيف.

(وقد كان من دعاء النبي ﷺ**: اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم)** قال العراقي[٤]: لم أجده.

(فأعظم نعم الله علىٰ عباده هو العلم وكشفُ الحق، والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم، ولذلك قال تعالىٰ امتنانًا علىٰ عبده: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣] **وأراد به العلم. وقال تعالىٰ:** ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] **وقال تعالىٰ:** ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾**)** [الليل: ١٢] أي دلالة الخير **(وقال:** ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾**)** [القيامة: ١٩] أي كشفُه **(وقال:** ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾**)** [النحل: ٩] أي السبيل المعتدل.

(وقال علي كرَّم الله وجهه: الهوىٰ شريك العمىٰ، ومن التوفيق التوقُّف عند

---

(١) في كتاب آداب الصحبة.

(٢) المغني ٢/ ١١٨٧.

(٣) المعجم الكبير ١٠/ ٣٨٧.

(٤) المغني ٢/ ١١٨٧. والذي في القوت: «وقد كان من دعاء علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللهم إني أعوذ بك أن أقول في العلم بغير علم به».

الحيرة) أي التثبُّت عند اشتباه الأمور من جملة التوفيق **(ونِعم طارد الهمِّ اليقينُ، وعاقبة الكذب الندم، وفي الصدق السلامةُ، رُب بعيد أقرب من قريب، وغريبٌ مَن لم يكن له حبيب، والصديق مَن صدق غيبُه، ولا يعدمك من حبيب سوءُ ظنٍّ، نِعم الخُلق التكرُّم، والحياء سبب إلىٰ كل جميل، وأوثق العُرَىٰ التقوىٰ، وأوثق سبب أخذتَ به سببٌ بينك وبين الله تعالىٰ، إنما لك من دنياك ما أصلحتَ به مَثواك، والرزق رزقان: رزق تطلبه)** أي تتعنَّىٰ في تحصيله **(ورزق يطلبك)** فيجيء لك من غير تعب **(فإن لم تأتِه أتاك)** وهو قدْر القوت **(وإن كنت جازعًا علىٰ ما أصيبَ مما في يديك فلا تجزع علىٰ ما لم يصل إليك، واستدِلَّ علىٰ ما لم يكن بما كان، فإنما الأمور أشباه، والمرء يسرُّه دركُ ما لم يكن ليفوته، ويسوؤه فوتُ ما لم يكن ليدركه، فما نالك من دنياك فلا تكثرنَّ به فرحًا، وما فاتك منها فلا تتبعه نفسَك أسفًا، وليكن سرورك بما قدَّمت، وأسفك علىٰ ما خلَّفت، وشغلك لآخرتك، وهمُّك فيما بعد الموت)** أورده الشريف الموسوي في نهج البلاغة[1] مفرَّقًا في مواضع، وفيه بعد قوله «فإن لم تأتِه أتاك»: فلا تحمل همَّ سنتك علىٰ همِّ يومك [كفاك كلُّ يوم ما فيه، فإن تكن السنة من عمرك] فإن الله يأتيك في كل غد جديدَ ما قسم لك، وإن لم تكن السنة من عمرك فما تصنع بالهمِّ لِما ليس لك؟ ولن يسبقك إلىٰ رزقك طالبٌ، ولن يغلبك عليه غالبٌ، ولن يبطئ عنك ما قُدِّر لك.

(وغرضنا من نقل هذه الكلمات) مع اختلافها في بعضها وكون كل كلمة منها بإسناد مستقلٍّ **(قوله: ومن التوفيق التوقُّفُ عند الحيرة)** وقد مضىٰ معناه.

(فإذًا النظر الأول للمراقب نظرُه في الهم والحركة أهي لله أم للهوىٰ) وذلك قبل العمل **(وقد قال ﷺ: ثلاثٌ مَن كنَّ فيه استكمل إيمانَه)**: رجل **(لا يخاف في الله لومةَ لائم، ولا يرائي بشيء من عمله، وإذا عرض له أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر الآخرةَ علىٰ الدنيا)** رواه الديلمي وابن عساكر من حديث أبي هريرة،

(١) شرح نهج البلاغة ١٥/ ٨٨، ١٦/ ٢٦١، ١٩/ ١٧٤.

وفيه سالم بن عبد الواحد المرادي، مختلَف فيه. وقد تقدم[١].

(وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحًا، ولكن لا يعنيه) أي لا يهتم به **(فيتركه؛ لقوله ﷺ: من حسن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه)** رواه الترمذي - وقال: غريب - وابن ماجه والبيهقي من حديث أبي هريرة. ورواه الشيرازي في الألقاب من حديث أبي ذر. ورواه الحاكم في الكنىٰ من حديث أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه. ورواه أحمد والعسكري في الأمثال والطبراني وأبو نعيم وابن عبد البر في التمهيد عن علي بن الحسين عن أبيه رفعه. ورواه مالك والترمذي والبيهقي عن علي بن الحسين مرسلاً. ورواه ابن عساكر عن علي بن الحسين عن الحارث ابن هشام. ورواه العسكري عن علي بن الحسين عن أبيه عن جده، وقد تقدم[٢].

(النظر الثاني للمراقبة: عند الشروع في العمل، وذلك بتفقُّد كيفية العمل؛ ليقضي حقَّ الله فيه، ويحسن النيةَ في إتمامه، ويُكمِل صورتَه، ويتعاطاه علىٰ أكمل ما يمكنه) سادًّا لمَظانِّ الآفات الداخلة عليه، ولا يمكن هذا إلا بعد التثبُّت والتمييز، فإذا اعتبر ذلك ورجح عنده أحدُ العِلمينِ بصحة المعرفة أقبل عليه بكُنْه الهمَّة بسببه وآدابه وهيئاته **(وهذا ملازم له في جميع أحواله، فإنه لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون، فإذا راقب اللهَ تعالىٰ في جميع ذلك قدر علىٰ عبادة الله تعالىٰ فيها بالنية وحسنِ الفعل ومراعاة الأدب، فإن كان قاعدًا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة؛ لقوله ﷺ: خير المجالس ما استُقبِل به القبلة)** رواه الحاكم[٣] في حديث طويل وابن جرير[٤] من حديث ابن عباس. ورواه أبو نعيم[٥] ومن طريقه

---

(١) في كتاب المحبة والشوق.

(٢) في كتاب آفات اللسان [الآفة الأولىٰ: الكلام فيما لا يعنيك].

(٣) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٠٤.

(٤) تهذيب الآثار - السفر الثاني من مسند عمر ص ٥٣٧ - ٥٣٨.

(٥) تاريخ أصفهان ٢/ ٧٤، ٣٤٤.

الديلمي[1] من حديث ابن عمر، ورواه الخرائطي في مكارم الأخلاق[2]، إلا أنه قال: «أكرم المجالس ما استُقبِل بها القبلة»، وقد تقدم في كتاب الصلاة (**ولا يجلس متربِّعًا**) بل كهيئة التشهد (**إذ لا يجالس الملوكَ كذلك، وملك الملوك**) جلَّ جلالُه (**مطَّلع عليه. قال إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالىٰ: جلست مرةً متربِّعًا، فسمعت هاتفًا يقول: هكذا تجالس الملوكَ؟ فلم أجلس بعد ذلك متربِّعًا**) رواه أبو نعيم في الحلية (**وإن كان ينام فينام علىٰ اليد اليمنىٰ مستقبل القبلة، مع**) مراعاة (**سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها**) من هذا الكتاب (**فكل ذلك داخل في المراقبة، بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاءً بالمراقبة**) وهكذا جميع الأعمال (**فإذًا لا يخلو العبد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح، فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال**) بأن يخلص فيها ولا يُنقِصها (**ومراعاة الآداب**) والاحترام (**وحراستها**) أي الطاعة (**عن**) مَظانِّ (**الآفات**) العارضة عليها (**وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء**) واستشعار الهيبة والانكسار (**والاشتغال بالتكفير**) بإتباع السيئة الحسنة (**وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها. ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بليَّة لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها، وكل ذلك من المراقبة، بل لا ينفكُّ العبد في كل حال من فرضٍ لله عليه: إما فعلٌ تلزمه مباشرتُه، أو محظور يلزمه تركُه، أو ندب حُثَّ عليه يسارع به إلىٰ مغفرة الله تعالىٰ ويسابق به عبادَ الله، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له علىٰ طاعته. ولكل واحد من ذلك حدود**) معلومة (**لا بد من مراعاتها بدوام المراقبة**) قال الله تعالىٰ: (﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطلاق: ١] **فينبغي أن يتفقَّد العبد نفسَه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة، فإن كان فارغًا عن الفرائض**) بأن كان قد أدَّاها (**وقدر علىٰ**

---

(١) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ١٧٩.

(٢) مكارم الأخلاق ص ٢٤٤.

الفضائل) وهي الزائد علىٰ الفرائض (فينبغي أن يلتمس أفضلَ الأعمال ليشتغل بها) ويعمر بها أوقاته (فإنَّ مَن فاته مزيدُ ربح وهو قادر علىٰ دركه فهو مغبون) في تجارته (والأرباح تُنال بمزايا الفضائل، فبذلك يأخذ العبد من دنياه) ما يكون ذخيرة (لآخرته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾) [القصص: ٧٧] أي فالدنيا مزرعة للآخرة منها يتزوَّد للمعاد (وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة، فإن الساعات ثلاثة) لا غير، منها (ساعة مضتْ لا تعب فيها علىٰ العبد كيفما انقضت في مشقَّة أو في رفاهية، و) منها (ساعة مستقبلة لم تأتِ بعدُ لا يدري العبد أيعيش إليها أم لا ولا يدري ما يقضي الله فيها) فهو غيب (و) منها (ساعة راهنة) وهي الموجودة في الحال (ينبغي أن يجاهد نفسه فيها ويراقب فيها ربَّه) ولله دَرُّ القائل:

مـا مضـىٰ فـات والمؤمَّـل غيـبٌ ولـك السـاعة التـي أنـت فيهـا(١)

(فإن لم تأتِه الساعة الثانية لم يتحسَّر علىٰ فوات هذه الساعة، وإن أتته الساعة الثانية استوفىٰ حقَّه منها كما استوفىٰ من) الساعة (الأولىٰ، ولا يطول أمله خمسين سنة فيطول عليه العزمُ علىٰ المراقبة فيها، بل يكون ابن وقته) قال القشيري في الرسالة(٢): وقد يعنون بالوقت ما هو فيه من الزمان، فإن قومًا قالوا: الوقت ما بين الزمانين. يعني الماضي والمستقبل. ويقولون: الصوفي ابن وقته. يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أَولىٰ به [من العبادات] في الحال، قائم بما هو مطالَب به في الحين. وقيل: الفقير لا يهمُّه ماضي وقته وآتيه، بل يهمُّه وقته الذي هو فيه. وقيل: الاشتغال بفوات وقت ماضٍ تضييع وقت يأتي (كأنَّه في آخر أنفاسه، فلعله آخر أنفاسه وهو لا يدري، وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون علىٰ وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو علىٰ تلك الحال، وتكون جميع أحواله مقصورة علىٰ ما رواه أبو ذر) الغفاري (رضي الله عنه) من قوله ﷺ: لا يكون المؤمن ظاعنًا إلا في ثلاث: تزوُّد لمعاد، أو

---

(١) تقدم هذا البيت في كتاب الحلال والحرام.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٣١.

مَرَمَّة) أي إصلاح **(لمعاش، أو لذة في غير محرَّم)** قال العراقي[١]: رواه أحمد وابن حبان والحاكم وصحَّحه أنه ﷺ قال: «إنه في صحف موسىٰ»، وقد تقدم[٢].

قلت: ورواه الفريابي والحسن بن سفيان والطبراني ومن طرقهم أبو نعيم في الحلية، قال الطبراني: حدثنا أحمد بن أنس بن مالك قال هو وابن سفيان والفريابي: أخبرنا إبراهيم بن هشام بن يحيىٰ الغسَّاني، حدثني أبي، عن جدي، عن أبي إدريس الخولاني، عن أبي ذر قال: دخلت المسجد، وإذا برسول الله ﷺ جالس وحده، فجلست إليه، فقال: «يا أبا ذر، إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان». ثم ساقوا الحديث بطوله في مُساءلة أبي ذر رسولَ الله ﷺ، وفيه: فقلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: «كانت أمثالاً كلها ...»، فذكر فيها: «وعلىٰ العاقل أن لا يكون ظاعنًا إلا لثلاث ...» فذكروا باقي الحديث.

(وما رُوي عنه أيضًا في معناه: وعلىٰ العاقل أن تكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكَّر فيها في صنع الله تعالىٰ، وساعة يخلو فيها للمطعم والمشرب، فإنَّ في هذه الساعة عونًا له علىٰ بقية الساعات) قال العراقي[٣]: هو بقية الحديث الذي قبله.

قلت: هذه الجملة ذُكرت في الحديث السابق قبل الجملة المذكورة آنفًا، ولفظهم: «وكان فيها أمثال: علىٰ العاقل ما لم يكن مغلوبًا علىٰ عقله أن تكون له ساعات ...» وذكروه كسياق المصنف إلا أنه إلىٰ قوله: للمطعم والمشرب. وقال أبو نعيم بعد أن ساق الحديث بطوله: السياق للحسن بن سفيان، ورواه المختار بن غسَّان عن إسماعيل بن مسلم عن أبي إدريس. ورواه علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة عن أبي ذر. ورواه عبيد بن الخشخاش عن أبي ذر.

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٧ - ١١٨٨.

(٢) في كتاب آداب النكاح.

(٣) المغني ٢/ ١١٨٨.

ورواه معاوية بن صالح عن محمد بن أيوب عن ابن عائذ عن أبي ذر. ورواه ابن جُرَيج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن أبي ذر بطوله، تفرَّد به عنه يحيىٰ بن سعيد العَبْشَمي. وقد تقدم ذلك.

(ثم هذه الساعة التي هو فيها مشغول الجوارح بالمطعم والمشرب لا ينبغي أن يخلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر، فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكَّر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح).

(والناس فيه أقسام:) منهم (قسم ينظرون إليه بعين التبصرة والاعتبار، فينظرون في عجائب صنعته، وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به، وكيفية تقدير الله لأسبابه، وخلق الشهوة الباعثة عليه، وخلق الآلات المسخَّرة للشهوة فيه، كما فصَّلنا بعضَه في كتاب الشكر، وهذا مقام ذوي الألباب. و) منهم (قسم ينظرون فيه بعين المقت والكراهة، ويلاحظون وجه الاضطرار إليه، ويودّهم) أنهم (لو استغنوا عنه) لكان أجمع لهِمَمهم (ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه) مضطرين إليه (مسخَّرين لشهواته) فيتناولونه ناظرين لذلك (وهذا مقام الزاهدين. و) منهم (قسم يرون في الصنعة الصانعَ، ويترقَّون منها إلىٰ صفات الخالق، فتكون مشاهدة ذلك سببًا لتذكُّر أبواب من الفكر تتفتَّح عليهم بسببه، وهو أعلىٰ المقامات، وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبِّين؛ إذ المحب إذا رأىٰ صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع، وكل ما يتردَّد العبد فيه من صنعِ الله تعالىٰ فله في النظر منه إلىٰ الصانع مجال رحب إن فُتحت له أبواب الملكوت، وذلك عزيز جدًّا) ودوامه أعزُّ منه (و) منهم (قسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص، فيتأسَّفون علىٰ ما فاتهم منه، ويفرحون بما حضرهم من جملته، ويذمُّون منه ما لا يوافق هواهم ويعيبونه، ويذمُّون فاعله، فيذمُّون الطبيخ والطباخ، ولا يعلمون أن الفاعل للطبخ والطباخ ولقدرته ولعلمه هو الله تعالىٰ) وحده لا شريك له في فعله (وأن مَن

ذم شيئًا من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم اللهَ، ولذلك قال النبي ﷺ: لا تسبُّوا الدهر، فإنَّ الله هو الدهر) قال العراقي[(١)]: رواه مسلم[(٢)] من حديث أبي هريرة.

قلت: ورواه كذلك أحمد[(٣)] وعبد بن حميد[(٤)] والروياني والضياء من حديث أبي قتادة. ورواه ابن عساكر[(٥)] من حديث جابر.

(فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال علىٰ الدوام والاتصال، وشرح ذلك يطول، وفيما ذكرناه تنبيه علىٰ المنهاج لمَن أحكم الأصولَ) وحيث انتهىٰ الكلام علىٰ هذه المرابطة بمراقبة الأعمال علىٰ الدوام فلنذكر تفصيل ما أورده مشايخ السادة النقشبندية قدَّس الله أرواحهم الزكية في هذا الباب، فإنهم أحظىٰ الناس بهذه المرابطة دون سائر أرباب السلوك. اعلمْ أنهم قالوا: إن المراقبة نسبة زكية وعبودية خفية، فمَن تحقَّق بها نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، وشرح صدره بكشف الحقيقة، فلم تخطئ فراستُه، ولم تبطئ مكاشفتُه، وصح له التصريف في عالَمي المُلك والملكوت والتقريب في حضرة الجبروت، وحسنت معاملتُه مع الله تعالىٰ في جميع الحالات، وتمَّت له عمارة الأوقات. ولكونها أعظم العبادات كانت خواصُّ الصحابة يشتغلون بدوامها في سائر الحالات، وهي من الطرق الموصلة إلىٰ المشاهدات، وهي علىٰ ثلاثة أنواع، الأول: استدامة العلم باطِّلاع الحق عليه في جميع الأحوال، مع مراعاة الاتِّباع لجميع الأحكام. الثاني: مطالعة أثمار الأسماء والصفات والمسارعة الىٰ الله بالوصول بجميع العبادات. الثالث: مكاشفة أسرار حقائق الأسماء والصفات، ومشاهدة أنوار تجلِّيات الذات، وهذا النوع درجة

(١) المغني ٢/ ١١٨٨.

(٢) صحيح مسلم ٢/ ١٠٦٩. وهو عند البخاري في صحيحه ٣/ ٢٩١، ٤/ ٤٠٢ بلفظ: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار».

(٣) مسند أحمد ٣٧/ ٢٤٦، ٣٢٧.

(٤) المنتخب من مسند عبد بن حميد ١/ ١٩٣.

(٥) تاريخ دمشق ١٣/ ٣٦، ٥٥/ ٩٧.

الولاية الصغرىٰ، وهو غاية ما يبلغه السالكون بالمراقبة، وفي هذه المراقبة يحصل له مقام الفناء في الفناء، وتنتفي الحالات، وتثبُت المقامات. وأما كيفية المراقبة فأن يكون السالك طاهر الظاهر والباطن والمكان، حاضر القلب مع الله، مرفوعًا عن الوساوس والخيالات، محفوظًا عن سائر المشوِّشات، يجلس مستقبل القبلة علىٰ ركبتيه، غامض العينين، متبرِّئًا عن حوله وقوته، ناسيًا جميع علمه ومعرفته، معطِّلاً حواس ظاهره وقُوَىٰ باطنه، ثم يتوجَّه بالقلب المطلق مع الجذبة الإلهية إلىٰ جناب ذات الحق علىٰ طريق الاستهلاك فيه حتىٰ يزول عنه تزاحُمُ الخواطر بالكلية وتغلب روحانيتُه علىٰ جسمانيته، ولا ينفكُّ عن هذه الحالة، فإذا استقرَّت وكانت له كالصفة اللازمة أمكن له الاستقامة والتقرُّب بسائر الأعمال. وفي مقام المراقبة حالة أخرىٰ تسمَّىٰ عندهم بالوقوف القلبي، وهو عبارة عن التوجُّه إلىٰ حقيقة الروح الإنساني من جهة القلب؛ لأن الروح الإنساني محيطة بجميع ما في الحضرة الربوبية إحاطة انطباعية مطابقة للوجود في نفس الأمر، فمَن توجَّه إلىٰ روحه من قلبه فقد ينكشف له ما في حضرة الربوبية من الأسرار فيصل بذلك إلىٰ معرفة ربِّه بالمعرفة الشهودية؛ لأن حقيقة الروح الإنساني كالمرآة لتلك الحضرة؛ لِما فيه من القوة العقلية التي هي جوهر إلهيٌّ، فمَن كُشف له ذلك الجوهر رأىٰ فيه جميع صفات الله وأسمائه وذاته تعالىٰ بالانطباع الظلي، ورأىٰ فيه أيضًا جميع الموجودات العقلية والحسية. وكيفية الاشتغال بالوقوف القلبي: أن يجرِّد السالك أولاً عقله من جميع الإدراكات، ثم يعطِّل جميع قواه وحواسِّه عن أحكامها، ثم يسلخ نفسه عن الهيكل الجسماني، وبعد ذلك يتوجَّه بالبصيرة إلىٰ حقيقة القلب علىٰ طريق الاستغراق والاستهلاك، ويداوم علىٰ ذلك، فكلَّما يزداد توجُّهه إلىٰ حقيقة القلب تزداد معرفته لنفسه، وكلما تزداد معرفته لنفسه تزداد معرفته لربِّه سبحانه. والحاصل أنه لا بد في هذه الصورة من التجرُّد عن الذوات الجسمانية ولواحقها ونحو العلوم الرسمية وملازمة التوجُّه إلىٰ حقيقة القلب علىٰ الدوام؛ ليتمَّ له الانجلاءُ الروحاني الغير مقيَّد بشيء من عوارض الأجسام، فيرىٰ حقيقة

قلبه في تلك الحالة نورًا بسيطًا محتويًا لجميع ما كان وما يكون. وصورة أخرىٰ من الوقوف القلبي: أن يتوجَّه السالك إلىٰ دائرة قلبه بعد تجريده عن الشواغل، ثم يلاحظ بدنَه في وسط تلك الدائرة كالكرة، ويخيل روحه نافذًا من أقطار السموات والأرض، ويستغرق في تلك الملاحظة علىٰ الدوام، ويرجع إليها كلما يذهل عنها إلىٰ أن يفنىٰ عن ملاحظة تلك الكرة المفروضة ويتعطَّل جميع قُواه وحواسِّه عن أحكامها، فعند حصول هذه الحالة يظهر له أن روحه نوراني محض، ويستهلك جميعَ ما في ضمن السموات والأرض في تلك النورانية حتىٰ لا يبقىٰ في الوجود في نظره غير روحه الذي هو الأمر الإلهي، وبعد ذلك تستهلك نورانيَّة الروح أيضًا في نور الحق سبحانه؛ لأن دائرة نور الروح متصلة بأفق نور الحق سبحانه، ونور الحق غالب علىٰ جميع الأنوار، وجميع الأنوار متلاشٍ عند ظهور نور الحق كتلاشي سائر الأضواء عند ظهور ضوء الشمس، فحينئذٍ لا يبقىٰ في الظهور إلا نور الحق الذي هو الوجود المطلق جلَّت عظمته، وهذا هو حقيقة الحقائق. وصورة أخرىٰ من الوقوف القلبي: أن يتوجَّه السالك إلىٰ قلبه، ثم يتصوَّر روحَه في قلبه نورًا محضًا بلا نهاية، ويتصوَّر في حق روحه النور إلىٰ صورة بدنه وصورة العالَم كالطير في الهواء، ويتصوَّر روحَه محيطًا بتلك الصورة، وتلك الصورة محاطة بذلك الروح، وهو ينظر إلىٰ تلك الصور في جو الروح، ويستغرق في النظر إليها حتىٰ يتَّحد بتلك الصورة في التصوُّر، ويزداد في الاتحاد بتلك الصورة بالتشوُّق إليها حتىٰ يتخيَّل أنه تلك الصورة، ويداوم علىٰ ذلك التصوُّر بالتكرار فيه حتىٰ يكون كأنَّه هو الحقيقة النوعية الكلِّية لجميع العالَم التي لا نهاية ولا انقسام لها، بل يكون وحدة صِرفة بمجموع تلك الصور، فمَن جعل روحه متكيِّفًا بهذه الكيفية عرف حقيقة روحه؛ لأن حقائق العالَم كلها منطوية في الروح الإنساني، والروح الإنساني حاوٍ عليها، فمَن عرف روحه بتلك الجمعية للحقائق كلها فقد عرف روحه، وبه يتصل إلىٰ معرفة ربه جل وعز. وصورة أخرىٰ من الوقوف القلبي: أن يتوجَّه إلىٰ قلبه بعد تجريد نفسه ويتصوَّر فيه نورًا بسيطًا وحدانيًّا مجرَّدًا عن الكيفيات كلها، غير متعلق

بشيء ظاهر أعلىٰ العالَم الجسماني كظهور الشمس علىٰ الجسمانيات بالنسبة إلىٰ ذلك النور البسيط كالذرَّة في شعاع الشمس، ثم يعلِّق نظره بذلك النور البسيط ويداوم علىٰ ذلك النظر لذلك النور البسيط حتىٰ يستغرق في ذلك النظر بحيث لا يبقىٰ له شعور لغير ذلك النظر، فعند ذلك يتجلَّىٰ له نورُ الحق سبحانه؛ لأن جميع الأنوار المجرَّدة ينتهي إلىٰ نور الحق سبحانه. وصورة أخرىٰ من الوقوف القلبي: أن يتوجَّه إلىٰ قلبه ويلاحظ فيه أنَّ نظر الله محيط به من جميع الجهات، ويجعل ذاته محاطة بنظر الله تعالىٰ، ويستمر علىٰ تلك الملاحظة، وبهذا الاستمرار تصغر ذاتُه تحت نظر الله تعالىٰ حتىٰ لا يبقىٰ لها بالتدريج أثرٌ من الوجود، فيفنىٰ عن وجوده الإمكانيِّ، ولا يشاهد فيه ولا في الأشياء كلها إلا وجود الحق سبحانه، وقد وصل.

فصل في شروط المراقبة وآدابها التي مَن داوم عليها يترقَّىٰ منها إلىٰ مقام المشاهدة: فشروطها: أن تكون المراقبة بإذن الشيخ وتعليمه وتربيته وتلقينه، وأن تكون مع الجذبة القوية، وبعد قطع العلائق الحسِّية والمعنوية، وبعد ترك النِّسَب والإضافات، وبعد الوقوف عند الواردات. وأما آدابها فهي: دوام السكوت، وملازمة البيوت، وكفُّ الحواس عن الإحساس، وتعطيل القُوَىٰ عن الإدراك، وتركُ الاشتغال بالكتابة ومطالعة الكتب، والإعراض عن اتِّباع النفس في طلب العلوم والمعرفة[1]، ومخالفة الهوىٰ، وتركُ الآمال والأطماع، والخروج عن كل داعية تدعو إلىٰ السوىٰ، والسعي في طريق الوصول إلىٰ الله تعالىٰ، ودوام التوجُّه إلىٰ لقائه، وتركُ الطمع عن المقامات، والاجتناب عن الكرامات، والتأدُّب مع الله في الظاهر والباطن، ومراقبته في جميع المظاهر، فمَن داوم علىٰ المراقبة بهذه الشروط والآداب يتقرَّب إلىٰ ذلك الجناب، ويبلغ مبلغَ الرجال، ويشاهد الجلال والجمال، ويصح له التربيةُ والتلقين والإرشاد إلىٰ رب العالَمين.

---

(١) تقدم قريبًا قول الغزالي: فلتكن همة المريد أولًا في إحكام العلم. وقد صدر كتاب الإحياء بكتاب العلم ليرد علىٰ مثل هذا القول، رحم الله الجميع بمنه وكرمه.

فصل: قالوا: المراقبة من أقرب الطرق إلىٰ الله تعالىٰ من حيث التقرُّب إليه، وهذه الأقربية ليست علىٰ إطلاقها بل بالنسبة إلىٰ أهل الجذبة، فإنها أقرب الطرق في حقهم، وأما بالنسبة إلىٰ السالك فتكون أبعد الطرق؛ لأن السلوك يقتضي الرياضات والمجاهدات في أوائله، فلا تنفعه المراقبة ابتداءً، وهذا موكول إلىٰ فراسة الشيخ البصير العارف، فإن رأىٰ في مريده الجذبة الإلهية غالبة عليه شغله بمراقبة اسم الذات، وإن رآه عاريًا عنها أمره بالنفي والإثبات وملازمة الرياضات حتىٰ يتمكَّن الذكر من قلبه فينجذب إلىٰ الله تعالىٰ بقلبه، فحينئذٍ يشغله بالمراقبة، وذلك علىٰ الترتيب والتدريج، وقد قالوا: إن اسم الذات ذِكر المجرَّدين عن قيد السوىٰ، والنفي والإثبات ذِكر المقيَّدين بقيد السوىٰ؛ لأن مقام صاحب اسم الذات فرقٌ مجرَّد، كما أشار إليه قوله تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ﴾ الخ [الأنعام: ٩١] ومقام صاحب النفي والإثبات فرقٌ مقيَّد، كما أشار إليه الحديث: «أُمِرتُ أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله». فلكون اسم الذات من الأسماء الجبروتية والنفي والإثبات من الأسماء الملكية كان الوصول بذكر اسم الذات إلىٰ عالَم الجبروت لأهل الجذبة أقرب من الوصول إليه بذكر النفي والإثبات.

وحيث قد فرغنا من ذكر المراقبة ومتعلقاتها فلنعُدْ إلىٰ شرح كلام المصنف، قال رحمه الله تعالىٰ:

المرابطة الثالثة: محاسبة النفس بعد العمل

ولواحقها: الاعتصام والاستقامة (**ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها. أما الفضيلة فقد قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ﴾**) [الحشر: ١٨] ليوم[1] القيامة، سمَّاه به لدنوِّه، أو لأن الدنيا كيوم، والآخرة غده، وتنكيره للتعظيم، وأما تنكير «نفس» فلاستقلال الأنفس النواظر فيما قدَّمنَ للآخرة، كأنَّه قال: فلتنظر نفس واحدة في ذلك (**وهذه إشارة إلىٰ أن**[2] **المحاسبة علىٰ ما مضىٰ من الأعمال**) أي إنها تدل علىٰ النظر بعد الفراغ من العمل (**ولذلك قال عمر** رضي الله عنه: **حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنوها قبل أن توزَنوا**) رواه أبو نعيم في الحلية من طريق ثابت بن الحجاج، وقد تقدم قريبًا.

(**وفي الخبر: أنه ﷺ جاءه رجل فقال: يا رسول الله، أوصِني. فقال: أمستوصٍ أنت**)؟ أي قابِل وصيَّتي (**فقال: نعم. قال: إذا هممت بأمر فتدبَّرْ عاقبتَه، فإن كان رشدًا فامْضِه، وإن كان غيًّا فانْتهِ عنه**) تقدم للمصنف ذلك قريبًا من حديث عبادة ابن الصامت، وهو في كتاب الزهد لابن المبارك من مرسل أبي جعفر الهاشمي، وتقدم الكلام عليه.

(**وفي الخبر: وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات، ساعة يحاسب فيها نفسه**) تقدم قريبًا من حديث أبي ذر.

(**وقال الله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾**) [النور: ٣١] تقدم الكلام عليه في كتاب التوبة (**والتوبة نظرٌ في الفعل بعد الفراغ**

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٠٢.

(٢) بدونها في الجميع.

منه بالندم عليه، وقد قال النبي ﷺ): إنه ليُغان على قلبي و**(إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة)** تقدم غير مرة.

(وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ۝٢٠١﴾) [الأعراف: ٢٠١] وذكر الكمال الصوفي أن هذه الآية تدل على النظر في بداية العمل.

(و) يُروَى **(عن عمر** رضي الله عنه **أنه كان يضرب قدميه بالدرَّة إذا جنَّه الليل ويقول لنفسه: ماذا عملتِ اليوم)**؟ وهذا يدل على المحاسبة بعد العمل.

(و) يُروَى **(عن ميمون بن مهران)** الجَزَري العابد **(أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه**[1]**. والشريكان)** إنما **(يتحاسبان بعد العمل.**

ورُوي عن عائشة رضي الله عنها **أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليَّ من عمر. ثم قال لها: كيف قلتُ؟ فأعادت عليه ما قال، فقال: ما أحد أعز عليَّ من عمر)**[2] فأبدل «أحب» بـ «أعز».

(فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبَّرها وأبدلها بكلمة غيرها) وبين الكلمتين فرق كبير.

(وحديث أبي طلحة) زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه **(حين شغله الطائر في**

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٨٩ وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢١٢ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦١/ ٣٥٤ وزادوا: «حتى يعلم من أين مطعمه وملبسه ومشربه أمن حل ذلك أم من حرام».
ورواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٥ وهناد في الزهد ٢/ ٥٨٠ بدون هذه الزيادة.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ص ٣٨ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ١٣٢٣ وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٤/ ٢٤٧ وأبو عبيد في غريب الحديث ٤/ ١١٩ بلفظ: «قال أبو بكر يوما: واللهِ ما على وجه الأرض رجل أحب إليَّ من عمر. فلما خرج رجع فقال: كيف حلفت أي بنية؟ فقلت له، فقال: أعز عليَّ، والولد ألوط».

صلاته) بأن أتبع نظره إليه حتىٰ لم يدرِ كم صلىٰ **(فتدبَّر ذلك فجعل حائطه صدقةً لله تعالىٰ ندمًا ورجاءً للعوض عمَّا فاته)** وهذه عقوبة التقصير، وهي سنَّة الأولياء، وقد تقدم في كتاب الصلاة.

(وفي حديث) عبد الله **(ابن سلام)** رضي الله عنه **(أنه حمل حزمة من حطب، فقيل له: يا أبا يوسف، قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا. فقال: أردت أن أجرِّب نفسي هل تنكره)**[1] فهذه محاسبة بعد العمل، وكان له من الأولاد يوسف وعبد الله. وفي الصحيح[2] عن سعد بن أبي وقاص قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي علىٰ الأرض إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام. قال الطبري وغيره: مات بالمدينة سنة ٤٣.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(المؤمن قوَّام علىٰ نفسه)** أي كثير القيام عليها والمراعاة لها **(يحاسبها لله، وإنما خفَّ الحساب علىٰ قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحسابُ يوم القيامة علىٰ قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة. ثم فسَّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء)** أي يَرِدُ عليه بغتةً **(يعجبه فيقول: واللهِ إنك لَتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات! حيلَ بيني وبينك)** أي فيتركه **(وهذا حساب قبل العمل. ثم قال: ويفرط منه الشيءُ)** أي يصدر منه بدارًا **(فيرجع إلىٰ نفسه فيقول: ماذا أردتُ بهذا؟ والله لا أُعذَر بهذا)** أي لا يُقبَل عذري **(واللهِ لا أعود لهذا أبدًا إن شاء الله)**[3] تعالىٰ. فهذا حساب بعد العمل.

---

(١) تقدم في كتاب ذم الكبر والعجب.

(٢) صحيح البخاري ٣/ ٤٦. صحيح مسلم ٢/ ١١٦٠.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٢٣، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٠٢، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٥٧، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٦٠. وزادوا: «إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم، إن المؤمن أسير في الدنيا، يسعىٰ في فكاك رقبته، لا يأمن شيئا حتىٰ يلقىٰ الله، يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه وبصره ولسانه وجوارحه».

(وقال أنس بن مالك) رضي الله عنه: (سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومًا وقد [خرج) لحاجته (و][1] خرجت معه، فدخل حائطًا) من الحيطان (فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في الحائط) إذ تخلَّفت عنه: (عمر بن الخطاب أمير المؤمنين! بخ بخ! واللهِ لتتَّقين الله أو ليعذِّبنَّك)[2] فهذا منه محاسبة للنفس.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ (في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ٢] قال: لا يلقىٰ المؤمن إلا يعاتب نفسه: ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟ ماذا أردت بشربتي؟ والفاجر يمضي قُدُمًا لا يعاتب نفسه) رواه[3] عبد بن حميد وابن أبي الدنيا في كتاب مجاهدة النفس[4]. ورُوي عن مجاهد أنه قال: ﴿بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾: تندم علىٰ ما فات وتلوم عليه. رواه عبد بن حميد وابن جرير[5]. ورُوي مثله عن ابن عباس، رواه ابن المنذر.

(وقال) أبو يحيىٰ (مالك بن دينار) البصري العابد رحمه الله تعالىٰ: (رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألستِ صاحبة كذا؟ ثم زمَّها[6]) أي حبسها وكفَّها كما تُحبَس الناقة بالزمام (ثم خطمَها) كما تُخطَم الناقة (ثم ألزمها كتابَ الله تعالىٰ فكان له قائدًا[7]).

---

(١) ما بين المعكوفتين من كلام الغزالي ليس في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ١٦١.

(٢) رواه مالك في الموطأ ٢/ ٩٩٢، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٣، وأحمد في الزهد ص ٩٥، وأبو نعيم في معرفة الصحابة ١/ ٥٠، وأبو داود في الزهد ص ٧٣، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٣/ ٢٧٢.

(٣) الدر المنثور ١٥/ ٩٦ - ٩٧.

(٤) محاسبة النفس ص ٢٤.

(٥) جامع البيان ٢٣/ ٤٧٠.

(٦) في ب، وط المنهاج ٩/ ١٦١، وط الشعب ١٥/ ٢٧٥٨: ذمها. بالذال، من الذم الذي هو ضد المدح.

(٧) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٦، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٨، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٦/ ٤٢٠.

وهذا من معاتبة النفس، كما سيأتي في موضعه.

وقال ميمون بن مهران) الجَزَري العابد: (التقيُّ أشد محاسبةً لنفسه من سلطان غاشم) أي ظالم يجور في حسابه مع رعيَّته (ومن شريك شحيح)(١) محبٍّ للدنيا.

(وقال إبراهيم) بن يزيد بن الحارث(٢) (التيمي) رحمه الله تعالىٰ: (مثَّلتُ نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثَّلت نفسي في النار آكل من زقُّومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها) وأغلالها (فقلت لنفسي: يا نفسي، أيُّ شيء تريدين؟ فقالت: أريد أن أُرَدَّ إلىٰ الدنيا فأعمل صالحًا. قلتُ: فأنت في الأمنية، فاعملي) رواه ابن أبي الدنيا(٣).

(وقال) أبو يحيىٰ (مالك بن دينار) البصري رحمه الله تعالىٰ: (سمعت الحجاج) بن يوسف الثقفي وهو أمير البصرة (يخطب) علىٰ المنبر (وهو يقول: رحم الله امرءًا حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلىٰ غيره، رحم الله امرءًا أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به، رحم الله امرءًا نظر في مكياله، رحم الله امرءًا نظر في ميزانه. فما زال يقول امرءًا امرءًا حتىٰ أبكاني) رواه ابن أبي الدنيا(٤).

(وحكىٰ صاحب للأحنف بن قيس) التميمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، له صحبة (قال: كنت أصحبه، فكانت عامَّة صلاته بالليل الدعاء، وكان يجيء إلىٰ المصباح فيضع أصبعه فيه حتىٰ يحسَّ بالنار ثم يقول لنفسه: يا حُنَيف) وهو تصغير «أحنف» بإسقاط الزائد

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٢٦، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٦١/ ٣٥٣.

(٢) الصواب: إبراهيم بن يزيد بن شريك.

(٣) محاسبة النفس ص ٢٦ - ٢٧. ورواه بنحوه: أحمد في الزهد ص ٢٩٣، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٤/ ٢١١، والرافعي في التدوين ٣/ ٤٠٠.

(٤) محاسبة النفس ص ٢٨، وزاد في أوله: «رحم الله امرءا وزن نفسه، رحم الله امرءا اتخذ نفسه عدوا». ومن طريقه رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٢/ ١٤١.

(ما حملك علىٰ ما صنعتَ يوم كذا؟ ما حملك علىٰ ما صنعتَ يوم كذا) يعاتب نفسه بذلك. رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس[1].

(١) محاسبة النفس ص ٥٨. ورواه أيضا أحمد في الزهد ص ١٩٠، والخطيب في تاريخ بغداد ٢٠٩/١١.

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن العبد كما يكون له وقت) معلوم (في أول النهار يشارط فيه نفسَه علىٰ سبيل التوصية بالحق فينبغي أن تكون له في آخر النهار) كذلك (ساعة) معلومة (يطالب فيها النفسَ ويحاسبها علىٰ جميع حركاتها وسكناتها) لِمَ تحركت؟ ولِمَ سكنت؟ وفي أيِّ شيء تحركت؟ وفي أيِّ شيء سكنت؟ وهذا (كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم) كيفما اتفق (حرصًا منهم علىٰ) حوز متاع (الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، ولو حصل ذلك لهم فلا يبقىٰ) ما حصل (إلا أيامًا قلائل) ثم يفنىٰ (فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطرُ الشقاوة والسعادة أبد الآباد، ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق، نعوذ بالله من ذلك) فلو ساعده التوفيق كان يقدِّم محاسبةَ نفسه علىٰ كل الأعمال والأحوال؛ إذ هي ميدانها، كما تقدم (ومعنىٰ المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران؛ لتتبيَّن له الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلَّفه تدارُكه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض، وربحه النوافل والفضائل، وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار، ومُعامِله نفسه الأمَّارة بالسوء، فليحاسبها علىٰ الفرائض أولاً) فإنها رأس ماله (فإن أدَّاها علىٰ وجهها) بآدابها وشروطها (شكر الله تعالىٰ عليه ورغَّبها في مثلها، وإن فوَّتها من أصلها طالبها بالقضاء) فإنه يحكي الأداء (وإن أدَّاها ناقصة) الشروط والآداب (كلَّفها الجبرانَ بالنوافل) فجبرُ الفرائض واجب (وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها؛ ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط) فعقوبتها علىٰ التقصير سنَّة الأولياء والصالحين، كما سيأتي (كما يصنع التاجر

بشريكه، وكما أنه) أي التاجر (يفتِّش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتىٰ لا يُغبَن في شيء منها، فينبغي أن يتَّقي غبينة النفس ومكرها، فإنها خدَّاعة ملبسة مكَّارة، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره، وليتكفَّل بنفسه من الحساب ما سيتولاَّه غيرُه في صعيد القيامة، وهكذا عن نظره، بل عن خواطره) وهمومه (وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه، حتىٰ عن سكوته أنه لِمَ سكت، وعن سكونه لِمَ سكن. فإذا عرف مجموع الواجب علىٰ النفس وصح عنده قدْرٌ أدَّىٰ الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبًا له، فيظهر له الباقي علىٰ نفسه، فليُثْبِتْه عليها، وليكتبه علىٰ صحيفة قلبه كما يكتب) التاجر (الباقي الذي علىٰ شريكه علىٰ قلبه وعلىٰ جريدة حسابه. ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديونَ، أما بعضها فبالغرامة والضمان، وبعضها بردِّ عينه، وبعضها بالعقوبة لها علىٰ ذلك، ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتمييز الباقي من الحق الواجب عليه، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء) قال الشيخ الأكبر قُدِّس سره(١): كان أشياخنا يحاسبون أنفسهم علىٰ ما يتكلمون به وما يفعلونه ويقيِّدونه في دفتر، فإذا كان بعد العشاء حاسبوا نفوسهم وأحضروا دفترهم ونظروا فيما صدر عنهم من قول وعمل، وقابلوا كلاًّ بما يستحق ثم ينامون، فزدنا عليهم في هذا الأمر فكنا نقيِّد ما نحدِّث به نفوسنا ونهمُّ به (ثم ينبغي أن يحاسب النفس علىٰ جميع العمر يومًا يومًا وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة، كما نُقل عن توبة بن الصِّمَّة) العابد (وكان بالرقَّة): بلد بالجزيرة (وكان محاسبًا لنفسه، فحسب يومًا عمره فإذا هو ابن ستين سنة، فحسب أيامها فإذا هي أحد وعشرون ألف يوم وخمسمائة يوم) من ضرب أيام السنة في الستين (فصرخ وقال: يا ويلتي! ألقىٰ الملكَ بأحد وعشرين ألف ذنب) وخمسمائة ذنب (فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب. ثم خرَّ مغشيًّا عليه فإذا هو ميت) وهذا

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٢٣٦ - ٢٣٧ باختصار.

قد غلبه الخوفُ فشقَّ شِغافَ قلبه (**فسمعوا قائلاً يقول: يا لك ركضة إلىٰ الفردوس الأعلىٰ**) رواه البيهقي في الشعب(١) عن رجل من قريش، ولم يقلْ: وكان بالرقَّة (**فهكذا ينبغي أن يحاسب نفسه علىٰ الأنفاس**) صاعدة وهابطة (**وعلىٰ كل معصية بالقلب**) إذا همَّ بها (**والجوارح في كل ساعة، ولو رمىٰ العبد بكل معصية حجرًا في داره لامتلأت دارُه**) بالحجارة (**في مدة يسيرة قريبة من عمره، ولكنه يتساهل في حفظ المعاصي، والملَكان يحفظان عليه ذلك**) كما قال تعالىٰ (﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ﴾) [المجادلة: ٦] ثم إن الحامل علىٰ هذه المحاسبة الإيمانُ بمحاسبة الله تعالىٰ يوم القيامة علىٰ الجليل والحقير، وهو واجب، وهو من الإيمان بالله، فإن صفا قلبُه حتىٰ يحس بوَقْع الدين في قلبه إثر المخالفة فهذا من الذين كاشَفَهم الله بسرعة حسابهم في الدنيا قبل حساب الآخرة فتابوا وأنابوا، وأثنىٰ عليهم بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وقد نبَّهنا علىٰ ما في الذنب من العقاب العاجل والآجِل بقوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ [الانفطار: ١٠ - ١٢] فنفس كَتْبِ السيئة هو عين العقوبة؛ لأنها تنكت في القلب نكتة سوداء، وتتزايد إلىٰ أن تصير رينًا، وكذلك الحسنة هي نفس الثواب العاجل؛ لأنها تنكت في القلب نكتة بيضاء، وتتزايد إلىٰ أن تصير كالمرآة الصقيلة، فلذلك قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ۝١٤ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦﴾ [الانفطار: ١٣ - ١٦] ولكن لا يشعرون بما رانَ علىٰ قلوبهم من رَيْن الذنوب، وهذه المحاسبة توجب الاعتصامَ، وهو المعنىٰ الجامع لكل ما يخبر عنه العلماء من العلوم والأحوال والأعمال؛ لأن حقيقته التمسك بكتاب الله والحفظ لحدود الله، ولذلك نقول: إن الصلاح المؤدِّي إلىٰ معرفة الله وولائه بغير علمٍ ممنوعٌ، وهو ثمرة المحاسبة؛ لأن المحاسبة تُلزِم العبد الرعاية والحفظ للحدود، والفرق بينه وبين الاستقامة أن

---

(١) شعب الإيمان ٢/ ٢٩٥، وفيه قوله: كان بالرقة. وهكذا رواه أيضا ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ١٠٦، والخطيب البغدادي في الزهد والرقائق ص ١٠١.

الاعتصام هو الحفظ للحدود واجبها ومندوبها، والاستقامة هي الثبات والاعتدال عن الميل إلىٰ طرفَي الأمر المعتصَم به، قال تعالىٰ: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٠١﴾ فمَن حاسب نفسه المحاسبةَ الوافية حتىٰ اعتدلت أحواله وأعماله وأخلاقه فهو المستقيم علىٰ طاعة الله تعالىٰ؛ لأن حقيقة الاستقامة: سلوك الطريق بغير اعوجاج، وهي علامة صحة المحاسبة. والاستقامة تُراد لذاتها ولغيرها، أما كونها مرادة لذاتها فإن الاعتدال تزكية للنفس وكمال لها. وأما كونها مرادة لغيرها فهي وسيلة إلىٰ الدخول في مقام الجمع من وادي التفرقة، وهي مطمح أنظار الأولياء والمقرَّبين. ثم إن العبد إذا حاسب نفسه فرآها خانت وضيَّعت لزمته أمورٌ، أحدها: أن يتدارك بالتوبة والجبر، وقد تقدم، فإن لم يستطع لغلبة الشهوة عالج نفسَه بالمعاقبة. وإليه أشار المصنف فقال:

المرابطة الرابعة: في معاقبة النفس على تقصيرها

اعلمْ أنه (مهما حاسب) العبد (نفسه فلم تَسلم عن مقارفة معصية) أي ملابستها (وارتكاب تقصير في حق الله تعالىٰ فلا ينبغي أن يهملها) أي يتركها هملاً (فإنه إن أهملها سهُلت عليه مقارفة المعاصي وأنستْ بها نفسُه) وألفتْها (وعسرَ عليه) حينئذٍ (فِطامُها) فإن الأنس بالشيء يوجب الجمودَ عليه (وكان ذلك سبب هلاكه، بل ينبغي أن يعاقبها) بما يلائم جنسَ الذنب ويقابله، فإنَّ لكل مرض علاجًا (فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس) فإنه (ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع، وإذا نظر إلىٰ غير مَحْرم فينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر) بأن لا يفتحها (وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته. هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة، فقد رُوي عن منصور بن إبراهيم) رحمه الله تعالىٰ (أن رجلاً من العُبَّاد كلَّم امرأة) أجنبية (فلم يزل حتىٰ وضع يده علىٰ فخذها، ثم ندم) علىٰ ما صنع (فوضع يده علىٰ النار حتىٰ نشت)[1] أي يبستْ.

(ورُوي) في بعض الأخبار (أنه كان في بني إسرائيل رجل يتعبَّد في صومعته، فمكث كذلك زمانًا طويلاً، فأشرف ذات يوم) من طاقة في تلك الصومعة (فإذا هو بامرأة، فافتتن بها) لبراعتها في الجمال (وهمَّ بها، فأخرج رِجله لينزل إليها، فأدركه اللهُ بسابقة) من عنايته فتذكَّر (فقال: ما هذا الذي أريد أن أصنع؟ فرجعت إليه نفسُه وعصمه الله تعالىٰ، فندم، فلما أراد أن يعيد رِجله إلىٰ الصومعة قال: هيهات هيهات! رِجل خرجت تريد أن تعصي الله تعود معي في صومعتي؟! لا يكون

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف ١٣/ ٥٥٠، وابن أبي الدنيا في الورع ص ٧٩، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ٣٨، عن منصور بن المعتمر عن إبراهيم النخعي، وفي الجميع ما أثبتُ، وهو خطأ بلا ريب.

والله ذلك أبدًا. فتركها معلَّقة من الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتىٰ) يبست و(تقطَّعت فسقطت، فشكر الله له ذلك، وأنزل في بعض كتبه ذِكره[١].

ويُحكَىٰ عن) أبي القاسم (الجنيد) قُدِّس سره أنه (قال: سمعت ابن الكَرْنَبي) هو شيخه، وقد تقدَّم ذِكرُه، وأنه منسوب إلىٰ كَرْنَبا: ناحية بخراسان، ترجمه الخطيبُ في تاريخه (يقول: أصابتني ليلةً جنابةٌ، فاحتجت أن أغتسل، وكانت ليلة باردة، فوجدت في نفسي تأخُّرًا وتقصيرًا، فحدثتني نفسي بالتأخير حتىٰ أصبح وأسخِّن الماء أو أدخل الحمَّام ولا أعين علىٰ نفسي) بالهلاك (فقلت: واعجباه! أنا أعامل الله في طول عمري، فيجب له عليَّ حقٌّ) من حقوقه (فلا أجد المسارعة وأجد الوقوف والتأخُّر، آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعتي هذه، وآليت أن لا أنزعها، ولا أعصرها، ولا أجفِّفها في الشمس)[٢] وهذه معاقبة تامة علىٰ النفس.

(ويُحكَىٰ أن غزوان وأبا موسىٰ) إن كان أبو موسىٰ هو الأشعري الصحابي فاسمه عبد الله بن قيس، ولا أعرف في الصحابة مَن اسمه غزوان، وفي التابعين: غزوان بن عُتبة بن غزوان المازني، روىٰ عن أبيه حديثًا عند الطبراني، وأبوه صحابي مشهور، فيحتمل أن يكون هو المراد هنا. والله أعلم (كانا في بعض مغازيهما، فتكشَّفت) لهما (جارية) جميلة الصورة (فنظر إليها غزوان) نظر شهوة، ثم رجع فندم (فرفع يده فلطم عينه) لطمةً (حتىٰ نفرت) من موضعها (وقال: إنكِ للحَّاظة إلىٰ ما يضرُّكِ)[٣] ثم ظهر لي أن صاحب القصة مع أبي موسىٰ هو عتبة بن غزوان، فقد قال أبو نعيم في الحلية[٤]: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو بكر ابن أبي داود، حدثنا محمود بن خالد، حدثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي،

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩١ - ٩٢ عن زيد بن أسلم.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٥٩٦، ومن طريقه ابن الجوزي في تلبيس إبليس ص ٣٣٩.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٢.

(٤) حلية الأولياء ١/ ٢٦١.

حدثني هارون بن رئاب، عن عتبة بن غزوان الرقاشي قال: قال لي أبو موسىٰ: ما لي أرىٰ عينك نافرة؟ فقلت: إني التفتُّ التفاتةً فرأيت جارية لبعض الجيش، فلحظتُها لحظة، فصككتها صكَّة فنفرت فصارت إلىٰ ما ترىٰ. فقال: استغفِرْ ربَّك، ظلمتَ عينك، إنَّ لها أول نظرة، وعليك ما بعدها.

(و) قد تكون المعاقبة علىٰ خلاف جنس المعصية وإنما هي علىٰ حسب ما اقتضاه رأيُ المعاقِب، كما حُكي أنه (**نظر بعضهم نظرةً واحدة إلىٰ امرأة**) أجنبية، وكأنَّه قصد بها تلذُّذ النفس، فندم (**فجعل علىٰ نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته، فكان يشرب الماء الحار لينغِّص علىٰ نفسه العيشَ**[1]).

ويُحكَىٰ أن حسان بن أبي سنان) البصري العابد، روىٰ له البخاري[2] تعليقًا في البيوع فقال: وقال حسَّان بن أبي سنان: ما رأيت شيئًا أهون من الورع، دَعْ ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك (**مر بغرفة فقال: متىٰ بُنيت هذه؟ ثم أقبل علىٰ نفسه فقال: تسألين عمَّا لا يعنيك؟ لأعاقبنَّك بصوم سنة. فصامها**) رواه أبو نعيم في الحلية[3] من طريق عبد الجبار بن النضر السلمي قال: مر حسان بغرفة فقال: مذ كم بُنيتْ هذه؟ ثم رجع إلىٰ نفسه فقال: وما عليكِ مذ كم بُنيتْ؟ تسألين عمَّا لا يعنيك. فعاقبها بصوم سنة.

وروىٰ أيضًا من طريق أبي حكيم أن حسانًا خرج يوم العيد، فلما رجع قالت له امرأته: كم من امرأة حسنة قد نظرتَ إليها اليوم. فلما أكثرتْ قال: ويحكِ! ما

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٢ عن مالك بن ضيغم قال: حدثتني خالتي حبابة بنت ميمون العتكية قالت: رأيت أبا ضيغم نزل ذات ليلة من فوق البيت بكوز قد برد له حتىٰ صبه، ثم اكتاز من الجب ماء حارا فشرب، فقلت له بعد ذلك: بأبي أنت قد رأيتُ الذي صنعتَ، فمم ذاك؟ قال: حانت مني نظرة مرة إلىٰ امرأة، فجعلت علىٰ نفسي أن لا تذوق الماء البارد أيام الدنيا، قلت: أنغص عليها الحياة.

(٢) صحيح البخاري ٢/ ٧٤.

(٣) حلية الأولياء ٣/ ١١٥. ورواه أيضا ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٢ – ٩٣.

نظرتُ إلا في إبهامي منذ خرجتُ من عندك حتىٰ رجعت إليك.

(وقال مالك بن ضيغم) الجَلاَّب البصري: (جاء رياح القيسي) هو أبو المهاصر رياح بن عمرو، روىٰ عن حسان بن أبي سنان وأيوب السختياني وصالح المري ومالك بن دينار وغيرهم، وعنه أحمد بن يونس وعبد الله بن عمرو، ترجمه أبو نعيم في الحلية[١] (يسأل عن أبي) وهو ضيغم الجَلاَّب، له ذِكرٌ في الشعب للبيهقي في باب المحبة[٢] (بعد العصر، فقلنا: إنه نائم. فقال: نومٌ هذه الساعة؟! هذا وقت نوم؟! ثم ولَّىٰ منصرفًا، فأتبعناه رسولاً وقلنا: ألا نوقظه لك؟ فجاء الرسول وقال: هو أشغَلُ من أن يفهم عني شيئًا، أدركتُه وهو يدخل المقابر وهو يعاتب نفسه ويقول: أقلتِ: وقت نوم هذه الساعة؟ أفكان هذا عليكِ؟ ينام الرجل متىٰ شاء، وما يدريكِ أن هذا ليس وقت نوم؟ تتكلَّمين بما لا تعلمين، أما إنَّ لله عليَّ عهدًا لا أنقضه أبدًا لا أوسِّدكِ الأرضَ لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل، سوأةً لكِ، أما تستحيين؟ كم توبِّخين، وعن غيِّك لا تنتهين. قال: وجعل يبكي وهو لا يشعر بمكاني، فلمَّا رأيت ذلك انصرفت وتركته)[٣] رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا أبو يعلىٰ الموصلي، حدثنا محمد بن الحسين البُرْجُلاني، حدثنا مالك بن ضيغم [عن أبيه] قال: جاءنا رياح القيسي يسأل عن أبي بعد العصر، فقلنا: هو نائم. فقال: أنوم [بعد العصر] هذه الساعة؟! هذا وقت نوم؟! ثم ولَّىٰ، فأتبعناه رجلاً فقلنا: الحقْه فقلْ: نوقظه لك؟ قال: فجاء بعد المغرب، فقلنا: أبلغتَه؟ قال: هو كان أشغَل من أن يفهم عني، أدركتُه وهو يدخل المقابر وهو يوبِّخ نفسه ويقول: أقلتِ: أيُّ نوم هذا؟ لينم الرجلُ متىٰ شاء، تسألين عمَّا لا يعنيكِ، أما إنَّ لله عَزَّوَجَلَّ عليَّ عهدًا لا أنقضه فيما بيني وبينه أبدًا أن لا أوسِّدكِ النوم حولاً. قال: فلما سمعتُ هذا منه تركتُه وانصرفت.

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٩٢ - ١٩٧.

(٢) انظر: شعب الإيمان للبيهقي ٢/ ٢٤.

(٣) رواه بهذا السياق ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٣.

(ويُحكَىٰ أن) أبا[١] رقيَّة **(تميم)** بن أوس بن خارجة **(الداري)** رضي الله عنه، كان بالمدينة، ثم انتقل إلىٰ الشام بعد قتل عثمان، ونزل بيت المقدس، ومات بالشام، روىٰ له البخاري تعليقًا والجماعة **(نام ليلةً لم يقُمْ فيها يتهجَّد، فقام سنة لم ينمْ فيها عقوبةً للذي صنع)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس[٢] ورواه البيهقي في الشعب[٣] من طريق المنكدر عن أبيه أن تميمًا الداري نام ليلة لم يقُمْ يتهجَّد فيها حتىٰ أصبح، فقام سنة لم ينمْ فيها عقوبةً للذي صنع. ورواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين، حدثني يونس بن يحيىٰ الأموي، عن المنكدر بن محمد ابن المنكدر عن أبيه أن تميمًا الداري نام ليلة لم يتهجَّد فيها حتىٰ أصبح، فقام سنة لم ينَمْ فيها عقوبة للذي صنع. وفي خبر ابن حيوة من طريق ابن سيرين: كان تميم يقرأ القرآن في ركعة[٤]. وفي طبقات ابن سعد[٥] عن أبي قِلابة: كان تميم يختم القرآن في سبع ليالٍ. وقد تقدَّم.

(وعن طلحة) اختُلِف فيه، فقيل: هو الصحابي أحد العشرة، وقيل: هو طلحة بن مصرف، كما سيأتي في بيان الاختلاف فيه عقيب الحديث **(قال: انطلق رجل ذات يوم فنزع ثيابه وتمرَّغ في الرمضاء)** أي الرمل الحار **(فكان يقول لنفسه: ذوقي، ونار جهنم أشد حرًّا، أجيفة بالليل بَطَّالة بالنهار؟! فبينما هو كذلك إذ أبصر النبيَّ ﷺ في ظل شجرة، فأتاه فقال: غلبتني نفسي)** أي فقهرتها بهذا العمل، وكأنَّه يعتذر للنبي ﷺ **(فقال له النبي ﷺ: ألم يكن لك بدٌّ من الذي صنعتَ؟ أما لقد فُتحت لك أبواب السماء، ولقد باهَىٰ الله بك الملائكة. ثم قال لأصحابه: تزوَّدوا**

---

(١) الإصابة ١/ ٣٠٤ - ٣٠٥. تقريب التهذيب ص ١٨٢.

(٢) محاسبة النفس ص ٩٣.

(٣) شعب الإيمان ٤/ ٥٢٤.

(٤) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٣٦٢ والبيهقي في السنن الكبرىٰ ٣/ ٣٧ وابن حبان في الثقات ٣/ ٤٠ من طريق عاصم بن سليمان الأحول عن ابن سيرين.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ٦/ ٢٥٦.

من أخيكم. فجعل الرجلُ يقول له: يا فلان ادْعُ لي، يا فلان ادْعُ لي. فقال النبي ﷺ: عُمَّهم. فقال: اللهم اجعل التقوىٰ زادَهم، واجمع علىٰ الهدىٰ أمرَهم. فجعل النبي ﷺ يقول: اللهم سدِّدْه. فقال الرجل: اللهم اجعل مآبَهم الجنة) قال العراقي[١]: رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس[٢] من رواية ليث ابن أبي سليم عنه، وهذا منقطع أو مرسل، ولا أدري مَن طلحة هذا، إلا أن يكون طلحة بن مصرف، وإلا فهو مجهول، وقد أخرجه الطبراني[٣] من حديث بريدة متصلاً نحوه قال: بينما النبي ﷺ في مسير له إذ أتىٰ علىٰ رجل يتقلَّب في الرمضاء ظهرًا لبطن ويقول: [يا نفس] نوم بالليل وباطل بالنهار وترجين [أن تدخلي] الجنة ... الحديث.

قلت: وقوله «وهذا منقطع أو مرسل» يعني به إن كان طلحة صحابيًّا فليث لم يدركه فهو منقطع بينهما، وإن كان هو طلحة بن مصرف فروايته عن الصحابة وعن كبار التابعين، فهو مرسل، وقد روىٰ أبو داود في سننه حديثًا عن طلحة عن أبيه عن جده[٤]، فقيل: هو طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب اليامي، وقيل: وإلا فهو مجهول. وذكر الذهبي أن مصرف بن عمرو عن أبيه مجهول[٥]، وعمرو بن

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٨.

(٢) محاسبة النفس ص ٩٤.

(٣) المعجم الكبير ٢/ ٢٢.

(٤) قال أبو داود في سننه ١/ ٢٠٨: «حدثنا محمد بن عيسىٰ ومسدد قالا: حدثنا عبد الوارث، عن ليث، عن طلحة بن مصرف، عن أبيه، عن جده، قال: رأيت رسول الله ﷺ يمسح رأسه مرة واحدة حتىٰ بلغ القذال. وهو أول القفا. وقال مسدد: مسح رأسه من مقدمه إلىٰ مؤخره حتىٰ أخرج يديه من تحت أذنيه. قال مسدد: فحدثت به يحيىٰ فأنكره. قال أبو داود: سمعت أحمد يقول: ابن عيينة زعموا أنه كان ينكره ويقول: أيش هذا طلحة عن أبيه عن جده»؟! ثم قال ١/ ٢١١ - ٢١٢: «حدثنا حميد بن مسعدة، حدثنا معتمر، سمعت ليثا يذكر عن طلحة عن أبيه عن جده، قال: دخلت علىٰ النبي ﷺ وهو يتوضأ، والماء يسيل من وجهه ولحيته علىٰ صدره، فرأيته يفصل بين المضمضة والاستنشاق».

(٥) عبارة الذهبي في ميزان الاعتدال ٢/ ٣٤٤: «طلحة عن أبيه عن جده في مسح الرأس، قيل: هو ابن مصرف، وإلا فهو مجهول».

كعب - وقيل: كعب بن عمرو - صحابي مختلَف فيه.

(**وقال حذيفة بن قتادة**) المرعشي رحمه الله تعالىٰ (**قيل لرجل: كيف تصنع بنفسك في شهوتها؟ فقال: ما علىٰ وجه الأرض نفس أبغض إليَّ منها، فكيف أعطيها شهوتها**)؟ رواه أبو نعيم في الحلية[١] فقال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثني سلمة، حدثنا سهل بن عاصم، عن أبي يزيد الرَّقِّي قال: قال حذيفة بن قتادة: قيل لرجل ... فذكره.

(**ودخل**) أبو العباس (**ابن السَّمَّاك**) الواعظ هو محمد بن صبيح البغدادي، روىٰ عن التابعين (**علىٰ داود**) بن نصير (**الطائي**) رحمهما الله تعالىٰ (**حين مات وهو في بيته علىٰ التراب، فقال: يا داود، سجنت نفسك قبل أن تُسجَن، وعذَّبت نفسك قبل أن تعذَّب، فاليوم ترىٰ ثواب مَن كنت تعمل له**) رواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن عمر، حدثنا عبد الله بن محمد بن عبيد[٣] قال: سمعت أبا جعفر الكِندي في جنازة بشر بن الحارث يقول: دخل ابن السَّمَّاك علىٰ داود الطائي حين مات ... فذكره.

وقال أيضًا: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني أبو بكر بن خلف، حدثنا إسحاق بن منصور ببغداد سنة خمس ومائتين قال: لمَّا مات داود الطائي شيَّع الناس جنازته، فلمَّا دُفن قام ابن السماك فقال: يا داود، كنت تسهر ليلك إذ الناس ينامون. فقال القوم جميعًا: صدقتَ. وكنت تربح إذا الناس يخسرون [فقال الناس جميعًا: صدقتَ] وكنت تَسلم إذا الناس يخوضون. فقال الناس جميعًا: صدقتَ. حتىٰ عدَّدَ فضائله كلَّها، فلما فرغ قام أبو بكر النهشلي فحمد الله ثم قال: يا رب، إن الناس قالوا ما عندهم مبلغ ما علموا، اللهم فاغفر له

---

(١) ورواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٤.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٩ - ٣٤٠.

(٣) هو ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٩٤.

برحمتك، ولا تَكِله إلىٰ عمله.

حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، حدثنا محمد بن يحيىٰ الواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص ابن عمر الجُعْفي قال: اشتكىٰ داود الطائي أيامًا، وكان سبب علَّته أنه مر بآية فيها ذِكر النار، فكرَّرها مِرارًا في ليلته، فأصبح مريضًا، فوجدوه قد مات، ورأسه علىٰ لبنة، ففتحوا باب الدار، ودخل ناس من إخوانه وجيرانه ومعهم ابن السماك، فلما نظر إلىٰ رأسه قال: يا داود، فضحتَ القرَّاءَ. فلما حملوه إلىٰ قبره خرج في جنازته خلق كثير حتىٰ خرج ذوات الخدور، فقال ابن السمَّاك: يا داود، سجنت نفسك قبل أن تُسجَن، وحاسبت نفسك قبل أن تحاسَب، فاليوم ترىٰ ثواب ما كنت ترجو وله كنت تنصب وتعمل. فقال أبو بكر بن عيَّاش وهو علىٰ شفير القبر: اللهم لا تَكِل داود إلىٰ عمله. قال: فأعجب الناسَ ما قال أبو بكر.

حدثنا أبو محمد بن حيَّان، حدثنا أحمد بن راشد، حدثنا محمد بن حسان الأزرق، حدثنا ابن مهدي قال: بلغني أن داود الطائي [لما دُفن أخذ الناس يقولون، فوقف أبو بكر النهشلي علىٰ قبره فقال: اللهم لا تَكِله إلىٰ عمله.

حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا محمد بن عمر بن حفص، حدثنا أحمد بن الخليل القومسي، حدثنا يحيىٰ بن يحيىٰ قال: سمعت أبا العباس ابن السمَّاك يقول: دخلت علىٰ داود الطائي] يوم مات وهو في بيت علىٰ التراب، وتحت رأسه لبنة، فبكيت لما رأيت من حاله، ثم ذكرتُ ما أعدَّ الله تعالىٰ لأوليائه فقلت: داود، سجنت نفسك قبل أن تُسجَن، وعذَّبت نفسك قبل أن تعذَّب، فاليوم ترىٰ ثواب مَن كنت له تعمل.

(و) رُوي (عن وهب بن منبه) اليماني رحمه الله تعالىٰ قال: (**إن رجلاً تعبَّد زمانًا**) طويلاً (**ثم بدت له إلىٰ الله حاجةٌ، فقام سبعين سبتًا، يأكل في كل سبت إحدىٰ عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطَها، فرجع إلىٰ نفسه وقال: منكِ أُتيتُ، لو كان**

فيكِ خيرٌ لأُعطيتِ حاجتك. فنزل إليه ملَكٌ وقال: يا ابن آدم، ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت، وقد قضىٰ الله حاجتك) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس[١].

(وقال عبد الله بن قيس) هو أبو موسىٰ الأشعري[٢] رضي الله عنه، وكان عمر ولاَّه غزاة فارس، وهو الذي فتح تستر، ونزل الهرمزان من الحصن علىٰ حكم عمر، فأرسله مع أنس إلىٰ المدينة، فأمَّنه عمر، وأسلم الهرمزان (كنا في غزاة لنا، فحضر العدو، فصيحَ في الناس، فقاموا إلىٰ المَصافِّ في يوم شديد الريح، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول: أي نفس، ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلتِ لي: أهلك وعيالك، فأطعتُكِ ورجعت؟ ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلتِ لي: أهلك وعيالك، فأطعتكِ ورجعت؟ لا واللهِ لأعرضنَّكِ اليوم علىٰ الله أخذكِ أو تركَكِ. فقلت: لأرمقنَّه اليوم، فرمقتُه، فحمل الناس علىٰ عدوِّهم، فكان في أوائلهم، ثم إن العدو حمل علىٰ الناس فانكشفوا، فكان في موضعه حتىٰ انكشفوا مرَّات، وهو ثابت يقاتل، فوالله ما زال ذلك دأبه حتىٰ رأيته صريعًا) علىٰ الأرض (فعددت به وبدابَّته ستين أو أكثر من ستين طعنة) رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(وقد ذكرنا حديث أبي طلحة) الأنصاري (لما اشتغل قلبُه في الصلاة في حائطه) بطائر حسن الصوت فأدار نظره إليه واتبعه فلم يدرِ كم صلىٰ (فتصدَّق بالحائط كفَّارة لذلك) وكذا تأخير ابن عمر صلاة المغرب حتىٰ طلعت نجمة فأعتق رقبة، وقد ذُكر كلٌّ من ذلك في كتاب الصلاة. وهذا مستحب، فعقوبة النفس علىٰ التقصير سنَّة الأولياء، ولا يجب إلا جبر الفرائض (و) ذكرنا أيضًا (أن عمر) رضي الله عنه (كان يضرب قدميه بالدرَّة كل ليلة ويقول: ماذا عملتِ اليوم) يحاسبها ويعاقبها.

---

(١) محاسبة النفس ص ٩٤ - ٩٥.

(٢) بل هو أبو أمية الغفاري؛ كذا أوضحه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس ص ٧١ وابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٩٢٣.

(وعن مجمع) بن صمغان التيمي رحمه الله تعالىٰ، وكان من الورعين، حكىٰ عنه الأعمش وسفيان وأبو حيان التيمي، ترجمه صاحب الحلية[١] **(أنه رفع رأسه إلىٰ السطح، فوقع بصره علىٰ امرأة، فجعل علىٰ نفسه أن لا يرفع رأسه إلىٰ السماء ما دام في الدنيا)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(وكان الأحنف بن قيس) التميمي **(لا يفارقه المصباحُ بالليل، فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه: ما حملكِ علىٰ أن صنعتِ يوم كذا كذا)**[٢] ثم يقول: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١] رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(وأنكر وُهَيب بن الورد) المكِّي، أبو أمية، اسمه عبد الوهاب ولكنه اشتهر بوهيب **(شيئًا علىٰ نفسه فنتف شعرات)** كانت **(علىٰ صدره حتىٰ عظُمَ ألمُه، ثم جعل يقول لنفسه: ويحكِ! إنما أريد بكِ الخير)** رواه ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس.

(ورأىٰ) أبو[٣] عبد الله **(محمد بن بِشر)** بن الفُرافِصة بن المختار بن رُدَيح العبدي الكوفي، ثقة، حافظ، مات سنة ثلاث ومائتين، روىٰ له الجماعة **(داود)** بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالىٰ **(وهو يأكل عند إفطاره خبزًا بغير ملح، فقال له: لو أكلتَه بملح. فقال: إن نفسي لَتدعوني إلىٰ الملح منذ سنة، ولا ذاق داود ملحًا ما دام في الدنيا)** رواه أبو نعيم في الحلية[٤] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا عبد الله بن محمد بن العباس، حدثنا سلمة بن شبيب، حدثنا سهل بن عاصم، حدثنا شهاب بن عَبَّاد، حدثنا محمد بن بشر قال: دخلت وداود الطائي المسجد، فصليت معه المغرب، ثم أخذ بيدي، فدخلت معه البيت، فقام إلىٰ دن له كبير فأخذ

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ٨٩ - ٩١.

(٢) تقدم هذا الأثر في المرابطة الثالثة بسياق أطول.

(٣) تهذيب الكمال ٢٤/ ٥٢٠ - ٥٢٣. تقريب التهذيب ص ٨٢٨.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٣٤٩ - ٣٥٠.

منه رغيفًا يابسًا، فغمسه في الماء، ثم قال: ادْنُ فكل. قلت: بارك الله لك. فأفطر، فقلت له: يا أبا سليمان، لو أخذتَ شيئًا من ملح. قال: فسكت ساعة، ثم قال: إن نفسي نازعتني ملحًا، ولا ذاق داود ملحًا ما دام في الدنيا. قال: فما ذاقه حتىٰ مات.

وقال أيضًا: حدثنا إبراهيم بن عبد الله، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا إسماعيل بن أبي الحارث، حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي، حدثنا الوليد بن عُقبة قال: كان يُخبَز لداود الطائي ستون رغيفًا، فيعلِّقها بشريط، يفطر كل ليلة علىٰ رغيفين بملح وماء، فأخذ ليلة فِطره، فجعل ينظر إليه. قال: ومولاة له سوداء تنظر إليه، فقامت فجاءته بشيء من تمر علىٰ طبق، فأفطر، ثم أحيا ليلته، وأصبح صائمًا، فلما أن جاء وقت الإفطار أخذ رغيفيه وملحًا وماء. قال الوليد بن عقبة: فحدثني جار له قال: جعلت أسمعه يعاتب نفسه يقول: اشتهيتِ البارحة تمرًا فأطعمتكِ، واشتهيتِ الليلة تمرًا، لا ذاق داود الطائي تمرة ما دام في دار الدنيا. قال محمد بن إسحاق في حديثه: فما ذاقها حتىٰ مات.

وحدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا أحمد بن علي بن الجارود، حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثني عبد الله بن عبد الكريم، عن حماد بن أبي حنيفة قال: جئت داود الطائيَّ والباب عليه مغلق، فسمعته يقول: اشتهيتِ جزرًا فأطعمتكِ، ثم اشتهيتِ جزرًا وتمرًا، آليتُ أن لا تأكليه أبدًا. فاستأذنت وسلَّمت ودخلت فإذا هو يعاتب نفسه.

حدثنا إبراهيم بن أحمد بن أبي الحصين، حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمي، حدثنا محمد بن حسان، سمعت إسماعيل بن حسان[1] يقول: جئت إلىٰ باب داود الطائي أريد أن أدخل عليه، فسمعته يخاطب نفسه، فظننت أنَّ عنده إنسانًا يكلِّمه، فأطلت الوقوف بالباب، ثم استأذنت، فقال: ادخلْ. فدخلت، فقال: ما بدا لك من الاستئذان عليَّ؟ قال: قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك إنسانًا

---

(١) في الحلية: إبراهيم بن حسان.

تخاصمه. قال: لا، ولكن كنت أخاصم نفسي، اشتهيت البارحة تمرًا فخرجت فاشتريته، فلما جئت بالتمر اشتهيت الجزر، فأعطيت الله عهدًا أن لا آكل التمر والجزر حتىٰ ألقاه.

(**فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم**) إذا خانت نفوسُهم وضيَّعت الحدودَ (**والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك علىٰ ما يصدر منهم من سوء خُلقٍ وتقصير في أمر، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك، ثم تهمل نفسك، وهي أعظم عدو لك، وأشد طغيانًا عليك، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك، فإن غايتهم أن يشوِّشوا عليك معيشةَ الدنيا، ولو عقلتَ لعلمتَ أن العيش عيش الآخرة**) ومعيشة الدنيا زائلة عن قريب (**وأن فيه**) أي في عيش الآخرة (**النعيم المقيم الذي لا آخر له، ونفسك هي التي تنغِّص عليك عيشَ الآخرة، فهي بالمعاقبة أَولىٰ من غيرها**) والعناية بأحوالها أوكد من غيرها. والله الموفِّق.

المرابطة الخامسة: المجاهدة

(وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية ينبغي أن) يجُبرها بالتوبة والاستغفار، ثم يرجع إليها و(يعاقبها بالعقوبات التي مضت) حتىٰ إنها تتأدَّب (وإن رآها تتوانَىٰ) أي تتساهل (بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو وِرد من الأوراد فينبغي أن يؤدِّبها بتثقيل الأوراد عليها، ويلزمها فنونًا) أي أنواعًا (من الوظائف جبرًا لِما فات منه، وتدارُكًا لِما فرط، فهكذا كان يعمل عمَّال الله تعالىٰ، فقد) رُوي أنه (عاقب عمر بن الخطاب) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدَّق) علىٰ الفقراء (بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم.

وكان ابن عمر) ﷺ (إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة)[١] قائمًا يصلي.

(و) يُروَىٰ أنه (أخَّر ليلةً صلاة المغرب) لشغلٍ عرض له (حتىٰ طلع كوكبان، فأعتق رقبتين.

وفات) الحارث[٢] بن عبد الله (بن أبي ربيعة) بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم المخزومي المكِّي، أمير الكوفة، المعروف بالقُباع، روىٰ له [مسلم و] أبو داود في المراسيل والنسائي، مات قبل السبعين (ركعتا الفجر فأعتق رقبة[٣].

---

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه ١/ ٥٢٧ عن نافع قال: كان ابن عمر إذا شهد العشاء الآخرة مع الناس صلىٰ ركعات ثم نام، وإذا لم يشهدها في جماعة أحيا ليله. ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٣٠٣ بلفظ: كان إذا فاتته صلاة العشاء في جماعة أحيا بقية ليلته.

(٢) تقريب التهذيب ص ٢١١.

(٣) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١٨١، وعبد الرزاق في مصنفه ٣/ ٥٧.

وكان بعضهم يجعل علىٰ نفسه صوم سنة، أو الحج ماشيًا) علىٰ رجليه (أو التصدُّق بجميع ماله.

كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها) من الهلاك الأبدي.

(فإن قلتَ: إن كانت نفسي لا تطاوعني علىٰ المجاهدة) والرياضات الشاقَّة (والمواظبة علىٰ الأوراد، فما سبيل معالجتها؟ فأقول: سبيلك في ذلك أن تُسمِعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين) هكذا في سائر نسخ الكتاب، وقد وقع للحافظ العراقي[1] تصحيف في هذه الكلمة فقال: من فضل المتهجِّدين. بتقديم الفوقية، ثم أورد من حديث عبد الله بن عمرو: «مَن قام بعشر آيات لم يُكتَب من الغافلين ...» الحديث، رواه أبو داود. ومن حديث أبي هريرة: «رحم الله رجلاً قام من الليل فصلىٰ وأيقظ امرأته». رواه النسائي وابن ماجه. ومن حديث بلال: «عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم». رواه الترمذي. ثم قال: وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذلك. ا.هـ. وأنت خبير بأنه يخالف السياقَ والسباق، وإنما مراد المصنف أخبار فضل المجتهدين في العبادة لا المتهجِّدين، والمراد من أخبارهم حكاياتهم وسِيَرهم، فتأملْ ذلك.

(ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبدٍ من عباد الله) كامل الظاهر، معمور الباطن (مجتهد في العبادة) غير متساهل فيها (فتلاحظ أقواله) وتلاحظ أحواله (وتقتدي به) فيهما، وهذا المعنىٰ هو الأصل الأصيل في سلوك طريق السادة النقشبندية قدَّس الله أسرارهم، وهم يعتمدون عليه كثيرًا، ويأمرون المريد بذلك.

(وكان بعضهم يقول: كنت إذا اعترتني فترةٌ في العبادة نظرت إلىٰ أحوال) أبي عبد الله (محمد بن واسع) البصري العابد (وإلىٰ اجتهاده، فعملت علىٰ ذلك أسبوعًا) قال أبو نعيم في الحلية[2]: حدثنا أحمد بن محمد بن سنان، حدثنا

---

(١) المغني ٢/ ١١٨٩.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٤٧.

محمد بن إسحاق، حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر بن سليمان قال: كنت إذا وجدت من قلبي قسوةً نظرت إلىٰ وجه محمد بن واسع نظرةً، وكنت إذا رأيت وجه محمد بن واسع حسبت أن وجهه وجه ثَكْلَىٰ.

وقد ذكر أبو نعيم من اجتهاد محمد بن واسع في العبادة شيئًا كثيرًا، راجِعْه في ترجمته.

(إلا أن هذا العلاج قد تعذَّر) الآن **(إذ قد فُقد في هذا الزمان)** وهو رأس الخمسمائة من الهجرة **(مَن يجتهد في العبادة اجتهادَ الأوَّلين)** لنقص الهِمَم وتأخُّر الزمان **(فينبغي أن يعدل من المشاهدة)** والمصاحبة **(إلىٰ السماع)** بالتيقُّظ والتذكُّر **(فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم)** أي سِيَرهم وحكاياتهم **(وما كانوا فيه من الجهد الجهيد، وقد انقضىٰ تعبُهم، وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الآباد لا ينقطع، فما أعظم مُلكهم! وما أشد حسرة مَن لا يقتدي بهم فيمتِّع نفسَه أيامًا قلائل بشهوات مكدَّرة ثم يأتيه الموت ويُحال بينه وبين كل ما يشتهيه أبد الآباد! نعوذ بالله من ذلك. ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبةَ المريد في الاجتهاد اقتداءً بهم، فقد قال رسول الله ﷺ: رحم الله أقوامًا يحسبهم الناس مرضىٰ، وما هم بمرضىٰ)** قال العراقي[1]: لم أجد له أصلاً في حديث مرفوع، ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفًا علىٰ عليٍّ في كلام له قال فيه: ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضىٰ، وما بالقوم من مرض[2]. ا.هـ. قلت: بل أخرجه ابن المبارك في الزهد[3] عن الحسن مرسلاً، إلا أنه قال: قومًا، بدل: أقوامًا. وكلام عليٍّ المذكور أورده الشريف في نهج البلاغة[4] **(قال الحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ بعد أن

(١) المغني ٢/ ١١٨٩.

(٢) ورواه أيضا: الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ١٤٨، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٩٣.

(٣) الزهد والرقائق ص ٧١.

(٤) شرح نهج البلاغة ١٠/ ٣٠٠، ٢٠/ ٤٠٦.

روىٰ الحديث المذكور ما معناه: (**أجهدتهم العبادة**) حتىٰ كأنَّهم أصابهم المرضُ فنحلت أبدانُهم وتغيَّرت ألوانهم.

(**وقال الله تعالىٰ**: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] **قال الحسن**) في تفسير هذا القول: يعني (**يعملون ما عملوا من أعمال البِر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله**) رواه ابن المبارك في الزهد(١) وعبد بن حميد وابن جرير(٢).

(**وقال رسول الله ﷺ: طوبَىٰ لمَن طال عمرُه وحسُنَ عملُه**) قال العراقي(٣): رواه الطبراني من حديث عبد الله بن بُسر، وفيه بقية، وقد رواه بصيغة «عن»، وهو مدلِّس. وللترمذي من حديث أبي بكرة: «خير الناس مَن طال عمرُه وحسُنَ عملُه».

قلت: حديث عبد الله بن بُسر رواه أبو نعيم في الحلية، وحديث أبي بكرة رواه أيضًا أحمد وابن زنجويه والطبراني والحاكم والبيهقي بزيادة: «وشر الناس مَن طال عمرُه وساء عملُه». وقال الترمذي: حسن صحيح. وقد روىٰ الجمله الأولىٰ فقط أحمد وعبد بن حميد والترمذي - وقال: حسن غريب - والطبراني والبيهقي والضياء من حديث عبد الله بن بسر. وفي الباب عن ابن عمر، رواه القضاعي في مسند الشهاب والديلمي في مسند الفردوس. وعن جابر، رواه الحاكم. وعن أبي هريرة، رواه أحمد والبزار. وألفاظهم مختلفة، وقد تقدم(٤).

(**ويُروَىٰ**) في بعض الأخبار (**أن الله تعالىٰ يقول لملائكته: ما بال عبادي مجتهدين؟ فيقولون: إلهنا، خوَّفتَهم شيئًا فخافوه، وشوَّقتهم إلىٰ شيء فاشتاقوا إليه. فيقول الله تبارك وتعالىٰ: فكيف لو رآني عبادي لكانوا أشد اجتهادًا**) نقله

---

(١) الزهد والرقائق ص ٥٣.

(٢) جامع البيان ١٧/ ٦٧.

(٣) المغني ٢/ ١١٨٩ - ١١٩٠.

(٤) تقدمت هذه الأحاديث كلها في كتاب تهذيب النفس، وفي كتاب الصبر والشكر.

صاحب القوت.

(**وقال الحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**أدركت أقوامًا وصحبت طوائف منهم**) يعني بهم الصحابة وكبار التابعين (**ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسَّفون علىٰ شيء منها أدبر، ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطؤونه بأرجلكم، إن كان أحدهم لَيعيشُ عمره كلَّه ما طُوِيَ له ثوب**) أي لاقتصاره علىٰ الثوب الواحد (**ولا أمر أهله بصنعة طعام قط، ولا جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط**) أي حائلاً من فرش غير ثوبه الذي علىٰ بدنه (**وأدركتُهم عاملين بكتاب ربِّهم وسنَّة نبيِّهم**) ﷺ (**إذا جنَّهم الليل فقيام علىٰ أطرافهم**) يصلُّون (**يفترشون وجوههم**) إشارة إلىٰ كثرة السجود (**تجري دموعهم علىٰ خدودهم، يناجون ربَّهم**) أي يتضرَّعون (**في فِكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها**) حيث وفَّقهم الله تعالىٰ لها (**ودأبوا في شكرها، وسألوا الله أن يقبلها، وإذا عملوا السيئة أحزنتهم، وسألوا الله أن يغفرها لهم، واللهِ ما زالوا كذلك**) أي مداومين (**وعلىٰ ذلك**) أي مستقيمين (**وواللهِ ما سَلِموا من الذنوب، ولا نجوا إلا بالمغفرة**)[1] نقله صاحب القوت هكذا مجموعًا، وقد رُوي ذلك عن الحسن بأسانيد متفرقة، قال أحمد في الزهد[2]: حدثنا صفوان بن عيسىٰ، حدثنا هشام ابن حسان، سمعت الحسن يقول: واللهِ لقد أدركت أقوامًا ما طُوِيَ لأحدهم في بيته ثوب قط، وما أمر في أهله بصنعة طعام قط، وما جعل بينه وبين الأرض شيئًا قط، وإن كان أحدهم يقول: لَوددتُ أني أكلت أكلة تصير في جوفي مثل الآجُرَّة. وكان يقول: بلغنا أن الآجُرَّة تبقىٰ في الماء ثلاثمائة سنة.

وروىٰ أبو نعيم[3] من طريق الفضيل بن عياض عن هشام عن الحسن قال:

---

(١) تقدم هذا الأثر في كتاب الزهد والفقر، مع بعض اختلاف.

(٢) الزهد ص ٢١٠.

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٢٧٠.

لقد أدركت أقوامًا ما كانوا يفرحون بما أقبل عليهم من الدنيا، ولا يأسون علىٰ ما أدبر منها.

(ويُحكَىٰ أن قومًا دخلوا علىٰ عمر بن عبد العزيز) رحمه الله تعالىٰ **(يعودونه في مرضه، وإذا فيهم شاب ناحل الجسم)** أي متغيِّره **(فقال له عمر: يا فتىٰ، ما الذي بلغ بك ما أرىٰ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، أسقام وأمراض. فقال: سألتك بالله إلا ما صدقتني)** وكأنَّه تفرَّس فيه أن هذا النحول ليس عن مرض طبيعي **(قال: يا أمير المؤمنين، ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مُرَّة، وصغرت عندي زهرتُها)** أي زينتها **(وحلاوتها، واستوىٰ عندي ذهبها وحجرها، وكأنِّي أنظر إلىٰ عرش ربِّي والناسُ يُساقون إلىٰ الجنة والنار، فأظمأت لذلك نهاري)** بالصيام **(وأسهرت ليلي)** بالقيام **(وقليل حقير كل ما أنا فيه)** من الاجتهاد **(في جنب ثواب الله وعقابه)**[1] وقد روىٰ أبو نعيم في ترجمة عمر بن عبد العزيز ما يشبه هذا السياقَ ويدل علىٰ شدة اجتهاده، قال[2]: أخبرنا محمد بن إبراهيم في كتابه، حدثنا أحمد ابن محمد، حدثنا السري بن عاصم، حدثنا إبراهيم بن هراسة، عن الثوري، عن أبي الزناد، عن أبي حازم الأسدي الخُناصِري قال: قدمت علىٰ عمر بن عبد العزيز بخُناصرة، وهو يومئذٍ أمير المؤمنين، فلما نظر إليَّ عرفني ولم أعرفه، فقال لي: ادْنُ يا أبا حازم. فلما دنوت منه عرفتُه فقلت: أنت أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قلت: ألم تكن عندنا بالأمس [بالمدينة] أميرًا لسليمان بن عبد الملك، وكان مركبك وطيئًا، وثوبك نقيًّا، ووجهك بهيًّا، وطعامك هنيئًا، وقصرك مشيدًا، وحديثك كثيرًا؟ فما الذي غيَّر ما بك وأنت أمير المؤمنين؟ فقال: أعِدْ عليَّ الحديثَ الذي حدَّثتنيه بالمدينة. فقلت: نعم يا أمير المؤمنين، سمعت أبا هريرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٥٥ ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٨/ ١٩١ عن بشير بن صالح. ورواه ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٨٠ عن أبي سعيد المصيصي.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٢٩٩ - ٣٠٢.

«إن بين أيديكم عَقبة كؤودًا مضرسة لا يجوزها إلا كل ضامر مهزول». قال: فبكىٰ أمير المؤمنين بكاء عاليًا حتىٰ علا نحيبُه، ثم قال: يا أبا حازم، أفتلومني أن أضمر نفسي لتلك العَقبة لعلِّي أن أنجو منها، وما أظنني منها بناجٍ.

(وقال أبو نعيم) أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهاني رحمه الله تعالىٰ صاحب الحلية: (كان داود) بن نصير (الطائي) رحمه الله تعالىٰ **(يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز، فقيل له في ذلك، فقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية)**[1] رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا محمد بن عبد الله بن مصعب، حدثنا علي بن حرب، حدثنا إسماعيل بن الريَّان قال: قالت داية داود الطائي: يا أبا سليمان، أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية، بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا عباس بن حمدان الحنفي، حدثنا الحضرمي بالبصرة، حدثنا نصر بن عبد الرحمن، حدثنا عامر بن إسماعيل الأحمسي قال: قلت لداود الطائي: بلغني أنك تأكل هذا الخبز اليابس تطلب به الخشونةَ. فقال: سبحان الله! كيف وقد ميَّزتُ بين أكل الخبز اليابس وبين الليِّن فإذا هو قدْر قراءة مائتي آية، ولكن ليس لي مَن يخبز، فربما يبس عليَّ.

(ودخل رجل عليه يومًا فقال: إنَّ في سقف بيتك جذعًا مكسورًا. فقال: يا ابن أخي، إنَّ لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلىٰ السقف، وكانوا يكرهون من فضول النظر كما يكرهون من فضول الكلام) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم، حدثنا محمد ابن يحيىٰ بن عمر الواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص بن عمر الجُعْفي

---

(١) بنصه من المجالسة للدينوري ١/ ٣٤٦، وأبو نعيم هو الفضل بن دكين، لا صاحب الحلية كما ذكر الزبيدي.

(٢) السابق ٧/ ٣٥٠ - ٣٥٢، ٣٦٠ - ٣٦١.

قال: دخل رجل علىٰ داود الطائي فقال: يا أبا سليمان، بعتَ كل شيء في الدار حتىٰ التراب وبقيتَ تحت نصف سقف، فلو سوَّيتَ هذا السقف فكان يكنُّك من الحر والمطر والبرد. فقال داود: اللهم غفرًا، كانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام، يا عبد الله اخرجْ عني فقد شغلتَ عليَّ قلبي، إني أبادر جفوفَ القلم وطيَّ الصحيفة.

حدثنا أحمد بن جعفر، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أبو موسىٰ الأنصاري، حدثنا عُبادة بن كُلَيب قال: قال رجل لداود الطائي: لو أمرتَ بما في سقف البيت من نسج العنكبوت فينظَّف. قال له: أما علمتَ أنه كان يُكره فضول النظر.

حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا محمد بن يحيىٰ بن مَنْده، حدثنا الحسن ابن منصور بن مقاتل، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا عبد الرحمن بن مصعب قال: رُؤيت علىٰ داود الطائي جُبَّة متخرِّقة، فقال له رجل: لو خيطتها. قال: أما علمتَ أنه نُهي عن فضول النظر.

حدثنا أبو بكر عبد الله بن محمد، حدثنا عبد الله بن أحمد بن سوادة، حدثنا عباس التَّرْقُفي، سمعت معاوية بن عمرو يقول: كنا عند داود الطائي يومًا، فدخلت الشمس من الكوَّة، فقال له بعض مَن حضر: لو أذنتَ لي سددتُ هذه الكوَّة. فقال: كانوا يكرهون فضول النظر. وكنا عنده يومًا آخر، فإذا فروه قد تخرَّق وخرج خمله[1]، فقال له بعض مَن حضر: لو أذنتَ لي خيَّطتُه. فقال: كانوا يكرهون فضول الكلام.

(وقال) أبو[2] روح **(محمد بن عبد العزيز)** الجَرْمي - ويقال: الراسبي[3] -

(١) الخَمل بالفتح: هدب القطيفة ونحوها مما ينسج. وانظر: تاج العروس ٢٨/ ٤٣٨.

(٢) تقريب التهذيب ص ٨٧٢.

(٣) في تهذيب الكمال ٢٦/ ١٣: «ويقال: إنهما اثنان».

البصري، ثقة، روىٰ له البخاري[١] ومسلم والترمذي (**جلسنا إلىٰ أحمد بن رزين من غدوة إلىٰ العصر، فما التفت يمنة ولا يسرة**) وذلك لكمال مراقبته لجلال الله وعظمته (**فقيل له في ذلك، فقال: إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق العينين لينظر بهما العبد إلىٰ عظمة الله تعالىٰ**) وجلاله، وهذا شكرهما (**فكل مَن نظر بغير اعتبار كُتبت عليه**) نظرته (**خطيئة**[٢]).

(**وقالت امرأة مسروق**) بن الأجدع الهَمْداني الوادعي، أبي عائشة الكوفي، تابعي جليل، روىٰ له الأربعة[٣]، وامراته هي قَمِير - كأمير - ابنة عمرو الكوفية، روىٰ لها أبو داود والنسائي (**ما كان يوجد مسروق إلا وساقاه متتفختان من طول الصلاة**) بالليل (**وقالت: واللهِ إن كنت لأجلسُ خلفه فأبكي رحمةً له**)[٤] رواه المِزِّي في التهذيب[٥] من طريق أنس بن سيرين عنها قالت: كان مسروق يصلي حتىٰ تورَّمُ قدماه، فربما جلست خلفه أبكي ممَّا أراه يصنع بنفسه[٦]. وقال الشعبي: غُشي علىٰ مسروق في يوم صائف وهو صائم، وكانت عائشة زوج النبي ﷺ قد تبنَّته، فسمَّىٰ ابنته عائشة، وكان لا يعصي ابنتَه شيئًا، فنزلت إليه فقالت: يا أبتاه، أفطِرْ واشربْ. قال: ما أردتِ بي يا بنيَّة؟ قالت: الرفق. قال: يا بنيَّة، إنما طلبتُ الرفق لنفسي في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[٧].

---

(١) في الأدب المفرد، وليس في الصحيح.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٠٠ عن شيخه محمد بن عبد العزيز الدينوري. فقول الزبيدي إنه البصري الذي روىٰ له البخاري ومسلم والترمذي، خطأ. والزبيدي كثير الغلط في تحديد الأعلام التي يذكرها الغزالي، وقد وقع له ذلك مرارا في هذا الكتاب.

(٣) بل روىٰ له الأئمة الستة في كتبهم.

(٤) رواه النسائي في السنن الكبرىٰ ١٠/ ٤٠٩، وابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٧٢.

(٥) تهذيب الكمال ٢٧/ ٤٥٥ - ٤٥٦.

(٦) رواه أحمد في الزهد ص ٢٨٣، وابن سعد في الطبقات الكبرىٰ ٨/ ٢٠٢، والخطيب في تاريخ بغداد ١٥/ ٣١٤، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٥٦١.

(٧) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٥/ ٣١٤، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٥٧/ ٤٢٧.

(وقال أبو الدرداء) رضي الله عنه: **(لولا ثلاث ما أحببت العيش يومًا واحدًا: الظمأ لله بالهواجر، والسجود لله في جوف الليل، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما تُنتقىٰ أطايب الثمر)**[1] رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا محمد بن أحمد ابن الحسن، حدثنا بشر بن موسىٰ، حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا سعيد ابن أبي أيوب، عن عبد الله بن الوليد، عن عباس بن خُلَيد الحجري، عن أبي الدرداء أنه قال: لولا ثلاث خصال لأحببت أن لا أبقىٰ في الدنيا. فقلت: وما هنَّ؟ قال: لولا وضوع وجهي للسجود لخالقي في اختلاف الليل والنهار يكون تقدمةً لحياتي، وظمأ الهواجر، ومقاعدة أقوام ينتقون الكلام كما تُنتقَىٰ الفاكهة، وتمام التقوىٰ أن يتَّقي اللهَ العبدُ، حتىٰ يتَّقيه في مثقال ذرَّة، حتىٰ يترك بعض ما يرىٰ أنه حلال خشيةَ أن يكون حرامًا يكون حاجزًا بينه وبين الحرام، إن الله قد بيَّن لعباده الذي هو يصيِّرهم إليه، قال الله تعالىٰ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] فلا تحقرن شيئًا من الشر أن تتَّقيه، ولا شيئًا من الخير أن تفعله.

(وكان الأسود بن يزيد) بن[3] قيس النَّخَعي، أبو عمرو، ويقال: أبو عبد الرحمن، الكوفي، أخو عبد الرحمن بن يزيد، وابن أخي علقمة بن قيس، وكان أسن من علقمة، ووالد عبد الرحمن، وخال إبراهيم، توفي بالكوفة سنة خمس وسبعين. روىٰ له الجماعة **(يجتهد في العبادة ويصوم في الحر حتىٰ يخضر جسده ويصفر، فكان علقمة بن قيس)** بن عبد الله بن مالك النَّخَعي، أبو شبل، عم الأسود وعبد الرحمن ابنَي يزيد، وخال إبراهيم **(يقول له: لِمَ تعذِّب نفسك؟ فيقول: كرامتها أريد)** رواه أبو نعيم في الحلية[4] فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن

---

(١) رواه بهذا اللفظ ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١١٦.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٢١٢.

(٣) تهذيب الكمال ٣/ ٢٣٣ - ٢٣٥، ٢٠/ ٣٠٠ - ٣٠٨.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ١٠٣.

محمد بن الحسن، حدثنا أبو حميد الحِمصي، حدثنا يحيىٰ بن سعيد، حدثنا يزيد ابن أبي عطاء، عن علقمة بن مرثد قال: انتهىٰ الزهد إلىٰ ثمانية من التابعين، منهم الأسود بن يزيد، كان يجتهد في العبادة، يصوم حتىٰ يخضرَّ جسده ويصفر، وكان علقمة بن قيس يقول له: لِمَ تعذِّب هذا الجسدَ؟ قال: راحةَ هذا الجسد أريد.

ورواه أحمد في الزهد[1] فقال: حدثنا حجاج، حدثنا محمد بن طلحة، عن عبد الرحمن بن ثروان الأودي قال: كان الأسود بن يزيد يجهد نفسَه في الصوم والعبادة حتىٰ يخضر جسده ويصفر، وكان علقمة يقول له: ويحك! كم تعذِّب هذا الجسدَ. فيقول: إن الأمر جد، إن الأمر جدٌّ.

قال: وحدثنا معمر بن سليمان الرَّقِّي، حدثنا عبد الله بن بِشر أن علقمة والأسود حجَّا، وكان الأسود صاحب عبادة، فصام يومًا، فراح الناس بالهجير وقد تربَّد وجهُه، فأتاه علقمة فضرب علىٰ فخذه فقال: ألا تتَّقي الله يا أبا عمرو في هذا الجسد؟ علامَ تعذِّب هذا الجسدَ؟ فقال الأسود: يا أبا شبل، الجد الجد.

وروىٰ أبو نعيم[2] من طريق علي بن مدرك قال: قال علقمة للأسود: لِمَ تعذِّب هذا الجسد؟ وهو يصوم، قال: الراحةَ أريد له.

وقال أبو بكر ابن أبي شيبة[3]: حدثنا الفضل بن دُكَين، حدثنا الحنش بن الحارث قال: رأيت الأسود بن يزيد قد ذهبت إحدىٰ عينيه من الصوم.

(وكان يصوم حتىٰ يخضر جسده، ويصلي حتىٰ يسقط) مغشيًّا عليه **(فدخل عليه أنس بن مالك)** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **(والحسن)** البصري رحمه الله تعالىٰ **(فقالا له: إن الله تعالىٰ لم يأمرك بكل هذا. فيقول: إنما أنا عبد مملوك، لا أدع من الاستكانة شيئًا**

---

(١) الزهد ص ٢٨١.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ١٠٤.

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٢/ ١٤٩.

إلا جئتُ به)[١] قال ميمون أبو حمزة: سافر الأسود ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما، وسافر ابنه عبد الرحمن أيضًا كذلك[٢].

وقال غيره: كان عبد الرحمن بن الأسود يصلي كل يوم سبعمائة ركعة، وكانوا يقولون: إنه أقل أهل بيته اجتهادًا. قال: وكانوا يسمُّون آل الأسود من أهل الجنة[٣].

وسُئل الشعبي عن علقمة والأسود، فقال: كان الأسود صَوَّامًا قَوَّامًا كثير الحج، وكان علقمة مع البطيء ويدرك السريع[٤].

وقال إبراهيم: كان علقمة يقرأ القرآن في خمس، والأسود في ست، وعبد الرحمن بن يزيد في سبع[٥].

وقال الشعبي: إن كان أهل بيت خُلِقوا للجنة فهم أهل هذا البيت: علقمة والأسود وعبد الرحمن[٦].

(وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتىٰ أقعد من رجليه فكان يصلي جالسًا ألف ركعة، فإذا صلىٰ العصر احتبىٰ ثم قال: عجبتُ للخليقة

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٢٨٩ عن هشام بن حسان أن العلاء بن زياد كان قوت علىٰ نفسه رغيفا كل يوم، وكان يصوم حتىٰ ... الخ. وهكذا رواه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٢٤٣.
فظهر بهذا أن صاحب القصة هو العلاء بن زياد، وليس الأسود بن يزيد.

(٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٥/ ٣٨٢.

(٣) رواه أحمد في الزهد ص ٢٩١.

(٤) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٨٢، والبخاري في التاريخ الكبير ١/ ٤٤٩، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ١٧٧.

(٥) رواه أبو زرعة الدمشقي في تاريخه ص ٣٣٨، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ١٨٠.

(٦) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٠٣، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ٢٣٤.
ورواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٤/ ٢٤٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤١/ ١٨١ فلم يذكرا عبد الرحمن. وفي رواية أخرىٰ لابن عساكر ٥٧/ ٤١٤ ذكر مسروقا بدل عبد الرحمن.

كيف أرادت بك بدلاً منك، عجبت للخليقة كيف أنست بسواك، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبُها بذكر سواك[١].

وكان) أبو محمد **(ثابت)** بن أسلم **(البُناني)** البصري رحمه الله تعالىٰ، وبُنانة هم بنو سعد بن لؤي بن غالب[٢]، قال ابن عدي[٣]: هو من تابعي البصرة وزُهَّادهم ومحدِّثيهم **(قد حُبِّبت إليه الصلاة، فكان يقول: اللهم إن كنتَ أذنتَ لأحد أن يصلي لك في قبره فائذنْ لي أن أصلي في قبري)** رواه أبو نعيم في الحلية[٤] فقال: حدثنا أبي، حدثنا إبراهيم بن محمد بن الحسن، حدثنا أحمد بن الفضيل العَكِّي، حدثنا ضمرة ابن ربيعة، حدثني ابن شوذب قال: سمعت ثابتًا البُناني يقول: اللهم إن كنتَ أعطيتَ أحدًا من خلقك أن يصلي لك في قبره فأعطِني ذلك.

حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق السَّرَّاج، حدثنا عمر بن شبَّة، حدثنا يوسف بن عطية، سمعت ثابتًا يقول لحميد الطويل: هل بلغك يا أبا عبيدة أن أحدًا يصلي في قبره إلا الأنبياء؟ قال: لا. قال ثابت: اللهم إن أذنتَ لأحد أن يصلي في قبره فائذنْ لثابت أن يصلي في قبره. قال: وكان ثابت يصلي قائمًا حتىٰ يعيا، فإذا أعيا جلس فصلىٰ وهو جالس، ويحتبي في قعوده ويقرأ، فإذا أراد أن

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٦٤ عن حيان الأسود قال: كان عندنا رجل مكث ثلاث عشرة سنة يصلي في كل يوم وليلة ألف ركعة حتىٰ أقعد من رجليه، فإذا صلىٰ العصر احتبىٰ واستقبل القبلة ثم قال: عجبت للخليقة كيف أرادت بك بدلا، بل عجبت للخليقة كيف استنارت قلوبها بذكر سواك، بل عجبت للخليقة كيف أنست بسواك. ثم يسكت إلىٰ المغرب. ورواه في موضع آخر ٦/ ١٩٥ بنحوه عن رياح بن عمرو القيسي.

(٢) هذا أحد الأقوال التي ذكرها السمعاني في الأنساب ١/ ٣٩٩، ثم قال: «وقيل: بل هم بنو سعد بن ضبيعة بن نزار، وقال الزبير بن بكار: أما بنانة فقبيلة منهم ثابت البناني وغيره، وبنانة كانت أمة لسعد ابن لؤي حضنت بنيه عمارا وعمارة ومخزوما بعد أمهم فغلبت عليهم فسموا بها». وانظر: معجم قبائل العرب ١/ ١٠٨، ٢/ ٥١٨.

(٣) الكامل في الضعفاء ٢/ ٥٢٧.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٣١٩.

يسجد وهو جالس حلَّ حبوته.

حدثنا عثمان بن محمد العثماني، حدثنا إسماعيل بن علي الكرابيسي، حدثني محمد بن سنان القَزَّار، حدثنا شيبان بن جسر عن أبيه قال: أنا واللهِ الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتًا البُناني لحده ومعي حميد الطويل - أو رجل غيره، شك محمد - قال: فلما سوَّينا عليه اللبِنَ سقطت لبنة، فإذا أنا به يصلي في قبره، فقلت للذي معي: ألا ترىٰ؟ قال: اسكت. فلما سوَّينا عليه التراب وفرغنا أتينا ابنتَه، فقلنا لها: ما كان عملُ ثابت؟ قالت: وما رأيتم؟ فخبَّرناها، فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة، فإذا كان السَّحَر قال في دعائه: اللهم إن كنتَ أعطيتَ أحدًا من خلقك الصلاةَ في قبره فأعطنيها. فما كان الله تعالىٰ ليردَّ ذلك الدعاء.

(وقال الجنيد) قُدِّس سره: **(ما رأيت أعبد لله)** عَزَّوَجَلَّ **(من السري)** بن المغلس السَّقَطي رحمه الله تعالىٰ **(أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رُؤي مضطجعًا إلا في علَّة الموت)** رواه القشيري[1] عن أبي عبد الرحمن السلمي سماعا قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا عمر الأنماطي يقول: سمعت الجنيد يقول: ما رأيت أعبد من السري ... فذكره. ورواه الخطيب من طريق ابن باكويه، حدثنا أبو بكر أحمد بن إسماعيل الصوري قال: سمعت فاطمة بنت أحمد أخت أبي علي الروذباري قالت: سمعت أخي[2]. ومن طريق علي بن الحسن الصَّيْقلي قال: سمعت الفَرْخاني قال: سمعت الجنيد[3] يقول ... فذكره. وهو[4] تنبيه علىٰ كمال مجاهدته وملازمته الإقبال علىٰ الله تعالىٰ بالقلب والجوارح.

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٥٢.

(٢) لم أقف علىٰ هذه الطريق عند الخطيب، ولكن رواه في تاريخ بغداد ١٠/ ٢٦٦ من الطريق الأخرىٰ وهي طريق الصيقلي عن الفرخاني.

(٣) في طبعة الدكتور بشار لتاريخ بغداد: سمعت الحسن. وهو خطأ بلا ريب، وهو هو نفس الخطأ في طبعة دار الكتب العلمية.

(٤) إحكام الدلالة ١/ ٩١.

(وقال الحارث بن سعد: مرَّ قوم براهب، فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده، فكلَّموه في ذلك، فقال: وما هذا عندما يُراد بالخلق من ملاقاة الأهوال وهم غافلون، قد اعتكفوا علىٰ حظوظ أنفسهم، ونسوا حظهم الأكبر من ربهم. فبكىٰ القوم عن آخرهم) يشير إلىٰ أن هذا الذي رأيتموه من الاجتهاد في العبادة يسيرٌ بالإضافة إلىٰ ما أُعِدَّ من الأهوال في يوم القيامة.

(وعن أبي محمد المغازلي) كذا في النسخ، ولعله أبو[١] جعفر محمد بن منصور المغازلي، عبد صالح، بغدادي، روىٰ عن بشر الحافي، وعنه محمد بن مخلد العطَّار (قال: جاور أبو محمد) أحمد بن محمد بن الحسين (الجُرَيري) بضم الجيم، من أكابر أصحاب الجنيد (بمكة سنة، فلم ينَمْ، ولم يتكلم، ولم يستند إلىٰ عمود، ولا إلىٰ حائط، ولم يمدَّ رجليه، فعبر عليه أبو[٢] بكر) محمد ابن علي (الكتاني) البغدادي، من أصحاب الجنيد، جاور بمكة إلىٰ أن مات بها سنة ٣٢٢ (فسلَّم عليه وقال له: يا أبا محمد، بمَ قدرتَ علىٰ اعتكافك هذا؟ فقال: علمَ صِدْقَ باطني فأعانني علىٰ ظاهري. فأطرق الكتاني ومشىٰ مفكِّرًا)[٣] يشير إلىٰ أن الاجتهاد لا يتم ولا يُعان عليه إلا بصدق الباطن. وزاد ابن الملقن[٤] أنه أنشد عقيب جوابه:

شكرتك لا أني أجازيك منعِمًا بشكرٍ ولا كيما يقال له الشكرُ
وأذكر أيامي لديك وحُسنها وآخر ما يبقىٰ علىٰ الذاكر الذِّكرُ[٥]

(١) الأنساب للسمعاني ٥/ ٣٥١. وما ذكره الشارح من أن المراد به أبو جعفر المغازلي لا يصح؛ إذ بين بشر الحافي وبين الجريري والكتاني زمان طويل.

(٢) الرسالة القشيرية ص ١٠٩.

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ٦/ ١١٨ عن علي بن عبد الله، وفيه البيتان. ومن طريق الخطيب رواه ابن الجوزي في المنتظم ١٣/ ٢٢٢ دون ذكر البيتين.

(٤) طبقات الأولياء ص ٧٢ - ٧٣.

(٥) هذان البيتان نسبهما الكلاباذي في التعرف ص ١١٨ لأبي الحسين النوري.
والصحيح أنهما للبحتري، وهما في ديوانه ٢/ ٨٩٥ مع اختلاف في بعض الألفاظ.

(وعن بعضهم) وهو أبو إسماعيل، من أصحاب فتح، وكان نصرانيًّا من أهل الموصل، أسلم علىٰ يدي فتح وصحبَه **(قال: دخلت علىٰ فتح)** بن[1] سعيد **(الموصلي)** من أقران بشر والسريِّ، وكان كبير الشأن في الورع والمعاملات، توفي سنة ٢٢٠. وهو غير فتح بن شُخْرُف الكَشِّي فوفاته ببغداد سنة ٢٧٣، وكثيرًا ما يشتبه هذا بذاك، فاحفظْ ذلك **(فرأيته وقد مدَّ كفَّيه يبكي، حتىٰ رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه، فدنوت منه)** لأنظر إليه **(فإذا دموعه قد خالطتها صفرةٌ، فقلت: ولِمَ بالله يا فتح بكيتَ الدم؟ فقال: لولا أنك حلَّفتني بالله ما أخبرتك، نعم، بكيت دمًا. فقلت له: علىٰ ماذا بكيتَ الدموع؟ فقال)**: بكيت الدموع **(علىٰ تخلُّفي عن واجب حق الله تعالىٰ، وبكيت الدم علىٰ الدموع لئلاَّ يكون)** أي خوفًا أن يكون **(ما صحَّتْ لي الدموعُ. قال)** أبو إسماعيل: **(فرأيته بعد موته في المنام، فقلت: ما صنع الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت له: فماذا صنع في دموعك؟ فقال: قرَّبني ربِّي عَزَّوَجَلَّ وقال لي: يا فتح، الدمع علىٰ ماذا؟ قلت: يا رب، علىٰ تخلُّفي عن واجب حقِّك. فقال: والدم علىٰ ماذا؟ قلت: علىٰ دموعي أن لا تصحَّ لي. فقال لي: يا فتح، ما أردتَ بهذا كلِّه؟ وعزَّتي وجلالي لقد صعد)** إليَّ **(حافظاك)** منذ **(أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة)** واحدة **(قط)** هكذا ساقه السراج ابن الملقن في «طبقات الخواص» في ترجمة فتح المذكور. وساقه السَّرَّاج في مصارع العشَّاق مختصرًا فقال: حدثنا جعفر الخلدي قال: حدثنا أحمد بن مسروق، حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا عبد الله بن الفرج العابد قال: قلت لأبي إسماعيل ذات يوم - وكان قد بكىٰ حتىٰ ذهبت إحدىٰ عينيه وغشي علىٰ الأخرىٰ -: حدِّثْني ببعض أمر فتح. قال: فبكىٰ ثم قال: أُخبِرك عنه، كان واللهِ كهيئة الروحانيين، معلَّق القلب بما هناك، ليست له راحة في الدنيا ... ثم ساق القصة باختصار، وقد تقدم شيء من أحواله في كتاب المحبة، فراجِعْه.

---

(١) طبقات الأولياء ص ٢٧٦ - ٢٧٩.

(وقيل: إن قومًا أرادوا سفرًا، فحادوا عن الطريق) أي مالوا (فانتهوا إلىٰ راهب) في ديره (منفرد عن الناس، فنادوه، فأشرف عليهم من صومعته، فقالوا: يا راهب، إنَّا قد أخطأنا الطريق، فكيف الطريق)؟ قال: (فأومأ) أي أشار (برأسه إلىٰ السماء) أي إلىٰ الله، ولا بد لكل سالك من هذا الطريق، ولا خطأ فيه (فعلم القومُ ما أراد فقالوا: يا راهب، إنَّا سائلوك، فهل أنت مجيبنا؟ فقال: سلوا ولا تُكثِروا، فإن النهار لا يرجع، والعمر لا يعود، والطالب حثيث) أي مسرع في الطلب (فعجب القوم من كلامه، فقالوا: يا راهب، علامَ الخَلق غدًا عند مليكهم؟ فقال: علىٰ نيّاتهم. فقالوا: أوصِنا. فقال: تزوَّدوا علىٰ قدْر سفركم، فإن خير الزاد ما بلَّغ البُغيةَ) أي المقصد (ثم أرشدهم إلىٰ الطريق، وأدخل رأسه في صومعته[1]).

وقال عبد الواحد بن زيد) البصري العابد: (مررت بصومعة راهب من رهبان الصين، فناديته: يا راهب، فلم يجبْني، فناديته الثانية، فلم يجبْني، فناديته الثالثة، فأشرف عليَّ وقال: يا هذا، ما أنا براهب، إنما الراهب مَن رهبَ اللهَ في سمائه، وعظَّمه في كبريائه، وصبر علىٰ بلائه، ورضي بقضائه، وحمده علىٰ آلائه، وشكره علىٰ نعمائه، وتواضع لعظمته، وذلَّ لعزَّته، واستسلم لقدرته، وخضع لمهابته، وفكَّر في حسابه وعقابه، فنهاره صائم، وليله قائم، قد أسهره ذِكرُ النار ومسألة الجبَّار، فذلك هو الراهب، وأما أنا فكلب عقور، حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس لئلاً أعقرهم. فقلت: يا راهب، فما الذي قطع الخَلق عن الله بعد إذ عرفوه؟ فقال: يا أخي، لم يقطع الخَلقَ عن الله إلا حب الدنيا وزينتها؛ لأنها محل المعاصي والذنوب، والعاقل مَن رمىٰ بها عن قلبه، وتاب إلىٰ الله من ذنبه، وأقبل علىٰ ما يقرِّبه من ربِّه) قلت: هذه الحكاية ما رأيتُها في الحلية في ترجمة

(١) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٠٩. وذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد ٣/ ١١٢، وفيه: «قالوا: علام الناس يوم القيامة؟ قال: علىٰ نياتهم وأعمالهم. قالوا: إلىٰ أين الموئل؟ قال: إلىٰ ما قدمتم».

عبد الواحد بن زيد، وإنما فيها[١] من طريق أحمد بن أبي الحواري، سمعت أبا سليمان الداراني يقول: قال عبد الواحد بن زيد: مررت براهب في صومعته، فقلت لأصحابي: قِفوا. قال: فكلَّمتُه فقلت: يا راهب، فكشف سترًا علىٰ باب صومعته فقال: يا عبد الواحد بن زيد، إن أحببتَ أن تعلم علم اليقين فاجعلْ بينك وبين الشهوات حائطًا من حديد. قال: وأرخىٰ الستر.

ولكن أخرج[٢] في ترجمة إبراهيم بن أدهم ما يشبه سياقُه سياقَ هذه الحكاية، قال: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا أبو حامد أحمد بن محمد بن حمدان النيسابوري، حدثنا إسماعيل بن عبد الله بن عبد الكريم الشامي، سمعت بقية بن الوليد يقول: قال لي إبراهيم بن أدهم: مررت [براهب في] صومعته، والصومعة علىٰ عمود، والعمود علىٰ قلة جبل، كلما عصفت الريحُ تمايلت الصومعة، فناديته قلت: يا راهب، فلم يجبْني، ثم ناديته فلم يجبْني، فقلت في الثالثة: بالذي حبسك في صومعتك إلا أجبتني. فأخرج رأسه من صومعته فقال: لِمَ تنوح؟ سمَّيتني باسم لم أكن له بأهل، قلتَ: يا راهب، ولستُ براهب، إنما الراهب مَن رهب من ربِّه. قلت: فما أنت؟ قال: سَجَّان، سجنتُ سبعًا من السباع. قلت: ما هو؟ قال: لساني سبع ضارٍ، إن أرسلتُه مزَّق الناسَ، يا حنيفي، إن لله عبادًا صُمًّا سمعًا، وبُكْمًا نطقًا، وعُمْيًا بصرًا، سلكوا خلال دار الظالمين، واستوحشوا من مؤانسة الجاهلين، وشابوا ثمرةَ العلم بنور الإخلاص، وأقلعوا بريح اليقين حتىٰ أرسوا بشط نور الإخلاص، هم واللهِ عِباد كحَّلوا أبصارهم بسهر الليل، فلو رأيتَهم في ليلهم وقد نامت عيون الخَلق وهم قيام علىٰ أطرافهم يناجون مَن لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، يا حنيفي عليك بطريقهم. قلت: فعلىٰ الإسلام أنت؟ قال: ما أعرف غير الإسلام دينًا، ولكن عهدَ إلينا المسيحُ عليه السلام ووصف لنا آخرَ زمانكم، فخلَّيتُ الدنيا، وإنَّ دينك جديد وإن

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ١٥٥.

(٢) السابق ٨/ ٢٩ - ٣٠.

خلقَ. قال بقية: فما أتىٰ علىٰ إبراهيم شهرٌ حتىٰ هرب من الناس.

(**وقيل لداود الطائي**) رحمه الله تعالىٰ: (**لو سرَّحتَ لحيتك. فقال: إني إذًا لفارغ**) رواه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا محمد ابن يحيىٰ بن عيسىٰ قال: سمعت إبراهيم بن محمد التيمي يقول: سمعت عبد الله بن داود الخُرَيبي يقول: قيل لداود الطائي: لِمَ لا تسرِّح لحيتك؟ فقال: إني إذًا لَفارغٌ.

حدثنا محمد بن علي بن حبيش، حدثنا أبو شعيب الحَرَّاني، حدثنا أحمد بن عمران الأخنسي، حدثنا الوليد بن عتبة قال: سمعت رجلاً قال لداود الطائي: يا أبا سليمان، ألا تسرِّح لحيتك؟ قال: إني عنها لَمشغولٌ.

حدثنا أبي، حدثنا عبد الله بن محمد بن يعقوب، حدثنا أبو حاتم محمد بن إدريس، حدثنا محمد بن يحيىٰ بن عمر الواسطي، حدثنا محمد بن بشير، حدثنا حفص بن عمر الجُعْفي قال: قيل لداود الطائي: يا أبا سليمان، لِمَ لا تسرِّح لحيتك؟ قال: الدنيا دار مأتم.

(**وكان أويس**) بن عامر (**القَرَني**) رحمه الله تعالىٰ (**يقول: هذه ليلة الركوع. فيحيي الليل كلَّه في ركعة، وإذا كانت الليلة الآتية قال: هذه ليلة السجود. فيحيي الليل كلَّه في سجدة**) رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد، حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عبيد الله بن عبد الكريم، حدثنا سعيد بن أسد بن موسىٰ، حدثنا ضمرة بن ربيعة، عن أصبغ بن زيد قال: كان أويس [إذا أمسىٰ] يقول: هذه ليلة الركوع. فيركع حتىٰ يصبح، وكان إذا أمسىٰ يقول: هذه ليلة السجود. فيسجد حتىٰ يصبح، وكان إذا أمسىٰ تصدَّق بما في بيته من الفضل من الطعام والثياب ثم يقول: اللهم مَن مات جوعًا فلا تؤاخذني به، ومَن مات عريانًا

---

(١) السابق ٧/ ٣٣٩.

(٢) السابق ٢/ ٨٧.

فلا تؤاخذني به.

(**وقيل: لمَّا تاب عتبة**) بن أبان (**الغلام**) رحمه الله تعالىٰ (**كان لا يتهنَّأ بالطعام والشراب، فقالت له أمُّه: لو رفقتَ بنفسك. قال: الرفقَ أطلب، دعيني أتعب قليلاً وأتنعَّم طويلاً**)[1] رواه أبو نعيم في الحلية.

وروىٰ[2] أيضًا بسنده إلىٰ عبد الواحد بن زيد قال: ربما سهرت مفكِّرًا في طول حزن عتبة، ولقد كلَّمتُه ليرفق بنفسه فبكىٰ وقال: إنما أبكي علىٰ تقصيري.

(**وحج مسروق**) بن الأجدع الهَمْداني الكوفي التابعي (**فما نام قط إلا ساجدًا**)[3] رواه أبو نعيم في الحلية[4] فقال: حدثنا محمد بن علي، حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا علي بن الجعد، حدثنا شعبة، عن أبي إسحاق قال: حج مسروق، فما بات إلا ساجدًا. حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا أبو همَّام، حدثنا أبو ضمرة، عن العلاء بن هارون سمعته يقول: حج مسروق، فما افترش إلا جبهته حتىٰ انصرف. ورواه المزي في التهذيب[5] من طريق أبي إسحاق قال: حج مسروق، فلم ينَمْ إلا ساجدًا علىٰ وجهه حتىٰ رجع.

وروىٰ البيهقي في الشعب[6] من طريق عبد الصمد بن سليمان بن أبي مطر قال: بتُّ عند أحمد بن حنبل، فوضع لي [صاغرة] ماء. قال: فلما أصبحت وجدني لم أستعمله، فقال: صاحب حديث لا يكون له وِرد بالليل! قال: قلت: أنا مسافر.

---

(١) ذكره الراغب في محاضرات الأدباء ٢/ ٤٠٥ دون قوله (دعيني أتعب قليلا وأتنعم طويلا).

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٢٣٦.

(٣) ابن المبارك ٩٧٥، وأحمد في الزهد ٢٠٣٠، وابن أبي الدنيا في التهجد ص ١٧١.

(٤) السابق ٢/ ٩٥.

(٥) تهذيب الكمال ٢٧/ ٤٥٥ نقلا عن تاريخ بغداد للخطيب ١٥/ ٣١٤.

(٦) شعب الإيمان ٤/ ٥٣٤.

قال: وإن كنتَ مسافرًا، حج مسروق فما نام إلا ساجدًا. ورواه الخطيب[١] مختصرًا من طريق إبراهيم بن محمد بن سفيان، سمعت أبا عصمة بن عصام البيهقي يقول: بتُّ ليلة عند أحمد بن حنبل ... فذكره.

(وقال سفيان الثوري) رحمه الله تعالىٰ: **(عند الصباح يحمد القومُ السُّرَىٰ، وعند الممات يحمد القوم التُّقَىٰ)**[٢] رواه البيهقي في الشعب وأبو نعيم في الحلية.

(وقال) أبو[٣] عبد الرحمن **(عبد الله بن داود)** بن عامر بن الربيع الهَمْداني الكوفي المعروف بالخُرَيبي، سكن الخُرَيبة، وهي محلة بالبصرة[٤]، ثقة عابد ناسك، مات سنة ثلاث عشرة ومائتين، روىٰ له الجماعة سوىٰ مسلم **(كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوىٰ فراشه[٥]. أي كان لا ينام طول الليل)** فطيُّ الفراش كناية عن ذلك.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ٢١٧، ولفظه: «بت ليلة عند أحمد بن حنبل، فجاء بالماء فوضعه، فلما أصبح نظر إلىٰ الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجل يطلب العلم لا يكون له ورد من الليل»!

(٢) لم أجده عن سفيان، ولكن رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٥ من طريق عيسىٰ بن عبيد الجبيلي قال: سمعت أبا كريمة الكلبي - وكان من عباد أهل الشام - يقول: عند الصباح ... فذكره. ومن طريق أبي نعيم رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٧/ ٣٢٧.

(٣) تهذيب الكمال للمزي ١٤/ ٤٥٨ - ٤٦٧. تقريب التهذيب لابن حجر ص ٥٠٣. الأنساب للسمعاني ٢/ ٣٥٤.

(٤) قال ياقوت في معجم البلدان ٢/ ٣٦٣: «الخريبة، بلفظ تصغير خربة: موضع بالبصرة، وسميت بذلك - فيما ذكره الزجاجي - لأن المرزبان كان قد ابتنىٰ به قصرا وخرب بعده، فلما نزل المسلمون البصرة ابتنوا عنده وفيه أبنية وسموها الخريبة. وقال حمزة: بنيت البصرة سنة ١٤ من الهجرة علىٰ طرف البر إلىٰ جانب مدينة عتيقة من مدن الفرس كانت تسمىٰ: وهشتاباذ أردشير، فخربها المثنىٰ بن حارثة الشيباني بشن الغارات عليها، فلما قدمت العرب البصرة سموها الخريبة، وعندها كانت وقعة الجمل بين علي وعائشة».

(٥) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٤٥. وأورده ابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣٢٣.

(**وكان**) أبو[1] الحسن (**كَهْمَس بن الحسن**) التميمي البصري العابد، مات سنة تسع وأربعين ومائة، روىٰ له الجماعة (**يصلي كل يوم ألف ركعة، ويقول لنفسه: قومي يا مأوىٰ كل شر. فلما ضعُفَ اقتصر علىٰ خمسمائة**) ركعة (**ثم كان يبكي ويقول: ذهب نصف عملي**) رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا أحمد بن الحسين بن نصر، حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقي، حدثني الهيثم بن معاوية، عن شيخ من أصحابه قال: كان كهمس يصلي ألف ركعة في اليوم والليلة، فإذا ملَّ قال لنفسه: قومي يا مأوىٰ كل سوء، فوالله ما رضيتكِ لله ساعةً قط.

(**وكانت ابنة الربيع بن خُثَيم**) كزبير، ابن عائذ بن عبد الله الثوري الكوفي (**تقول له: يا أبتِ**[3]**، ما لي أرىٰ الناس ينامون وأنت لا تنام؟ فيقول: يا ابنتاه، إن أباك يخاف البيات**) أي أن يفجأه العدو ليلاً. رواه البيهقي في الشعب[4] من طريق سعيد بن عبد الله بن الربيع بن خثيم عن عمَّته قالت: كنت أقول لأبي: يا أبتاه، لا تنام. فيقول: يا بُنيَّة، كيف ينام مَن يخاف البيات.

ورواه أبو نعيم في الحلية[5] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا محمد بن عبد الله، حدثني رُسْته، حدثنا أبو أيوب، حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار يقول: قالت ابنة الربيع بن خثيم للربيع: يا أبتِ، ما لك لا تنام والناس ينامون؟ فقال: إن النار لا تدع أباكِ أن ينام.

---

(١) تقريب التهذيب ص ٨١٤.

(٢) حلية الأولياء ٦/ ٢١١.

(٣) كذا في أ، وب، وزعم محقق المنهاج أن النسخ اتفقت علىٰ رسمها هكذا: يا أبة. وقد اعتمدوا في عملهم ما اعتمدتُ من نسخ، فكيف يقال اتفقت النسخ، وهي جزمًا لم تتفق؟!، وانظر: حجة القراءات لابن زنجلة ص٣٥٤، وشرح المفصل لابن يعيش ١/ ٣٥١ (ط دار الكتب العلمية).

(٤) شعب الإيمان ٢/ ٣٠٨.

(٥) حلية الأولياء ٢/ ١١٤ - ١١٥.

(ولمَّا رأت أم الربيع) بن خثيم (ما يلقَىٰ الربيعُ من البكاء والسهر نادته: يا بنيَّ، لعلَّك قتلتَ قتيلاً. قال: نعم يا أمَّاه. قالت: مَن هو حتىٰ نطلب إلىٰ أهله فيعفوا عنك؟ فواللهِ لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك. فيقول: يا أمَّاه، هي نفسي) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا أبو بكر بن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يزيد بن خُنَيس، عن سفيان قال: بلغنا أن أم الربيع كانت تنادي ابنها فتقول: يا بني، يا ربيع، ألا تنام؟ فيقول: يا أمَّه، مَن جنَّ عليه الليلُ وهو يخاف النار حق له أن لا ينام. فلما بلغ ورأت ما يلقَىٰ من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بني، لعلك قد قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا والدتاه، قد قتلت قتيلاً. فقالت: ومَن هذا القتيل يا بني حتىٰ نتحمل إلىٰ أهله فيعفوك؟ واللهِ لو يعلمون ما تلقَىٰ من البكاء والسهر بعدُ لقد رحموك. فقال: يا والدتاه، هي نفسي.

(و) يُحكَىٰ (عن) أبي حفص (عمر ابن أخت بشر بن الحارث) الحافي، حكىٰ عنه أبو بكر المروزي والفتح بن شُخرف (قال: سمعت خالي بشر بن الحارث يقول لأمي) واسمها زبدة بنت الحارث، وكانت من الزاهدات، حكىٰ عنها عَلاَّن القصائدي، وماتت قبل بشر، فقد روىٰ علي بن محمد بن بشران من طريق محمد بن يوسف الجوهري قال: سمعت بشر بن الحارث يقول يوم ماتت أخته: إن العبد إذا قصَّر في الطاعة سلبه الله من يؤنسه[١]. وحكايتها مع أحمد ابن حنبل معروفة[٢] (يا أختي، جوفي) وجعٌ (وخواصري تضرب عليَّ. فقالت له أمي:

---

(١) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٣٤٦، والماليني في الأربعين في شيوخ الصوفية ص ١٥٨ - ١٥٩. ورواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ١/ ٣٨٩ عن يحيىٰ بن المختار عن بشر.

(٢) هذه الحكاية رواها الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٦٢٤ دون أن يسميها، وقد كان لبشر ثلاث أخوات وهن مضغة ومخة وزبدة. قال: «أخبرنا الحسن بن أبي بكر قال: حدثنا أبو علي عيسىٰ بن محمد بن أحمد بن عمر الطوماري قال: سمعت عبد الله بن أحمد بن حنبل يقول: كنت مع أبي يوما من الأيام في المنزل، فدق داق الباب، فقال لي: اخرج فانظر من بالباب. فخرجت فإذا =

يا أخي، تأذن لي حتىٰ أُصلح لك قليلَ حساء بكفٍّ دقيق عندي تتحسَّاه يرم) أي يُصلِح (**جوفَك. فقال لها: ويحكِ! أخاف أن يقول**) لي: (**من أين لك هذا الدقيق؟ فلا أدري أيش أقول له. فبكت أمي، وبكىٰ معها، وبكيت معهم**) وفي نسخة: معهما (**قال عمر: ورأت أمي ما ببشر**) كذا في النسخ، والصواب: ما به (**من شدة الجوع، وجعل يتنفَّس نفسًا ضعيفًا، فقالت له أمي: يا أخي، ليت أمك لم تلدني، فقد واللهِ تقطَّعت كبدي مما أرىٰ بك**) قال: (**فسمعتُه يقول لها: وأنا فليت أمي لم تلدني، وإذ**) قد (**ولدتني لم يدرَّ**) لها (**ثديُها عليَّ. قال عمر: وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار**) أي لِما ترىٰ من شدة اجتهاده ورياضته لنفسه. رواه أبو الحسن ابن جهضم[1] فقال: حدثنا محمد بن عبد الله الزَّيَّات، حدثنا محمد بن مخلد، حدثني الفتح بن شُخرف قال: قال عمر ابن أخت بشر: سمعت خالي بشرًا ... فذكره.

(**وقال الربيع**) قيل: هو ابن زياد الحارثي البصري[2] الذي روىٰ له أبو داود والنسائي (**أتيت أويسًا**) ابن عامر القَرَني (**فوجدته جالسًا**) في مسجده بالكوفة (**قد صلىٰ الفجر، ثم جلس، فجلست**) معه (**فقلت: لا أشغله عن التسبيح، فمكث مكانه حتىٰ صلىٰ الظهر، ثم قام إلىٰ الصلاة حتىٰ صلىٰ العصر، ثم جلس موضعه**)

= امرأة، فقالت لي: استأذن لي علىٰ أبي عبد الله. تعني أبي، فاستأذنته، فقال: أدخلها. فدخلت فجلست فسلمت عليه وقالت له: أنا امرأة أغزل بالليل في السراج، فربما طفئ السراج فأغزل في القمر، فعليَّ أن أبين غزل القمر من غزل السراج؟ فقال لها: إن كان عندكِ بينهما فرق فعليك أن تبيني ذلك. قالت: أنين المريض شكوىٰ؟ قال: أرجو أن لا يكون شكوىٰ، ولكنه اشتكاء إلىٰ الله. فودعته وخرجت، فقال لي: يا بني، ما سمعت قط إنسانا سأل عن مثل هذا، اتبع هذه المرأة فانظر أين تدخل؟ فاتبعتها فإذا قد دخلت إلىٰ بيت بشر بن الحارث، وإذا هي أخته، فرجعت فقلت له، فقال: محال أن تكون مثل هذه إلا أخت بشر».

(١) ابن جهضم له كتابان، الأول هو بهجة الأسرار، والثاني هو أخبار الصالحين ومكاتبتهم وكلاهما مخطوط فيما أعلم.

(٢) بل هو الربيع بن خثيم الكوفي، كما صرح به ابن عساكر في تاريخ دمشق ٩/ ٤٤٤ وابن حبيب النيسابوري في عقلاء المجانين ص ٩٨.

حتىٰ صلىٰ المغرب، ثم ثبت مكانه حتىٰ صلىٰ العشاء، ثم ثبت مكانه حتىٰ صلىٰ الصبح، ثم جلس، فغلبته عيناه، فقال: اللهم إني أعوذ بك من عين نوَّامة ومن بطن لا تشبع. فقلت: حسبي هذا منه، ثم رجعت.

ونظر رجل إلىٰ أويس) بن عامر رحمه الله تعالىٰ (فقال: يا أبا عبد الله، ما لي أراك كأنَّك مريض)؟ وذلك لما رأىٰ من تغيُّر حاله ولونه (فقال: وما لأويس أن لا يكون مريضًا؟ يَطعم المريضُ وأويس غير طاعم، وينام المريض وأويس غير نائم) والصحة إنما تكون من قِبَل الطعام والنوم.

(وقال أحمد بن حرب) النيسابوري الزاهد، روىٰ عن ابن عيينة: (يا عجبًا لمَن يعرف أن الجنة تزيَّنُ فوقه وأن النار تسعَّر تحته كيف ينام بينهما؟!

وقال رجل من النُّسَّاك: أتيت إبراهيم بن أدهم) رحمه الله تعالىٰ (فوجدته قد صلىٰ العشاء، فقعدت أرقبه، فلفَّ نفسه بعباءة، ثم رمىٰ بنفسه) علىٰ الأرض (فلم ينقلب من جنب إلىٰ جنب الليل كله حتىٰ طلع الفجر وأذَّن المؤذِّن، فوثب) قائمًا (إلىٰ الصلاة ولم يُحدِث وضوءًا، فحاك ذلك في صدري، فقلت له: رحمك الله، قد نمتَ الليل كلَّه مضطجعًا ثم لم تجدِّد الوضوء. فقال: كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحيانًا، وفي أودية النار أحيانًا، فهل في ذلك نوم)؟ وهذا هو التفكُّر، وهو سيد العبادات.

(وقال) أبو محمد (ثابت) بن أسلم (البُناني) رحمه الله تعالىٰ: (أدركت رجالاً كان أحدهم يصلي فيعجز عن أن يأتي فراشَه إلا حبوًا)[1] وروىٰ البيهقي في الشعب[2] عن علي بن عثام قال: كان في بني عديٍّ ثلاثون شيخًا لا يأتون فُرُشهم

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤٨١، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٢٥٦، وابن أبي شيبة في مصنفه ١٢/ ٢٧٩ - ٢٨٠. كلهم بلفظ: «كان رجال من بني عدي قد أدركت بعضهم إن كان أحدهم ليصلي حتىٰ ما يأتي فراشه إلا حبوا».

(٢) شعب الإيمان ٤/ ٥٢٥.

إلا زحفًا أو حبوًا.

(وقيل: مكث أبو بكر بن عيَّاش) بن[١] سالم الأسدي الكوفي الحنَّاط المقرئ، قيل: اسمه كنيته، وقيل: اسمه محمد، وقيل غير ذلك إلىٰ ثلاثة عشر قولاً، وقد تقدَّم (أربعين سنة لا يضع جنبه علىٰ فراش، ونزل الماء في إحدىٰ عينيه فمكث عشرين سنة لا يعلم به أهله) قال أبو السُّكَين الطائي: سمعت أبا بكر يقول لابنه، وأراه غرفة[٢]: يا بني، إيَّاك أن تعصي الله عَزَّوَجَلَّ فيها، فإني قد ختمت فيها اثني عشر ألف ختمة. وقال غيره: لما حضرت أبا بكر الوفاةُ بكت ابنته، فقال: يا بنيَّة، لا تبكي، أتخافين أن يعذِّبني الله عَزَّوَجَلَّ وقد ختمت في هذه الزاوية أربعة وعشرين ألف ختمة؟ وقال إبراهيم بن شَمَّاس السمرقندي: سمعت إبراهيم بن أبي بكر قال: لما نزل بأبي الموت قلت: يا أبتِ، ما اسمك؟ قال: يا بني، إن أباك لم يكن له اسم، وإن أباك أكبر من سفيان بأربع سنين، وإنه لم يأتِ فاحشةً قط، وإنه يختم القرآن منذ ثلاثين سنة كل يوم مرة.

(وقيل: كان وِرد) أبي الحسن (سمنون) بن حمزة رحمه الله تعالىٰ (في كل يوم خمسمائة ركعة)[٣] وروىٰ القشيري[٤] بسنده إلىٰ جعفر الخلدي قال: قال أبو أحمد المغازلي: كان ببغداد رجل فرَّق علىٰ الفقراء أربعين ألف درهم، فقال لي سمنون: يا أبا أحمد، أما ترىٰ ما قد أنفق هذا وما قد عمله ونحن ما نجد شيئًا؟ فامضِ بنا إلىٰ موضع نصلي فيه بكل درهم أنفقه ركعةً. فمضينا إلىٰ المدائن فصلَّينا أربعين ألف صلاة[٥].

---

(١) تهذيب الكمال ٣٣/ ١٢٩ - ١٣٥. تاريخ بغداد ١٦/ ٥٤٢ - ٥٥٨.

(٢) في كتاب الجواهر المضية للقرشي ٤/ ٢١: «وقال لابنه إبراهيم وأشار له إلىٰ غرفة: إياك أن تعصي ..».

(٣) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٠/ ٣٢٦ عن أبي أحمد المغازلي.

(٤) الرسالة القشيرية ص ٨٩.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ٣١١ عن أبي أحمد القلانسي، وزاد في آخره: وزرنا قبر سلمان وانصرفنا. ومن طريق أبي نعيم رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٥/ ١٤١ - ١٤٢.

(وعن أبي بكر) بن عيسىٰ الأبهري **(المطوعي)** قال صاحب الحلية[(١)]: كان من المفوِّضين، وتعلو أحوالُه علىٰ السالكين والسائحين، حكىٰ عنه أبو بكر بن طاهر الأبهري **(قال: كان وِردي في شبيبتي في كل يوم وليلة أقرأ فيه «قل هو الله أحد» إحدىٰ وثلاثين ألف مرة، أو أربعين ألف مرة. شك الراوي**[(٢)]**.**

وكان) أبو[(٣)] عَتَّاب **(منصور بن المعتمر)** بن عبد الله بن رُبَيِّعة السُّلَمي الكوفي، قال ابن مهدي: لم يكن بالكوفة أحفظ منه[(٤)]. وهو من أصحاب إبراهيم النخعي، مات سنه اثنتين وثلاثين ومائة، روىٰ له الجماعة **(إذا رأيتَه قلتَ رجل أُصيبَ بمصيبة، منكس الطرف، منخفض الصوت، رَطْب العينين، إن حرَّكتَه جاءت عيناه بأربع، ولقد قالت له أمُّه)** قال أبو بكر بن عيَّاش: وكانت فظَّة غليظة، وكان يبرُّها ويسكت لها[(٥)] **(ما هذا الذي تصنع بنفسك؟ تبكي الليل عامَّته لا تسكت، لعلك يا بني أصبت نفسًا، لعلك قتلت قتيلاً. فيقول: يا أمَّه، أنا أعلم بما صنعت بنفسي)** رواه أبو نعيم في الحلية[(٦)] فقال: حدثنا أبو حامد ابن جبلة، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثنا العباس بن محمد، حدثنا خلف بن تميم، حدثنا [أبو عبد الرحمن، حدثنا] زائدة بن قُدامة أن منصور بن المعتمر صام ستين سنة قام ليلها وصام نهارها، وكان يبكي، فتقول له أمُّه: يا بني، قتلتَ قتيلاً؟ فقال: أنا أعلم

(١) حلية الأولياء ١٠/ ٣٥٢ - ٣٥٣.

(٢) رواه الخطيب في تاريخ بغداد ١٦/ ٤٢٣.

(٣) تهذيب الكمال ٢٨/ ٥٤٦ - ٥٥٥.

(٤) رواه ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٨/ ١٧٧، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢٢/ ١٢٤.

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٥/ ٤٢ وابن الجعد في مسنده ص ٤٨٩ ووكيع في أخبار القضاة ص ٥٨٤ بلفظ: «ربما كنت مع منصور في منزله جالسا، فتصيح به أمه، وكانت فظة غليظة، فتقول: يا منصور، يريدك ابن هبيرة علىٰ القضاء فتأبىٰ عليه؟ وهو واضع لحيته علىٰ صدره ما يرفع طرفه إليها».

(٦) حلية الأولياء ٥/ ٤٠ - ٤١.

بما صنعتُ بنفسي. فإذا كان الصبح كحَّل عينيه ودهن رأسه وبرَّق شفتيه وخرج إلىٰ الناس.

وروىٰ من طريق سفيان بن عيينة أن منصور بن المعتمر قد كان عمشَ من البكاء.

ومن طريق محمد بن عمر، سمعت جريرًا يقول: كانت أم منصور تقول له: يا بني، إنَّ لعينيك عليك حقًّا، ولجسمك عليك حقًّا. فكان يقول لها: دعي عنكِ منصورًا، فإنَّ بين النفختين يومًا طويلاً.

ومن طريق أبي الأحوص قال: قالت ابنةٌ لجار منصور لأبيها: يا أبتِ، أين الخشبة التي كانت في سطح منصور قائمةً؟ قال: يا بنيَّة، ذاك منصور كان يقوم الليل.

ومن طريق العلاء بن سالم العبدي قال: كان منصور يصلي علىٰ سطحه، فلما مات قال غلام لأمه: الجذع الذي كان في سطح آل فلان ليس أراه. قالت: يا بني، ليس ذاك بجذع، ذاك منصور قد مات.

(وقيل لعامر بن عبد الله) بن عبد قيس العنبري البصري التابعي العابد، وهو المعروف بعامر بن عبد قيس، وقد تقدم ذِكرُه في هذا الكتاب في موضعين، ولم أكن ظفرت بترجمته، فلما وصلت إلىٰ هنا رأيته في الحلية[1]، قال: وهو أول مَن عُرف بالنسك واشتهر من عُبَّاد التابعين بالبصرة، فقدَّمناه علىٰ غيره من الكوفيين؛ لتقدُّم البصرة علىٰ الكوفة، بُنيت قبل الكوفة بأربع سنين، وكذلك أهل البصرة بالنسك والعبادة أشهر وأقدم من الكوفيين، وكان عامر بن عبد قيس قد تخرَّج علىٰ أبي موسىٰ الأشعري في النسك والتعبُّد، ومنه تلقَّىٰ القرآن، وعنه أخذ هذه الطريقة **(كيف صبرُك علىٰ سهر الليل وظمأ الهواجر؟ فقال: هل هو إلا أني**

---

(١) السابق ٢/ ٩٤.

صرفت طعام النهار إلىٰ الليل، ونوم الليل إلىٰ النهار، وليس في ذلك خطير أمر. وكان[١] يقول: ما رأيت مثل الجنة نام طالبُها، ولا مثل النار نام هاربها. وكان إذا جاء الليل قال: أذهب حرُّ النار النومَ. فما ينام حتىٰ يصبح، فإذا جاء النهار قال: أذهب حرُّ النار النومَ. فما ينام حتىٰ يمسي، فإذا جاء الليل قال: مَن خاف أدلج، وعند الصباح يحمد القومُ السُّرَي) قوله: ما رأيت مثل الجنة ... الخ، هو حديث مرفوع من رواية أبي هريرة، رواه ابن المبارك في الزهد[٢] والترمذي[٣] – وضعَّفه – وأبو نعيم في الحلية[٤] والبيهقي في الشعب[٥] بلفظ: «ما رأيت مثل النار نام هاربُها، ولا مثل الجنة نام طالبها».

وقوله «مَن خاف أدلج» هو أيضًا حديث مرفوع من رواية أبي هريرة وأبيِّ ابن كعب بزيادة: «ومَن أدلج بلغ المنزلَ». فحديث أبي هريرة رواه الترمذي[٦] – وقال: حسن غريب – والرامَهُرمزي في الأمثال[٧] والحاكم[٨] والبيهقي[٩]. وحديث أبيِّ بن كعب رواه أبو نعيم في الحلية[١٠] والحاكم[١١].

---

(١) من هنا إلىٰ قوله (يحمد القوم السرىٰ) رواه هناد في الزهد ١/ ٢٩١، والبلاذري في أنساب الأشراف ١٣/ ٢١.

(٢) الزهد والرقائق ص ٥٥.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٣٤٧.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ١٧٨.

(٥) شعب الإيمان ١/ ٦٠٠ - ٦٠١.

(٦) سنن الترمذي ٤/ ٢٤١.

(٧) أمثال الحديث ص ١٨٦.

(٨) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٤٩.

(٩) شعب الإيمان ٢/ ٢٦٦، ١٣/ ١٥٠.

(١٠) حلية الأولياء ٨/ ٣٧٧.

(١١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٤/ ٤٤٩.

وقوله «عند الصباح يحمد القومُ السُّرَىٰ» من الأمثال المشهورة[١].

وقال أبو نعيم في الحلية[٢]: حدثنا حبيب بن الحسن، حدثنا أبو شعيب الحَرَّاني، حدثنا خالد بن يزيد العُمَري، حدثنا عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، عن علقمة بن مرثد قال: انتهىٰ الزهد إلىٰ ثمانية: عامر بن عبد الله بن عبد قيس، وأويس القَرَني، وهرم بن حيان، والربيع بن خُثَيم، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وأبي مسلم الخولاني، والحسن بن أبي الحسن. فأما عامر ابن عبد الله فكان يقول: في الدنيا الهموم والأحزان، وفي الآخرة النار والحساب، فأين الراحة والفرح ... ثم ساقه، وفيه: وكان يبيت قائمًا، ويظل صائمًا، ولقد كان إبليس يلتوي في موضع سجوده، فإذا ما وجد ريحه نحَّاه بيده ثم يقول: لولا نتنك لم أزل عليك ساجدًا. وهو يتمثَّل كهيئة الحية، ورأيته وهو يصلي فيدخل تحت قميصه حتىٰ يخرج من كمِّه وثيابه فلا يحيد، فقيل له: لِمَ لا تنحِّي الحيةَ؟ فيقول: واللهِ إني لأستحي من الله أن أخاف شيئًا غيره، واللهِ ما أعلم بها حين تدخل ولا حين تخرج. وقيل له: إن الجنة تُدرَك بدون ما تصنع، وإن النار تُتَّقَىٰ بدون ما تصنع. فيقول: لا، حتىٰ لا ألوم نفسي. وكان يقول: ما أبكي علىٰ دنياكم رغبةً فيها، ولكن أبكي علىٰ ظمأ الهواجر وقيام ليل الشتاء.

(**وقال بعضهم: صحبت عامر بن عبد القيس**) هو عامر بن عبد الله الذي تقدَّم ذِكرُه، يُعرَف بجدِّه (**أربعة أشهر، فما رأيتُه نام بليل ولا نهار**)[٣] روىٰ ابن أبي الدنيا في محاسبته[٤] عن محمد بن يحيىٰ الأزدي، حدثنا جعفر بن أبي جعفر الرازي، عن أبي جعفر السائح، أخبرنا أبو وهب وغيره يزيد بعضهم علىٰ بعض في

(١) وقد تقدم الكلام عليه في كتاب تهذيب النفس.
(٢) حلية الأولياء ٢/ ٨٧ - ٨٨.
(٣) رواه أحمد في الزهد ص ١٧٩.
(٤) بل في كتاب الأولياء ص ٤١، ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ٨٨ - ٨٩.

الحديث: أن عامر بن عبد قيس كان من أفضل العابدين، وفرض علىٰ نفسه كل يوم ألف ركعة، يقوم عند طلوع الشمس، فلا يزال قائمًا إلىٰ العصر، ثم ينصرف وقد انتفخت ساقاه وقدماه، فيقول: يا نفس، إنما خُلقتِ للعبادة، يا أمَّارة بالسوء، فواللهِ لأعملنَّ بكِ عملاً لا يأخذ الفِراش منكِ نصيبًا.

(ويُروَىٰ عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال: صلَّيتُ خلف علي ﷺ الفجر، فلما سلَّم انفتل عن يمينه وعليه كآبة، فمكث حتىٰ طلعت الشمس، ثم قلب يده وقال: واللهِ لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ، وما أرىٰ اليوم شيئًا يشبههم، كانوا يصبحون شُعْثًا غُبْرًا صفرًا، قد باتوا لله سُجَّدًا وقيامًا، يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجِباهم، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح، وهملت أعينُهم حتىٰ تبلَّ ثيابهم، وكأنَّ القوم باتوا غافلين. يعني مَن كان حوله) رواه أبو نعيم في الحلية[١] فقال: حدثنا محمد بن جعفر وعلي بن أحمد قالا: حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يزيد أبو هشام، حدثنا المحاربي، عن مالك بن مِغول، عن رجل من جُعْفي[٢]، عن السُّدِّي، عن أبي أراكة قال: صلىٰ عليٌّ ﷺ الغَداة، ثم لبث في مجلسه حتىٰ ارتفعت الشمس قيد رمح كأنَّ عليه كآبة، ثم قال: لقد رأيت أثرًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فما أرىٰ أحدًا يشبههم، واللهِ إن كانوا لَيصبحون شُعْثًا غبرًا صفرًا، بين أعينهم مثل رُكَب المعزىٰ، قد باتوا يتلون كتاب الله، يراوحون بين أقدامهم وجِباههم، إذا ذُكر الله مادوا كما تميد الشجرة في يوم ريح فانهملت أعينُهم حتىٰ تبلَّ واللهِ ثيابَهم، واللهِ لكأنَّ القوم باتوا غافلين.

(وكان أبو[٣] مسلم) عبد الله بن ثُوَب **(الخَوْلاني)** اليماني، من زهَّاد التابعين،

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٧٦.

(٢) جعفي: بطن من مذحج، من القحطانية، وهو جعفي بن سعد العشيرة بن مالك بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب. معجم قبائل العرب ١/ ١٩٥.

(٣) تهذيب الكمال ٣٤/ ٢٩٠ - ٢٩١.

نزل الشام، وسكن داريًّا، روىٰ له الجماعة إلا البخاري (**قد علَّق سوطًا في مسجد بيته يخوِّف به نفسَه، وكان يقول لنفسه: قومي، فواللهِ لأزحفنَّ بكِ زحفًا حتىٰ يكون الكلل منكِ لا مني. فإذا دخلته الفترةُ تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول: أنت أَولىٰ بالضرب من دابَّتي**) رواه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا أحمد بن سِنان، حدثنا أبو العباس السَّرَّاج، حدثنا الوليد بن شجاع، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة قال: كان من أمر أبي مسلم الخولاني أنه علَّق سوطا في مسجده ويقول: أنا أَولىٰ بالسوط من الدواب. فإذا دخلته فترةٌ شق ساقه سوطًا أو سوطين.

(**وكان يقول: أيظن أصحاب محمد ﷺ أن يستأثِروا به دوننا؟! كلاَّ، واللهِ لنزاحمنَّهم عليه زحامًا حتىٰ يعلموا أنهم قد خلَّفوا وراءهم رجالاً**) وقال له قائل حين كبر ورقَّ: لو قصرت عن بعض ما تصنع. فقال: أرأيتم لو أرسلتم الخيل في الحلبة ألستم تقولون لفارسها: دَعْها وارفقْ بها، حتىٰ إذا رأيتم الغاية فلا تستبقوا منها شيئًا؟ قالوا: بلىٰ. قال: فإني أبصرت الغاية، وإن لكل ساعٍ غايةً، وغاية كل ساعٍ الموت، فسابق ومسبوق[2].

(**وكان صفوان**[3] **بن سليم**) المدني، أبو عبد الله، وقيل: أبو الحارث، القرشي الزُّهري، الفقيه، العابد، وأبوه سليم مولىٰ حميد بن عبد الرحمن بن عوف. قال

---

(١) حلية الأولياء ٢/ ١٢٧. ورواه أبو داود في الزهد ص ٣٩٠ بلفظ: «كان أبو مسلم الخولاني يعلق سوطه في مسجده يخوف به نفسه، فإذا دخلته فترة تناوله ثم ضرب به ساقه، ثم يقول: أنت أحق بالضرب من دابتي. فإذا غلبه النوم قال: منك لا مني».

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٢٣. ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ٤١٤ حتىٰ قوله (أبصرت الغاية). ورواه بنحوه: ابن أبي الدنيا في قصر الأمل ص ١٣٠، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٨٢.

(٣) تهذيب الكمال ١٣/ ١٨٤ - ١٩١. الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٧/ ٥١١. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٤/ ٤٢٣ - ٤٢٤. تاريخ دمشق ٢٤/ ١٢١ - ١٣٧.

أحمد: هو يُستسقَىٰ بحديثه، وينزل القَطْر من السماء بذكره. وقال مرةً: هو ثقة، من خيار عباد الله الصالحين. قال الواقدي وغيره: مات سنة ١٣٢ عن اثنتين وسبعين سنة. روىٰ له الجماعة **(قد تعقَّدت ساقاه من طول القيام)** في الصلاة **(وبلغ من الاجتهاد ما لو قيل له القيامة غدًا ما وُجِد متزايدًا)** رواه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا الحسين بن علي الورَّاق، حدثنا عبيد الله بن محمد بن عبد العزيز، حدثنا محمد بن يزيد الآدمي، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض قال: رأيت صفوان بن سليم ولو قيل له غدًا القيامة ما كان عنده مزيد علىٰ ما هو عليه من العبادة.

(وكان إذا جاء الشتاء اضطجع علىٰ السطح ليضربه البرد، وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر) والغم **(فلا ينام)** رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبد الله بن محمد بن جعفر، حدثنا جعفر الفريابي، حدثنا أبو أميَّة، حدثنا يعقوب بن محمد، حدثنا سليمان بن سالم قال: كان صفوان بن سليم في الصيف يصلي بالليل في البيت، فإذا كان في الشتاء صلىٰ في السطح لئلاَّ ينام.

حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن إدريس، حدثنا علي بن الحسين الهسنجاني، حدثنا إسحاق بن محمد الفَرَوي، حدثنا مالك بن أنس قال: كان صفوان بن سليم يصلي في الشتاء في السطح، وفي الصيف في بطن البيت، يتيقَّظ بالحر والبرد حتىٰ يصبح، ثم يقول: هذا الجهد من صفوان، وأنت أعلم به. وإنه لَترم رجلاه حتىٰ تعود مثل السَّقَط من قيام الليل وتظهر فيها عروق خضر.

(وإنه مات وهو ساجد) رواه أبو نعيم في الحلية فقال: حدثنا عبد الله بن محمد، حدثنا محمد بن أحمد بن أيوب المقري، حدثنا أبو بكر بن صدقة، حدثنا أحمد بن يحيىٰ الصوفي، حدثنا أبو غسَّان مالك بن إسماعيل قال: سمعت سفيان بن عيينة يقول، وأعانه علىٰ بعض الحديث أخوه محمد، قال: آلَىٰ

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ١٥٩.

صفوانُ بن سليم أن لا يضع جنبه علىٰ الأرض حتىٰ يلقَىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فلما حضره الموتُ وهو منتصب قالت له ابنته: يا أبتِ، أنت في هذه الحالة لو ألقيتَ نفسك. قال: إذًا يا بنيَّة ما وفَّيتُ له بالقول.

وزاد المزي في التهذيب من طريق سفيان أنه مكث علىٰ ذلك أكثر من ثلاثين سنة. ومن طريق غيره: أربعين سنة. قال: فلما حضرته الوفاةُ واشتد به النزعُ والعَلَز[1] [وهو جالس] قالت ابنته: يا أبتِ، لو وضعتَ جنبك. فقال: يا بنيَّة، إذًا ما وفَّيت لله عَزَّوَجَلَّ بالنذر والحلف. فمات وإنه لَجالسٌ. قال سفيان: فأخبرني الحفَّار الذي يحفر قبور أهل المدينة قال: حفرت قبر رجل، فإذا أنا قد وقعت علىٰ قبر، فوافيت جمجمة، فإذا السجود قد أثَّر في عظام الجمجمة، فقلت لإنسان: قبر مَن هذا؟ فقال: أوَ ما تدري؟ هذا قبر صفوان بن سليم.

(**وأنه كان يقول**) في دعائه: (**اللهم إني أحب لقاءك فأحِبَّ لقائي**)[2] ينزع بذلك إلىٰ ما ورد في الخبر: «مَن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه».

(**وقال القاسم**[3] **بن محمد**) بن أبي بكر الصدِّيق القرشي التيمي، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الرحمن، المدني، الفقيه، الإمام، الورِع، الثقة. قال البخاري[4]: قُتل أبوه قريبًا من سنة ست وثلاثين بعد عثمان. وبقي القاسم يتيمًا في حِجر عائشة. وكان أشبه الناس بجدِّه، وكان أعلم الناس بحديث عائشة، مات سنة ست ومائة[5]، روىٰ له الجماعة (**غدوت يومًا، وكنت إذا غدوت بدأت بعائشة** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) وهي عمَّته،

---

(١) أي قلق الموت وكربه. وانظر: تاج العروس ١٥/ ٢٤٢.

(٢) رواه يعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ ١/ ٦٧٦.

(٣) تهذيب الكمال ٢٣/ ٤٢٧ - ٤٣٦. الطبقات الكبرىٰ لابن سعد ٧/ ١٨٦ - ١٩٣. تاريخ دمشق ٤٩/ ١٥٧ - ١٩٣.

(٤) التاريخ الصغير ١/ ٢٨٨.

(٥) اختلف في سنة وفاته اختلافا كثيرا، وهي بين ١٠١ و ١١٧ هـ.

وهي التي ربَّته في حِجرها بعد موت أبيه (**أسلِّم عليها، فغدوت يومًا إليها فإذا هي تصلي صلاة الضحىٰ، وهي تقرأ**) قوله تعالىٰ: (﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الطور: ٢٧] **وتبكي وتدعو وتردِّد الآية، فقمت**) أنتظر فراغها (حتىٰ مللت، وهي) تبكي وتدعو (كما هي) علىٰ حالها (**فلما رأيت ذلك ذهبت إلىٰ السوق فقلت: أفرغ من حاجتي ثم أرجع، ففرغت من حاجتي ثم رجعت وهي كما هي**) علىٰ حالها الأولىٰ (**تردِّد الآية وتبكي وتدعو**)[1] رواه أبو طالب محمد بن علي العُشاري في جزئه فقال: أخبرنا أبو بكر البرقاني، أخبرنا إبراهيم بن محمد المزكِّي، حدثنا محمد بن إسحاق السَّرَّاج، حدثنا محمد بن عمرو الباهلي، حدثنا أنس بن عياض، حدثنا شيبة بن نِصاح، عن القاسم بن محمد قال: كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلِّم عليها، فغدوت يومًا فإذا هي قائمة تسبِّح وتقرأ: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وتدعو وتبكي وتردِّدها، فقمت حتىٰ مللت القيام، فذهبت إلىٰ السوق لحاجتي، ثم رجعت فإذا هي قائمة تصلي وتبكي، ﵂.

(**وقال محمد**[2] **بن إسحاق**) بن يسار المدني، أبو بكر، ويقال: أبو عبد الله، القرشي المطَّلبي، مولىٰ قيس بن مَخرمة بن المطلب بن عبد مناف، جده يسار من سبي عين التمر[3]. قال ابن معين: ثقة، حسن الحديث[4]. نزل بغداد في سنة خمسين ومائة، وقيل: بعدها[5]. استشهد به البخاري، وروىٰ له مسلم في المتابعات، واحتجَّ

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان ٩/ ١٣٠، وعزاه ابن رجب في الفتح ٤/ ٢٤٧ لابن أبي الدنيا، وأورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ٢/ ٣١، ورواه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٤٧ (ط دار ابن كثير) عن أسماء بنت أبي بكر.

(٢) تهذيب الكمال ٢٤/ ٤٠٥ - ٤٢٩.

(٣) عين التمر: مدينة عراقية تقع غرب مدينة كربلاء، وتبعد عنها حوالي ٤٠ كم.

(٤) رواه عنه الخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ١٢.

(٥) في تهذيب الكمال وطبقات ابن سعد ٩/ ٣٢٣ - ٣٢٤: «خرج من المدينة قديما فأتىٰ الكوفة والجزيرة والري وبغداد فأقام بها حتىٰ مات في سنة إحدىٰ وخمسين ومائة».

به الباقون (**لمَّا ورد علينا عبد الرحمن**[١] **بن الأسود**) بن يزيد ابن قيس النَّخَعي، أبو حفص، ويقال: أبو بكر، الكوفي، ابن أخي عبد الرحمن ابن يزيد، أدرك عمر بن الخطاب، وروىٰ عن أبيه الأسود المتقدم ذِكره، روىٰ عنه مالك بن مِغْوَل ومحمد بن إسحاق بن يسار وأبو إسحاق السبيعي وأبو إسحاق الشيباني وأبو بكر النَّهْشلي، مات سنة ٩٨، روىٰ له الجماعة (**حاجًّا اعتلَّت إحدىٰ قدميه، فقام يصلي علىٰ قدم واحدة حتىٰ صلىٰ الصبح بوضوء العشاء**)[٢] رواه أبو نعيم في الحلية. وروىٰ [المزي] من طريق ميمون أبي حمزة قال: سافر عبد الرحمن بن الأسود ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما. ومن طريق الحكم بن عُتَيبة قال: لما احتضر عبد الرحمن بكىٰ، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: أسفًا علىٰ الصوم والصلاة. قال: ولم يزل يقرأ القرآن حتىٰ مات. قال: فرُؤي له أنه من أهل الجنة. قال الحكم: وما يبعد من ذلك؟ لقد كان يعمل نفسه مجتهدًا لهذا حذرًا من مصرعه الذي صار إليه[٣].

(**وقال بعضهم: ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل.**

وقال علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه: سيما الصالحين: صفرة الألوان من السهر، وعمشُ العيون من البكاء، وذبول الشفاه من الصوم، عليهم غبرة الخاشعين) وروىٰ الشريف الموسوي في «نهج البلاغة» من كلام أمير المؤمنين: شيعتنا الحلماء، العلماء، الذُّبْل الشفاه، الأخيار، الذين يُعرَفون بالرهبانية من [أثر] العبادة[٤].

---

(١) تهذيب الكمال ١٦/ ٥٣٠ - ٥٣٣.

(٢) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ٢٣١.

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين ص ١٤٧، ومن طريقه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٤/ ٢٣٥.

(٤) نص كلام علي رضي الله عنه في نهج البلاغة: «أين القوم الذين دُعوا إلىٰ الإسلام فقبلوه، وقرءوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلىٰ الجهاد فولهوا وله اللقاح إلىٰ أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا زحفا وصفا وصفا، بعض هلك، وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء، =

وأخرجه أبو نعيم في الحلية[١] من قول مجاهد، قال: شيعة علي رضي الله عنه ... فساقه.

(**وقيل للحسن**) البصري رحمه الله تعالىٰ: (**ما بال المتهجِّدين أحسن الناس وجوهًا؟ فقال: لأنهم خلوا بالرحمن، فألبسهم نورًا من نوره**)[٢] رواه أبو نعيم في الحلية.

(**وكان عامر بن**) عبد الله بن (**عبد قيس**) العنبري البصري رحمه الله تعالىٰ، تقدمت ترجمته (**يقول: إلهي، خلقتني ولم تؤامرني، وتميتني ولا تُعلِمُني، وخلقتَ معي عدوًّا وجعلتَه يجري مني مجرىٰ الدم، وجعلتَه يراني ولا أراه، ثم قلتَ لي: استمسِكْ. إلهي، كيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي، في الدنيا الهموم والأحزان، وفي الآخرة العقاب والحساب، فأين الراحة والفرح**)؟ رواه أبو نعيم في الحلية[٣] فقال: حدثنا حبيب بن الحسن، حدثنا أبو شعيب الحَرَّاني، حدثنا خالد بن يزيد العُمَري، حدثنا عبد العزيز بن أبي رَوَّاد، عن علقمة بن مرثد قال: كان عامر بن عبد قيس يقول: في الدنيا الغموم والأحزان، وفي الآخرة النار والحساب، فأين الراحة والفرح؟ إلهي، خلقتني ولم تؤامرني في خلقي، وابتليتني بلايا الدنيا ثم قلتَ لي: استمسِكْ، فكيف أستمسك إن لم تمسكني؟ إلهي، إنك لَتعلمُ أن لو كانت لي الدنيا بحذافيرها ثم سألتنيها لجعلتُها لك، فهَبْ لي نفسي.

= ولا يعزون عن الموتىٰ، مُرْه العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، علىٰ وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخوانىٰ الذاهبون، فحق لنا أن نظمأ إليهم ونعض الأيدي علىٰ فراقهم». شرح نهج البلاغة ٧/ ١٨٦ - ١٨٧.

(١) حلية الأولياء ١/ ٨٦.

(٢) رواه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٤٦ عن عوف الأعرابي. ورواه ابن أبي الدنيا في التهجد وقيام الليل ص ٨٢ والآجري في فضل قيام الليل ص ٩٣ (ط - دار الخضيري بالمدينة المنورة) عن إسماعيل بن مسلم.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٨٧ - ٨٨.

(**وقال جعفر**[١] **بن محمد**) الواسطي الورَّاق المفلوج، نزيل بغداد، صدوق، مات سنة خمس وستين ومائتين (**كان عُتبة**) بن أبان (**الغلام يقطع الليل بثلاث صيحات، وكان إذا صلىٰ العتمة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكَّر، فإذا مضىٰ ثلث الليل صاح صيحة، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يتفكَّر، فإذا مضىٰ الثلث الثاني صاح صيحة، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يتفكَّر، فإذا كان السَّحَر صاح صيحة. قال جعفر بن محمد**) الراوي لهذه الحكاية: (**فحدَّثتُ به بعضَ البصريين**) وفي بعض النسخ: المصريين، بالميم، وهو غلط من النسَّاخ (**فقال: لا تنظر إلىٰ صياحه، ولكن انظر إلىٰ ما كان فيه بين الصيحتين حتىٰ صاح**) رواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا أبو محمد ابن حيَّان، حدثنا إسحاق بن أبي حسان، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا جعفر بن محمد قال: كان عتبة يقطع الليل بثلاث صيحات، يصلي العتمة، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكِّر، فإذا مضىٰ من الليل ثلثه صاح صيحةً، ثم يضع رأسه بين ركبتيه يفكِّر، فإذا مضىٰ ثلثا الليل صاح صيحة، ثم يضع رأسه [بين ركبتيه] يفكِّر، فإذا كان السَّحَر صاح صيحة. قال أحمد: فحدَّثت به عبدَ العزيز فقال: حدَّثتُ به بعضَ البصريين فقال: لا تنظر إلىٰ صيحته، ولكن انظر إلىٰ الأمر الذي كان منه بين الصيحتين.

(**وعن القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زَمْعة**) بن[٣] صالح الجَنَدي اليماني، سكن مكة، روىٰ عن الزهري وسلمة بن وَهْرام وابن طاووس، وعنه وكيع، روىٰ له مسلم مقرونًا بمحمد بن أبي حفصة والترمذي والنسائي وابن ماجه (**نازلاً عندنا بالمحصَّب**): موضع قرب مكة (**وكان له أهل وبنات، وكان يقوم فيصلي ليلاً طويلاً، فإذا كان السَّحَر نادىٰ بأعلىٰ صوته: أيها الرَّكْب المعرِّسون، أكلَّ هذا الليل ترقدون؟ أفلا تقومون فترحلون؟ فيتواثبون، فيُسمَع من ههنا باكٍ،**

(١) تقريب التهذيب ص ٢٠١.
(٢) حلية الأولياء ٦/ ٢٣٤.
(٣) تهذيب الكمال ٩/ ٣٨٦ - ٣٨٩.

ومن ههنا داعٍ، ومن ههنا قارئ، ومن ههنا متوضئ، فإذا طلع الفجر نادىٰ بأعلىٰ صوته: عند الصباح يحمد القومُ السُّرَىٰ) وهو السير آخر الليل، وهو مثل مشهور. رواه ابن أبي الدنيا[1] فقال: حدثني المفضل بن غسَّان، عن مؤمل بن إسماعيل، حدثنا القاسم بن راشد الشيباني قال: كان زمعة نازلاً عندنا ... فذكره.

(**وقال بعض الحكماء**) من المراقبين المجتهدين: (**إن لله عبادًا أنعم عليهم فعرفوه**) أنه المنعم عليهم، لا غيره (**وشرح صدورهم فأطاعوه**) أي انقادت جوارحُهم لطاعته (**وتوكَّلوا عليه**) حق التوكل (**فسلَّموا الخَلق والأمر إليه**) بمقتضَىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] (**فصارت قلوبهم معادنَ**) لاستقرار الأسرار (**لصفاء اليقين، وبيوتًا للحكمة**) تسكن فيها (**وتوابيت للعظمة**) والإجلال والهيبة والتعظيم. والتابوت: الوعاء الذي تُحفَظ فيه نفائس الأمتعة (**وخزائن للقدرة، فهم بين الخلائق مقبلون ومدبرون**) بظواهرهم (**وقلوبهم تجول في الملكوت**) فتشاهد ما فيه من العجائب (**وتلوذ بمحجوب الغيوب**) عن النواظر (**ثم ترجع**) إلىٰ عالَم المُلك (**ومعها طرائف**) أي نوادر (**من لطائف الفوائد**) ونفائس العوائد (**ما لا يمكن واصفًا أن يصفه**) لبعدِه عن دائرة المعقول (**فهم في باطن أمورهم كالديباج حسنًا**) وبهجةً وعزةً (**وهم في الظاهر مناديل مبذولون لمَن أرادهم تواضعًا**) أي بمنزلة المناديل التي يتباذلها الناس ويتمسَّحون بها (**وهذه طريقة لا يُبلَغ إليها بالتكلُّف**) والاجتهاد (**وإنما هو فضل الله يؤتيه من يشاء**) أي مواهب من العناية الأزليَّة لا تُدرَك بالتصنُّع والتكلُّف، ولكن مَن يُسِّر له طريقه فهو علىٰ نور من ربِّه، أولئك[2] مصابيح الدُّجَىٰ، وينابيع الرشد والحَجا، خُصُّوا بخفيِّ الاختصاص، ونُقُّوا من التصنُّع بالإخلاص، كما قال ذو النون المصري يومًا: إن لله لَصفوةً من خلقه، وإن لله لَخيرةً. فقيل له: مَن هؤلاء؟ فقال: هم قوم جعلوا الرُّكَب

(١) ومن طريقه رواه ابن الجوزي في المنتظم ٨/ ٢٤٢ - ٢٤٣.

(٢) حلية الأولياء ١/ ١٣ - ١٦.

لجِباههم وِسادًا، والترابَ لجنوبهم مِهادًا، خالط القرآن لحومَهم ودماءهم، فعزلهم عن الأزواج، وحرَّكهم بالإدلاج، فوضعوه علىٰ أفئدتهم فانفرجت، وضمُّوه إلىٰ صدورهم فانشرحت، وتصدَّعت هِمَمهم به فكدحت، فجعلوا لظلمتهم سراجًا، ولنومهم مِهادًا، ولسبيلهم منهاجًا، ولحُجَّتهم إبلاجًا، يفرح الناس ويحزنون، وينام الناس ويسهرون، ويفطر الناس ويصومون، ويأمن الناس ويخافون، فهم خائفون حذرون وجِلون مشفقون مشمِّرون، يبادرون من الفوت، ويستعدُّون للموت، فارقوا بهجة الدنيا بعين قالية، ونظروا إلىٰ ثواب الآخرة بعين راضية، واشتروا الباقية بالفانية، فنِعم ما اتَّجروا، ربحوا الدارين، وجمعوا الخيرين، واستكملوا الفضلين، فهم خرس فصحاء، عمي بصراء، فعنهم تقصُر الصفاتُ، وبهم تُدفَع النقمات، وعليهم تنزل البركات، فهم أحلىٰ الناس منطقًا ومذاقًا، وأوفىٰ الناس عهدًا وميثاقًا، سراج العباد، ومنار البلاد، ومصابيح الدُّجَىٰ، ومعادن الرحمة، وينابيع الحكمة، وقوام الأمَّة، وأقبَلُ الناس للمعذرة، وأصفحهم بالمغفرة، وأسمحهم بالعطية.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية من طريق مكحول عن عياض بن غنم مرفوعًا في وصف هؤلاء القوم: «مؤنتهم علىٰ الناس خفيفة، وعلىٰ أنفسهم ثقيلة، يدبُّون في الأرض حفاة علىٰ أقدامهم دبيب النمل بغير مرح ولا بذخ ولا صلة، يمشون بالسكينة، ويتقرَّبون بالوسيلة، يلبسون الخلقان، ويتَّبعون البرهان، ويتلون الفرقان، ويقرِّبون القربان، يتوسَّمون العِباد، ويتفكَّرون في البلاد، أجسامهم في الأرض وأعينهم في السماء، أقدامهم في الأرض وقلوبهم في السماء، وأنفسهم في الأرض وأفئدتهم عند العرش، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة».

(وقال بعض الصالحين: بينما أنا أسير في بعض جبال بيت المقدس إذ هبطتُ إلىٰ وادٍ هناك، فإذا أنا بصوت قد علا، وإذا تلك الجبال تجيبه لها دويٌّ عالٍ، فاتَّبعتُ الصوتَ) ومشيت **(فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتفٌّ، وإذا أنا برجل قائم فيها يردِّد هذه الآية: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ إلىٰ قوله:**

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ﴾) وتمامها: ﴿تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ﴾ [آل عمران: ٣٠] (قال: فجلست خلفه أسمع كلامه) ولا يراني (وهو يردِّد هذه الآية إذ صاح صيحةً خرَّ) معها (مغشيًّا عليه، فقلت: وا أسفاه! هذا لشقائي، ثم انتظرت إفاقتَه، فأفاق بعد ساعة، فسمعته وهو يقول: أعوذ بك من مقام الكذابين، أعوذ بك من أعمال البَطَّالين، أعوذ بك من إعراض الغافلين) قال ذلك لمَّا أحسَّ بمَن اطَّلع علىٰ ظاهر حاله، فخاف علىٰ نفسه التصنُّع في عمله فاستعاذ بالله ممَّا ذكر. والكذاب: مَن يخالف ظاهرُه باطنَه. والبَطَّال: مَن صرف عمره في لهو وبطالة ولم يذُقْ معرفة الله تعالىٰ. والغافل: مَن غفل عن شهود أسرار معاني كلام الله تعالىٰ (ثم قال: لك خشعت قلوب الخائفين، وإليك فزعت آمال المقصِّرين، ولعظمتك ذلَّت قلوب العارفين. ثم نفض يده وقال: ما لي وللدنيا، وما للدنيا ولي؟ عليكِ يا دنيا بأبناء جنسك وأُلَّافِ نعيمك) أي الذين يألفون نعيمَك (إلىٰ محبِّيك فاذهبي، وإياهم فاخدعي. ثم قال: أين القرون الماضية)؟ جمع قرن: خمس وسبعون سنة، وقيل: مائة سنة (وأهل الدهور السالفة؟ في التراب يبلون، وعلىٰ) مرِّ (الزمان يفنون، فناديته: يا عبد الله) ناداه بالاسم الأعمِّ؛ لأنه لم يعرف اسمه الخاص (أنا منذ اليوم خلفك أنتظر فراغك. فقال: وكيف يفرغ مَن يبادر الأوقاتَ وتبادره، يخاف سبقها بالموت إلىٰ نفسه؟ أم كيف يفرغ مَن ذهبت أيامه وبقيت آثامه؟ ثم) رجع إلىٰ ربِّه مستغيثًا و(قال: أنت لها ولكل شدة أتوقَّع نزولها) أي أنت المعين لي فيها (ثم لها عني ساعةً، وقرأ) قوله تعالىٰ: (﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ۝٤٧﴾) [الزمر: ٤٧] أي ما لم يكن في بالهم من شدة الحساب والعتاب والحجاب (ثم صاح صيحةً أخرىٰ أشد من الأولىٰ وخرَّ مغشيًّا عليه، فقلت) في نفسي: هو (قد خرجت روحه، فدنوت منه فإذا هو يضطرب، ثم أفاق وهو يقول: من أنا؟ ما خاطري[1]؟ هَبْ لي إساءتي بفضلك، وجَلِّلْني بسترك، واعْفُ عن ذنوبي بكرم وجهك إذا

(١) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ١٩٣: خطري. وكأنه الصواب.

وقفتُ بين يديك. فقلت له: بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كلَّمتني. فقال: عليك بكلام مَن ينفعك كلامُه، ودَعْ كلام مَن أوبقته ذنوبُه) أي أسرتْه وأهلكتْه (إني لفي هذا الموضع منذ شاء الله أجاهد إبليس ويجاهدني، فلم يجد عونًا عليَّ ليخرجني ممَّا أنا فيه) من التخلِّي والانفراد (غيرك، فإليك عني يا مخدوع، فقد عطَّلتَ عليَّ لساني) أي شغلتَه عن ذكر ربِّي ومناجاته (وميَّلتَ إلىٰ حديثك شعبةً من قلبي، وأنا أعوذ بالله من شرِّك، ثم أرجو أن يعيذني من سخطه، ويتفضَّل عليَّ برحمته. قال) الراوي: (فقلت: هذا وليٌّ لله) تعالىٰ (أخاف أن أشغله) عن الله (فأعاقَب في موضعي هذا) فإن مَن شغل المشغولَ بالله قطعه الله (فانصرفت وتركته.

وقال بعض الصالحين) من أهل المراقبة: (بينما أنا أسير في مسير لي إذ مِلتُ إلىٰ شجرة لأستريح تحتها) وأستظلَّ بظلِّها (فإذا أنا بشيخ قد أشرف عليَّ، فقال لي: يا هذا، قمْ فإن الموت لم يمُتْ. ثم هام علىٰ وجهه، فاتبعته، فسمعته وهو يقول: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧] اللهم باركْ لي في الموت. فقلت: وفيما بعد الموت. فقال: مَن أيقن بما بعد الموت شمَّر مِئْزَر الحذر) أي جدَّ واجتهد فيما خُلِق له (ولم يكن له في الدنيا مستقَرٌّ. ثم) رجع إلىٰ مراقبته ومناجاته و(قال: يا مَن لوجهه عَنَت الوجوهُ بَيِّضْ وجهي بالنظر إليك، واملأ قلبي من المحبة لك، وأجِرْني من ذلَّة التوبيخ غدًا عندك، فقد آنَ لي الحياءُ منك، وحانَ لي الرجوعُ عن الإعراض عنك. ثم قال: لولا حلمك لم يسعني أجلي، ولولا عفوك لم ينبسط فيما عندك أملي. ثم مضىٰ وتركني[1].

وقد أنشدوا في هذا المعنىٰ) أي في وصف المجتهدين:

(نحيل الجسم مكتئب الفؤاد ... تراه بقُنَّة أو بطن وادِ)

---

(١) روىٰ أبو نعيم نحوه في حلية الأولياء ١٠/ ٢١. وكذلك روىٰ ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ٣٣ - ٣٤ (ط - دار الكتب العلمية) نحوه.

القُنَّة بالضم: وادٍ في ا لجبل

(ينوح علىٰ معاصٍ فادحات   يكدِّر ثقلُها صفوَ الرقاد)

فادحات: أي ثقيلات

(فإن هاجت مخاوفُه وزادت   فدعوتُه أغثني يا عمادي
فأنت بما ألاقيه عليم   كثير الصفح عن زَلَل العِباد[1]

وقيل) في هذا المعنىٰ (أيضًا:

ألذُّ من التلذُّذ بالغَواني   إذا أقبلن في حُلَل حِسان
منيب فرَّ من أهل ومال   يسبح إلىٰ مكان من مكان)

المنيب هو التائب الراجع إلىٰ ربِّه

(ليخمل ذِكرُه ويعيش فردًا   ويظفر في العبادة بالأماني)

أي ليخفىٰ ذِكرُه بين الناس، ولا يُشار إليه، ويعيش منفردًا بربِّه، ويجد حلاوة في طاعته

(تلذُّذه التلاوة أين ولَّىٰ   وذِكرٌ بالفؤاد وباللسان
وعند الموت يأتيه بشير   يبشِّر بالنجاة من الهوان
فيدرك ما أراد وما تمنَّىٰ   من الراحات في غرف الجنان)[2]

وهؤلاء[3] الذين وصفهم ذو النون بما سبق ذِكرُه نظروا إلىٰ ثواب الله بأنفُس تائقة وعيون رامقة وأعمال موافقة، فحلُّوا عن الدنيا مَطِيَّ رِحالهم، وقطعوا منها

---

(١) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذه الأبيات.

(٣) حلية الأولياء ١/ ١٥.

حبال آمالهم، لم يدَعْ لهم خوفُ ربهم من أموالهم تليدًا ولا عتيدًا، أفتراهم لم يشتهوا من الأموال كنوزها، ولا من الأوبار خزوزها، ولا من المطايا عزيزَها، ولا من القصور مشيدها؟ بلىٰ، ولكنهم نظروا بتوفيق الله لهم وإلهامه إياهم فحرَّكهم ما عرفوا بصبر أيام قلائل، فضمُّوا أبدانهم عن المحارم، وكفُّوا أيديهم عن ألوان المطاعم، وهربوا بأنفسهم عن المآثم، فسلكوا من السبيل رشاده، ومهَّدوا للرشاد مِهادَه، فشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، هابوا الموت وسكراته وكرباته وفجعاته، ومن القبر وضِيقه ومنكر ونكير ومن ابتدارهما وانتهارهما وسؤالهما، ومن المقام بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ.

(**وكان كرز بن وبرة**) الحارثي، قال صاحب الحلية[(١)]: كوفي الأصل، سكن جرجان، ويُعَدُّ في أتباع تابعي أهل الكوفة، له الصيت البليغ والمكان الرفيع في النسك والتعبُّد، وكان تغلب عليه المؤانسةُ والمشاهدة فيشهده شهيُّ الملاطفات ويؤنسه خفيُّ المخاطبات، روىٰ عن طاووس وعطاء والربيع بن خثيم ومحمد ابن كعب القُرَظي وغيرهم (**يختم القرآن في كل يوم ثلاث مرات**) قال أبو نعيم في الحلية: حدثنا أبو محمد ابن حيَّان، حدثنا أحمد بن الحسين الحَذَّاء، حدثنا أحمد بن إبراهيم، حدثني سعيد أبو عثمان، سمعت ابن عيينة يقول: قال ابن شبرمة: سأل كرز بن وبرة ربَّه أن يعطيه اسمه الأعظم علىٰ أن لا يسأل به شيئًا من الدنيا، فأعطاه الله ذلك، فسأله أن يقوَىٰ حتىٰ يختم القرآن في اليوم والليلة ثلاث مرات.

وقال عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد[(٢)]: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا محمد بن فضيل بن غزوان، عن أبيه قال: دخلت علىٰ كرز بن وبرة بيته، فإذا عند مصلاَّه حصيرة قد ملأها تبنًا وبسط عليها كساءً من طول القيام، فكان يقرأ [القرآن]

(١) السابق ٥/ ٧٩ - ٨٣.

(٢) الزهد ص ١٣٨.

في اليوم والليلة ثلاث ختمات[١].

(ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة) قال عبد الله بن أحمد بسنده السابق إلىٰ فضيل بن غزوان قال: كان لكرز عند المحراب عود يعتمد عليه إذا نعس.

وروىٰ أبو نعيم من طريق خلف بن تميم عن أبيه قال: ما رأيت في هذه الأمَّة أعبد من كرز، كان لا يفتر يصلي في المحمل، فإذا نزل من المحمل افتتح الصلاة.

ومن طريق فضيل بن غزوان قال: لم يرفع كرز رأسه إلىٰ السماء أربعين سنة.

ومن طريق سفيان بن عيينة قال: سمعت ابن شبرمة يقول: قلت لابن هُبَيرة:

لو شئتُ كنتُ ككرز في تعبُّده ... أو كابن طارق حول البيت في الحرم
قد حالَ دون لذيذ العيش خوفُهما ... وسارعا في طلاب الفوز والكرم

فقال لي ابن هبيرة: مَن كرز وابن طارق؟ قال: قلت: أما كرز فكان إذا كان في سفر واتخذ الناس منزلاً اتخذ هو منزلاً للصلاة، وأما ابن طارق فلو اكتفىٰ أحد بالتراب كفاه كفٌّ من تراب.

وقد تقدَّم له ذِكرٌ في كتاب الحج.

وقال صاحب القوت[٢] بعد أن أورد شيئًا من مجاهداته: **(فقيل له: قد أجهدت نفسك)** في العبادة **(فقال: كم عمر الدنيا؟ فقيل: سبعة آلاف سنة. فقال: فكم مقدار يوم القيامة؟ فقيل: خمسون ألف سنة. فقال: كيف يعجز أحدكم أن يعمل سُبْع يوم حتىٰ يأمن ذلك اليومَ)**؟! ولفظ القوت: أما يرضىٰ عبدٌ أن يعمل

---

(١) في الزهد وحلية الأولياء: مرات.

(٢) قوت القلوب ٣/ ١٣٧٢.

سبعة آلاف سنة وينجو من يوم مقداره خمسون ألف سنة؟ زاد المصنف: **(يعني أنك لو عشتَ عمر الدنيا واجتهدت)** في العبادة **(سبعة آلاف سنة وتخلَّصت من)** هول **(يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربحك كثيرًا، وكنت بالرغبة فيه جديرًا، فكيف وعمرك قصير، والآخرة لا غاية لها)**.

ومن ذلك ما أورده البيهقي في الشعب[١] من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يصلي حتىٰ ترم قدماه. رواه أبو زيد الهَرَوي عن شعبة عن الأعمش عن أبي صالح عنه.

قال: وقال أبو زيد: رأيت شعبة يصلي حتىٰ ترم قدماه.

وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال: كان عمر بن الخطاب يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي، حتىٰ إذا كان في آخر الليل أيقظ أهله للصلاة.

وعن نافع قال: كان ابن عمر يصلي عامة الليل.

وعن حميد بن هلال قال: كان مسلم بن يسار إذا قام يصلي كأنَّه ثوب ملقًىٰ.

وعن عبد الله بن مسلم قال: كان سعيد بن جبير إذا قام إلىٰ الصلاة كأنَّه وتد.

وعن أبي عبد الله بن يعقوب الحافظ قال: ما رأيت أحسن صلاةً من أبي عبد الله محمد بن نصر، كان الذباب يقع علىٰ أذنه فيسيل الدمُ ولا يذبُّه عن نفسه، ولقد كنا نتعجَّب من حُسن صلاته، كان يضع ذقنه علىٰ صدره فينتصب كأنَّه خشبة منصوبة.

وعن الأوزاعي قال: كان علي بن عبد الله بن عباس يسجد كل يوم ألف سجدة.

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ٤٦٦، ٥٠٨، ٥١٤، ٥٢٠، ٥٢٤ - ٥٤٢.

وعن مُرَّة الهَمْداني حين سُئل وقد كبر: ما بقي من صلاتك؟ قال: الشطر خمسون ومائتا ركعة.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: حدثنا أبي، حدثنا موسىٰ بن هلال، حدثنا رجل كان جليسًا لنا وكانت امرأة حسان مولاة له، قال: فحدثتني امرأة حسان ابن أبي سنان قالت: كان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم يخادعني كما تخادع المرأة صبيَّها، فإذا علم أني قد نمت سلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي. قالت: فقلت له: يا أبا عبد الله، كم تعذِّب نفسك، ارفقْ بنفسك. قال: اسكتي ويحكِ! فيوشك أن أرقد رقدة لا أقوم منها زمانًا.

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت أبا سليمان الداراني يقول: بينا أنا ساجد إذ ذهب بي النوم، فإذا أنا بها – يعني بالحوراء – قد ركضتني برجلها فقالت: حبيبي، أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلىٰ المتهجِّدين في تهجُّدهم؟! بؤسًا لعين آثرت لذَّة نومة علىٰ لذَّة مناجاة العزيز، قمْ فقد دنا الفراغ ولقي المحبُّون بعضهم بعضًا، فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرَّة عيني، أترقد عيناك وأنا أُرَبَّىٰ لك في الخدور منذ كذا وكذا؟ فوثبتُ فزعًا، وقد عرقت استحياءً من توبيخها إيَّاي، وإن حلاوة منطقها لفي سمعي وقلبي.

وعن طلق بن معاوية قال: قدم رجل منا يقال له هند بن عوف من سفر، فمهَّدت له امرأته فراشًا، وكانت له ساعة من الليل يقومها، فنام عنها حتىٰ أصبح، فحلف لا ينام علىٰ فراش أبدًا.

وعن أبي الحسن علي بن المديني قال: دخلت علىٰ امرأة عبد الرحمن بن مهدي، وكنت أزورها بعد موته، فرأيت سوادًا في القبلة، قالت: هذا موضع [استراحة] عبد الرحمن، كان يصلي بالليل، فإذا غلبه النوم وضع جبهته علىٰ هذا الموضع.

وعن معاذة العَدَوية قالت: ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلىٰ فراشه إلا حبوًا، يقوم حتىٰ يفتر عن الصلاة.

وعن [حماد بن] جعفر بن زيد العبدي أن أباه أخبره قال: خرجنا في غزوة إلىٰ كابُل، وفي الجيش صلة بن أشيم. قال: فنزل الناس عند العتمة، فقلت: لأرمقنَّ عمله فأنظر ما يذكر الناس من عبادته، فصلىٰ العتمة، ثم اضطجع، فالتمس غفلة الناس، حتىٰ إذا قلتُ هدأت العيون وثب فدخل غيضة قريبة منه، ودخلت في أثره، فتوضأ، ثم قام يصلي فافتتح. قال: وجاء أسد حتىٰ دنا منه، فصعدت في شجرة. قلت: أفتراه التفت [إليه أو عدَّه جروًا] حتىٰ سجد، فقلت: الآن يفترسه فلا شيء. فجلس، ثم سلَّم، فقال: أيها السبع، اطلب الرزق من مكان آخر. فولَّىٰ وإنَّ له زئيرًا أقول تصدع الجبال منه، فما زال كذلك يصلي، حتىٰ إذا كان عند الصبح جلس، فحمد الله بمحامد لم أسمع بمثلها إلا ما شاء الله، ثم قال: اللهم إني أسألك أن تجيرني من النار، أوَ مِثلي يجترئ أن يسألك الجنة؟ ثم رجع فأصبح كأنَّه بات علىٰ الحشايا، وأصبحتُ وبي من الفترة شيء الله به أعلم. قال: فلما دنونا من أرض العدو قال الأمير: لا يشذَّنَّ أحد من العسكر. قال: فذهبت بغلته – يعني بغلة صلة – بثقلها، فأخذ يصلي، فقالوا له: إن الناس قد ذهبوا. قال: إنما هما خفيفتان. قال: فدعا ثم قال: اللهم إني أقسم عليك أن تردَّ عليَّ بغلتي وثقلها. قال: فجاءت حتىٰ قامت بين يديه، فلما لقينا العدوَّ حمل هو وهشام بن عامر فصنعا بهم طعنًا وضربًا وقتلاً. قال: فكُسر ذلك [اليوم] العدو وقالوا: إن رجلين من العرب صنعا بنا هذا، فكيف لو قاتلونا؟ فأعطوا المسلمين حاجتهم، فقلت لأبي هريرة: إن هشام بن عامر – وكان يجالسه – ألقىٰ بيده إلىٰ التهلُكة. فأخبره خبره، قال: كلاَّ، ولكنه التمس هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠٧﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وعن الأعمش عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ أنه كان يصلي، فإذا دخل

الداخل أتىٰ فراشه فاتّكأ عليه.

وعن منصور أبي أميَّة خادم عمر بن عبد العزيز قال: رأيت عمر بن عبد العزيز وله سَفَطٌ في كوَّة، ومفتاحه في إزاره، فكان يتغفَّلني فإذا نظر أني قد نمت فتح السَّفَط فأخرج منه جُبَّة شعر ورداء شعر فصلىٰ فيهما الليل كلَّه، فإذا نودي بالصبح نزعهما.

وعن السري بن يحيىٰ قال: كان سليمان التيمي في طريق مكة يتوضأ لصلاة العشاء، ثم يصلي الليل كله في محمله حتىٰ الصبح، ثم يصلي الصبح بوضوئه ذلك.

وعن محمد بن عبد الأعلىٰ قال: قال لي المعتمر بن سليمان: لولا أنك من أهلي ما حدَّثتك بذا عن أبي، مكث أبي أربعين سنة يصوم يومًا ويفطر يومًا، ويصلي صلاة الفجر بوضوء العشاء.

وعن سعيد بن عامر قال: كان سليمان التيمي يسبِّح في سجدة وركعة سبعين تسبيحة.

وعن هُشَيم قال: لو قيل لمنصور بن زاذان أن ملك الموت علىٰ الباب ما كان عنده زيادة في العمل. قال: وذلك أنه كان يخرج ويصلي الغَداة في جماعة، ثم يجلس فيسبِّح حتىٰ تطلع الشمس، ثم يصلي إلىٰ الزوال، ثم يصلي الظهر، ثم يصلي إلىٰ العصر، ثم يصلي العصر، ثم يجلس فيسبِّح إلىٰ المغرب، ثم يصلي [المغرب، ثم يصلي] العشاء الآخرة، ثم ينصرف إلىٰ بيته فيكتب عنه في ذلك الوقت.

وعن الحسين بن منصور قال: كان سليمان بن المغيرة إذا قام إلىٰ الصلاة لو أكلت الذبابة وجهه لم يطيِّرها.

قال: وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سمعت أبي يقول: سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول: كنا نؤخِّر اللعب والضحك والحديث إلىٰ أن يدخل أبو عثمان

في وِرده من الصلاة، فإنه كان إذا دخل بيت الخلوة لا يحس بشيء من الحديث وغيره.

وعن الربيع بن سليمان قال: كان الشافعي قد جزَّأ الليلَ ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يكتب، والثلث الثاني يصلي، والثلث الثالث ينام.

وعن أبي خالد الأحمر قال: أكل سفيان ليلة فشبع، فقال: إن الحمار إذا زِيدَ في علفه زِيدَ في عمله. فقام حتىٰ أصبح.

وعن ضمرة بن ربيعة قال: حججنا مع الأوزاعي سنة خمسين ومائة، فما رأيته مضطجعًا علىٰ المحمل في ليل ولا نهار قط، كان يصلي فإذا غلبه النومُ استند إلىٰ القتب.

وعن أحمد بن سلمة قال: سمعت هنَّاد بن السري غير مرة إذا ذكر قبيصة ابن عُقبة قال: الرجل الصالح. وتدمع عيناه، وكان هنَّاد كثير البكاء، وكنت عنده ذات يوم في مسجده، فلما فرغ من القراءة عاد إلىٰ منزله، فتوضأ وانصرف إلىٰ المسجد، وقام علىٰ رجليه يصلي إلىٰ الزوال، وأنا معه في المسجد، ثم رجع إلىٰ منزله، فتوضأ وانصرف إلىٰ المسجد، فصلىٰ بنا الظهر، ثم قام علىٰ رجليه يصلي إلىٰ العصر، ويرفع صوته بالقرآن، ويبكي كثيرًا، ويصلي إلىٰ العصر، ثم صلىٰ بنا العصر، وجاء إلىٰ صحن المسجد، فجعل يقرأ القرآن في المصحف إلىٰ الليل، فصلَّيت معه صلاة المغرب، وقلت لبعض جيرانه: ما أصبره علىٰ العبادة! فقال: هذه عبادته [بالنهار] منذ سبعين سنة، فكيف لو رأيت عبادته بالليل. وما تزوج قط، ولا تسرَّىٰ قط، وكان يقال له: راهب الكوفة.

وعن الأوزاعي قال: خرجت حاجًّا، فدخلت مدينة النبي ﷺ [بليل، فأتيت مسجدَ النبي ﷺ] فإذا شاب بين القبر والمنبر يتهجَّد، فلما طلع الفجر استلقَىٰ علىٰ ظهره، ثم قال: عند الصباح يحمد القوم السُّرَىٰ. فقلت له: يا ابن أخي، لك

ولأصحابك لا للحمَّالين.

وعن داود بن رشيد قال: قام أخ لي في ليلة ظلماء يصلي مع نفسه، فضربه البردُ، وكان رث الثياب [فبكىٰ] ثم سجد، فذهب به النومُ في سجوده، فهتف بي هاتف: أنمناهم وأقمناك وتبكي علينا؟!

وعن أبي محمد الجُرَيري قال: كنت واقفًا علىٰ رأس الجنيد في وقت وفاته، وكان يوم جمعة، وهو يقرأ القرآن، فقلت له: يا أبا القاسم، ارفقْ بنفسك. فقال: يا أبا محمد، ما رأيت [أحدًا] أحوج [إليه] مني في هذا الوقت، وهو ذا تُطوَىٰ صحيفتي.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت جدِّي يقول: دخل أبو العباس ابن عطاء علىٰ الجنيد وهو في النزع [فسلَّم عليه] فلم يردَّ عليه، ثم ردَّ عليه بعد ساعة وقال: اعذرني، فإني كنت في وِردي. ثم حوَّل وجهه إلىٰ القبلة [وكبَّر] ومات.

(فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها، فمهما تمرَّدت نفسك عليك وامتنعت عن المواظبة علىٰ العبادة فطالِعْ أحوال هؤلاء، فإنه قد عزَّ الآن وجودُ مثلهم) بل ومَن يُداني مَن يشابههم **(ولو قدرتَ علىٰ مشاهدة من اقتُدِي بهم)** في أحوالهم **(فهو أنجع في القلب وأبعَثُ علىٰ الاقتداء، فليس الخبر كالمعاينة)** كما ورد في الخبر، وتقدم **(وإذا عجزتَ عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء، فإن لم تكن إبل فمعزَىٰ)** وهو مَثَلٌ مشهور[1] **(وخيِّرْ نفسَك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم)** أي جماعتهم وكثرتهم **(وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك، ولا ترضَ لها أن تنخرط في سلك الحمقىٰ)** وزمرة الأغبياء **(وتَقنع بالتشبُّه بالأغبياء وتؤثِر مخالفةَ العقلاء، فإن حدَّثتك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يُطاق الاقتداء**

---

(١) تقدم الكلام عليه في كتاب الصبر والشكر.

بهم فطالِع أحوالَ النساء المجتهدات وقلْ لها: يا نفس، ألا تستنكفين أن تكوني أقل من امرأة؟ فأخسِسْ برجل يقصر عن) درجة (امرأة في أمر دينها ودنياها).

(ولنذكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات، فقد رُوي عن حبيبة العَدَوية) وكانت امرأة عابدة من البصرة (أنها كانت إذا صلت العتمة قامت علىٰ سطح لها، وشدَّت عليها درعها وخمارها، ثم قالت: إلهي، قد غارت النجوم، ونامت العيون، وغلَّقت الملوك أبوابها، وخلا كلُّ حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك. ثم تُقبِل علىٰ صلاتها) فتصلي ما شاء الله أن تصلي (فإذا طلع الفجر قالت: إلهي، هذا الليل قد أدبر) أي ولّىٰ منصرفًا (وهذا النهار قد أسفر) أي ظهر نوره (فليت شِعري أقبلتَ مني ليلتي فأهنأ أم رددتَها عليَّ فأُعزَّىٰ؟ وعزَّتك لهذا دأبي ودأبك ما أبقيتني، وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحتُه لِما وقع في نفسي من جودك وكرمك)[١] رواه أبو نعيم في الحلية.

(ويُروَىٰ عن عُجردة) بضم العين، وكانت من متعبِّدات البصرة (أنها كانت تحيي الليل) بالصلاة والتسبيح (وكانت مكفوفة البصر، فإذا كان السَّحَر نادت بصوت لها محزون: إليك قطع العابدون دُجَىٰ الليالي يستبِقون إلىٰ رحمتك وفضل مغفرتك، فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين، وأن ترفعني لديك في عِلِّيِّين في درجة المقرَّبين، وأن تُلحِقني بعبادك الصالحين، فأنت أرحم الرحماء وأعظم العظماء وأكرم الكرماء، يا كريم. ثم تخرُّ ساجدةً فيُسمَع لها وجبة، ثم لا تزال تدعو وتبكي إلىٰ الفجر)[٢] رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال يحيىٰ بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة) وكانت من العارفات المتعبِّدات المعاصرات للفضيل بن عياض (فكنت أرىٰ ما تصنع من النياحة

---

(١) رواه السلمي في طبقات الصوفية ص ٤١٤ عن أبي محمد المكي.

(٢) رواه محمد بن نصر في مختصر قيام الليل ص ٩٩ عن رجاء بن مسلم العبدي، وزاد في آخره: وكان ذلك دأبها ثلاثين سنة.

والبكاء، فقلت لصاحب لي: لو أتيناها إذا خلت) بنفسها **(فأمرناها بالرفق بنفسها. فقال: أنت وذاك. قال: فأتيناها، فقلت لها: لو رفقتِ بنفسك وأقصرتِ عن هذا البكاء شيئًا فكان لك أقوىٰ علىٰ ما تريدين. قال: فبكت، ثم قالت: واللهِ لوددت أني أبكي حتىٰ تنفد دموعي، ثم أبكي دمًا حتىٰ لا تبقىٰ قطرة من دم في جارحة من جوارحي، وأنَّىٰ لي بالبكاء؟ فلم تزل تردِّد «وأنَّىٰ لي بالبكاء» حتىٰ غشي عليها)**(١) رواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين عن يحيىٰ بن بسطام ... فذكره.

وقال أبو نعيم في الحلية(٢): حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا إبراهيم بن علي الرازي، حدثنا النضر بن سلمة، حدثنا زهدم بن الحارث، عن فضيل بن عياض قال: قدمت شعوانةُ، فأتيتها فشكوت إليها، وسألتها أن تدعو الله بدعاء، فقالت شعوانة: يا فضيل، أما بينك وبين الله ما إن دعوتَه استجاب؟ قال: فشهق الفضيل شهقة فخرَّ مغشيًّا عليه.

(وقال محمد(٣) **بن معاذ)** بن عبَّاد بن معاذ بن نصر بن حسان العنبري البصري، صدوق عارف، مات سنة ٢٢٣، روىٰ عنه مسلم وأبو داود **(حدثتني امرأة من المتعبِّدات قالت: رأيت في منامي كأنِّي أُدخلت الجنة، فإذا أهل الجنة قيام علىٰ أبوابهم، فقلت: ما شأن أهل الجنة قيام؟ فقال لي قائل: خرجوا ينظرون إلىٰ هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها. فقلت: ومَن هذه المرأة؟ فقيل: أمة سوداء من أهل الأُبُلَّة)** بضم الهمزة والموحدة وتشديد اللام: موضع علىٰ أربع فراسخ من البصرة(٤) **(يقال لها شعوانة. قالت: فقلت: أختي واللهِ)** تعني الأخوَّة

(١) رواه ابن الجوزي في تنوير الغبش ص٢٢٤ (ط دار الشريف بالرياض).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١١٣.

(٣) تهذيب الكمال ٢٦/ ٤٧٣ - ٤٧٤.

(٤) انظر الكلام عنها في: معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٧٦ - ٧٨، وآثار البلاد وأخبار العباد للقزويني ص ٢٨٦ - ٢٨٧ (ط - دار صادر).

في الله (قالت: فبينما أنا كذلك إذ أُقبِلَ بها علىٰ نجيبة تطير بها في الهواء، فلما رأيتُها ناديت: يا أختي، أما ترينَ مكاني من مكانك؟ فلو دعوتِ لي مولاك فألحقني بك. قالت: فتبسَّمت إليَّ وقالت: لم يأنِ لقدومك، ولكن احفظي عني) خصلتين (اثنتين) إحداهما: (ألزمي الحزنَ قلبَك) أي لا يفارقك الحزنُ أبدًا (و) الثانية: (قدِّمي محبة الله علىٰ هواكِ ولا يضرُّكِ متي متِّ) رواه ابن أبي الدنيا.

(وقال عبد الله[1] بن الحسن) بن الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي المدني[2]، أبو محمد، ثقة، جليل القدر، روىٰ له أصحاب السنن، مات سنة خمس وأربعين ومائة عن خمس وسبعين سنة (كانت لي جارية رومية) أي من سبي الروم (وكنت بها معجبًا، فكانت في بعض الليالي نائمة إلىٰ جنبي، فانتبهت فالتمستها فلم أجدها، فقمت أطلبها، فإذا هي ساجدة وهي تقول: بحبك لي إلا ما غفرتَ لي ذنوبي. فقلت لها: لا تقولي: بحبك لي، ولكن قولي: بحبي لك. فقالت: لا يا مولاي، بحبه لي أخرجني من الشرك إلىٰ الإسلام، وبحبه لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيامٌ) رواه ابن أبي الدنيا.

(وقال أبو هاشم القرشي) كذا في النسخ، والصواب: أبو هشام (قدمتْ علينا) مكةَ (امرأةٌ من أهل اليمن يقال لها: سرية، فنزلت في بعض ديارنا. قال: فكنت أسمع لها من الليل أنينًا وشهيقًا، فقلت يومًا لخادم لي: أشرِفْ علىٰ هذه المرأة ماذا تصنع. قال: فأشرف عليها، فما رآها تصنع شيئًا غير أنها لا تردُّ طرفها عن السماء وهي مستقبلة القبلة، وتقول: خلقتَ سرية، ثم غذيتها بنعمتك من

(١) تقريب التهذيب ص ٤٩٩.

(٢) بل هو عبيد الله بن الحسن بن الحصين العنبري قاضي البصرة، كما رواه عنه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٢/ ٦٥٤ والخطيب في تاريخ بغداد ١٢/ ١١ وابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٧١٨. وعندهم في آخر القصة: «وحبه لي أيقظ عيني وأنام عينك. فقلت: اذهبي فأنت حرة لوجه الله. قالت: يا مولاي، أسأت إليَّ، كان لي أجران، وصار لي أجر واحد».

حال إلىٰ حال، وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرِّضة لسخطك بالتوثُّب علىٰ معاصيك فلتة بعد فلتة، أتراها تظن أنك لا ترىٰ سوء فِعالها وأنت عليم خبير وأنت علىٰ كل شيء قدير) رواه أبو بكر ابن أبي الدنيا مع بعض مخالفة وزيادة في الآخر فقال: حدثنا محمد بن الحسين، حدثني عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثنا أبو هشام - رجل من قريش من بني عامر - قال: قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها: سرية، فنزلت في بعض رِباعنا، فكنت أسمع لها من الليل نحيبًا وشهيقًا، فقلت للخادم: أشرفي علىٰ هذه المرأة فانظري ما تصنع. فأشرفت، فإذا هي قائمة، مستقبلة القبلة، رافعة رأسها إلىٰ السماء، فقلت: ما تصنع؟ قالت: ما أراها تصنع شيئًا غير أنها لا تردُّ طرفها عن السماء. فقلت: اسمعي ما تقول. قالت: ما أفهم كثيرًا من قولها، غير أني أسمعها تقول: أراكَ خلقتَ سرية من طينة لازبة، غمرتَها بنعمتك تغذوها من حال إلىٰ حال، وكل أحوالك لها حسنة، وكل بلائك عندها جميل، وهي مع ذلك متعرِّضة لسخطك بالتوثُّب علىٰ معاصيك فلتة في إثر فلتة، أترىٰ أنها تظن أنك لا ترىٰ سوء فعالها؟ بلىٰ، وأنت علىٰ كل شيء قدير. قال: فصرخت وسقطت، ونزلت الجارية فأخبرتني بسقطتها، فلما أصبحنا نظرنا فإذا هي قد ماتت[1].

(وقال ذو النون المصري) رحمه الله تعالىٰ: **(خرجتُ ليلةً من وادي كنعان[2]، فلما علوتُ الوادي إذا سواد مقبل عليَّ وهو يقول: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ٤٧﴾** [الزمر: ٤٧] **ويبكي، فلما قرب مني السواد إذا هي امرأة عليها جُبَّة صوف، وبيدها ركوة، فقالت لي: من أنت؟ غير فزعة مني، قلت: رجل غريب. فقالت: يا هذا، وهل توجد مع الله غربةٌ؟ قال: فبكيت لقولها، فقالت لي: ما الذي أبكاك؟ فقلت: قد وقع الدواء علىٰ داء قد قرحَ فأسرع في نجاحه. قالت:**

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤١٥.

(٢) من أرض الشام، كما في معجم البلدان ٤/ ٤٨٤.

فإن كنت صادقًا فلِمَ بكيتَ؟ قلت: يرحمكِ الله، والصادق لا يبكي؟ قالت: لا. قلت: ولِمَ ذاك؟ قالت: لأن البكاء راحة القلب. فسكتُّ متعجِّبًا من قولها)[1] أي: والصادق في المحبة لا يرتاح إلا بمولاه، والبكاء إنما يعتري في مبادئ الحب قبل تمامه بالصدق.

ويشبه هذه القصةَ ما ذكره ابن السَّرَّاج في مصارع العشَّاق[2]: أخبرنا أبو القاسم عبد العزيز بن علي، حدثنا علي بن عبد الله بن الحسن الهمداني بمكة، حدثنا محمد بن عبد الله الشكلي، حدثني محمد بن جعفر القنطري قال: قال ذو النون: بينما أنا أسير علىٰ ساحل البحر إذ بصرتُ بجارية عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلة ذابلة، فدنوت منها لأسمع ما تقول، فرأيتها متصلة الأحزان بالأشجان، وعصفت الرياح، واضطربت الأمواج، وظهرت الحيتان، فصرختْ، ثم سقطت إلىٰ الأرض، فلما أفاقت نحبت، ثم قالت: سيدي، بك تقرَّب المتقرِّبون في الخَلَوات، ولعظمتك سبَّحت النينان في البحار الزاخرات، ولجلال قُدسك تصافقت الأمواج المتلاطمات، أنت الذي سجد لك سواد الليل وضوء النهار والفلك الدَّوَّار والبحر الزَّخَّار والقمر النوَّار والنجم الزهَّار، وكل شيء عندك بمقدار؛ لأنك الله العلي القهَّار

يـا مؤنـس الأبـرار في خلواتهـم ... يـا خيـر مَـن حطَّـت بـه النُّـزَّال
مَـن ذاق حبَّـك لا يـزال متيَّمًـا ... فـرِح الفـؤادِ متيَّمًـا بَلْبـال
مَـن ذاق حبـك لا يُـرَىٰ متبسِّـمًا ... في طـول حـزن في الحشاشـة عالـي

فقلت لها: زيدينا من هذا. فقالت: إليك عني. ثم رفعت طرفها إلىٰ السماء وقالت:

---

(١) رواه بنحوه: أبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٤١، والخطيب في تاريخ بغداد ٩/ ٣٧٤، وابن عساكر في تاريخ دمشق ١٧/ ٤٠٧.

(٢) مصارع العشاق ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

أحبك حبَّينِ حب الوداد وحبًّا لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الوداد فحبٌّ شُغِلتُ به عن سواكا
وأما الذي أنت أهلٌ له فكشفُك للحُجب حتىٰ أراكا
فما الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم شهقتْ شهقةً فإذا هي قد فارقت الدنيا، فبقيتُ أتعجَّب مما رأيتُ منها، فإذا أنا بنسوة قد أقبلن عليهنَّ مدارع الشعر، فاحتملنها، فغيَّبنها عن عيني، فغسَّلنها، ثم أقبلنَ بها في أكفانها، فقلن لي: تقدَّمْ فصَلِّ عليها. فتقدَّمت فصلَّيت عليها وهنَّ خلفي، ثم احتملنها ومضينَ.

وقد تقدم ذِكرُ هذه القصة مع الأبيات في كتاب المحبة، وهذه الأبيات الأربعة نُسبت إلىٰ رابعة العدوية، وتقدم الكلام عليها.

(**وقال أحمد بن علي: استأذنَّا علىٰ غُفَيرة**) بضم الغين المعجمة، وفي بعض النسخ بالعين المهملة. وكانت من المتعبِّدات من أهل البصرة (**فحجبتنا**) أي منعتنا من الدخول عليها (**فلازمنا البابَ، فلما علمتْ ذلك قامت لتفتح الباب لنا، فسمعتُها وهي تقول: اللهم إني أعوذ بك ممَّن جاء يشغلني عن ذكرك. ثم فتحت الباب، ودخلنا عليها، فقلنا لها: يا أمة الله، ادعي لنا. فقالت: جعل الله قِراكم في بيتي المغفرة. ثم قالت لنا: مكث عطاء السليمي أربعين سنة فكان لا ينظر إلىٰ السماء، فحانت منه نظرةٌ فخرَّ مغشيًّا عليه، فأصابه فتقٌ في بطنه، فيا ليت غفيرة إذ رفعت رأسها لم تعصِ، ويا ليتها إذ عصتْ لم تَعُدْ**) قال أبو نعيم في الحلية[1]: حدثنا أبو محمد ابن حيان، حدثنا أحمد بن الحسين [حدثنا أحمد بن إبراهيم] حدثني أبو عبد الله ابن عبيدة قال: سمعت غفيرة تقول: لم يرفع عطاء رأسه إلىٰ السماء ولم يضحك أربعين سنة، فرفع رأسه مرةً ففزع فسقط ففتق فتقًا في بطنه.

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٢١٨، ٢٢١.

حدثنا أبو بكر ابن مالك، حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني أحمد ابن إبراهيم، حدثنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن مهدي، حدثتني غفيرة العابدة - وكانت قد ذهب بصرُها من العبادة - قالت: كان عطاء إذا بكىٰ بكىٰ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ. قالت غفيرة: وحدثني إبراهيم المحلمي قال: أتيت عطاء السليمي فلم أجده في بيته. قال: فنظرت فإذا هو في ناحية الحجرة جالس، وإذا حوله بللٌ. قال: فظننت أنه أثر وضوء توضأه، فقالت لي عجوز معه في الدار: هذا أثر دموعه.

(وقال بعض الصالحين: خرجت يومًا إلىٰ السوق ومعي جارية حبشية) أي سوداء من سبي الحبش **(فاحتبستُها في موضع بناحية السوق)** أي أمرتها أن تمكث فيه **(وذهبت في بعض حوائجي، وقلت: لا تبرحي حتىٰ أنصرف إليك. قال: فانصرفتُ، فلم أجدها في الموضع، فانصرفت إلىٰ منزلي وأنا شديد الغضب عليها، فلما رأتني عرفت الغضب في وجهي فقالت: يا مولاي، لا تعجل عليَّ، إنك أجلستني في موضع لم أرَ فيه ذاكرًا لله تعالىٰ، فخفت أن يُخسَف بذلك الموضع. فعجبت لقولها وقلت لها: أنت حرَّة)** لوجه الله تعالىٰ **(فقالت: ساءَ ما صنعتَ، كنت أخدمك فيكون لي أجران، وأما الآن فقد ذهب عني أحدهما)** ويقرُب من ذلك ما رواه البيهقي في الشعب[1] عن أبي يوسف يعقوب بن سفيان قال: أخبرني بعض شيوخ أهل الكوفة قال: كان لآل الحسن بن صالح بن حي خادمة تخدمهم، فاحتاجوا إلىٰ بيعها فباعوها، فلما كان في [أول] الليل ذهبت فألحَّت علىٰ مولاها تقيمه وتقول: ذهب الليل، مرةً بعد مرة حتىٰ أضجرته، فصاح بها، فلما أصبحتْ ذهبت إلىٰ عند الحسن فقالت: يا سبحان الله! أما كان يجب عليكم فيما خدمتكم أن تبيعوني من مسلم؟ قال: فقال الحسن: سبحان الله! وما له؟ قالت: انتظرته أن يقوم ليتهجَّد فلم يفعل وألححت عليه فزبرني [وشتمني] قال: فصاح يعلىٰ وقال: أما تعجب من هذه؟ اذهب فتسلَّفْ ثمنها من بعض إخواننا وأعتِقْها.

---

(١) شعب الإيمان ٤/ ٥٣٤.

(وقال ابن العلاء السعدي: كانت لي ابنة عم يقال لها بريرة تعبَّدت، وكانت كثيرة القراءة في المصحف، فكلَّما أتت علىٰ آية فيها ذِكر النار بكت، فلم تزل تبكي حتىٰ ذهبت عيناها من البكاء، فقال بنو عمِّها: انطلِقوا بنا إلىٰ هذه المرأة حتىٰ نعذلها) أي ننصحها (في كثرة البكاء. قال: فدخلنا عليها فقلنا: يا بريرة، كيف أصبحتِ؟ قالت: أصبحنا أضيافًا منيخين بأرض غربة ننتظر متىٰ نُدعَىٰ فنجيب. فقلنا لها: كم هذا البكاء؟ قد ذهبت عيناكِ منه. فقالت: إن يكن لعيني عند الله خير فلا يضرُّهما ما ذهب منهما في الدنيا، وإن كان لهما عند الله شرٌّ فسيزيدهما بكاء أطول من هذا. ثم أعرضت) عنا (قال: فقال القوم: قوموا بنا، فهي واللهِ في شيء غير ما نحن فيه)[1] رواه ابن أبي الدنيا.

(وكانت معاذة[2]) بنت عبد الله (العَدَوية) أم الصَّهْباء البصرية، امرأة صلة ابن أشيم، من العابدات. قال ابن معين: ثقة حجة. وذكرها ابن حبان في كتاب الثقات[3]. روىٰ لها الجماعة. وروىٰ أبو نعيم بسنده إلىٰ سلمة بن حَبَّان العدوي قال: حدثنا الحي أن معاذة العدوية لم توسِّد فِراشًا بعد أبي الصهباء حتىٰ ماتت (إذا جاء النهار تقول: هذا يومي الذي أموت فيه. فما تَطعم حتىٰ تمسي، فإذا جاء الليل

---

(١) ذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٧١٢ عابدة تسمىٰ: بردة الصريمية، وقال: «كانت إذا قيل لها: كيف أصبحت؟ تقول: أصبحنا أضيافا متنجعين بأرض غربة ننتظر إجابة الداعي. عن أشرس أبي شيبان - وكان عابدا من البكائين - عن ثابت البناني أن امرأة من الصدر الأول كان يقال لها بردة، وكانت تكثر البكاء حتىٰ فسد بصرها، فقيل لها: اتقي الله، أما تخافين علىٰ بصرك أن يذهب؟ قالت: دعوني، فإن أكن من أهل النار فأبعدني الله وأبعد بصري، وإن أكن من أهل الجنة فسيبدلني الله عينين خيرا من عيني. وعن موسىٰ بن سعيد - أو غيره - قال: قيل للحسن: يا أبا سعيد، إن ههنا امرأة يقال لها بردة، قد فسدت عيناها من البكاء. فدخل عليها فقال لها: يا بردة، إن لبدنك عليك حقا، وإن لبصرك عليك حقا. قالت: يا أبا سعيد، إن أكن من أهل الجنة فسيبدلني الله بصرا خيرا من بصري، وإن أكن من أهل النار فأبعد الله بصري».

(٢) تهذيب الكمال ٣٥/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

(٣) الثقات ٥/ ٤٦٦.

تقول: هذه الليلة التي أموت فيها. فتصلي حتىٰ تصبح)(١) قال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن الحسين، حدثنا يحيىٰ بن بسطام، حدثنا عمران بن خالد، حدثتني أم الأسود بنت يزيد العدوية - وكانت معاذة قد أرضعتها - قالت: قالت لي معاذة لما قُتل أبو الصهباء وقُتل ولدها: واللهِ يا بنيَّة ما محبَّتي للبقاء في الدنيا للذيذ عيش ولا لروح نسيم، ولكني واللهِ أحب البقاء لأتقرَّب إلىٰ ربِّي بالوسائل لعله يجمع بيني وبين أبي الصهباء وولدِه في الجنة(٢).

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني روح بن سلمة الورَّاق قال: سمعت عفيرة العابدة تقول: بلغني أن معاذة العدوية لما احتضرت للموت بكت ثم ضحكت، فقيل لها: بكيتِ ثم ضحكتِ، فممَّ البكاء وممَّ الضحك رحمكِ الله؟ قالت: أما البكاء الذي رأيتم فإني واللهِ ذكرتُ مفارقة الصيام والصلاة والذِّكر، فكان البكاء لذلك، وأما الذي رأيتم من تبسُّمي وضحكي فإني نظرت إلىٰ أبي الصهباء قد أقبل في صحن الدار وعليه حُلَّتان خضراوان، وهو في نفر واللهِ ما رأيت لهم في الدنيا شبهًا، فضحكت إليه، ولا أراني أدرك بعد ذلك فرضًا. قال: فماتت قبل أن يدخل وقت الصلاة(٣).

وروىٰ أبو نعيم(٤) من طريق أبي خلدة قال: سمعت أبا السوار العدوي يقول لمعاذة العدوية في مسجد بني عديٍّ: تجيء إحداكن المسجد فتضع رأسها وترفع استها، فقالت: ولِمَ تنظر؟ اجعل في عينيك ترابًا ولا تنظر. قال: إني واللهِ ما أستطيع

---

(١) رواه أحمد في الزهد ص ١٧٠ وهناد في الزهد ١/ ٢٩١ عن فضيل بن غزوان بلفظ: «كانت معاذة العدوية إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه. فما تنام حتىٰ تمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها. فلا تنام حتىٰ تصبح. وإذا جاء الشتاء لبست الثياب الرقاق حتىٰ يمنعها البرد من النوم».

(٢) رواه السراج في مصارع العشاق ١/ ٢٠٨، والخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٠٤.

(٣) رواه السراج في مصارع العشاق ١/ ٢٠٩.

(٤) حلية الأولياء ٢/ ٢٥١.

إلا أن أنظر. ثم اعتذرت فقالت: يا أبا السوار، إذا كنتُ في البيت شغلني الصبيانُ، وإذا كنت في المسجد كان أنشط لي. قال: النشاط أخاف عليكِ.

وأبو السوار تابعي ثقة عابد، روىٰ له الشيخان(١).

وقال أحمد في الزهد(٢): حدثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، حدثنا ثابت البُناني أن صلة بن أشيم كان في مغزىٰ له ومعه ابن له، فقال: أي بني، تقدمْ فقاتِلْ حتىٰ أحتسبك. فحمل فقاتل حتىٰ قُتل، ثم تقدم فقُتل، فاجتمعت النساء عند امرأته معاذة العدوية، فقالت: مرحبًا، إن كنتنَّ جئتن لتهنئة فمرحبًا بكنَّ، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن.

قال أبو نعيم(٣): رواه سيَّار عن جعفر عن حميد بن دينار عن صلة بنحوه.

(**وقال أبو سليمان الداراني**) رحمه الله تعالىٰ (**بتُّ ليلةً عند رابعة**) العدوية قدَّس الله سرها (**فقامت إلىٰ محراب لها، وقمت أنا إلىٰ ناحية من البيت، فلم تزل قائمةً**) تصلي وتبكي وتدعو (**إلىٰ السَّحَر، فلما كان السَّحَر قلت: ما جزاء مَن قوَّانا علىٰ قيام هذه الليلة؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له غدًا**) رواه البيهقي في الشعب(٤)، إلا أنه عزاه لجعفر بن سليمان قال: ضفتُ برابعة ذات ليلة، فبدرتْ إلىٰ محرابها، وبدرتُ إلىٰ آخَر، فلم تزل قائمةً حتىٰ أصبحتْ، فقلت لها: ما جزاء مَن قوَّانا علىٰ قيام هذا الليل؟ قالت: جزاؤه أن تصوم له النهار.

(و) يُروَىٰ أنه (**كانت شعوانة**) رحمها الله تعالىٰ (**تقول في دعائها: إلهي، ما أشوقني إلىٰ لقائك، وأعظم رجائي لجزائك، وأنت الكريم الذي لا يخيب لديك أملُ الآمِلين، ولا يبطُل عندك شوقُ المشتاقين. إلهي، إن كان دنا أجلي ولم يقرِّبني**

(١) البخاري ٤/ ١١٣، ومسلم ١/ ٦٤، وانظر: تهذيب الكمال ٣٣/ ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٢) الزهد ص ١٧٠.

(٣) حلية الأولياء ٢/ ٢٣٩.

(٤) شعب الإيمان ٤/ ٥٣٧.

منك عملي فقد جعلتُ الاعتراف بالذنب وسائل عِلَلي، فإن عفوتَ فمَن أَولىٰ منك بذلك، وإن عذَّبتَ فمَن أعدل منك هنالك. إلهي، قد جِرْتُ علىٰ نفسي في النظر لها، وبقي لها حُسنُ نظرك، فالويل لها إن لم تسعدها. إلهي، إنك لم تزل بي بَرًّا أيام حياتي، فلا تقطع عني برَّك بعد مماتي، ولقد رجوتُ ممَّن تولاَّني في حياتي بإحسانه أن يشفعه عند مماتي بغفرانه. إلهي، كيف أيأس من حسن نظرك بعد مماتي ولم تولني إلا الجميل في حياتي. إلهي، إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن محبتي لك قد أجارتني، فتولَّ من أمري ما أنت أهله، وعُدْ بفضلك علىٰ مَن غرَّه جهلُه. إلهي، لو أردتَ إهانتي لَما هديتني، ولو أردتَ فضيحتي لم تسترني، فمتِّعْني بما له هديتني، وأدِمْ لي ما به سترتني. إلهي، ما أظنك تردُّني في حاجة أفنيتُ فيها عمري. إلهي، لولا ما قارفتُ من الذنوب ما خفتُ عقابَك، ولولا ما عرفتُ من كرمك ما رجوتُ ثوابَك) وهذه مناجاة مَن شغف حبُّ المولىٰ عَزَّوَجَلَّ في باطن قلبه، واستغرقته مراقبةُ نعمه وإحسانه. وقد روىٰ ابن أبي الدنيا عن عبد الله بن محمد قال: حدثنا إبراهيم بن عبد الملك قال: قدمت شعوانة وزوجها مكةَ ... ثم ساق القصة، وفيها: قال: وسمعتها تقول بالفارسية: أنبتَّ لكل داء دواءً في الجبال، ودواء المحبِّين في الجبال لم ينبُت[١].

(وقال) إبراهيم بن أحمد (الخوَّاص)[٢] رحمه الله تعالىٰ: (دخلنا علىٰ زجلة العابدة، وكانت قد صامت حتىٰ اسودَّت، وبكت حتىٰ عميت، وصلَّت حتىٰ

---

(١) رواه السراج في مصارع العشاق ١/٢٧٦ وابن الجوزي في المنتظم ٩/١٢ عن إبراهيم بن عبد الملك قال: قدمت شعوانة وزوجها مكة، فجعلا يطوفان ويصليان، فإذا كل الرجل وأعيا جلس وجلست خلفه، فيقول هو في جلوسه: أنا العطشان من حبك لا أروىٰ. وتقول هي بالفارسية: أنبت لكل داء دواء في الجبال، ودواء المحبين في الجبال لم ينبت. وروىٰ الختلي في المحبة لله ص ٩٥ مثله من طريق أبي علي الجرجاني عن رقية العابدة قالت: قدمت علينا شعوانة وزوجها ... فذكره.

(٢) بل هو أبو عتبة عباد بن عباد الخواص، كما صرح به ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٧١٥.

أقعدت، وكانت تصلي قاعدةً، فسلَّمنا عليها، ثم ذكَّرناها شيئًا من العفو ليهون عليها الأمرُ. قال: فشهقت، ثم قالت: علمي بنفسي قرح فؤادي وكلم كبدي، واللهِ لَوددتُ أن الله لم يخلقني ولم أكُ شيئًا مذكورًا. ثم أقبلت علىٰ صلاتها) ويقرُب من هذه القصة ما رواه ابن أبي الدنيا عن محمد بن الحسين قال: حدثني أبو جعفر المؤدِّب، حدثنا حفص بن عمر الجُعْفي قال: كانت باليمن امرأة من العرب جليلة جهورية حسنًا وجمالاً [كأنها بدنة] يقال لها خنساء بنت خدام، وليست بالصحابية، فصامت أربعين عامًا حتىٰ لصق جلدُها بعظمها، وبكت حتىٰ ذهبت عيناها، وقامت حتىٰ أقعدت من رجليها، وكان طاووس ووهب بن منبه يعظِّمان قدرها، وكانت إذا دجا عليها الليلُ وهدأت العيون وسكنت الحركات تنادي بصوت لها حزين: يا حبيب المطيعين، إلىٰ كم تحبس خدود المطيعين في التراب، ابعثْهم حتىٰ ينتجزوا موعودك الصادق الذي أتعبوا له أنفسَهم ثم أنصبوها. قال: فيُسمَع البكاء من الدُّور حولها[١].

وممَّا يليق ذِكرُه من أحوال المجتهدات ما أورده البيهقي في الشعب[٢] عن سلامة العابدة قالت: بكت عبيدة بنت أبي كلاب أربعين سنة حتىٰ ذهب بصرُها، فقيل لها: ما تشتهين؟ قالت: الموت. قيل: ولِمَ ذاك؟ قالت: إني أخشىٰ الله في كل يوم حين أصبح أن أجني علىٰ نفسي جناية يكون فيها عطبي أيام الآخرة.

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت رابعة تقول: ما رأيت ثلجًا قط إلا ذكرتُ تطايُر الصحف، ولا رأيت جرادًا قط إلا ذكرتُ الحشر، ولا سمعت أذانًا قط إلا ذكرت منادي القيامة. قالت: وقلت لنفسي: كوني في الدنيا بمنزلة الطير الواقع حتىٰ يأتيكِ قضاؤه.

وعن أبي عثمان الحنَّاط قال: حدثنا أحمد بن أبي الحواري قال: بينا أنا

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤١٥.

(٢) شعب الإيمان ٢/ ٢٧٥، ٢٨٤، ٢٨٩.

ذات يوم جالس بالشام في قبّة ليس عليها باب إلا كساء مسبل إذ أتتني امرأة، فدقّت عليَّ الحائطَ، فقلت: مَن هذا؟ فقالت: امرأة ضالَّة، دُلَّني علىٰ الطريق رحمك الله. فقلت: عن أيِّ الطريقين تسألين؟ فبكت، ثم قالت: عن طريق النجاة. فقلت: هيهات هيهات! لا يُقطَع ذلك الطريق إلا بالسير الحثيث من الجد وتصحيح المعاملة وحذفِ العلائق الشاغلة عن أمر الدنيا والآخرة. فبكت، ثم قالت: أما علائق الدنيا ففهمتُها، فما علائق الآخرة؟ فقلت: لو وافيتِ القيامةَ بعمل سبعين نبيًّا لم يكن لك إلا ما كُتِب لك في اللوح المحفوظ، وإن لجهنم زفرة يوم القيامة لو كان لك عملُ سبعين نبيًّا ما كان لك بدٌّ من أن تَرِديها. قال: فصرخت صرخة، ثم قالت: سبحان مَن صان عليك جوارحَك فلم تتقطَّع، وسبحان مَن أمسك عليك قلبك فلم يتصدَّع. ثم سقطت مغشيًّا عليها. قال ابن أبي الحواري: وكانت عندنا جُارية من المتعبِّدات، فقلت لها: اخرجي فانظري ما قصة هذه المرأة. قال: فخرجتْ [فنظرت] إليها فإذا هي قد فارقت الدنيا، وإذا في جيبها رقعة مكتوب فيها: كفِّنوني في أثوابي، فإن يكن لي عند ربي خيرٌ فسيبدلني ما هو خير لي منها، وإن يكن غير ذلك فبعدًا لنفسي وسحقًا. قال ابن أبي الحواري: وإذا خدمٌ قد أحاطوا بالجارية، فقلت لبعضهم: ما قصة هذه المرأة؟ فقالوا: يا أبا الحسن، هذه جارية كان يظهر بها شيء نظن أنها مصابة بعقلها، وكان الذي بها يمنعها من المَطعم والمَشرب، وكانت تشكو إلينا وجعًا بجوفها، وكنا نعرض عليها الأطباء، فكانت تقول: أريد متطبِّبًا أشكو إليه بعض ما أجد من دائي عسىٰ أن يكون عنده شفائي. ا.هـ. سياق البيهقي.

وقال أبو بكر التيمي، حدثنا محمد بن سليمان القرشي قال: بينا أنا أسير في طريق اليمن إذا أنا بغلام واقف في الطريق في أذنيه قُرطان، في كل قُرط جوهرة، يضيء وجهه من ضوء تلك الجوهرة، وهو يمجِّد ربَّه بأبيات من الشعر، فسمعته يقول:

مليكٌ في السماء به افتخاري عزيز القدْر ليس به خفاءُ

فدنوت منه، فسلَّمت عليه، فقال: ما أنا برادٍّ عليك حتىٰ تؤدِّي من حقي الذي يجب لي عليك. قلت: وما حقُّك؟ قال: أنا غلام علىٰ مذهب إبراهيم الخليل ﷺ، لا أتغدَّىٰ ولا أتعشَّىٰ كل يوم حتىٰ أسير الميل والميلين في طلب الضيف. فأجبته إلىٰ ذلك، فرحَّب بي، وسرتُ معه حتىٰ قربنا من خيمة شعر، فلما قربنا من الخيمة صاح: يا أختاه. فأجابته جارية من الخيمة: يا لبَّيكاه. قال: قومي إلىٰ ضيفنا. قالت الجارية: حتىٰ أبدأ بشكر المولىٰ الذي سبَّبَ لنا هذا الضيفَ. فقامت فصلَّت ركعتين شكرًا لله، فأدخلني الخيمة، وأجلسني، وأخذ الغلام [الشفرة، وأخذ] عناقًا فذبحها، فلما جلستُ في الخيمة نظرت إلىٰ أحسن الناس وجهًا، فكنت أسارقها [النظر] ففطنتْ لبعض لحظاتي إليها، فقالت لي: مه! أما علمتَ أنه نُقل إلينا عن صاحب يثرب أن زنا العينين النظر؟ أما إني ما أردت بهذا أن أوبِّخك، ولكني أردت أن أؤدِّبك لكي لا تعود لمثل هذا. فلما كان [وقت] النوم بتُّ أنا والغلام خارجًا، وباتت الجارية في الخيمة، فكنت أسمع دويَّ القرآن الليل كله بأحسن صوت يكون وأرقِّه، فلما أن أصبحتُ قلت للغلام: صوت مَن كان ذلك؟ فقال: تلك أختي تحيي الليل كله إلىٰ الصباح. فقلت: يا غلام، أنت أحق بهذا العمل من أختك، أنت رجل وهي امرأة. قال: فتبسَّم، ثم قال لي: ويحك يا فتىٰ! أما علمتَ أنه موفَّق ومخذول[1]؟

وروىٰ ابن باكويه من طريق موسىٰ بن عبد الملك المروزي قال: قال مالك بن دينار: بينا أنا أطوف بالبيت إذا أنا بامرأة [جهيرة] في الحِجر وهي تقول: أتيتك من شُقَّة بعيدة مؤمِّلة لمعروفك، فأَنِلْني معروفًا من معروفك تغنيني به عن معروف مَن سواك، يا معروفًا بالمعروف. فعرَّفتُ أيوب السختياني، فسألنا عن منزلها وقصدناها وسلَّمنا عليها، فقال لها أيوب: قولي خيرًا يرحمك الله. قالت: وما أقول؟ أشكو إلىٰ الله قلبي وهواي، فقد أضرَّا بي وشغلاني عن عبادة ربِّي، قُوما

(١) رواه ابن الجوزي في المنتظم ١٢/ ٢١٧، وابن حبان في روضة العقلاء ص ٢٥٩ - ٢٦٠.

فإني أبادر طيَّ صحيفتي. قال أيوب: فما حدَّثتُ نفسي بامرأة قبلها، فقلت لها: لو تزوجتِ رجلاً كان يعينكِ علىٰ ما أنتِ عليه. قالت: لو كان مالك ابن دينار أو أيوب السختياني ما أردتُه. فقلت: أنا مالك بن دينار، وهذا أيوب السختياني. فقالت: أف لكما! لقد ظننتُ أنه يشغلكما ذِكرُ الله عن محادثة النساء. وأقبلت علىٰ صلاتها، فسألنا عنها، فقالوا: هذه مليكة بنت المنكدر(١).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن إدريس، حدثني محمد بن علي بن حسان الهاشمي، حدثنا أبو خالد البرَّاد قال: كلَّمنا ابنة المنكدر في تخفيف بعض العبادة، فقالت: دعوني أبادر طيَّ صحيفتي.

وقال إبراهيم بن مسلم القرشي: كانت فاطمة بنت محمد بن المنكدر تكون نهارها صائمة، فإذا جنَّها الليلُ تنادي بصوت حزين: هدأ الليل، واختلط الظلام، وآوىٰ كلُّ حبيب إلىٰ حبيبه، وخلوتي بك أيها المحبوب أن تعتقني من النار(٢).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق المروزي، حدثنا خاقان [بن عبد الله] عن عبد الله بن المبارك أن امرأة قالت لعائشة ﵂: اكشفي لي عن قبر النبي ﷺ. فكشفت لها عنه، فبكت حتىٰ ماتت(٣).

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني إبراهيم بن عبد الله المديني قال: حدثني بعض أصحابنا أن امرأة كانت بالمدينة ترهق، فدخلت المقابر ذات يوم، فإذا هي بجمجمة قد بدتْ. قال: فصرختْ، ثم رجعت منيبةً، فدخل عليها نساؤها، فقالت:

---

(١) رواه ابن الجوزي في مثير العزم الساكن ١/ ٣٧٧ - ٣٧٨.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٤/ ٥٣٢.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد ص ٢٩٩.

بكىٰ قلبي لذكر الموت لمَّا رأيت جماجم جوف القبور

ثم قالت: اخرجن عني، ولا يأتيني منكن امرأة إلا امرأة ترغب في خدمة الله عَزَّوَجَلَّ. ثم أقبلت علىٰ العبادة حتىٰ ماتت علىٰ ذلك[١].

قال: وحدثني محمد بن الحسين، حدثني عبد الله بن نافع الزبيدي، حدثني أبو أيوب – رجل من قريش – أن امرأة من أهله كانت تجتهد في العبادة، وتديم الصيام، وتطيل القيام، فأتاها الملعون فقال: إلىٰ كم تعذِّبين هذا الجسد وهذه الروح؟ لو أفطرتِ وقصرت عن القيام كان أدوم لكِ وأقوىٰ. قالت: فلم يزل يوسوس لي حتىٰ هممت واللهِ بالتقصير. قالت: ثم دخلتُ مسجد رسول الله ﷺ معتصمة بقبره، وذلك بين المغرب والعشاء، فذكرت الله، وصلَّيت علىٰ رسوله ﷺ، ثم ذكرت ما نزل بي من وساوس الشيطان، واستغفرت، وجعلت أدعو الله أن يصرف عني كيده ووساوسه. قالت: فسمعت صوتًا من ناحية القبر يقول: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ٦﴾ [فاطر: ٦] قالت: فرجعت مذعورة وجِلة القلب، فواللهِ ما عاودتني تلك الوسوسةُ بعد تلك الليلة[٢].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن الحسين، حدثني عبد الله بن الزبير الحميدي، حدثني سلمة بن خالد المخزومي – وكان من خيار بني مخزوم – قال: كانت ههنا امرأة من بني مخزوم مجاورة يقال لها حكيمة، وكانت إذا نظرت إلىٰ باب الكعبة قد فُتح صرخت كما تصرخ الثكلَىٰ، فلا تزال تصرخ حتىٰ يغمىٰ عليها، وكانت لا تكاد تفارق المسجدَ إلا للأمر الذي لا بد منه. قال: ففُتحت الكعبة يومًا، وهي في بعض حاجتها، فلما جاءت قالت لها امرأة كانت تجالسها: يا حكيمة، اليوم فُتح بيت ربِّك، فلو رأيتِ الطائفين يطوفون به والباب مفتوح وهم

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٣٧١.

(٢) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٣٧٢.

ينتظرون الرحمة من مليكهم لقد قرَّت عينك. قال: فصرخت حكيمة صرخة، ثم لم تزل تضطرب حتىٰ ماتت[1].

قال ابن أبي الدنيا: وحدثني محمد بن صالح بن يحيىٰ التميمي، حدثني أبو المورق، أخبرني مَن سمع نقيش بنت سالم بمكة وهي تقول: يا سيد الأنام، زجلت بي[2] الشُّقَّة، وهذا مقام العائذ بعفوك من سخطك، وبرحمتك من غضبك، يا حبيب الأوَّابين، يا مَن لا يكديه الإعطاء، يا ذا المنِّ والآلاء، زدني بالثقة منك وصلةً [واجعل] قراي منك عتق رقبتي [وأقرِرْ عيني برضاك] قال: ورأيتها بالموقف وهي تقول: بهظتني[3] الآثام [يا سيد الأنام] كحَّلت عيني بمكحول الحزن، فوعزَّتك لا أضحك أبدًا حتىٰ أعلم أين محل قراري، وإلىٰ أين تصير دياري. فلما رأت أيدي الناس مبسوطة للدعاء قالت: يا رب، أقامهم هذا المقامَ خوفُ النار، يا قرَّة عيني وعيون الأبرار، يلتمسون نائلك ويرجون فضلك [فلما رجعوا وضعت خدَّها وصرخت]: انصرف الناس ولم أُشعِرْ قلبي منك اليأسَ[4].

وقال أبو عبد الرحمن السلمي: ذكر جعفر بن محمد عن بعض مشايخه عن أبي عبيد القاسم بن سلام قال: دخلت مكة، وكنت ربما أقعد بحذاء الكعبة، وربما كنت أستلقي وأمدُّ رجلي، فجاءتني عائشة المكِّية - وكانت من العابدات ممَّن صحب الفضيلَ - فقالت لي: يا عبد الله، يقال إنك عالِم، اقبلْ مني كلمةً: لا تجالسْه إلا بأدب وإلا فيمحو اسمك من ديوان القُرْب[5].

---

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٢.

(٢) أي رمت بي ودفعتني. وانظر: تاج العروس ٢٩/ ١١٥.

(٣) أي أثقلتني وأعجزتني.

(٤) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٢. وروىٰ أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٨٣، عن أبي سليمان الداراني نحوه.

(٥) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٢، والسهروردي في عوارف المعارف ص ١٩٨.

وقال أبو القاسم علي بن المحسن التنُّوخي: أخبرني أبي قال: حدثني عبد الله ابن أحمد بن بكر قال: كان لأبي الحسن المكي ابنة مقيمة بمكة أشد ورعًا منه، وكانت لا تقتات إلا ثلاثين درهمًا ينفذها إليها أبوها في كل سنة ممَّا يستفضله من ثمن الخوص الذي يسفه[1] ويبيعه، فأخبرني ابن الرَّوَّاس التَّمَّار - وكان جاره - قال: جئت أودِّعه للحج، وأستعرض حاجته، وأسأله أن يدعو لي، فسلَّم إليَّ قرطاسًا وقال: تسأل بمكة في الموضع الفلاني عن فلانة وتسلِّم هذا إليها. فعلمتُ أنها ابنته، فأخذت القرطاس وجئت، فسألت عنها، فوجدتها بالعبادة والزهد أشد اشتهارًا من أن تخفَىٰ، فتتبعت نفسي أن يصل إليها من مالي شيءٌ يكون لي ثوابه، وعلمت أني إن دفعت إليها ذلك لم تأخذه، ففتحتُ القرطاس وجعلتُ الثلاثين خمسين درهمًا، ورددته كما كان، وسلَّمته إليها، فقالت: أيُّ شيء خبر أبي؟ فقلت: سلامة. فقالت: قد خالط أهلَ الدنيا وترك الانقطاع إلىٰ الله تعالىٰ؟ فقلت: لا. قالت: فأسألك بالله وبمَن حججت إليه عن شيء فتصدقني؟ فقلت: نعم. فقالت: خلطتَ بهذه الدراهم شيئًا من عندك؟ فقلت: نعم، أنَّىٰ علمتِ بذلك؟ فقالت: إن أبي ما كان يزيدني علىٰ الثلاثين شيئًا؛ لأن حاله لا تحتمل أكثر منها، إلا أن يكون ترك العبادة، فلو أخبرتني بذلك ما أخذتُ منه أيضًا شيئًا. ثم قالت لي: خذ الجميع، فقد عققتني من حيث قدرتَ أنك تبرُّني. فقلت: ولِمَ؟ قالت: لا آكل شيئًا ليس من كسبي ولا كسب أبي، ولا آخُذ من مال لا أعرف كيف هو شيئًا. فقلت: خذي منها ثلاثين [درهمًا] كما أنفذ إليك أبوك ورُدِّي الباقي. فقالت: لو عرفتُها بعينها من جملة الدراهم لأخذتُها، ولكن اختلطت بما لا أعرف جهته، فلا آخذ منها شيئًا، وأنا الآن أقتات إلىٰ الموسم الآخَر من المزابل؛ لأن هذه كانت قوتي طول السنة، وقد أجعتني، ولولا أنك ما قصدتَ أذاي لدعوتُ عليك. قال: فاغتممت، وعدت إلىٰ البصرة، وجئت إلىٰ أبي الحسن فأخبرته واعتذرت إليه، فقال: لا آخذها وقد

---

(١) أي ينسجه بعضه علىٰ بعض. وانظر: تاج العروس ٢٣/ ٤٣٩.

اختلطت بغير مالي، وقد عققتني وإيَّاها. قال: فقلت: فما أعمل بالدراهم؟ فقال: لا أدري. فما زلت مدةً أعتذر إليه وأسأله: ما أعمل بالدراهم؟ فقال لي بعد مدة: تصدَّقْ بها. ففعلتُ[١].

وقال أبو الفتح ابن أبي الفوارس، أخبرنا أبو عمرو ابن حَمْدان، حدثنا مسدَّد، حدثنا الدورقي، حدثنا عبد الله بن عبيد الله البكري، عن جعفر بن سليمان، حدثنا مالك بن دينار قال: رأيت بمكة امرأة من أحسن الناس عينين. قال: فكان النساء يجئن فينظرن إليها، فأخذتْ في البكاء، فقيل لها: تذهب عيناك. فقالت: إن كنتُ من أهل الجنة فسيبدلني الله عينين أحسن من هاتين، وإن كنتُ من أهل النار فسيصيبهما أشدُّ من هذا. قال: فبكت حتىٰ ذهبت إحدىٰ عينيها[٢].

وقال مهدي بن حفص: حدثني أبو عبد الرحمن المغازلي قال: كانت امرأة مجاورة بمكة تسمَّىٰ حكيمة، فدخلنا عليها ذات يوم، فقالت لها امرأة كانت تخدمها: إخوانك جاؤوكِ يحبون أن يسمعوا كلامك. قال: فبكت طويلاً، ثم أقبلتْ علينا فقالت: إخواني وقرَّة عيني، مَثِّلوا القيامةَ نُصب أبصار قلوبكم، ورُدُّوا علىٰ أنفسكم ما قد تقدَّم من أعمالكم، فما ظننتم أنه قد يجوز في ذلك اليوم فارغبوا إلىٰ السيد في قبوله وتمام النعمة فيه، وما خِفتم أن يُرَدَّ في ذلك اليوم عليكم فخذوا في إصلاحه من اليوم، ولا تغفلوا عن أنفسكم فترُدُّ عليكم حيث لا يوجد البدل ولا يُقدَر علىٰ الفداء. قال: ثم بكت طويلاً، ثم أقبلت علينا فقالت: إخواني وقرَّة عيني، إنما صلاح الأبدان وفسادها من حسن النية وسوءها. إخواني وقرَّة عيني، إنما نال المتَّقون المحبةَ لمحبَّتهم له وانقطاعهم إليه، ولولا الله ورسوله ما نالوا ذلك، ولكنهم أحبوا الله ورسوله فأحبهم عباد الله لحبِّهم الله ورسوله. إخواني وقرَّة عيني، كلمَ الخوفُ قلوبَ أهله فاقتطعهم واللهِ وشغلهم عن مطاعم اللذَّات والشهوات.

---

(١) رواه ابن الجوزي في المنتظم ١٤/ ٧٠ - ٧١.

(٢) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

إخواني وقرَّة عيني، بقدْر ما تُعرِضون عن الله يُعرِض عنكم بخيره، وبقدر ما تُقبِلون عليه كذلك يُقبِل عليكم ويزيدكم من فضله، إنه واسع كريم(١).

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا عبد الرحمن بن زبان الطائي، حدثنا عبد الرحمن المحاربي، عن سفيان، عن ابن أبي رَوَّاد قال: كانت عندنا امرأة بمكة تسبِّح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، فماتت، فلما بلغت القبرَ اختُلست من أيدي الرجال(٢).

قال: وحدثنا أبو علي المديني، حدثنا أبو الحسن الرام - وكان من خيار الناس - قال: كانت امرأة بمكة يأتيها العبَّاد فيتحدَّثون عندها ويتواعظون، فقالت لهم يومًا: حجبت قلوبَكم الدنيا عن الله، فلو خلَّيتموها لجالت في ملكوت السماء، ولأتتكم بطُرَف الفوائد(٣).

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني صالح بن عبد الكريم قال: دُلِلت علىٰ امرأة بمكة أو بالمدينة تتعبَّد، فأتيتها وهي تتكلم. قال: فأحسنتْ حتىٰ سكتت. قال: فصبرتُ حتىٰ تفرَّق الناس عنها، ثم دنوت منها فقلت: لقد تكلمتِ فأحسنتِ، ولقد خشيتُ عليك العُجبَ. فقالت: إنما العُجب من شيء هو منك، فأما إن كان من غيرك ففيمَ العُجب؟ ثم قالت:

وله خصائص مصطفونَ لحبِّه ... اختارهم من سالف الأزمان
اختارهم من قبل فطرة خلقه ... بودائع وبحكمة وبيان

ثم قالت: انهضْ إذا شئتَ(٤).

---

(١) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٤.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان ٢/ ١٨٦.

(٣) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٥. وروىٰ الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢٩٥ من طريق الأصمعي قال: قالت رابعة العابدة: شغلوا قلوبهم عن الله بحب الدنيا، ولو تركوها لجالت في الملكوت ثم رجعت إليهم بطرف الفوائد.

(٤) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٥.

قال: وحدثني محمد بن عبَّاد بن موسىٰ، حدثنا مروان بن معاوية الفزاري، عن عبد الرحمن بن الحكم قال: كانت عجوز من قريش بمكة تأوي في سرب، ليس لها بيت غيره. فقيل لها: أترضين بهذا؟ فقالت: أوَ ليس هذا لمَن يموت كثيرًا[١]؟

وقال ابن شاذان: أخبرنا عثمان بن أحمد، حدثنا العباس بن يوسف، حدثني محمد بن عبد الله القارئ، حدثني محمد بن بكَّار قال: كانت عندنا بمكة امرأة عابدة، لا تمرُّ بها ساعةٌ إلا وهي صارخة، فقيل لها يومًا: إنَّا لَنراك علىٰ حال ما نرىٰ غيرَك عليها، فإن كان بك داءٌ عالجناك. قال: فبكت وقالت: مَن لي بعلاج هذا الداء؟ وهل أقرحَ قلبي إلا التفكُّر في نيل معالجته؟ أوَ ليس عجبًا أن أكون حية بين أظهُركم وفي قلبي من الاشتياق إلىٰ ربي مثل شُعَل النار التي لا تطفأ، متىٰ أصير إلىٰ الطبيب الذي عنده بُرءُ دائي وشفاء قلب قد أنضجه طولُ الأحزان في هذه الدار التي لا أجد فيها علىٰ البكاء مساعدًا[٢].

قال: وحدثنا محمد بن الحسين، حدثني عصام بن عثمان الحلبي، حدثني مسمع بن عاصم قال: قالت لي رابعة العدوية: اعتللت علَّة قطعتني عن التهجُّد وقيام الليل، فمكثت أيامًا أقرأ جزئي إذا ارتفع النهار؛ لِما يُذكَر فيه أنه يعدل بقيام الليل. قالت: ثم رزقني الله العافية، فاعتادتني فترةٌ في عقب العلة، وكنت قد سكنت إلىٰ قراءة جزئي بالنهار، وانقطع عني قيامُ الليل. قالت: فبينا أنا ذات ليلة راقدة رأيت في منامي كأنِّي رُفِعت إلىٰ روضة خضراء ذات قصور ونبت حسن، فبينا أنا أجول فيها أتعجَّب من حسنها إذا أنا بطائر أخضر وجارية تطارده كأنَّها تريد أخذه. قالت: فشغلني حسنُها عن حسنه، فقلت: ما تريدين منه؟ دعيه، فوالله ما رأيت طائرًا قط أحسن منه. قالت: أفلا أريكِ أحسن منه؟ قلت: بلىٰ. قالت: فأخذت

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل ص ١٩٦.

(٢) أورده ابن الجوزي في صفة الصفوة ص ٤٠٥.

بيدي فأدارت بي في تلك الروضة حتىٰ انتهت بي إلىٰ باب قصر، فاستفتحتْ ففُتح لها، ثم قالت: افتحوا لي بيت المَقة. قالت: ففُتح لها بابٌ شاعَ منه شعاعٌ استنار من ضوء نوره ما بين يدي وما خلفي. قالت: فدخلت، وقالت لي: ادخلي. قالت: فدخلت إلىٰ بيت يحار فيه البصرُ تلألؤًا وحسنًا، ما أعرف له في الدنيا شبيهًا أشبِّهه به. قالت: فبينا نحن نجول فيه إذ رُفع لنا باب مخرق إلىٰ بستان. قالت: فأهوتْ نحوه، وأنا معها، فتلقَّانا فيه وُصَفاء كأنَّ وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم المجامر، فقالت لهم: أين تريدون؟ قالوا: نريد فلانًا قُتِل في البحر شهيدًا. قالت: أفلا تجمرون هذه المرأة؟ قالوا: قد كان لها في ذلك حظٌّ فتركتْه. قالت: فأرسلت يدها من يدي، ثم أقبلتْ عليَّ فقالت:

صلاتك نورٌ والعِباد رقود ... ونومك ضدٌّ للصلاة عنيدُ
وعمرك غُنْمٌ إن عقلت ومهلة ... يسير ويفنَىٰ دائمًا ويبيدُ

قالت: ثم غابت من بين يدي عن عيني، واستيقظتُ حين تبدَّىٰ الفجرُ. قالت: فواللهِ ما ذكرتُها فتوهَّمتُها إلا طاش عقلي وأنكرت نفسي. قال: ثم سقطت رابعة مغشيًّا عليها(١).

(فعليك إن كنت من المرابطين المراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء من المجتهدين) والمجتهدات في الطاعات (لينبعث نشاطُك ويزيد حرصُك، وإياك أن تنظر إلىٰ أهل عصرك، فإنك إن تُطِعْ أكثر مَن في الأرض يضلُّوك عن سبيل الله. وحكايات المجتهدين غير محصورة، وفيما ذكرناه) من النبذة اليسيرة (كفايةٌ للمعتبِر، وإن أردتَ مزيدًا فعليك بالمواظبة علىٰ مطالعة كتاب حلية الأولياء) وطبقات الأصفياء، تصنيف الشيخ الإمام الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصفهاني رحمه الله تعالىٰ (فهو مشتمل علىٰ شرح أحوال

(١) رواه السراج في مصارع العشاق ١/ ٢٠٧ - ٢٠٨، والخطيب في تاريخ بغداد ٢/ ٣٦٥ - ٣٦٦.

الصحابة والتابعين ومَن بعدهم) قال في أول كتابه[١]: أما بعد، أحسن الله توفيقَك، فقد استعنت بالله وأجبتُك إلىٰ ما ابتغيتَ من جمع كتاب يتضمَّن أسامي جماعة من الصحابة وبعض أحاديثهم وكلامهم من أعلام المتحقِّقين من المتصوفة وأئمَّتهم وترتيب طبقاتهم من النُّسَّاك ومَحَجَّتهم من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومَن بعدهم ممَّن عرف الأدلَّة والحقائق، وباشر الأحوالَ والطرائق، وساكَنَ الرياضَ والحدائق، وفارق العوارض والعلائق ... إلىٰ آخر ما قال، إلىٰ أن قال: إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور والصيت والذِّكر المشهور، فقد كان جدي محمد بن يوسف البنا رحمه الله تعالىٰ أحد مَن نشر الله به ذِكر بعض المنقطعين إليه، وعمر به أحوالَ كثير من المقبلين عليه.

ولنذكر هنا نبذة من ترجمته وعدَّة تصانيفه وكيفية الاتصال به:

هو[٢] الإمام الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق [بن موسىٰ] بن مهران، سبط الشيخ العارف محمد بن يوسف البنا، رحمهم الله تعالىٰ. وُلِد في رجب سنة ٣٣٦، وتوفي بكرة يوم الاثنين ٢١ محرم سنة ٤٣٠، غسَّله الحافظ أبو مسعود إبراهيم بن سليمان، وصلىٰ عليه محمد بن عبد الواحد، وله أربع وتسعون سنة، ودُفن إلىٰ جنب السُّوذَرْجاني، وقبره يُستجاب عنده الدعاء. قال الحافظ أبو موسىٰ المديني: أسلم جدُّه مهران، وهو مولىٰ عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وجده من قِبَل أمه محمد بن يوسف بن معدان بن زيد الثقفي الصوفي الشهير بالبنا. كان رأسًا في التصوُّف، وصنَّف كتبًا

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣ - ٤.

(٢) تبيين كذب المفتري لابن عساكر ص ٢٤٦ - ٢٤٧. المستفاد من ذيل تاريخ بغداد للدمياطي ص ١٤٤ - ١٤٨. وفيات الأعيان لابن خلكان ١/ ٩١. تاريخ أصفهان لأبي نعيم ٢/ ٩٣. الثقات ممن لم يقع في الكتب الستة لابن قطلوبغا ١/ ٣٦٥ - ٣٦٧. تاريخ الإسلام للذهبي ٢٩/ ٢٧٤ - ٢٨٠. طبقات الشافعية الكبرىٰ للسبكي ٤/ ١٨ - ٢٥. الأربعون المرتبة علىٰ طبقات الأربعين لعلي بن المفضل الإسكندراني ص ٤٥٤ - ٤٧٤ (ط - مكتبة أضواء السلف).

حِسانًا. وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: كان أبو نعيم في وقته مرحولاً إليه، ولم يكن في أفق من الآفاق أسند ولا أحفظ منه، وكان حفَّاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم يقرأ ما يريده إلىٰ قريب من الظهر، فإذا قام إلىٰ داره ربما كان يقرأ عليه في الطريق جزءًا، وكان لا يضجر، ولم يكن له غذاء سوىٰ التصنيف أو القراءة عليه. قال: وسمعت مرةً يذكر أن أبا نعيم سُئل: ممَّن تعلَّمتَ العربية؟ فقال: من رسول الله ﷺ. يعني أنه تخرَّج بقراءة الحديث وسماعه وكَتْبه والنظر فيه. قال: وسمعت السيد حمزة بن العباس العلوي الأصبهاني بهمذان يقول: كان أصحاب الحديث في مجلس أحمد بن الفضل الباطِرْقاني يقولون وأنا أسمع: بقي أبو نعيم أربع عشرة سنة بلا نظير، ولا يوجد شرقًا وغربًا أعلىٰ إسنادًا ولا أحفظ منه. وكانوا يقولون: لمَّا صنَّف كتاب الحلية حُمل إلىٰ نيسابور حال حياته فاشتُري هناك بأربعمائة دينار. وبلغت عدَّة تصانيفه أربعمائة مجلَّد. قال الإمام منتخب الدين أبو الفتوح العِجلي: كان أبو نعيم صاحب التصانيف الكثيرة، ولعلها تبلغ أربعمائة، ومناقبه تصانيفه، وكتابه «حلية الأولياء» في عشر مجلدات، و«معرفة الصحابة» في ثلاث مجلدات، و«دلائل النبوة» في ثلاث مجلدات. وقد حصَّلتُ بحمد الله تعالىٰ كتابَه «حلية الأولياء» أجزاء متفرِّقة من مواضع شتىٰ، وكمُل عندي غالبُه إلا ما قلَّ منه، وناهيك به شرفًا ما ذكره بعضهم أنه لا يدخل الشيطان بيتًا فيه هذا الكتاب. وقد جمع رجالَه في أرجوزة محمد بن جابر الأندلسي في كراسين أحسنَ فيها للغاية. ورويتُ هذا الكتاب عن جماعة من الشيوخ ما بين إجازة خاصة وعامة، منهم المسنِد أبو حفص عمر بن أحمد ابن عقيل بن الحسين المكّي، عن كلٍّ من المشايخ الثلاثة: خاله حافظ الحجاز عبد الله بن سالم البصري، والشهاب أحمد بن علي بن محمد النخلي، وأبي الأسرار الحسن بن علي بن يحيىٰ الحنفي، قالوا: أخبرنا الحافظ شمس الدين محمد بن العلاء، أخبرنا علي بن يحيىٰ، أخبرنا يوسف بن زكريا، أخبرنا الحافظ شمس أبو الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي، أخبرنا الحافظان أبو الفضل

أحمد بن علي العسقلاني ومستمليه زين الدين رضوان بن يوسف العقبي ومسنِد القاهرة عز الدين عبد الرحيم بن محمد بن الفرات، قال الأوَّلان: أخبرنا الشرف محمد بن عبد اللطيف بن الكويك والزين عبد الرحمن بن أحمد الغَزِّي، قال ابن الكويك: أخبرنا إبراهيم بن علي القطبي، وقال الغزي: أخبرنا علي بن إسماعيل المخزومي، قالا: أخبرنا النجيب أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم بن علي الحَرَّاني، وقال ابن الفرات: أخبرنا عمر بن الحسن المَراغي، أخبرنا الفخر علي ابن البخاري، قال هو والحَرَّاني، أخبرنا أبو المكارم أحمد بن محمد اللَّبَّان وأبو الحسن مسعود بن محمد بن أبي منصور الحمَّال قال: أخبرنا أبو علي الحسن ابن أحمد بن الحسين الحدَّاد، أخبرنا الحافظ أبو نعيم رحمه الله تعالىٰ.

(وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدُك وبُعدُ أهل عصرك من أهل الدين، فإن حدَّثتك نفسك بالنظر إلىٰ أهل زمانك وقالت: إنما تيسَّر الخيرُ في ذلك الزمان لكثرة الأعوان) عليه **(و)** أما **(الآن فإن خالفتَ أهل زمانك)** في زيِّهم وطريقتهم **(رأوك مجنونًا)** قليل العقل **(وسخروا بك)** واستقلُّوا مقامك **(فوافقتَهم فيما هم فيه وعليه فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم، والمصيبة إذا عمَّت)** أي شملت الناسَ جميعًا **(طابت)** وهانت **(فإياك أن تتدلَّىٰ بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها، وقل لها: أرأيت)** أيَّتها النفس **(لو هجم سيلٌ جارف)** يجرف الأرض وما عليها **(يغرق أهل البلد وثبتوا علىٰ مواضعهم)** ماكثين **(ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم بحقيقة الحال، وقدرت أنتِ علىٰ أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلَّصين بها من الغرق، فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمَّت طابت أم تتركين موافقتَهم وتستجهلينهم في صنيعهم وتأخذي حذرك ممَّا دهاك)** وهجم عليك **(فإذا كنتِ تتركين موافقتَهم خوفًا من الغرق)** والهلاك **(وعذاب الغرق لا يتمادَىٰ إلا ساعة)** ريثما تزهق الروح **(فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرِّضة له في كل حال؟ ومن أين تطيب المصيبة)** وتهون **(إذا عمَّت؟ ولأهل النار شغلٌ شاغلٌ عن الالتفات إلىٰ العموم**

والخصوص، ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم، حيث قالوا) كما أخبر الله تعالىٰ عنهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣] **فعليك إذا اشتغلتَ بمعاتبة نفسك أو حملِها علىٰ الاجتهاد فاستعصت)** ولجَّت في طغيانها وأبت طاعتَك فيما تحملها [عليه] **(أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتقريعها)** بعصا المواعظ والزواجر **(وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها)** ومَن أراد الزيادة علىٰ هذا فلا يشفيه إلا ما ذكره المصنف في المرابطة السادسة، قال رحمه الله تعالىٰ:

المرابطة السادسة: في توبيخ النفس ومعاتبتها

(اعلمْ) أرشدك الله تعالىٰ (أن أعدَىٰ عدو لك نفسُك التي بين جنبيك) كما ورد في مرسل سعيد بن أبي هلال: «ليس عدوك الذي يقتلك فيدخلك الله به الجنة وإن قتلتَه كان لك نورًا، ولكن أعدَىٰ الأعداء لك نفسك التي بين جنبيك». رواه أبو محمد العسكري في الأمثال[١] (وقد خُلِقت أمَّارة بالسوء، ميَّالة إلىٰ الشر، فرَّارة من الخير، وأُمرتَ بتزكيتها وتقويمها) وتعديلها (وقَوْدِها بسلاسل القهر إلىٰ عبادة ربِّها وخالقها ومنعِها عن شهواتها وفطامِها عن لذَّاتها، فإن أهملتَها جمحت) وعصتْ (وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك) واحتجتَ إلىٰ معالجة شديدة (وإن لازمتَها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والمَلامة كانت نفسك هي النفس اللوَّامة التي أقسم الله بها) فقال: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾ [القيامة: ١ - ٢] وهي[٢] النفس المتَّقية التي تلوم النفوس المقصِّرة في التقوىٰ يوم القيامة علىٰ تقصيرها، وإدخال «لا» النافية علىٰ فعل القَسَم للتأكيد شائعٌ في كلامهم[٣] (ورجوتَ أن تصير النفس المطمئنَّة المدعوَّة إلىٰ أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية) كما قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ۝٢٨ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي ۝٣٠﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠] (فلا تغفلن ساعةً عن تذكيرها ومعاتبتها، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك) فقد ورد أنه (أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ عيسىٰ عليه السلام: يا ابن مريم، عِظْ نفسَك، فإن اتَّعظتَ

---

(١) ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٦ موصولا من طريق خالد بن يزيد عن سعيد بن أبي هلال عن أبي مالك الأشعري.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٦٥.

(٣) انظر: شرح المفصل لابن يعيش ٥/ ٧٥ (ط دار الكتب العلمية).

فعِظِ الناسَ، وإلا فاستحِ مني) رواه أحمد في الزهد[١] عن مالك بن دينار. وقال أبو نعيم في الحلية[٢]: حدثنا الحسين بن محمد بن علي، حدثنا أحمد بن محمد بن معاوية، حدثنا سليمان بن داود القَزَّاز، حدثنا سيَّار، حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: أوحىٰ الله إلىٰ عيسىٰ ﷺ: يا عيسىٰ، عِظْ نفسك ... فذكره.

(وقال تعالىٰ: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٥] وسبيلك أن تُقبِل عليها فتقرِّر عندها جهلها وغباوتها) وحمقها (وأنها أبدًا تتعزَّز بفطنتها وهدايتها، ويشتد أَنَفُها واستنكافها إذا نُسبت إلىٰ الحمق) والغباوة (فتقول لها: يا نفس، ما أعظم جهلك! تدَّعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقًا، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلىٰ إحداهما علىٰ القُرب، فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو) واللعب (وأنت مطلوبة لهذا الخَطْب الجسيم، وعساك اليوم تُختطَفين) من بين أهلك وأحبابك (أو غدًا، فأراك ترين الموت بعيدًا، ويراه الله قريبًا، أما تعلمين أن كل ما هو آتٍ قريب) وكأنْ قد (وأن البعيد ما ليس بآتٍ، أما تعلمين أن الموت يأتي بغتةً من غير تقديم رسول) منه ينبِّهك علىٰ إتيانه (ومن غير مواعدة ومواطأة) لمجيئه (وأنه لا يأتي في شيء دون شيء، ولا في شتاء دون صيف، ولا في صيف دون شتاء، ولا في نهار دون ليل، ولا في ليل دون نهار، ولا يأتي في الصبا دون الشباب، ولا في الشباب دون الصبا، بل كل نفَس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأةً، فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأةً ثم يفضي إلىٰ الموت) وقد ورد في السنَّة ما يدل علىٰ ذلك، فقد روىٰ هنَّاد في الزهد وابن أبي الدنيا في المرض والكفَّارات وأبو نعيم في الطب والبيهقي في الشعب والقضاعي في المسند عن الحسن مرسلاً: «الحمَّىٰ رائد الموت، وهي سجن الله في الأرض للمؤمن يحبس بها عبده إذا شاء، ويرسله إذا

(١) الزهد ص ٤٨.

(٢) حلية الأولياء ٢/ ٣٨٢.

شاء»[١] **(فما لك لا تستعدِّين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب؟ أما تتدبَّرين قوله تعالىٰ: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ﴾)** أي[٢] بالإضافة إلىٰ ما مضىٰ، أو عند الله؛ لقوله: ﴿إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ۝ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ۝﴾ [المعارج: ٦ - ٧] وقوله: ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥۚ وَإِنَّ يَوۡمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلۡفِ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝﴾ [الحج: ٤٧] أو لأن كل ما هو آتٍ قريب، قال الشاعر[٣]:

فلا زال ما تهواه أقرب من غد ... ولا زال ما تخشاه أبعد من أمس

وإنما البعيد ما انقرض، واللام صلة لـ «اقترب»، أو تأكيد للإضافة، وأصله: اقترب حساب الناس (﴿وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝﴾) عن التفكُّر فيه (﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ﴾) ينبِّههم عن سِنَة الغفلة والجهالة (﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ﴾) تنزيله كي يتَّعظوا (﴿إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝﴾) يستهزئون ويستسخرون منه؛ لتناهي غفلتهم وفرطِ إعراضهم عن النظر في الأمور والتفكُّر في العواقب (﴿لَاهِيَةٗ قُلُوبُهُمۡۗ﴾) [الأنبياء: ١ - ٣] أي استمعوه جامعين بين الاستهزاء والتلهِّي والذهول عن التفكُّر فيه.

(ويحك يا نفس! إن كانت جراءتك علىٰ معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك! وإن كان مع علمك باطِّلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك! ويحك يا نفس! لو واجَهك عبدٌ من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له، فبأيِّ جسارة تتعرَّضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه؟ أفتظنِّين أنك تطيقين عذابه؟ هيهات هيهات! جرِّبي نفسك إن ألهاك البَطَرُ عن أليم عذابه فاحتبسي ساعةً في الشمس) في نهار الصيف **(أو في بيت الحمَّام، أو**

---

(١) تقدم هذا الحديث في كتاب التوحيد والتوكل.

(٢) أنوار التنزيل ٤/ ٤٥.

(٣) هو أحمد بن دراج القسطلي الأندلسي المتوفي سنة ٤٢١، والبيت في ديوانه ص ٥١١ (ط - المكتب الإسلامي).

قرِّبي أصبعك من النار) أو من شعلة السراج (ليتبيَّن لك قدْرُ طاقتك) ما أظن أنك تطيقين ذلك (أم تغترِّين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك، فما لك لا تعوِّلين علىٰ كرم الله تعالىٰ في مهمَّات دنياك؟ فإذا قصدك عدوٌّ) أو خِفتِ منه (فلِمَ تستنبطين الحِيَلَ في دفعه) بكل ممكن (ولا تكلينه إلىٰ كرم الله تعالىٰ، وإذا أرهقتك حاجة إلىٰ شهوة من شهوات الدنيا ممَّا لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فما لك قد تنزعين الروحَ في طلبها وتحصيلها من وجوه الحِيَل، فلِمَ لا تعوِّلين علىٰ كرم الله تعالىٰ حتىٰ يعثر بك) أي يطلعك (علىٰ كنز) تنفقي منه (أو يسخِّر عبدًا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلبٍ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا؟ وقد عرفت أن سنَّة الله لا تبديل لها، وأن رب الدنيا والآخرة واحد ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ [النجم: ٣٩ - ٤٠] ويحك يا نفس! ما أعجب نفاقك ودعاويك الباطلة! فإنك تدَّعين الإيمان بلسانك وأثرُ النفاق ظاهر عليك، ألم يقل لك سيدك ومولاك) جلَّ شأنُه: (﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال في أمر الآخرة: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾؟ فقد تكفَّل لك بأمر الدنيا خاصةً وصرفك عن السعي فيها فكذَّبتيه بأفعالك، وأصبحت تتكالبين) أي تتحارصين (علىٰ طلبها تكالُب المدهوش المستهتر) الذي لا يعقل (ووكل أمر الآخرة إلىٰ سعيك، فأعرضت عنها إعراضَ المغرور المستحقِر، ما هذا من علامات الإيمان، لو كان الإيمان باللسان فلماذا كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار) مع أنهم قد آمنوا بلسانهم (ويحك يا نفس! كأنَّك لا تؤمنين بيوم الحساب، وتظنِّين أنك إذا مت انفلت وتخلَّصت، وهيهات! أتحسبين أنك تُترَكين سُدًىٰ؟ ألم تكوني نطفة من منيٍّ يُمنَىٰ ثم كنت عَلَقة فخلق فسوَّىٰ؟ أليس ذلك بقادر علىٰ أن يحيي الموتىٰ)؟ نزع بذلك إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ [القيامة: ٣٦ - ٤٠] وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار القائل:

ولو أنَّا إذا متنا تُرِكنا لكان الموت راحةَ كل حي
ولكنا إذا متنا بُعِثنا ونُسئل بعده عن كل شيٍّ[1]

(فإن كان هذا من إضمارك فما أكفرك وأجهلك! أما تتفكَّرين أنه من ماذا خلقك؟ من نطفة خلقك فقدَّرك، ثم السبيل يسَّرك، ثم أماتك فأقبرك، أفتكذِّبينه في قوله: إذا شاء أنشرك. فإن لم تكوني مكذِّبة فما لك لا تأخذين حذرك، ولو أن يهوديًّا أخبرك في ألذِّ أطعمتك بأنه يضرُّك في مرضك لصبرت عنه وتركتيه وجاهدت نفسك فيه، أفكان قول الأنبياء المؤيَّدين بالمعجزات وقول الله تعالىٰ في كتبه المنزلة أقل عندك تأثيرًا من قول يهودي يخبرك عن حَدْس وتخمين وظنٍّ مع نقصان عقل وقصور علم)؟ مع ما له من العداوة الدينية معك بحيث لو خلا بك لقتلك (والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربًا لرميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان، أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء؟ أم صار حر جهنم وأغلالها وأنكالها وزقُّومها ومَقامِعها وصديدها وسَمُومها وأفاعيها وعقاربها أحقر عندك من عقرب لا تحسِّين بألمها إلا يومًا أو أقل منه؟ ما هذه أفعال العقلاء، بل لو انكشف للبهائم حالُك لضحكوا منك وسخروا من عقلك، فإن كنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوِّفين العملَ والموتُ لك بالمِرصاد؟ ولعلَّك يختطفك من غير مهلة، فبماذا أمنت استعجالَ الأجل؟ وهَبْكِ أنك وُعِدت بالإمهال مائة سنة) وهو غاية الأماني (أفتظنِّين أنَّ مَن يطعم الدابَّة في حضيض العَقَبة يفلح ويقدر علىٰ قطع العقبة بها؟ إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك! أرأيت لو سافر رجل ليتفقَّه في الغربة) عن وطنه (فأقام فيها سنين) عدَّة (متعطِّلاً بطَّالاً) لم يشغل نفسَه بالتعلُّم (يعدُّ نفسَه بالتفقُّه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلىٰ وطنه، هل كنت تضحكين من عقله وظنِّه أن تفقيه النفس ممَّا يُطمَع فيه بمدة قريبة أو حسبانِه أن مناصب الفقهاء تُنال من

(١) تقدم هذان البيتان في كتاب العزلة.

غير تفقُّه اعتمادًا على كرم الله سبحانه. ثم هَبِي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلَى فلعل اليوم آخر عمرك، فلِمَ لا تشتغلين فيه بذلك؟ فإن أُوحي إليك بالإمهال فما المانع من المبادرة؟ وما الباعث لك على التسويف؟ هل له سبب إلا عجزك عن مخالفة شهواتك لِما فيها من التعب والمشقَّة؟ أفتنتظرين يومًا يأتيك لا تعسُر فيه مخالفةُ الشهوات؟ هذا يوم لم يخلقه الله قط ولا يخلقه، فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره) كما في الخبر: «حُفَّت الجنة بالمكاره» (ولا تكون المكاره قط خفيفةً على النفوس، وهذا مُحال وجوده، أما تتأمَّلين منذ كم تَعِدين نفسَك وتقولين: غدًا غدًا، فقد جاء الغد وصار يومًا، فكيف وجدتيه؟ أما علمت أن الغد الذي جاء وصار يومًا كان له حكم الأمس؟ لا بل ما تعجزين عنه اليوم فأنت غدًا عنه أعجز وأعجز) أي أكثر عجزًا (لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبَّد العبدُ بقلعها) واستئصالها (فإذا عجز العبد عن قلعها للضعف وأخَّرَها كان كمَن عجز عن قلع شجرة وهو شاب قويٌّ فأخَّرها إلى سنة أخرى، مع العلم بأنَّ طول المدة يزيد الشجرةَ قوة ورسوخًا، ويزيد القالع ضعفًا ووهنًا، فما لا يُقدَر عليه في الشباب لا يُقدَر عليه قط في المشيب، بل من العناء رياضة الهرم)[1] فإن الهرم يزداد كل آنٍ ضعفًا، فرياضته من جملة العَناء (ومن التعذيب تهذيبُ الذِّيب) فإنه جُبل على الخبث، فلا ينفع فيه التهذيب، ومنه قول الشاعر:

إذا كان الطباع طباع سوء فليس بنافع فيه الأديبُ[2]

(والقضيب الرَّطْب يقبل الانحناءَ، فإذا جفَّ وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك) أبدًا (فإذا كنت أيَّتها النفس لا تفهمين هذه الأمورَ) الواضحة (الجليَّة وتركنين إلى

---

(١) هذا عجز بيت، صدره:

أتروض عروسك بعدما هرمت

وهو من الأبيات الجارية مجرى الأمثال، ولم أهتد إلى قائله.

(٢) تقدم هذا البيت في كتاب رياضة النفس.

التسويف فما بالك تدَّعين الحكمة) والإصابة (وأيّة حماقة تزيد علىٰ هذه الحماقة؟ ولعلك تقولين: ما يمنعني عن الاستقامة إلا حرصي علىٰ لذَّة الشهوات وقلة صبري علىٰ الآلام والمشقَّات، فما أشد غباوتك وأقبح اعتذارك! إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التنعُّمَ بالشهوات الصافية من الكدورات، الدائمة أبد الآباد، ولا مَطمع في ذلك إلا في الجنة) فإنَّ لذَّاتها هي الموصوفة بذلك (فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها، فرُب أكلة تمنع أكلات) وهو مَثَلٌ مشهور أورده الحريري في المقامات[1] (وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصحَّ) مزاجُه (ويتهنَّأ بشربه طول العمر وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضًا مزمنًا) لا يفارقه (وامتنع عليه شربُه طول العمر، فما مقتضَىٰ العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعَّم طول العمر أم يقضي شهوتَه في الحال خوفًا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتىٰ يلزمه ألمُ المخالفة ثلاثمائة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلىٰ الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلىٰ جميع العمر وإن طالت مدتُه؟ وليت شِعري ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في دركات جهنم، فمَن لا يطيق الصبرَ علىٰ ألم المجاهدة كيف يطيق ألم عذاب الله؟ ما أراك تتوانين) أي تتساهلين (عن النظر إلىٰ نفسك إما لكفر خفيٍّ أو لحمق جليٍّ، أما الكفر الخفي فهو ضعفُ إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بعِظَم قدْر الثواب والعقاب. وأما الحمق الجليُّ فاعتمادك علىٰ كرم الله تعالىٰ وعفوه من غير التفات إلىٰ مكره واستدراجه واستغنائه

---

(١) مقامات الحريري [المقامة الكوفية] ص ٤٣، وعبارته: «رب أكلة هاضت الآكل وحرمته مآكل».
أما قوله (رب أكلة تمنع أكلات) فأورده الميداني في مجمع الأمثال ١/ ٢٩٧ وقال: «يضرب في ذم الحرص علىٰ الطعام». ونقل عن المفضل الضبي أن أول من قاله عامر بن الظرب العدواني، وذكر قصة ذلك. وقال العسكري في جمهرة الأمثال ١/ ٣٩٩: «يضرب للخصلة من الخير تنال علىٰ غير وجه الصواب فتكون سببا لمنع أمثالها». وأورده الشريف الرضي في نهج البلاغة من كلام علي رضي الله عنه. شرح نهج البلاغة ١٨/ ٤٠٤.

عن عبادتك، مع أنك لا تعتمدين علىٰ كرم الله في لقمة من الخبز أو حبة من المال أو كلمة واحدة تسمعينها من الخَلق، بل تتوصَّلين إلىٰ غرضك في ذلك بجميع الحِيَل، وبهذا الجهل تستحقِّين لقب الحماقة من رسول الله ﷺ، حيث قال: الكَيِّس مَن دانَ نفسَه وعمل لِما بعد الموت، والأحمق مَن أتبع نفسه هواها وتمنَّىٰ علىٰ الله الأماني) رواه الطيالسي وأحمد والترمذي وابن ماجه وابن أبي الدنيا في «محاسبة النفس» من حديث شداد بن أوس. وفي رواية لهم: والعاجز، بدل: الأحمق. وقد تقدَّم مِرارًا **(ويحك يا نفس! لا ينبغي أن تغرَّك الحياةُ الدنيا ولا يغرَّنَّك بالله الغرور)** كما قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] **(فانظري لنفسك، فما أمرك بمهمٍّ لغيرك، ولا تضيعي أوقاتك)** فإنها عزيزة **(فالأنفاس معدودة، فإذا مضىٰ منك نَفَسٌ فقد ذهب بعضك، فاغتنمي الصحةَ قبل السقم، والفراغ قبل الشغل، والغِنىٰ قبل الفقر، والشباب قبل الهرم، والحياة قبل الموت)** فقد روىٰ الحاكم والبيهقي من حديث ابن عباس: «اغتنِمْ خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك». وقد رواه ابن المبارك وأحمد معًا في كتاب الزهد وأبو نعيم في الحلية والبيهقي أيضًا عن عمرو ابن ميمون الأودي مرسلاً[١] **(واستعدِّي للآخرة علىٰ قدْر بقائك فيها. يا نفس، أما تستعدِّين للشتاء بقدر طول مدَّته فتجمعين له القوت والكسوة والحطب وجميع الأسباب)** الموافقة للزمان **(ولا تتَّكلين في ذلك علىٰ فضل الله وكرمه حتىٰ يدفع عنك البرد من غير جُبَّة ولبد وحطب وغير ذلك؟ فإنه قادر علىٰ ذلك، أفتظنِّين أيتها النفس أن زمهرير جهنَّم أخف بردًا وأقصر مدةً من زمهرير الشتاء؟ أم تظنين أن ذلك دون هذا؟ كلاَّ أن يكون هذا كذلك وأن تكون بينهما مناسبة في الشدة والبرودة، أفتظنِّين أن العبد ينجو منها بغير سعي؟ هيهات! كما لا يندفع بردُ الشتاء إلا بالجُبَّة والنار وسائر الأسباب فلا**

---

(١) سيأتي الكلام علىٰ هذا الحديث في كتاب ذكر الموت.

ينـدفع حرُّ النار وبردُها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات) فقد رُوي من طريق أهل البيت: «لا إله إلا الله حصني، فمَن دخل حصني أمنَ من عذابي»[١] (وإنما كرمُ الله تعالىٰ في أن عرَّفك طريقَ التحصُّن ويسَّر لك أسبابَه، لا في أن يدفع عنك العذاب دون حصنه، كما أن كرم الله تعالىٰ في دفع برد الشتاء أنْ خلق النار وهداك لطريق استخراجها من بين حديدة وحجر حتىٰ تدفعي بها برد الشتاء عن نفسك، وكما أن شراء الحطب والجُبَّة ممَّا يستغني عنه خالقك ومولاك وإنما تشتريه لنفسك؛ إذ خلقه سببًا لاستراحتك، فطاعاتك ومجاهداتك أيضًا هو مستغنٍ عنها، وإنما هي طريقك إلىٰ نجاتك، فمَن أحسنَ فلنفسه، ومَن أساء فعليها، والله غنيٌّ عن العالَمين. ويحك يا نفس! انزعي عن جهلك) وغيِّك، وارعوي عن طغيانك (وقيسي آخرتك بدنياك، فـ ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨] و﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] و﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩﴾ [الأعراف: ٢٩] وسنَّة الله) في خلقه (لا تجدين لها تبديلاً ولا تحويلاً) فتأمَّلي في ذلك (ويحك يا نفس! ما أراك إلا أَلِفت الدنيا وأنست بها فعسُرت عليك مفارقتُها، وأنت مقبلة علىٰ مقاربتها، وتؤكِّدين في نفسك مودَّتها، فاحسبي أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها) وشدائدها (فما أنت مؤمنة بالموت المفرِّق بينك وبين مَحابِّك) وأحبابك (أفترين أن مَن يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر) متفرِّجًا (فمدَّ بصره إلىٰ وجه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قلبَه ثم يضطرُّ لا محالة إلىٰ مفارقته أهو معدود من العقلاء أو من الحمقىٰ؟ أما تعلمين أن الدنيا دار ملك الملوك، وما لك فيها إلا مجاز) يشير بذلك إلىٰ قول عيسىٰ عليه السلام: الدنيا قنطرة، فاعبروها ولا تعمروها (وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت، ولذلك قال سيد البشر ﷺ: إن روح القُدس نفث في رُوعي: أحبِبْ مَن

(١) أخرجه الشهاب القضاعي في مسنده ٢/ ٣٢٣، وابن عساكر في معجم شيوخه ٨٤٥، وإسناده ضعيف جدًا كما قال العراقي في المغني، وقد تقدم.

أحببتَ فإنك مفارقه، واعملْ ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به، وعِشْ ما شئتَ فإنك ميت) رواه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي، وكِلاهما ضعيف، وقد تقدَّم في كتاب العلم (ويحك يا نفس! أما تعلمين أن كل مَن يلتفت إلىٰ مَلاذِّ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه) وبالمرصاد منه (فإنما يستكثر من الحسرة عند المفارقة، وإنما يتزوَّد من السم المهلك وهو لا يدري. أوَ ما تنظرين إلىٰ الذين مضوا كيف بنوا وعلَّوا) ما بنوا (ثم ذهبوا وخلَّوا) أي تركوا، ومنه قولهم: يا مَن بنىٰ وعلَّىٰ ثم راح وخلَّىٰ (وكيف أورث الله أرضهم وديارَهم أعداءهم؟ أما ترينَهم كيف يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويؤمِّلون ما لا يدركون) وقد روىٰ الطبراني في الكبير[1] من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب: «يا أيها الناس، أما تستحيون؟ تجمعون ما لا تأكلون، وتبنون ما لا تعمرون، وتؤمِّلون ما لا تدركون، ألا تستحيون من ذلك»؟ (يبني كل واحد منهم قصرًا مرفوعًا إلىٰ جهة السماء ومقرُّه قبر محفور تحت الأرض، فهل في الدنيا حمق وانتكاس أعظم من هذا؟ يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينًا، ويخرِّب آخرتَه وهو صائر إليها قطعًا، أما تستحيين يا نفس من مساعدة هؤلاء الحمقىٰ علىٰ حماقتهم؟ واحسبي أنك لست ذات بصيرة تهتدين إلىٰ هذه الأمور وإنما تميلين بالطبع إلىٰ التشبُّه والاقتداء، فقيسي عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء المكبِّين علىٰ الدنيا) الحريصين علىٰ تحصيلها (واقتدي من الفريقين بمَن هو أعقل عندك إن كنت تعتقدين في نفسك العقلَ والذكاء. يا نفس، ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك! عجبًا لك! كيف تعمينَ عن هذه الأمور الواضحة الجليَّة؟ ولعلك يا نفس أسكرك حبُّ الجاه وأدهشك عن فهمها، أو ما تتفكَّرين أن الجاه لا معنىٰ له إلا مَلْك القلوب من بعض الناس؟ فاحسبي أنَّ كل مَن علىٰ وجه الأرض سجد لك وأطاعك، أما تعرفين أنه

---

(١) المعجم الكبير ٢٥/ ١٧٢.

بعد خمسين سنة) أو أقل من ذلك (لا تبقين أنت ولا أحد ممَّن علىٰ وجه الأرض ممَّن عبدك وسجد لك؟ وسيأتي زمانٌ لا يبقىٰ ذِكرُك ولا ذِكرُ مَن ذكرك كما أتىٰ علىٰ الملوك الذين كانوا من قبلك فـ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾﴾) [مريم: ٩٨] أي صوتًا خفيًّا (فكيف تبيعين يا نفس ما يبقىٰ أبد الآباد بما لا يبقىٰ أكثر من خمسين سنة إن بقي؟ هذا إن كنت ملكًا من ملوك الأرض سُلِّمَ لك الشرق والغرب حتىٰ أذعنت لك الرقابُ وانتظمت لك الأسماء، كيف ويأبىٰ إدبارُك وشقاوتك أن يسلَّم لك أمر محلَّتك بل أمر دارك فضلاً عن محلَّتك، فإن كنت يا نفس لا تتركين الدنيا رغبةً في الآخرة لجهلك وعمىٰ بصيرتك فما لك لا تتركينها ترفُّعًا عن خِسَّة شركائها وتنزُّهًا عن كثرة عَنائها) أي تعبها (وتوقِّيًا من سرعة فَنائها؟ أم ما لك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهد فيك كثيرُها؟ وما لك تفرحين بدنيا إن ساعدتكِ فلا تخلو بلدُك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها؟ فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخِسَّاء، فما أجهلك وأخس همَّتك وأسقط رأيك إذ رغبتِ عن أن تكوني في زمرة المقرَّبين من النبيِّين والصدِّيقين) والصالحين (في جوار رب العالمين أبد الآبدين لتكوني في صفِّ النعال من جملة الحمقىٰ الجاهلين أيامًا قلائل، فيا حسرة عليك إذ خسرت الدنيا والدين، فبادري ويحك يا نفس! فقد أشرفت علىٰ الهلاك، واقترب الموت) وجاء الأجل (وورد النذيرُ) وهو الشيب (فمَن ذا يصلي عنك بعد الموت؟ ومَن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ ومَن ذا يترضَّىٰ عنك ربَّك بعد الموت؟ ويحك يا نفس! ما لك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن اتَّجرت فيها، وقد ضيَّعت أكثرَها، فلو بكيت بقية عمرك علىٰ ما ضيَّعت منها لكنت مقصِّرة في حق نفسك، فكيف إذا ضيَّعت البقية وأصررت علىٰ عادتك؟ أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك، والقبر بيتك، والتراب فراشك، والدود أنيسك، والفزع الأكبر بين يديك؟ أما علمت يا نفس أن عسكر الموتىٰ عندك علىٰ باب البلد ينتظرونك) روىٰ أبو نعيم في الحلية أن رجلاً جاء للفضيل

فقال: عِظْني. فقال له: إن عسكر الموتىٰ ينتظرونك[١] (وقد آلوا كلُّهم علىٰ أنفسهم بالأيمان المغلَّظة أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم) فلا بد وأن يأخذوك معهم (أما تعلمين يا نفس أنهم يتمنَّون الرجعة إلىٰ الدنيا يومًا ليشتغلوا بتدارُك ما فرط منهم، وأنت في أمنيتهم) كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠] (ويوم من عمرك لو بِيعَ منهم بالدنيا بحذافيرها) أي بتمامها (لاشتروه لو قدروا عليه، وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة. ويحك يا نفس! أما تستحيين؟ تزيِّنين ظاهرك للخَلق وتبارزين الله في السر بالعظائم، أفتستحيين من الخَلق ولا تستحيين من الخالق؟ ويحك! أهو أهون الناظرين عليك؟ أتأمرين الناس بالخير وأنت متلطِّخة بالرذائل؟ تدعين) غيرَك (إلىٰ الله[٢]) تعالىٰ (وأنت عنه فارَّة، وتذكِّرين بالله وأنت له ناسية، أما تعلمين يا نفس أن المذنب أنتن من العَذِرة وأن العذرة لا تطهِّر غيرَها؟ فلِمَ تطمعين في تطهير غيرك وأنت غير طيِّبة في نفسك؟ ويحك يا نفس! لو عرفت نفسك حقَّ المعرفة لظننت أن الناس لا يصيبهم بلاءٌ إلا بشؤمك) وسوء فعلك (ويحك يا نفس! قد جعلت نفسك حمارًا لإبليس يقودك إلىٰ حيث يريد) من الشهوات (ويسخر بك ومع هذا فتُعجَبين بعملك وفيه من الآفات ما لو نجوتِ منه رأسًا برأس لكان الربح في يديك، وكيف تعجبين بعملك مع كثرة خطاياك وزللك وقد لعن الله إبليس) وطرده من جواره (بخطيئة واحدة) وهي مخالفة أمر الله تعالىٰ في السجود لآدم عليه السلام (بعد أن عبده مائتي ألف سنة) قبل خلقِ آدم عليه السلام، كما في خبر

---

(١) لم أجده في الحلية عن الفضيل، وإنما رواه أبو نعيم في موضعين: الأول ٦/ ٢٤٢: من طريق سفيان بن عيينة قال: قال رجل لبشر بن منصور عظني ... فذكره. الثاني ٧/ ٣٥٦: من طريق بكر بن محمد قال: قلت لداود الطائي: أوصني ... فذكره.

(٢) في ط المنهاج ٩/ ٢١٧: البر.

ابن عباس، رواه الحاكم. وروىٰ ابن جرير[١] وابن الأنباري[٢] عن ابن عباس قال: كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة، اسمه عزازيل، وكان من سكان الأرض [وكان] من أشد الملائكة اجتهادًا وأكثرهم علمًا، فذلك دعاه إلىٰ الكبر. وعند وكيع وابن المنذر عنه قال: كان من خُزَّان الجنة، وكان يدبِّر أمر السماء الدنيا[٣]. وروىٰ ابن جرير[٤] عن سعيد بن المسيب قال: كان رئيس ملائكة السماء الدنيا (**وأخرج آدم**) عليه السلام (**من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيَّه وصفيَّه**) وتلك قربانه الشجرة المنهيّ عنها. روىٰ ابن عساكر[٥] عن عطاء أن آدم لما أُهبط من الجنة خرَّ في موضع البيت ساجدًا، فمكث أربعين يومًا لا يرفع رأسه. وروىٰ ابن سعد[٦] عن الحسن قال: بكىٰ آدم علىٰ الجنة ثلاثمائة سنة (**ويحك يا نفس! ما أغدرك! ويحك يا نفس! ما أوقحك! ويحك يا نفس! ما أجهلك! وما أجرأك علىٰ المعاصي! ويحك! كم تعقدينَ**) بينك وبين الله عقدًا (**فتنقضين، ويحك! كم تعهدين**) مع الله عهدًا (**فتغدرين، ويحك يا نفس! أتشتغلين مع هذه الخطايا بعمارة دنياك كأنَّك غير مرتحلة عنها؟ أما تنظرين إلىٰ أهل القبور كيف كانوا؟ جمعوا كثيرًا، وبنوا مشيدًا، وأمَّلوا بعيدًا، فأصبح جمعهم بورًا، وبنيانهم قبورًا، وأملهم غرورًا**) رُوي ذلك من كلام عليّ رضي الله عنه[٧]، قاله في بعض خطبه (**ويحك يا نفس! أما لك بهم عبرة**) تعتبرين بها؟ (**أما لك إليهم نظرة**) تتَّعظين بها (**أتظنِّين أنهم دُعوا إلىٰ الآخرة وأنت من المخلَّدين؟ هيهات هيهات! ساءَ ما تتوهَّمين، ما أنت إلا في هدم**

---

(١) جامع البيان ١/ ٥٣٦، ١٥/ ٢٨٦.

(٢) الأضداد ص ٣٣٤.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٠٥، وأبو الشيخ في العظمة ٥/ ١٦٨١، والطبري في جامع البيان ١٥/ ٢٨٧.

(٤) جامع البيان ١/ ٥٣٨، ١٥/ ٢٨٧.

(٥) تاريخ دمشق ٧/ ٤١٩.

(٦) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١٥.

(٧) بل هو من كلام أبي الدرداء، وقد تقدم ذلك في كتاب ذم الدنيا.

عمرك منذ سقطت من بطن أمك، فابني على وجه الأرض قصرك فإنَّ بطنها عن قليل يكون قبرك) روى ابن عساكر عن مجاهد قال: إن الله لمَّا أهبط آدمَ وحواء إلى الأرض قال: اهبِطوا إلى الأرض فلِدوا للموت وابنوا للخراب. ورواه ابن المبارك في الزهد نحوه. وفي حديث الزبير: «ما من صباح يصبح على العِباد إلا وصارخ يصرخ: [يا أيها الناس] لِدوا للموت، واجمعوا للفناء، وابنوا للخراب». رواه البيهقي في الشعب. وقال أبو ذر رضي الله عنه: تلدون للموت، وتبنون للخراب، وتؤثرون ما يفنَى، وتتركون ما يبقى. رواه أبو نعيم في الحلية. وقال عيسى عليه السلام: يا بني آدم، لِدوا للموت، وابنوا للخراب، تفنَى نفوسكم، وتبلَى ديارُكم. رواه أحمد في الزهد[1]. وقد نظم الحافظ ابنُ حجر هذا المعنى فقال:

بني الدنيا أقِلُّوا الهمَّ فيها ... فما فيها يؤول إلى الفوات
بناءٌ للخراب وجمعُ مالٍ ... ليفنَى والتوالُدُ للممات

(أما تخافين إذا بلغت النفس منك التَّراقي أن تبدو رسلُ ربِّك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب؟ فهل ينفعك حينئذٍ الندم) وقد فات وقته **(أو يُقبَل منك الحزن)** حيث لا ينفع **(أو يُرحَم منك البكاء)** والدموع؟ **(والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدَّعين البصيرةَ والفطنة، ومن فطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك، ولا تحزنين بنقصان عمرك، وما نفعُ مالٍ يزيد وعمرٌ ينقص؟ ويحك يا نفس! تعرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك، وتُقبِلين على الدنيا وهي معرضة عنك، فكم من مستقبِل يومًا لا يستكمله، وكم من مؤمِّل لغد لا يبلغه، فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك، فترين تحسُّرهم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك، فاحذري أيَّتها النفس المسكينة يومًا آلَى اللهُ)** تعالى **(فيه على نفسه أن لا يترك عبدًا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله، سره وعلانيته)** كما وردت بذلك الأخبارُ **(فانظري يا نفس**

---

(١) تقدمت هذه الأحاديث كلها مع بيتي ابن حجر في كتاب ذم الدنيا.

بأيِّ بدن تقفين بين يدي الله، وبأيِّ لسان تجيبين، وأعدِّي للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، واعملي بقية عمرك في أيام قِصار لأيام طوال، وفي دار زوال لدار مقامة، وفي دار حزن ونَصَبٍ لدار نعيم وخلود، اعملي قبل أن لا تعملي، اخرجي من الدنيا اختيارًا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها علىٰ الاضطرار، ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا، فرُب مسرور مغبون) في سروره (ورُب مغبون لا يشعر) بغبنه (فويل لمَن له الويل): دركة من دركات جهنم (ثم لا يشعر، يضحك ويفرح ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حقَّ له في كتاب الله أنه من وقود النار، فليكن نظرك يا نفس إلىٰ الدنيا اعتبارًا، وسعيك لها اضطرارًا، ورفضك لها اختيارًا، وطلبك للآخرة ابتدارًا) فالمفر المفر قبل أن تُسحَب وتُجَرَّ، واسمعي النصيحة قبل حلول الفضيحة (ولا تكوني ممَّن يعجز عن شكر ما أوتي ويبتغي الزيادةَ فيما بقي) وأنَّىٰ له الزيادة ولم يشكر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧] (وينهىٰ الناسَ ولا ينتهي) قال الله تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤] (واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض، ولا للإيمان بدل، ولا للجسد خلف، ومَن كانت مطيَّته الليل والنهار فإنه يُسار به وإن لم يَسِرْ) روىٰ ابن عدي(١) والديلمي(٢) وابن عساكر(٣) من حديث ابن عباس: «الليل والنهار مطيَّتان، فاركبوهما بلاغًا إلىٰ الآخرة» (فاتَّعظي يا نفس بهذه الموعظة، واقبلي هذه النصيحة، فإنَّ مَن أعرض عن الموعظة فقد رضي بالنار، وما أراك بها راضية، ولا لهذه الموعظة واعية، وإن كانت القساوة تمنعك عن قبول الموعظة فاستعيني عليها بدوام التهجُّد والقيام) بالليل والناس نيام، فعسىٰ أن تزول بذلك قساوةُ قلبك (فإن لم تزُل فبالمواظبة علىٰ الصيام) فإن الجوع يسد مجاري الشيطان في العروق (فإن لم تزُل فبقلَّة المخالطة) مع الناس (والكلام، فإن لم تزُل) بذلك (فبصلة الأرحام

---

(١) الكامل في الضعفاء ٤/ ١٥٣٣، ٦/ ٢٤٢٣.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٤٦٩.

(٣) تاريخ دمشق ٦١/ ٢٥٥.

واللطف بالأيتام) فإنَّ ذلك يورث الرقة بالقلب (فإن لم تزُل) بذلك (فاعلمي أن الله) تعالىٰ (قد طبع علىٰ قلبك وأقفل عليه، وأنه قد تراكمت ظلمة الذنوب علىٰ ظاهره وباطنه، فوَطِّني نفسك علىٰ النار، فقد خلق الله الجنة وخلق لها أهلاً، وخلق النار وخلق لها أهلاً، فكلٌّ ميسَّر لِما خُلِق له) روىٰ الطبراني في الصغير والأوسط بسند ضعيف والخطيب من حديث أبي هريرة: «إن الله عَزَّوَجَلَّ خلق الجنة وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يُزاد فيهم ولا يُنقَص منهم، اعملوا فكلٌّ ميسَّر لِما خُلِق له، وخلق النار وخلق لها أهلاً بعشائرهم وقبائلهم لا يُزاد فيهم ولا يُنقَص منهم، اعملوا فكلٌّ ميسَّر لِما خُلِق له». وقد تقدم. وروىٰ مسلم من حديث عائشة: «إن الله تعالىٰ خلق الجنة وخلق النار، فخلق لهذه أهلاً، ولهذه أهلاً»[1] (فإن لم يبقَ فيك مجال للوعظ فاقنطي من نفسك، والقنوط) من رحمة الله تعالىٰ (كبيرة من الكبائر، نعوذ بالله تعالىٰ من ذلك) كما تقدَّم في كتاب التوبة (فلا سبيل لك إلىٰ القنوط، ولا سبيل لك إلىٰ الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك، فإنَّ ذلك اغترار وليس برجاء) وقد سبق الكلام علىٰ ذلك في كتاب الرجاء (فانظري الآن هل يأخذك حزنٌ علىٰ هذه المصيبة التي ابتُليتِ بها؟ وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك علىٰ نفسك؟ فإن سمحت فمستقَىٰ الدمع من بحر الرحمة، فقد بقي فيك موضعٌ للرجاء، فواظِبي علىٰ النياحة والبكاء، واستغيثي بأرحم الراحمين، واشتكي إلىٰ أكرم الأكرمين، وأدمِني الاستغاثة، ولا تملِّي طول الشكاية لعلَّه أن يرحم ضعفك ويعينك) علىٰ حالك (فإن مصيبتك قد عظُمت، وبليَّتك قد تفاقمت، وتماديك قد طال، وقد انقطعت منك الحِيَل، وانزاحت عنك العلل، فلا مذهب ولا مطلب ولا مستغاث ولا مهرب ولا منجىٰ ولا ملجأ إلا إلىٰ مولاك، فافزعي إليه بالتضرُّع، واخشعي في تضرُّعك علىٰ قدْر عِظَم جهلك وكثرة ذنوبك؛ لأنه يرحم المتضرِّع الذليل، ويغيث الطالب المتلهِّف، ويجيب دعوة المضطرِّ) قال الله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ

---

(١) تقدم حديث أبي هريرة وحديث عائشة في كتاب التوبة.

إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] (**وقد أصبحت إليه اليوم مضطرَّة، وإلىٰ رحمته محتاجة، وقد ضاقت بك السبلُ، وانسدَّت عليك الطرق، وانقطعت منك الحيل، ولم تنجع فيك العِظاتُ، ولم يكسرك التوبيخُ**) والحاصل أن العبد إذا حاسب نفسه فرآها خانت وضيَّعت لزمته أمورٌ، أحدها: أن يتدارك بالتوبة والجبر، فإن لم يستطع لغلبة الشهوة عالج تلك الشهوة بالدواء المعروف لها، فإن لم تنكسر تلك الشهوة بالعلاج عاتبها ووبَّخها وقرَّر عندها جهلها وحماقتها، وأن تَماديها وإصرارها يؤدي إلىٰ هلاكها، فإن ارتدعت بذلك وإلا فالدعاء والاعتراف والالتجاء إلىٰ الله تعالىٰ (**فالمطلوب منه كريم، والمسئول جواد، والمُستغاث به بَرٌّ رؤوف، والرحمة واسعة**) والفضل جزيل (**والكرم فائض، والعفو شامل. وقولي: يا أرحم الراحمين، يا رحمن، يا رحيم، يا حليم، يا عظيم، يا كريم، أنا المذنب المصرُّ**) علىٰ ذنبي (**أنا الجريء**) علىٰ معصيتك (**الذي لا يُقلِع**) عنها (**أنا المتمادي الذي لا يستحي، هذا مقام المتضرِّع المسكين والبائس الفقير والضعيف الحقير والهالك الغريق**) في بحر العصيان (**فعَجِّل إغاثتي**) وارحمْ مسكنتي وفاقتي (و) عجِّلْ (فرجي) وفرحي (**وأرِني آثار رحمتك، وأذِقني برد عفوك ومغفرتك، وارزقني قوة عصمتك، يا أرحم الراحمين**) كل ذلك مع مراعاة الآداب التي ذُكرت في كتاب الأدعية (**اقتداءً بأبيك آدم** عليه السلام) إذ قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣] وهي الكلمات التي تلقَّاها في قول الأكثرين (**فقد قال وهب بن منبه**) رحمه الله تعالىٰ: (**لمَّا أهبط الله آدم إلىٰ الأرض من الجنة مكث لا ترقأ له دمعةٌ**) أي لا تسكن عن الجريان (**فاطَّلع الله** عز وجل **عليه في اليوم السابع**) من هبوطه (**وهو محزون كئيب كظيم**) ملآن من الحزن (**منكِّس رأسه**) حياءً من ربِّه (**فأوحىٰ الله إليه: يا آدم، ما هذا الجهد الذي أرىٰ بك؟ قال: يا رب، عظُمت مصيبتي، وأحاطت بي خطيئتي، وأُخرِجت من ملكوت ربِّي فصِرتُ في دار الهوان بعد الكرامة، وفي دار الشقاء بعد السعادة، وفي دار النَّصَب بعد الراحة، وفي دار البلاء بعد العافية، وفي دار الزوال بعد القرار، وفي دار الموت والفناء بعد الخلود والبقاء، فكيف لا**

أبكي علىٰ خطيئتي؟ فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه: يا آدم، ألم أصطفِك لنفسي، وأحللتك داري، وخصصتك بكرامتي، وحذَّرتك سخطي؟ ألم أخلقك بيدي، ونفخت فيك من روحي، وأسجدت لك ملائكتي، فعصيت أمري، ونسيت عهدي، وتعرَّضت لسخطي؟ فوعزَّتي وجلالي لو ملأت الأرض رجالاً كلهم مثلك يعبدونني ويسبِّحونني ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين. فبكىٰ آدم عند ذلك ثلاثمائة عام)[1] وروىٰ ابن سعد[2] عن ابن عباس قال: لما أهبط الله آدم من الجنة أنشأ يقول: رب، كنت جارك في دارك، ليس لي رب غيرك، ولا رقيب دونك، آكل فيها رغدًا، وأسكن حيث أحببتُ، فأهبطتني إلىٰ هذا الجبل المقدَّس، فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفُّون بالعرش، وأجد ريح الجنة وطِيبها، ثم أهبطتني إلىٰ الأرض، وحططتني إلىٰ ستين ذراعًا، فقد انقطع عني الصوت والنظر، وذهب عني ريح الجنة. فأجابه الله تعالىٰ: لمعصيتك يا آدم فعلتُ ذلك بك. قال: فبكيا علىٰ ما فاتهما مائتي سنة، ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يومًا، ولم يقرب حوَّاء مائة سنة.

وروىٰ ابن عساكر[3] عن ابن عباس قال: بكىٰ آدم حين أُهبِط من الجنة بكاء لم يبكِه أحدٌ، فلو أن بكاء [جميع بني] آدم وُزِن مع بكاء داود علىٰ خطيئته ما عدل بكاءَ آدم حين أُخرِج من الجنة، ومكث أربعين سنة لا يرفع رأسه إلىٰ السماء.

وروىٰ البيهقي في الشعب[4] عن بُرَيدة: «لو وُزِنت دموع آدم بجميع دموع ولدِه لرجحت دموعُه علىٰ دموع جميع ولده».

وروىٰ ابن سعد[5] عن الحسن قال: بكىٰ آدم علىٰ الجنة ثلاثمائة سنة.

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في الرقة والبكاء ص ٢٢١ - ٢٢٢ بلفظ آخر..

(٢) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١٩.

(٣) تاريخ دمشق ٧/ ٤١٦.

(٤) شعب الإيمان ٢/ ٢٥٠.

(٥) الطبقات الكبرىٰ ١/ ١٥.

وروىٰ الطبراني في الأوسط[١] وابن عساكر[٢] بسند ضعيف من حديث عائشة: «لمَّا أهبط الله آدم إلىٰ الأرض قام وجاه الكعبة فصلىٰ ركعتين، فألهمه الله هذا الدعاءَ: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فاقبلْ معذرتي، وتعلم حاجتي فأعطِني سؤلي، وتعلم ما في نفسي فاغفر لي ذنبي، اللهم إني أسألك إيمانًا يباشر قلبي، ويقينًا صادقًا حتىٰ أعلم أنه لا يصيبني إلا ما كتبتَ لي، ورَضِّني بما قسمتَ لي. فأوحىٰ الله إليه: يا آدم، قد قبلت توبتك، وغفرت ذنبك، ولن يدعوني أحد بهذا الدعاء إلا غفرت ذنبه وكفيته المهمَّ من أمره»[٣].

ورواه الجَنَدي في فضائل مكة نحوه.

ورواه الأزرقي في تاريخ مكة[٤] والطبراني في الأوسط[٥] والبيهقي في الدعوات[٦] وابن عساكر[٧] من حديث بُرَيدة نحوه.

وروىٰ عبد بن حميد عن عبد الله بن زيد في قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] قال: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملتُ سوءًا وظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت خير الغافرين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملت سوءًا وظلمت نفسي فارحمني فإنك أنت أرحم الراحمين، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، ربِّ عملت سوءًا وظلمتُ نفسي فتُبْ عليَّ إنك أنت التواب

---

(١) المعجم الأوسط ٦/ ١١٧ - ١١٨.

(٢) تاريخ دمشق ٧/ ٤٣٢.

(٣) تمام الحديث: «وزجرت عنه الشيطان، واتجرت له من وراء كل تاجر، وأقبلت إليه الدنيا راغمة وإن لم يردها».

(٤) تاريخ مكة ص ٤٨٦.

(٥) بل في جزء مما انتقاه ابن مردويه علىٰ الطبراني من حديثه لأهل البصرة ص ٣٤٢.

(٦) الدعوات الكبير ١/ ٣٥٢.

(٧) تاريخ دمشق ٧/ ٤٢٨ - ٤٢٩.

الرحيم[١]. ذكر أنه عن النبي ﷺ، ولكن شكَّ فيه.

وروىٰ هنَّاد في الزهد[٢] عن سعيد بن جبير قال: لمَّا أصاب آدم الخطيئةَ فزع إلىٰ كلمة الإخلاص: لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ... فذكر الجملة الثانية والأخيرة[٣].

وروىٰ ابن عساكر[٤] من طريق جُوَيبِر عن الضحَّاك عن ابن عباس: أن آدم عليه السلام طلب التوبة مائتي سنة حتىٰ آتاه الله الكلمات ولقَّنه إيَّاها، قال: بينا آدم جالس يبكي واضع راحته علىٰ جبينه إذ أتاه جبريل، فسلَّم عليه، فبكىٰ آدم، وبكىٰ جبريل لبكائه، فقال له: يا آدم، ما هذه البليَّة التي أجحف بك بلاؤها وشقاؤها؟ وما هذا البكاء؟ قال: يا جبريل، وكيف لا أبكي وقد حوَّلني ربِّي من ملكوت السموات إلىٰ هوان الأرض، ومن دار المقامة إلىٰ دار الظعن والزوال، ومن دار النعمة إلىٰ دار البؤس والشقاء، ومن دار الخُلد إلىٰ دار الفناء، كيف أحصي يا جبريل هذه المصيبة؟ فانطلق جبريل إلىٰ ربِّه فأخبره بمقالة آدم، فقال الله عز وجل: انطلِقْ يا جبريل إلىٰ آدم فقلْ: يا آدم، ألم أخلقك بيدي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: ألم أنفخ فيك من روحي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: ألم أُسجِد لك ملائكتي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: ألم أسكنك جنَّتي؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: ألم آمرك فعصيتني؟ قال: بلىٰ يا رب. قال: وعزَّتىٰ وجلالي وارتفاع مكاني لو أن ملء الأرض رجالاً مثلك ثم عصوني لأنزلتهم منازل العاصين، غير أنه يا آدم قد سبقت رحمتي غضبي، قد سمعت صوتك وتضرُّعك، ورحمت بكاءك، وأقلت عثرتك، فقلْ: لا إله إلا أنت سبحانك

(١) وروىٰ الطبري في جامع البيان ١/ ٥٨٥ مثله عن مجاهد، وأبو الشيخ في العظمة ٥/ ١٥٤٩ عن ابن عباس، والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ٣٦٠ عن أنس.

(٢) الزهد ٢/ ٤٦١.

(٣) بل رواه تاما بذكر الجمل الثلاث.

(٤) تاريخ دمشق ٧/ ٤٣٦.

وبحمدك ... فذكر الجمل الثلاث المتقدِّمة، قال: فذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ الآية.

(وكان عبيد الله البَجَلي) هكذا في النسخ بالباء الموحدة المفتوحة وجيم نسبة إلىٰ بجيلة، وهي نسبة معروفة. وفي بعضها: النَّحْلي، بنون مفتوحة وحاء مهملة ساكنة، نسبة إلىٰ نحل العسل. والله أعلم أيهما هو (كثير البكاء) فكان (يقول في بكائه طول ليله: إلهي، أنا الذي كلَّما طال عمري زادت ذنوبي، أنا الذي كلَّما هممت بترك خطيئة عرضتْ لي شهوة أخرىٰ، واعبيداه، خطيئة لم تَبْلُ وصاحبها في طلب أخرىٰ، واعبيداه إن كانت النار لك مقيلاً ومأوىٰ، واعبيداه إن كانت المقامع لرأسك تهيَّأ، واعبيداه، قُضيتْ حاجة الطالبين، ولعل حاجتك لا تُقضىٰ.

وقال) أبو السري (منصور بن عمَّار) الواعظ الخراساني، نزيل بغداد، ترجمه القشيري في الرسالة(١)، توفي سنة ٢٢٥ (سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابدًا يناجي ربَّه وهو يقول: يا رب، وعزَّتك ما أردت بمعصيتك مخالفتَك، ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل) أي باطِّلاعك عليَّ (ولا لعقوبتك متعرِّض، ولا لنظرك مستخفٌّ، ولكن سوَّلت لي نفسي، وأعانتني علىٰ ذلك شِقْوَتي، وغرَّني سترك المرخَىٰ عليَّ، فعصيتك بجهلي، وخالفتك بفعلي، فمن عذابك الآن مَن يستنقذني؟ أو بحبل مَن أعتصم إن قطعت حبلك عني؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غدًا إذا قيل للمخفِّين جُوزوا وقيل للمثقَلين حطُّوا، أمع المخفِّين أجوز أم مع المثقَلين أحطُّ؟ ويلي، كلما كبرتْ سنِّي كثرت ذنوبي، ويلي، كلما طال عمري كثرت معاصيَّ، فإلىٰ متىٰ أتوب؟ وإلىٰ متىٰ أعود؟ أما آنَ لي أن أستحي من ربِّي)(٢) ومن

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٨٦، وفيها: «من أهل مرو من قرية يقال لها دندانقان، وقيل: إنه من بوشنج، أقام بالبصرة».

(٢) رواه الحاكم في المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٥٨٢، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٢٩٢، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٣/ ٦٥، وأبو نعيم في حلية الأولياء ٩/ ٣٢٨، ١٠/ ١٨٨، وابن الجوزي في التبصرة ١/ ٢٧ - ٢٨، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢/ ٣١٤ - ٣١٥، وابن =

معاتبة النفس ما رواه أبو نعيم في الحلية[1] فقال: حدثنا محمد بن إبراهيم، حدثنا المفضل بن محمد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: قال رجل للفضيل بن عياض: كيف أصبحتَ يا أبا علي؟ - وكان يثقُل عليه: كيف أصبحت وكيف أمسيت - فقال: في عافية. فقال: كيف حالك؟ فقال: عن أيِّ حال تسأل عن حال الدنيا أو حال الآخرة؟ إن كنت تسأل عن حال الدنيا فإن الدنيا قد مالت بنا وذهبت بنا كلَّ مذهب، وإن كنت تسأل عن حال الآخرة فكيف ترىٰ حال مَن كثرت ذنوبه، وضعُف عملُه، وفني عمره، ولم يتزوَّد لمعاده، ولم يتأهَّب للموت، ولم يتصنَّع للموت، ولم يتشمَّر للموت، ولم يتزيَّن للموت، وتزيَّن للدنيا، هيه. وقعد يحدِّث - يعني نفسه -: واجتمعوا حولك يكتبون عنك، بخ! فقد تفرَّغتَ للحديث. ثم قال: هاه - وتنفَّس طويلاً - ويحك! أنت تُحسِن تحدِّث أو أنت أهلٌ أن يُحمَل عنك؟ استحي يا أحمق بين الحمقان، لولا قلة حيائك وصفاقة وجهك ما جلست تحدِّث وأنت أنت، أما تعرف نفسك؟ أما تذكر ما كنت، وكيف كنت؟ أما لو عرفوك ما جلسوا إليك، ولا كتبوا عنك، ولا سمعوا منك شيئًا أبدًا. فيأخذ في مثل هذا، ثم يقول: ويحك! أما تذكر الموت؟ أما للموت في قلبك موضع؟ ما تدري متىٰ تؤخَذ فيُرمَىٰ بك في الآخرة فتصير في القبر وضِيقه ووحشته، أما رأيت قبرًا قط؟ أما رأيت حين دفنوه؟ أما رأيت كيف سلُّوه في حفرته وهالوا عليه التراب والحجارة؟ ثم قال: ما ينبغي لك أن تتكلم بفمك كلِّه - يعني نفسه - تدري من تكلم بفمه كلِّه؟ عمر بن

= عساكر في تاريخ دمشق ٦٠/ ٣٣٠ بألفاظ مختلفة. وعند بعضهم زيادة: «فلما فرغ من قوله تلوتُ قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾ الآية، فسمعت دكدكة لم أسمع بعدها حسا، فمضيت، فلما كان من الغد رجعت في مدرجتي فإذا أنا بجنازة قد أخرجت، وإذا أنا بعجوز قد ذهبت قوتها، فسألتها عن أمر الميت، ولم تكن عرفتني، فقالت: مر هنا رجل لا جزاه الله إلا جزاءه بابني البارحة وهو قائم يصلي فتلا آية من كتاب الله تعالىٰ فتفطرت مرارته فوقع ميتا».

(١) حلية الأولياء ٨/ ٨٥ - ٨٦.

الخطاب، كان يطعمهم الطيِّب ويأكل الغليظ، ويكسوهم الليِّن ويلبس الخشن، وكان يعطيهم حقوقهم ويزيدهم، أعطىٰ رجلاً عطاءه أربعة آلاف درهم وزاده ألفًا، فقيل له: ألا تزيد ابنك كما زدت هذا؟ قال: إن أبا هذا ثبت يوم أُحد، ولم يثبُت أبو هذا.

(فهذه طريق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم، وإنما مَطلبهم من المناجاة الاسترضاءُ) أي طلبُ الرضا من ربِّهم **(ومقصدهم من المعاتبةِ التنبيهُ والاسترعاء، فمَن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعيًا، ويوشك أن لا يكون الله تعالىٰ عنه راضيًا. والسلام)** وبه تم شرحُ كتاب المحاسبة والمراقبة، والحمد لله الذي به تتم الصالحاتُ، وبذكره تتنزَّل البركات، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه الكرام الهُداة.

قال المؤلِّف رحمه الله تعالىٰ: نجز ذلك في الساعة الرابعة من ليلة الثلاثاء سادس صَفَر الخير من شهور سنة ١٢٠١ علىٰ يد مؤلفه الفقير إلىٰ مولاه محمد مرتضىٰ الحسيني أبي الفيض، غُفرت ذنوبه وسُترت عيوبه بمَنِّه وكرمه، وحسبنا الله ونِعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليِّ العظيم .. آمين آمين.

فهرس موضوعات كتاب المراقبة والمحاسبة

٣٨ - كتاب المراقبة والمحاسبة

كتـاب التفكـر

- فضيـلة التفكـر
- بيـان حقيقة الفكـر وثـمرتـه
- بيـان مجـاري الفكـر
- بيـان كيفيـة التفكـر فـي خلق الله تعالىٰ

٣٩ - كتـاب التفكـر

بِسْـــمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيـــمِ

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وسلم.

الله ناصر كل صابر.

الحمد[1] لله الذي لا يَفِرُه المنعُ، ولا يكديه الإعطاءُ؛ إذ كل معطٍ منتقَص سواه، وكل مانعٍ مذمومٌ ما خلاه، هو المَنَّان بفوائد النعم وعوائد المزيد والقِسَم، وليس بما سُئل بأجود منه بما لم يُسئل، الأول الذي لم يكن له قبلٌ فيكون شيءٌ قبله، والآخِر الذي ليس له بعدٌ فيكون شيء بعده، والرادع أناسيَّ الأبصار عن أن تناله أو تدركه، ما اختلف عليه دهرٌ فيختلف منه الحالُ، ولا كان في مكان فيجوز عليه الانتقال، وهو القادر الذي إذا ارتمت الأوهام لتدرك منقطَع قدرته وحاول الفكر المبرَّأ من خطر الوساوس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته وتولَّهت القلوب إليه لتجري في كيفية صفاته وغمضَت مداخلُ العقول في حيث لا تبلغه الصفاتُ لتنال علم ذاته ردعها وهي تجوب مهاوي سُدَف الغيوب متخلِّصة إليه سبحانه، فرجعت إذ جُبهت، معترفة بأنه لا تُنال بجَوْر الاعتساف كُنْهُ معرفته، ولا تخطر ببال أولي الرويَّات خاطرةٌ من تقدير جلال عزَّته، الذي ابتدع الخَلق علىٰ

(١) هذه المقدمة نقلها الزبيدي من خطبتين لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، أوردهما الشريف الرضي في نهج البلاغة. شرح نهج البلاغة ٦/ ٤٢٧، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٨، ٧/ ١٧، ٤٢.

غير مثال امتثله ولا مقدار احتذَىٰ عليه من خالق معبود كان قبله، وأرانا من ملكوت قدرته وعجائب ما نطقت به آثار حكمته واعتراف الحاجة من الخَلق إلىٰ أن يقيمها بمِساك قوَّته ما دلَّنا باضطرار قيام الحُجة له علىٰ معرفته، وظهرت في البدائع التي أحدثها آثارُ صنعتِه وأعلام حكمته، فصار كلُّ ما خلق حُجةً له ودليلاً عليه، وإن كان خلقًا صامتًا فحجَّته بالتدبير ناطقة، ودلالته علىٰ المبدِع قائمة، قدَّر ما خلق فأحكم تقديرَه، ودبَّره فألطفَ تدبيرَه، ووجَّهَه لِوجهته فلم يتعدَّ حدودَ منزلته، ولم يقصُر دون الانتهاء إلىٰ غايته، ولم يستصعب إذ أمر بالمُضِيِّ علىٰ إرادته، وكيف وإنما صدرت الأمور عن مشيئته. المنشئ أصناف الأشياء بلا رويَّة فكرٍ آلَ إليها، ولا قريحة غريزة أضمرَ عليها، ولا تجربةٍ أفادها من حوادث الدهور، ولا شريك أعانه علىٰ ابتداع عجائب الأمور، فأقام منها أَوَدَها، ونهج حدودَها، ولاءمَ بقدرته بين متضادِّها، ووصل أسباب قرائنها، وفرَّقها أجناسًا مختلفات في الحدود والأقدار والغرائز والهيئات، بَدايا خلائق أحكم صنعها، وفطرَها علىٰ ما أراد وابتدعها، عالِم السر من ضمائر المضمِرين، ونجوىٰ المتخافتين، وخواطر رجمِ الظنون، وعقدِ عزيمات اليقين، ومسارق إيماض الجفون، وما تضمَّنته أكنانُ القلوب وغيابات الغيوب، وما أصغتْ لاستراقه مَصائِخُ الأسماع، ومصائف الذَّر، ومَشاتي الهَوامِّ، ورَجْعِ الحنين من الوالهات، وهمسِ الأقدام، ومنفسَح الثمرة من ولائج غُلُفِ الأكمام، ومنقمَع الوحوش من غِيران الجبال وأوديتها، ومختبأ البعوض بين سوق الأشجار وألحيتها، ومغرِز الأوراق من الأفنان، ومَحَطِّ الأمشاج من مَسارِب الأصلاب، وناشئة الغيوم ومُتلاحِمها، ودُرور قَطْرِ السحاب في مُتراكِمها، وما تسفي الأعاصير بذيولها، وتعفو الأمطار بسيولها، وعَوْم بنات الأرض في كُثبان الرمال، ومستقَر ذوات الأجنحة بذُرَىٰ شناخيب الجبال، وتغريد ذوات المنطق في دياجير الأوكار، وما أوعبته الأصدافُ وحضنت عليه أمواج البحار، وما غشيته سُدْفةُ ليل أو ذَرَّ عليه شارقُ نهار، وما اعتقبت عليه أطباقُ الدياجير، وسُبُحات النور، وأثر كل

خطوة، وحس كل حركة، ورَجْع كل كلمة، وتحريك كل شفة، ومستقَر كل نسمة، ومِثقال كل ذرَّة، وهَماهِم كل نفس هامَّة، وما عليها من ثمر شجرة، أو ساقط ورقة، أو قرارة نُطفة، أو نُقاعة دم ومضغة، أو ناشئة خلقٍ وسُلالة، لم تلحقه في ذلك كُلفةٌ، ولا اعترضته في حفظ ما ابتدع من خلقه عارضةٌ، ولا اعترته في تنفيذ الأمور وتدابير المخلوقين مَلالةٌ ولا فترة، بل نفذ فيهم علمُه، وأحصاهم عددُه، ووسعَهم عدلُه، وغمرهم فضلُه، مع تقصيرهم عن كُنْه ما هو أهله، فتبارك الله الذي لا يبلغه بُعدُ الهِمَم، ولا يناله حُسنُ الفِطَن. أحمده حمد موحِّد أفرده بالتوحيد، ولم يرَ مستحقًّا لهذه المحامد غيره. وأشهد أن لا إله إلا الله الذي لا خير إلا خيره، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وصفيُّه وخليله، الذي أخرجه من أفضل المعادن منبتًا وأعزِّ الأَرُومات مغرسًا، من الشجرة التي صدعَ منها أنبياءه وانتجب منها أمناءه، عِترته خير العِتَر، وأسرته خير الأُسَر، وشجرته خير الشجر، نبتت في حَرَمٍ، وبسقت في كرمٍ، لها فروع طوال وثمر لا يُنال، فهو إمام مَن اتَّقىٰ، وبصيرة مَن اهتدىٰ، سراج لمع ضوءه، وشهاب سطع نورُه، وزَنْد برق لمعُه، سيرته القصد، وسنَّته الرشد، وكلامه الفصل، وحكمه العدل. صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله الأتقياء الأبرار، وأصحابه الأماثل الأخيار، وعلىٰ التابعين لهم بإحسان إلىٰ ما بعد يوم القرار، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد، فهذا شرح كتاب «التفكر»، وهو التاسع والثلاثون من كتب «إحياء علوم الدين» لإمام أئمَّة المسلمين وصدر صدور القادة المتقين حجة الإسلام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، سقىٰ الله جدثه بعهاد صوب الغفران المتوالي، يوضِّح منه ما أشكلَ، ويفصح منه ما أبهم، ويفصِّل منه ما أجمل، ويبيِّن المعنىٰ المرادَ من سياقاته علىٰ الوجه الأكمل، ولم آلُ جهدًا في تتبُّع مواقع إشاراته علىٰ سبيل الاختصار، وتهذيب مَعالِم عباراته في مَثارات الاعتبار. شرعت فيه والأفكار بتواتُر الأنكاد مفرَّقة، والخواطر هذه مغرِّبة وهذه مشرِّقة، كيف وقامت

نواعق الفتن علىٰ ساق، وادلهمَّت الخطوبُ وعزَّ الإرفاقُ[١]. والله أرجو كفاية كل مهمٍّ، ودفاع الخَطْب الملمِّ، وإزاحة الطارق المدلهمِّ، إنه علىٰ ما يشاء قديرٌ، وبالإجابة جدير.

قال المصنِّف رحمه الله تعالىٰ: (**بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي لم يقدِّر لانتهاء عزَّته نحوًا، ولا قُطرًا**) أي لم يجعل لغلبته الآتية علىٰ كلٍّ من الظاهر والباطن جهةً ولا ناحية، يقال: نحا نحو كذا: أي قصد جهتَه، قال الشاعر:

نحونا نحو دارك يا حبيبي وجدنا نحو ألف من رقيب[٢]

والقُطْر بالضم: الناحية، والجمع: الأقطار. يقال: بلغ أنحاءه وأقطاره (**ولم يجعل لمرقَىٰ أقدام الأوهام ومرمَىٰ سهام الأفهام إلىٰ حِمَىٰ عظمته مَجرىٰ**) أي عظمته تعالىٰ جلَّت عن أن ترقَىٰ إليها الأوهام بأقدامها أو ترمي إليها الأفهام بسهامها، فليس في مسارح ميادينها لها مجرىٰ؛ لقصورها عن إدراك كُنْه العظمة (**بل ترك قلوب الطالبين في بيداء**) أي صحراء (**كبريائه والهةً حيرَىٰ**) أي متحيِّرة، جمع حيران، كسكرَىٰ وسكران. والوَلَه محرَّكة: ذهاب العقل من شدة الحزن[٣] (**كلَّما اهتزَّت لنيل مطلوبها ردَّتها سُبُحاتُ الجلال**) أي نوره وبهاؤه (**قسرًا**) أي قهرًا، يشير إلىٰ الحديث المتقدم ذِكره: «إن لله سبعين حجابًا من نور وظلمة، لو كشفها لأحرقت سُبُحاتُ وجهه كلَّ ما أدركه بصرُه» (**وإذا همَّت بالانصراف آيسةً**) من نيل المطلوب (**نوديتْ من سُرادقات الجمال: صبرًا**) أيها الطالب (**صبرًا**) أي

---

(١) انظر حوادث سنة ١٢٠٠، ١٢٠١هج في تاريخ الجبرتي ٣/ ١٤٦- ١٩٤ (ط الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة).

(٢) لم أقف علىٰ قائل هذا البيت. وهو في كتاب المشكاة الفتحية شرح كتاب الشمعة المضية في علم العربية ص ١٣ (ط - دار الكتب العلمية) لمحمد بن محمد البديري الدمياطي المتوفى سنة ١١٤٠، وبعده بيت آخر وهو:

وجدناهم عواة نحو كلب تمنوا منك نحوا من شريب

(٣) انظر: الصحاح للجوهري، ولسان العرب مادة (وله)، وذكره المناوي في التوقيف ص ٣٤٠.

عليك بالصبر في سلوكك، ولا تيأس، واثبُتْ فيما أنت عليه (**وقيل لها**) أي للقلوب: (**أجيلي في ذلِّ العبودية منك فكرًا**) وإجالة الفكر: إدارته (**لأنك لو تفكَّرتِ في جلال الربوبيَّة لم تقدري له قدْرًا**) لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١، الزمر: ٦٧] (**وإن طلبتِ وراء الفكر في صفاتك أمرًا فانظري في نِعم الله تعالىٰ**) الشاملة (**وأياديه**) الكاملة (**كيف توالت عليك**) أي تتابعت (**تَتْرَىٰ**) بعضها وراء بعض (**وجدِّدي لكل نعمة منها ذكرًا وشكرًا**) بأن تذكريها ثم تشكري عليها؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ۝﴾ [البقرة: ١٥٢] (**وتأمَّلي في بحار المقادير**) جمع المقدور وهو ما قدَّره الله تعالىٰ علىٰ الخَلق قبل أن يخلق العرش والكرسي واللوح والقلم (**كيف فاضت علىٰ العالَمين**) وشملتهم (**خيرًا وشرًّا، ونفعًا وضرًّا، وعسرًا ويسرًا، وفوزًا وخسرًا، وجبرًا وكسرًا، وطيًّا ونشرًا، وإيمانًا وكفرًا، وعرفانًا ونكرًا**) فهذه كلها من مقدورات الله سبحانه يجب الإيمان بها والتأمُّل في أسرارها (**فإن جاوزت النظر**) منك (**في الأفعال**) الإلهيَّة (**إلىٰ النظر في الذات فقد حاولت أمرًا أَمِرًا**) أي صعبًا (**وخاطرت بنفسك مجاوزة حد الطاقة البشرية ظلمًا وجورًا، فقد انبهرت العقول**) أي تحيَّرت (**دون مبادئ إشراقه**) فضلاً عن مَناهيه (**وانتكصت**) أي كرَّت راجعةً (**علىٰ أعقابها اضطرارًا وقهرًا. والصلاة علىٰ**) سيدنا (**محمد سيد ولدِ آدم**) الأوَّلين منهم والآخِرين (**وإن كان**) هو (**لم يعدَّ سيادتَه فخرًا**) أي لم يفتخر بها. يشير إلىٰ ما ورد: «أنا سيد ولدِ آدم ولا فخر» (**صلاةً تبقىٰ لنا**) أي مثبَتة في صحائف أعمالنا (**في عَرَصات القيامة**) عند وزن الأعمال (**عدَّةً وذخرًا**) أي وسيلة للنجاة من الهلاك (**وعلىٰ آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم في سماء الدين بدرًا**) يُستضاء به ويُهتدَىٰ بنوره (**ولطوائف المسلمين**) أي لجماعتهم (**صدرًا**) أي مقدَّمًا يُقتدَىٰ به (**وسلَّم تسليمًا كثيرًا**) كثيرًا.

(**أما بعد، فقد وردت السنَّة بأنَّ: تفكُّر ساعة خير من عبادة سنة**) قال

العراقي[١]: رواه أبو الشيخ ابن حبَّان في كتاب العظمة[٢] من حديث أبي هريرة بلفظ «ستين سنة» بإسناد ضعيف، ومن طريقه ابنُ الجوزي في الموضوعات[٣]، ورواه الديلمي في مسند الفردوس[٤] من حديث أنس بلفظ «ثمانين سنة»، وإسناده ضعيف جدًّا. ورواه أبو الشيخ[٥] من قول ابن عباس بلفظ: خير من قيام ليلة.

قلت: لكن لفظ أبي الشيخ: «فكرة ساعة»، هكذا رواه عن أبي هريرة. ولفظ الديلمي: «تفكُّرُ ساعة في اختلاف الليل والنهار خيرٌ من عبادة ثمانين سنة». وللديلمي من وجه آخر من حديث أنس نحو قول ابن عباس. ورواه صالح بن أحمد في كتاب «التبصرة» عن أنس مرفوعًا بلفظ: «خير من قيام ليلة». ورواه أبو الشيخ أيضًا في كتاب العظمة عن نهشل عن الضحَّاك عن ابن عباس رفعه: «التفكُّر في عظمة الله وجنَّته وناره ساعةً خيرٌ من قيام ليلة، وخير الناس المتفكِّرون في ذات الله، وشرُّهم مَن لا يتفكَّر في ذات الله».

(**وكثرَ الحثُّ في كتاب الله تعالىٰ علىٰ التدبُّر والاعتبار والنظر والافتكار**) هو افتعال من الفكر بمعنىٰ التفكُّر (**ولا يخفَىٰ أن الفكر هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم، ومصيدة المعارف والفهوم**) أي به تُستفاد العلوم، وبه تحصل المعارفُ والفهوم (**وأكثر الناس قد عرفوا فضله ورتبته**) لِما يُتلَىٰ علىٰ أسماعهم من تكرار ذِكره في كتاب الله تعالىٰ والأخبار النبوية (**لكن جهلوا حقيقتَه وثمرته ومصدره ومورده ومَجراه ومسرحه وطريقه وكيفيَّته، ولم يعلم أنه كيف يتفكَّر، وفي ماذا يتفكَّر، ولماذا يتفكَّر، وما الذي يُطلَب به، أهو مرادٌ لعينه أم**

(١) المغني ٢/ ١١٩٣.
(٢) العظمة ١/ ٣٠٠.
(٣) الموضوعات ٣/ ١٤٤.
(٤) الفردوس بمأثور الخطاب ٢/ ٧٠.
(٥) العظمة ١/ ٢٩٨.

لثمرة تُستفاد منه، فإن كان لثمرة فما تلك الثمرة، أهي من العلوم أو من الأحوال) المستفادة من العلوم (أو منهما جميعًا. وكشفُ جميع ذلك مهمٌّ، ونحن نذكر أولاً فضيلة التفكر، ثم حقيقة التفكر وثمرته، ثم مجاري الفكر ومسارحه، إن شاء الله تعالىٰ).

فضيلة التفكر

اعلمْ أنه (قد أمر الله تعالىٰ بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تُحصَىٰ، وأثنىٰ علىٰ المتفكِّرين فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾) أي[1] يذكرونه دائمًا علىٰ الحالات [كلها] قائمين وقاعدين ومضطجعين (﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾) استدلالاً واعتبارًا (﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾) [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١] علىٰ إرادة القول، أي يتفكرون قائلين ذلك، وهذا إشارة إلىٰ المتفكَّر فيه، أي الخلق، علىٰ أنه أريدَ به المخلوق من السموات والأرض، والمعنىٰ: ما خلقتَه عبثًا ضائعًا من غير حكمة، بل خلقتَه لحِكَم عظيمة، من جملتها أن يكون مبتدأ لوجود الإنسان وسببًا لمعاشه ودليلاً يدلُّه علىٰ معرفتك ويحثُّه علىٰ طاعتك؛ لينال الحياة الأبديةَ والسعادة السرمديَّة في جوارك.

(وقد قال ابن عباس ﵄: إن قومًا تفكروا في الله ﷿، فقال النبي ﷺ: تفكَّروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره) قال العراقي[2]: رواه أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف، ورواه الأصبهاني في الترغيب والترهيب[3] من وجه آخر أصح منه، ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر، وقال: هذا إسناد فيه نظرٌ. قلت: فيه الوازع بن نافع، متروك. انتهىٰ.

قلت: حديث ابن عمر لفظه: «تفكروا في آلاء الله، ولا تفكَّروا في الله». هكذا

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٢/ ٥٤.

(٢) المغني ٢/ ١١٩٣.

(٣) الترغيب والترهيب ١/ ٣٨٩.

رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة[١] والطبراني في الأوسط[٢] وابن عدي[٣] وابن مردويه والبيهقي[٤] وضعَّفه والأصبهاني[٥] وأبو نصر في الإبانة وقال: غريب. ورواه أبو الشيخ[٦] من حديث ابن عباس: «تفكروا في الخلق، ولا تفكَّروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدْرَه». ورواه ابن النجار والرافعي[٧] من حديث أبي هريرة: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في الله». وقال [محمد بن] عثمان بن أبي شيبة في كتاب العرش[٨] له: حدثنا وهب بن بقية، حدثنا خالد ابن عبد الله، عن عطاء، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: تفكروا في كل شيء، ولا تفكَّروا في الله، فإنَّ بين السماء السابعة إلىٰ كرسيِّه ألف نور، وهو فوق ذلك». ورواه كذلك أبو الشيخ[٩] وابن مردويه وأبو نصر السِّجْزي والبيهقي في الأسماء والصفات[١٠]. وروىٰ أبو الشيخ[١١] من حديث أبي ذر: «تفكروا في خلق الله، ولا تفكَّروا في الله فتهلكوا».

(وعن النبي ﷺ أنه خرج علىٰ قوم ذات يوم وهم يتفكرون، فقال: ما لكم لا تتكلمون؟ فقالوا: نتفكر في خلق الله ﷻ. قال: فكذلك فافعلوا، تفكروا في خلقه، ولا تتفكروا فيه، فإنَّ بهذا المغرب أرضًا بيضاء، نورها بياضها، وبياضها نورها،

---

(١) العظمة ١/ ٢١٠.

(٢) المعجم الأوسط ٦/ ٢٥٠.

(٣) الكامل في الضعفاء ٧/ ٢٥٥٦.

(٤) شعب الإيمان ١/ ٢٦٣.

(٥) الترغيب والترهيب ١/ ٣٩٠.

(٦) العظمة ١/ ٢١٦.

(٧) التدوين في أخبار قزوين ١/ ٢٨٠.

(٨) العرش ص ٣٤٣ (ط - مكتبة الرشد).

(٩) العظمة ١/ ٢١٢، ٢٤١.

(١٠) الأسماء والصفات ٢/ ٣٢٣.

(١١) العظمة ١/ ٢١٥.

مسيرة الشمس أربعين يومًا، بها خلقٌ من خلق الله عَزَّوَجَلَّ لم يعصوا الله عَزَّوَجَلَّ طرفةَ عين. قالوا: يا رسول الله، فأين الشيطان منهم؟ قال: ما يدرون خُلِق الشيطان أم لا. قالوا: من ولد آدم؟ قال: لا يدرون خُلِق آدم أم لا)[1] قال العراقي: رويناه في جزء. ثم ترك البياض ولم يعيِّن الجزءَ ولا مَن رواه[2]. وقد ذكره المصنف في كتاب الجواهر والدرر[3] من حديث ابن عباس: «إن لله أرضًا بيضاء، مسيرة الشمس فيها ثلاثون يومًا، وهي مثل [أيام] الدنيا ثلاثون مرةً، مشحونة خلقًا لا يعلمون أن الله تعالىٰ يُعصَىٰ في الأرض، ولا يعلمون أن الله تعالىٰ خلق آدم وإبليس». انتهىٰ.

قلت: رواه أبو الشيخ في العظمة[4] من حديث أبي هريرة: «إن لله تعالىٰ أرضًا من وراء أرضكم هذه بيضاء، نورها بياضها، مسيرة شمسكم هذه أربعين يومًا، فيها عِباد لله لم يعصوه طرفةَ عين، ما يعلمون أن الله خلق الملائكة ولا آدم ولا إبليس، هم قوم يقال لهم الروحانيون، خلقهم الله من ضوء نوره».

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[5] من طريق إسماعيل بن عيَّاش، عن الأحوص بن حكيم، عن شهر، عن ابن عباس أنه ﷺ خرج علىٰ أصحابه فقال: «ما جمعكم»؟ فقالوا: اجتمعنا نذكر ربَّنا، ونتفكر في عظمته. فقال: «تفكروا في خلق الله، ولا تتفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدْره ...» الحديث، وفيه ذِكرُ إسرافيل، وهو الذي أشار إليه العراقي في الذي قبله وأن إسناده ضعيف.

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٨.

(٢) الذي في المغني ٢/ ١١٩٣: «رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام».

(٣) جواهر القرآن ص ٢٧ (ط - دار إحياء العلوم ببيروت).

(٤) العظمة ٤/ ١٤٤٠.

(٥) حلية الأولياء ٦/ ٦٥ - ٦٦، وليس فيه قوله (تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فإنكم لن تقدروا قدره) وإنما فيه: «ألا أخبركم ببعض عظمته؟ قلنا: بلىٰ يا رسول الله. قال: إن ملكا من حملة العرش يقال له إسرافيل، زاوية من زوايا العرش علىٰ كاهله، قد مرقت قدماه في الأرض السفلىٰ، ومرق رأسه من السماء السابعة العليا، في مثله من خليقة ربكم».

وروىٰ أحمد ومن طريقه الطبراني ثم صاحب الحلية[١] من طريق عبد الجليل ابن عطية، عن شهر، عن عبد الله بن سلام قال: خرج رسول الله ﷺ علىٰ ناس من أصحابه وهم يتفكرون في خلق الله، فقال لهم: «فيمَ كنتم تتفكرون»؟ قالوا: نتفكر في الله. فقال: «لا تتفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله، فإن ربَّنا خلق ملَكًا قدماه في الأرض السابعة السفلىٰ، ورأسه قد جاوز السماءَ العليا، ما بين قدميه إلىٰ ركبتيه مسيرة ستمائة عام، وما بين كعبيه إلىٰ أخمص قدميه مسيرة ستمائة عام، والخالق أعظم من الخلق».

وروىٰ ابن أبي الدنيا عن عثمان بن أبي دهرش قال: بلغني أن رسول الله ﷺ انتهىٰ إلىٰ أصحابه وهم سكوت لا يتكلمون، فقال: «ما لكم لا تتكلمون»؟ قالوا: نتفكر في خلق الله. قال: «كذلك فافعلوا، تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا فيه»[٢].

قال الحافظ السخاوي في المقاصد[٣]: وهذه الأخبار أسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يُكسِب قوةً، والمعنىٰ صحيح، وفي صحيح مسلم[٤] من حديث أبي هريرة: «لا يزال الناس يتساءلون حتىٰ يقال: هذا خلق اللهُ الخَلقَ، فمَن خلق اللهَ؟ فمَن وجد من ذلك شيئًا فليقلْ: آمنت بالله».

(وعن عطاء[٥]) بن أبي رَباح المكِّي الفقيه الثقة، روىٰ له الجماعة (قال:

---

(١) حلية الأولياء ٦/ ٦٧.

(٢) أورده ابن كثير في تفسيره ٨/ ١٥٧، وتمامه: «فإن بهذا المغرب أرضا بيضاء نورها ساحتها - أو قال: ساحتها نورها - مسيرة الشمس أربعين يوما، بها خلق الله تعالىٰ لم يعصوا الله طرفة عين قط. قالوا: فأين الشيطان عنهم؟ قال: ما يدرون خلق الشيطان أم لم يخلق. قالوا: أمن ولد آدم؟ قال: ما يدرون خلق آدم أم لم يخلق».

(٣) المقاصد الحسنة ص ١٥٩.

(٤) صحيح مسلم ١/ ٧١.

(٥) تقريب التهذيب ص ٦٧٧.

انطلقت يومًا أنا وعبيد[١] **بن عمير)** بن قتادة الليثي، قاص أهل مكة، ثقة، روىٰ له الجماعة **(إلىٰ عائشة** رضي الله عنها، **وبينها وبيننا حجاب، فقالت: يا عبيد، ما يمنعك من زيارتنا؟ قال: قول رسول الله** ﷺ: **زُرْ غِبًّا تزددْ حبًّا. قال ابن عمير: فأخبرينا بأعجب شيء رأيتيه من رسول الله** ﷺ. **قال: فبكت وقالت: كل أمره كان عجبًا، أتاني في ليلتي حتىٰ مسَّ جلدُه جلدي، ثم قال: ذريني أتعبَّد لربِّي** عز وجل. **فقام إلىٰ القربة فتوضأ منها، ثم قام يصلي، فبكىٰ حتىٰ بلَّ لحيتَه، ثم سجد حتىٰ بلَّ الأرض، ثم اضطجع علىٰ جنبه، حتىٰ أتىٰ بلالٌ يؤذِنه بصلاة الصبح، فقال: يا رسول الله، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: ويحك يا بلال! وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله عليَّ في هذه الليلة:** ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ [آل عمران: ١٩٠] **ثم قال: ويلٌ لمَن قرأها ولم يتفكَّر فيها)**[٢] قال العراقي[٣]: تقدم في كتاب الصبر والشكر وأنه [في صحيح ابن حبان] من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء. انتهىٰ.

قلت: ورواه كذلك عبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه وابن أبي الدنيا في التفكر وابن عساكر، كلهم عن عطاء نحوه، وفيه: ثم قام يصلي، فبكىٰ حتىٰ سالت دموعُه علىٰ صدره، ثم ركع فبكىٰ [ثم رفع رأسه فبكىٰ] ثم سجد فبكىٰ، ثم رفع رأسه فبكىٰ، فلم يزل كذلك حتىٰ جاء بلال فآذَنه بالصلاة.

وأما[٤] حديث «زُرْ غِبًّا تزددْ حبًّا»، فرواه البزار[٥] والحارث بن أبي أسامة[٦]

(١) السابق ص ٦٥١.

(٢) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٣) المغني ٢/ ١١٩٤.

(٤) المقاصد الحسنة ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

(٥) مسند البزار ١٦/ ١٩١.

(٦) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث ص ٨٦٢.

في مسنديهما ومن طريق ثانيهما أبو نعيم في الحلية(١) من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن أبي هريرة به مرفوعًا، وكذا أخرجه العسكري في الأمثال والبيهقي في الشعب(٢) وقال: إن طلحة غير قويٍّ، وقد رُوي هذا الحديث بأسانيد هذا أمثلُها. وقال العقيلي(٣): هذا الحديث إنما يُعرَف بطلحة، وقد تابعه قوم نحوه في الضعف، وإنما يُروَىٰ هذا عن عطاء عن عبيد بن عمير قوله. انتهىٰ. قال الحافظ السخاوي: يشير إلىٰ ما رواه ابن حبان في صحيحه عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير علىٰ عائشة، فقالت لعبيد: قد آنَ لك أن تزورنا. فقال: أقول لكِ يا أمَّه كما قال الأول: زُرْ غبًّا تزددْ حبًّا. فقالت: دعونا من رَطانتكم هذه ... وذكر حديثًا.

(فقيل للأوزاعي) عبد الرحمن بن عمرو الفقيه رحمه الله تعالىٰ: **(ما غاية التفكر فيهن؟ قال: يقرؤهنَّ و)** هو **(يعقلهنَّ)**(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(وعن محمد بن واسع) البصري رحمه الله تعالىٰ **(أن رجلاً من أهل البصرة ركب إلىٰ أم ذر)** وهي امرأة أبي ذر، قال الحافظ(٥): وقفتُ علىٰ حديث فيه التصريح بأنها أسلمت مع أبي ذر في أول الإسلام، أخرجه الفاكهي في تاريخ مكة(٦) **(بعد**

---

(١) حلية الأولياء ٣/ ٣٢٢.

(٢) شعب الإيمان ١٠/ ٥٦٨، ٥٧٠.

(٣) الضعفاء الكبير ٢/ ٦١٣، ٤/ ١٣٣٩.

(٤) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.

(٥) الإصابة في تمييز الصحابة ١٣/ ٢٠٤.

(٦) لم أقف علىٰ هذا الحديث في كتاب الفاكهي، وقد أورده ابن حجر بلفظ: «كان النبي ﷺ إذا أراد أن يبتسم قال لأبي ذر: يا أبا ذر، حدثني ببدء إسلامك. قال: كان لنا صنم يقال له: نهم، فأتيته فصببت له لبنا ووليت، فحانت مني التفاتة، فإذا كلب يشرب ذلك اللبن، فلما فرغ رفع رجله فبال علىٰ الصنم، فأنشأت أقول:

ألا يا نهم إني قد بدا لي ... مدىٰ شرف يبعد منك قربا
رأيت الكلب سامك خطّ خسف ... فلم يمنع قفاك اليوم كلبا

فسمعتني أم ذر فقالت: لقد أتيت جرما وأصبت عُظما حين هجوت نهما. فأخبرتها الخبر، =

موت أبي ذر) رضي الله عنه **(فسألها عن عبادة أبي ذر، فقالت: كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر)**[١] رواه أبو نعيم في الحلية[٢] فقال: حدثنا عبد الله ابن محمد، حدثنا عبد الله بن محمد بن عمران، حدثنا حسين المروزي، حدثنا الهيثم بن جميل، حدثنا صالح المري، عن محمد بن واسع أن رجلاً من البصرة ركب إلىٰ أم ذر بعد وفاة أبي ذر يسألها عن عبادة أبي ذر، فأتاها فقال: جئتك لتخبريني عن عبادة أبي ذر. قالت: كان النهار أجمع خاليًا يتفكر.

(وعن الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ **(قال: تفكُّرُ ساعة خيرٌ من قيام ليلة)**[٣] رواه أبو نعيم في الحلية[٤] قال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد، حدثنا عبد الله بن سفيان، حدثنا داود بن عمرو الضَّبِّي، حدثنا فضيل بن عياض، عن هشام، عن الحسن ... فذكره. وهذا قد رواه أيضًا أبو الشيخ في العظمة من قول ابن عباس، ورواه صالح بن أحمد في كتاب «التبصرة» من حديث أنس، وقد تقدَّم قريبًا.

(وعن الفضيل) بن عياض رحمه الله تعالىٰ **(قال: الفكر مرآة تريك**

= فقالت:

ألا فابغنا ربا كريما ... جوادا في الفضائل يا ابن وهب
فما من سامه كلب حقير ... فلم تمنع يداه لنا برب
فما عبد الحجارة غير غاو ... ركيك العقل ليس بذي لب

فقال ﷺ: صدقت أم ذر، فما عبد الحجارة غير غاو». وقد علق الشيخ الألباني عليه في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة ١٣/ ١١٠١ بقوله: «والحديث في نقدي منكر، ويد الصنع والقصاص فيه ظاهرة، ويكفي أن شيئا من ذلك لم يرد في قصة إسلامه هو وأخيه أنيس وأمهما الثابتة في الصحيحين عن ابن عباس، وهي في مسلم عن أبي ذر نفسه أطول».

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.
(٢) حلية الأولياء ١/ ١٦٤.
(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.
(٤) حلية الأولياء ٦/ ٢٧١.

حسناتك وسيئاتك. وقيل لإبراهيم) بن أدهم: **(إنك تطيل الفكرة. فقال: الفكرة مخ العمل)** [١] هذان القولان أوردهما أبو نعيم في الحلية[٢] بسند واحد فقال: حدثنا عبد الله بن محمد ومحمد بن علي قالا: حدثنا أبو يعلىٰ، حدثنا عبد الصمد بن يزيد قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: قيل لإبراهيم: إنك لَتطيلُ الفكرة. قال: الفكرة مخ العمل. قال: وسمعت الفضيل يقول: قال الحسن: الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.

(وكان سفيان بن عيينة) رحمه الله تعالىٰ **(كثيرًا ما يتمثَّل بقول القائل:**

إذا المرء كانت له فكرةٌ ففي كل شيء له عِبرة)[٣]

رواه أبو نعيم في الحلية[٤] فقال: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن محمد بن عمر، حدثنا عبد الله بن محمد بن عبيد، حدثنا إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت سفيان ابن عيينة يقول: الفكرة نورٌ تدخله قلبَك. قال عبد الله: وحدثنا أبو حفص القرشي قال: كان سفيان بن عيينة ربما يتمثَّل:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

قال: وبلغني عن سفيان بن عيينة قال: التفكر مفتاح الرحمة، ألا ترىٰ أنه يتفكر فيتوب.

(وعن طاووس) بن كَيْسان اليماني رحمه الله تعالىٰ **(قال: قال الحواريُّون)** أصحاب عيسىٰ **(لعيسىٰ ابن مريم)** عليه السلام: **(يا روح الله، هل علىٰ الأرض اليوم مثلك؟ فقال: نعم، مَن كان منطقه ذكرًا وصمته فكرًا ونظره عبرة فإنه مثلي)**[٥] رواه

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٣٠٦.

(٥) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.

ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: **(مَن لم يكن كلامه حكمة فهو لغو، ومَن لم يكن سكوته تفكرًا فهو سهو، ومَن لم يكن نظرُه اعتبارًا فهو لهو)**[١] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

وروىٰ أبو نعيم في الحلية[٢] من طريق إبراهيم بن الأشعث قال: سمعت فضيلاً يقول: كلام المؤمن حِكَمٌ، وصمته تفكُّر، ونظرُه عبرة [وعملُه بِرٌّ] وإذا كنت كذا لم تزل في عبادة.

(وفي قوله تعالىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] **قال: أمنع قلوبَهم التفكرَ في أمري)**[٣].

وعن أبي سعيد الخُدري) رَضِيَ اللهُ عَنْهُ **(قال: قال رسول الله** ﷺ: **أعطُوا أعينكم حظَّها من العبادة. فقالوا: يا رسول الله، وما حظُّها من العبادة. قال: النظر في المصحف)** أي[٤] قراءة القرآن نظرًا في المصحف، فإنه أفضل من قراءته من حفظه، وبه أخذ [أكثر] السلف، قال النووي[٥]: وهكذا قاله أصحابنا، وليس علىٰ إطلاقه، إنما هو تابع للتدبُّر وجمعِ القلب والبصر **(والتفكر فيه)** أي التأمُّل في معانيه **(والاعتبار عند عجائبه)**[٦] من أوامره وزواجره ومواعظه وأحكامه وقصصه ووجوه بلاغته وبديع

---

(١) رواه قوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٣٩٤.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٩٨.

(٣) أورده الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩، ورواه أبو الشيخ في العظمة ١/ ٢٢٥ والختلي في المحبة لله ص ١٠٥ وقوام السنة في الترغيب والترهيب ١/ ٣٩٤ عن محمد بن يوسف الفريابي.

(٤) فيض القدير ١/ ٥٦١.

(٥) الأذكار ص ٩٠ - ٩١، وفيه: «وهذا ليس علىٰ إطلاقه، بل إن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والتفكر وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل من المصحف فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا فمن المصحف أفضل، وهذا مراد السلف».

(٦) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٥٩.

رموزه وإشاراته.

قال العراقي(١): رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر ومن طريقه أبو الشيخ في كتاب العظمة(٢) بإسناد ضعيف. انتهىٰ.

قلت: ورواه أيضًا الحكيم في النوادر(٣) والبيهقي في الشعب(٤) وضعَّفه.

(و) يُحكَىٰ (عن امرأة) صالحة (**كانت تسكن البادية قريبًا من مكة أنها قالت: لو تطالعت قلوبُ المتَّقين بفكرها إلىٰ ما قد ادُّخِر لها في حُجُب الغيب من خير الآخرة لم يَصْفُ لهم عيشٌ ولم تقرَّ لهم في الدنيا عينٌ**)(٥) رواه ابن أبي الدنيا عن أبي علي المديني عن أبي الحسن أكدام، وكان من خيار الناس.

(**وكان لقمان**) الحكيم رحمه الله تعالىٰ (**يطيل الجلوسَ وحده، فكان يمرُّ به مولاه فيقول: يا لقمان، إنك تديم الجلوسَ وحدك، فلو جلستَ مع الناس كان آنَس لك. فيقول لقمان: إنَّ طول الوحدة أفهمُ للفكر، وطول الفكر دليل علىٰ طريق الجنة**)(٦) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(**وقال وهب بن منبه**) رحمه الله تعالىٰ: (**ما طالت فكرة امرئ قط إلا علمَ، وما علم امرؤ قط إلا عملَ**)(٧) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

---

(١) المغني ٢/ ١١٩٤.

(٢) العظمة ١/ ٢٢٦.

(٣) نوادر الأصول ص ١٠٤١.

(٤) شعب الإيمان ٣/ ٥٠٩.

(٥) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠، ورواه الخرائطي في اعتلال القلوب ص ٢٨، وابن الجوزي في مثير العزم الساكن ١/ ١٧٩.

(٦) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٧) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠، ورواه أبو الشيخ في العظمة ١/ ٣١٣ بلفظ: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فهم، وما فهم امرؤ قط إلا علم، وما علم امرؤ قط إلا عمل».

(وقال عمر بن عبد العزيز) رحمه الله تعالىٰ: **(الفكرة في نعم الله عَزَّوَجَلَّ من أفضل العبادة)**[١] رواه أبو نعيم في الحلية[٢].

(وقال عبد الله بن المبارك) رحمه الله تعالىٰ **(يومًا لسهل بن علي ورآه ساكتًا متفكرًا: أين بلغتَ؟ قال: الصراط)**[٣] رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال بِشر) بن الحارث رحمه الله تعالىٰ: **(لو تفكَّرَ الناس في عظمة الله تعالىٰ ما عصوا الله تعالىٰ)**[٤] رواه أبو نعيم في الحلية[٥].

(وعن ابن عباس) رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: **(ركعتان مقتصدتان في تفكُّرٍ خيرٌ من قيام ليلة بلا قلب)**[٦] وروىٰ أبو الشيخ في العظمة من طريق نهشل عن الضحَّاك عن ابن عباس: «التفكر في عظمة الله وجنَّته وناره ساعةً خيرٌ من قيام ليلة»، وقد تقدَّم قريبًا.

(وبينا أبو[٧] **شريح)** عبد الرحمن بن شُرَيح المَعافِري، كانت له عبادة وفضل، توفي بالإسكندرية سنة ١٦٧، روىٰ له الجماعة **(يمشي إذ جلس فتقنَّع بكسائه، فجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: تفكَّرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي)**[٨] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر[٩].

(وقال أبو سليمان) الداراني رحمه الله تعالىٰ: **(عوِّدوا أعينكم البكاءَ،**

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٢) حلية الأولياء ٥/ ٣١٤ بلفظ: «الكلام بذكر الله حسن، والفكرة في نعم الله أفضل العبادة».

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٤) السابق.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٣٣٧.

(٦) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠، ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق ص ١١٨، ٣٢٩، وأبو الشيخ في العظمة ١/ ٣٠٢. وعندهما: «خير من قيام ليلة والقلب ساهٍ».

(٧) تهذيب الكمال للمزي ١٧/ ١٦٧ - ١٦٩. تاريخ مصر لابن يونس ص ٣٠٥.

(٨) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٩) ورواه أيضا في كتاب العمر والشيب ص ٥٦ عن أبي أسامة المصري العابد.

وقلوبكم التفكر)[١] رواه أبو نعيم في الحلية[٢].

(وقال أبو سليمان) أيضًا: (الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية، والفكر في الآخرة يورث الحكمةَ ويحيي القلوبَ)[٣] رواه أبو نعيم في الحلية[٤].

(وقال حاتم الأصم) رحمه الله تعالىٰ: (من العبرة يزيد العلم، ومن الذكر يزيد الحب، ومن التفكر يزيد الخوف)[٥] رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال ابن عباس) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (التفكر في الخير يدعو إلىٰ العمل به، والندم علىٰ الشر يدعو إلىٰ تركِه)[٦] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(ويُروَىٰ) في الأخبار (أنه قال الله عَزَّ وَجَلَّ في بعض كتبه) التي أنزلها من السماء: (إني لست أقبل كلام كل حكيم، ولكن أنظر إلىٰ همِّه وهواه، فإذا كان همُّه وهواه لي جعلت صمته تفكرًا وكلامه حمدًا وإن لم يتكلم[٧].

وقال الحسن) البصري رحمه الله تعالىٰ: (إن أهل العقل لم يزالوا يعودون بالذكر علىٰ الفكر وبالفكر علىٰ الذكر حتىٰ استنطقوا قلوبَهم فنطقت بالحكمة)[٨]

---

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٤.

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦٠.

(٤) حلية الأولياء ٩/ ٢٧٨.

(٥) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١.

(٦) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٢/ ١٣٤ والآجري في أخبار عمر بن عبد العزيز ص ٨٠ (ط - مؤسسة الرسالة) ضمن رسالة طويلة كتبها الحسن البصري إلىٰ عمر بن عبد العزيز.

(٧) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١.

(٨) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١، ورواه أبو نعيم في حلية الأولياء ١٠/ ١٩، وفيه: استيقظت، بدل: استنطقوا. وزاد في آخره: وورثوا السر. وأورده ابن الجوزي في التبصرة ١/ ٥٧ بلفظ: =

رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر.

(وقال إسحاق بن خلف: كان داود) بن نصير **(الطائي)** رحمه الله تعالىٰ **(علىٰ سطح في ليلة قمراء، فتفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلىٰ السماء ويبكي حتىٰ وقع في دار جار له. قال: فوثب صاحب الدار من فراشه عريانًا وبيده سيف، وظن أنه لص، فلما نظر إلىٰ داود رجع ووضع السيف وقال: مَن ذا الذي طرحك من السطح؟ قال: ما شعرتُ بذلك)**[1] رواه أبو نعيم في الحلية[2] فقال: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا إبراهيم بن نائلة، حدثنا أحمد بن أبي الحواري، حدثنا إسحاق بن خلف قال: كان داود الطائي في ليلة مقمرة، فتفكر فقام فمشىٰ علىٰ السطح وهو شاخص حتىٰ وقع في دار جار له. قال: فوثب صاحب الدار عريانًا من الفراش فأخذ السيف ظنَّ أنه لص، فلما رأىٰ داودَ رجع فلبس ثيابه ووضع السيف وأخذ بيد داود حتىٰ ردَّه إلىٰ داره، فقيل لداود، فقال: ما دريتُ. أو: ما شعرت.

(وقال) أبو القاسم **(الجنيد)** قُدِّس سره: **(أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد، والتنسُّم بنسيم المعرفة، والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد، والنظر بحسن الظن بالله عَزَّوَجَلَّ. ثم قال: يا لها من مجالس ما أجلها! ومن شراب ما ألذه! طوبىٰ لمَن رُزِقه)**[3] رواه أبو نعيم في الحلية.

(وقال الشافعي رحمه الله تعالىٰ: استعينوا علىٰ الكلام بالصمت، وعلىٰ

= «ما زال أهل العلم يعودون بالتفكر علىٰ التذكر وبالتذكر علىٰ التفكر ويناطقون القلوب حتىٰ نطقت، فإذا لها أسماع وأبصار، فنطقت بالحكمة وضربت الأمثال فأورثت العلم».

(١) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١.

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٥٨.

(٣) الخركوشي في تهذيب الأسرار ص٤٦١، ورواه القشيري في الرسالة ص ٣٦ حتىٰ قوله (في ميدان التوحيد).

الاستنباط بالفكرة)[١] رواه البيهقي في مناقبه.

(**وقال أيضًا: صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور، والعزم في الرأي سلامة من التفريط والندم، والرويَّة والفكر يكشفان عن الحزم والفطنة، ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة، ففكِّرْ قبل أن تعزم، وتدبَّرْ قبل أن تهجم، وشاوِرْ قبل أن تُقدِم**) رواه البيهقي كذلك في مناقبه[٢].

(**وقال أيضًا: الفضائل أربع، إحداها: الحكمة**) وهي أعلاها (**وقوامها الفكرة. والثانية: العفَّة، وقوامها في الشهوة**) أي في تركها (**والثالثة: القوة، وقوامها في الغضب**) أي في تركه (**والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قُوَىٰ النفس**) رواه البيهقي كذلك في مناقبه. وهذه[٣] هي الفضائل النفسية، فأصولها أربعة: العقل وكماله العلم، والعفَّة وكمالها الورع، والشجاعة وكمالها المجاهدة، والعدل وكماله الإنصاف. وهي المعبَّر عنها بالدين، ويكمُل ذلك بالفضائل البدنية وهي أربعة: الصحة، والقوة، والجمال، وطول العمر. وبالفضائل المطيفة بالإنسان وهي أربعة أيضًا: المال، والأهل، والعز، وكرم العشيرة. ولا سبيل إلىٰ تحصيل ذلك إلا بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بأربعة أيضًا: هدايته، ورشده، وتسديده، وتأييده. فجميع ذلك خمسة أنواع، وهي عشرون ضربًا، ليس للإنسان مدخل في اكتسابها إلا فيما هو نفسيٌّ فقط.

---

(١) رواه أبو علي ابن حكمان في كتاب الأخبار والفوائد والحكايات ص ١٣٩ (ط - دار البشائر الإسلامية). وفي كتاب البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٣٢٧: «كان قسامة بن زهير أحد بني رزام بن مازن، مع نسكه وزهده ومنطقه من أبين الناس، وكان يعدل بعامر بن عبد قيس في زهده ومنطقه. وهو الذي قال: يا معشر الناس، إن كلامكم أكثر من صمتكم، فاستعينوا علىٰ الكلام بالصمت، وعلىٰ الصواب بالفكر».

(٢) مناقب الشافعي للبيهقي مطبوع بتحقيق العلامة السيد أحمد صقر، وقد اعتمد علىٰ ثلاثة أصول خطية، وليس فيه ما يعزوه إليه الزبيدي.

(٣) الذريعة للراغب ص ١٠٦ - ١٠٧.

وقد تقدم تفصيل ذلك في كتاب تهذيب الأخلاق.

وممَّا يُذكَر في فضيلة التفكر: ما[١] رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر عن عامر بن عبد قيس قال: سمعت غير واحد ولا اثنين ولا ثلاثة من أصحاب محمد ﷺ يقولون: إن ضياء الإيمان - أو نور الإيمان - التفكر.

وروىٰ ابن المنذر[٢] وأبو نعيم في الحلية[٣] من طريق عون بن عبد الله قال: سألتُ أمَّ الدرداء: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار.

وروىٰ أبو الشيخ والديلمي من حديث أبي هريرة: «بينما رجل مستلقٍ ينظر إلىٰ السماء وإلىٰ النجوم فقال: واللهِ إني لأعلمُ أنَّ لك خالقًا وربًّا، اللهم اغفر لي. فنظر الله إليه فغفر له»[٤].

وروىٰ ابن أبي حاتم وابن المنذر[٥] وابن مردويه والطبراني[٦] عن ابن عباس قال: أتت قريشٌ اليهودَ، فقالوا: ما جاءكم به موسىٰ من الآيات؟ قالوا: عصاه ويده بيضاء للناظرين. وأتوا النصارىٰ فقالوا: كيف كان عيسىٰ فيكم؟ قالوا: كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ. فأتوا النبيَّ ﷺ فقالوا: ادْعُ لنا ربَّك يجعل لنا الصفا ذهبًا. فدعا ربَّه، فنزلت: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٠] فليتفكَّروا فيها.

وروىٰ الديلمي[٧] من حديث أنس: «أفضل الزهد في الدنيا ذِكرُ الموت،

---

(١) الدر المنثور ٤/ ١٧٧، ١٨٢، ١٨٣.

(٢) تفسير ابن المنذر ص ٥٣٤.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٢٠٨، ٤/ ٢٥٣، ٧/ ٣٠٠.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله ص ٧٠، وابن العديم في بغية الطلب ٩/ ٣٩٧٩.

(٥) تفسير ابن المنذر ص ٥٣١.

(٦) المعجم الكبير ١٢/ ١٢.

(٧) الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ٣٥٧.

وأفضل العبادة التفكر، فمَن أثقله ذِكرُ الموت وجد قبره روضةً من رياض الجنة».

وقال ابن عطاء الله[١]: الفكرة سراج القلب، فإذا ذهبت فلا إضاءة له.

وقال بعض الحكماء: املأ عينيك من زينة هذه الكواكب وأَجِلْهما في جملة هذه العجائب، متفكِّرًا في قدرة مقدِّرها، متدبِّرًا حكمة مدبِّرها قبل أن يسافر بك القدَرُ ويُحال بينك وبين النظر[٢].

ويُروَىٰ في بعض الأخبار أنه كان الرجل من بني إسرائيل إذا تعبَّدَ ثلاثين سنة أظلَّته سحابةٌ، ففعله رجل فلم تظلَّه، فشكا لأمه، فقالت: لعلَّك أذنبتَ. فقال: لا. قالت: فهل نظرتَ إلىٰ السماء فرددتَ طرفك غير مفكِّر فيها؟ قال: نعم. قالت: من ههنا أُتيتَ[٣].

(فهذه أقاويل العلماء في الفكرة) وفضلها **(وما شرع أحدٌ منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها)** ثم اعلمْ أن التفكر له مقدمات ولواحق، فمن مقدماته: السماع والتيقُّظ والتذكُّر، ومن لواحقه: العلم؛ لأن مَن سمع تيقَّظ، ومَن تيقَّظ تذكَّر، ومَن تذكَّر تفكَّر، ومَن تفكَّر علمَ، ومَن علمَ عملَ إن كان علمًا يُراد للعمل، وإن كان علمًا يُراد لذاته سعدَ، والسعادة غاية المَطلب. أما السماع والعلم فقد تقدَّم ذِكرُ كلٍّ منهما في كتاب مستقلٍّ، واحتاج الأمر إلىٰ بيان اليقظة والتذكُّر.

---

(١) الحكم العطائية بشرح ابن عباد الرندي ص ٨٨.

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف ١/ ٦٧٤ - ٦٧٥.

(٣) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٨/ ٢٢٣ عن أبي الأحوص قال: بلغني أن عابدا في بني إسرائيل - وكان الرجل إذا تعبد ثلاثين سنة أظلته غمامة - تعبد ثلاثين سنة، فلم ير شيئا يظله، فشكا ذلك إلىٰ والدته فقال: يا أمه، قد تعبدت منذ ثلاثين سنة ولا أرىٰ شيئا يظلني. قالت: يا بني تفكر هل أذنبت ذنبا منذ أخذت في عبادتك؟ قال: لا أعلمني أذنبت ذنبا منذ ثلاثين سنة. قالت: يا بني، بقيت واحدة إن نجوت منها رجوت أن تظلك، هل رفعت طرفك إلىٰ السماء ثم رددته بغير فكرة؟ قال: كثيرا.

وحقيقة اليقظة: الانتباه من النوم، وهي في هذا الباب انتباه القلب للخير لا غير، قال الإمام أبو إسماعيل الهَرَوي[١]: هي القومة لله تعالىٰ من سِنَة الغفلة، والنهوض من ورطة الفترة. قال الكمال الصوفي: والقومة والنهوض هما ثمرة الانتباه، والنهوض هو قيامٌ بسرعة، فعلىٰ هذا تكون القومة لله واجبة علىٰ الفور في الأوامر والنواهي الفوريَّة، وهي متعلقة بكل مقام؛ لأن العبد مأمور بالترقِّي من حضيض إلىٰ ارتفاع، ومن ارتفاع إلىٰ أفق .. وهكذا فصاعدًا، فكلَّما كان القلب في حالة وتنبَّهَ من نفسه أو من غيره بحالة تسمو علىٰ حالته الأولىٰ استُحِبَّ له الارتقاء إليها؛ ليكون له حالاً، وما كان قبله مقامًا .. وهكذا إلىٰ ما لا يتناهَىٰ. وتشرُف اليقظةُ بشرف العلم المستيقَظ به، وكل ما جاء في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من ذِكر المسارعة إلىٰ المغفرة والمسارعة إلىٰ الخيرات فهو دليل علىٰ فضلها.

فصل في التذكر: اعلمْ أن القلب إذا انتبه من غفلته وتيقَّظ من رقدته تذكَّر ما كان نسيه، وانظر إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [غافر: ١٣] فجعل الإنابة شرطًا للانتفاع بالتذكر. وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ [ق: ٣٧] فجعل للتذكر ثلاثة أسباب: إلقاء السمع، وحضور القلب، وشهوده للفهم. فعلىٰ هذا تكون حقيقة التذكر: استدعاء ما كان موجودًا عنده ثم نسيه وتكرارُه علىٰ القلب حتىٰ يثبُت ويرسخ، وسبب ذلك أن العلوم كلها مركوزة في النفوس بالفطرة، وهي كامنة فيها ككمون النار في الحجر، والنخلة في النواة، وذلك أنها قابلة لإدراك العلوم كلها، فالمعلِّم لا يُحدِث لها شيئًا من خارج، وإنما يُخرِج بالتعليم ما هو كامن فيها، وإنما طرأ عليه النسيان بسبب اغترابها في عالَم الشهادة عالَم الخيال والظلمة، فمتىٰ سكتت عنها حركة الخيال وظلمة الشهوات تجلَّىٰ لها عالَمُها الذي هو من أمر الله تعالىٰ المنزَّه عن الخيالات والأوهام وعن الجهات والمقدار، فحينئذٍ تذكَّر ما أودعه

(١) منازل السائرين ص ١١.

عندها سيدها ومالكُها وهاديها من الاعتراف بوجوده ووحدانيَّته وكل صفة تليق بعظمته وكبريائه، فمَن حُرم مثل هذا الاستبصار فقد خاب من الرحمة بطريق النظر والاعتبار، فإنه تعالىٰ أمرنا علىٰ لسان أنبيائه عليهم السلام بالتذكار، ثم لم يَكِلنا إلىٰ أنفسنا حتىٰ نبَّهنا فقال سبحانه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ۝٦٥ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٦٦﴾ [ص: ٦٥ - ٦٦] والتذكُّر يتعلق بالعقد والقول والفعل والترك، وهو واجب فيما يجب تذكره، ويحرُم بتذكر المعاصي إن أدَّىٰ إلىٰ استجلابها، بل يجب التغافُل عنها، ويُكره تذكُّرُ ما يُستقبَل من الأحوال؛ لأنه يفوِّت زمنًا صالحًا من العمر بموهوم لا يُدرَىٰ أيحصل أم لا، ولا يفعل ذلك إلا غافل جاهل لا يعرف قدْر عمره، وما دام المريد مفتقرًا إلىٰ التفكر فلا بد من التذكر؛ لأن التفكر هو استمداد الأنوار من الأذكار، ويشرف التذكرُ بشرف متعلقه، وعلامة صحة التذكر موافقةُ الشرع في جميع مراتبه، فمتىٰ وقع له غير ذلك فليعلم خطأه.

فصل: وأما التفكر ففضله عظيم، وقد مر في سياق المصنف ما يدل عليه، وصاحبه علىٰ بصيرة من أمره ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۝١٩﴾ [فاطر: ١٩، غافر: ٥٨] وهو مخصوص بنوع الإنسان؛ لأنه مركَّب من ظرف عقليٍّ وظرف حسيٍّ، والذات المركَّبة المدرِكة لا تدرك الأشياءَ إلا بنوع تركيبٍ، ولا يُعرَف التفاضُل إلا بالإضافة كإضافة الدرهم إلىٰ الدينار، وكإضافة الدنيا إلىٰ الآخرة، فيظهر شرفُ الشريف بالنظر إلىٰ خسَّة الخسيس، فانظر إلىٰ حالك في النوم كيف يريك الملَك الموكل بالرؤيا أرواحَ المعاني في قوالب الخيال لضرورة مادة يقظتك وتركيبها، ومَن له فهمٌ قنع من هذا العلم بالتلويح، وبهذا السبب تعرف حقيقة التفكر، فإنما مهَّدنا سببه ليسهُل مَدركُه. والله الموفِّق.

بيان حقيقة الفكر وثمرته

(اعلمْ) وفَّقك الله تعالىٰ (أن معنىٰ الفكر هو: إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة) وبيان ذلك: أنك إذا أردت اقتناص علمٍ أو حال جمعتَ بين علمين مناسبين لذلك العلم المطلوب بشرط عدم الشكوك فيهما وفراغ القلب من غيرهما، وحدَّقت النظر فيهما تحديقًا بالغًا فلم تشعر إلا وقد وجدتَ علمًا ثالثًا، وهو مطلوبك وبُغيتك (ومثاله: أنَّ مَن مال) قلبُه (إلىٰ العاجلة وآثرَ الحياةَ الدنيا وأراد أن) يميل إلىٰ الآخرة و(يعرف أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار من العاجلة فله طريقان، أحدهما: أن يسمع من غيره أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار من الدنيا، فيقلِّده) في ذلك (ويصدِّقه من غير بصيرة بحقيقة الأمر، فيميل بعمله إلىٰ إيثار الآخرة اعتمادًا علىٰ مجرَّد قوله، وهذا يسمَّىٰ تقليدًا، ولا يسمَّىٰ معرفةً. والطريق الثاني: أن يعرف أن الأبقىٰ أَولىٰ بالإيثار، ثم يعرف أن الآخرة أبقىٰ) لنفاستها وخساسة العاجلة، والعلم بكلٍّ منهما يكون علىٰ الشرط المتقدِّم (فيحصل له من هاتين المعرفتين معرفةٌ ثالثة وهي أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار) أي ينتقل القلب من الميل إلىٰ الخسيس إلىٰ الميل إلىٰ النفيس لا محالة، وربما لا يشعر به (ولا يمكن تحقُّق المعرفة بأن الآخرة أَولىٰ بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين، فإحضار المعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلىٰ المعرفة الثالثة يسمَّىٰ تفكرًا واعتبارًا وتذكرًا ونظرًا وتأمُّلاً وتدبُّرًا) وهذا السياق فيه أوفىٰ غموضٍ، والأَولىٰ أن يقال: إن إحضار المعرفتين يسمَّىٰ تذكرًا، وحصول المعرفة الثالثة يسمَّىٰ تفكرًا وتدبرًا ونظرًا واعتبارًا (أما التدبر والتأمل والتفكر، فعبارات مترادفة علىٰ معنًىٰ واحد ليس تحتها معانٍ مختلفة) فالتدبُّر[1] هو النظر في دُبُر الأمور، أي عواقبها. والتأمُّل هو إعادة النظر في الشيء مرة بعد

(١) التوقيف للمناوي ص ٨٩، ٩٣، ١٠٤.

أخرىٰ ليتحقَّقه. والتفكر هو تصرُّفُ القلب بالنظر في الدليل، وقيل: تصرُّفُ القلب في معاني الأشياء لدرك المطلوب. وقال الراغب[1]: الفكر: قوة مطرقة للعلم إلىٰ المعلوم، وهو تخيُّل عقليٌّ موجود في الإنسان، والتفكر: جولان تلك القوة بين الخواطر بحسب نظرِ العقل، وقد يقال للتفكر: الفكر. وبه تعلم الفرق بين الألفاظ الثلاثة **(وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر، فهي مختلفة المعاني، وإن كان أصل المسمَّىٰ واحدًا، كما أن اسم الصارم والمهنَّد والسيف يتوارد علىٰ شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة. فالصارم يدل علىٰ السيف من حيث هو قاطع)** وكذلك الصَّمْصام والرَّسُوب **(والمهنَّد يدل عليه من حيث نسبته إلىٰ الموضع)** وهو الهند، ومنه قول كعب:

* مهنَّد من سيوف الله مسلول[2] *

وكذلك القُلَعي **(والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد، فكذلك الاعتبار ينطلق علىٰ إحضار المعرفتين من حيث إنه يعبر منهما إلىٰ معرفة ثالثة)** افتعال[3] من العَبْر وهو التجاوُز من حال إلىٰ حال، والاسم: العِبرة، بالكسر، وهي عبارة عن الحالة التي يُتوصَّل بها من معرفة المُشاهَد إلىٰ ما ليس بمشاهَد **(فإن لم يقع العبور)** الأَولىٰ: العَبْر، فإنَّ العبور يختصُّ بتجاوُز الماء إما بسباحة أو في سفينة أو علىٰ بعير أو قنطرة[4] **(ولم يمكن إلا الوقوف علىٰ المعرفتين فينطلق عليه اسمُ التذكُّر لا اسم الاعتبار)** إذ في الاعتبار يراعَىٰ معنىٰ العَبْر، وليس في التذكر

---

(١) الذريعة ص ١٥٠.

(٢) عجز بيت، صدره:

إن الرسول لسيف يستضاء به

وهو في ديوان كعب بن زهير ص ٦٧ (ط – دار الكتب العلمية) من قصيدته المشهورة: بانت سعاد.

(٣) المفردات للراغب ص ٣٢٠.

(٤) ذكره المناوي في التوقيف ص ٩٤.

إلا محاولة القوة العقلية لاسترجاع ما فات بالنسيان[١] **(وأما النظر والتفكر، فيقع عليه من حيث إنَّ فيه طلب معرفة ثالثة)** ولذلك يطلق النظر على المعرفة الحاصلة بعد الفحص. وقد يُراد به التأمل والفحص. وقد يراد به طلب المعنى بالقلب من جهة الذكر، كما يُطلَب إدراك المحسوس بالعين. وقد يطلق على تقليب البصر أو البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته[٢] **(فمَن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمَّى ناظرًا)** إلا على وجه التجوُّز **(فكل متفكِّر فهو متذكِّر، وليس كل متذكِّر متفكِّرًا، وفائدة التذكار تكرارُ المعارف على القلب)** واسترجاع ما فات منها بالنسيان **(لترسخ)** وتثبُت **(ولا تنمحي عن القلب، وفائدة التفكر تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة)** من قبل **(فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكر)** وقال الراغب[٣]: التفكر: جريان القوة العلمية بحسب نظرِ العقل، ولا يقال إلا فيما يمكن أن تحصل له صورةٌ في القلب، ولهذا ورد: «ولا تفكَّروا في الله»؛ إذ كان الله منزَّهًا أن يوصَف بصورة». قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم﴾ [الروم: ٨] ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥] **(والمعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى، فالمعرفة نتاج المعرفة، فإذا حصلت معرفةٌ أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك نتاج آخَر .. وهكذا يتمادَى النتاجُ وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية)** وإذا عرفتَ هذا فقد نتجت لك سبيل السعادة في استنتاج العلوم واقتناصها، وهو واجب عند الشك وعند ورود الشُّبَه وعند علاج الأمراض الواجب إزالتها من القلوب، كما يجب طلبُ الخبز للجائع، والماء للعطشان، فمَن ترك ذلك وانتظر خلق الشبع من غير أكل وخلق الري من غير شرب ومات كان عاصيًا، وكذلك مَن ترك تكسُّب العلوم

---

(١) هذا التخصيص ذكره الراغب، ولم أره لغيره، والله أعلم.

(٢) المعنى الثالث ذكره البقاعي في نظم الدرر ٩/ ٢١٤، وبقية المعاني ذكرها الراغب في المفردات ص ٤٩٧.

(٣) المفردات ص ٣٨٤.

الواجبة واتَّكل علىٰ فضل الله تعالىٰ أن يجعله عالمًا بالإلهام كان عاصيًا، وإن كان ممكنًا، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨] فمَن عطَّل هذه الأدلةَ عن استعمالها فقد فعل ما حُرِّم عليه وكفر نعمةَ الله به في تعطيل هذه النعم (**وإنما تنسدُّ طريق زيادة المعارف بالموت**) فهو معذور إن لم يترك جهده في مدة حياته (**أو بالعوائق. هذا لمَن يقدر علىٰ استثمار العلوم ويهتدي إلىٰ طريق التفكر، وأما أكثر الناس فإنما مُنِعوا الزيادة في العلوم لفقدهم رأس المال وهو المعارف التي بها تُستثمَر العلوم**) والحاصل أن المانع من زيادة المعارف سببان، أحدهما: أن يكون المتفكِّر قليل المعارف فيقل نتاجُه (**كالذي لا بضاعة له فإنه لا يقدر علىٰ الربح**) لا محالة، والثاني: أن يكون كثير المعارف ولكن لا يُحسِن ازدواجها وائتلافها، وإليه أشار المصنف بقوله: (**وقد يملك البضاعة ولكن لا يُحسِن صناعة التجارة فلا يربح شيئًا، فكذلك قد يكون معه من المعارف ما هو رأس مال العلوم ولكنه ليس يُحسِن استعمالَها وتأليفها وإيقاع الازدواج المفضي إلىٰ النِّتاج فيها**) ولا ينجيه من هذه الورطة إلا الشيخ المفيد لهذه السعادة (**ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارةً تكون بنور إلهيٍّ في القلب يحصل بالفطرة كما كان للأنبياء صلوت الله عليهم أجمعين، وذلك عزيز جدًّا، وقد تكون بالتعلُّم والممارسة**) ومصاحبة المشايخ الكُمَّل ومداومة النظر إلىٰ أحوالهم (**وهو الأكثر**) فإنَّ لمجالستهم تأثيرًا عظيمًا (**ثم المتفكِّر قد تحضره هذه المعارفُ وتحصل له الثمرةُ وهو لا يشعر بكيفيَّة حصولها**) لأن ذلك الحصول عبارة عن انتقال القلب بسرعة من معرفة إلىٰ معرفة، فربما لا يحس به صاحبُه ويظن أنه واقف عند المعرفة الأولىٰ (و) ربما (**لا يقدر علىٰ التعبير عنها**) أي الثمرة (**لقلة ممارسته لصناعة التعبير في الإيراد**) ومعرفة هذه الصناعة أيضًا من الأمور المهمة لِما يتعدَّىٰ به النفعُ (**فكم من إنسان يعلم أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار علمًا حقيقيًّا**) لا شُبهة فيه (**ولو سُئل عن سبب معرفته لم يقدر علىٰ إيراده والتعبير عنه، مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن المعرفتين السابقتين وهو أن الأبقىٰ**

أَولىٰ بالإيثار، وأن الآخرة أبقىٰ من الدنيا، فتحصل له معرفة ثالثة وهي أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار، فرجع حاصل حقيقة التفكر إلىٰ إحضار معرفتين للتوصُّل بهما إلىٰ معرفة ثالثة) هذا ما يتعلق بحقيقة الفكر **(وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال)** الحاصلة من العلوم **(ولكن ثمرته الخاصة العلم لا غير)** والحال والعمل ينشآن من العلم **(نعم، إذا حصل العلم في القلب)** واستقرَّ فيه ولم يعرضه شكٌّ وغفلة **(تغير حالُ القلب، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح، فالعمل تابعُ الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر. فالفكر إذًا هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها)** لأن العلوم والأحوال هما البضاعة التي يقع بها الاتِّجار، وهذا هو السر في تقديم بعض العارفين كتاب التفكر علىٰ سائر كتب المنجيات **(وهذا هو الذي يكشف لك عن فضيلة التفكر وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن في التفكر ذكرًا وزيادة، وذكرُ القلب خير من عمل الجوارح، بل شرف العمل لِما فيه من الذكر)** وقد سبق للمصنف تحقيقُ أن المحبة الناشئة عن التفكر أفضل من المحبة الناشئة عن التذكر، والعلَّة أن التفكر رؤية والذكر سماع. هذا معنىٰ كلامه ﷺ في كتاب ترتيب الأوراد. وقد نقل القشيري رحمه الله تعالىٰ في رسالته[1] عن أحد المشايخ أن الذكر أفضل من الفكر؛ لأن الله يوصَف بالذكر، ولا يوصف بالفكر. وهذا فيه نظرٌ؛ لأن مَن عرف حقيقة التفكر علم أنه ذكرٌ وزيادة معرفة مقتضية. وعلىٰ الجملة، فلا يزال الفكر أفضل من الذكر؛ لأنه مقصود إلىٰ أن ينتهي إلىٰ حدٍّ ينقطع فيه الفكرُ ويبقىٰ الذكر مجرَّدًا عن الأدلة، فهذا الذكر أفضل من الفكر بلا خلاف. والله أعلم **(فإذًا التفكر أفضل من جملة الأعمال، ولذلك قيل: تفكرُ ساعة خير من عبادة سنة)** تقدَّم الكلام عليه قريبًا واختُلِف فيه **(فقيل: هو الذي**

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٣٨٤ - ٣٨٥، ونصه: «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي يسأل الأستاذ أبا علي الدقاق فقال: الذكر أتم أم الفكر؟ فقال الأستاذ أبو علي: ما الذي يقول الشيخ فيه؟ فقال الشيخ أبو عبد الرحمن: عندي الذكر أتم من الفكر؛ لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر، وما وصف به الحق سبحانه أتم مما اختص به الخلق. فاستحسنه الأستاذ أبو علي».

ينقل من المكاره إلىٰ المَحابِّ، ومن الرغبة والحرص إلىٰ الزهد والقناعة. وقيل: هو الذي يُحدِث مشاهدةً وتقوىٰ، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾﴾ [طه: ١١٣] وإن أردتَ أن تفهم كيفية تغيُّر الحال بالفكر فمثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرِّفنا أن الآخرة أَولىٰ بالإيثار، فإذا رسخت هذه المعرفة يقينًا في قلوبنا) بأن لا يعتريها شكٌّ مع الفراغ من غيرها (تغيَّرت القلوب إلىٰ الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا) من غير أن تشعر بذلك التغيُّر (وهذا ما عنيناه بالحال؛ إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والنفرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها، وبهذه المعرفة تغيَّر حالُ القلب وتبدَّلت إرادته ورغبته) وإنما سُمِّي الحال حالاً لتغيُّره من شأن إلىٰ شأن (ثم أثمر تغيُّرُ الإرادة أعمالَ الجوارح في اطِّراح الدنيا والإقبال علىٰ أعمال الآخرة) وبه ظهر أن العمل تابع الحال، والحال تابع المعرفة، والمعرفة تتبع الفكرَ (فههنا خمس درجات، أولاها: التذكر، وهو إحضار المعرفتين في القلب) بالشرط المتقدم (وثانيتها: التفكر، وهو طلبُ المعرفة المقصودة منهما) أي من المعرفتين (والثالثة: حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها. والرابعة: تغيُّر حالِ القلب عمَّا كان) عليه (بسبب حصول نور المعرفة. والخامسة: خدمة الجوارح للقلب بحسب ما يتجدَّد له من الحال) وقد مثَّل له المصنِّف بمثال فقال: (فكما يُضرَب الحجر علىٰ الحديد فتخرج منه نار يستضيء بها الموضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة، وتنتهض الأعضاء للعمل، فكذلك زناد نور المعرفة وهو الفكر، فيجمع بين المعرفتين) وهما بمنزلة الحديد والحجر (كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلِّف بينهما تأليفًا مخصوصًا كما يضرب الحجر علىٰ الحديد ضربًا مخصوصًا فينبعث نورُ المعرفة كما تنبعث النار من الحديد، ويتغيَّر القلب بسبب هذا النور حتىٰ يميل إلىٰ ما لم يكن يميل إليه) من قبل (كما يتغيَّر البصر بنور النار فيرىٰ ما لم يكن يراه، ثم تنتهض الأعضاء للعمل بمقتضَىٰ حال القلب كما ينتهض العاجز عن العمل

بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصيرة ما لم يكن يتصوَّره[1]**. فإذًا ثمرة الفكرِ العلومُ والأحوال،** و) تلك (**العلوم**) التي يثمرها الفكرُ (**لا نهاية لها، و**) تلك (**الأحوال التي يُتصوَّر أن تتقلَّب علىٰ القلب لا يمكن حصرُها**) إلا أن الفكر لا يتعلق إلا بالعلوم الكسبية، ولا مدخل له في العلوم الإلهامية؛ لأنه مجرَّد عن وسائط الكسب (**ولهذا لو أراد مريد أن يحصر فنون الفكر ومجاريه وأنه في ماذا يتفكر لم يقدر عليه؛ لأن مجاري الفكر غير محصورة، وثمراته غير متناهية. نعم، نحن نجتهد في ضبط مَجاريه بالإضافة إلىٰ مهمَّات العلوم الدينية، وبالإضافة إلىٰ الأحوال التي هي مقامات السالكين**) وفيه إشارة إلىٰ أن الحال قد يكون مقامًا، كما مرَّت الإشارة إليه في أول كتاب التوبة (**ويكون ذلك ضبطًا جمليًّا**) أي إجماليًّا (**فإن تفصيل ذلك يستدعي شرح العلوم كلها، وجملة هذه الكتب كالشرح لبعضها، فإنها مشتملة علىٰ**) ذِكر (**علوم، تلك العلوم تُستفاد من أفكار مخصوصة**) كالتوبة، والصبر، والخوف، والرجاء، والفقر، والزهد، والمحاسبة، والحياء، والمراقبة، والشكر، والتوكل، والنية، والإخلاص، والصدق، والتوحيد، والمحبة. فهذه ستة عشر مقامًا، ويضاف إليها مقامات أُخَر حتىٰ تكمل مائة مقام، ما من مقام إلا وهو مستفاد من حُسن الفكر (**فلنُشِرْ إلىٰ ضبط المَجامِع فيها فبه يحصل الوقوف علىٰ مجاري الفكر**) ومسارحه. والله الموفِّق.

---

(١) في الجميع: إدراك البصر ما لم يكن يبصره.

بيـان مجـاري الفكـر

(اعلمْ) هداك الله تعالىٰ أن الوجود كلَّه من ذروة العرش إلىٰ قاعدة الثَّرَىٰ معارج للملائكة ومراقي للأفكار المشتغلة بالنظر والاعتبار حتىٰ تصل إلىٰ معرفة الجبار، فهناك لا معرج ولا مرقىٰ؛ إذ ليس وراء الله مرمىٰ، وهذا لا يُحصَىٰ ولا يُستقصَىٰ، ولكن المقصود جملة حال المريد في سفره إلىٰ مولاه. فاعلم (أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين، وقد يجري فيما يتعلَّق بغير الدين، وإنما غرضنا) هنا (ما يتعلق بالدين، فلنترك القِسم الآخَر) ونذكر ما يتعلق بالدين (ونعني بالدين: المعاملة التي بين العبد وبين الرب تعالىٰ، فجميع أفكار العبد إما أن تتعلق بالعبد وصفاته وأحواله، وإما أن تتعلق بالمعبود وصفاته وأفعاله، لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين، وما يتعلق بالعبد إما أن يكون نظرًا فيما هو محبوب عند الرب تعالىٰ أو فيما هو مكروه، ولا حاجة إلىٰ الفكر في غير هذين القسمين. وما يتعلق بالرب تعالىٰ إما أن يكون نظرًا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنىٰ، وإما أن يكون في أفعاله ومُلكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما، وينكشف لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثال وهو: أن حال السائرين إلىٰ الله و) الطائرين (المشتاقين إلىٰ لقائه يضاهي حالَ العشَّاق، فلنتَّخذ العاشق المستهتر) بحب معشوقه (مثالًنا، فنقول: العاشق المستغرق الهم بعشقه لا يعدو فكرُه عن أن يتعلق بمعشوقه أو يتعلق بنفسه، فإن تفكَّر في معشوقه فإما أن يتفكر في جماله وحُسن صورته في ذاته ليتنعَّم بالفكر فيه وبمشاهدته، وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالَّة علىٰ أخلاقه وصفاته؛ ليكون ذلك مضعفًا للذَّته ومقوِّيًا لمحبَّته) فهذا طريق الفكر فيما يتعلق بالمحبوب (وإن تفكر في نفسه فيكون فكرُه في صفاته التي تسقطه من عين محبوبه حتىٰ يتنزَّه عنها) أي يتباعد (أو في الصفات التي تقرِّبه منه

وتحبّبه إليه حتىٰ يتّصف بها) فهذا طريق الفكر فيما يتعلق بالمحب (فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حدِّ العشق، وهو نقصان فيه؛ لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشقَ ويستوفي القلبَ) بكلِّيَّته (حتىٰ لا يترك فيه متسعًا لغيره، فمحب الله تعالىٰ ينبغي أن يكون كذلك، فلا يعدو نظرُه وتفكرُه محبوبَه، ومهما كان تفكره محصورًا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجًا عن مقتضَىٰ المحبة أصلاً، فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعال نفسه ليميِّز المحبوب منها عن المكروه، فإنَّ هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم المعاملة، وهو مقصود هذا الكتاب، وأما القسم الآخَر) الذي هو التفكر في ذات الله ومعاني أسمائه وصفاته وكيف يتخلَّق بها العبد (فيتعلَّق بعلم المكاشفة. ثم كل واحد ممَّا هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلىٰ: ظاهر كالطاعات والمعاصي، وإلىٰ باطن كالصفات المنجيات والمهلكات التي محلُّها القلب، وذكرنا تفصيلها في ربع المهلكات والمنجيات) وهو هذا الربع (والطاعات والمعاصي تنقسم) تارةً (إلىٰ ما يتعلق بالأعضاء السبعة) اليدان والرِّجلان والبصر والسمع واللسان (و) تارةً (إلىٰ ما يُنسَب إلىٰ جميع البدن) وهذا (كالفرار من الزحف، وعقوق الوالدين، والسكون في المسكن الحرام) وغير ذلك (ويجب في كل واحد من المكاره التفكرُ في ثلاثة أمور، الأول: التفكر في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا، فرُب شيء لا يظهر كونُه مكروهًا) في بادئ النظر (بل يُدرَك بدقيق النظر) وكثرة التأمُّل (والثاني: التفكر في أنه إن كان مكروهًا فما طريق الاحتراز عنه. والثالث): التفكر في (أن هذا المكروه هل هو متَّصف به في الحال فيتركه، أو هو متعرِّض له في الاستقبال فيحترز عنه، أو قارفه فيما مضىٰ من الأحوال فيحتاج إلىٰ تداركه) لما فرطَ منه (وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلىٰ هذه الانقسامات، فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجاري الفكر) واتَّسعت مسارحها (في هذه الأقسام علىٰ مائة، والعبد مدفوع إلىٰ الفكر إما في جميعها أو في أكثرها، وشرحُ آحاد هذه الأقسام يطول) ومسألة الحصر فيه تعول (ولكن انحصر هذا القِسم في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي،

والصفات المهلكات، والصفات المنجيات، فلنذكر في كل نوع مثالاً ليقيس به المريد سائرَها، وينفتح له باب الفكر ويتّسع عليه طريقُه.

النوع الأول: المعاصي، ينبغي أن يفتِّش الإنسان صبيحة كل يوم في جميع أعضائه السبعة تفصيلاً) كل عضو على حدة (ثم بدنه) من حيث المجموع (على الجملة هل هو في الحال) الراهنة (مُلابِس لمعصية بها فيتركها) في تلك الحال (أو لابَسها بالأمس فيتداركها بالترك والندم) والعزم على أن لا يعود لمثلها (أو هو متعرِّض لها في نهاره) فيما يستقبله (فليستعدَّ للاحتراز) عنها (والتباعُد منها، فينظر في اللسان ويقول: إنه متعرِّض للغِيبة والكذب وتزكية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والممازحة والخوض فيما لا يعني ... إلى غير ذلك من المكاره، فيقرِّر أولاً في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى، ويتفكر في شواهد القرآن والسنَّة على شدة العذاب فيها) وكثرة التوبيخ والعتاب على مرتكبيها (ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرَّض لها من حيث لا يشعر، ثم يتفكر أنه كيف يحترز منها، ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والانفراد) عن الناس (أو بأن لا يجالس إلا صالحًا تقيًّا) ورِعًا (ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله تعالى، وإلا فيضع حجرًا في فيه إذا جالس غيرَه حتى يكون ذلك مذكِّرًا له) كما كان الصدِّيق رضي الله عنه يفعله (فهكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز. ويتفكر في سمعه أنه يصغي به إلى الغِيبة والكذب وفضول الكلام وإلى اللهو والبدعة، وأن ذلك إنما يسمعه من زيد ومن عمرو، وأنه ينبغي أن يحترز منهم بالاعتزال) عنهم وعدم مجالستهم (أو بالنهي عن المنكر مهما سمع ذلك. ويتفكر في بطنه أنه إنما يعصي الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال) الصِّرف (فإنَّ ذلك مكروه عند الله تعالى ومقوٍّ للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله، وإما بأكل الحرام أو الشبهة، فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه، ويتفكر في طريق الحلال ومداخله، ثم يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحتراز من الحرام، ويقرِّر على نفسه أن العبادات كلها

ضائعة مع أكل الحرام، وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها، وأن الله تعالىٰ لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام، كما ورد الخبر به) رواه أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول، وقد تقدم[1] (فهكذا يتفكر في أعضائه. ففي هذا القدْر كفايةٌ عن الاستقصاء، فمهما حصلت بالتفكر حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتىٰ يحفظ الأعضاء عنها.

وأما النوع الثاني وهو الطاعات، فينظر أولاً في الفرائض المكتوبة عليه أنه كيف يؤدِّيها، وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير) فيها (أو كيف يجبر نقصانَها بكثرة النوافل) إذ قد ورد أن جبران الفرائض يكون بالنوافل (ثم يرجع إلىٰ) الحواس الخمس فينظر ما عليها من فعل واجب وتركِ حرام ومستحَب ومكروه واقتصاد في مباح، وكذا كل (عضو عضو، فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها ممَّا يحبه الله، فيقول مثلاً: إن العين خُلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبرةً، ولتُستعمَل في طاعة الله وتنظر في كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، وأنا قادر علىٰ أن أشغل العين بمطالعة القرآن والسنَّة، فلِمَ لا أفعله؟ وأنا قادر علىٰ أن أنظر إلىٰ فلان المطيع بعين التعظيم فأُدخِل السرورَ علىٰ قلبه) فيزيد في طاعته (و) أن (أنظر إلىٰ فلان الفاسق بعين الازدراء) أي الاحتقار (فأزجره بذلك عن معصيته، فلِمَ لا أفعله؟ وكذلك يقول في سمعه: إني قادر علىٰ استماع كلام ملهوف) مضطر (أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذِكرٍ، فما لي أعطِّله وقد أنعم الله عليَّ به وأودعنيه لأشكره؟ فما لي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله، وكذلك يتفكر في اللسان ويقول: إني قادر علىٰ أن أتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بالتعليم والوعظ والتودُّد إلىٰ قلوب أهل الصلاح) أي الصالحين (وبالسؤال عن أحوال الفقراء، وإدخال السرور علىٰ قلب زيد الصالح وعمرو العالِم بكلمة طيبة، وكل كلمة طيبة فإنها صدقة) فقد

---

(١) في كتاب الحلال والحرام.

روىٰ ابن المبارك في الزهد[1] وأحمد[2] وأبو الشيخ من حديث أبي هريرة: «الكلمة الطيِّبة صدقة» (وكذلك يتفكر في ماله فيقول: أنا قادر علىٰ أن أتصدَّق بالمال الفلاني فإني مستغنٍ عنه، ومهما احتجتُ إليه رزقني الله مثله، وإن كنت محتاجًا) إليه (الآن فأنا إلىٰ ثواب الإيثار) علىٰ الغير (أحوج مني إلىٰ ذلك المال .. وهكذا يفتِّش عن جميع أعضائه وجملة بدنه) بل (و) عن (أمواله) التي يملكها (بل عن دوابِّه) المعدَّة للركوب أو خدمة البيت أو الذبح (وغلمانه) من مشترًىٰ أو مستأجَر من الذكور والإناث (وأولاده) وزوجته (فإنَّ كل ذلك أدواته وأسبابه) وتحت أمره ونهيه (ويقدر علىٰ أن يطيع الله تعالىٰ بها، فيستنبط بدقيق الفكر وجوهَ الطاعات الممكنة بها، ويتفكر فيما يرغِّبه) وينشِّطه (في البدار) أي المسارعة (إلىٰ تلك الطاعات، ويتفكر في إخلاص النية) وإمحاضها (فيها، ويطلب لها مَظانَّ الاستحقاق حتىٰ يزكو بها عمله) فبالنيَّات الخالصة تزكو الأعمالُ (وقِسْ علىٰ هذا سائرَ الطاعات) البدنية من الواجبات من زكاة وصيام وحج وجهاد.

(وأما النوع الثالث فهي الصفات المهلكة التي محلُّها القلب، فيعرفها ممَّا ذكرناه في ربع المهلكات، وهي استيلاء الشهوة والغضب) لغير الله تعالىٰ (والبخل والكبر والعُجب والرياء والحسد وسوء الظن والغفلة والغرور وغير ذلك) ممَّا ذُكر في ربع المهلكات فإنها وأمثالها مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة، فهل يسمع بهذه عاقل ويستريب أن يكون الفكر فيها أو في أكثرها واجبًا فرض عين. هذا علىٰ سبيل الإجمال (و) أما التفصيل فإنه (يتفقَّد من قلبه هذه الصفات، فإن ظن أن قلبه منزَّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه) واختباره (والاستشهاد بالعلامات عليه، فإن النفس أبدًا) من طبعها أنها (تَعِدُ بالخير من نفسها وتخلف، فإذا ادَّعت التواضعَ

(١) الزهد والرقائق ص ١٤٦.

(٢) مسند أحمد ١٣/ ٤٧٢، ٥١٢، ١٤/ ٢٦١، ٤٥٨. والحديث رواه البخاري في صحيحه ٢/ ٣٢٩، ٣٥٦، ومسلم في صحيحه ١/ ٤٤٩.

والبراءة من الكبر فينبغي أن تجرَّب بحمل حزمة حطب من السوق) ويمشي به إلىٰ بيته (كما كان الأوَّلون يجرِّبون به أنفسَهم) وقد نُقل ذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه حين كان مستخلَفًا بالمدينة، وهو عند أبي نعيم في الحلية[1] (وإذا ادَّعت الحِلم تعرَّض لغضب يناله من غيره، ثم يجرِّبها في كظم الغيظ) فينظر هل تثبُت أم لا (وكذلك في سائر الصفات. وهذا تفكُّرٌ في أنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا، ولذلك علامات ذكرناها في ربع المهلكات، فإذا دلَّت العلامة علىٰ وجودها فكَّر في الأسباب التي تقبِّح تلك الصفات عنده وتبيِّن أن منشأها من الجهل والغفلة وخبث الدخلة) أي الباطن (كما لو رأىٰ في نفسه عُجبًا بالعمل، فيتفكر ويقول: إنما عملي بيدي وجارحتي وبقدرتي وإرادتي، وكل ذلك ليس مني ولا إليَّ، وإنما هو من خلق الله وفضله عليَّ، فهو الذي خلقني وخلق جارحتي وخلق قدرتي وإرادتي، وهو الذي حرَّك أعضائي بقدرته، وكذلك قدرتي وإرادتي، فكيف أُعجَب بعملي أو بنفسي ولا أقوم لنفسي بنفسي، فإذا أحس في نفسه بالكبر قرَّر علىٰ نفسه ما فيه من الحماقة) وهي فساد جوهر العقل (ويقول لها: لِمَ ترين نفسك أكبر؟ والكبير مَن هو عند الله كبير، وذلك) إنما (ينكشف بعد الموت، وكم من كافر في الحال يموت مقرَّبًا إلىٰ الله بنزوعه عن الكفر، وكم من مسلم يموت شقيًّا بتغيُّر حاله عند الموت بسوء الخاتمة) عياذًا بالله منه (فإذا عرف أن الكبر مهلك وأن أصله الحماقة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتعاطَىٰ أفعالَ المتواضعين، وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشَرَهه) أي الحرص عليه (تفكَّر في أن هذه صفة البهائم، ولو كان في شهوة الطعام والوقاع كمالٌ لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة، ولَما اتَّصفت به البهائم، ومهما كان الشَّرَه عليه أغلب كان بالبهائم أشبه، وعن الملائكة المقرَّبين أبعد، وكذلك يقرِّر علىٰ نفسه في الغضب، ثم يتفكر في طريق

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٣٨٥ عن ثعلبة بن أبي مالك القرظي أن أبا هريرة أقبل في السوق يحمل حزمة حطب، وهو يومئذٍ خليفة لمروان، فقال: أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك. فقلت له: تُكفَىٰ هذا. فقال: أوسع الطريق للأمير. والحزمة عليه.

العلاج، وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب) في ربع المهلكات (فمَن يريد أن يتَّسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب.

وأما النوع الرابع وهو المنجيات فهو التوبة، والندم علىٰ الذنوب، والصبر علىٰ البلاء، والشكر علىٰ النعماء، والخوف، والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص والصدق في الطاعات، ومحبة الله، وتعظيمه، والرضا بأفعاله، والشوق إليه، والخشوع والتواضع له) وهذه كلها من مقامات اليقين، بعضها أصول، وبعضها ثمرات (وكل ذلك ذكرناه في هذا الربع) في كتب مستقلَّة (وذكرنا أسبابه وعلاماته، فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يعوزه من هذه الصفات التي هي المقرِّبة إلىٰ الله تعالىٰ، فإذا افتقر إلىٰ شيء منها فليعلم أنها أحوال لا تثمرها إلا علوم، وأن العلوم لا تثمرها إلا أفكار، فإذا أراد أن يكتسب لنفسه حالَ التوبة والندم فليفتِّش ذنوبَه أولاً، وليتفكر فيها، وليجمعها علىٰ نفسه، وليعظِّمها في قلبه، ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها) علىٰ الخصوص (وليتحقَّق عند نفسه أنه متعرِّض لمقت الله) وغضبه به (حتىٰ ينبعث له حالُ الندم. وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فلينظر في إحسان الله إليه وأياديه) المتواترة (عليه في إرسال جميل ستره عليه، علىٰ ما شرحنا بعضَه في كتاب الشكر، فليطالع ذلك) ليتَّسع فكره (وإذا أراد حالَ المحبة والشوق فليتفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه، وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه، كما سنشير إلىٰ طرف منه في القسم الثاني من الفكر. وإذا أراد حالَ الخوف فلينظر أولاً في ذنوبه الظاهرة والباطنة، ثم لينظر في الموت وسكراته، ثم فيما بعده من سؤال منكر ونكير وعذاب القبر وحيَّاته وعقاربه وديدانه، ثم في هول النداء عند نفخة الصور، ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق علىٰ صعيد واحد، ثم في المناقشة في الحساب والمضايقة في النقير والقطمير، ثم في الصراط ودقَّته وحدَّته، ثم في خطر الأمر عنده أنه) هل (يُصرَف إلىٰ الشَّمال فيكون من أصحاب النار أو يُصرَف إلىٰ اليمين فينزل دار القرار، ثم ليُحضِر

بعد أهوال القيامة في قلبه صورةَ جهنم ودَرَكاتها ومَقامِعها وأهوالها وسلاسلها وأغلالها وزقُّومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكَّلين بها، وأنه كلَّما نضجت جلودهم بُدِّلوا جلودًا غيرها، وأنهم كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها، وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيُّظًا وزفيرًا .. وهلمَّ جرًّا إلىٰ جميع ما ورد في القرآن من شرحها) فيتفكر فيها ويتأمَّل في معانيها (وإذا أراد أن يستجلب حالَ الرجاء فلينظر إلىٰ الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها المقيم ومُلكها الدائم.

فهكذا طريق الفكر الذي تُطلَب به العلوم التي تثمر اجتلابَ أحوال محبوبة أو التنزُّه عن صفات مذمومة، وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابًا مفردًا يُستعان به علىٰ تفصيل الفكر إما بذكر مَجامِعه فلا يوجد فيه) أجمع ولا (أنفع من قراءة القرآن بالتفكر، فإنه جامع لجميع المقامات والأحوال) وهو التِّرْياق الأكبر (وفيه شفاء للعالَمين) ورحمة للمؤمنين (وفيه ما يورث الخوفَ والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال) المذكورة (وفيه ما يزجر عن سائر الصفات المذمومة، فينبغي أن يقرأه العبد ويردِّد الآية التي هو محتاج إلىٰ التفكر فيها مرة بعد أخرىٰ ولو مائة مرة) حتىٰ يعثر علىٰ مقصوده منها، ومتىٰ دام العبدُ علىٰ ذلك طهُر قلبُه وغزر علمُه (فقراءة آية بتفكُّر وفهم خيرٌ من ختمة) كاملة (بغير تدبُّر وفهم) فقد روىٰ الدارقطني في الأفراد[1] من حديث ابن عمر بسند ضعيف: «لا قراءة إلا بتدبُّر، ولا عبادة إلا بفقه، ومجلس فقه خيرٌ من عبادة ستين سنة» (وليتوقَّف في التأمُّل فيها ولو ليلة واحدة) كما نُقل ذلك عن جماعة من السلف (فإنَّ تحت كل كلمة منها أسرارًا لا تنحصر ولا يوقَف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صِدق المعاملة) بينه وبين الله تعالىٰ، وعجائب القرآن لا تُحصَىٰ، وقد مرَّت الإشارة إلىٰ طرف من ذلك في كتاب ترتيب الأوراد (وكذلك مطالعة أخبار

---

(١) وكذلك الخطيب في الفقيه والمتفقه ١/ ٩٧.

رسول الله ﷺ، فإنه قد أوتي جوامع الكَلِم) كما ورد به الخبر (وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة، ولو تأمَّلها العالِم) البصير (حقَّ التأمُّل لم ينقطع فيها نظرُه طول عمره، وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول، فانظر إلىٰ قوله ﷺ: إن روح القُدس نفث في رُوعي: أحبِبْ مَن أحببتَ فإنك مفارقه، وعِشْ ما شئتَ فإنك ميت، واعملْ ما شئتَ فإنك مجزيٌّ به) تقدَّم قريبًا، وفي كتاب الفقر والزهد، وفي كتاب العلم (فإنَّ هذه الكلمات جامعة حِكَم الأوَّلين والآخِرين، وهي كافية للمتأمِّلين فيها طول العمر؛ إذ لو وقفوا علىٰ معانيها وغلبت علىٰ قلوبهم غلبةَ يقين) مع فراغها من شغل آخر (لاستغرقتْهم ولحالَ ذلك بينهم وبين التلفُّت إلىٰ الدنيا بالكلِّية. فهذا هو طريق الفكر في علوم المعاملة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله أو مكروهة، والمبتدئ) في السلوك (ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتىٰ يعمر قلبه بالأخلاق المحمودة والمقامات الشريفة) والأحوال المنيفة (وينزِّه باطنَه وظاهره عن المَكاره) والأخلاق السيئة (وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر العبادات) إذا عريتْ عنه (فليس هو غاية المطلب) للسالكين، ولا هو الحد الذي يقفون عليه (بل المشغول به محجوب عن مطلب الصدِّيقين وهو التنعُّم بالفكر في جلال الله تعالىٰ وجماله واستغراق القلب) فيه (بحيث يفنَىٰ عن نفسه، أي ينسىٰ نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته، فيكون مستغرق الهم بالمحبوب، كالعاشق المستهتر عند لقاء الحبيب، فإنه لا يتفرَّغ للنظر في أحوال نفسه وأوصافها، بل يبقىٰ كالمبهوت الغافل عن نفسه) لا يحس بنفسه أصلاً (وهو منتهَىٰ لذة العشَّاق) الصادقين (فأما ما ذكرناه فهو تفكرٌ في عمارة الباطن ليصلُح للقُرب والوصال، فإذا ضيَّع جميعَ عمره في إصلاح نفسه فمتىٰ يتنعَّم بالقرب؟ ولذلك كان) إبراهيم بن أحمد (الخوَّاص) رحمه الله تعالىٰ (يدور في البوادي) المنقطعة علىٰ قدم التوكل ويقاسي فيها أهوالاً من نفسه ومن الجن (فلقيه) أبو المغيث (الحسينُ بن منصور) الحَلاَّج رحمه الله تعالىٰ (فقال) له: (فيمَ أنت)؟ وكيف سلوكك؟ (قال: أدور في

البوادي أُصلِح حالي في التوكل. فقال الحسين: أفنيتَ عمرك في عمران باطنك، فأين) أنت عن **(الفناء في التوحيد)**؟ رواه القشيري في الرسالة، وتقدم في كتاب التوكل وقال: وكأنَّ الحلاَّج طالبَه بالمقام الثالث من التوكل[1] **(فالفناء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهَىٰ نعيم الصدِّيقين)** وما بعده مرقىٰ للسالكين **(وأما التنزُّه عن الصفات المهلكات فإنه يجري مَجرىٰ الخروج عن العدَّة في النكاح، وأما الاتِّصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فإنه يجري مجرىٰ تهيئة المرأة جهازها)** أي أسبابها من لبس وفرش وغير ذلك **(وتنظيفها وجهها)** بالتحفيف **(ومشطها شعرها)** واستعمالها الطِّيب **(لتصلُح بذلك للقاء زوجها)** وتقع من قلبه موقع المحبة والإعجاب **(فإن استغرقت)** هي **(جميعَ عمرها في تبرئة الرحم وتزيين الوجه)** وإحضار الملابس **(كان ذلك حجابًا لها عن لقاء المحبوب. فهكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنتَ من أهل المجالسة)** والمؤانسة **(وإن كنت كالعبد السوء)** والأجير السوء **(لا يتحرك إلا خوفًا من الضرب وطمعًا في الأجرة)** فإن لم يخَفْ أو لم يطمع في الأجرة لم يتحرك **(فدونك وإتعاب البدن)** وارتكاب المشقَّة **(بالأعمال الظاهرة)** من قيام وصلاة وقراءة وصيام وجهاد وغير ذلك **(فإنَّ بينك وبين القلب حجابًا كثيفًا، فإذا قضيتَ حق الأعمال كنت من أهل الجنة، ولكن للمجالسة أقوام آخَرون)** اصطفاهم الله لذلك **(وإذا عرفتَ مجال الفكر في علوم المعاملة التي بين العبد وبين ربِّه فينبغي أن تتخذ ذلك عادتك وديدنك صباحًا ومساءً، فلا تغفل عن نفسك وعن صفاتك المبعِدة من الله تعالىٰ وأحوالك المقرِّبة إليه سبحانه وتعالىٰ، بل كل مريد)** لطريق السلوك **(فينبغي أن تكون له جريدة)** وهي الدفتر المتخَذ للحساب **(يثبت فيها جملةَ الصفات المهلكات وجملة الصفات المنجيات وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض نفسه عليها كل يوم)** ويحاسبها

---

(١) نص الإحياء في كتاب التوكل: «فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع».

بها ويدقِّق عليها، وهكذا كانت أحوال السلف من الأولياء الكرام، كما نقل ذلك الشيخ محيي الدين ابن العربي قُدِّس سره عن مشايخه، وقد تقدَّم نقلُه في كتاب المحاسبة (**ويكفيه من المهلكات النظرُ في عشر**) صفات (**فإنه إن سَلِمَ منها سلم من غيرها وهي: البخل، والكبر، والعُجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب**) لغير الله تعالىٰ (**وشَره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه**) فإنَّ هذه العشرة أصول، وما عدا ذلك يتفرَّع منها (**ومن المنجيات عشر**) صفات (**الندم علىٰ الذنوب، والصبر علىٰ البلاء، والرضا بالقضاء، والشكر علىٰ النعماء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحُسن الخُلق مع الخَلق، وحب الله تعالىٰ والخشوع له**) فهذه العشرة كذلك أصول، وما عدا ذلك يتفرَّع منها (**فهذه عشرون خصلة، عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمهما كُفي من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته، ويَدَع الفكرَ فيها، ويشكر الله تعالىٰ علىٰ كفايته إيَّاها وتنزيه قلبه عنها، ويعلم أن ذلك لم يتمَّ إلا بتوفيق الله تعالىٰ وعونه، ولو وكله إلىٰ نفسه لم يقدر علىٰ محو أقل الرذائل عن نفسه فيُقبِل علىٰ التسعة الباقية، وهكذا يفعل حتىٰ يخطَّ علىٰ الجميع، وكذا يطالب نفسه بالاتِّصاف بالمنجيات، فإذا اتَّصف بواحدة منها كالتوبة والندم مثلاً خطَّ عليها واشتغل بالباقي، وهذا يحتاج إليه المريد المشمِّر، وأما أكثر الناس من المعدودين في زُمرة الصالحين**) والمتَّسمين بظاهر الفضل (**فينبغي أن يُثبِتوا في جرائدهم المعاصي الظاهرة كأكل الشُّبهة، وإطلاق اللسان بالغِيبة والنميمة، والمراء، والثناء علىٰ النفس، والإفراط في معاداة الأعداء وموالاة الأولياء، والمداهنة مع الخَلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**) وتعظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والتنافس، والاستكبار عن الحق، وحب كثرة الكلام، والخوض فيما لا يعني، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها ذلٌّ، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم. فهذه وأمثالها معاصٍ ظاهرة، وهي مغارس الفواحش ومنابت الأعمال المحظورة (**فإن أكثر مَن يعدُّ نفسه من وجوه الصالحين لا ينفكُّ عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه، وما لم يطهِّر**

الجوارحَ عن الآثام لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره، بل كل فريق من الناس يغلب عليهم نوعٌ من المعصية) خاصٌّ (فينبغي أن يكون تفقُّدهم لها وتفكُّرهم فيها لا في معاصٍ هم بمعزل عنها، مثاله: العالِم الورِع، فإنه لا يخلو في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة) بين الناس (وانتشار الصيت إما بالتدريس أو بالوعظ) والتذكير (ومَن فعل ذلك تصدَّىٰ لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصدِّيقون، فإنه إن كان كلامه مقبولاً حسن الوقع في القلوب لم ينفكَّ عن الإعجاب والخيلاء والتزيُّن والتصنُّع، وذلك من المهلكات) كما تقدم بيانُ ذلك في مواضعه (وإن رُدَّ كلامه لم يَخْلُ عن غيظ) وحنق (وأَنَفة وحقد علىٰ مَن يردُّه هو أكثر من غيظه علىٰ مَن يردُّ كلام غيره، وقد يلبِّس الشيطانُ عليه ويقول: إن غيظك من حيث إنه ردُّ الحق وأنكره. فإن وجد تفرقة بين أن يردَّ عليه كلامه أو يرد علىٰ عالِم آخَر فهو مغرور وضحكة للشيطان، ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرحٌ بالثناء واستنكاف من الردِّ والإعراض لم يَخْلُ عن تكلُّف وتصنُّع لتحسين اللفظ والإيراد حرصًا علىٰ استجلاب الثناء، والله لا يحب المتكلِّفين، والشيطان قد يلبِّس عليه ويقول: إنما حرصك علىٰ تحسين الألفاظ والتكلُّف فيها لينتشر الحقُّ ويحسُن موقعُه في القلب إعلاءً لدين الله) وجمعًا للناس علىٰ كلمة الحق (فإن كان فرحه بحُسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس علىٰ واحد من أقرانه فهو مخدوع، وإنما يدندن حول طلبِ الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين، ومهما اختلج ضميرُه بهذه الصفات ظهر علىٰ ظاهره ذلك حتىٰ يكون للموقر له المعتقد لفضله أكثر احترامًا، ويكون بلقائه أشد فرحًا واستبشارًا ممَّن يغلو في موالاة غيره وإن كان ذلك الغير مستحقًّا للموالاة، وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلىٰ أن يتغايروا تغايُر النساء) أو تغايُر التيوس في الزريبة، كما ورد بذلك الخبرُ (فيشق علىٰ أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلىٰ غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه، وكل هذا رشحُ الصفات المهلكات المستكنَّة في سر القلب) أي باطنه (التي قد يظن

العالِم النجاةَ منها، وهو مغرور فيها، وإنما ينكشف ذلك بهذه العلامات، ففتنة العالِم عظيمة، وهو إما مالك وإما هالك) والهلاك أكثر (ولا مَطمع له في سلامة العوامِّ) فإن العوامَّ قد يُعذَرون، بخلاف العالِم (فمَن أحسَّ في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلةُ) عن الناس (والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوىٰ مهما سُئل، فقد كان المسجد) النبوي (يحوي في زمن الصحابة ﷺ جمعًا من أصحاب رسول الله ﷺ، كلهم مُفتونَ، وكانوا) مع ذلك (يتدافعون الفتوىٰ) يدفعها أحدهم إلىٰ صاحبه (وكل مَن كان يفتي كان يودُّ أن يكفيه غيرُه) هذا المهمَّ. نقله صاحب القوت، وتقدَّم في كتاب العلم (وعند هذا ينبغي أن يتَّقي شياطينَ الإنس) فضررهم أشد من ضرر شياطين الجن، وليحذر منهم (إذا قالوا) لك: (لا تفعل هذا، فإنَّ هذا الباب لو فُتح لاندرست العلوم من بين الخلق، وليقلْ لهم: إن دين الإسلام مستغنٍ عني، فإنه قد كان معمورًا قبلي، وكذلك يكون بعدي، ولو متُّ لم تنهدم أركان الإسلام، فإن الدين مستغنٍ عني، وأنا فلست مستغنيًا عن إصلاح قلبي. وأما أداء ذلك إلىٰ اندراس العلم فخيالٌ يدل علىٰ غاية الجهل، فإن الناس لو حُبِسوا في السجن وقُيِّدوا بالقيود وتُوعِّدوا بالنار علىٰ طلب العلم) لَما امتنعوا من ذلك، و(لكان حب الرئاسة والعلوِّ يحملهم علىٰ كسر القيود وهدم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم) لا محالة (فالعلم لا يندرس ما دام الشيطان يحبِّب إلىٰ الخَلق الرئاسةَ) ويزيِّنها لهم (والشيطان لا يفتر عن عمله إلىٰ يوم القيامة، بل ينتهض لنشر العلم أقوامٌ لا نصيب لهم في الآخرة) ولا خَلاق (كما قال رسول الله ﷺ: إن الله) عَزَّوَجَلَّ (يؤيِّد هذا الدينَ بأقوام لا خَلاق لهم) أي[1] يقوِّيه وينصره، والمراد بالدين: دين الإسلام، والمراد بالأقوام إما الكفار وإما المنافقون وإما الفجَّار، وهذا يحتمل أنه أراد به رجالاً في زمنه كانوا كذلك، ويحتمل أنه أخبر بما سيكون فيكون من المعجزات. والأقرب الثاني؛ لأن العبرة بعموم اللفظ. والحديث

---

(١) فيض القدير ٢/ ٢٥٩.

رواه النسائي[١] وابن حبان[٢] والطبراني في الأوسط[٣] والضياء[٤] من حديث أنس. ورواه أحمد[٥] والطبراني في الكبير من حديث أبي بكرة. ورواه البزار من حديث كعب بن مالك، ورواه ابن النجار من حديث كعب ابن مالك بلفظ: «إن الله ليؤيِّدُ هذا الدين بقوم لا خلاق لهم»[٦]. وقد تقدم. ورواه الطبراني في الكبير[٧] من حديث عبد الله بن عمرو بلفظ: «إن الله عَزَّوَجَلَّ لَيؤيِّدُ الإسلامَ برجال ما هم من أهله».

(و) قال ﷺ: **(إن الله لَيؤيِّدُ هذا الدين بالرجل الفاجر)** رواه الطبراني في الكبير من حديث عمرو بن النعمان بن مقرن بلفظ: لَيؤيِّدُ الدينَ. ورواه البخاري في القدَر وفي غزوة خيبر من حديث أبي هريرة: «إن الله يؤيِّد هذا الدين». ورواه الترمذي في العلل من حديث أنس. واللام للعهد أو للجنس. وقد تقدم[٨].

(فلا ينبغي أن يغترَّ العالِم بهذه التلبيسات فيشتغل بمخالطة الخَلق حتىٰ يتربَّىٰ في قلبه حبُّ المال[٩] والثناء والتعظيم، فإنَّ ذلك بذر النفاق، قال ﷺ: حب الجاه والمال يُنبِت النفاقَ في القلب كما يُنبِت الماءُ البقلَ) رواه أبو نعيم والديلمي من حديث أبي هريرة بلفظ: «حب الغِنىٰ يُنبِت النفاقَ في القلب كما يُنبِت الماءُ العشبَ». وقد تقدم الكلام عليه في كتاب السماع[١٠] وفي كتاب ذم الجاه وذم المال. وروىٰ الديلمي من حديث ابن عباس: «حب الثناء من الناس يُعمِي ويُصِمُّ».

---

(١) السنن الكبرىٰ ٨/ ١٤٧.

(٢) صحيح ابن حبان ١٠/ ٣٧٦.

(٣) المعجم الأوسط ٢/ ٢٦٩، ٣/ ١٤٢.

(٤) الأحاديث المختارة ٥/ ٢٣١، ٦/ ٢٣٤.

(٥) مسند أحمد ٣٤/ ١٠٥.

(٦) حديث كعب بن مالك رواه أبو الشيخ في طبقات المحدثين بأصفهان ٤/ ١٤٥.

(٧) المعجم الكبير ١٤/ ٤٩.

(٨) في الباب الرابع من كتاب العلم.

(٩) في الجميع: الجاه.

(١٠) وقد تقدم أيضًا الكلام علىٰ لفظة المال في هذا الحديث.

(وقال ﷺ: ما ذئبان ضاريان أُرسِلا في زريبة غنم بأكثر إفسادًا فيها من حب الجاه والمال في دين المرء المسلم) رواه الطبراني في الصغير والضياء من حديث أسامة بن زيد بلفظ: «ما ذئبان ضاريان باتا في حظيرة فيها غنم يفترسان ويأكلان بأسرع فسادًا [فيها] من طلب المال والشرف في دين المسلم». وقد تقدَّم الكلام عليه في كتاب ذم الجاه **(ولا ينقلع حبُّ الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والهرب من مخالطتهم وتركِ كل ما يزيد جاهَه في قلوبهم. فليكن فكرُ العالِم في التفطُّن لخفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها)** فإنَّ هذا هو الأهم **(وهذه وظيفة العالِم [المتقي]**[1]**، فأما أمثالنا)** من ضعفاء الإيمان **(فينبغي أن يكون)** دائمًا **(تفكرُنا فيما يقوِّي إيمانَنا بيوم الحساب)** وهو يوم القيامة الذي تُجازَىٰ فيه كل نفس بما عملتْ **(إذ لو)** فُرِض أن **(رآنا السلف الصالحون)** ورأوا أحوالنا وما نحن عليه من الغفلة والتكالُب **(لقالوا قطعًا: إن هؤلاء لا يؤمنون بيوم الحساب)** كما رُوي ذلك عن بعض السلف **(فما أعمالنا أعمال مَن يؤمن بالجنة والنار، فإنَّ مَن خاف شيئًا هرب منه، ومَن رجا شيئًا طلبه)** رُوي ذلك من قول أبي سليمان الداراني. ومعناه في الحديث المرفوع عن أنس: «مَن خاف شيئًا حذرَه، ومَن رجا شيئًا عملَ له، ومَن أيقن بالخلف جادَ بالعطية». رواه الديلمي[2]. وروىٰ الترمذي[3] من حديث أبي هريرة: «مَن خاف أدلجَ، ومَن أدلج بلغ المنزلَ» **(وقد علمنا أن الهرب من النار بترك الشُّبهات والحرام وبترك المعاصي)** الظاهرة والباطنة **(ونحن منهمكون فيها)** فكيف يُتصوَّر المَهرب؟ **(وأنَّ طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات)** الزائدة عن الفرائض **(ونحن مقصِّرون في الفرائض منها)** وقد رُوي من حديث عليٍّ رضي الله عنه: «مَن اشتاق إلىٰ الجنة سابقَ إلىٰ الخيرات، ومَن أشفق من النار لها عن الشهوات، ومَن ترقَّب الموت صبر عن اللذَّات، ومَن زهد في

---

(١) سقط من الزبيدي، وهي في الجميع.

(٢) الفردوس بمأثور الخطاب ٣/ ٤٩٦.

(٣) سنن الترمذي ٤/ ٢٤١.

الدنيا هانت عليه المصيبات». رواه البيهقي[1]، وقد تقدم. فهذه علامات الخائف والراجي والمترقِّب والزاهد (**فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يُقتدَىٰ بنا في الحرص علىٰ الدنيا والتكالُب عليها**) في جمعها من حيث لا يحلُّ وإنفاقها في غير مواضعها (**ويقال: لو كان هذا مذمومًا لكان العلماء أحق وأَولىٰ باجتنابه منا، فليتنا كنا كالعوامِّ، وإذا متنا ماتت معنا ذنوبُنا**) وقد نقل صاحب القوت عن بعض السلف: طوبَىٰ لمَن مات وماتت ذنوبُه معه[2] (**فما أعظم الفتنة التي تعرَّضنا لها لو تفكَّرنا**) حقَّ التفكر (**فنسأل الله تعالىٰ أن يصلحنا**) في أنفسنا (و) أن (**يُصلِح بنا**) غيرَنا ممَّن اقتدَىٰ بنا (و) أن (**يوفِّقنا**) أجمعين (**للتوبة**) الناصحة والإنابة الواضحة (**قبل أن يتوفَّانا، إنه الكريم، اللطيف بنا، المنعم علينا**) والمجيب لدعائنا (**فهذه مجاري أفكار العلماء**) الورعين (**والصالحين**) من عِباده (**في علم المعاملة**) من معرفة النفس ومعرفة العبادات (**فإن فرغوا منها**) وما أعز ذلك وما أبعده! (**انقطع التفاتُهم عن أنفسهم وارتقوا منها إلىٰ التفكر في جلال الله وعظمته والتنعُّم بمشاهدته بعين القلب، ولا يتمُّ ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع المهلكات**) وهي التخلية (**والاتِّصاف بجميع المنجيات**) وهي التحلية (**وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولاً معلولاً مكدَّرًا مقطوعًا، وكان ضعيفًا كالبرق الخاطف لا يثبُت ولا يدوم، ويكون كالعاشق الذي خلا بمعشوقه ولكن تحت ثيابه حيَّات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرىٰ فتنغِّص عليه لذَّة المشاهدة**) وتكدِّرها عليه (**ولا طريق له في كمال التنعُّم إلا بإخراج العقارب والحيَّات من ثيابه، وهذه الصفات المذمومة**) التي أُمِرنا بالتخلِّي عنها (**عقارب وحيَّات، وهي مؤذيات ومشوِّشات**) فلا يمكن مع وجودها إكمالُ التنعُّم بالمشاهدات (**وفي القبر يزيد ألمُ لدغِها علىٰ لدغ العقارب والحيَّات.**

فهذا القدْر كافٍ في التنبيه علىٰ مجاري فكر العبد في صفات نفسه المحبوبة

---

(١) شعب الإيمان ١٣/ ١٧٦.

(٢) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ١٥٣، ٨/ ٢٩٦ عن حبيب الفارسي بلفظ: إن من سعادة المرء إذا مات ماتت معه ذنوبه.

والمكروهة عند ربِّه تعالىٰ) والله الموفِّق.

ولمَّا فرغ من بيان الفكر في معرفة نفس العبد شرع في بيان الفكر في معرفة المعبود، فقال:

(القسم الثاني: الفكر في جلال الله وعظمته وكبريائه).

(وفيه مقامان، المقام) الأول وهو **(الأعلىٰ: الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه)** وهذه المعرفة تشتمل علىٰ علم ما يجب وما يستحيل وما يجوز فعلُه وجملة أسماء الله الحسنىٰ وصفاته العُلَىٰ، فللفكر في الوجود وفي كيفية التخلُّق بكل واحد منها علىٰ حسب الإمكان مجال رَحْب **(وهذا ممَّا مُنع منه، حيث قيل: تفكَّروا في خلق الله، ولا تتفكروا في ذات الله)** رواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة بلفظ: «ولا تتفكروا في الله». وقد تقدَّم قريبًا **(وذلك لأن العقول تتحيَّر فيه)** وهذا[1] يؤخَذ منه قول مَن ذهب إلىٰ أن اسم «الله» مشتقٌّ وأنه من أَلِهَ يأْلَهُ: إذا تحيَّر، إشارة إلىٰ حيرة عقول أولي الألباب في مبادئ سُبُحات جلاله وسطوات إشراق أنوار كبريائه، وإن كان هذا خلاف ما عليه المصنف، فإنه يقول بعَلَميَّته لا غير[2] **(فلا يطيق مد البصر إليه إلا الصدِّيقون)** وليس لهم من الذات إلا الدهشة، فهم يتردَّدون بين اليأس والطمع، إن نظروا إلىٰ هيبة جلاله أيسوا، وإن نظروا إلىٰ أنس جماله طمعوا، ولولا أنس الجمال لتقطَّعت أوصال العارفين دهشةً، ولولا طمع الوصال لذابت قلوب المحبِّين حسرةً **(ثم لا يطيقون دوام النظر، بل سائر الخَلق أحوال أبصارهم بالإضافة إلىٰ جلال الله تعالىٰ كحال بصر الخفَّاش بالإضافة إلىٰ نور الشمس فإنه لا يطيقه ألبتَّة، بل يختفي نهاره)** لئلاَّ يقابله نور الشمس فيسقط مغشيًّا عليه. قال صاحب كشف الأسرار[3] في إشارة إلىٰ الخفَّاش: وقد قيل:

---

(١) شرح الأسماء الحسنىٰ للقونوي ص ٢٢، ٢٩.

(٢) انظر: الأمد الأقصىٰ لأبي بكر بن العربي ١/ ٢٣٩- ٢٤٩.

(٣) كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار لعز الدين ابن غانم المقدسي ص ٩٠ (ط - دار الفضيلة).

أراك إذا طلعت الشمس وقعت في الغشا، ولا تزال كذلك إلىٰ العِشا، فتعمَىٰ بما يستضيء به الناسُ، وهذا ضد القياس. وقال ابن الوردي في إشارته: أنا من أهل الخلوات والليل، أنا علىٰ ضعفي كجُلْمُود صخر حطَّه السيلُ، أنا بالنهار أحتجب، ورائي العزلة ممَّا تحب، وبالليل أكشف الغطا ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ [المزمل: ٦] وإذا طلعت الشمس حكمت علىٰ عيني بالطمس، وأخذتني الغيرةُ أن أشاهد غيره فأُطبقُ من عين الشمس عيني، وأفني عن أَيْنها أيني **(وإنما يتردَّد ليلاً لينظر في بقية نور الشمس إذا وقع علىٰ الأرض)** وهو[1] الوقت الذي لا يكون فيه ضوء ولا ظلمة، وهو قريب غروب الشمس، وهو وقت هيجان البعوض، والبعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قوته وهو دماء الحيوان، والخفَّاش يطلب الطُّعم، فيقع طالب رزق علىٰ طالب رزق **(وأحوال الصدِّيقين كحال الإنسان في النظر إلىٰ الشمس، فإنه يقدر علىٰ النظر إليها ولا يطيق دوامَه، ويخشىٰ علىٰ بصره لو أدام النظرَ، ونظرُه المختطَف إليها يورث العمشَ ويفرِّق البصرَ)** كما هو مشاهَد، ولقد حكىٰ لي مَن أثق به أنه نظر مرةً إلىٰ قرص الشمس وحدَّق فيه بصرَه ليحيط بقدْر المكسوف منه، فما زال يشتكي ضعف بصره **(وكذلك النظر إلىٰ ذات الله تعالىٰ يورث الحيرةَ والدهش واضطراب العقل)** وقال[2] الشيخ الأكبر قُدِّس سره في «حقائق الأسماء» بعد أن نقل وجوه الاشتقاق في اسم الجلالة، إلىٰ أن قال: وقيل: هو مشتقٌّ من الإلَهة وهي العبادة، وقيل: من لاهَ يليه: إذا ارتفع. وقيل: من أَلِهَ يأْلَهُ: إذا تحيَّر. ثم قال: وهذا الوجه هو مركز دائرة الوجوه كلها؛ لِما اختصَّ هذا الاسم من الأحوال بالحيرة والعبادة والرفعة وهي التنزيه، وهو رفعته عن التشبيه بخلقه، والتنزيه يؤدِّي إلىٰ الحيرة؛ لأن غاية التنزيه إثبات النِّسَب وهي الصفات الكمالية

---

(١) الحيوان للجاحظ ٣/ ٥٢٧ - ٥٢٨. حياة الحيوان للدميري ١/ ٤١٥. صبح الأعشىٰ للقلقشندي ٢/ ٨٤.

(٢) شرح الأسماء الحسنىٰ للقونوي ص ٢٨ - ٣٠. والنص بمعناه في الفتوحات المكية لابن عربي ٤/ ٢١٦ - ٢١٧.

التي يتوقَّف عليها وجودُ أعيان المظاهر. فإن قال القائل: إن [تلك] النِّسَب أمور وجودية زائدة علىٰ ذاته تعالىٰ، فقد صرَّح أنه لا كمال للذات إلا بها، وأن ذاته تعالىٰ كان ناقصًا قبل ظهورها، كاملاً بالزائد الوجودي. وإن قال: ما هي هو ولا وجود لها وإنما هي نِسَبٌ والنِّسَب أمور عَدَميَّة، فقد جعل للمعدوم أثرًا في الوجود. وإن قال: ما هي هو ولا غيره، كان قولاً بلا روح وكلامًا لا معنىٰ له يدل علىٰ نقص عقل القائل. وإن سكت الناظر ولم يقل شيئًا فقد عطَّل القوةَ النظرية، فإذا عجز العقل عن الوصول إلىٰ العلم بشيء من هذه الأسرار لم يبقَ الطريقُ إلا الرجوع إلىٰ الشرع، ولا تُقبَل أحكام الشرع إلا بالعقل؛ لأنه الأصل، وقد عجز، والناظر عن معرفة الفرع وثبوته أعجزُ، فإن تعامَىٰ عن النظر وقَبِلَ قول الشارع إيمانًا بأمر ضروري لا يقدر علىٰ دفعه لا بد له أن يسمع الشارع ينسب إلىٰ الحق أمورًا تقدح فيها الأدلة النظرية وتحتاج إلىٰ تأويل، فإن تأوَّله ليردَّه إلىٰ النظر العقلي فهو عائد إلىٰ عقله وجاعلٌ وجود الحق سبحانه علىٰ وجوده، وثبت أن الله تعالىٰ لا يُدرَك بالقياس، فهذا غاية تنزيه المنزِّه، وقد أدَّاه إلىٰ الحيرة، وصارت الحيرة مركزًا ينتهي إليها النظر العقليُّ والشرعي، وكذلك العبادة وهي التي كُلِّف بها، والتكليف لا يكون إلا علىٰ مَن له الاقتدار علىٰ ما كُلِّف به وأُمِرَ من الأفعال وإمساك النفس عن ارتكاب ما نُهي عنه، والأفعال منفية عن المخلوق بقوله: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦] والشيء لا يكلِّف نفسَه. ثم لا يخفَىٰ أن الحق تعالىٰ كبرياؤه خاطب عبادَه فأمرهم ونهاهم، ولا بد من محلٍّ يقبل الخطابَ، فأثبت الأفعال للمخلوق من هذا الوجه بما يقتضي قابليَّته، فنفىٰ من وجه وأثبت من وجه، والنفي والإثبات متقابلان، فرماه أيضًا في الحيرة، فدرجات علوم العلماء بالله تدور علىٰ مركز الحيرة، ولهذا كان بعض العارفين يقول: يا حيرة، يا دهشة، يا خوفًا لا يتقرَّىٰ. انتهىٰ.

(فالصواب إذًا أن لا يتعرَّض لمجاري الفكر في ذات الله تعالىٰ وصفاته، فإن

أكثر العقول لا تحتمله، بل القدْر اليسير الذي صرَّح به بعض العلماء وهو أن الله تعالىٰ مقدَّس عن المكان، ومنزَّه عن الأقطار والجهات، وأنه ليس داخل العالَم ولا خارجه، ولا هو متَّصل بالعالَم ولا هو منفصل عنه، قد حيَّرت عقولَ أقوام حتىٰ أنكروه) واستشكلوه (إذ لم يطيقوا سماعَه ومعرفته، بل ضعفت طائفةٌ عن احتمال أقل من هذا؛ إذ قيل لهم: إنه يتعاظم ويتعالىٰ عن أن يكون له رأس ورِجل ويد وعين وعضو وأن يكون جسمًا مشخَّصًا له مقدار وحجم. فأنكروا هذا، وظنوا أن ذلك قدحٌ في عظمة الله وجلاله) وهم طائفة من الحَشَوية الكَرَّامية (حتىٰ قال بعض الحمقىٰ من العوامِّ: إنَّ هذا وصفُ بطيخ هندي لا وصف الإله؛ لظنِّ المسكين أن الجلالة والعظمة في هذه الأعضاء، وهذا لأن الإنسان لا يعرف إلا نفسه، فلا يستعظم إلا نفسه، فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه) وهذا فاسد (نعم، غايته أن يقدِّر نفسَه جميل الصورة جالسًا علىٰ سريره وبين يديه غلمان يمتثلون أمره، فلا جَرَم غايته أن يقدِّر ذلك في حق الله تعالىٰ وتقدَّس حتىٰ يفهم العظمة) قياس الشاهد علىٰ الغائب، والرب تعالىٰ لا يُعرَف بالقياس (بل لو كان للذباب عقلٌ وقيل له: ليس لخالقك جناحان ولا يد ولا رِجل ولا له طيران، لأنكر ذلك وقال: كيف يكون خالقي أنقص مني؟! أفيكون مقصوص الجناح أو يكون زَمِنًا لا يقدر علىٰ الطيران أو تكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثلها وهو خالقي ومصوِّري؟! وعقول أكثر الخَلق قريبة من هذا العقل، وإن الإنسان لَجهولٌ ظلوم كَفَّار، ولذلك أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ بعض أنبيائه: لا تخبرْ عبادي بصفاتي فينكروني) أي لأن عقولهم لا تحتمل ذلك (ولكن أخبِرْهم عني بما يفهمون) أي بقدْر ما يطيقون فهمه. وقد ورد مثل ذلك في الأخبار المحمدية: خاطِبوا الناسَ بما يفهمون، أتحبون أن يكذَّب الله ورسوله[١]؟ قال الفخر الرازي في تأسيس التقديس[٢]: إن المتشابهات صارت

---

(١) قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد رواه عنه البخاري في صحيحه ١/ ٦٢.

(٢) تأسيس التقديس ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

شُبهة عظيمة للخَلق في الإلهيات والنبوّات والشرائع، وليس في القرآن ما يدل علىٰ التنزيه بطريق التصريح إلا قوله تعالىٰ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] ودلالته عليه ضعيفة[١]، وقد ذكروا أنواعًا من الفوائد في إنزال المتشابهات، أقواها: أنه لمَّا كان القرآن مشتملاً علىٰ دعوة الخواص والعوامِّ [والعوامُّ] لا تقوَىٰ علىٰ إدراك الحقائق العقلية المحضة، فهم إذا سمعوا بإثبات موجود ليس بجسم ولا بمتحيِّز ولا بمُشار إليه ظنوا أنه عدم محض فوقعوا في التعطيل، فكان الأصلح للعوامِّ أن يخاطَبوا بألفاظ دالَّة علىٰ بعض ما يناسب ما يتخيَّلونه، وتكون مخلوطة بما يدل علىٰ الحق الصريح. انتهىٰ. وقد أشار إلىٰ ذلك أيضًا المصنفُ في «إلجام العوام» **(ولمَّا كان النظر في ذات الله وصفاته مخطرًا من هذا الوجه اقتضَىٰ أدب الشرع وصلاح الخَلق أن لا يتعرَّض لمجاري الفكر فيه، لكنا نعدل إلىٰ المقام الثاني)** وهو الأدنىٰ بالنسبة إلىٰ المقام الأول **(وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره وعجائب صنعِه وبدائع أمره في خلقه، فإنها تدل علىٰ جلاله وكبريائه وتقدُّسه وتعاليه، وتدل علىٰ كمال علمه وحكمته، وعلىٰ نفاذ مشيئته وقدرته، فينظر إلىٰ صفاته من آثار صفاته، فإنَّا لا نطيق النظر إلىٰ صفاته، كما أنَّا نطيق النظر إلىٰ الأرض مهما استنارت بنور الشمس، ونستدلُّ بذلك علىٰ عِظَم نور الشمس بالإضافة إلىٰ نور القمر وسائر الكواكب؛ لأن نور الأرض من آثار نور الشمس، والنظر في الآثار يدل علىٰ المؤثِّر دلالةً ما وإن كان لا يقوم مقامَ النظر في نفس المؤثِّر، وجميع موجودات الدنيا أثرٌ من آثار قدرة الله تعالىٰ ونور من أنوار ذاته)** قال المصنف في المقصد الأسنىٰ[٢]: الحاصل عندنا من قدرة الله تعالىٰ أنها وصفٌ، ثمرته وأثره وجودُ الأشياء، وينطلق عليه اسم القدرة؛ لأنه يناسب قدرتَنا، وهو بمعزل عن حقيقة تلك القدرة. نعم، كلَّما ازداد

---

(١) في التأسيس: «ولا يوجد في القرآن ألفاظ تدل علىٰ التنزيه والتوحيد علىٰ سبيل التصريح، فإن قوله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ وقوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ لا يدلان علىٰ التنزيه إلا دلالة ضعيفة».

(٢) المقصد الأسنىٰ ص ٥٧ - ٥٩.

العبد إحاطةً بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع كان حظُّه من [معرفة] صفة القدرة أوفر؛ لأن الثمرة تدل علىٰ المثمر، وإلىٰ هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين تفاوتًا لا يتناهَىٰ، وبه تعرف أن مَن قال: لا يعرف الله إلا الله، فقد صدق. ومَن قال: لا أعرف إلا الله، فقد صدق، فإنه ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ وأفعاله، فإذا نظر إلىٰ أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرَها من حيث أنها سماء وأرض وشجر بل من حيث إنها صفة له فلم تجاوز معرفتُه حضرةَ الربوبية، فيمكنه أن يقول: ما أعرف إلا الله، وما أرىٰ إلا الله. ولو تُصوِّر شخص لا يرىٰ إلا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق يصح أن يقول: ما أرىٰ إلا الشمس، فإن النور الفائض منها هو من جملتها، ليس خارجًا منها، وكل ما في الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثرٌ من آثارها، وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض علىٰ كل مستنير، فكذلك المعنىٰ الذي قصرت العبارةُ عنه فعُبِّر عنه بـ «القدرة الأزلية» للضرورة هو ينبوع الوجود الفائض علىٰ كل موجود، فليس في الوجود إلا الله تعالىٰ.

(**بل لا ظلمة أشد من العدم، ولا نور أظهر من الوجود**) قال المصنف في مشكاة الأنوار(١): مهما عرفتَ أن النور راجع إلىٰ الظهور والإظهار ومراتبه، فاعلمْ أنه لا ظلمة أشد من ظلمة العدم؛ لأنه مظلم، ويسمَّىٰ مظلمًا لأنه ليس [يظهر] للإبصار؛ إذ ليس يصير موجودًا للبصير، مع أنه موجود في نفسه، فالذي ليس موجودًا لا بغيره ولا بنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة؟ وفي مقابلته الوجودُ، فهو النور، فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره.

(**ووجود الأشياء كلها نورٌ من أنوار ذاته تعالىٰ وتقدَّس؛ إذ قوام وجود الأشياء بذاته القيُّوم بنفسه، كما أن قوام نور الأجسام بنور الشمس المضيئة بنفسها**) قال المصنف في مشكاة الأنوار: والوجود بنفسه أيضًا ينقسم إلىٰ ما الوجود له من ذاته وإلىٰ ما الوجود له من غيره، بل إذا اعتبرت ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض،

(١) مشكاة الأنوار ص ٥٧.

وإنما هو موجود من حيث نسبته إلىٰ غيره، وذلك ليس بوجود حقيقيٍّ، فالموجود الحق هو الله تعالىٰ، كما أن النور الحق هو الله تعالىٰ.

(ومهما انكسف بعضُ الشمس فقد جرت العادةُ بأن يوضع طست ماء حتىٰ تُرَىٰ الشمس فيه ويمكن النظر إليها، فيكون الماء واسطة يغضُّ قليلاً من نور الشمس حتىٰ يُطاق النظر إليها، فكذلك الأفعال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل، ولا تبهرنا أنوارُ الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال، فهذا سر قوله ﷺ: تفكَّروا في خلق الله، ولا تتفكروا في ذات الله) وقال الفخر الرازي[١]: أشار بهذا الحديث إلىٰ أن مَن أراد الوصول إلىٰ كُنْه العظمة وهوية الجلال تحيَّر وتردَّد، بل عميَ، فإن نور جلال الإلهيَّة يعمي أحداقَ العقول البشرية، وترك النظر بالكلِّية في المعرفة يوقع في الضلال، والطرفان مذمومان، والطريق القويم أن يخوض الإنسان البحرَ المعتدل ويترك التعمُّق، ومن ثَم سُمِّيت كلمة الشهادة: كلمة العدل. انتهىٰ.

وقال الراغب[٢]: نبَّه بهذا الخبر علىٰ أن غاية معرفة الإنسان ربه أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها المحسوسة والمعقولة، ويعرف أثر الصنعة فيها، وأنها محدَثة، وأن محدِثها ليس إيَّاها ولا مِثلاً لها، بل هو الذي يصح ارتفاع كلِّها مع بقائه، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه، ولمَّا كانت معرفة العالَم كله تصعب علىٰ المكلَّف لقصور الأفهام عن بعضها واشتغال البعض بالضروريات[٣] جعل تعالىٰ لكل إنسان من نفسه وبدنه عالَمًا صغيرًا أوجد فيه مثال كل ما هو موجود في العالَم الكبير؛ ليجري ذلك من العالَم مجرىٰ مختصر من كتاب بسيط، يكون مع كل أحد نسخة يتأمَّلها حضرًا وسفرًا وليلاً ونهارًا، فإن نشط وتفرَّغ للتوسُّع في العلم

(١) عجائب القرآن ص ٥٣ (ط - دار الكتب العلمية).

(٢) الذريعة ص ١٥٤ - ١٥٥.

(٣) في الذريعة: «تصعب علىٰ الإنسان الواحد لقصور أفهام بعضهم عنها واشتغال بعضهم بالضرورات التي يعرفها منهم».

نظر في الكتاب الكبير الذي هو العالَم فيطَّلع منه علىٰ الملكوت ليغزر علمُه، وإلا فله مَقنع بالمختصر ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ [الذاريات: ٢١] انتهىٰ.

وقال الشيخ الأكبر قُدِّس سره[١]: ولا تتفكروا في الله؛ لأن للعقول حدًّا تقف عنده من حيث هي مفكِّرة، وأيَّة مناسبة بين الحق الواجب الوجود لذاته وبين الممكن وإن كان واجبًا به عند مَن يقول به وما حدَّه الفكر به إنما يقوم صحيحه من البراهين الوجودية، ولا بد بين الدليل والمدلول والبرهان والمبرهَن عليه من وجه به يكون التعلُّق له نسبة إلىٰ الدليل ونسبة إلىٰ المدلول، فلا يصح أن يجتمع الخَلق والحق في وجه أبدًا من حيث الذات، بل من حيث إن هذه الذات منعوتة بالألوهية، فهذا حكمٌ آخر تستقلُّ العقولُ بإدراكه، وكم من عاقل يدَّعي العقلَ الرصين من العلماء النُّظَّار يقول إنه حصل علىٰ معرفة الذات من حيث النظر الفكري، وهو غالطٌ؛ لتردُّده بفكره بين السلب والإثبات، والإثبات راجع إلىٰ الوجود، والسلب إلىٰ العدم والنفي، والنفي لا يكون صفة ذاتية؛ لأن الصفات الذاتية للموجودات إنما هي ثبوتية، فما حصل هذا الفكر المتردِّد بينهما من العلم بالله علىٰ شيء.

وقال المصنف في الجواهر والدرر[٢]: معرفة الله تعالىٰ هي الكبريت الأحمر، وتشتمل علىٰ معرفة ذات الخالق، ومعرفة الصفات، ومعرفة الأفعال. فهذه الثلاثة هي اليواقيت، فإنها أخص فوائد الكبريت الأحمر، وكما أن لليواقيت درجات فمنها الأحمر ومنها الأكهب ومنها الأصفر وبعضها أنفس من بعض، فكذلك هذه المعارف الثلاثة ليست علىٰ رتبة واحدة، بل أنفسُها معرفة الذات، وهو الياقوت الأحمر، ثم تليها معرفة الصفات، وهو الياقوت الأكهب، ثم تليها معرفةُ الأفعال، وهو الياقوت الأصفر. وكما أن أنفس هذه اليواقيت وأجلَّها وأعزَّها وأجودها الأحمر ولا تظفر منه الملوك إلا باليسير وقد تظفر ممَّا دونه بالكثير، فكذلك

---

(١) الفتوحات المكية ١/ ٤٤.

(٢) جواهر القرآن ص ٢٥ - ٢٦.

معرفة الذات أضيقها مجالاً وأعسرها منالاً وأعصاها علىٰ الفكر وأبعدها عن قبول الذِّكر، ولذلك لا يشتمل القرآن منها إلا علىٰ تلويحات وإشارات يرجع أكثرها إلىٰ ذِكر التقديس المطلق، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورىٰ: ١١] وكسورة الإخلاص، وإلىٰ التعظيم والتنزيه المطلق، كقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١٠٠] وأما الصفات فالمجال فيها أفسح، ونطاق المنطق فيها أوسع، ولذلك تكثر الآيات المشتملة علىٰ ذِكر العلم والقدرة والحياة والكلام والسمع والبصر وغيرها.

وستأتي بقية هذا الكلام فيما بعد.

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

(اعلمْ) نوَّر الله قلبَك **(أن كل ما في الوجود ممَّا سوىٰ الله تعالىٰ فهو فعلُ الله تعالىٰ وخلقُه)** قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦] وليس في الوجود إلا الله تعالىٰ **(وكل ذرَّة من الذَّرَّات من جوهر وعَرَض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب)** ومصاعد للأفكار ومراقي للاعتبار **(تظهر بها حكمةُ الله تعالىٰ وقدرته وجلاله وعظمته، وإحصاء ذلك غير ممكن؛ لأنه لو كان البحر مِدادًا لذلك)** والأشجار أقلامًا للكتابة **(لنفد البحرُ قبل أن ينفد عُشر عشيره، ولكنا نشير إلىٰ جُمَل منه؛ ليكون ذلك كالمثال لِما عداه، فنقول: الموجودات المخلوقة منقسمة إلىٰ ما لا يُعرَف أصلها فلا يمكننا التفكر فيها، وكم من الموجودات التي لا نعلمها، كما قال الله تعالىٰ:** ﴿وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨﴾) [النحل: ٨] وقال تعالىٰ: (﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾) الأنواع[1] والأصناف (﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ﴾) من النبات والشجر (﴿وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾) الذكر والأنثىٰ (﴿وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ۝٣٦﴾) [يس: ٣٦] أي وأزواجًا ممَّا لم يطلعهم الله عليه ولم يجعل لهم طريقًا إلىٰ معرفته **(وقال)** تعالىٰ: (﴿وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١﴾ [الواقعة: ٦١] **وإلىٰ ما يُعرَف أصلها وجملتها ولا يُعرَف تفصيلها، فيمكننا أن نتفكر في تفصيلها، وهي منقسمة إلىٰ ما أدركناه بحس البصر وإلىٰ ما لا ندركه بالبصر. أما الذي لا ندركه بالبصر فكالملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك، ومجال الفكر في هذه الأشياء ممَّا يضيق ويغمض، فلنعدل إلىٰ الأقرب إلىٰ الأفهام وهي المدرَكات بحس البصر، وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما، فالسموات مشاهَدة بكواكبها وشمسها وقمرها وحركتها ودورانها في طلوعها وغروبها، والأرض**

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٤/ ٢٦٨.

مشاهَدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها، وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرَك بغيومها وأمطارها وثلوجها ورعدها وبرقها وصواعقها وشُهُبها وعواصف رياحها، فهذه من الأجناس المشاهَدة من السموات والأرض وما بينهما، وكل جنس منها ينقسم إلىٰ أنواع، وكل نوع ينقسم إلىٰ أقسام، ويتشعَّب كل قسم إلىٰ أصناف، ولا نهاية لانشعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهيئاته ومعانيه الظاهرة والباطنة، وجميع ذلك مجال الفكر، فلا تتحرك ذرَّة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا فلك ولا كوكب إلا والله تعالىٰ هو محرِّكها، وفي حركتها حكمةٌ أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة، كل ذلك شاهدٌ لله تعالىٰ بالوحدانية، ودالٌّ علىٰ جلاله وكبريائه، وهي الآيات الدالَّة عليه) وقال المصنف في الجواهر والدرر[1]: وأما الأفعال فبحر متسع الأكناف، ولا يُنال باستقصاء أطرافه، بل ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ وأفعاله، وكل ما سواه فعلُه، لكن القرآن اشتمل علىٰ الجليِّ منها الواقع في عالَم الشهادة كذكر [السموات و] الكواكب والأرضين والجبال والبحار [والشجر] والحيوان والنبات وإنزال الماء الفرات وسائر ضروب النبات وما ذكره من الحياة، وهي التي ظهرت للحس، فأشرف أفعاله وأعجبُها وأدلُّها علىٰ جلالة صانعها ما لا يظهر للحس بل هو من عالَم الملكوت وهي الملائكة والروحانيات والروح والقلب، أعني العارف بالله تعالىٰ من جملة أجزاء الآدمي، فإنها أيضًا من [جملة] عالم الغيب والملكوت، وخارج عن عالم المُلك والشهادة، ومنها الملائكة الأرضية الموكَّلة بجنس البشر وهي التي سجدت لآدم عليه السلام، ومنها الشياطين المسلَّطة علىٰ جنس الإنس وهي التي امتنعت من السجود له، ومنها الملائكة السماوية، وأعلىٰ منهم الكروبيُّون، وهم العاكفون في حضرة القدس، لا التفات لهم إلىٰ الآدميين، بل لا التفات لهم إلىٰ غير الله تعالىٰ؛ لاستغراقهم بجمال الحضرة الربوبية وبجلالها، فهم قاصرون

---

(١) جواهر القرآن ص ٢٦ - ٢٧.

عليه لِحاظَهم، يسبِّحون الليل والنهار لا يفترون. واعلمْ أن أكثر أفعال الله تعالىٰ وأشرفها لا يعرفها أكثر الخلق، بل إدراكهم مقصور علىٰ عالم الحس والتخيُّل، وهو القشر الأقصىٰ عن اللب الأصفىٰ، ومَن لم يجاوز هذه الدرجةَ فكأنَّه لم يشاهد من الرمان إلا قشرته، ومن عجائب الإنسان إلا بشرته.

(**وقد ورد القرآن بالحثِّ علىٰ التفكر في هذه الآيات، كما قال تعالىٰ**: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾) [آل عمران: ١٩٠] أي[١] لدلائل واضحة علىٰ وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوَّة الخالصة عن شوائب الحس والوهم، ولعل الاقتصار علىٰ هذه الثلاثة في هذه الآية لأن مَناط الاستدلال هو التغيُّر، وهذه متعرِّضة لجملة أنواعه، فإنه إما أن يكون في ذات الشيء كتغيُّر الليل والنهار، أو جزئه كتغيُّر العناصر بتبدُّل صورها، أو الخارج عنه كتغيُّر الأفلاك بتبدُّل أوضاعها.

(**وكما قال تعالىٰ**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠] ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ [الروم: ٢٢ - ٢٣] **من أول القرآن إلىٰ آخره**.

فلنذكر كيفية الفكر في بعض الآيات) المذكورة (**فمن آياته: الإنسان المخلوق من النطفة، وأقرب شيء إليك**) أيها المتفكِّر (**نفسك**) أي ذاتك (**وفيك من العجائب الدالَّة علىٰ عظمة الله تعالىٰ ما تنقضي الأعمارُ**) الطويلة (**في نسخه**)[٢] أي كتابته (**في الوقوف علىٰ عُشر عشيره وأنت غافل عنه، فيا مَن هو غافل عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك؟ وقد أمرك الله بالتدبُّر في نفسك في كتابه**

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٥٤.

(٢) زيادة تفرد بها الزبيدي دون الجميع.

العزيز فقال: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾) آيات[1]؛ إذ ما في العالَم شيء إلا وفي الإنسان له نظيرٌ يدل دلالتَه (﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾) [الذاريات: ٢٠ - ٢١] تنظرون نظر مَن يعتبر.

(**وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال:** ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾﴾) أي ما أكثره كفرًا بالله تعالىٰ، وهو[2] دعاء عليه بأشنع الدعوات، وتعجُّبٌ من إفراطه في الكفران، وهو مع قِصَره يدل علىٰ سخط عظيم وذمٍّ بليغ (﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾﴾) بيان لِما أنعم عليه خصوصًا من مبدأ حدوثه، والاستفهام للتحقير، ولذلك أجاب عنه بقوله: (﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾﴾) أي هيَّأه لِما يصلُح له من الأعضاء والأشكال، أو فقدَّره أطوارًا إلىٰ أن تمَّ خَلقُه (﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾﴾) أي سهَّل مَخرجَه من بطن أمِّه بأن فتح فُوَّهة الرحم وألهمه أن ينتكس (﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾﴾) [عبس: ١٧ - ٢٢] من قبره.

(**وقال تعالىٰ:** ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾) [الروم: ٢٠] في الأرض.

(**وقال تعالىٰ:** ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾) أي يُصَبُّ في الرحم (﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً﴾) حمراء (﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾) [القيامة: ٣٧ - ٣٨] أي عدَّله.

وقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾) أي نطفة قذرة (﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾﴾) هو الرحم (﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾﴾) [المرسلات: ٢٠ - ٢٢] أي مقدار معيَّن للولادة.

(**وقال**) تعالىٰ: (﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ

---

(١) السابق ٥/ ١٤٧ - ١٤٨.

(٢) السابق ٥/ ٢٨٧.

مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾) [يس: ٧٧] فيه[١] تقبيح بليغ لإنكارهم الحشر، حيث عجبَ منه وجعله إفراطًا في الخصومة بيِّنًا، ومنافاة الجحود لقدرته علىٰ ما هو أهون ممَّا عملَه في بداية خلقه، ومقابلة النعمة التي لا مزيد عليها وهي خلقُه من أخس شيء وأمهنه شريفًا مكرَّمًا بالعقوق والتكذيب.

(وقال) تعالىٰ: (﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾) [الإنسان: ٢] أي[٢] أخلاط، جمع مشيج، من مشجت الشيء: إذا خلطته. وصف النطفة بها لأن المراد بها مجموع منيِّ الرجل والمرأة، وكلٌّ منهما مختلف الأجزاء في الرقَّة والقوام والخواص، ولذلك يصير كل جزء منهما مادةَ عضوٍ. وقيل: مفرد، كأعشار وأكباش. وقيل: ألوان، فأما ماء الرجل فأبيض، وماء المرأة أصفر، فإذا اختلطا اخضرَّا. أو أطوارًا، فإن النطفة تصير علقةً ثم مُضغة إلىٰ تمام الخِلقة.

(ثم ذكر) تعالىٰ (كيف جعل النطفة علقة) حمراء (والعلقة مُضغة) لحم (والمضغة عظامًا، فقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾) أي من الصفو الذي يُسَلُّ من الأرض (﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾) وهو الرحم (﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً﴾ الآية) [المؤمنون: ١٢ - ١٤] والعَلَقة محرَّكة: القطعة من الدم الغليظ، وقيل: من الدم الجامد. والمُضغة بالضم: قطعة لحم، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾.

(فتكرير ذِكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمَع لفظه ويُترَك التفكر في معناه، فانظر الآن إلىٰ النطفة وهي قطرة من الماء قذرة لو تُرِكت ساعةً) من الزمان **(ليضربها الهواء فسدت وأنتنت، كيف أخرجها ربُّ الأرباب من الصُّلب والترائب)** أي من صُلب الرجل وترائب المرأة **(وكيف جمع بين الذكر والأنثىٰ**

(١) السابق ٤/ ٢٧٤.

(٢) السابق ٥/ ٢٦٩.

وألقىٰ الألفة والمحبة في قلوبهم) كما يشير إليه قولُه تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] **(وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلىٰ الاجتماع، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع، وكيف استجلب دمَ الحيض من أعماق العروق وجمعه في الرحم، ثم كيف خلق المولود من)** تلك **(النطفة)** وهو قول أرسطاليس، فإنه يقول: مبدأ قوة الصورة في منيّ الذكر، ومبدأ انعقاد القوة المنفعلة في مني المرأة. ورأيُ جالينوس أن لكل واحد من المنيَّين قوة عاقدة وقابلة للعقد، ولكن لا يتم فعلُها في مني الأنثىٰ إلا بمني الذكر **(وسقاه بماء الحيض وغذّاه حتىٰ نما وكبرَ)** اعلمْ أن الدم الذي ينفصل في الحيض عن المرأة يصير أكثره غذاءً في وقت الحمل، فمنه ما يستحيل إلىٰ مشابهة جوهر المني والأعضاء الكائنة منه فيكون غذاء منمِّيًا لها، ومنه ما لا يصير غذاءً لذلك ولكن يصلُح لأنْ ينعقد في حشوها فيكون لحمًا آخر أو سمنيًا أو شحمًا ويملأ الأمكنة بين الأعضاء الأولىٰ، ومنه ما لا يصلُح لأحد الأمرين فيبقىٰ إلىٰ وقت النِّفاس وتدفعه الطبيعة فضلاً، وإذا وُلد الجنين فإن الدم الذي يولِّده كبدُه يسد مَسدَّ دم الطمث الذي كان غذاء له، ويتولَّد عنه ما كان يتولَّد عن ذلك الدم **(وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء، ثم كيف جعلها مضغة، ثم كيف قسَّم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلىٰ العظام والأعصاب والعروق والأوتار واللحم، ثم كيف ركَّب من اللحوم والأعصاب والعروق الأعضاءَ الظاهرة، فدوَّر الرأسَ وشقَّ)** فيه **(السمعَ والبصر والأنف والفم وسائر المنافذ، ثم مدَّ اليد والرِّجل وقسَّم رؤوسها بالأصابع، وقسَّم الأصابع بالأنامل، ثم كيف ركَّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمَثانة والأمعاء كل واحد علىٰ شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص)** وإنما سمَّاها باطنة لكونها لا تُرَىٰ بظاهر العين **(ثم كيف قسَّم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أُخَر فركَّب العين من سبع طبقات، لكل طبقة وصفٌ مخصوص وهيئة مخصوصة، لو فُقِدت طبقة منها أو زالت صفةٌ من صفاتها تعطَّلت العين عن الإبصار)** اعلمْ أن كلاً من العينين مركَّب من سبع

طبقات وثلاث رطوبات ومن العصب والعضل والعروق، وكيفية تركيبها: أن العصبة المجوَّفة التي هي أول العصب الخارج من الدماغ تخرج من القحف إلىٰ قعر العين، وعليها غشاءان هما غشاءا الدماغ، فإذا برزت من القحف وصارت في حومة عظم العين فارقها الغشاءُ الغليظ وصار غشاء ولباسًا علىٰ عظم العين [الأعلىٰ] ويسمَّىٰ هذا الغشاء: الطبقة الصُّلبية، ثم يفارقها الغشاء الرقيقُ فيصير غشاء ولباسًا دون الصلبية، ويسمَّىٰ: الطبقة المَشيمية؛ لشبهها بالمشيمة؛ لأنها ذات عروق كثيرة، ثم تصير هذه العصبة نفسها إلىٰ المجوَّفة عريضة ويصير منها غشاء دون الأوَّلين، وتسمَّىٰ: الطبقة الشبكية، ثم يتكوَّن في وسط هذا الغشاء جسمٌ رَطْب لين في لون الزجاج الذائب وقوامه، ويسمَّىٰ: الرطوبة الزجاجية، ويتكوَّن في وسط هذا الجسم جسمٌ آخر مستدير إلا أن في جانبه الخارجي أدنىٰ تفرطُح؛ لتظهر فيه أشباح المرئيَّات، وفي جانبه الداخلي نتوءٌ ليتصل بالعصبة المجوَّفة كما ينبغي، ويسمَّىٰ: الرطوبة الجليدية؛ لشبهها بالجليد في صفائه وجلوته، ويسمَّىٰ البُرْدية أيضًا لشبهها بالبُرْدة في شكلها وصفائها وشفيفها، وتحيط الزجاجية من الجليدية بمقدار النصف، ويعلو النصفَ الآخر جسمٌ شبيه بنسج العنكبوت شديد الصقال والصفاء يسمَّىٰ: الطبقة العنكبوتية، ثم يعلو هذه الطبقةَ جسمٌ سائل في لون بياض البيض وقوامه يسمَّىٰ: الرطوبة البيضية، ويعلو البيضية جسم رقيق مخمل الداخل، أملس الخارج، ويختلف لونه في الأبدان، فربما كان شديد السواد، وربما كان دون ذلك في وسطه بحيث يحاذي الجليديةَ ثقبٌ يتسع ويضيق في حال دون حال بمقدار حاجة الجليدية إلىٰ الضوء، فيضيق عند الضوء الشديد ويتسع في الظلمة، ويسمَّىٰ هذا الثقب: الحدقة، ويسمَّىٰ هذا الغشاء: الطبقة العنبية [لشبهها بالعنب] في خمل باطنها وملاسة ظاهرها والثقب الذي في وسطها، ويعلو هذه الطبقةَ جسم كثيف صلب صافٍ شفَّاف يشبه صفيحة رقيقة من قرن أبيض ويسمَّىٰ: الطبقة القرنية، غير أنها تتلوَّن بلون الطبقة التي تحتها المسمَّاة بالعنبية، ولونها مختلف في الناس، ففي بعض تكون زرقاء، وفي بعض تكون شهلاء، وفي بعض تكون سوداء. ويعلو

هذه الطبقة ويغشاها - لا كلها بل إلىٰ موضع سواد العين - جسم أبيض اللون يسمَّىٰ: الطبقة الملتحمة، وهي التي تلي الهواء، وهو بياض العين، ونباته من الجلد الذي علىٰ القحف من خارج، وجوهره من لحم أبيض دسم قد امتزج بعضلة العين وأُحكِم علىٰ القرنية، فلهذا تسمَّىٰ بالملتحمة. هكذا رتَّب بعضهم هذه الطبقات والرطوبات، أعني جعل الأول الطبقة الصلبية، ثم الطبقة المشيمية، ثم الطبقة الشبكية، ثم الرطوبة الجليدية، ثم الطبقة العنكبوتية، ثم الرطوبة البيضية، ثم باقي الطبقات العنبية والقرنية والملتحمة. وبعضهم جعل الرطوبة البيضية تاليةً للرطوبة الجليدية بين الزجاجية والبيضية، وجعل الطبقات الأربعة - أعني العنكبوتية والعنبية والقرنية والملتحمة - تالية للرطوبات الثلاث المتوالية، وأشرف أجزاء العين إنما هو الرطوبة الجليدية، وسائر الطبقات والرطوبات لأجل مصلحتها، فالزجاجية والطبقات الثلاث قد أحاطت بنصف الجليدية من جانب الرطوبة البيضية، والطبقات الأربع المتصلة بها محيطة بنصفها الآخَر من جانب آخَر، وهي موضوعة في الوسط صيانةً لها وحِرزًا (**فلو ذهبنا إلىٰ أن نَصِفَ ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات**) الدالَّة علىٰ كمال قدرته (**لانقضت فيه الأعمارُ**) ولم تَفِ عُشرَ عشيره (**فانظر الآن إلىٰ العظام، وهي أجسام صلبة قوية**) اعلمْ أن الأعضاء أجسام كثيفة متكوِّنة من الرطوبات المحمودة وهي الأخلاط والرطوبات الثانية التي ليست من الفضول، والمنيُّ إما من الأخلاط عند من يجعله دمًا نضيجًا، وإما من الرطوبات الثانية عند من يجعله نوعًا آخر، ومنها عضو مفرد، وهو الذي أيُّ جزء محسوس أخذتَ منه كان مشاركًا للكل في الطبع والمزاج، ولذلك يسمَّىٰ: متشابه الأجزاء، وهو العظم، وقد خُلق صلبًا (**كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة، ثم جعلها قوامًا للبدن وعمادًا له**) ودعامة للحركات (**ثم قدَّرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة، فمنها صغير وكبير، وطويل ومستدير، ومجوَّف ومُصمَت، وعريض ودقيق**) ومنه ما هو مربَّع، ومنه ما هو علىٰ شكل زاوية، ومنه ما هو علىٰ

نصف دائرة (**ولـمَّا كان الإنسان محتاجًا إلىٰ الحركة بجملة بدنه وببعض أجزائه مفتقرًا للتردُّد في حاجاته لم يجعل عظمه عظمًا واحدًا بل عظامًا كثيرة بينها مفاصل حتىٰ تتيسَّر بها الحركةُ، وقدَّر شكل كل واحد منها علىٰ وفق الحركة المطلوبة بها، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها بالبعض بأوتار أنبتها من أحد طرفَي العظم وألصقه بالعظم الآخَر كالرباط له**) اعلمْ أن الوتر مؤلَّف في الأكثر من العصب النافذ في العضلة البارزة منها في الجهة الأخرىٰ ومن الرباط، والرباط عضو عصباني المرأىٰ والملمس من جهة البياض واللدونة، وفائدته أن يأتي من العظم إلىٰ جهة العضل فيتشظَّىٰ هو والأعصاب فينفتل وترًا، والعصب والرباط إذا تشظَّيا شظايا دقاقًا وحُشِي الخلل الواقع بينهما لحمًا وغُشي غشاء تسمَّىٰ جملة ذلك: عضلة، فما امتدَّ منه إلىٰ العضلة لم يسمَّ إلا رباطًا، وما لم يمتدَّ إليها ولكن وصل بين طرفَي [عظمي] المفصل أو بين أعضاء أخرىٰ وأحكم شد شيء إلىٰ شيء فإنه مع ما يسمَّىٰ رباطًا قد يُخَص باسم: العقب، وليس لشيء من الروابط حسٌّ، وذلك لئلاَّ يتأذَّىٰ بكثرة ما يلزمه من الحركة (**ثم خلق في أحد طرفَي العظم زوائد خارجة منه، وفي الآخَر حُفَرًا غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها، فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه، ولولا المفاصل لتعذَّر عليه ذلك**) اعلمْ أن المفصل مجاورة طبيعية بين عظمين، والالتحام هو اتحاد طبيعي بينهما، وهو إما أن يكون من غير شيء يصل بينهما، وإما أن يكون بشيء، وذلك الشيء إما عصب وإما غضروف وإما لحم، والمفصل إما موثق وهو الذي لا يتحرك حركة بيِّنة كمفصل الرسغ، وإما سَلِسٌ وهو ما يتحرك حركة بيِّنة كمفصل المرفق، وكلٌّ ثلاثة أقسام، أحدها: من الموثق ما يكون تركيبه بدَرْز يجمع العظمين، وهو أن يكون لكلٍّ منهما زوائد وحُفَر كالمنشار، فتدخل كل زائدة من كل حفرة من الآخر كالمنشارين إذا جُمعا. الثاني: ما يكون تركيبه بلزاق يضمُّهما وهو أن يتصلا علىٰ خط مستقيم كزندَي الساعد وقصبتي الساق. الثالث: ما يكون تركيبه بركز أحدهما في الآخَر، وهو أن يدق أحدهما ويرتكز رأسه الدقيق في عظم آخر كالأسنان في

أوريتها. الرابع، وهو أول السلس: أن تكون الحفرة كذلك من العظم المحفور، غائرة الرأس من الآخِر، طويلة العنق، رقيقة كمفصل الفخذ، ويسمَّىٰ: المفرق. والخامس: أن لا تكون الحفرة كذلك يسمَّىٰ: المطرف، وأن يكون لكل رأس يدخل في فقرة من الآخر كالمرفق ومفاصل خرز الصلب، ويسمَّىٰ: المداخل.

(**ثم انظر كيف خلق عظام الرأس، وكيف جمعها وركَّبها، وقد ركَّبها من خمسة وخمسين عظمًا مختلفة الأشكال والصور، فألَّف بعضها إلىٰ بعض بحيث استوت به كرة الرأس كما تراه، فمنها ستة تخص القحف**) وهي عظما اليأفوخ وعظم مؤخر الرأس وعظم الجبهة والعظمان اللذان عن جنبيه وفيها الأذنان، فهذه هي الستة، وهي عند أهل التشريح سبعة، والسابع هو المشترك الشبيه بالوتد، وهو قاعدة الدماغ وحمَّال الرأس، ولا بد من ذكره، وقد أسقطه المصنف، وبه يتم العدد الذي ذكره، كما يظهر ذلك بالتأمل. فاليأفوخان مربَّعان رخوان، وسبب رخاوتهما أن يكونا خفيفين لئلاَّ يثقلا علىٰ الدماغ، ولأن الروح النفساني إنما ينضج أولاً بالبطنين المقدَّمين من الدماغ، ثم يتصفَّىٰ ويصير إلىٰ البطن المؤخر، وكانت الفضول هناك أكثر، فاحتيجَ إلىٰ أن يتحلَّل منه البخار، فلذا خُلِقتا رخوين، وعظما الجنبين مثلَّثان، وكلٌّ ثلاثة أجزاء، أحدها يسمَّىٰ: الحَجَري؛ لأنه صلب كالحجر، وفيه ثقب السمع. الثاني: صلب جدًّا، وفيه زائدة شبيهة بحلمتَي الثدي تمنع اللحي الأسفل من أن يخرج عن موضعه لسلاسة مفصله. الثالث: موضع الصدغ، وهو الصلب أيضًا، وعظم الجبهة نصف دائرة، وعظم مؤخر الرأس والوتد كثير الأضلاع، والكل صِلاب للاستغناء عن منفعة الاسترخاء المذكور ولمقاومة ما ينال الرأسَ من مصاكَّة الأجسام التي يُضرب بها الرأس أو يقع هو عليها، وقلَّما يقع الإنسان علىٰ يأفوخه، بل علىٰ قفاه وجنبيه ووجهه غالبًا. وعظم المؤخر أصلب الجميع؛ لعدم حارس له كالعينين ودافع كاليدين، والحاجة في شدة صلابة القاعدة أوضح من أن يوضَّح، وهو موضوع تحت القحف من ناحية خلف فيما بينه وبين

اللحي الأعلىٰ، وقد مُلئَ به الخلل الحادث هناك، وهذه العظام يتصل بعضها ببعض بدروز خاصة وعامة تسمَّىٰ: الشؤون، فالخاصة خمسة، أحدها في مقدم الرأس في موضع يوضع فيه الإكليل، مشترك مع الجبهة، قوسيٌّ هكذا ويسمَّىٰ: الإكليلي. الثاني في وسط الرأس، قد ذهب في طوله، ونصفه مستقيم، يقال له وحده: سهميٌّ، وإذا اعتُبِر من جهة اتصاله بالإكليلي قيل له: سَفُّوديٌّ، وشكله كقوس يقوم في وسطه خطٌّ مستقيم كالعمود، وهو هكذا الثالث في مؤخر الرأس، مشترك بين الرأس من خلفه وبين قاعدته، وهو علىٰ شكل زاوية متصل بنقطة من طرف السهمي، ويسمَّىٰ: الدرز اللامي؛ لأنه يشبه اللام في كتابة اليونانيين، وهو هكذا وإذا انضمَّ إلىٰ الدرزين المقدَّمين صار شكله هكذا وهذه الدروز الثلاثة دروز حقيقية. الرابع والخامس: الدرزان الكاذبان، وهما ممتدَّان في طول الرأس فوق الأذنين علىٰ موازاة السهمي من الجانبين، وليسا بغائصينِ في العظم تمام الغوص، ولهذا يسمَّيان القشرين، وإذا اتصلا بالثلاثة الأولىٰ الحقيقية صار شكلها هكذا وأما العامة وهي المشتركة بين الرأس وغيره فاثنان، أحدهما: الذي يصل بين الرأس وبين اللحي الأعلىٰ، وهو الذي يبتدئ من الموضع الغائر من الصدغ من طرف الدرز الإكليلي ويصير إلىٰ موضع العينين، فيمر فيه وفي الوسط بين الحاجبين حتىٰ ينتهي إلىٰ الطرف الآخَر من الدرز الإكليلي فيلتزق به. الثاني: الواصل بينه وبين القاعدة، فيصل بين طرفَي اللامي عندما ينحدران إلىٰ موضع القاعدة، ثم يصعد من الجانبين فيتصل بطرفَي الإكليلي.

واعلمْ أن ما ذكرناه من الخمسة فهي للرأس الذي شكله طبيعي أي مستدير له نتوء في مقدمه ونتوء في مؤخره، وأما الذي ليس كذلك فهو ثلاثة، أحدها: الذي لا نتوء له في مقدمه، فلا يوجد فيه الإكليلي. الثاني: ما لا نتوء له في مؤخره، فلا يوجد فيه اللامي. الثالث: ما لا نتوء له في مقدمه ولا في مؤخره، فلا يوجد فيه الإكليلي واللامي، ويوجد فيه درزان متقاطعان علىٰ زوايا قائمة، ويصير الرأس كالكرة

متساوي الطول والعرض، ولكل هذه العظام حدود تفرزه من غيره. أما اليأفوخان فحد كلٍّ: من خلف أحد ضلعَي اللامي، ومن قدَّام الإكليلي، ومن الأسفل أحد القشرين، ومن الأعلىٰ السهميُّ. وأما الجانبان فحدُّ كلٍّ منهما من الأعلىٰ أحدُ القشرين، ومن الخلف طرف اللامي، ومن القدَّام آخر الدَّرْز العام الذي من طرف اللامي إلىٰ طرف الإكليلي. وعظم المؤخر حدُّه من الأعلىٰ اللاميُّ، ومن الأسفل الجزءُ الوسط من العام الذي بين الرأس والوتد وهو الواصل بين طرفَي اللامي. وعظم الجبهة حدُّه فوق الإكليلي، ومن أسفل العامُّ الواصل بين الرأس واللحي الأعلىٰ.

واعلمْ أن القحف جُنَّة الدماغ، وجُعل شكله مستديرًا لئلاَّ تسرع إليه الآفات، ولأن الشكل المستدير لا ينفصل عن المصادمات ما ينفصل عنه ذو الزوايا، وليسع من جوهر ما يحتوي عليه مقدارًا كثيرًا؛ لأن الشكل المستدير أعظم مساحةً مما يحيط به غيره من الأشكال المستقيمة الخطوط إذا تساوت إحاطتُها، وخلق إلىٰ طول مع استدارته مضغوطًا من الجانبين، ناتئًا من قدَّام وخلف؛ لأن الدماغ كذلك بسبب الشُّعَب التي تأتي منه إلىٰ المنخرين والعينين وبسبب أبخرة المؤخر الذي هو منشأ النخاع، وفائدة دروزها اندفاع البخارات من منافذها، وفائدة كثرة عظامه أن الآفة إذا لحقت جزءًا لم يقدح في البواقي، وليكون في الشرايين والأوردة الداخلة إلىٰ الدماغ والخارجة منه مسالك، وأعظم تلك المسالك هو مخرج النخاع، وهو الذي من أسفل عند فقرة القفا. فهذا ما يتعلق بعظام القحف، ولم يذكر المصنف عظام الصدغين، وهي أربعة، لكلٍّ اثنان يسمَّيان: الزوج، أحدهما ملتحم بالعظم الجبيني من عظام الرأس، والآخر متصل بطرف الحاجب الذي هو عند الموق الأصغر من العين، وكِلاهما قُرِنا بدرز مورب يفرِّق بينهما، ومنفعتهما حفظُ عضل الصدغ عمَّا يصاكُّه من خارج (**وأربعة عشر للحي الأعلىٰ**) ستة في العينين، لكلِّ ثلاثةٌ، اثنان للوجنتين، وهما كبيران منهما أكثر الأسنان سوىٰ الثَّنايا والرباعيات

العليا. واثنان صغيران وفيهما ثقبان من المنخرين إلىٰ الفم. واثنان في طرفَي اللحي وفيهما بقية الأسنان. واثنان في الأنف. وأما دروز اللحي الأعلىٰ فالمشتركة قد ذُكرت، والخاصة أربعة، أحدها يبتدئ من تحت زوج الصدغ من الدرز المشترك للحي والوتد ويصير إلىٰ وسط الزيق الأسفل من محاجر العين وينقسم هناك ثلاث شُعَب. الثاني والثالث يبتدئان من وسط الحاجبين ويمرَّان إلىٰ جانبَي المنخرين حتىٰ ينتهيا إلىٰ الموضع بين الرباعيات والأنياب. الرابع يقطع أعلىٰ الحنك بالطول. وكل واحد من هذه العظام يحدُّه من جوانبه دروزٌ من المشتركة والخاصة، وفائدة كثرتها أن الآفة إذا نالت أحدَها لم تؤثِّر في الباقي (**واثنان للحي الأسفل**) طرف كلٍّ منهما من الأسفل في موضع الذقن يلتحم بصاحبه، والآخر من فوق له شعبتان، إحداهما حادة دقيقة الرأس، وهي تحت الزوج، ويأتيها وتر عضلة الصدغ القائم بإطباق الفم. والثانية غليظة، وهي من خلف داخلة في نقرة تحت الزائدة الشبيهة بحلمتَي الثدي دخولاً يلتئم به منها، ومن تلك النقرة مفصل (**والبقية هي الأسنان**) وهي اثنتان وثلاثون، في كل لحي ستة عشر (**بعضها عريضة**) خشنة الرؤوس (**تصلُح للطحن**) وهي خمسة في كلٍّ من الجانبين، وتسمَّىٰ: الأضراس والطواحين (**وبعضها**) عِراض (**حادة**) الرؤوس (**تصلُح للقطع، وهي الأنياب والأضراس والثنايا**) منها أربعة من قدَّام وهي الثنيَّتان والرباعيتان، ويقال لها: القَطَّاعة؛ إذ يُقطع بها ما يؤكل من الطعام الليِّن، واثنتان عن جانبي الأربع يقال لهما: النابان، وهما حادَّتا الرؤوس، عريضتا الأصول، يُكسَر بهما ما صلبَ من الطعام، ولكلٍّ من هذه الست أصل واحد، ولكل منها إذا كان من فوق ثلاثة أصول، وقد يكون لأقصاها أربعة، وإن كان من أسفل أصلان، وقد يكون لأقصاها ثلاثة أصول، وإنما جُعلت أصول الأضراس أكثر لشدة عملها ودوامه، وإنما جُعلت أصول الفوقانية منها أكثر من أصول التحتانية لتعلقها. ومن عجيب الحكمة في هيئة الأسنان أن الثنايا والرباعيات تتماسُّ وتتلاقىٰ في حالة العض، ولو لم يكن كذلك

لم يتمَّ العض علىٰ الأشياء، وذلك يكون بجذب الفك إلىٰ قدَّام حتىٰ يلاقي بعضُها بعضًا، وعند المضغ والطحن يرجع الفك إلىٰ مكانه، فتدخل الثنايا والرباعيات السفلانيات إلىٰ داخل وتحيد عن موازاة العالية، فيتم بذلك للأضراس وقوعُ بعضها إلىٰ بعض، وذلك لأنه لا يمكن مع تلاقي الثنايا والرباعيات التي في اللحي الأعلىٰ وفي اللحي الأسفل أن تتلاقَىٰ الأضراس، وربما عدمت النواجذُ منها في بعض الناس وهي الأربعة الطرفانية فتكون أسنانه ثمانية وعشرين، والنواجذ تنبُت في الأكثر في وسط زمان النمو وهو بعد البلوغ إلىٰ الوقوف، وذلك الوقوف قريب من ثلاثين سنة، ولذلك تسمَّىٰ: أسنان الحُلم.

تنبيه: اختلف الأطباء في المادة التي تُخلَق منها الأسنان، فقال بعضهم: هي عظام؛ لأنها صلبة، يابسة، قابلة للكسر، غير مدركة لألم السحق والنحت، وإليه يميل سياق المصنف. وقال بعضهم: هي أعصاب؛ لأنها تدرك الحرارة والبرودة وألم الضربان والوجع والحكَّة، ويحصل لها الضرسُ من الحموضات، وذلك خدرها، والخَدر مخصوص بالعصب. قال المتأخرون: والحق هو الأول. وهي عظام قد غلب عليها البرد واليبس، وقد اتصلت بها شُعَب من العصب الدماغي وقد أُنبِتت في أصولها، وهي الموجِبة لإدراكها الوجع والضربان والحرارة والبرودة وغيرها. وقد اختلفوا أيضًا هل أصلها من مني الأب والأم أو هي من الغذاء، واستدلَّ القائلون بالأول بأنها لو كانت من الغذاء لنبتت كلَّما انكسرت وسقطت، وليس كذلك. واستدلَّ القائلون بالثاني بأنها لو كانت من المنيِّ لم يوجد الجنين إلا بها ولم تنبُت هي إذا سقطت كما في الأطفال، وليس كذلك. والحق أنها من مادة المني، لكن تلك المادة كامنة في عظام الفكَّين، والعلة الغائية في ذلك أن الطفل لا يحتاج إلىٰ الأسنان في أول الأمر؛ لأن غذاءه من اللبن، وفكَّاه صغيران وعظامهما ضعيفة، فيكون ما ينبُت منها مناسبًا لها في الضعف والصغر، فلم تفِ بما يحتاج إليه من المضغ والكسر وغير ذلك إلىٰ آخر العمر، فالعناية الأزلية اقتضت تأخير

خروجها ونباتها إلىٰ حين الحاجة والاستعداد التام للوفاء بما هو المطلوب منها من الشكل والعِظَم والقوة والصلابة وغيرها. وأما سقوط أسنان الأطفال ونباتها مرة ثانية فالحكمة فيه أن الطفل إذا صار محتاجًا إلىٰ الاغتذاء بغير اللبن اقتضت العنايةُ نباتَ أسنانه، لكنها تكون ضعيفة صغيرة مناسِبة لعظام الفكَّين، ولذلك لا تفي بما هو المراد إلىٰ آخر فقدَّر الباري تعالىٰ أن تسقط وتدَّخر الطبيعة شيئًا من المادة لإنباتها مرة ثانية بحيث تفي بالمراد إلىٰ حلول الأجل الطبيعي. ولسقوطها سبب آخر وهو نمو الإنسان وكِبَر أعضائه، فيتَّسع بالضرورة مكان الأسنان فيتحرك ويتزلزل ويسقط، وما يقال من أن بعض الشيوخ تسقط أسنانه وتنبُت مرة ثالثة فغير مستبعَد؛ إذ قد تكون المادة التي تُخلَق الأسنان منها أوفر ممَّا هو الأغلب والأكثر المعتاد في الأشخاص، وذلك نادر، فيَفِي بنباتها مرة ثالثة، ومادة السن الزائدة هي أيضًا من هذا القبيل، أعني من توفر المادة كمادة الإصبع الزائدة، وقد تنبُت لبعض الناس بعد البلوغ أسنان صغار، ومادتها ما ذكرنا.

(ثم جعل الرقبة مَركبًا للرأس، وركَّبها من سبع خرزات مجوَّفات مستديرات، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات؛ لينطبق بعضُها علىٰ بعض. ويطول ذِكرُ وجه الحكمة فيها) اعلمْ أن عظم الصُّلب ينقسم أربعة أجزاء، أحدها: الرقبة، وهي مركَّبة من سبع فقرات، والفقرة عظم في وسطه ثقب ينفذ فيه النخاعُ، ويقال لها أيضًا: الخرزة. الثاني: الظهر. الثالث: القَطَن والحقو. الرابع: العجُز. وسيأتي بيان كل ذلك. ومن الفقرات ما يسمَّىٰ بالزوائد، وهي ثلاثة أجناس، أحدها يسمَّىٰ بالشوك والسناسن. الثاني: الزوائد المعترضة، فما منها من فقار الرقبة مثقوب، وهي في الأوَّلين بسيطة، وفي الخمس الباقية مشقوقة باثنين، وما منها في البواقي غير مثقوب الثلاث الزوائد التي بها تلتئم مفاصلُ الفقار، وهي في كلِّ أربعٌ، ثنتان شاخصتان إلىٰ فوق، وثنتان إلىٰ أسفل. وفي خرز الرقبة وخرز القطن زائدتان للوقاية. وقوله «فيها تحريفات وزيادات ونقصانات» يشير به إلىٰ أن في كلِّ

من الفقرات الست السفلية من الرقبة نصب ثقبة هي نصف دائرة تامة، وتلتئم من اثنين دائرةٌ تامة أيضًا، والفقرة الأولىٰ يخرج العصب من ثقب فيها خاصة لمكان المفاصل التي من جانبيها (**ثم ركَّب الرقبة علىٰ الظهر، وركَّب الظهر من أسفل الرقبة إلىٰ منتهَىٰ عظم العجُز من أربع وعشرين خرزة**) اثنتا عشر منها تسمَّىٰ فقرات الصدر أيضًا؛ لأن حد الصدر الأسفل ينتهي عند قبالتها، وسائر الفقرات يتصل كلٌّ منها بصاحبتها من قدَّام برباطات، ومن خلف بزوائد يدخل من كلٍّ في الأخرىٰ، ومنها خمس للقَطَن والحقو (**وركَّب عظم العجُز**) وهو عظم عريض يُعرَف بـ: العظم الأعظم (**من ثلاثة أجزاء مختلفة**) وعند المشرِّحين مركَّب من جزأين، أحدهما يسمَّىٰ: العجز، باسم الجميع، وهو مركَّب من ثلاثة عظام شبيهة بالفقرات (**فيتصل به من أسفله عظم العُصْعُص**) وهو الجزء الثاني من العجز (**وهو أيضًا مؤلَّف من ثلاثة أجزاء**) غضروفية، وتختلف هذه الخرزات في الاتصال والمقدار والثخن والزوائد والثقب. ولعظم العجز زوائد شوكية شاخصة إلىٰ فوق وأسفل، وأما التي في الجانبين فهي عِراض.

واعلمْ أن منافع عظم الصلب خمس، إحداها: أنه أساس الأعضاء. الثانية: مرور النخاع في تجويفه، والحاجة إلىٰ النخاع ضرورية؛ إذ لا بد للأعضاء من عصب الحس والحركة، ولو كان العصب كله يأتيها من نفس الدماغ لانقطع إذا بعدت المسافة، علىٰ أنه لم يمكن أن ينشعب من الدماغ عصب صلب يصلُح لتحريك اليدين والرجلين للين جوهره. الثالثة: كونه جُنَّة للنخاع واقية. الرابعة: القدرة علىٰ الانحناء والانبساط، ولذا جُعل مركَّبًا من الفقرات الكثيرة؛ إذ لو كان واحدًا لتعذَّر ذلك. الخامسة: أن يستر الأعضاء الموضوعة عليها ويدفع عنها (**ثم وصل عظامَ الظهر بعظام الصدر**) وهي سبعة، يتصل بعضها ببعض، وابتداؤها من حيث نقرة الحلق، وانتهاؤها من أسفل الثدي بقليل حيث أضيق موضعٍ من المواضع التي تُحَس من البطن (**وعظام الكتف**) وهي أربعة، لكلٍّ اثنان، أحدهما

له تقعير من باطنه لتحدُّب الأضلاع وتجويف من ظاهره ونتوء من خلفه يقال له: ظاهر الكتف وعين الكتف، وله عنق في طرفه نقرة يدخل فيها رأس العضد، وبه زائدتان، إحداهما من خلف في الطرف الأعلىٰ من العنق شبيهة بمنقار الغراب، وتسمَّىٰ: الأخرم، وبها يرتبط الكتف بالترقوة، وهي تمنع رأس العضد من أن ينخلع. والثانية: عظم غضروفيٌّ إلىٰ فوق من داخل يمنع رأس العضد من أن ينخلع **(وعظام اليدين)** وهي ستة عشر، لكلٍّ ثمانيةٌ، وهي عظام صلبة صلدة، عديمة المخ، سبعة منها نُضِّدت صفَّين، فالصف الأعلىٰ من ثلاثة، والأسفل من أربعة، وذلك لأن أعلىٰ الرسغ موصول بعضو ضيق الطرف ليس بين عظمَيْه في هذا الجانب فرجة، أعني الساعد، وأسفله متصل بعضو عريض، أعني مشط الكف، وأما الثامن فإنما خُلق لحفظ عصبة هناك تأتي الكف لا للرسغ خاصة **(وعظام العانة، وعظام العجز)** اعلمْ أن عظم العانة واحد، وهو جزء من أربعة أجزاء من عظمَي الوركينِ، وبيانه: أن عظمَي الوركين متصلان بعظم العجز من جانبيه عن يمينه وعن شماله، ولكلٍّ أربعة أجزاء، فيقال للذي بجنبه منها: عظم الخاصرة، وللذي من قدَّامه: عظم العانة، وللذي من خلفه: عظم الورك، وللجزء الباطن المجوَّف: حُق الفخذ. وأما عظام العجز فقد تقدَّم الكلام عليها **(ثم عظام الفخذين)** وهما عظمان من أعظم عظام البدن؛ لأنهما يحلاَّن ما فوقهما، ويقومان بتحريك عضو عظيم، أعني جملة الرِّجل، والطرف الأعلىٰ من كلٍّ منقولٌ إلىٰ الجانب الوحشي؛ ليكون للعضل والعصب والعروق موضع، والأسفل إلىٰ الإنسي؛ ليتمكَّن البدن منه بوثاقة وحِرز، ولكلٍّ رأسان، الأعلىٰ مدوَّر، داخل في حُق الفخذ، ويسمَّىٰ: رمَّانة الفخذ، والأسفل ذو شعبتين تدخلان في نقرتين في رأس عظم الساق **(والساقين)** وهي ستة، لكلٍّ ثلاثةٌ، أحدها: القصبة العظمىٰ، ويقال لها: عظم الساق والقصبة الإنسية؛ لوضعها في الجانب الإنسي. والثاني: الصغرىٰ والوحشية، وهي أقصر من تلك، ولذا لا تبلغ مفصلَ الركبة، وإنما تبلغه العظمىٰ، فيدخل رأسان من عظم الفخذين في حفرتين فيها، وطرفا هذين يلتقيان عند الكعب فيحدث فيما بينهما

المفصلُ. الثالث من مفاصل الرِّجل الثالثة: عين الركبة، وهو عظم مطبق علىٰ مفصل الركبة مستدير، فيه غضروفيةٌ، ويسمَّىٰ: الرحىٰ **(وأصابع الرِّجلين)** وهي مؤلَّفة من أربعة عشر عظمًا؛ لأن الإبهام فيها مؤلَّف من كعبين، والبواقي من ثلاث. فهذه جملة عظام البدن، ولم يذكر عظمَي العضدين ولا عظام الساعدين، وهي أربعة لكلٍّ، اثنان هما الزندان. ولا عظام شطر الكفَّين، وهي ثمانية، لكلٍّ أربعةٌ. ولا عظام أصابع اليدين، وهي ثلاثون، لكلٍّ خمسة عشر. ولا عظام القدمين، وهي اثنتان وخمسون، لكلٍّ ستة وعشرون، وقيل: أربعة وخمسون، لكلٍّ سبعةٌ وعشرون **(فلا نطيل بذكر عدد ذلك، ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظمًا سوىٰ)** السمسمانيَّات، وهي **(العظام الصغيرة التي حُشي بها خُلَل المفاصل)** من السُّلاَّميات وهي عظام الأصابع لزيادة الاستيثاق منها، سُمِّيت بذلك لتشابهها بالسمسم، وسوىٰ العظم الشبيه باللام اليوناني، وسوىٰ العظم الذي في القلب فإنها عند بعض الناس من جنس الغضروف. والاختلاف في عدد جملة عظام القدمين بل البدن كثير، وتفصيله مودَع في كتب التشريح.

(فانظر كيف خُلِق جميع ذلك من نطفة) قذرة **(سخيفة رقيقة، وليس المقصود من ذِكر أعداد العظام أن يُعرَف عددها)** فقط **(فإنَّ هذا علمٌ قريب)** سهل التناول **(يعرفه الأطباء والمشرِّحون)** أي أرباب التشريح **(وإنما الغرض)** المطلوب من ذلك **(أن يُنظَر منها في مدبِّرها وخالقها أنه كيف قدَّرها ودبَّرها وخالف بين أشكالها وأقدارها وخصَّصها بهذا العدد المخصوص؛ لأنه لو زاد عليها واحدًا لكان وبالاً علىٰ الإنسان يحتاج إلىٰ قلعه)** وإزالته **(ولو نقص منها واحدًا لكان نقصانًا يُحتاج إلىٰ جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلُّوا بها علىٰ جلالة خالقها ومصوِّرها، فشتَّان بين النظرين)**: نظر البصر، ونظر البصيرة.

(ثم انظر كيف خلق الله تعالىٰ آلات لتحريك العظام وهي العضلات، فخلق

في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعًا وعشرين عضلة) أو سبعًا وعشرين، وهذا علىٰ قول جالينوس **(والعضلة مركَّبة من لحم وعصب ورباط وأغشية)** فاللحم هو حشو خلل الأعضاء وقوَّتها التي تتدعم به، ويندرج في هذا الحد أنواع اللحم، أحدها: اللحم الذي في العضل، وهو أكثر ما في البدن. والثاني: اللحم المفرد، وهو لحم الفخذين ولحم ظاهر الصلب وباطنه ولحم الأسنان. والثالث: اللحم الغُدَديٰ كلحم الأنثيين ولحم الثدي وغير ذلك. والرابع: السمين، وهو ما يعلو علىٰ اللحم الأحمر. والخامس: الشحم، وهو جسم أبيض ليِّن. وأما العصب فهو عضو أبيض لدن في الانعطاف، صلب في الانفصال. وأما الرباط فهو عضو عصباني المرأىٰ والملمس من جهة البياض واللدونة. وأما الأغشية فهي أعضاء عصبانية عريضة شديدة صلبة القوام **(وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدْر حاجاتها)** ومنفعتها: أن الإنسان إذا أراد أن يقرِّب عضوًا من آخر حرَّك العضل فتشنَّجت وزاد في عرضها ونقص من طولها، وإذا أراد التبعيدَ حرَّكها فاسترخت وزاد في طولها ونقص من عرضها، فحصل المقصود. والعضل الذي يحرِّك عضوًا كبيرًا يكون كبيرًا كالعضل الذي في الفخذ المحرَّك، وينبُت منه إما وتر وإما أوتار، ويتصل بالعضو الذي يحركه، وربما تعاونت عدَّة عضلات علىٰ تحريك عضو واحد. والذي يحرك عضوًا صغيرًا يكون صغيرًا كالعضلات المحرِّكة للأجفان العليا، فإنها صغار جدًّا، وليس لها أوتار. وكل عضو يتحرك حركة إرادية فإنَّ له عضلةً بها تكون حركته، فإن كان يتحرك إلىٰ جهات متضادَّة كانت له عضلات متضادَّة الوضع، يجذبه كلٌّ منها إلىٰ ناحيتها عند كون تلك الحركة، ويمسك المضادَّةَ لها عن فعلها، وإن عملت المتضادَّتان في الوضع في وقت واحد انشقَّ العضو أو تمدَّد [وقام] مستقيمًا لا يتحرك. مثال ذلك: أن الكف إذا مدَّها العضلُ الموضوع في باطن الساعد انثنىٰ، وإن مدَّه العضل الموضوع في ظهره انحنىٰ وانقلب إلىٰ خلف، وإن مدَّاها جميعًا استوىٰ وقام بينهما. وجملة ما للبدن من الحركات الإرادية: حركة جلدة الجبهة، وحركة العينين والخدَّين

وطرفَي الأنفين والشفتين واللسان، وحركة الحنجرة والفك، وحركة الرأس والعنق، وحركة الكتف، وحركة مفصل العضُد مع الكتف، وحركة مفصل العضُد مع الساعد، وحركة مفصل الساعد مع الرُّسغ، وحركة جملة الأصابع وكل واحد من مفاصلها، وحركة الأعضاء التي في الحلق، وحركة الصدر للتنفس، وحركة القضيب، وحركة المثانة في منعها خروج البول، وحركة المعي المستقيم في منعها خروج الثفل، وحركة مراق البطن، وحركة مفصل الورك والفخذ، وحركة مفصل الفخذ والساق، وحركة مفصل الساق والقدم **(فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها، لو نقصت واحدة من جملتها اختلَّ أمرُ العين)** ثلاثة منها لتحريك الجفن [إحداها] رأسها معلَّق في العظم الحاوي للعين، ووترها يمر في وسط طيِّ الغشاء الذي يكون منه الجفن، ويتصل بوسط حافة الجفن وهو يفتحه، واثنتان موضوعتان في موق العين، مدفونتان في حفرتها، ووتراها يأتيان حافةَ الجفن ويتصلان به من جانبيه، وهما يغمضان العينَ بإطباقهما الجفن، وذلك إذا فعل كلٌّ منهما فعله، فإن نالت إحداهما آفةٌ انطبق بعضُ الجفن وبقي باقيه مفتوحًا، وواحدة - وقيل: ثنتان، وقيل: ثلاثة - تدعم العصبةَ المجوفة التي يكون بها البصر وتثبِّتها حتىٰ لا ينالها بسبب لينها عند التحديق الشديد أيُّ تقطُّع. وست عضلات تحرك العين، أربعة إلىٰ الاستقامة، إحداها تميلها إلىٰ فوق، الثانية تحركها إلىٰ أسفل، الثالثة تحركها يمنةً، الرابعة تحركها يسرةً. وثنتان علىٰ الاستدارة. فهذه عشرة أو إحدىٰ عشرة أو اثنتا عشرة لعين، وللأخرىٰ كذلك **(وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصوص وقدْر مخصوص)** منها تسع للوجه، ثنتان من جانبَي الخدَّين يحركان الخدود من اللحي ويفرِّقان بين الشفتين، وهما عريضتان، وثنتان تجذبان الشفة [العليا إلىٰ فوق، وثنتان تجذبان الشفة] السفلىٰ إلىٰ أسفل، وثنتان تبسطان طرف الأنف، وواحدة [مفروشة] تحت جلدة الجبهة، ومنها اثنتا عشرة لتحريك الفك الأسفل، ومنها ثلاث وعشرون لتحريك الرأس والعنق، ومنها اثنتان وثلاثون لحركة الحلق والحنجرة، ومنها تسع لتحريك اللسان، ومنها أربع عشرة

للكتفين، ومنها ست وعشرون للعضُدين، ومنها ثمان لمفصل المرفقين، ومنها أربع وثلاثون في الساعدين، ومنها ست وثلاثون في الكتفين، ومنها مائة وسبع لحركة الصدر، ومنها ثمان وأربعون لتحريك الصلب، ومنها ثمان موضوعة على البطن، ومنها أربع للأنثيين، ومنها واحدة لعنق المثانة، ومنها أربع تحرك الذكر، ومنها أربع تحيط بالدُّبر، ومنها ست وعشرون أو أربع وعشرون أو ثنتان وعشرون لمفصل الورك، ومنها ثمان عشر أو عشرون لمفصل الركبتين وحركة الساق، ومنها ثمان وعشرون لحركة القدم، ومنها ثمان وخمسون أو ثنتان وخمسون موضوعة في القدم لبقية حركات الأصابع.

(وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كلِّه، وشرحه يطول) فالأعصاب مبدؤها من الدماغ والنخاع، وجميعها أزواج سوى عصب واحد فإنه فرد ولا زوج له، وهو آخر النُّخاعيات، فما نبت من الدماغ نفسه سبعة أزواج بها حس الحواس الخمس وحس بعض الأعضاء. وأما العروق فمنها نوابض ومنها ضوارب، فمن النوابض: الأوردة، ومنبتها الكبد، ولها انشعابات، فما يأتي منها اليدَ من ناحية الإبط يسمَّى: الباسليق، وما جاء إلى اليد من الجانب الوحشي يسمَّى: القيفال، وما غار في العنق مصعدًا يسمَّى: الوِداج، وما كان عند المرفق يسمَّى: الأكحل، وما ركب الزند الأعلى يسمَّى: حبل الذراع، وما بلغ رأسَ الزند الأسفل يكون من بعضه شعبة العِرق الذي بين الخِنصر والبِنصر المسمَّى بالأُسَيلم، وما يمر في عضد الساق الداخل والخارج يسمَّى: المأبض، وما ظهر عند الكعب الداخل يسمَّى: الصافن، وما يمر في الجانب الظاهر من الساق وهو غائر إلى ناحية الكعب الخارج يسمَّى: عرق النسا. وفعلُ الجميع جذبُ الكيلوس إلى الكبد. وأما الضوارب فهي الشرايين، ومنبتها التجويف الأيسر من القلب، ويخرج من هذا التجويف شريانان، أحدهما صغير غير متضاعف يسمَّى: الشريان الوريدي، والثاني كبير جدًّا يسمَّى: الأبهر،

وحين طلوعه تتشعَّب منه شعبتان، إحداهما - وهي أصغرهما - تصير إلىٰ التجويف الأيمن من تجويفَي القلب، والثانية تستدير حول القلب ثم تدخل إليه وتتفرَّق فيه. ثم إن الباقي من العِرق النابت من تجويف القلب الأيسر بعد انشعاب هاتين الشُّعبتين منه ينقسم قسمين، أحدهما يأخذ نحو أعلىٰ البدن وتتشعَّب منه في مصعده من الجانبين شُعَب، والثاني يأخذ نحو أسافل البدن، فيركب خرز الصلب نازلاً إلىٰ أسفل، وتتشعَّب منه عند كل خرزة شعبة يمنة، وأخرىٰ يسرة.

(فللفكر مجالٌ في آحادِ هذه الأجْزاءِ، [ثم][1] في آحادِ هذه الأعْضَاءِ، ثم في جُملةِ البدنِ) مِنْ حيثُ المجموعِ مِن هذه الأجزاءِ والأعضاءِ (فكل ذلك نظرٌ إلىٰ عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات) الباطنة (التي لا تُدرَك بالحواس) الظاهرة (أعظم، فانظر الآن إلىٰ ظاهر الإنسان وباطنه وإلىٰ بدنه وصفاته) المركَّبة فيه (فترىٰ فيه من العجائب والصنعة ما يقضي به العجبُ، وكل ذلك صنعُ الله) تعالىٰ (في قطرة ماء قذرة، فترىٰ مَن هذا صنعُه في قطرة ماء فما صنعُه في ملكوت السموات وكواكبها، وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرُّق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقها ومغاربها، فلا تظن أن ذرَّة في ملكوت السموات تنفكُّ عن حكمة وحِكَم، بل هي أحكم خلقًا وأتقن صنعًا وأجمع للعجائب من بدن الإنسان، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلىٰ عجائب السموات، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾) أي أصعب خلقًا (﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾) ثم بيَّن كيف خلقها فقال: (﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ [النازعات: ٢٧ - ٢٩] فارجع الآن إلىٰ النطفة وتأمَّلْ حالها أولاً) كيف كانت في قلَّتها وحقارتها (وما صارت إليه ثانيًا) بعد اختلاف الأطوار السبعة عليها (وتأملْ أنه لو اجتمع الإنس والجن علىٰ أن يخلقوا للنطفة سمعًا أو بصرًا أو عقلًا أو قدرة أو علمًا أو روحًا أو يخلقوا فيها عظمًا أو عِرقًا أو عصبًا أو جلدًا

(١) سقط من الزبيدي.

أو شعرًا هل يقدرون علىٰ ذلك؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالىٰ ذلك لعجزوا عنه، فالعجب منك لو نظرتَ إلىٰ صورة إنسان مصوَّر علىٰ حائط) أو خشب أو ورق وقد (تأنَّق النقَّاش في تصويرها) وتحليتها (حتىٰ قرُبَ ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها: كأنَّه إنسان) وهو غاية التقريب (عظُمَ تعجُّبُك من صنعة النقَّاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته، وعظُمَ في قلبك محلُّه، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمَّت بالصبغ والقلم وبالحائط واليد وبالقدرة وبالعلم والإرادة، وشيء من ذلك ليس من فعل النقَّاش ولا خلقِه، بل هو من خلق غيره، وإنما منتهَىٰ فعلِه الجمعُ بين الصبغ والحائط علىٰ ترتيب مخصوص، فيكثُر تعجُّبُك منه وتستعظمه، وأنت ترىٰ النطفة القذرة كانت معدومة، فخلقها خالقها في الأصلاب والترائب) وجمعها من بين الذكر والأنثىٰ (ثم أخرجها منها) فألقاها في الرحم (وشكَّلها فأحسنَ تشكيلَها، وقدَّرها فأحسنَ تقديرها، و) صوَّرها فأحسن (تصويرَها، وقسَّم أجزاءها المتشابهة إلىٰ أجزاء مختلفة، فأحكم العظامَ) التي هي دعائم البدن (في أرجائها) أي أطرافها (وحسَّنَ أشكالَ أعضائها، وزيَّن ظاهرها وباطنها، ورتَّب عروقها وأعصابها، وجعلها مجرىٰ لغذائها) وممرًّا لإيصال منافعها (ليكون ذلك سبب بقائها) في الدنيا (وجعلها سميعة بصيرة عالمة ناطقة، وخلق لها الظهر أساسًا لبدنها، والبطن حاويًا لآلات غذائها، والرأس جامعًا لحواسِّها) الظاهرة (ففتَّح العينين ورتَّب طبقاتها) بما في أثنائها من الرطوبات (وأحسنَ شكلَها ولونها وهيئتها، ثم حماها بالأجفان) من الأعلىٰ والأسفل (لتسترها) من عوارض الآفات (وتحفظها) من أشعَّة الشمس (وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها) بأهدابها (ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورةَ السموات مع اتساع أكنافها وتباعُد أقطارها، فهو ينظر إليها) وللناس في صفة الإبصار خمسة مذاهب، أحدها وهو مذهب المتكلمين: أن الإبصار علم خاص يتعلق بالمعلوم علىٰ ما هو عليه. والثاني قول الطبيعيين، وهو أن الإبصار ورود صورة المرئيِّ علىٰ الرائي، فينطبع فيه مثالٌ للمرئي فيدركه بانطباع صورته فيه. والثالث قول الرياضيين، وهو

أن الإبصار لأجل أن الشعاع يخرج من العين علىٰ شكل مخروط رأسه عند مركز البصر، وقاعدته عند سطح المبصَر. والرابع: أن الإبصار بأن يخرج نور من العين خطًّا واحدًا مستقيمًا ينتهي إلىٰ المبصَر، ثم يتحرك علىٰ سطحه حركة في غاية السرعة في الطول والعرض، فيحصل الإدراكُ. والخامس: أن لا يخرج من العين شعاعٌ، لكن الشعاع الذي فيها يتكيَّف الهواء بكيفيَّته ويصير ذلك آلة للإبصار. والحق في هذه الأقوال هو الأول، وقد وردت علىٰ بقية الأقوال إيرادات، مع أن مسائل المبصَرات في علم المَناظِر إنما تتخرَّج علىٰ قاعدة الشعاع، وبسطُ ذلك في المبسوطات في هذا العلم، وقد أورد الشهاب القرافي في كتابه «الاستبصار لِما يُدرَك بالأبصار» منها جملةً، ولا يليق إيرادُه هنا.

(ثم شقَّ أذنيه) وركَّبهما من اللحم والغضروف والعصب الحسَّاس **(وأودعهما ماء مرًّا ليحفظ سمعها ويدفع الهَوامَّ عنها، وحوَّطها بصدفة الأذن ليجتمع الصوت فتردُّه إلىٰ صِماخها، ولتحس بدبيب الهوامِّ إليها، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثُر حركةُ ما يدبُّ فيها ويطول طريقُه فيتنبه من النوم صاحبُها إذا قصدتها دابَّةٌ في حال النوم)** ولئلاَّ تصادم الأصواتُ المزعجة عصبَ الحس دفعةً بعنف فتلحقه آفةٌ. واعلمْ أن داخل الأذن فضاء هو موضوع مجوَّف ذو تقعير يؤدِّي إليه ثقبه، وقد انبسط غشاءٌ منتسج من ليف عصب الحس [المتكوِّر] علىٰ محيط ذلك الفضاء كانبساط الجلد علىٰ الطبل، وبهذا الغشاء يكون السمع عندما يقرعه الصوتُ؛ لأن في ذلك الفضاء هواء راكدًا، فكلَّما وصل الهواء الخارجي المتموِّج إلىٰ العصب حرَّك الهواءَ الداخل فيتصادمان في العصب معًا فيدرك الصوت.

(ثم رفع الأنف من وسط الوجه) بعد أن ركَّبه من العظم والغضروف والعضل **(وأحسن شكلَه، وفتح منخريه، وأودع فيه حاسةَ الشم؛ ليستدلَّ باستنشاق الروائح علىٰ مطاعمه وأغذيته، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاءً لقلبه وترويحًا**

لحرارة باطنه) اعلمْ أن عضلة النصف الأعلىٰ القريب من الحاجبين عظمية، وعضلة النصف الأسفل غضروفية، ومَجراه إذا علا انقسم قسمين، أحدهما يفضي إلىٰ أقصىٰ الفم، والثاني يمر صاعدًا حتىٰ ينتهي إلىٰ العظم الشبيه بالمصفاة الموضوع في وجه زائدتَي الدماغ، وبعد هذا العظم منفذ في الغشائين تنفذ فيه الرائحة الواصلة إلىٰ الزائدة إلىٰ الدماغ، فبهذا المَجرىٰ يكون الشم، وبالأول التنفس الجاري علىٰ العادة، لا الكائن بالفم. ومن منفذَي الأنف منفذان إلىٰ الحنك بهما يصير الصوت صافيًا، فإذا انسدَّا تغيَّر الصوت، ومنفذان إلىٰ مآقي العين بهما تصل رائحة الكحل إلىٰ الأنف.

(وفتح الفم وأودعه اللسانَ ناطقًا وترجمانًا ومعربًا عمَّا في القلب) وهو مركَّب من اللحم والعروق والشريانات والعصب الحسَّاس والغشاء المتصل بغشاء المريء، وقد التفَّت به عروقٌ كثيرة صغار فيها دم هو سبب حمرة لونه، وتحته عروق وشريانات وأعصاب كثيرة، وتحته فُوَّهتان يخرج منهما اللُّعاب، وبهما تبقىٰ في اللسان وما حوله النداوةُ الطبيعية **(وزيَّن الفمَ بالأسنان، ولتكون آلة للطحن والكسر والقطع)** فمنها الطواحن، ومنها الكواسر، ومنها القواطع، كما تقدم بيانُها **(فأحكم أصولَها، وحدَّد رؤوسها، وبيَّض لونَها، ورتَّب صفوفَها متساوية الرؤوس، متناسقة الترتيب، كأنَّها الدُّر المنظوم)** في السلك **(وخلق الشفتين وحسَّن لونَهما وشكلهما لتنطبقا علىٰ الفم فتسدَّا منفذَه وتلتئم بهما حروفُ الكلام)** الشفوية.

(ثم خلق الحنجرة) مشدودة مع العصبة بالمريء **(وهيَّأها لخروج الصوت، وخلق للسان قدرة الحركات والتقطيعات لتقطُّع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف؛ ليتَّسع طريق النطق بكثرتها، ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضِّيق والسعة، والخشونة والملاسة، وصلابة الجوهر ورخاوته، والطول والقِصَر، حتىٰ اختلفت بسببها الأصوات، فلا يتشابه صوتان، بل يظهر بين كل صوتين فرقانِ حتىٰ يميِّز السامع بعض الناس عن بعض بمجرَّد الصوت في الظلمة)** اعلمْ

أن الحنجرة مؤلَّفة من ثلاث غضاريف، أولها الدرقي، وهو قدَّام الحلق، مقعَّر الباطن، محدَّب الظاهر، متصل بأصل اللسان. الثاني يحاذي الدرقيَّ من خلف. الثالث مكبوب عليهما، ويلقىٰ الدرقيَّ بغير اتصال، ويسمَّىٰ: المكبي، وهما يأتيان الدرقيَّ عند الأكل فيساعدانه علىٰ تغطية قصبة الرئة وضمِّها لئلاَّ ينزل فيه شيء ممَّا يؤكل ويُشرَب، وينحِّيانه عنه عند الكلام فينفتح، وإنما تنتأ الحنجرةُ ويغلظ الصوتُ عند الإدراك لأن الحرارة التي تنهض في ذلك الوقت توسِّع الحنجرةَ فتنتأ ويغلظ الصوتُ، والآلة التي تحرك الهواء الذي هو مادة الصوت بحركتَي الانقباض والانبساط تسمَّىٰ بالحجاب. واللَّهاة عضو معلَّق فوق الحنجرة يصل إليه أولاً كل شيء خرج من الحنجرة كالتنفس والنفث والصوت وكل شيء دخل فيها كالهواء والدخان ونحوهما، ويدفع مَضَرَّة ذلك عن الحنجرة وقصبة الرئة، ولهذا يتغيَّر صوت مَن قلع لَهاته وتضر حنجرته، والحنك كقُبَّة يتضاعف الصوت إذا حصل فيه، والهواء الذي هو مادة الصوت ما دام في القصبة يكون كالدخان، فإذا وصل إلىٰ طرف القصبة صار صوتًا، وحركة اللسان بمعونة الأسنان تُظهِر الحروفَ في ذلك الصوت فيصير كلامًا. واعلمْ أن في الحنجرة رطوبة دسمة لزجة كائنة في تضاعيف غضاريف الحنجرة بها يكون الصوت صافيًا، فإذا عرضت لأحد حمىٰ محرقة تحترق تلك الرطوبةُ فلا يقدر علىٰ إخراج الصوت، وكذا من تكلم كثيرًا أو سافر في هواء حار يابس فإنهما لا يقدران علىٰ التكلم إلا إذا بلاَّ حلقهما بالماء أو بشيء آخر رَطْب.

(**ثم زيَّن الرأسَ بالشعر**) في الرجال والنساء (**والأصداغ**) جمع صُدغ، وهو الشعر الذي يتدلَّىٰ ما بين لحظ العين إلىٰ أصل الأذن[1]. وهذا للنساء خاصةً (**وزيَّن الوجهَ باللحية**) وهذا للرجال خاصةً، ومن تسبيح بعض الملائكة: سبحان مَن زيَّن

---

(١) المصباح المنير للفيومي ص ٣٣٥. مجمل اللغة لابن فارس ص ٥٥٢.

الرجالَ باللحىٰ، والنساء بالشعور[1] (**والحاجبين**) وهذا للرجال والنساء جميعًا (**وزيَّن الحاجبَ برقَّة الشعر واستقواس الشكل، وزيَّن العينين بالأهداب**) جمع[2] هُدْب، وهو ما نبت من الشعر علىٰ أشفار العين.

(**ثم خلق الأعضاء الباطنة، وسخَّر كل واحد**) منها (**لفعل مخصوص، فسخَّر المعدة**) التي هي حوض البدن (**لنضج الغذاء، والكبد لإحالة الغذاء إلىٰ الدم**) وهي[3] جسم مستدير الهيئة، مركَّب من اللحم والعصب والعروق والشرايين والغشائين (**والطحال والمرارة والكِلية لخدمة الكبد، فالطحال**) عضو مستطيل الشكل كاللسان، سخيف اللحم، كمدُ اللون، مغشيٌّ بغشاء يأتيه من الصفاق ليس له في نفسه حس بل لغشائه (**يخدمها بجذب السوداء عنها**) وهو وعاء السوداء وبالوعتها، وموضعه في الجانب الأيسر من ضلوع الخلف والمعدة، وجُعل متخلخلاً لتستقرَّ السوداء المنجذبة إليه في تضاعيفه، وجُعلت فيه الشرايين الكثيرة لتقابل حرارتُها برودةَ السوداء (**والمرارة**) عضو عصبانيٌّ ذو طبقة واحدة كخريطة منسوجة من الليف المستقيم والعريض والمورب (**تخدمها بجذب الصفراء عنها**) وهي وعاء الصفراء وبالوعتها، وهي موضوعة علىٰ الزائدة الكبيرة من زوائد الكبد، ولها منفذان، فإن اتفق قصور في جذب المرارة الصفراء من الكبد يرم الكبد، فإن تعفَّنت الصفراء في الكبد حدثت الحميات الحادة (**والكِلية**) مركَّبة من لحم مكتنز صلب قليل الحمرة وعروق وشرايين، يأتيها عصبٌ صغير يكون منه غشاؤها، موضوعة بالقرب من الكبد (**تخدمها بجذب المائية عنها**) وجوهرها

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٣٦/ ٣٤٣ عن أبي هريرة قال: «إن يمين ملائكة السماء: والذي زين الرجال باللحي، والنساء بالذوائب». ورواه الديلمي في الفردوس ٤/ ١٥٧ مرفوعا من حديث عائشة بلفظ: «ملائكة السماء يستغفرون لذوائب النساء ولحىٰ الرجال، يقولون: سبحان الله الذي زين الرجال باللحىٰ، والنساء بالذوائب».

(٢) الصحاح للجوهري ١/ ٢٣٧.

(٣) يعني المعدة.

مندمج صلب لئلاً ينفذ فيها إلا الماء الرقيق، وهما كليتان، ولكلٍّ منهما عنقان، وأحد عنقَي أحدهما يتصل بالعِرق الطالع من حدبة الكبد، والثاني من كلٍّ منهما يمر متسفِّلاً حتىٰ يصل إلىٰ المثانة، ويسمَّيان الحالبين، وهما مَجرىٰ البول **(والمثانة)** وهي مركَّبة من جسم عصباني مضاعَف ذي طبقتين من عروق وشريانات، وهي وعاء البول وآلة لدفعه، وموضعها بين الدُّبر والعانة، وشكلها بلُّوطي بيضيٌّ ككيس طرفاه حادَّان ووسطه ذو سعة **(تخدم الكليةَ بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل)** اعلمْ أن البول مجيئه من الكلىٰ من الحالبين، فإذا بلغ إلىٰ المثانة خرق إحدىٰ طبقتيها ومر فيما بين الطبقتين حتىٰ يأتي عنقَ المثانة، ثم يخرق الطبقة الثانية فينصبُّ منها إلىٰ تجويف المثانة في منفذ خفيٍّ حتىٰ يستره غشاءٌ صغير من أن ينسدَّ هذا المنفذ عند امتلاء المثانة من البول لئلاً يرجع من حيث جاء، وفي عنق المثانة الذي هو مخرج البول ثلاث عطفات، وللحيوانات الأُخَر عطفة واحدة، ولهذا يكون تنظيف مثانة الرجال من البول أبطأ **(والعروق تخدم الكبدَ في إيصال الدم إلىٰ سائر أطراف البدن)** فإن الكيلوس لا يصلُح للغذاء دون أن يصير إلىٰ الكبد وينهضم فيها ويستحيل إلىٰ الدم وباقي الأخلاط، ثم يمتاز الدم عنها كماء فيكون غذاء للأعضاء.

(ثم خلق اليدين وطوَّلهما لتمتدَّا إلىٰ المقاصد) عند التناول **(وعرَّضَ الكفَّ)** أي جعله عريضًا **(وقسَّم)** فيه **(الأصابع الخمس، وقسَّم كل أصبع بثلاث أنامل)** وتسمَّىٰ أيضًا: السلاميات، وهي عظام صغار يتصل بعضها ببعض بمفاصل موثقة برُبَط **(ووضع الأربعة في جانب، والإبهام)** وحده **(في جانب ليدور الإبهام علىٰ الجميع)** فالعظم الأول من الإبهام مربوط بالرُّسغ لا بالمشط كالأربع الأُخَر، وقيل: هو متصل بطرف الزند الأعلىٰ بمفصل واسع سلس؛ لأنه يحتاج إلىٰ حركة واسعة ليلقَىٰ به الأصابعَ الأربع **(ولو اجتمع الأوَّلون والآخِرون علىٰ أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهًا آخر في وضع الأصابع سوىٰ ما وُضعت عليه من بُعدِ الإبهام**

عن الأربع وتفاوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء، فإن بسطها كانت له طبقًا) أي تشبيهًا بالطبق **(يضع عليها ما يريد، وإن جمعها)** مع بعضها **(كانت له آلة للضرب، وإن ضمَّها ضمًّا غير تام كانت)** مثل **(مغرفة له، وإن بسطها وضم أصابعها كانت)** مثل **(مجرفة له، ثم خلق الأظفار)** مستديرة **(علىٰ رؤوسها)** والظفر إما من العظام، وإما جسم عظميٌّ موصول بالسلاميات الأخيرة من الأصابع، مربوط مع اللحم والجلد برباطات من جنس الأوتار، وقد يصير إلىٰ الظفر عصب ووريد وشريانات تؤدي إليه الحياة والغذاء **(زينة للأنامل)** وهذا أحد منافع الأظفار (و) الثانية: لتكون **(عمادًا لها من ورائها حتىٰ لا تنقطع)** ولا تهُن عند الشد علىٰ الشيء (و) الثالثة: **(ليلتقط بها الأشياء الدقيقة)** أي ليتمكَّن من لقط الأشياء الصغيرة **(التي لا تتناولها الأناملُ.** و) الرابعة: **(ليحكَّ بها بدنَه عند الحاجة)** وهذه الأربعة أَولىٰ بنوع الإنسان، والخامسة أن تكون سلاحًا في بعض الأوقات، وهذه أَولىٰ بالحيوانات الأخرىٰ، وخُلِق الظفر من عظام ليِّنة ليتطامن تحت ما يصاكُّه فلا ينصدع **(فالظفر الذي هو أخسُّ الأعضاء لو عدمه الإنسانُ وظهرت به حكَّةٌ لكان أعجز الخَلق وأضعفهم، ولم يقُمْ أحد مقامه في حكِّ بدنه)** وإليه يشير قول القائل[1]:

ما حكَّ جلدَك مثل ظفرك ... فتوَلَّ أنت جميعَ أمرك

وإذا بعثتَ لحاجة ... فابعثْ لأعرفِهم بقدْرك

(ثم هدىٰ اليد إلىٰ موضع الحك حتىٰ تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلىٰ طلب) وفي نسخة: إلىٰ طالب **(ولو استعان بغيره لم يعثر علىٰ موضع الحك إلا بعد تعب طويل)** ثم لا يشفيه الغليل **(ثم خلق هذا كلَّه من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث)** هي الأغشية، أحدها المشيمة وهي الغشاء المحيط

---

(١) هو الإمام الشافعي، والبيتان في ديوانه ص ١١١ (ط - دار الكتاب العربي)، ورواية البيت الثاني فيه:

وإذا قصدت لحاجة ... فاقصد لمعترف بقدرك

[بالجنين] والثاني الذي ينصبُّ إليه بولُ الجنين، والثالث الذي هو مفيض العرق **(ولو كُشف الغطاء والغشاء وامتدَّ البصر إليه لكان يرىٰ التخطيط والتصوير ويظهر عليها شيئًا فشيئًا ولا يرىٰ المصوِّر ولا آلته، فهل رأيتَ مصوِّرًا أو فاعلاً لا يمس آلتَه ومصنوعَه ولا يلاقيه وهو يتصرَّف فيه؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه! ثم انظر مع كمال قدرته إلىٰ تمام رحمته فإنه لمَّا ضاق الرحم عن الصبي)** هكذا في النسخ، والأَولىٰ: الجنين، فإنه هكذا يطلق عليه ما دام في الرحم **(لما كبر كيف هداه السبيلَ حتىٰ تنكَّس وتحرك وخرج من ذلك المضيق وطلب المنفذَ كأنَّه عاقل بصير بما يحتاج إليه)** فإن الجنين إذا تم خلقُه وكمُلَ لم يكتفِ بما يجيئه من دم الطمث والنسيم ويهرب من الضِّيق وقلة الغذاء فيتحرك حركات صعبة قوية فتتهتَّك أربطةُ الرحم **(ثم لما خرج واحتاج إلىٰ الغذاء كيف هداه إلىٰ التقام الثدي، ثم لما كان بدنه سخيفًا[1] لا يحتمل الأغذيةَ الكثيفة كيف دبَّر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفَرْث والدم سائغًا خالصًا، وكيف خلق الثديين)** كلٌّ منهما مركَّب من عروق وشرايين وعصب يحتشي ما بينها نوعٌ من اللحم غدديٌّ **(وجمع فيهما اللبن)** فيحيل ما في تجويفهما من الدم حتىٰ يصير لبنًا كما يحيل لحم الكبد ما يجتذب من المعدة والأمعاء حتىٰ يصير بتشبيهه له إياه بنفسه دمًا **(وأنبت منهما حلمتين علىٰ قدْر ما ينطبق عليهما فمُ الصبي، ثم فتح في حلمتَي الثدي ثقبًا ضيقًا جدًّا حتىٰ لا يخرج اللبن منه إلا بعد المصِّ تدريجًا، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل، ثم كيف هداه للامتصاص حتىٰ يستخرج من ذلك المضيقِ اللبنَ الكثير عند شدة الجوع. ثم انظر إلىٰ عطفه ورحمته ورأفته كيف أخَّر خلق الأسنان إلىٰ تمام الحولين؛ لأنه في الحولين لا يتغذَّىٰ إلا باللبن فيستغني عن السن، وإذا كبر لم يوافقه اللبنُ السخيف ويحتاج إلىٰ طعام غليظ، ويحتاج الطعام إلىٰ المضغ والطحن، فأنبت له الأسنان عند الحاجة، لا قبلها ولا بعدها، فسبحانه)** جلَّ ثناؤه **(كيف أخرج تلك العظام**

---

(١) أي: ضعيفًا. وانظر: تاج العروس ٢٣/ ٤٢٢.

الصلبة في تلك اللِّثات الليِّنة) وهذا علىٰ القول الصحيح أن الأسنان هي عظام صلبة، قابلة للكسر، غير مدركة لألم السحق والنحت، كما تقدم قريبًا، وأن مادتها التي خُلقت منها مني الأب والأم، ولكن كانت تلك المادة كامنة في عظام الفكَّين، والعلَّة الغائيَّة في ذلك أن الطفل لا يحتاج إلىٰ الأسنان في أول الأمر؛ لأن غذاءه من اللبن، وفكَّاه صغيران، وعظامهما ضعيفة، فيكون ما ينبت منها مناسبًا لها في الضعف والصغر، فلم تفِ بما يحتاج إليه من المضغ والكسر وغير ذلك إلىٰ آخر العمر، فالعناية الأزلية اقتضت تأخيرَ خروجها ونباتها إلىٰ حين الحاجة والاستعداد التام للوفاء بما هو المطلوب منها من الشكل والعِظَم والقوة والصلابة وغيرها.

(ثم حنَّن قلوبَ الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزًا عن تدبير نفسه، فلو لم يسلِّط الله الرحمة علىٰ قلوبهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه.

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية) والرشد **(تدريجًا)** شيئًا فشيئًا **(حتىٰ بلغ وتكامل فصار مراهقًا)** بعد أن كان طفلاً وصبيًّا **(ثم شابًّا، ثم كهلاً، ثم شيخًا)** وفي كفاية المتحفِّظ[1] لابن الأجدابي: الولد ما دام في بطن أمِّه فهو جنين، فإذا وُلد سُمِّي صبيًّا، فإذا فُطم سُمِّي غلامًا إلىٰ سبع سنين، ثم يصير يافعًا إلىٰ عشر حِجَج، ثم يصير حزوَّرًا إلىٰ خمس عشرة سنة. انتهىٰ. وقال الأطباء: الأسنان[2] أربعة: سن النمو، ويسمَّىٰ: سن الحداثة، وهو إلىٰ قريب من ثلاثين سنة. ثم سن الوقوف، ويسمَّىٰ: سن الشباب، وهو إلىٰ [نحو] أربعين سنة. ثم سن الانحطاط [مع بقاء القوة] ويسمَّىٰ: سن الكهولة، وهو إلىٰ نحو من ستين سنة. ثم سن الانحطاط [مع ظهور الضعف] ويسمَّىٰ: سن الشيخوخة، وهو إلىٰ آخر العمر. وقد أشار المصنف إلىٰ هذه الأربعة. وسن الحداثة ينقسم إلىٰ سن

(١) كفاية المتحفظ ص ١٣.

(٢) القانون في الطب لابن سينا ١/ ٢٤ - ٢٥.

الطفولة وهو قبل النهوض، وإلىٰ سن الصبا وهو بعد النهوض وقبل الشدة، ثم سن الترعرع وهو بعد الشدة وقبل المراهقة، ثم سن الغلامية والرهاق إلىٰ تبقُّل وجهه، ثم سن الفتىٰ إلىٰ أن يقف النمو (**إما كفورًا وإما شكورًا، مطيعًا أو عاصيًا، مؤمنًا أو كافرًا، تصديقًا لقوله تعالىٰ:** ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ﴾) استفهام[1] تقرير وتقريب (﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ﴾): طائفة محدودة من الزمان الممتد الغير المحدود (﴿لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا ١﴾) بالإنسانية كالعنصر والنطفة، والمراد بالإنسان الجنسُ؛ لقوله: (﴿إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ﴾) أو المراد به آدم، بيَّن أولاً خلقه ثم خلق بنيه (﴿أَمۡشَاجٖ﴾) أي أخلاط، وتقدم الكلام عليه قريبًا (﴿نَّبۡتَلِيهِ﴾) أي مبتلينَ له، بمعنىٰ: مريدين اختباره (﴿فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ٢﴾) ليتمكَّن من مشاهدة الدلائل واستماع الآيات (﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾) أي بنصب الدلائل وإنزال الآيات (﴿إِمَّا شَاكِرٗا﴾) بالاهتداء والأخذ به (﴿وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾) [الإنسان: ١ - ٣] بالإعراض عنه.

(**فانظر إلىٰ اللطف والكرم ثم إلىٰ القدرة والحكمة تبهرك عجائبُ الحضرة الربَّانية**) وتدهش عقلَك (**والعجب كل العجب ممَّن يرىٰ خطًّا حسنًا أو نقشًا حسنًا علىٰ**) ورق أو علىٰ (**حائط فيستحسنه فيصرف جميع همِّه إلىٰ التفكر في النقَّاش والخَطَّاط وأنه كيف نقشه و**) كيف (**خطَّه وكيف اقتدر عليه، ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول: ما أحذقه! وما أكمل صنعته! و**) ما (**أحسن قدرته! ثم ينظر إلىٰ هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوِّره فلا تدهشه عظمتُه ولا يحيِّره جلالُه وحكمته**) وبديع صنعته.

(**فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها**) ولا يُحصَر انتهاؤها (**فهو أقرب مجال لفكرك، وأجلَىٰ شاهدٍ علىٰ عظمة خالقك، وأنت غافل عن ذلك، مشغول ببطنك وفرجك، لا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل، وتشبع فتنام، وتشتهي فتجامع، وتغضب فتقاتل. والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك**) فكل

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٦٩.

ذلك من خواصِّ البهائم (**وإنما خاصِّية الإنسان التي حُجبت البهائم عنها معرفة الله تعالىٰ بالنظر في ملكوت السموات والأرض وعجائب الآفاق والأنفس؛ إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقرَّبين، ويُحشَر في زمرة النبيِّين والصدِّيقين مقرَّبًا من حضرة رب العالمين، وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم**) من الأكل والشرب والنوم والجماع والتهوُّر وغير ذلك، ومَن رضي بذلك (**فإنه شرٌّ من البهائم**) وأخس حالاً منها (**بكثير؛ إذ لا قدرة للبهيمة علىٰ ذلك، وأما هو فقد خلق الله له القدرة**) التامة علىٰ الوصول إلىٰ القرب (**ثم عطَّلها وكفر نعمةَ الله فيها**) إذ لم يستعملها فيما يقرِّبه إلىٰ الله تعالىٰ (**فأولئك**) الذين قيل في حقِّهم (﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾) [الفرقان: ٤٤] ومن[١] كلام أمير المؤمنين [علي] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة خلق الإنسان: أمْ هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشُغُف الأستار نطفة دفاقًا، وعَلَقة محاقًا، وجنينًا وراضعًا، ووليدًا ويافعًا، ثم منحه قلبًا حافظًا، ولسانًا لافظًا، وبصرًا لاحظًا؛ ليفهم معتبِرًا، ويقصر مزدجرًا، حتىٰ إذا قام اعتدالُه واستوىٰ مثالُه نفرَ مستكبرًا، وخبط سادرًا، ماتحًا في غرب هواه، كادحًا سعيًا لدنياه في لذَّات طربه وبَدَوات أربه، لا يحتسب رزيَّةً، ولا يخشع تقيةً، فمات في فتنته غريرًا، وعاش في هفوته يسيرًا، لم يُفِدْ عوضًا، ولم يقضِ مفترَضًا.

ومن[٢] كلامه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أيها المخلوق السويُّ والمُنشأ المرعيُّ في ظلمات الأرحام ومضاعفات الأستار، بُدئتَ من سلالة من طين، ووُضعت في قرار مَكين إلىٰ قدَر معلوم وأجل مقسوم، تمور في بطن أمِّك جنينًا، لا تحير دعاءً، ولا تسمع نداءً، ثم أُخرِجتَ من مقرِّك إلىٰ دار لم تشهدها ولم تعرف سُبُل منافعها، فمَن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمِّك وعرَّفك عند الحاجة مواضعَ طلبك وإرادتك؟ هيهات! إنَّ مَن يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه

(١) شرح نهج البلاغة ٦/ ٣٤٤.

(٢) السابق ٩/ ١٦٩.

أعجزُ، وعن تناوُله بحدود المخلوقين أبعدُ.

(وإذا عرفتَ طريق الفكر في نفسك فتفكَّرْ في الأرض التي هي مقرُّك، ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها، ثم ارتفِعْ منها إلىٰ ملكوت السماء.

(أما الأرض فمن آياته) الدالَّة علىٰ عظيم قدرته **(أن خلق الأرض فِراشًا)** أي بساطًا، وفرشها: أي بسطها، فِعال بمعنىٰ مفعول، ككتاب بمعنىٰ مكتوب **(ومِهادًا)** وهو بمعناه **(وسلك فيها سُبلاً فِجاجًا)** أي طرقًا واضحة واسعة **(وجعلها ذَلُولاً)** أي ليِّنة منقادة **(لتمشوا في مناكبها)** أي جوانبها **(وجعلها قارَّة)** غير مضطربة **(لا تتحرك، وأرسَىٰ فيها الجبال أوتادًا لها تمنعها من أن تميد)** أي تتحرك وتضطرب **(ثم وسَّع أكنافَها حتىٰ عجز الآدميُّون عن بلوغ جميع جوانبها)** علىٰ الاستيفاء **(وإن طالت أعمارُهم وكثُر تطوافُهم، فقال تعالىٰ:** ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨﴾ [الذاريات: ٤٧ - ٤٨] **وقال تعالىٰ:** ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولًا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] **وقال تعالىٰ:** ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشًا﴾) [البقرة: ٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرًا﴾ [الرعد: ٣] **(وقد أكثرَ في كتابه العزيز من ذِكر الأرض)** في مواضع متعدِّدة **(ليتفكَّر في عجائبها، فظهرُها مقرُّ الأحياء)** يستقرُّون عليه ببناء المساكن فيه **(وبطنها مرقد الأموات، قال الله تعالىٰ:** ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ۝٢٥ أَحۡيَآءً وَأَمۡوَٰتًا ۝٢٦﴾) [المرسلات: ٢٥ - ٢٦] أي[1] ذات كَفْت، أي ضمٍّ وجمعٍ بضمِّهم أحياء علىٰ ظهورها وأمواتًا في بطونها، وأصل الكَفْت: الضم، والكِفات: الموضع الذي يُكفَت فيه الشيء **(فانظر إلىٰ الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزَّت وربَتْ واخضرَّت وأنبتت من عجائب النبات)** قال الله تعالىٰ: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥﴾ [الحج: ٥] **(وخرجت منها أصناف الحيوانات. ثم انظر كيف**

---

(١) الصحاح للجوهري ١/ ٢٦٣. معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٥/ ٢٦٧. بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٣٦٠.

أحكم جوانبَ الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصُّم الصِّلاب) قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾ [النازعات: ٣٢] وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾﴾ [النبأ: ٧] (وكيف أودع المياه تحتها ففجَّر العيونَ) قال الله تعالىٰ: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] (وأسالَ الأنهارَ تجري علىٰ وجهها) يمنةً ويسرةً (وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقًا صافيًا زُلالًا عذبًا وجعل به كل شيء حيٍّ) قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] (فأخرج به فنون الأشجار والنبات من حب وعنب وقَضْب وزيتون ونخل ورمَّان وفواكه كثيرة لا تُحصَىٰ مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأراييح) جمع ريح علىٰ غير قياس، أو جمع الجمع (يفضل بعضها علىٰ بعض في الأُكُل، تُسقَىٰ بماء واحد، وتخرج من أرض واحدة) قال الله تعالىٰ: ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

(فإن قلتَ: إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها، فمتىٰ كان في النواة نخلة مطوَّقة بعناقيد الرُّطب؟ أمْ متىٰ كان في حبَّة واحدة سبع سنابل، في كل سنبلة مائة حبة) كما ضرب الله به المَثَلَ (ثم انظر إلىٰ أرض البوادي وفتِّشْ ظاهرَها وباطنها فتراها ترابًا متشابهًا) يشبه بعضُه بعضًا (فإذا أنزل عليها الماء) من السماء (اهتزَّت) أي تحرَّكت بالنبات عند وقوع الماء عليها (وربَتْ) أي زادت زيادة المربي، أي المشرف (وأنبتت من كل زوج بهيج) أي أنواع الأشجار والنبات (ألوانًا مختلفة ونباتًا متشابهًا وغير متشابه، لكل واحد طعمٌ وريح ولون وشكل يخالف الآخَرَ، فانظر إلىٰ كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها، ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه، و) انظر (كيف أودع الله تعالىٰ العقاقير المنافع الغريبة، فهذا النبات يغذِّي) أي يقوم منزلة الغذاء للبدن (وهذا يقوِّي) الأعضاءَ الرئيسة والحواس (وهذا يحيي) العليل ويبرئه من مرضه (وهذا يقتل) بسُمِّيَّته (وهذا يبرِّد، وهذا يسخِّن، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراءَ من أعماق العروق) أي من أصولها (وهذا يستحيل دمًا إلىٰ الصفراء) في الحال (وهذا يقمع البلغم والسوداء، وهذا يستحيل

إليهما، وهذا يصفِّي الدم) ويروِّقه **(وهذا يستحيل دمًا)** خالصًا **(وهذا يُفرِح)** وينشِّط **(وهذا ينوِّم)** ويسكِّن **(وهذا يقوِّي، وهذا يُضعِف. فلم تنبُت من الأرض ورقة ولا تبنة إلا وفيها منافع لا يقوَىٰ البشر علىٰ الوقوف علىٰ كُنْهِها، وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح)** الذي يفلح الأرض ويشقُّها لاستنباته **(في تربيته إلىٰ عمل مخصوص)** في زمن مخصوص **(فالنخيل يؤبَّر)** أي يلقَّح، قال أبو حاتم في كتاب النخلة[1]: إذا انشقَّ الكافور قيل: شقَّق النخلُ، وهو حينئذٍ يؤبَّر بالذكَر، فيؤتَىٰ بشماريخه فتُنفَض فيطير غبارها – وهو طحين شماريخ الفُحَّال – إلىٰ شماريخ الأنثىٰ، وذلك هو التلقيح **(والكرم يُكسَح)** أي يُقطَع وينقَّىٰ ويقلَّم **(والزرع يُنقَّىٰ عنه الحشيش)** الأجنبي **(والدَّغَل)** شِبْه الحالوم وغيره ممَّا يفسده بقاءه **(وبعض ذلك يُستنبَت ببث البذر في الأرض)** أي رميه فيها **(تحريقًا، وبعضه بغرس الأغصان)** في الأرض **(وبعضه يركَّب في الشجر. ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لانقضت الأيام في وصف ذلك، فيكفيك من كل جنس نبذةٌ يسيرة تدلُّك علىٰ طريق الفكر. فهذه عجائب النبات)** ومن[2] كلام أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة الأرض ودحوها علىٰ الماء: كبسَ الأرضَ علىٰ مَوْر أمواج مستفحِلة ولُجَج بحار زاخرة، تلتطم أواذي أمواجها، وتصطفق متقاذفات أثباجها، وترغو زَبَدًا كالفحول عند هياجها، فخضع جِماحُ الماء المتلاطم لثقل حملها، وسكن هيجُ ارتمائه إذ وطئتْه بكَلْكَلها، وذلَّ مستخذيًا إذ تمعَّكت عليه بكواهلها، فأصبح بعد اصطخاب أمواجه ساجيًا مقهورًا، وفي حَكَمة الذل منقادًا أسيرًا، وسكنت الأرض مدحوَّة في لُجَّة تيَّاره، وردَّت من نخوة بأوه واعتلائه وشموخ أنفه وسموِّ غلوائه، وكعمتْه علىٰ كِظَّة جَرْيته، فهمدَ بعد نَزَقاته، ولبدَ بعد زيفان وَثَباته. فلمَّا سكن هيجُ الماء من تحت أكنافها وحمل شوامخ الجبال

---

(١) النخلة ص ٦٥.

(٢) شرح نهج البلاغة ٦/ ٤٥٢.

البُذَّخ علىٰ أكتافها فجَّر ينابيعَ العيون من عَرانين أنوفها، وفرَّقها في سهوب بِيدِها وأخاديدها، وعدَّلَ حركاتها بالراسيات من جَلاميدها وذوات الشَّناخيب الشُّمِّ من صياخيدها، فسكنت من المَيَدان لرسوب الجبال في قِطَع أديمها وتغلغُلها متسرِّبة في جَوْبات خياشيمها وركوبها أعناقَ سهول الأرضين وجراثيمها، وفسح بين الجو وبينها، وأعدَّ الهواء متنسَّمًا لساكنها، وأخرج إليها أهلها علىٰ تمام مَرافِقها، ثم لم يَدَع جُرَزَ الأرض التي تقصُر مياهُ العيون عن رَوابيها، ولا تجد جداول الأنهار ذريعةً إلىٰ بلوغها حتىٰ أنشأ لها نائشةَ سحاب تحيي مَواتَها وتستخرج نباتَها، ألَّف غمامَها بعد افتراق لُمَعه وتبايُن قَزَعه، حتىٰ إذا تمخَّضت لُجَّة المُزْن فيه، والتمع برقُه في كُفَفه، ولم ينَمْ وميضُه في كَنَهْوَر ربابه ومتراكِم سحابه، أرسله سَحًّا متدارِكًا، قد أَسَفَّ هَيْدَبُه، يمري الجنوبُ درر أهاضيبه ودُفَع شآبيبه، فلما ألقت السحابُ بَرْك بوانيها وبَعاعَ ما استقلَّت به من العبء المحمول عليها أخرج به من هَوامِد الأرض النباتَ، ومن زُعْر الجبال الأعشابَ، فهي تبهَج بزينة رياضها، وتزدهي بما أُلبِسَتْه من رَيْط أزاهيرها وحلية ما سُمِطت به من ناضِر أنوارها، وجعل ذلك بلاغًا للأنام ورزقًا للأنعام، وخرق الفِجاج في آفاقها، وأقام المنارَ للسالكين علىٰ جَوادِّ طرقها.

ومن[1] كلامه رضي الله عنه: وكان من اقتدار جبروته وبديع لطائف صنعته أنْ جعل من ماء البحر الزاخر المتراكم المتقاصف يبسًا جامدًا، ثم فطرَ منه أطباقًا، ففتقها سبع سموات بعد ارتتاقها، فاستمسكت بأمره، وقامت علىٰ حدِّه يحملها الأخضر المثعنجِر والقَمْقام المسخَّر، قد ذلَّ لأمره، وأذعن لهيبته، ووقف الجاري منه لخشيته وجبلَ جَلاميدها ونشوزَ متونها وأطوادها، فأرساها في مَراسيها، وألزمها قَرارتَها، فمضتْ رؤوسُها في الهواء، ورستْ أصولُها في الماء، فأنهدَ جبالَها عن سهولها، وأساخَ قواعدَها في متون أقطارها ومواضع أنصابها، فأشهقَ قِلالَها، وأطالَ أنشازها، وجعلها للأرض عمادًا، وأرَّزها فيها أوتادًا، فسكنت عن حركتها من أن تميد بأهلها أو تسيخ بحملها أو تزول عن مواضعها، فسبحان مَن أمسكها بعد

(١) السابق ١١/ ٣٤.

مَوَجان مياهها، وأجمدَها بعد رطوبة أكنافها، فجعلها لخلقه مِهادًا، وبسطها لهم فراشًا فوق بحر لُجِّيٍّ راكد لا يجري، وقائم لا يسري، تكركره الرياحُ العواصف، وتمخَضه الغمامُ الذَّوارِف ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات: ٢٦].

(ومن آياته: **الجواهر المودَعة تحت الجبال، والمعادن الحاصلة من الأرض، ففي الأرض قِطَعٌ متجاورات مختلفة**) قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ [الرعد: ٤] أي[١] بعضها طيِّبة، وبعضها سبخة، وبعضها رخوة، وبعضها صلبة، وبعضها يصلُح للزرع دون الشجر، وبعضها بالعكس (**فانظر إلىٰ الجبال كيف تخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروزج**) وهو[٢] حجر أخضر تشوبه زرقةٌ، ويصفو لونه مع صفاء الجو، ويتكدَّر بكدورته، يُجلَب من معادن أرض نيسابور (**واللَّعْل**) وهو حجر أحمر يشبه الياقوت يُجلَب من معادن أرض بدخشان[٣] (**وغيرها**) كالماس والزمرُّذ والياقوت والعقيق ونحو ذلك (**وبعضها منطبعة تحت المطارق كالذهب والفضة والنُّحاس والرَّصاص والحديد، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج واللعل، و**) انظر (**كيف هدىٰ الله الناس إلىٰ استخراجها**) من معادنها (**وتنقيتها**) من أوساخها ثم سبكِها (**واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلي منها**) علىٰ أنواع غريبة وأشكال عجيبة (**ثم انظر إلىٰ معادن الأرض من النفط**) وهو دُهنٌ يخرج من بئر هي معدنه، منه ما لونه أبيض، ومنه ما لونه أسود (**والكبريت**) وهو[٤] عين تجري، فإذا جمدَ ماؤها صار كبريتًا أصفر وأبيض وأكدر،

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٣/ ١٨٠.

(٢) المعتمد في الأدوية المفردة للملك المظفر ص ٢٧٢ (ط - دار الكتب العلمية).

(٣) بدخشان: منطقة جبلية تقع بين شمال شرق أفغانستان وجنوب شرق طاجيكستان حيث يقسمها نهر البنج بين الدولتين، وتتعرض لفيضانات عارمة وزلازل مدمرة بين الحين والآخر، ويقطنها عدد كبير من الطائفة الإسماعيلية الباطنية.

(٤) العين للخليل بن أحمد ٥/ ٤٣٠. الجامع في مفرات الأدوية والأغذية لابن البيطار ٤/ ٣٠٤ (ط - دار الكتب العلمية).

وأما الكبريت الأحمر فهو من الجواهر المعدنية، معدنه في وادي النمل، يضيء بالليل في معدنه كالنار، وإذا خرج من موضعه لم يضئ، ويدخل في أعمال الذهب كثيرًا، ويحمِّر البياضَ، ويُضرَب بعزَّته المَثل **(والقار)** منه بحري أسود سيَّال، ومنه جبليٌّ يسيل من شجرة **(وغيرها، وأقلُّها الملح، ولا يُحتاج إليه إلا لتطييب الطعام)** وإصلاحه **(ولو خلتْ عنه بلدةٌ لتسارع الهلاكُ إليها، فانظر إلىٰ رحمة الله تعالىٰ كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرها)** أي بطبعها الذي خُلِقت عليه **(بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من المطر فيستحيل ملحًا مالحًا محرقًا لا يمكن تناوُل مِثقال منه؛ ليكون ذلك تطييبًا لطعامك إذا أكلتَه فيتهنَّأ عيشُك)** اعلمْ أن[1] الملح أنواع، فمنه ملح العجين وهو البحري والسبخي، ومنه الأندراني الشبيه بالبلَّور، ومنه أسود نفطي، ومنه الملح المر، ومنه الهندي وهو أبيض فيه حمرة، وكلَّما كان أمرَّ كان أحرَّ، وأجودها الأندراني، والمحرق أشد تحريقًا من غير المحرق، والمحتفر أحمد من غيره، وهو بجميع أنواعه جلاء، محلِّل، قابض، مجفِّف، يذهب بوخامة الطبيخ، ويسهِّل انحدار الطعام، ويمنع العفونة **(وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحِكَمٌ من هذا الجنس، ما خُلِق شيء منها عبثًا ولا لعبًا ولا هزلاً، بل خُلِق الكل بالحق كما ينبغي وعلىٰ الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه)** ورحمته **(ولذلك قال تعالىٰ:** ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨ - ٣٩].

ومن آياته) الدالَّة علىٰ عظيم قدرته **(أصناف الحيوانات وانقسامها إلىٰ ما يطير)** في الجو **(وإلىٰ ما يمشي، وانقسام ما يمشي إلىٰ ما يمشي علىٰ رجلين وإلىٰ ما يمشي علىٰ أربع و)** إلىٰ ما يمشي **(علىٰ عشر وعلىٰ مائة كما يشاهَد في بعض الحشرات)** قال الله تعالىٰ: ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم

---

(١) الجامع لابن البيطار ٤/ ٤٥٧ - ٤٥٨. الشرح المغني لسديد الدين الكازروني ص ٢٧٣. زاد المعاد لابن القيم ٤/ ٣٦٤.

﴿مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ﴾ [النور: ٤٥] قال بعض المحقِّقين: وإنما اقتصر علىٰ أربع ولم يجاوز إشارةً إلىٰ أنه غاية ما اقتضته الحكمةُ الإلهية، وأما ما عداها من الأرجل التي تُرَىٰ في بعض الحشرات فإنما هي الزوائد والمتمِّمات، والأصلي فيها هي الأربع لا غير **(ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع، فانظر إلىٰ طيور الجو وإلىٰ وحوش البر وإلىٰ البهائم الأهلية ترىٰ فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدِّرها وحكمة مصوِّرها، وكيف يمكن أن يُستقصَىٰ ذلك؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البَقَّة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت - وهي من صغار الحيوانات - في بنائها بيتها وفي جمعها غذاءها وفي إلفها لزوجها وفي ادِّخارها لنفسها وفي حِذقها في هندسة بيتها وفي هدايتها إلىٰ حاجاتها لم نقدر علىٰ ذلك)** وهي[1] دُوَيبة قصيرة الأرجل، كبيرة الأعين، لها ثمانية أرجل وست عيون، إذا أرادت صيد الذباب لطئت بالأرض وجمعت نفسها ثم وثبت، وتبيض وتحضن، وأول ما تلد دودًا صغارًا ثم يتغيَّر ويصير عنكبوتًا، وتكمل صورته في ثلاثة أيام، ويقوَىٰ علىٰ النسج ساعةَ يولَد **(فترىٰ العنكبوت يبني بيته علىٰ طرف نهر، فيطلب أولاً موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتىٰ يمكنه أن يصل بالخيط إلىٰ طرفيه، ثم يبتدئ ويلقي اللُّعابَ الذي هو خيطه علىٰ جانب ليلتصق به، ثم يعدو إلىٰ الجانب الآخَر فيُحكِم الطرفَ الآخر من الخيط، ثم كذلك يتردَّد ثانيًا وثالثًا، ويجعل بُعد ما بينهما متناسبًا تناسُبًا هندسيًّا، ثم إذا أحكم معاقد القُمُط ورتَّب الخيوط كالسُّدىٰ اشتغل باللُّحْمة، فيضع اللُّحمة علىٰ السدىٰ ويضيف بعضه إلىٰ بعض، ويُحكِم العقد علىٰ موضع التقاء اللحمة بالسدىٰ، ويراعي في جميع ذلك تناسُبَ الهندسة، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البَقُّ والذباب، ويقعد في زاوية مترصِّدًا لوقوع الصيد في الشبكة، فإذا وقع الصيد بادر إلىٰ أخذه وأكله، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط، ووصل بين**

(١) حياة الحيوان الكبرىٰ للدميري ٢/ ٢٢٤ - ٢٢٥.

طرفَي الزاوية بخيط، ثم علَّق نفسه منه بخيط آخر، وبقي منكّسًا في الهواء ينتظر ذبابة تطير، فإذا طارت رمىٰ بنفسه إليه فأخذه ولفَّ خيطه علىٰ رجليه وأحكمه ثم أكله) قال صاحب كشف الأسرار(١): قال العنكبوت: [أنا] من حين أولَد أنسج لنفسي، فأول ما أقصد زاوية البيت، وإن كان خربًا فهو أحسن ما أويت، فأقصد الزوايا؛ لِما فيها من الخبايا، ولِما في سرِّها من النكت والخفايا، وألقي لُعابي علىٰ حافَّاتها حذرًا من الخلطة وآفاتها، ثم أُفرِدُ من طاقات غزلي خيطًا [دقيقًا رقيقًا] منكّسًا في الهواء فأتعلَّق به مسبلاً يدي، ممسكًا برجلي، فيظن الغِرُّ أنني في تلك الحالة ميت لا محالة، فتمر الذبابة بي فأختطفها بحبائل كيدي، ثم أُودِعُها شبكةَ صيدي **(وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يُحصَىٰ، أفترىٰ أنه تعلَّم هذه الصنعةَ من نفسه أو تكوَّن بنفسه أو كوَّنه آدميٌّ أو علَّمه أو لا هادي له ولا معلِّم، أفيشكُّ ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز، بل الفيل العظيم شخصه الظاهرة قوَّته)** وبطشه **(عاجز عن أمر نفسه، فكيف هذا الحيوان الضعيف، أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم؟ فالبصير يرىٰ في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبِّر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحيَّر فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات)** قال(٢) أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه في صفة عجيب خلق أصناف من الحيوان: ولو فكَّروا في عظيم القدرة وجسيم النعمة لرجعوا إلىٰ الطريق، وخافوا عذابَ الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة، ألا ينظرون إلىٰ صغير ما خلق كيف أحكم خلقه، وأتقن تركيبَه، وفلق له السمع والبصر، وسوَّىٰ له العظم والبشر، انظروا إلىٰ النملة في صغر جثَّتها ولطافة هيئتها لا تكاد تُنال بلَحْظ البصر ولا بمستدرَك الفكر، كيف دبَّت علىٰ أرضها، وصُبَّت علىٰ رزقها، تنقل الحبة إلىٰ جُحْرها، وتعدُّها في مستقَرِّها، تجمع في حرِّها

---

(١) كشف الأسرار في حكم الطيور والأزهار لابن غانم المقدسي ص ١٢٦ - ١٢٧.

(٢) شرح نهج البلاغة ١٣/ ٣٨، ٤٥.

لبردها، وفي وِرْدها لصدرها، مكفول برزقها، مرزوقة بوَفْقها، لا يغفلها المَنَّانُ، ولا يحرمها الدَّيَّان، ولو في الصفا اليابس والحجر الجامس، ولو فكَّرتَ في مجاري أكلها وفي علوِّها وسفلها وما في الجوف من شراسيف بطنها وما في الرأس من عينها وأذنها لقضيتَ من خلقها عجبًا، ولقيت من وصفها تعبًا، فتعالىٰ اللهُ الذي أقامها علىٰ قوائمها وبناها علىٰ دعائمها لم يشركه في فِطرتها فاطرٌ، ولم يُعِنْه علىٰ خلقها قادرٌ، ولو ضربتَ في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ما دلَّتك الدلالةُ إلا علىٰ أن فاطر النملة هو فاطر النخلة لدقيق [تفصيل] كل شيء وغامض اختلاف كل حي، وما الجليل واللطيف والثقيل والخفيف والقوي والضعيف في خلقه إلا سواء، وإن شئتَ قلتَ في الجرادة إذ خلق لها عينين حمراوين، وأسرجَ لها حَدَقتين قمراوين، وجعل لها السمع الخفيَّ، وفتح لها الفم السويَّ، وجعل لها الحس القوي، ونابين بهما تقرض، ومِنْجلين بهما تقبض، يَرْهَبها الزُّرَّاع في زرعهم ولا يستطيعون ذبَّها ولو أجلبوا بجمعهم حتىٰ تَرِدَ الحرثَ في نَزَواتها وتقضي منه شهواتها، وخَلقُها كله لا يكون إصبعًا مستدِقَّة، فتبارك الذي يسجد له ما في السموات والأرض طوعًا وكرهًا، ويعفِّر له خدًّا ووجهًا، ويلقي بالطاعة إليه سِلمًا وضعفًا، ويعطي القيادَ رهبةً وخوفًا، فالطير مسخَّرة لأمره، أحصىٰ عددَ الريش منها والنفَس، وأرسىٰ قوائمَها علىٰ الندَىٰ واليَبَس، وقدَّر أقواتها، وأحصىٰ أجناسها، فهذا غراب، وهذا عُقاب، وهذا حمام، وهذا نعام، دعا كلَّ طير باسمه، وتكفَّل له برزقه، وأنشأ السحاب الثِّقال، فأهطل دِيَمَها، وعدَّدَ قِسَمَها، فبلَّ الأرض بعد جفوفها، وأخرج نبتها بعد جُدوبها.

وقال[1] عليٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبة يذكر فيها عجيب خِلقة الطاووس: ابتدعهم خلقًا عجيبًا من حيوان ومَوات وساكن وذي حركات، وأقام من شواهد البيِّنات علىٰ لطيف صنعته وعظيم قدرته ما انقادت له العقول معترفةً به ومسلِّمةً له،

(١) السابق ٩/ ١٧٤ - ١٨٠.

ونعقت في أسماعنا دلائله علىٰ وحدانيَّته، وما ذرأ من مختلف صور الأطيار التي أسكنها أخاديدَ الأرض وخروق فِجاجها ورواسي أعلامها من ذوات أجنحة مختلفة وهيئات متباينة مصرَّفة في زمام التسخير ومرفرفة بأجنحتها في مخاريق الجو المنفسح والفضاء المنفرج، كونها بعد أن لم تكن في عجائب صور ظاهرة، وركَّبها في حِقاق مفاصل محتجبة، ومنع بعضها بعبالة خلقِه أن يسمو في الهواء خفوقًا، وجعله يدِفُّ دفيفًا، ونسقها علىٰ اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته ودقيق صنعته، فمنها مغموس في قالب لونٍ لا يشوبه غيرُ لون ما غُمس فيه، ومنها مغموس في لون صبغٍ قد طُوِّق بخلاف ما صُبغ به، ومن أعجبها خلقًا الطاووس الذي أقامه في أحكم تعديل، ونضَّد ألوانه في أحسن تنضيد، بجناح أشرجَ قصبَه، وذَنَب أطالَ مَسْحَبَه، إذا درجَ إلىٰ الأنثىٰ نشره من طيِّه، وسما به مطلاً علىٰ رأسه كأنَّه قلعُ داريٍّ عَنَجَه نُوتيُّه، يختال بألوانه، ويميس بزَيفانه، يفضي كإفضاء الديكة، ويؤرُّ بمَلاقحِه أَرَّ الفحول المغتلمة [للضِّراب] أحيلك من ذلك علىٰ معاينةٍ لا كمَن يحيل علىٰ ضعيفِ إسنادُه، ولو كان كزعمِ مَن يزعم أنه يُلقِح بدمعة تسفحها مَدامِعُه فتقف في دفَّتَي جفونه وأن أنثاه تَطعم ذلك ثم تبيض لا من لِقاحِ فحلٍ سوىٰ الدمع المنبجس لَما كان ذلك بأعجب من مُطاعَمة الغراب، تخال قصبَه مَداري من فضة، وما أُنبِت عليه من عجيب داراته وشموسه خالصَ العِقيان وفِلَذ الزبرجد، فإن شبَّهته بما أنبتت الأرض قلتَ: جَنِيٌّ [جُنِيَ] من زهرةِ كلِّ ربيع، وإن ضاهيتَه بالملابس فهو كمَوْشِيِّ الحُلَل أو مونِق عَصْبِ اليمن، وإن شاكلتَه بالحلي فهو كفصوص ذات ألوان قد نطقت باللُّجَين المكلَّل، يمشي مشي المرِح المختال، ويتصفَّح ذَنَبه وجناحَه فيقهقه ضاحكًا لجمال سِرْباله وأصابيغ وِشاحه، فإذا رمىٰ ببصره إلىٰ قوائمه زَقا مُعْوِلاً بصوت يكاد يبين عن استغاثته ويشهد بصادق توجُّعه؛ لأن قوائمه حُمْشٌ كقوائم الديكة الخِلاسية، وقد نجمتْ من ظُنْبُوب ساقه صِيصيةٌ خفيَّة، وله في موضع العُرف قُنزعة خضراء موشَّاة، ومَخرج عنقه كالإبريق، ومغرزها إلىٰ حيث بطنه كصبغ الوسمة اليمانية أو كحريرة ملبَسة مرآةً ذات صِقال، وكأنَّه متلفِّع

بمعجَر أسحم، إلا أنه يخيَّل لكثرة مائه وشدة بريقه أن الخضرة الناضرة ممتزجة به، ومع فتقٍ سمعه خطٌّ كمستدَقِّ القلم في لون الأُقحوان أبيض يَقَقٌ، فهو ببياضه في سواد ما هنالك يأتَلِق، وقلَّ صبغٌ إلا وقد أخذ منه بقسط، وعلاه بكثرة صِقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه، فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربِّها أمطارُ ربيع ولا شموس قيظ، وقد ينحسر من ريشه ويعرَىٰ من لباسه فيسقط تترَىٰ وينبُت تباعًا فينحَتُّ من قصبه انحتات أوراق الأغصان، ثم يتلاحق ناميًا حتىٰ يعود كهيئته قبل سقوطه، لا يخالف سالفَ ألوانه، ولا يقع لون في غير مكانه، وإذا تصفَّحت شعرة من شعرات قصبه أرتْك حمرة وريدَّة، وتارةً خُضرة زبرجدية، وأحيانًا صفرة عَسْجَدية، فكيف تصل إلىٰ صفة هذا عَمائقُ الفِطَن أو تبلغه قَرائحُ العقول أو تستنظم وَصْفَه أقوالُ الواصفين، وأقلُّ أجزائه قد أعجز الأوهامَ عن أن تدركه والألسنةَ أن تصفه، فسبحان الذي بهر العقولَ عن وصفِ خلقٍ قد جَلاَّه للعيون فأدركتْه محدودًا مكوَّنًا ومؤلَّفًا ملوَّنًا، وأعجز الألسنَ عن تلخيص صفته وقعد بها عن تأدية نعتِه، وسبحان مَن أدمج قوائمَ الذرَّة والهَمَجة إلىٰ ما فوقهما من خلق الحيتان والفيلة، ووأىٰ علىٰ نفسه أن لا يضطرب شبحٌ مما أولج فيه الروح إلا وجعل الحِمام موعده، والفناء غايته.

وقال[1] رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في خطبة يذكر فيها بدائع خلقة الخفَّاش: ومن لطائف صنعته وعجائب خِلقته ما أرانا من غوامض الحكمة في هذه الخفافيش التي يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حي، وكيف عشيت أعينُها عن أن تستمدَّ من الشمس المضيئة نورًا تهتدي به في مذاهبها وتتَّصل بعلانية برهان الشمس إلىٰ معارفها، وردعها بتلألؤ ضيائها عن المضيِّ في سُبُحات إشراقها، وأكنَّها في أماكنها عن الذهاب في بُلَج ائتلافها، فهي مسدلة الجفون بالنهار علىٰ أحداقها، وجاعلة الليل سراجًا تستدلُّ به في التماس أرزاقها، فلا يردُّ أبصارَها

---

(١) السابق ٩/ ١٢٠ - ١٢١.

إسدافُ ظلمته، ولا تمتنع من المضيّ فيه لغَسَق دُجنته، فإذا ألقت الشمس قناعَها وبدتْ أوضاحُ نهارها ودخل من إشراق نورها علىٰ الضِّباب في وِجارها أطبقت الأجفانَ علىٰ مآقيها، وتبلَّغت بما اكتسبتْه من المعاش في ظُلَم لياليها، فسبحان مَن جعل الليل لها نهارًا ومعاشًا، والنهار سكنًا وقرارًا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرُج بها عند الحاجة إلىٰ الطيران كأنَّها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب، إلا أنك ترىٰ مواضع العروق بيِّنةً أعلامًا، لها جناحان لم يرقًّا فينشقًّا، ولم يغلظا فيثقلا، تطير وولدها لاصق بها، لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتىٰ تشتدَّ أركانُه ويحمله للنهوض جناحُه ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء علىٰ غير مثال خلا من غيره.

(وهذا الباب أيضًا لا حصر له، فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطِباعها غير محصورة، وإنما سقط تعجُّب القلوب منها لأُنسها بكثرة المشاهدة. نعم، إذا رأىٰ حيوانًا غريبًا) في شكله **(ولو دودًا تجدَّد)** عند رؤيته **(تعجُّبُه وقال: سبحان الله، ما أعجبه! والإنسان أعجبُ الحيوانات)** إن تأمَّل فيه **(وليس يتعجَّب من نفسه)** وحينئذٍ يقال له:

أتحسب أنك جِرْم صغير ... وفيك انطوىٰ العالَم الأكبرُ(١)

(بل لو نظر إلىٰ الأنعام التي ألفها ونظر إلىٰ أشكالها وصورها ثم إلىٰ منافعها وفوائدها) التي خصَّها الله بها **(من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله تعالىٰ لباسًا لخلقه، وأكنانًا لهم في ظَعْنهم وإقامتهم، وآنية لأشربتهم، وأوعية لأغذيتهم، وصوانًا لأقدامهم، وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم، ثم جعل بعضها زينة للركوب، وبعضها حاملة للأثقال، قاطعة للبوادي والمَفازات البعيدة)** قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [النحل: ٨] وقال تعالىٰ:

---

(١) البيت لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو في ديوانه ص ٤٥، وقبله:

دواؤك فيك وما تشعر ... وداؤك منك وما تبصر

﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ [النحل: ٧] (لأكثرَ الناظرُ التعجُّبَ من حكمة خالقها ومصوِّرها، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق علىٰ خلقه إيَّاها، فسبحان مَن الأمورُ مكشوفة في علمه من غير تفكُّر ومن غير تأمُّل وتدبُّر) ومن غير رويَّة (ومن غير استعانة بوزير أو مشير) أو مدبِّر (فهو العليم الخبير الحكيم القدير) جلَّ شأنُه (فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صِدقَ الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته، والاعتراف بربوبيَّته، والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته، فمَن ذا الذي يحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنىٰ علىٰ نفسه) كما قال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيتَ علىٰ نفسك» (وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته) كما قاله الصدِّيق رضي الله عنه (فنسأل الله تعالىٰ أن يكرمنا بهدايته بمَنِّه ورأفته) وبالله التوفيق.

(ومن آياته) الدالَّة علىٰ عظيم قدرته (البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض) أي جهاتها (التي هي قِطَعٌ من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض، حتىٰ إن جميع المكشوف من البوادي والجبال عن الماء بالإضافة إلىٰ الماء كجزيرة صغيرة في بحر عظيم، وبقية الأرض مستورة بالماء، قال النبي ﷺ: الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض) قال العراقي[1]: لم أجده، وقد تقدَّم[2] (فانسِبْ اصطبلاً إلىٰ جميع الأرض واعلَمْ أن الأرض بالإضافة إلىٰ البحر مثله، وقد شاهدتَ عجائب الأرض وما فيها) من جبال وحيوان ونبات وغير ذلك (فتأمَّل الآن عجائب البحر، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده علىٰ وجه الأرض، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض) ولذا قيل: حدِّثْ عن البحر ولا حرج (ولعِظَم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما تُرىٰ ظهورها في البحر فيُظَن أنها) لعِظَمها (جزيرة فينزل الركَّاب عليها، فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت) علىٰ ظهورها (فتتحرك)

---

(١) المغني ٢/ ١١٩٥.

(٢) في كتاب المحبة والشوق.

وتضطرب **(ويُعلَم أنها حيوان)** ذكر القزويني في عجائب المخلوقات[١] والدميري في حياة الحيوان[٢] وابن بطوطة في رحلته: ومنها سمكة في بحر الزنج[٣] كالجبل العظيم، من رأسها إلىٰ ذَنَبها مثل أسنان المنشار من عظام سود، كل سن منها كذراعين، وعند رأسها عظمان طويلان [كل عظم] في مقدار عشرة أذرع تضرب بهما ماء البحر يمينًا وشمالاً فيُسمَع له صوت هائل، ويخرج الماء من فيها وأنفها فيصعد نحو السماء، ثم يصعد إلىٰ المركب رشاشه كالمطر، فإذا دخلت تحت سفينة كسرتها. ومنها سمكة تُسمَّىٰ: المنارة، تخرج علىٰ هيئتها فترمىٰ بنفسها علىٰ السفينة فتكسرها، فإذا أحسُّوا بها ضربوا الطبول والبوقات لتبعد عنهم **(وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو)** جمل أو **(طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه)** فإنسان[٤] الماء يشبه الإنسان، إلا أنَّ له ذَنَبًا، وقيل: إن في بحر الشام[٥] في بعض الأوقات من شكله شكل الإنسان، وله لحية بيضاء، يسمُّونه: شيخ البحر[٦]، فإذا رآه الناس استبشروا بخصب، وحُكي أن بعض الملوك حُمل إليه إنسان ماء، فأراد الملك أن يعرف حاله، فزوَّجه امرأة، فأتاه منها ولدٌ يفهم كلام أبويه، فقال للولد: ما يقول أبوك؟ قال: يقول: أذناب الحيوانات كلها في أسفلها، فما بال هؤلاء أذنابهم في وجوههم؟ وسُئل الليث بن سعد عن أكله، فقال: لا يؤكل علىٰ شيء من الحالات[٧].

وفي[٨] بحر الروم سمك يقال له: بنات الماء، يشبه النساء، ذوات شعور سُبْط،

---

(١) عجائب المخلوقات ص ١١٧ - ١١٨، ١٢٢.

(٢) حياة الحيوان ٢/ ٤٤٧ - ٤٤٨.

(٣) يعني المحيط الهندي.

(٤) حياة الحيوان ١/ ٦٩. عجائب المخلوقات ص ١٢٥.

(٥) يعني البحر المتوسط.

(٦) بعده في عجائب المخلوقات: ويبقىٰ أياما ثم ينزل.

(٧) ذكره ابن المنذر في الإشراف علىٰ مذاهب العلماء ٣/ ٤٦٧، والخطابي في معالم السنن ٤/ ٢٥٢.

(٨) حياة الحيوان ١/ ٢٢٧. أخبار الزمان للمسعودي ص ١٧ (ط - مطبعة حنفي).

ألوانهن إلىٰ السُّمرة، ذوات فروج عظام وثُديٍّ وكلام لا يكاد يُفهَم، ويضحكون ويقهقهون، وربما وقعن في أيدي بعض المراكب فينكحوهن ثم يعيدونهن إلىٰ البحر. وحُكي عن الروياني صاحب البحر أنه كان إذا أتاه صياد بسمكة منهن حلَّفه أنه لم يطأها.

ونوع[1] من حيوان البحر يقال له: الشيخ اليهودي، وجهه كوجه الإنسان، وله لحية بيضاء، وبدنه كبدن ضفدع، وشعره كشعر البقرة، وهو في حجم عجل، يخرج من البحر ليلة السبت [فيستمر] حتىٰ تغيب الشمس ليلة الأحد، فيَثِب كما يثب الضفدع ويدخل الماء فلا تلحقه السفن إذا تم السبت.

وقال[2] القزويني: سمك في البحر يقال له: أبو مُزَينة، علىٰ صور الرجال بجلود لزجة وأجسام متشاكلة، يبرزون من البحر إلىٰ البر يتشمَّسون، فإذا وقعوا في أيدي الصيَّادين بكوا[3].

وقال[4] المسعودي: النسناس حيوان كالإنسان، له عين واحدة، يخرج من الماء ويتكلم، ومتىٰ ظفر بالإنسان قتله[5]. وقال القزويني[6]: إنه أمَّة من الأمم، لكل واحد منهم نصف بدن ورأس ويد ورجل كأنَّه شق إنسان، يقفز علىٰ رِجل واحدة قفزًا شديدًا، ويعدو عدوًا [شديدًا] منكَرًا، ويوجد في جزائر [بحر] الصين[7].

---

(١) حياة الحيوان ٢/ ٧٨. عجائب المخلوقات ص ١٢١.

(٢) حياة الحيوان ٢/ ٤٥١.

(٣) بعده في حياة الحيوان: فإذا بكوا رحموهم وأطلقوهم.

(٤) حياة الحيوان ٢/ ٤٧٩.

(٥) نص المسعودي في أخبار الزمان ص ١٦: «ومن العجائب خلق النسناس، وهو كمثل نصف الإنسان بيد واحدة ورجل واحدة، ويثب وثبا ويعدو عدوا شديدا، وكان ببلاد اليمن، وربما كان ببلاد العجم، والعرب تصيده وتأكله، ويقال إنه يغتذي بالثمار والنبات، ويصبر علىٰ العطش».

(٦) عجائب المخلوقات ص ٣٨٤.

(٧) في عجائب المخلوقات: «ويوجد في غياض أرض اليمن، وهو ناطق».

وحيوانات البحر التي تشبه حيوانات البر كثيرة جدًّا، والقول فيها يطول، وإنما اقتصرت علىٰ ذِكر ما يشبه الإنسان لغرابته.

وقال أبو حاتم في كتاب الطير: طير الماء أكثر من مائتي لون، والعرب لا تعرف أكثرها، وأسماؤها عندنا بالنبطية؛ لأنها في البطائح في بلاد النبَط[١].

(وفيه أجناس لا يُعرَف لها نظير في البر، وقد ذُكِرت أوصافها في مجلَّدات، وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمعِ عجائبه.

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوَّره في صدفه تحت الماء) ومغاصه ببحر الهند، وعن ابن عباس: إذا أمطرت السماء فتحت الصدف أفواهها[٢]. قلت: وهو مطر مخصوص في أيام نيسان الرومي **(وانظر كيف أنبت المَرْجان من صُمِّ الصخور تحت الماء، وإنما هو نبات علىٰ هيئة شجر ينبُت من الحجر)** ومغاصه في بحر إفريقية، قال[٣] الطُّرطوشي: هو عروق حمر تطلع من البحر كأصابع الكف. قال: وهذا شاهدناه بمغارب الأرض كثيرًا. انتهىٰ. وتُتخَذ منها السِّبَح وغيرها من أنواع الأواني، والمذكور في القرآن هو صغار اللؤلؤ؛ قاله الأزهري[٤] وجماعة من أئمَّة اللغة، قيل: النون زائدة؛ لأنه ليس في الكلام «فَعْلال» بالفتح إلا في المضاعَف نحو: الخَلْخال[٥]، وقال الأزهري: لا أدري أثلاثي أم رباعي **(ثم تأمَّل ما عداه من العنبر**

---

(١) ذكره ابن سيده في المخصص ٢/ ٣٣٩ (ط - دار إحياء التراث العربي).

(٢) رواه أبو الشيخ في العظمة ٤/ ١٣٢٧، وزاد: «فما وقع فيها فهو اللؤلؤ». وعند الطبري في جامع البيان ٢٢/ ٢٠٨: فمنها اللؤلؤ. وروىٰ الثعلبي في الكشف والبيان ٩/ ١٨١ نحوه عن ابن جريج. وروىٰ أبو الشيخ في العظمة ٤/ ١٢٥٥ عن سعيد بن جبير قال: يخلق الله تعالىٰ اللؤلؤ يخر الأصداف من المطر، تفتح الأصداف أفواهها عند المطر من السماء، فاللؤلؤة العظيمة من القطرة العظيمة، واللؤلؤة الصغيرة من القطرة الصغيرة.

(٣) المصباح المنير ص ٥٦٧. مع زيادات من الشارح.

(٤) تهذيب اللغة ١١/ ٧٢.

(٥) انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٤/ ١٣٦ - ١٣٧.

وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتُستخرَج منه) والعنبر: قِطَع توجد في بحر الهند تشبه الشمع في جموده وذوبانه، وقيل: إنه روث دابّة بحرية، وقيل: إنه زَبَد البحر، وقيل: إنه من عين تسيل في البحر وتنفصل عنه الحلاوة ويطفو الشمع من فوق، فهو العنبر الأشهب، وربما اتفق أنه يبتلعه السمك المعروف بالبالة لحلاوة فيه، فيعرض له قولنج فيموت، فيقذفه البحر إلىٰ الساحل، فتتفرَّق أجزاء السمك، وينعقد ذلك العنبر الأشهب في جوفه، فهو العنبر الفُستقي. وقال القزويني[1]: البالة سمكة عظيمة يخاف منها أهل السفن، فإذا بغت علىٰ حيوان البحر بعث الله لها سمكة نحو الذراع تلتصق بأذنها ولا تفارقها، فتطلب قعر البحر، وتضرب الأرض برأسها إلىٰ أن تموت، وتطفو علىٰ الماء كالجبل العظيم، ولها أناس يرصدونها، فإذا رأوها جرُّوها بالكلاليب إلىٰ الساحل وشقُّوا بطنها واستخرجوا منها العنبر.

(ثم انظر إلىٰ عجائب السفن) وما فيها من غرائب الصنائع كيف هدىٰ الإنسان إلىٰ تركيبها علىٰ هذا الوجه المشاهَد، وهي ما بين صغيرة وكبيرة ومتوسطة **(كيف أمسكها الله علىٰ وجه الماء وسيَّر فيها التجار وطلاَّب الأموال وغيرهم، وسخَّر لهم الفُلْك لتحمل أثقالهم)** من البضائع والمُؤَن الثقيلة **(ثم أرسل الرياح لتسوق السفن)** إلىٰ المواضع المقصودة **(ثم عرَّف الملاَّحين)** وهم خَدَمة السفن، نُسِبوا إلىٰ البحر الملح لملازمتهم إيَّاه **(موارد الرياح ومَهابِّها ومواقيتها)** حتىٰ قيل: إنه علمٌ نفيس مع قوم مناحيس **(ولا تُستقصَىٰ علىٰ الجملة عجائب صنعِ الله في البحر في مجلَّدات.**

وأعجبُ من ذلك كله ما هو أظهرُ من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء، وهو جسم رقيق، لطيف، سَيَّال، مشفٌّ، متصل الأجزاء كأنَّه شيء واحد، لطيف التركيب، سريع القبول للتقطيع كأنَّه منفصل، مسخَّر للتصرُّف، قابل للانفصال والاتصال، به حياة كل ما علىٰ وجه الأرض من حيوان ونبات) قال الله تعالىٰ:

(١) عجائب المخلوقات ص ١١٨.

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] قال الحرالي: وهو أول ظاهر للعين من أشباح الخَلق[١] (فلو احتاج العبد إلىٰ شربة ماء ومُنع منها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك، ثم إذا شربها لو مُنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض ومُلك الدنيا في إخراجها، فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينارَ والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلىٰ شربها والاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها. فتأمَّلْ في عجائب المياه والآبار والأنهار والبحار ففيها متسَع للفكر ومجال، وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة، ناطقة بلسان حالها، مفصحة عن جلال بارئها، معرِبة عن كمال حكمته فيها، منادية أرباب القلوب بنغماتها) أي أصواتها (قائلة لكل ذي لُب: أما تراني وترىٰ صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي، أتظن أني كُوِّنت بنفسي أو خلقني أحد من جنسي؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالِم قادر مريد متكلم، ثم تنظر إلىٰ عجائب الخطوط الإلهية المرقومة علىٰ صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط، ثم ينفكُّ قلبك عن جلالة صانعه) وعظمة خاطِّه.

(وتقول النطفة) الإنسانية (لأرباب السمع والقلب) الذين يسمعون فيعون ويرون فيعتبرون (لا الذين هم عن السمع معزولون) قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ [الشعراء: ٢١٢] أي ممنوعون بعد أن كانوا ممكَّنين (توهَّموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الحيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير علىٰ وجهي) وهو بعد مضيِّ مائة وعشرين يومًا من الحمل (فينقش النقَّاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدِّي وشفتي، فترىٰ التقويس يظهر[٢] علىٰ التدريج شيئًا فشيئًا،

(١) نقله عنه البقاعي في نظم الدرر ١/ ١٤٧.

(٢) في أ، وب، وط المنهاج ٩/ ٢٩٠: فترىٰ النقوش تظهر.

ولا ترىٰ داخل النطفة نقَّاشًا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجه ولا خبر منها للأم ولا للأب ولا للنطفة ولا للرحم، أفما هذا النقَّاش بأعجب ممَّن تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة؟ ولو نظرتَ إليها مرة أو مرتين لتعلَّمتَه، فهل تقدر علىٰ أن تتعلَّم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعمُّ ظاهرَ النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا من داخل ولا من خارج، فإن كنت لا تتعجَّب من هذه العجائب ولا تفهم بها أن الذي صوَّر ونقش وقدَّر لا نظير له) في ذاته (ولا يساويه نقَّاش ولا مصوِّر، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنعٌ، فبين الفاعلينِ من المباينة والتباعد ما بين الفعلينِ، فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجبْ من عدم تعجُّبك) لهذا (فإنه أعجب من كل عجب، فإن الذي أعمىٰ بصيرَتك مع هذا الوضوح) والانكشاف (ومنعك من التبيُّن مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه) أي حقيق (فسبحان مَن هدىٰ وأضلَّ وأغوىٰ وأرشد وأشقىٰ وأسعد وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرَّات العالَم وأجزائه) مشاهدة عيانيَّة مصونة عن الحلول والاتحاد (وأعمىٰ قلوبَ أعدائه واحتجب عنهم بعزِّه وعلائه) فهم عن مشاهدته محجوبون (فله الخَلق والأمر والامتنان والفضل واللطف والقهر، لا رادَّ لحكمه، ولا معقِّب لقضائه) جلَّ شأنُه وعزَّ برهانُه.

(ومن آياته) الدالَّة علىٰ عظيم قدرته (الهواء) بالمد (اللطيف المحبوس المسخَّر (بين مقعَّر السماء ومحدَّب الأرض) والجمع: أهوية (لا يُدرَك بحس اللمس[1] عند هبوب الرياح جسمه، ولا يُرَىٰ بالعين شخصه، وجملته مثل البحر الواحد، والطيور محلِّقة في جو السماء ومسفَّة) وتحليق الطائر: استدارته في الهواء، وإسفافه: ضمُّ جناحيه (سباحةً فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء، وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كما تضطرب أمواج البحر، فإذا حرَّك الله الهواء وجعله ريحًا هابَّةً فإن شاء جعله نُشْرًا بين يدي رحمته) كما

(١) في أ، وط المنهاج ٩/ ٢٩٢: يدرك بحس اللمس. بلا «لا».

قُرئ به[١]، أي منشورة في الجو بمعنىٰ مبسوطة، والرياح تنشر السحاب (**كما قال سبحانه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾**) [الحجر: ٢٢] أي ذوات لِقاح (**فيصل بحركته روحُ الهواء إلىٰ الحيوانات والنبات فتستعدُّ للنماء. وإن شاء جعله عذابًا علىٰ العصاة من خليقته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾**) أي شديدًا (**﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩﴾**) النحس[٢] ضد السعد، وقرأ الحسن البصري بالتنوين وكسر الحاء، وعنه أيضًا علىٰ الصفة والإضافةِ والحاءُ مكسورة (**﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾**) [القمر: ١٩ - ٢٠] أي[٣] منقلعة من قعرها، يقال: قعرت الشجرة: إذا قلعتها من أصلها فانقعرت، وقيل: معنىٰ انقعرت: ذهبت في قعر الأرض، وإنما أراد الله تعالىٰ أن هؤلاء اجتُثُّوا كما اجتُثَّ النخل الذاهب في قعر الأرض فلم يبقَ له رسم ولا أثرٌ (**ثم انظر إلىٰ لطف الهواء ثم شدته وقوته مهما ضُغط في الماء، فالزقُّ المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه، والحديد الصلب تضعه علىٰ وجه الماء فيرسب فيه**) أي يثقل ويصير إلىٰ الأسفل (**فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته، وبهذه الحكمة أمسك الله تعالىٰ السفن علىٰ وجه الماء، وكذلك كل مجوَّف فيه هواء لا يغوص في الماء**) ولا يرسب فيه أصلاً (**لأن الهواء ينقبض عن الغوص في الماء فلا ينفصل عن السطح الداخل من السفينة، فتبقىٰ السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلَّقة في الهواء اللطيف، كالذي يقع في بئر فيعلق بذيل رجل قوي ممتنع عن الهويِّ**) أي السقوط (**في البئر، فالسفينة بمقعَّرها تتشبَّث بأذيال الهواء القوي حتىٰ تمتنع من الهويِّ والغوص في الماء، فسبحان مَن**

---

(١) اختلف القراء في قراءة هذه الكلمة: فقرأ عاصم (بُشْرا) بالباء الموحدة وضمها وإسكان الشين، وقرأ ابن عامر (نُشْرا) بالنون وضمها وإسكان الشين، وقرأ حمزة والكسائي وخلف (نَشْرا) بالنون وفتحها وإسكان الشين، وقرأ الباقون (نُشُرا) بالنون وضمها وضم الشين. النشر في القراءات العشر لابن الجزري ٢/ ٢٦٩.

(٢) العباب الزاخر للصاغاني - حرف السين، ص ٤٤٤ (ط - دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد).

(٣) المفردات للراغب ص ٤٠٩. بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٢٨٧.

علَّق المركب الثقيل في الهواء اللطيف من غير علاقة تشاهَد) في المحسوس (و) لا (عقدة تُشَد.

ثم انظر إلىٰ عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشُّهُب والصواعق، فهي عجائب ما بين السماء والأرض، وقد أشار القرآن إلىٰ جملة ذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨﴾ [الدخان: ٣٨] وهذا هو الذي بينهما) فهذا علىٰ طريق الإجمال (وأشار إلىٰ تفصيله في مواضع شتىٰ، حيث قال: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾) [البقرة: ١٦٤] والمسخَّر هو المقيَّض للفعل (وحيث تعرَّض للرعد والبرق والسحاب والمطر) وذلك في آيات كثيرة (فإن لم يكن لك حظٌّ من هذه الجملة إلا أن ترىٰ المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة، فارتفِعْ من حضيض عالَم البهائم إلىٰ عالم الملأ الأعلىٰ، فقد فتحتَ عينيك فأدركتَ ظاهرها، فغمِّضْ عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترىٰ عجائب باطنها وغرائب أسرارها، وهذا أيضًا باب يطول الفكرُ فيه، ولا مَطمع في استقصائه. فتأمَّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صافٍ لا كُدورة فيه، وكيف يخلقه الله تعالىٰ إذا شاء ومتىٰ شاء، وهو مع رخاوته حاملٌ للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلىٰ أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات، كل قطرة بالقدْر الذي أراد الله تعالىٰ، وعلىٰ الشكل الذي شاءه، فترىٰ السحاب يرش الماء علىٰ الأرض ويرسله قطرات متفاصلة، لا تدرك قطرةٌ منها قطرةً، ولا تتصل واحدة بأخرىٰ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رُسم لها لا تعدل عنه، فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم حتىٰ يصيب الأرضَ قطرةً قطرةً) فإن قيل: لِمَ كانت نقطة المطر تُرَىٰ في الجو خطًّا، وإنما هي نقطة؟ والجواب: أنَّ لذلك سببين، أحدهما: أن الماء يمر بالهواء فيكيِّفه بكيفيته فيصير نديًّا كأنَّه ماء، فيُرَىٰ كما يمر الشهاب المحرق للشياطين عند استراقهم السمع في الهواء، فيُرَىٰ خلفه جبل نار بسبب أنه مرَّ بالهواء، فيكيِّفه بناريَّته فصار يُرَىٰ نارًا.

السبب الثاني: أن حركة القطرة في الهواء تمنع من استيثاق الحس انفصالها عن الأحياز فيبقىٰ البصر فيتوهَّمها باقيةً في حيِّزها مع خروجها عنه، فيحصل خطٌّ من الماء، ومثل ذلك من يأخذ شعلة من نار في يده ويديرها إدارةً شديدة فيتوهَّم الرائي أنها دائرة نار لهذين السببين (فلو اجتمع الأوَّلون والآخِرون علىٰ أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها) وخلقها (ثم كل قطرة منها عُيِّنت لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب علىٰ تلك القطرة بخط إلهيٍّ لا يُدرَك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني، هذا مع ما في انعقاد البَرَد) محرَّكة (الصلب) شِبه الحصا ينزل من السماء، ويسمَّىٰ: حب الغمام (من الماء اللطيف) السَّيَّال (وفي تناثُر الثلوج كالقطن المندوف) المنفوش (من العجائب التي لا تُحصَىٰ، كل ذلك فضلٌ من الجبَّار) القاهر (القادر، وقهرٌ من الخَلاَّق القاهر، ما لأحد من الخَلق فيه شركٌ ولا مَدخل، بل ليس للمؤمنين) المصدِّقين (من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته) وذلك لحسن إيقانهم في معرفة مصنوعاته (ولا للعميان الجاحدين) المنكرين (إلا الجهل بكيفيَّته ورجم الظنون بذكر سببه وعلَّته، فيقول الجاهل المغرور: إنما ينزل الماء) من فوق (لأنه ثقيل بطبعه، وإنما هذا سبب نزوله) والثقيل بطبعه لا محالة يهوي إلىٰ تحت (ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها) كما يقول: إن الحجر إذا رُمي إلىٰ فوق فبقدْر قوة الرامي يصعد إلىٰ فوق، ثم يغلب عليه طبعُه فيهوي ساقطًا (ولو قيل له: ما معنىٰ الطبع؟ ومَن الذي خلقه؟ ومَن الذي خلق الماء الذي طبعُه الثقل؟ ومَن الذي رقَّىٰ الماءَ المصبوب في أسافل الشجر إلىٰ أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه؟ فكيف هوَىٰ إلىٰ أسفل ثم ارتفع إلىٰ فوق في داخل تجاويف الأشجار) علىٰ التدريج (شيئًا فشيئًا بحيث لا يُرَىٰ ولا يشاهَد حتىٰ ينتشر في جميع أطراف الأوراق) من سائر أغصان الشجر (فيغذِّي كل جزء من ورقة ويجري إليها في

تجاويف عروق شَعْرية صغار) أي تشبه الشعرَ في الدقة (يُروَىٰ منه العِرق الذي هو أصل الورقة، ثم ينتشر من ذلك العِرق الكبير الممدود في طول الورقة عروقٌ صغار) تمتدُّ منه (فكأنَّ الكبير نهرٌ، وما انشعب عنه) من تلك العروق (جداول، ثم يتشعَّب من الجداول سواق أصغر منها، ثم تنتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة) جدًّا (تخرج عن إدراك البصر حتىٰ تنبسط في جميع عرض الورقة، فيصل الماء في أجوافها إلىٰ سائر أجزاء الورقة ليغذِّيها وينمِّيها ويزيِّنها وتبقىٰ طراوتها ونضارتها) بحيث لو قُطع ذلك الإمداد ليبس وسقط (وكذلك إلىٰ سائر أجزاء الفواكه، فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلىٰ أسفل) كما يقوله الطبائعيُّ الجاهل (فكيف تحرك إلىٰ فوق؟ فإن كان ذلك بجذبِ جاذبٍ) كما يقوله الطبائعيُّ أيضًا (فما الذي سخَّر ذلك الجاذبَ؟ فإن كان ينتهي بالآخرة إلىٰ خالق السموات والأرض وجبَّار المُلك والملكوت فلِمَ لا يُحال عليه في أول الأمر؟ فنهاية الجاهل في[1] بداية العاقل.

ومن آياته) الدالَّة علىٰ عظيم قدرته (ملكوت السموات وما فيها من الكواكب، وهو الأمر كله، ومَن أدرك الكلَّ وفاته) دركُ (عجائب السموات فقد فاته الكلُّ تحقيقًا، فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوىٰ السموات بالإضافة إلىٰ السموات كقطرة في بحر وأصغر) من القطرة (ثم انظر كيف عظَّم اللهُ أمر السموات والنجوم في كتابه، فما من سورة إلا وتشتمل علىٰ تفخيمها في مواضع) منها (وكم من قَسَم في القرآن بها) فالمقسَم به عظيم في نفسه، ولولاه لَما أقسم بها (كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١﴾) [البروج: ١] يعني[2] البروج الاثني عشر، شُبِّهت بالقصور لأنها تنزلها السياراتُ وتكون فيها الثوابتُ. أو منازل القمر، أو عظام الكواكب.

وقوله تعالىٰ: (﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝١﴾) أي الكوكب البادي بالليل ﴿وَمَآ

(١) زيادة في الزبيدي وحده.

(٢) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٣٠٠.

أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝﴾ [الطارق: ١ - ٣].

وقوله تعالىٰ: (﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝﴾) [الذاريات: ٧] أي[١] الطرائق المحسوسة بالنجوم والمَجَرَّة، ومنهم مَن اعتبر ذلك بالطرائق المعقولة المدرَكة بالبصائر المشار إليها بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤، آل عمران: ١٩٠].

وقوله تعالىٰ: (﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝﴾) أي[٢] ضوئها إذا أشرقت (﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝﴾) [الشمس: ١ - ٢] أي تلا طلوعُه طلوعَ الشمس أول الشهر، أو غروبها ليلة البدر، أو في الاستدارة وكمال النور.

(**وكقوله تعالىٰ:** ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝﴾) أي[٣] بالكواكب الرواجع، وهي ما سوىٰ النَّيِّرين من الكواكب السائرات، ولذلك وصفها بقوله: (﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝﴾) [التكوير: ١٥ - ١٦] أي السيَّارات التي تختفي تحت ضوء الشمس، من كنسَ الوحشُ: إذا دخل كِناسَه.

(**وقوله تعالىٰ:** ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝﴾) [النجم: ١] أي[٤] أُقسِمُ بجنس النجوم خاصةً أو الثريَّا [فإنه غلب فيها] إذا غرب أو انتثر يوم القيامة أو انقضَّ أو طلع، فإنه يقال: هَوَىٰ بالفتح: إذا سقط وغرب.

وقوله تعالىٰ: (﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝﴾) أي[٥] بمساقطها،

---

(١) المفردات للراغب ص ١٠٦.

(٢) أنوار التنزيل ٥/ ٣١٥.

(٣) السابق ٥/ ٢٩٠.

(٤) السابق ٥/ ١٥٧.

(٥) السابق ٥/ ١٨٢.

وتخصيص المغارب لِما في غروبها من زوال أثرها والدلالة على وجود مؤثِّر لا يزول تأثيرُه، أو بمنازلها ومجاريها (﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾) [الواقعة: ٧٥ - ٧٦] لِما في المقسَم به من الدلائل على عظيم القدرة وكمال الحكمة وفرط الرحمة، ومن مقتضيات رحمته أن لا يترك عباده سُدًى، وهو اعتراض في اعتراض، فإنه اعتراض بين القَسَم والمقسَم عليه، و«لو تعلمون» اعتراض بين الموصوف والصفة.

(فقد علمتَ أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأوَّلون والآخِرون، وما أقسم الله بها، فما ظنُّك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاقَ عليه وأضافها إليه فقال: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢﴾ [الذاريات: ٢٢].

وأثنى على المتفكِّرين فيه فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١] **وقال رسول الله ﷺ: ويلٌ لمَن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سَبَلته)** رواه الديلمي من حديث عائشة بلفظ: «ثم لم يتفكَّر فيها»، وقد تقدَّم قريبًا **(أي تجاوزها من غير تفكُّرٍ)** وقد تقدَّم نحوُه عن الأوزاعي.

(وذمَّ المعرضين عنها فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ ۝٣٢﴾) [الأنبياء: ٣٢] أي لا يتفكرون فيها.

(فأيُّ نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء؟ وهذه متغيِّرات على القرب، والسموات صِلاب شِداد، محفوظات عن التغيُّر إلى أن يبلغ الكتاب أجله، ولذلك سمَّاه الله تعالى محفوظًا فقال: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفٗا مَّحۡفُوظٗاۖ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢﴾) [النبأ: ١٢] أي ذات صلابة.

(وقال) تعالى: (﴿ءَأَنتُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا﴾) أي[1] أصعب (﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ﴾) ثم بيَّن شدته بقوله: (﴿بَنَىٰهَا ۝٢٧﴾) ثم بيَّن كيفية بنائه بقوله: (﴿رَفَعَ سَمۡكَهَا﴾) أي

(١) السابق ٥/ ٢٨٤.

جعل مقدار ارتفاعها من الأرض أو ثخنها الذاهب في العلوّ رفيعًا (﴿فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨﴾) [النازعات: ٢٧ - ٢٨] أي عدَّلها، أو جعلها مستوية، أو تمَّمها بما يتم به كمالُها من الكواكب والتداوير وغيرها، من قولهم: سوَّىٰ فلانٌ أمرَه: إذا أصلحه.

(**فانظر إلىٰ الملكوت لترىٰ عجائب العز والجبروت، ولا تظن أن معنىٰ النظر إلىٰ الملكوت بأن تمدَّ البصر إليه فترىٰ زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرُّقها، فإن البهائم تشاركك في هذا النظر**) فإن قلتَ: لِمَ كانت السماء تُرَىٰ زرقاء وهي عند أهل الهيئة لا لون لها؟ فالجواب: أنها غير مرئيَّة، وما لا يُرَىٰ يُرَىٰ مظلمًا كمدًا، فالأعمىٰ إذا سُئل: ماذا ترىٰ؟ يقول: ظلام أسود. وإذا كانت بهذا الطريق سوداء وتحتها الهواء شفَّاف مضيء والبصر يخترقه، فتراه كأنَّه في السماء كما تتوهَّم الرطوبة في الشتاء في الكواكب، فيحصل من صفاء الهواء وظلمة البصر في السماء زرقة؛ لأنها شأن اختلاط الأسود بالصافي (**فإن كان هذا هو المراد فلِمَ مدح الله تعالىٰ**) في كتابه العزيز (**إبراهيمَ**) عليه السلام (**بقوله**: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٧٥] **لا، بل كل ما يُدرَك بحاسَّة البصر فالقرآن يعبِّر عنه بالمُلك والشهادة، وما غاب عن الأبصار فيعبِّر عنه بالغيب والملكوت، والله تعالىٰ عالم الغيب والشهادة، وجبَّار المُلك والملكوت، ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وهو عالم الغيب، فلا يُطلِع علىٰ غيبه أحدًا إلا مَن ارتضَىٰ من رسول**) وكل ذلك في القرآن (**فأطل أيها العاقل فكرك في الملكوت فعسىٰ تُفتَح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها**) وتعتبر بما فيها (**إلىٰ أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن**) ملاحظًا جلاله وعزَّه وكبرياءه (**فعند ذلك ربما يُرجَىٰ لك أن تبلغ رتبةَ عمر بن الخطاب** رضي الله عنه**، حيث قال: رأىٰ قلبي ربِّي**) وهكذا تكون الرؤية القلبية (**وهذا لأن بلوغ الأقصىٰ لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنىٰ، وأدنىٰ شيء إليك نفسك، ثم الأرض التي هي مقرُّك، ثم الهواء المكتنِف لك، ثم النبات والحيوان وما علىٰ وجه الأرض، ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض، ثم السموات السبع بكواكبها، ثم**

الكرسي، ثم العرش، ثم الملائكة الذين هم حَمَلة العرش وخُزَّان السموات، ثم منه تجاوزْ إلىٰ النظر إلىٰ رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما) العزيز القهَّار جلَّ جلالُه (فبينك وبينه هذه المفاوز الفِيح) أي الواسعة الأطراف (والمسافات الشاسعة) أي البعيدة (والعقبات الشاهقة) أي المرتفعة الصعبة (وأنت بعدُ لم تفرغ من العقَبة القريبة النازلة) بالإضافة إلىٰ بقية العقبات (وهي معرفة ظاهر نفسك، ثم صِرتَ تطلق اللسانَ بوقاحتك) وقلة حيائك (وتدَّعي معرفةَ ربِّك وتقول: قد عرفتُه وعرفتُ خلقه، ففي ماذا أتفكر؟ وإلىٰ ماذا أتطلَّع؟ فارفع الآن رأسك إلىٰ السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دورانها وطلوعها وغروبها وشمسها وقمرها واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤوبها في الحركة علىٰ الدوام من غير فتور في حركتها، ومن غير تغيُّر في سيرها، بل تجري جميعًا في منازل) معلومة (مرتَّبة) ترتيبًا غريبًا (بحساب مقدَّر لا يزيد ولا ينقص إلىٰ أن يطويها الله تعالىٰ طيَّ السِّجل للكتاب) كما قال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤] (وتدبَّرْ عددَ كواكبها وكثرتها) وعلماء[1] الأوائل لمَّا أرادوا تمييزها قسَّموا الفلك نصفين بالدائرة التي هي مَجرىٰ رؤوس برجَي الاستواء وهما الحَمَل والميزان، وسمَّوا أحد النصفين جنوبيًّا، والآخَر شماليًّا، وسمَّوا ما وقع منهما من الكواكب والمنازل كذلك، وسمَّت العربُ الشمالية شامية، والجنوبية يمانية، فمن الشمالية: بنات نعش الصغرىٰ، وهي سبعة كواكب، أربعة مربَّعة، منها الفرقدان وكوكبان آخران معهما. ومنها: بنات نعش الكبرىٰ، وهي أيضًا سبعة كواكب، الأول من البنات الذي هو في الطرف يسمَّىٰ: القائد، والأوسط: العِناق، والثالث الذي يلي النعش: الجون، وإلىٰ جانب الأوسط كوكب صغير يقال له: السُّهَىٰ والغيدق، وبالقرب من الفرقدين كوكبان مقترنان بينهما في رأي العين نحو قامة، إذا اعترض الفرقدان

(١) الأزمنة والأمكنة لأبي علي المرزوقي ص ٥٤٥ - ٥٥٥.

انتصبا، وإذا انتصب الفرقدان اعترضا، يسمَّيان: الحُرَّين والذَّنَبين والعوهقين، وقدَّامهما كواكب [صغار] تسمَّىٰ: أظفار الذئب. ومنها كوكبان فوق الجَدْي يسمَّيان: الفرق، وعند الأعلىٰ منهما كواكب صغار [خفيَّة] مستديرة تسمَّىٰ: القدر، ومنها: الأثافي، وهي كواكب ثلاثة أسفل من القدر، ومنها: القرحة، وهي كوكب أسفل من الفرق، وهي [مستقبلة] قِبلة الكوفة. ومنها: الهِلبة، وهي كواكب ملتفَّة متقاربة كأنَّها الثريَّا، وتسمَّىٰ أيضًا: السنبلة. ومنها: كوكب الأسد، وهو منفرد فيما بين الهلبة وبين البنات من بنات نعش الكبرىٰ. ومنها: الصرفة، وهو كوكب نيِّر منفرد علىٰ أثر الزبرة. ومنها: النوافز، وهي كواكب ثلاثة، كل نفزة منها كوكبان متقاربان، وتسمَّىٰ أيضًا: القرائن والثعيلبات. ومنها: الظبا، وهي كواكب خفيَّة مستطيلة مثل الحبل الممدود من الهلبة إلىٰ العيُّوق. وهنالك العوائذ، وهي كواكب أربعة مربَّعة في وسطها كوكب سحابيٌّ كأنَّه لطخة غيم يسمَّىٰ: الربع. ومنها: الفكة، وهي كواكب مستديرة فيها فرجة، والعامة تسمِّيها: قصعة المساكين، وبالقرب منها: رؤية السِّماك، وهو كوكب منتبذ يعارضه كوكبٌ بالقرب منه كأنَّه عذبة في رمح، ولذلك قيل له: الرامح وذو السلاح. ويقال لِما بين النسقين الشامي واليماني: الروضة، وفي داخلها كوكب أبيض منفرد يقال له: الراعي، وبالقرب منه كواكب صغار يقولون: هي غنمه يرعاها في الروضة. وفي أضعاف تلك الكواكب كوكب صغير وبَّاص يقولون: هو كلبه. ومنها: النسر الواقع، وهو كوكب أزهر خلفه كوكبان كأنَّهما وإياه أثافي قِدر. وهناك نسر آخر يقال له: الطائر، وهي ثلاثة كواكب مصطفَّة، والأوسط منها هو أنورها. ومنها: الفوارس، وهي كواكب أربعة مصطفَّة وراء النسر الواقع، ووراءها كوكب أزهر منفرد في وسط المجرَّة يسمَّىٰ: الرِّدف. ومنها: الصليب، وهي كواكب أربعة متقاربة مصلَّبة النظم بالقرب من النسر الطائر، وتسمَّىٰ أيضًا: القعود. ومنها: كفُّ الثريَّا الخضيب، وهي [كواكب] خمسة بِيض مختلفة النظم وراء الردف، وهي أيضًا سنام الناقة، وتحت الكف الخضيب كواكب غير مبيَّنة النظام هي جفرة الناقة، وهناك لطخة سحابيَّة هي وسم الناقة. ووراء

الكف الخضيب العيُّوقُ، وهو كوكب عظيم نيِّر في حاشية المجرَّة، ووراء العيوق كواكب ثلاثة زُهرٌ مصطفَّة منفرجة متقوِّسة تسمَّىٰ: توابع العيوق والأعلام. ومنها: العاتق، وهو كوكب نيِّر بالقرب من الثريَّا، ثم المنكب، ثم المرفق، وتحت المرفق كوكب صغير يسمَّىٰ: إبرة المرفق. ويقال لِما بين المرفق والمنكب: عضُد الثريا، وبعد المرفقِ المعصمُ، ويقال لِما بين المرفق والمعصم: الساعد والسُّوَيعِد. وهناك كوكب نيِّر في صورة مثلَّثة يسمَّىٰ: رأس الغول، وبالقرب منه كوكب نيِّر منفرد يسمَّىٰ: عناق الثريا[١]، وعند بنات نعش كوكب يقال له: [رأس] الحية، وعند أسفله كوكب أحمر يقال له: الذيخ، وهناك كواكب أُخَر يقال لها: الضباع، وأولاد الضباع كواكب صغار عن يمين الضباع، والشاء كواكب صغار بين القرحة والجدي. والراعي كوكب أنور من كواكب الشاء. والخباء كواكب أسفل من الحوض[٢]، وخلف العاتق كوكبان يسمَّيان: المرجف والبرجس، وهما تحت المجرَّة. فهذه جملة الكواكب المشهورة من الشامية. وأما الكواكب اليمانية فمنها منكبا الجوزاء، الأيمن منهما كوكب أحمر وهو مرزم الجوزاء، والأيسر يسمَّىٰ: الناجذ. وفي وسط الجوزاء كواكب بِيض ثلاثة تسمَّىٰ: النظم، ومنها: رجل الجوزاء اليمنىٰ: كوكب أبيض صغير، واليسرىٰ كوكب أبيض وبَّاص أكبر من اليمنىٰ، وتحت كل واحد منهما كواكب أربعة تسمَّىٰ: كرسي الجوزاء. وفوق رأس الجوزاء كواكب صغار تسمَّىٰ: تاج الجوزاء وذوائب الجوزاء. ومنها: الشِّعْرَىٰ العبور، وهو كوكب عظيم وبَّاص أسفل الجوزاء علىٰ اليسار. وهناك ثلاثة كواكب بِيض مختلفة التثليث تسمَّىٰ: عذرة الجوزاء، وخمسة أخرىٰ تسمَّىٰ: العَذارَىٰ، وهي في حاشية المجرَّة [الغربية]. ومنها: الخيل، وهي كواكب أكثر من العشرة نيِّرة، وفيها ستة [كواكب] في ثلاثة أمكنة متفرقة، في كل مكان منها كوكبان، وبين كواكب الخيل كواكب صغار تسمَّىٰ: أفلاء الخيل، وهي كلها بين يدي الشولة فوق المجرَّة وأسفل

---

(١) في المطبوعة: عناق الأرض. والمثبت من الأزمنة والأمكنة.

(٢) في الأزمنة والأمكنة: أسفل من أولاد الضباع.

من [الخيل. ومن] شولة العقرب كواكب تسمَّىٰ: القبَّة، وبين الزبانيين وبين عرش السِّماك كواكب مجتمعة نيِّرة علىٰ غير نظم تسمَّىٰ: الشماريخ. ومنها: سُهَيل، وهو كوكب عظيم منير أحمر، منفرد عن الكواكب، ولقرب مَجراه من الأفق تراه أبدًا كأنَّه يضطرب، وهو في سَمْت الشعرىٰ العبور. وفي مَجرىٰ سهيل كوكبان يقال لهما: حضار والوزن، وهما يطلعان قبل سهيل. وفي مجرىٰ قدمَي سهيل كواكب زُهرٌ تسمَّىٰ: الأعيار. ومنها: السعودات، وهي ستة متناسقة في جهة الدلو، وكل سعد منها كوكبان، وهي كواكب خفية غير نيِّرة، منها سعد ناشرة، ثم سعد الملك، ثم سعد البهام، ثم سعد الربق، ثم سعد البارع، ثم سعد مطر. ومنها: الشراسيف، وهي كواكب مستطيلة مثل الحبل، وبعدها كواكب مستديرة متبدِّدة يقال لها: المعلف. ومنها: الصردان، واليمامتان، والقَطا، والظليمان. ومنها: السفينة، وهي كواكب خفيَّة متتابعة مقدمها عند سعد البهام، ومؤخرها عند السمكة، وفي مقدمها الضفدع الأولىٰ، وفي مؤخرها الضفدع الثانية. فهذه مشاهير الكواكب اليمانية، وقد ميَّز قدماء العلماء كواكب السماء علىٰ وجه الدهر فجعلوها في منازل سبعة من الأقدار، فجعلوا كبارها في القدر الأول، وهي التي تسمِّيها [العرب]: الدراري، والزهرة والشعرىٰ العبور هما أنور نجوم السماء، والذي أحصىٰ العلماءُ من دراري النجوم كلها سوىٰ الخمسة المتحيِّرة خمسة عشر كوكبًا، وهي التي في القدر الأول من العظم، وهي: الشعريان، وسهيل، والمحنَّث، والعيُّوق، والسِّماكان، والدبران، وقلب الأسد، والنسر الواقع، والصرفة، ومنكب الجوزاء ورجلها. وما دون هذه وهي في القدر الثاني من العِظَم خمسة وأربعون كوكبًا وهي كالفرقدين وبنات نعش الكبرىٰ والردف ورأس الغول والعناق وقلب العقرب والنسر الطائر، وثلاثة من العراقي وكوكبَي الذراع المبسوطة، وثلاثة كواكب من الجبهة والفرد، وأشباه هذه مما تركنا ذِكره لقلة الحاجة إليه في هذا الموضع، وكذلك تركنا ذِكر سائر ما في الأقدار الباقية؛ لأن هذا الكتاب ليس من مواضع ذِكرها. وأما المجرَّة فهي أم النجوم؛ لكثرة عدد نجومها، وتسمَّىٰ أيضًا: القديمة.

(و) انظر إلىٰ (اختلاف ألوانها، فبعضها يميل إلىٰ الحمرة) كأنَّه شعلة نار (وبعضها إلىٰ البياض) الناصع (وبعضها إلىٰ اللون الرصاصي) كأنَّه لطخُ سحابٍ، كما تقدم ذلك (ثم انظر كيفية أشكالها، فبعضها علىٰ صورة العقرب، وبعضها علىٰ صورة الحَمَل والثور والأسد) والسرطان والجدي والحوت، وهي البروج السبعة (والإنسان) قال الدينوري: ويشبَّه الجوزاء بصورة الإنسان في المنظر، وهو البرج الثالث. وقد تقدم ذِكرُ كواكب الجوزاء (وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء) ويزيد صورًا كثيرة لا يوجد لها مثال في الأرض (ثم انظر إلىٰ مسير الشمس في فلكها في مدة سنة، ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخَّرها له خالقُها) جلَّ وعلا (ولولا طلوعها وغروبها لَما اختلف الليل والنهار) واختلافهما من الآيات (ولم تُعرَف المواقيت) قال الله تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩] (ولأطبق الظلامُ علىٰ الدوام أو الضياء علىٰ الدوام فكان لا يتميَّز وقت المعاش عن وقت الاستراحة، فانظر كيف جعل الله الليل لباسًا) أي[١] غطاء يستتر بظلمته مَن أراد الاختفاء (والنهار معاشًا) أي وقت معاش يتقلَّبون فيه لتحصيل ما يعيشون به.

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة[٢] عن ابن عمرو قال: لو أن الشمس تجري مجرًىٰ واحدًا ما انتفع أحدٌ من أهل الأرض بشيء منها، ولكنها تحلِّق في الصيف وتعترض في الشتاء، فلو أنها طلعت مطلعها في الشتاء في الصيف لأنضجهم الحرُّ، ولو أنها طلعت مطلعها في الصيف في الشتاء لقطعهم البردُ.

(وانظر إلىٰ إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل، وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما علىٰ ترتيب مخصوص) فيدخل[٣] الليل في النهار حتىٰ يكون النهار خمس

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ٥/ ٢٧٨.

(٢) العظمة ٤/ ١١٥٥.

(٣) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧. معالم التنزيل للبغوي ٢/ ٢٤. جامع البيان للطبري ٥/ ٣٠٥ - ٣٠٧. الكشف والبيان للثعلبي ٣/ ٤٥.

عشرة ساعة، ويولج النهار في الليل حتىٰ يكون الليل خمس عشرة ساعة والنهار تسع ساعات، فما نقص من أحدهما زاد في الآخر، وذلك بحسب مطالع الليل ومغاربه[1] **(وانظر إلىٰ إمالته مسير الشمس عن وسط السماء حتىٰ اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف، فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواءُ وظهر الشتاء، وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ، وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمانُ)** اعلمْ[2] أن مشرق [الصيف مطلع] الشمس في أطول يوم في السنة، وذلك قريب من مطلع السِّماك الرامح، وكذلك مغرب الصيف هو علىٰ نحو ذلك من مغرب السماك الرامح، ومشرق الشتاء مطلع الشمس في أقصر يوم من السنة، وهو قريب من مطلع قلب العقرب، وكذلك مغرب الشتاء هو علىٰ نحو ذلك من مغرب قلب العقرب. فمشارق الأيام ومغاربها في جميع السنة هي كل ما بين هذين المشرقين والمغربين، فإذا طلعت الشمس من أخفض مطالعها في أقصر يوم من السنة لم تزل بعد ذلك ترتفع في المطالع، فتطلع كل يوم من مطلع فوق مطلعها بالأمس طالبةً مشرق الصيف، فلا تزال علىٰ ذلك حتىٰ تتوسَّط المشرقين، وذلك عند استواء الليل والنهار في الربيع، فذلك مشرق الاستواء، وهو قريب من مطلع السماك الأعزل، ثم تستمر علىٰ حالها من الارتفاع في المطالع إلىٰ أن تبلغ مشرقَ الصيف الذي بيَّناه[3]، فإذا بلغتْه كرَّت راجعةً في المطالع، منحدرة نحو مشرق الاستواء، حتىٰ إذا بلغته استوىٰ الليل والنهار في الخريف، ثم استمرت منحدرةً حتىٰ تبلغ منتهَىٰ مشارق الشتاء الذي بيَّناه [ثم ترجع] فهذا دأبها، وكذلك شأنها في المغارب علىٰ قياس ما ذكرنا في المطالع.

---

(١) كذا في النسخ المخطوطة من البصائر، والذي في مفردات الراغب ص ٥٣٢: بحسب مطالع الشمس ومغاربها. وهو الصواب الذي أثبته محقق البصائر.

(٢) الأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة ص ١٤٥ - ١٤٦ (ط - دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد). الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ص ١٥٢.

(٣) في الأنواء (في الموضعين): الذي هو غايتها.

(وعجائب السموات لا مَطمع في إحصاء عُشر عشير جزء من أجزائها، وإنما هذا تنبيه علىٰ طريق الفكر، واعتقِدْ علىٰ الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالىٰ حِكَمٌ كثيرة في خلقه، ثم في مقداره، ثم في شكله، ثم في لونه، ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبُعده، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبُعده) والمراد بوسط السماء المجرَّة المسمَّاة بأم النجوم، وهي دائرة متصلة اتصال الطوق، وتسمَّىٰ أيضًا: منطقة الفَلك (وقِسْ ذلك بما ذكرناه من أعضاء بدنك؛ إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة، بل حِكَم كثيرة، وأمر السماء أعظم، بل لا نسبة لعالَم الأرض إلىٰ عالم السماء لا في كبر جسم ولا في كثرة معانيه، وقِس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض، فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي علىٰ أن يدركها ويدور بجوانبها، وقد اتفق الناظرون) أهل النظر من علماء الأوائل (علىٰ أن الشمس مثل الأرض مائة ونيِّف وستون مرة) قال الدينوري: يقال: إن الأرض جزء من مائة وستة وسبعين جزءًا من الشمس، والقمر جزء من ستة آلاف وثلاثمائة وستة وثلاثين جزءًا من الشمس (وفي الأخبار ما يدل علىٰ عِظَمها) قال العراقي[١]: روىٰ أحمد[٢] من حديث عبد الله بن عمرو: رأىٰ رسول الله الشمس حين غربت فقال: «في نار الله الحامية، لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأهلكت ما علىٰ الأرض». وفيه مَن لم يُسَمَّ. وللطبراني في الكبير[٣] من حديث أبي أمامة: «وُكِّل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم، لولا ذلك ما أتت علىٰ شيء إلا أحرقته». انتهىٰ.

قلت: حديث عبد الله بن عمرو أخرجه كذلك ابن أبي شيبة وابن منيع وأبو يعلىٰ وابن جرير[٤] وابن مردويه بلفظ: لأحرقت، بدل: لأهلكت.

---

(١) المغني ٢/ ١١٩٦.

(٢) مسند أحمد ١١/ ٥٢٦.

(٣) المعجم الكبير ٨/ ١٩٧.

(٤) جامع البيان ١٥/ ٣٧٨.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه والحاكم[١] وصحَّحه من حديث أبي ذر قال: كنت ردف النبي ﷺ وهو علىٰ حمار، فرأىٰ الشمس حين غربت فقال: «أتدري أين تغرب الشمس»؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تغرب في عين حامئة».

وأما حديث أبي أمامة فأخرجه كذلك أبو الشيخ في العظمة[٢] وابن مردويه في التفسير.

(والكواكب التي تراها) بعينك **(أصغرها مثل الأرض ثمان مرات، وأكبرها ينتهي إلىٰ قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض)** قال الدينوري: يقال: إن القمر جزء من ستة وثلاثين جزءًا من الأرض، والأرض جزء من مائة وستة وسبعين جزءًا من الشمس **(وبهذا تعرف ارتفاعها وبُعدها)** عن الأرض **(إذ للبعد صارت تُرَىٰ صغارًا، ولذلك أشار الله تعالىٰ إلىٰ بُعدها فقال:** ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾﴾ [النازعات: ٢٨] **وفي الأخبار أن بين كل سماء إلىٰ أخرىٰ مسيرة خمسمائة عام)** قال العراقي[٣]: رواه الترمذي[٤] من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال: غريب. قال: ويُروَىٰ عن أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد قالوا: لم يسمع الحسن من أبي هريرة. ورواه أبو الشيخ في العظمة[٥] من رواية أبي نصر عن أبي ذر، ورجاله ثقات، إلا أنه لا يُعرَف لأبي نصر سماع من أبي ذر. انتهىٰ.

قلت: وقد رواه البزار[٦] كذلك فيما أخبر به عمر بن أحمد بن عقيل، أنا

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ٢/ ٢٩٣.

(٢) العظمة ٤/ ١١٥٤.

(٣) المغني ٢/ ١١٩٦.

(٤) سنن الترمذي ٥/ ٣٢٦ - ٣٢٧.

(٥) العظمة ٢/ ٥٥٨.

(٦) مسند البزار ٩/ ٤٦٠.

عبد الله بن سالم، أخبرنا محمد بن العلاء الحافظ، أنبأنا علي بن يحيىٰ، أنا يوسف ابن عبد الله، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي بكر الحافظ قال: أخبرني عبد الرحمن ابن أبي الحسن الأنصاري شفاهًا، عن إبراهيم بن أحمد المقري، عن أحمد ابن أبي طالب، أنبأنا جعفر بن عليٰ، عن محمد بن عبد الرحمن الحضرمي، أخبرنا أبو محمد ابن عَتَّاب، حدثني أبي، أنبأنا سليمان بن خلف إجازةً، أنبأنا أبو عبد الله ابن الفرج، أخبرنا محمد بن يحيىٰ بن حبيب، حدثنا الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا محمد بن معمر، حدثنا محاضر - هو ابن المورع - حدثنا الأعمش، عن عمرو بن مرَّة، عن أبي نصر، عن أبي ذر رفعه: «كِثَفُ الأرض مسيرة خمسمائة عام، وبين الأرض العليا والسماء الدنيا خمسمائة عام، وكِثَفُها مثل ذلك، وكِثَفُ الثانية مثل ذلك، وما بين كل أرضين مثل ذلك ...» إلىٰ أن قال: «ثم ما بين السماء السابعة إلىٰ العرش مثل ذلك». هذا حديث رجاله ثقات، أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده عن أبي معاوية عن الأعمش به. قال البزار: ولا نعلمه [يُروَىٰ] عن أبي ذر إلا بهذا الإسناد، وأبو نصر أحسبه حميد ابن هلال، ولم يسمع من أبي ذر. انتهىٰ. قلت: وقيل: مجذر بن شيبة، وقيل: لا يُعرَف، وهو من رجال النسائي.

وروىٰ أحمد[1] والترمذي[2] - وقال: غريب - والنسائي وابن ماجه وابن حبان[3] وأبو الشيخ في العظمة[4] وابن أبي الدنيا في صفة الجنة[5] وابن جرير[6] وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في البعث[7] والضياء في المختارة من حديث أبي

---

(١) مسند أحمد ١٨/ ٢٤٧.

(٢) سنن الترمذي ٤/ ٣٠٢، ٥/ ٣٢٣.

(٣) صحيح ابن حبان ١٦/ ٤١٨ - ٤١٩.

(٤) العظمة ٢/ ٦٧٩، ٣/ ١٠٩٦.

(٥) صفة الجنة ص ١٣٥.

(٦) جامع البيان ٢٢/ ٣١٩.

(٧) البعث والنشور ص ٢٠١.

سعيد في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ۝٣٤﴾ [الواقعة: ٣٤]: «والذي نفس محمد بيده إن ارتفاعها كما بين السماء والأرض، وإن ما بين السماء والأرض لَمسيرةُ خمسمائة عام».

وروىٰ أحمد في مسنده[١] من حديث العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلىٰ سماء مسيرة خمسمائة سنة، وكِثَفُ كل سماء خمسمائة سنة ...» الحديث.

(فإذا كان هذا مقدار كوكب واحد من الأرض، فانظر إلىٰ كثرة الكواكب، ثم انظر إلىٰ السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلىٰ عِظَمها، ثم انظر إلىٰ سرعة حركتها وأنت لا تحس بحركتها فضلاً عن أن تدرك سرعتها، لكن لا تشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب؛ لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلىٰ تمامه يسيرٌ، وكذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة، فقد دار الفَلَكُ في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة، وهكذا يدور علىٰ الدوام وأنت غافل عنه، وانظر كيف عبَّر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ عن سرعة حركته؛ إذ قال له النبي ﷺ: هل زالت الشمسُ؟ فقال: لا نعم. فقال: كيف تقول لا نعم؟ فقال: من حين قلتُ «لا» إلىٰ أن قلتُ «نعم» سارت الشمس) مسيرة **(خمسمائة عام)** هكذا ذكره صاحب القوت، وقد تقدم في آداب السفر[٢]. وقال العراقي[٣]: لم أجد له أصلاً.

(فانظر إلىٰ عِظَم شخصها، ثم إلىٰ خفَّة حركتها، ثم انظر إلىٰ قدرة الفاطر الحكيم) جلَّ جلالُه **(كيف أثبت صورتَها مع اتساع أكنافها)** وبُعدِ أقطارها **(في حَدَقة العين)** الباصرة **(مع صغرها حتىٰ تجلس علىٰ الأرض وتفتح عينيك نحوها**

---

(١) مسند أحمد ٣/ ٢٩٢.

(٢) بل في كتاب الصلاة.

(٣) المغني ٢/ ١١٩٦.

فترىٰ جميعها، فهذه السماء بعِظَمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها، بل انظر إلىٰ بارئها كيف خلقها) فسوَّاها (ثم أمسكها) عن أن تقع علىٰ الأرض (من غير عمد ترونها) ولا سِناد يسندها (ومن غير علاقة من فوقها)(١) تجرُّها (وكل العالَم كبيت واحد والسماء سقفه، فالعجب [منك](٢) أنك تدخل بيت غني) من ذوي الأموال (فتراه مزوَّقًا بالصبغ) المختلف (مموَّهًا بالذهب فلا ينقطع تعجُّبُك منه، ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمرك، وأنت أبدًا تنظر إلىٰ هذا البيت العظيم وإلىٰ أرضه وإلىٰ سقفه وإلىٰ هوائه وإلىٰ عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه) وأنواع مزخرَفاته (ثم لا تتحدَّث فيه، ولا تلتفت بقلبك إليه، فما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه) وتذكر محاسنه (بل ذلك البيت هو أيضًا جزء من الأرض التي هي أخسُّ أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه، ليس له سبب إلا أنه بيت ربِّك، هو الذي انفرد ببنائه وترتيبه، وأنت قد نسيت نفسك وربَّك وبيت ربك واشتغلت ببطنك وفرجك، ليس لك همٌّ إلا شهوتك أو حشمتك، وغاية شهوتك أن تملأ بطنك) بأنواع الأطعمة (ولا تقدر علىٰ أن تأكل عُشر ما تأكله بهيمة، فتكون البهيمة فوقك بعشر درجات، وغاية حشمتك أن يُقبِل عليك عشرة أو مائة من معارفك فينافقون بألسنتهم بين يديك، ويضمرون خبائث الاعتقادات عليك، وإن صدقوك في مودَّتهم إيَّاك فلا يملكون لك ولا لأنفسهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا) بل عاجزون عن ذلك كلِّه (وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارىٰ مَن يزيد جاهُه علىٰ جاهك) ومالُه علىٰ مالك (وقد اشتغلتَ بهذا الغرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض، ثم غفلت عن التنعُّم بالنظر إلىٰ جلال مالك الملكوت والمُلك) جلَّ جلالُه (وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جُحْرها الذي حفرتْه في قصر مشيد من قصور

---

(١) في أ: من غير علاقة تدلي بها. وفي ط المنهاج ٩/ ٣٠١: من غير علاقة من فوقها تدلي بها.
(٢) زيادة من أ، وب، وط المنهاج.

الملك، رفيع البنيان، حصين الأركان، مزيَّن بالجواري والغلمان وأنواع الذخائر والنفائس، فإنها إذا خرجت من جُحْرها ولقيت صاحبتها لم تتحدَّث لو قدرت علىٰ النطق إلا عن بيتها وغذائها وكيفية ادِّخارها، فأمَّا حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمعزل عنه وعن التفكُّر فيه، بل لا قدرة لها علىٰ المجاوزة بالنظر من نفسها وغذائها وبيتها إلىٰ غيره، وكما غفلت النملة عن القصر وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضًا عن سكَّانه فأنت أيضًا) أيها المسكين **(غافل عن بيت الله تعالىٰ وعن ملائكته الذين هم سكَّان سمواته، فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك، ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه النملة منك ومن سكَّان بيتك. نعم، ليس للنملة طريق إلا أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه، وأما أنت فلك قدرة علىٰ أن تجول في الملكوت وتعرف من عجائبه ما الخَلقُ غافلون عنه)** ومن[1] كلام أمير المؤمنين عليٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فمن شواهد خلقِه خلقُ السموات موطَّدات بلا عَمَد، قائمات بلا سند، دعاهنَّ فأجبنَ طائعات مذعنات، غير متلكِّئات ولا مبطئات، ولولا إقرارهنَّ له بالربوبية وإذعانهن له بالطواعية لَما جعلهن موضعًا لعرشه، ولا سكنًا لملائكته، ولا مَصعدًا للكلم الطيب والعمل الصالح من خلقه، جعل نجومها أعلامًا يستدلُّ بها الحيرانُ في مختلف فِجاج الأقطار، لم يمنع ضوءَ نهارها ادلهمامُ سُجُفِ الليل المظلم، ولا استطاعت جلابيب سواد الحَنادِس أن تردَّ ما شاع في السموات من تلألؤ نور القمر، فسبحان مَن لا يخفَىٰ عليه سوادُ غَسَقٍ داجٍ ولا ليلٍ ساجٍ في بقاع الأرضين المتطأطئات، ولا في يفاع السُّفْع المتجاورات، وما يتجلجل به الرعد في أفق السماء، وما تلاشت عنه بروق الغمام، وما يسقط من ورقة تزيلها عن مسقطها عواصف الأنواء وانهطال السماء، يعلم مَسقط القطرة ومقرَّها، ومَسحب الذرَّة ومَجرَّها، وما يكفي البعوضةَ من قوتها، وما تحمل من أنثىٰ في بطنها.

---

(١) شرح نهج البلاغة ١٠/ ٢٦٧، ٢٧٠.

وقال[١] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة السماء: ونظمَ بلا تعليقٍ رَهَواتِ فُرَجها، ولاحَمَ صدوعَ انفراجها، ووشَّجَ بينها وبين أزواجها، وذلَّل للهابطين بأمره والصاعدين بأعمال خلقِه حُزونةَ معراجها، وناداها بعد إذ هي دخان، فالتحمتْ عُرَىٰ أشراجها، وفتقَ بعد الارتتاق صوامتَ أبوابها، وأقام رَصَدًا من الشُّهُب الثواقب علىٰ نِقابها، وأمسكها من أن تمور في خرق الهواء بأَيْده، وأمرها أن تقف مستسلمة لأمره، وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها، وقمرها آية ممحوَّة من ليلها، وأجراهما في مَناقل مَجراهما، وقدَّر سيرَهما في مَدارج درجَيْهما؛ ليميِّز بين الليل والنهار بهما، وليُعلَم عدد السنين والحساب بمقاديرهما، ثم علَّق في جوِّها فلكها، وناطَ بها زينتَها في خفيَّات دَراريها ومصابيح كواكبها، ورمىٰ مستَرِقي السمع بثواقب شُهُبها، وأجراها علىٰ أذلال تسخيرها من ثبات ثابتها ومسير سائرها وهبوطها وصعودها ونُحوسها وسُعودها.

وقال[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفة الملائكة: ثم خلق سبحانه لإسكان سمواته وعمارة الصفيح الأعلىٰ من ملكوته خلقًا بديعًا من ملائكته، ملأ بهم فروج فِجاجها، وحشا بهم فتوقَ أجوائها، وبين فجوات تلك الفروج زَجَلُ المسبِّحين منهم في حظائر القدس وسُترات الحُجُب وسُرادقات المجد، ووراء ذلك الرجيج الذي تستكُّ منه الأسماعُ سُبُحات نورٍ تردع الأبصارَ عن بلوغها فتقف خاسئةً علىٰ حدودها. أنشأهم علىٰ صور مختلفات وأقدار متفاوتات أولي أجنحة تسبِّح جلالَ عزَّته، لا ينتحلون ما ظهر في الخَلق من صنعه، ولا يدَّعون أنهم يخلقون شيئًا معه ممَّا انفرد به، بل عباد مكرَمون، لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون، جعلهم الله فيما هنالك أهل الأمانة علىٰ وحيه، وحمَّلهم إلىٰ المرسَلين ودائعَ أمره ونهيه، وعصمهم من رَيْب الشُّبهات، فما منهم زائغٌ عن سبيل مرضاته، وأمدَّهم بفوائد المعونة، وأشعر

---

(١) السابق ٦/ ٤٤٠.

(٢) السابق ٦/ ٤٤٢ - ٤٤٤.

قلوبَهم تواضع إخبات السكينة، وفتح لهم أبوابًا ذُلُلاً إلىٰ تماجيده، ونصب لهم منارًا واضحة علىٰ أعلام توحيده، لم تثقلهم مؤصِراتُ الآثام، ولم ترتحلهم عُقَبُ الليالي والأيام، ولم تَرْمِ الشكوكُ بنوازعها عزيمةَ إيمانهم، ولم تعترك الظنونُ علىٰ معاقد يقينهم، ولا قدحت قادحةُ الإحَن فيما بينهم، ولا سلبتهم الحيرةُ ما لاقَ من معرفته بضمائرهم وما سكن من عظمته وهيبة جلالته في أثناء صدورهم، ولم تطمع فيهم الوساوس فتقترع برَيْنها علىٰ فكرهم، منهم مَن هو في خلق الغمام الدُّلَّح وفي عِظَم الجبال الشُّمَّخ وفي قَتْرة الظلام الأيهم، ومنهم مَن قد خرقت أقدامُهم تخومَ الأرض السفلىٰ، فهي كَرايات بِيض قد نفذت في مخارق الهواء، وتحتها ريح هَفَّافة تحبسها علىٰ حيث انتهت من الحدود المتناهية، قد استفرغتهم أشغالُ عبادته، ووصلت حقائقُ الإيمان بينهم وبين معرفته، وقطعهم الإيقانُ به إلىٰ الوَلَه إليه، ولم تجاوز رغباتُهم ما عنده إلىٰ ما عند غيره، قد ذاقوا حلاوة معرفته، وشربوا بالكأس الرويَّة من محبَّته، وتمكَّنت من سُوَيداء قلوبهم وشيجةُ خيفته فحنوا بطول الطاعة اعتدالَ ظهورهم، ولم يُنفِد طولُ الرغبة إليه مادةَ تضرُّعِهم، ولا أطلق عنهم عظيمُ الزُّلْفة رِبَقَ خشوعهم، ولم يتولَّهم الإعجابُ فيستكثروا ما سلف منهم، ولا تركت لهم استكانةُ الإجلال نصيبًا في تعظيم حسناتهم، ولم تجرِ الفتراتُ فيهم علىٰ طول دؤوبهم، ولم تَغِضْ رغباتُهم فيخالفوا عن رجاء ربِّهم، ولم تجفَّ لطول المناجاة أَسَلات ألسنتهم، ولا ملكتهم الأشغالُ فتنقطع بهمس الجُؤار إليه أصواتُهم، ولم تختلف في مَقاوِم الطاعة مناكبُهم، ولم يَثْنُوا إلىٰ راحة التقصير في أمره رقابَهم، ولا تعدو علىٰ عزيمة جِدِّهم بَلادةُ الغفلات، ولا تنتضل في هِمَمهم خَدائعُ الشهوات، قد اتخذوا ذا العرش ذخيرة ليوم فاقتهم، ويمَّموه عند انقطاع الخَلق إلىٰ المخلوقين برغبتهم، لا يقطعون أمد غاية عبادته، ولا يرجع بهم الاستهتار بلزوم طاعته إلا إلىٰ موادَّ من قلوبهم غير منقطعة من رجائه ومخافته، لم تنقطع أسباب الشفقة منهم فينوا في جِدِّهم، ولم تأسرهم الأطماع فيؤثروا وشيكَ السعي علىٰ اجتهادهم [لم يستعظموا ما مضىٰ من أعمالهم] ولو استعظموا ذلك لنسخ الرجاءُ منهم شَفَقات

وَجَلهم، ولم يختلفوا في ربِّهم باستحواذ الشيطان عليهم، ولم يفرِّقهم سوءُ التقاطع، ولا تولاَّهم غِلُّ التحاسُد، ولا شعَّبتهم مصارفُ الرِّيَب، ولا اقتسمتهم أخياف الهِمَم، فهم أُسَراءُ إيمانٍ لم يفكَّهم من رِبْقته زيغٌ ولا عدول ولا وَنًىٰ ولا فتور، وليس في أطباق السموات موضع إهاب إلا وعليه ملَكٌ ساجد أو ساعٍ حافد، يزدادون علىٰ طول الطاعة بربهم علمًا، وتزداد عزةُ ربهم في قلوبهم عِظَمًا.

فصل في ذِكر ما ورد في الأخبار من ذِكر ملائكة الملكوت الأعلىٰ: روىٰ ابن مردويه من حديث ابن عباس(١): «أطَّت السماءُ، وحقٌّ لها أن تئط، والذي نفس محمد بيده ما فيها موضع شبر إلا وفيه جبهة ملَكٍ ساجد يسبِّح اللهَ بحمده».

وروىٰ أبو داود(٢) وابن ماجه(٣) من حديث عباس بن عبد المطلب: «فوق السماء السابعة بحرٌ ما بين أسفله وأعلاه مثل ما بين السماء إلىٰ السماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم ورُكَبهم مثل ما بين سماء إلىٰ سماء، ثم علىٰ ظهورهم العرش بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلىٰ سماء [ثم الله تعالىٰ] فوق ذلك».

وروىٰ أبو الشيخ في العظمة(٤) والبيهقي في الشعب(٥) والخطيب(٦) وابن عساكر(٧) من حديث رجل من الصحابة: «إن لله ملائكة ترعد فرائصُهم من مخافته، ما منهم ملَك تقطر من عينيه دمعةٌ إلا وقعت ملَكًا قائمًا يسبِّح، وملائكة

---

(١) بل من حديث أنس بن مالك، كما في كنز العمال ١٠/ ٣٦٤. وقد رواه أبو نعيم في حلية الأولياء ٦/ ٢٦٩ عنه بلفظ: «أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما منها موضع قدم إلا وبه ملك ساجد أو راكع أو قائم».

(٢) سنن أبي داود ٥/ ٢٣٧.

(٣) سنن ابن ماجه ١/ ١٩٢.

(٤) العظمة ٣/ ٩٩٤.

(٥) شعب الإيمان ٢/ ٢٧٩ حتىٰ قوله (يسبح).

(٦) تاريخ بغداد ١٤/ ٢٥٣.

(٧) تاريخ ابن عساكر ٤٠/ ٦١.

سجودًا منذ خلق الله السموات والأرض لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة، وملائكة ركوعًا لم يرفعوا رؤوسهم ولا يرفعونها إلىٰ يوم القيامة، وصفوفًا لم ينصرفوا عن مَصافِّهم ولا ينصرفون إلىٰ يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة تجلَّىٰ لهم ربُّهم فنظروا إليه وقالوا: سبحانك، ما عبدناك كما ينبغي لك».

وروىٰ الديلمي[1] من حديث ابن عمر: «إن لله تعالىٰ ملائكةً في السماء الدنيا خشوعًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة يقولون: سبحان ذي المُلك والملكوت. فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك. ولله ملائكة في السماء الثانية ركوعًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة [يقولون: سبحان ذي العزَّة والجبروت] فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك، ما عبدناك حقَّ عبادتك. ولله ملائكة في السماء الثالثة سجودًا منذ خُلقت السموات والأرض إلىٰ أن تقوم الساعة [يقولون: سبحان الحي الذي لا يموت] فإذا كان يوم القيامة يقولون: سبحانك، ما عبدناك حق عبادتك».

وروىٰ ابن لال في مكارم الأخلاق من حديث ابن عباس: «إن الله عَزَّوَجَلَّ أملاكًا خلقهم كيف شاء، وصوَّرهم علىٰ ما شاء تحت عرشه، ألهمهم أن ينادوا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها في كل يوم مرتين: ألا مَن وسَّع علىٰ عياله وجيرانه وسَّع الله تعالىٰ عليه في الدنيا، ألا مَن ضيَّق ضيَّق الله عليه، ألا إن الله قد أعطاكم لنفقة درهم علىٰ عيالكم سبعين قنطارًا، والقنطار مثل أُحُد وزنًا، أنفِقوا ولا تجمعوا ولا تضيِّقوا ولا تقتروا، وليكن أكثر نفقتكم يوم الجمعة»[2].

وروىٰ أبو الشيخ في العظمة[3] من حديث جابر: «إن لله تعالىٰ ملائكة ما بين

---

(١) ورواه البيهقي في شعب الإيمان ١/ ٣٢٥ بنحوه.

(٢) كنز العمال ٦/ ٤٤٢. ورواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب ١/ ١٨٥ مختصرا.

(٣) العظمة ٢/ ٧٣١. وهو في سنن أبي داود ٥/ ٢٣٩ بلفظ: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلىٰ عاتقه مسيرة سبعمائة عام».

شحمة أذن أحدهم إلىٰ ترقوته مسيرة سبعمائة عام للطير السريع الطيران». ورواه ابن عساكر[١] بلفظ: «إن لله ملائكة وهم الكروبيون من شحمة أذن أحدهم إلىٰ ترقوته مسيرة سبعمائة عام للطائر السريع في انحطاطه».

وروىٰ الديلمي من حديث ابن عباس: «إن لله ملَكًا نصف جسده الأعلىٰ ثلج، ونصفه الأسفل نار، ينادي بصوت رفيع: سبحان الله الذي كفَّ حرَّ هذه النار فلا تذيب هذا الثلج، وكفَّ بردَ هذا الثلج فلا يطفئ حرَّ هذه النار. اللهم يا مؤلِّفًا بين الثلج والنار ألِّفْ بين قلوب عبادك المؤمنين علىٰ طاعتك»[٢].

وروىٰ الديلمي من حديث أنس: «إن لله تعالىٰ بحرًا من نور، حوله ملائكة من نور، علىٰ خيل من نور، بأيديهم حِراب من نور، يسبِّحون حول ذلك البحر: سبحان ذي المُلك والملكوت، سبحان ذي العزَّة والجبروت، سبحان الحي الذي لا يموت، سُبُّوح قُدُّوس رب الملائكة والروح، فمَن قالها في يوم أو شهر أو سنة مرةً أو في عمره غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر ولو كانت ذنوبه مثل زَبَد البحر أو مثل رمل عالج أو فرَّ من الزحف»[٣].

(ولنقبض عنانَ الكلام علىٰ هذا النمط، فإنه مجال) واسع **(لا آخر له، ولو استقصينا أعمارًا طويلة لم نقدر علىٰ شرح ما تفضَّل الله علينا بمعرفته، وكل ما عرفناه)** فهو **(قليل نزر حقير بالإضافة إلىٰ ما عرفه جملة العلماء والأولياء)** والصالحين **(وما عرفوه)** فهو **(قليل نزر حقير بالإضافة إلىٰ ما عرفه الأنبياء عليهم السلام، وجملة ما عرفوه)** فهو **(قليل بالإضافة إلىٰ ما عرفه محمد نبيُّنا ﷺ، وما عرفه الأنبياء كلُّهم)** فهو **(قليل بالإضافة إلىٰ ما عرفته الملائكة المقرَّبون)** في حضرة

---

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ٦٠.

(٢) كنز العمال ٦/ ١٤٢.

وروواه أبو الشيخ في العظمة ٢/ ٧٥٠ بنحوه من حديث معاذ بن جبل والعرباض بن سارية.

(٣) كنز العمال ٢/ ٢١٨ - ٢١٩.

القدس (**كإسرافيل وجبريل وغيرهما**) عليهم السلام. وهذا يُشعِر بتفضيل الملائكة علىٰ الأنبياء، وهو مذهب المصنف، ولأئمَّة السنَّة فيه خلاف مبسوط في محلِّه (**ثم جميع علوم الملائكة والجن والإنس إذا أضيفَ إلىٰ علم الله سبحانه لم يستحقَّ أن يسمَّىٰ علمًا، بل هو إلىٰ أن يسمَّىٰ دهشًا وحيرة وقصورًا وعجزًا أقرب**) إذ[1] لا يعرف أحد حقيقة علم الله تعالىٰ إلا مَن له مثل علمه، وليس ذلك إلا له تعالىٰ، فلا يعرفه سواه تعالىٰ وتقدَّس، وإنما يعرفه غيره بالتشبيه بعلم نفسه، وعلمُ الله تعالىٰ لا يشبهه علمُ الخَلق البتَّة، فلا تكون معرفة الخلق به معرفة تامة حقيقية أصلاً، بل إيهامية تشبيهية، فنهاية معرفة العارفين عجزُهم عن المعرفة، ومعرفتهم بالحقيقة هي أنهم لا يعرفونه، وأنهم لا يمكنهم معرفته البتَّة، وأنه يستحيل أن يعرف اللهَ المعرفة الحقيقية المحيطة بكُنْه صفات الربوبية إلا الله تعالىٰ (**فسبحان مَن عرَّف عِبادَه ما عرَّف ثم خاطب جميعَهم فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾**) [الإسراء: ٨٥] فإذًا لا يحظىٰ مخلوقٌ من ملاحظة حقيقة ذاته إلا بالحيرة والدهشة (**فهذا بيان معاقد الجُمَل التي يجول فيها فكرُ المتفكِّرين في خلق الله تعالىٰ، وليس فيها فكرٌ في ذات الله تعالىٰ**) وقال صاحب القاموس في البصائر[2] نقلاً عن المشايخ: الفكرة فكرتان: فكرة تتعلَّق بالعلم والمعرفة، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة. فالتي تتعلق بالعلم والمعرفة فكرة التمييز بين الحق والباطل، والثابت والمنفيّ. والفكرة التي تتعلق بالطلب والإرداة هي الفكرة التي تميِّز بين النافع والضار. ثم تترتَّب عليها فكرة أخرىٰ في الطريق إلىٰ حصول ما ينفع فيسلكها، وطريق ما يضرُّ فيتركها. ولهم فكرة في عين التوحيد، وفكرة في لطائف الصنعة، وفكرة في معاني الأعمال والأحوال. فهذه ستة أقسام لا سابع لها هي مجال أفكار العقلاء، فالفكرة في التوحيد استحضارُ أدلَّته وشواهده الدالَّة علىٰ بطلان الشرك واستحالته، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين،

---

(١) المقصد الأسنىٰ للغزالي ص ٥٤ - ٥٩.

(٢) بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٤/ ٢١٢، نقلا عن مدارج السالكين لابن القيم ١/ ١٦٦.

فلذلك أبطلُ الباطلِ عبادةُ اثنين والتوكل علىٰ اثنين، بل لا تصلُح العبادة إلا للإله الحق والرب الحق وهو الله الواحد القهَّار **(ولكن يُستفاد من الفكر في الخَلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته)** أشار به إلىٰ أن اتساع المعرفة إنما يكون في معرفة أسمائه وصفاته، وفيها تتفاوت درجات الملائكة والأنبياء والأولياء في معرفته، وهذا أيضًا لا يعرفه بالكمال في الحقيقة إلا الله تعالىٰ (و) لكن **(كلَّما استكثرتَ من معرفة عجيب صنعِ الله كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم)** أي كلَّما ازداد العبد إحاطةً بتفاصيل المقدورات وعجائب الصنائع في ملكوت الأرض والسموات كان حظه من معرفة صفة القدرة أوفر وأتم؛ لأن الثمرة تدل علىٰ المثمر **(وهذا كما أنك تعظِّم عالمًا بسبب معرفتك بعلمه، فلا تزال تطَّلع علىٰ غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره)** وتزداد إحاطةً بتفاصيل علومه فيها **(فتزداد به معرفةً، وتزداد بحسنه له توقيرًا وتعظيمًا واحترامًا، حتىٰ إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاًّ في قلبك، ويستدعي التعظيمَ له في نفسك. فهكذا تأملْ في خلق الله وتصنيفه وتأليفه، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر والفكر فيه لا يتناهَىٰ أبدًا، وإنما لكل عبد منهما بقدْر ما رُزق)** وإلىٰ هذا يرجع تفاوت معرفة العارفين، ويتطرَّق إليه تفاوتٌ لا يتناهَىٰ، ومن هنا تعرف أن مَن قال: لا أعرف إلا الله، فقد صدق، ومَن قال: لا أعرف الله، فقد صدق، فإنه ليس في الوجود إلا الله تعالىٰ وأفعاله، فإذا نظر إلىٰ أفعاله من حيث هي أفعاله وكان مقصور النظر عليها ولم يرَها من حيث أنها سماء وأرض وشجر بل من حيث إنها صنعه فلم تجاوز معرفتُه حضرةَ الربوبية، فيمكنه أن يقول: ما أعرف إلا الله، وما أرىٰ إلا الله. ولو تُصوِّر شخص لا يرىٰ إلا الشمس ونورها المنتشر في الآفاق يصح أن يقول: ما أرىٰ إلا الشمس. فإن النور الفائض منها هو من جملتها، ليس خارجًا عنها، وكل ما في الوجود نور من أنوار القدرة الأزلية وأثرٌ من آثارها. وكما أن الشمس ينبوع النور الفائض علىٰ كل مستنير فكذلك المعنىٰ الذي قصرت العبارةُ عنه فعُبِّر عنه بالقدرة الأزلية للضرورة هو ينبوع الوجود الفائض علىٰ كل

موجود، فليس في الوجود إلا الله تعالىٰ، فيجوز أن يقول العارف: لا أعرف إلا الله تعالىٰ. ومن العجائب أن يقول: لا أعرف إلا الله تعالىٰ، ويكون صادقًا، ويقول: لا أعرف الله، ويكون أيضًا صادقًا، ولكن ذلك بوجه، وهذا بوجه، ولا تناقُض فيه؛ لاختلاف وجوه الاعتبارات.

(فلنقتصر علىٰ ما ذكرناه، ولنضف إلىٰ هذا ما فصَّلناه في كتاب الشكر، فإنَّا نظرنا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالىٰ من حيث هو إحسان إلينا وإنعام علينا، وفي هذا الكتاب نظرنا فيه من حيث إنه فعلُ الله) وصنعُه **(فقط، وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي)** الذي يذهب إلىٰ تأثير الطبائع في الأشياء **(ينظر فيه، ويكون نظرُه سبب ضلاله وشقاوته)** لقصوره علىٰ تأثير الطبائع عن بارئها جلَّ وعزَّ **(والموفَّق)** العارف **(ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته)** لأنه لا ينظر في الوجود إلا لله وصنعه **(وما من ذرَّة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالىٰ يُضِل بها مَن يشاء ويهدي بها مَن يشاء، فمَن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعلُ الله وصنعه استفاد منه المعرفةَ بجلال الله وعظمته واهتدىٰ به)** وكان مقامه فيها أتم **(ومَن نظر فيها قاصرًا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبِّب الأسباب فقد شقي وارتدَىٰ)** وسلك سبيل الرَّدَىٰ **(فنعوذ بالله من الضلال، ونسأله أن يجنِّبنا مَزلَّة)** أي موقع زللٍ **(أقدام الجُهَّال بمَنِّه)** تعالىٰ **(وكرمه وفضله وجوده ورحمته)** آمين.

وبه تم كتاب التفكر، والحمد لله رب السموات والأرضين، والصلاة والسلام علىٰ حبيبه محمد المرسَل إلىٰ كافَّة العالَمين وعلىٰ آله وصحبه وتابعيه إلىٰ يوم الدين.

قد نجز الفراغ من شرحه في السادسة من نهار الاثنين لأربع بقين من شهر صفر الخير من شهور سنة ١٢٠١. اللهم اختم بالصالحات أعمالَنا. وكتب أبو الفيض محمد مرتضىٰ الحسيني، غفر الله له بمَنِّه حامدًا لله مصليًا مسلِّمًا .. آمين.

فهرس موضوعات كتاب التفكر

٣٩ - كتاب التفكر